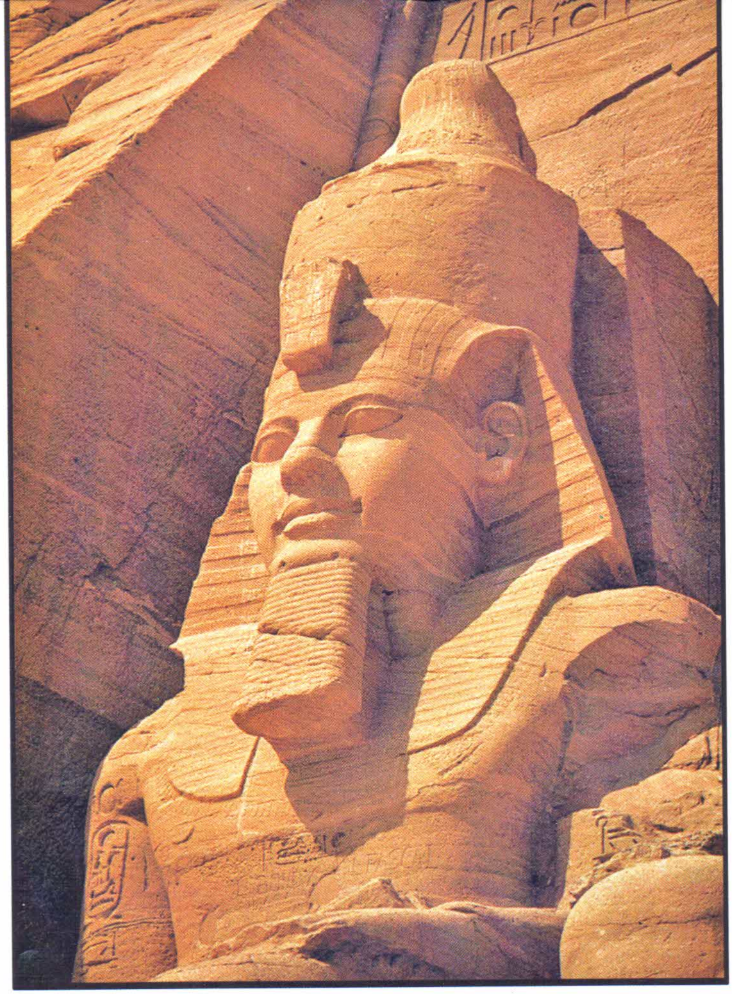


المشروع القومى للترجمة

المركز القومى للترجمة

الفراعنة

إمبراطورية الرعامسة

تأليف: كلير لالويت

ترجمة و تعليق: ماهر جويجاتى

1280



يروى هذا المجلد تاريخ مصر من خلال النصوص المصرية القديمة، إبان الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، وفى عهود عظماء هذا العصر، من أمثال سيتى الأول ورعمسيس الثانى ورعمسيس الثالث، وتأثيرهم الإيجابى على الحضارة الإنسانية والنظام العالمى.

كان المصرى القديم يحترم حياة الإنسان، وإذا اضطر أحيانًا إلى اللجوء إلى العنف والقسوة، فيما شنه من حروب دفاعية، فإن هذه الظاهرة كانت فى كثير من الأحيان مجرد عنف لفظى هدفه تدمير الأعداء تدميرًا سحريًا. فقد كان المصرى محبًا للسلام حتى وصفه بأجمل العبارات، كما أحسن معاملة الأجراء وأغدق عليهم بكل ما لذَّ وطاب.

ولا تقتصر عظمة ملوك الرعامسة على ما خاضوه من حروب، بل على ما شيَّدوه من عمائر؛ رغبة منهم فى قهر الموت وقوى الخواء والفوضى التى تحاصر الوجود. كما اهتموا بترميم آثار أجدادهم والحفاظ عليها، فكان أحد أبناء رعمسيس الثانى أول عالم مصريات فى التاريخ ومؤسس أول مصلحة آثار.

ويقدم الكتاب مقتطفات من أجمل الحكايات، وقصائد الشعر الغنائى؛ تعبيرًا عن حب المصرى القديم للحياة والجمال.



تصميم الغلاف: حسن كامل

الفراعنة ●●●

إمبراطورية الرعامسة

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد ١٢٨٠
- الفراعنة ... إمبراطورية الرعامسة
- كلير لالويت
- ماهر جويجاتى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

L'Empire des Ramsès

de: Claire LALOUETTE

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤-٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

E. Mail: egyptcouncit@yahoo.com Tel: 27354524-27354526 Fax: 27354554

الفراعنة...

إمبراطورية الرعامسة

تأليف : كلير لالويت
ترجمة وتعليق : ماهر جويجاتى

٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

لاويت، كلير
الفراعنة: إمبراطورية الرعامسة / تأليف: كلير لاويت، ترجمة وتعليق: ماهر جويجاتي. ط١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٧
٦٣٦ص؛ ٢٤سم
١- مصر القديمة - تاريخ
٢- الفراعنة
أ - جويجاتي، ماهر (مترجم، معلق)
ب- العنوان ٩٣٢

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٦٩١٧
الترقيم الدولي: 977-437-573-4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

إهداء

إلى الأسطول المصرى

الذى خاض أولى معاركه المظفرة

فى عهد رمسيس الثالث.

ماهر جويجاتى

المحتويات

تنويه للمترجم

١. عن بعض علامات الترقيم المستخدمة فى الترجمة الفرنسية، والتى التزمت بها فى ترجمتى العربية، أقول:

«إنه من المتفق عليه بين علماء الآثار أن ما يُكتب بين معقوفين على النحو الآتى [...] يدل على جزء مكسور أو مفقود أو غير مقروء فى النص المصرى القديم، وأن ما يكتب بين هذين المعقوفين هو اجتهاد من قارئ الوثيقة، أما ما يكتب بين قوسين على النحو الآتى (...) فهو إضافة ضرورية لتوضيح معنى النص المصرى القديم(*). أما علامة الاستفهام الموضوعة بين قوسين (؟) فتشير إلى أن معنى الكلمة السابقة غير مؤكد.

٢. إن المعنى المحدد لمصطلحى «أسطون» و«عمود» غير واضحين، فيقال أحيانًا بهو الأساطين، على سبيل المثال، أو بهو الأعمدة، للإشارة إلى العنصر المعمارى نفسه. وإنى أستخدم كلمة **عمود** كمقابل للفظ pilier فى الفرنسية أو pillar فى الإنجليزية لكل دعامة مربعة، كما استخدم لفظ **أسطون (وجمعها أساطين)** للدعائم ذات القطر المستدير كمقابل للفظ Colonne فى الفرنسية وColumn فى الإنجليزية، وهى الترجمة التى أخذ بها عالم المصريات الكبير الدكتور محمد أنور شكرى(**).

ماهر جويجاتى

(*) د. باهور لبيب: تشريح حور محب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ص٢٨، هامش٢.

Louis Speleers. Textes des Pyramides. Bruxelles, p.xvi.

(**) د. محمد أنور شكرى: العمارة فى مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص٩٣-٩٤.

توطئة

ما زال قدر كبير من المعالم الأثرية يعيد إلى أذهاننا، حتى يومنا هذا، عظمة الملوك **الرعامسة**، ونقصد تحديداً معابد: **الكرنك والأقصر وأبو سمبل.**

ظل **الرعامسة** يحكمون **مصر** على امتداد قرنين من تاريخها، فكانت سنوات مجيدة تبوأت خلالها البلاد مكانة مرموقة، دون أن ينازعها أحد، على امتداد **الشرق الأدنى**، حيث استطاع الفراعنة أن يُؤسسوا إمبراطورية مترامية الأطراف، ويفرضوا سيطرتهم على **إفريقيا**، فامتدت سلطة ملوك **مصر** لتصل إلى جنوب الجندل الرابع من نهر **النيل**. هكذا بزغ زمن **الملوك – الأبطال**، زمن ملحمة الملوك الفاتحين العظيمة. وصاغت الأيديولوچية الدينية أساطيرها الأكثر عمقًا، ووصلت الثقافة الأدبية والفنية إلى أوج ازدهارها.

إنهما قرنان من الزمن، مهَّد لهما بالتدريج ألفا سنة من التاريخ، فكانا بمثابة الرحم الذى تشكلا فيهما. ولذا، فقد أردت أن أستهل بهما هذا الكتاب لأشد انتباه القارئ، فى عجالة سريعة، مع التزامها بالدقة المطلوبة، حتى يزداد فهمًا، تأسيسًا على ذلك، بالترابط الذى لا ينفصم، الذى دفع بالضرورة بالأحداث إلى تأسيس الإمبراطورية المصرية التى جاءت نتيجة فكر سياسى ناضج مدعمًا بالإيمان بالآلهة.

كما وضعتُ نصب عينى أن أتيح للقارئ أن يتعرف عن كثب إلى أكبر قدر من النصوص المصرية التى يعود تاريخها إلى هذا العصر، لقد قمت بترجمة العديد منها، حتى يتمكن كل فرد من أن يدرك، على أحسن وجه، العبقرية الفذة التى تفردت بها أقدم حضارة عرفتها الإنسانية، فيما نعلم.

مصر أقدم بلد فى العالم، بلد استئثار على الدوام اهتمامًا فريدًا فى بابه، بفضل عراقته الضاربة فى القدم وسؤدده، وما يكتنفه منذ أمد بعيد من غموض وأسرار. بلد أصبح الجميع يعرفون الآن بأنه النبع الحى للحضارتين اليونانية والرومانية الكلاسيكيتين، فورثنا عنه جانبًا مما نحن(*) عليه.

وبالفعل، لم تكن **مصر** أبدًا منغلقة على نفسها، فلم تعرف «*هذه العزلة الرائعة*» التى تُنسب إليها أحيانًا، بل كانت تفتح أبوابها على مصاريعها، لتتصل بالعالم المحيط عبر البحار والصحارى وعبر الدروب والقنوات والمحيطات. فكانت المعبر العظيم فى العصور القديمة، الذى يربط مرتفعات **إفريقيا بالبحر المتوسط**، والسهوب الليبية بالعالم الأسيوى. فمن **السودان** إلى **الأناضول**، ومن **ليبيا** إلى **بلاد الرافدين**، كانت ملتقى الطرق، على الأصعدة التجارية والسياسية والروحية، على امتداد قرابة أربعة آلاف عام قبل الميلاد.

إنه تاريخ يتجاوز ثلاثة آلاف سنة. وبالنسبة لحضارة أصيلة، فهى الأكثر امتدادًا عبر الزمان، فى حدود معلوماتنا الراهنة، كما استطاعت أن تقاوم المؤثرات الأجنبية، لأنها حضارة جاءت تعبيرًا عن أيديولوچية، ومنظومة فكرية متكاملة، أمكن صياغتها شيئًا فشيئًا على ضفاف نهر **النيل**، فجاءت انعكاسًا لروحانية سامية لشعب له خصوصيته.

❖

كانت **مصر** بلدًا قُدِّر له أن يكون متميزًا، فتضم مجموعة أراضٍ متفردة لا نظير لها، محيطها واضح كل الوضوح، فتحدُّها الصحارى من هنا والبحار من هناك. إنها مجموعة أراضٍ تحتشد حول محور حياة واحد، هو وادى نهر **النيل**.

(*) أى أهل الغرب. (المترجم)

وعلى مدى البصر، تمتد رمال المناطق الشرقية **للصحراء الكبرى**، فكانت برارى أقل قحولة وجدوبة مما هى عليها فى الوقت الراهن، ترتع فيها كبرى الوحوش من فهود وأسود، فكانت ما إن يحل المساء تقترب اقترابًا تحفه المخاطر من منابع المياه ومصادرها؛ حيث ترتع أيضًا الماشية والأغنام كالحَيْرم(*) bubale والمها والظباء بقرونها اللولبية والغزلان بقرونها على هيئة القيثارة والضباع وبنات أوى، وكان البدو الرحل ينصبون لها الفخاخ والأشراك.

ولكن كان **النيل** أبو الآلهة والبشر يجلب إلى هذه الرمال الجدباء المياه واهبة الحياة، كما يأتى بالغرين المُخصب. إنه منَّة تتجدد سنويا فى زمن الفيضان، مع حلول فصل الصيف. إن الغرين الأسود المتثاقل هو التربة المحتوية على أكاسيد الحديد، والذى انتزع من أرض الحبشة، ويدفعه نهر **النيل** أمامه ببطء، من جندل إلى آخر، وصولاً إلى الجندل الأول، ثم إلى أرض **مصر**، وعندئذ يقوم بتوزيعه على ضفتيه. إن **حعبى**، وهو نهر **النيل** بعد أن أسبغت عليه القدسية، يصور فى هيئة كائن خنثوى، بنهدين متدليين وبطن منتفخ، وكأنه مرضعة ولود تقدمت بها السن، وقد حُمِّلت ساعداها بالزهور والفاكهة والأسماك.

قبل الألف الرابع كان الناس، وقد تجمعوا على ضفاف الوادى، يحيون على القنص وصيد النهر.

ولما كان المناخ فى هذه الأزمنة القديمة أكثر رطوبة، فقد أوجد مشهداً طبيعيا شديد الاختلاف، مقارنة بالذى نعرفه فى الوقت الراهن. كان الوادى العريض يعج بالمستنقعات، وتظلله على الجانبين غياض كثيفة من نبات البردى الذى تصل أزهاره الخيمية إلى ارتفاع ستة أمتار. وهنا كانت تأوى فونة(**) متنوعة بأعداد كبيرة، كثيرة الضجيج، قابلة للاستئناس، فكانت من مصادر الغذاء أو على قدر كبير من الخطورة،

(*) الحيرم bubale جنس حيوانات لبونة من بقر الوحش. المنجد فى اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت، ٢٠٠١. (المترجم)

(**) الفونة faune لفظ معرب، ويعنى أنواع الحيوان فى مكان بعينه أو زمان بعينه. مجمع اللغة العربية، المعجم الجغرافى، القاهرة، ١٩٧٤. (المترجم)

ومنها الثيران البرية أو المتوحشة المنقرضة والخنازير البرية وأفراس النهر والتماسيح والثعابين ومختلف أنواع الزواحف وأصناف لا حصر لها من الأسماك التى تسكن النهر. وفى الأزهار الخيمية تعشش العصافير ذات الريش المتنوع، كأبى منجل والبشروش والرفراف والسُّمَانَى والحمام والزقزاق والدورى والعقعق، فكانت تملأ بأصواتها ومطارداتها هذا «العالم الأصيل المتفرد»، بما يشكله من إكراه وخطورة، وإن كان مع ذلك عالمًا شديد الإغراء، فى نظر رجال الصحارى والسهوب. كانوا فى بداية الأمر بدوًا رُحَّلًا، يسعون وراء طعامهم من مكان إلى آخر، فحاولوا أن يستقروا فى هذه الواحة الزاخرة بنباتاتها، الممتدة مسافة ألف كيلومتر حتى تلامس شطآن **البحر المتوسط**.

ويفضل عمل فطن وصبور وحصيف، تعلموا شيئًا فشيئًا كيف يتحكمون فى الفيضان الذى كان يغمر المناطق المنخفضة طوال فصل الصيف. وبفضل نشاط طويل الأمد أبدعوا مشهداً طبيعيا جديداً، يتفق واحتياجات الإنسان. فشقوا القنوات التى اخترقت الرمال الجدباء، فاستطاعوا كبح جماح المياه الدافقة، لإتاحة الفرصة لانتشار الغرين ليغطى أوسع مساحة ممكنة، مع أكبر قدر من الفائدة. هكذا نشأت الزراعة فى المنطقة المحصورة بين النهر والصحراء، وعلى امتداد الوادى أنبتت الأرض القمح والشعير والكتان والكروم والمحاصيل الحقلية. وصنع الإنسان خبز القمح وجعة الشعير لتلبية احتياجاته اليومية من الغذاء، وغزل الكتان الضرورى لصنع ملابسه، وتعلم تدجين بعض حيوانات المستنقعات، فحصل على أعداد وفيرة من الماشية، لتسد أيضًا احتياجاته.

وتجمع البشر فى هيئة قُرى، واتحدت القرى. وفى عصر ما قبل التاريخ، يبدو أن مملكتين قد ظهرتا إلى الوجود، كانتا مطابقتين لمنطقتين طبيعيتين تنقسم إليهما البلاد: **مملكة مصر العليا** الممتدة من **أسوان** إلى **منف** - جنوب **القاهرة** الحالية - لمسافة أكثر من ثمانمئة كيلومتر. إنها شريط من الأراضى الخصبة تحدها ناحية الغرب المنحدر الصخرى لهضبة **الصحراء الغربية** وناحية الشرق تلال سلسلة جبال **الصحراء الشرقية**. إن مجموعة من الوديان الجانبية تربط هذه المملكة بسلسلة

الواحات غربًا وبالبحر الأحمر شرقًا. أما مملكة مصر السفلى شمالاً، فكانت مطابقة لدلتا النيل الذي ينبسط في هيئة مروحة ذات فروع ستة من بحيرة مريوط وحتى بحيرات بلوزيوم(*) الشاطئية. إنه سهل غريني شاسع يبلغ مئتي كيلومتر عمقًا، وينتهي عند ساحل البحر المتوسط.

إنهما قطران ومملكتان ونقطتا جذب في اتجاه مرتفعات إفريقيا وبلدان البحر المتوسط أيضًا.

وحول عام ٣٢٠٠ق.م قام ملك أوحد، هو نعرمر(**) ذائع الصيت بتوحيد المملكتين، ولكن سوف تظل مصر تحتفظ في جميع تقاليدها المتواترة بذكرى هذه الازدواجية الأولى.

ومع نعرمر استهلت مصر تاريخها، ومع النظام الملكي شرعت تعرف الازدهار. إن سلطة مركزية قوية ستعمل على توفير سياسة اقتصادية حقيقية؛ فمن الآن فصاعدًا، سيتمكن أبناء مصر من ضبط الفيضان وتنظيمه بطريقة أفضل، من خلال التنسيق بين مختلف البيانات التي تسجلها مقاييس النيل المنتشرة على امتداد النهر، وبفضل تعبئة آلاف الأيدي العاملة المزودة فقط بالقفف والمعاول للانتهاء من حفر شبكة الترع والقنوات. وإذا كانت جغرافية مصر تتحكم تحكمًا طبيعيا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للبلاد، فإنها تستوجب أيضًا بالضرورة وجود نظام سياسي ما. فإذا كان الملوك أقوياء عمَّ الثراء والسعادة البلاد. وفي زمن الرعامسة سوف تصل البلاد إلى أوج عظمتها وازدهارها. ولكن ما إن تعرف مصر ملكًا ضعيفًا حتى تعاني من تدهور الاقتصاد وتفشي المجاعات.

هكذا تأسست مصر. واسمها كمت بالمصرية القديمة، أي «*السوداء*». فالسواد هو لون الغرين واهب الخيرات، وفي المقابل هناك دشرت، أي «*الحمراء*»، فالأحمر هو لون الصحراء الجدباء المتوهجة تحت أشعة الشمس. ونتعرف على ازدواجية المشهد

(*) تل الفرما حاليا، شرق مدينة بورسعيد. (المترجم)

(**) وهو مينيس Menes - مينا - الأسطوري عند الإغريق. (المؤلفة)

المصرى الطبيعى فى هذين اللونين المتباينين، فتقف الخصوبة فى مواجهة الجدب، والحياة فى مقابل الموت، وهى مفاهيم تستعيد أيضًا إلى الذاكرة سير الإنسان الأول شاردًا على غير هدى.

❖

تُرى من هم هؤلاء الرجال الذين يعود إليهم الفضل فى تكوين مملكة **مصر**، والذين عاشوا قبلنا منذ أكثر من ستة آلاف سنة؟ كانوا رجالاً من جنس قوى؛ فإذا تجولنا فى الوقت الراهن، فى شوارع **القاهرة** أو **أسوان** أو **الأقصر**، فكم من الوجوه والأبدان والمظاهر الجسمانية تعيد إلى أذهاننا الأشكال التى نُحتت أو رسمت فى مقابر القرون الخوالى. ونعرف جميعًا قصة عمال العالم الأثرى الفرنسى **مارييت** Mariette، عندما دخلوا إلى مصطبة **كا-عبر** فى **سقارة**، وهو من الأعيان الذين عاصروا الأسرة الخامسة، حول عام ٢٥٠٠ق.م. فعندما شاهدوه أطلقوا فجأة سيقانهم للريح مذعورين صائحين: «شيخ البلد! شيخ البلد!». ففى غبش الحجرة المغلقة، أوحى إليهم التمثال بوجهه المستدير المكتنز الوجنات بعض الشىء، وأنفه المقوس تقوسًا بسيطًا، وبريق عينيه المرصعتين، وجسده البدين، وشموخ مظهره وهيبته أوحى إليهم إيحاءً عميقًا، فاعتقدوا أنهم شاهدوا هنا وجه "شيخ بلدهم"، ظنا منهم أنه قد سبقهم إلى هذا المكان. كان أبناء **مصر** من جنس قوى، استطاعت سماته الإثنية أن تصمد، فى أغلب الأحوال، فى وجه الغزوات المتعاقبة وتقاومها.

فيمكن الحديث عن جنس مصرى، وبعبارة أكثر علمية لقلنا إنه جنس حامى سامى. وبالفعل فقد جاء رجال من كل حدب وصوب، بعد أن اجتذبتهم وفرة الخيرات فى وادى النيل. جاء **الأفارقة** من **النوبة** و**السودان** و**ليبيا**، و**الساميون**(*) من **آسيا**. فاختلطوا وامتزجوا على امتداد آلاف السنين، قبل بداية التاريخ المصرى، بالمعنى الدقيق للعبارة. إن هذا «*المزج*» البشرى هو الذى خلق **الجنس المصرى**.

(*) تغطى هذه التسمية عددًا كبيرًا من شعوب **الشرق الأدنى القديم**، ولا تقتصر على **العبرانيين** الذين لم يكن لهم وجود على كل حال، فى ذلك الزمن؛ إذ لم يظهروا على مسرح الأحداث إلا فى وقت لاحق، وبعد انقضاء عشرات القرون. (المترجم)

وتساعدنا معرفة اللغة على التمييز تمييزًا واضحًا بين دور كل من **إفريقيا** **وأسيا** فى تكوين هذا الشعب. والأقرب إلى الصواب أن إسهامات سامية استقرت على نطاق واسع فوق ركيزة إفريقية. فاللغة المصرية لغة سامية فى حقيقة الأمر من حيث تركيبها النحوى، وقريبة الشبه من الأشورية البابلية والكنعانية والآرامية، وهى لغات ميتة، ومن العربية أو العبرية، وهى لا تزال حية. فغياب نظام تحريك الصوامت فى اللغة المكتوبة واحد، وقائمة الصوامت واحدة أيضًا، وكذلك غياب تحديد الزمن، ولا سيما فى الأفعال. ومفردات اللغة ذات أصول سامية إلى حد كبير؛ فقد أمكن حصر أكثر من ثلاثمئة جذر(*) مشترك بين مختلف لغات هذه المجموعة، ولكنها تضم أيضًا كلمات تعود إلى أصول إفريقية. إن حوالى مئة جذر مشترك بينها ولغات المجموعة الليبية البربرية، كما نلاحظ وجود بعض أوجه الشبه مع لغات الجنوب كاللغة الصومالية، ولكن فكر **مصر القديمة**، قد صُبَّ وتشكل فى «قالب» سامى، هو التركيب النحوى للجملة.

كما أن وجوه الفاتحين **الرعامسة** بأنوفها الكبيرة المقوسة وملامحها الجانبية الشبيهة بطائر العُقاب، هى أيضًا وجوه سامية.

ومن هذه الإسهامات البشرية المتنوعة نشأ إذن شعب، له مقومات إثنية قوية وسمات فى وسعها أن تغالب الأيام.

❖

ولكن تعريف شعب من الشعوب يعتمد أيضًا على أساليبه الحياتية، بل وأكثر من ذلك على الروح التى تحركه. وفى هذه المجالات أيضًا تميز **المصرى القديم** بسماته الخاصة.

ويظهر بوضوح أنه كان إنسانًا عاشقًا للحياة عشقًا حميمًا. إن المتون والأناشيد المصاحبة للنقوش والرسومات فى المقابر تعكس مشاهد الحياة اليومية،

(*) الجذر هو الأصل الذى تشتق منه الكلمة، فجذر كتاب ومكتبة واكتتاب هو ك ت ب. المعجم العربى الأساسى. (المترجم)

وتكشف عن شخصيته البهجة المرحة المحبة للمزاح، إذا لزم الأمر. فالفكاهة حاضرة، فى أغلب الأحوال، فى التصاوير، يبرزها موقف ليس فى الحسبان، أو استخدام لون غير متوقع، أو يظهرها مشهد طريف.

كان من عادة شعب **مصر** أن يكون متفائلاً وودوداً وكارهًا للفوضى، لا يحب الإفراط أو الإسراف، رزينًا مولعًا بالاعتدال. كان مثله الأعلى أن تكون أفراحه ومسراته بسيطة فى إطار الحياة الأسرية، وأن يتخذ من احترام الآخر قاعدة لسلوكه. ومن بين سائر الشعوب السامية التى عاشت فى **العصور القديمة**، كان الشعب الوحيد الذى لم يعرف الأضاحى الآدمية. إن قصة قصيرة وصلت إلينا مدونة على بردية، ترسم صورة للملك **خوفو** وهو يحاول أن يرفه عن نفسه، فاستدعى الساحر **جدى** المتخصص فى إعادة تثبيت الرءوس المقطوعة. فطلب منه الملك أن يطبق قدراته هذه على أحد المساجين، الأمر الذى رفضه العالم **جدى**، وأجابه قائلاً: «أيها العامل الملكى، يا سيدى، من المحظور أن أتصرف على هذا النحو مع القطيع المقدس، قطيع الله»، فأحضروا له أوزة وثوراً.

هؤلاء الرجال الذين تحولوا إلى جنود عصر الفتوحات، كانوا يحبون السلم؛ ففى ظله كانت «*البلاد أشبه بلوح خشبى مصقول صقلاً جيداً* »، والقلب «*عذب عذوبة زيت الزيتون*»؛ فأناشيد استعادة السلام تأتى فى أعقاب ترانيم النصر.

كما كان شعب **مصر** بالغ الحساسية، تركز فكره على عالم الحقائق الواقعية والحياة، أكثر من اهتمامه بالتأمل الباطنى والفلسفة. كان شعباً تظهر حساسيته فى مختلف مجالات التعبير الإنسانى، كالفن الذى يُجسِّد الفكر والإيمان الدينى الذى يزكيه ويرفع من شأنه.

كان شعبًا من الفنانين؛ فالفن – فى نظره بمختلف أنواعه وأجناسه – وسيلة وعون لبلوغ الخلود، حتى لا تتوقف الحياة أبدًا كما عاشها على سطح الأرض، وكما أحبها. إن الفن، باعتباره لسان حال الأبدية والمعبِّر عنها، قد تحول فى **مصر** إلى **ميتافيزيقا**.

ولإدراك ذلك، حسبنا أن نشاهد النقوش والرسومات؛ إذ لا يُخضع المصرى

نفسه لأحاسيسه كما يتلقاها. إنه لا يصوِّر الكائنات أو الأشياء كما تنقلها إليه الرؤية البصرية المباشرة، بل يحلل هذه الرؤية بكل جلاء ونفاذ بصيرة، ويفككها إلى عناصرها الأساسية، ليشكل منها بعد ذلك، تركيبًا يفصح عن ذكاء، ثم يؤلف تجميعًا عقلانيا من الخطوط والأحجام، موحيًا إلى أبعد الحدود، عن الكائنات أو الأشياء، فى مجمل تفاصيلها، بل وجوهرها ذاته، كما يجد الفنان فى أساليبه التقنية تعبيرًا عما يجيش فى نفسه من أحاسيس. إنه يتلاعب بالخطوط بحسٍّ مرهف، مدركًا قدراتها الإيحائية. إنه يجمع فى آنٍ، بين المشهد والوجدان الذاتى، فى مقابلة متواصلة لا تنقطع.

مصر هى الأرض التى خصتها الآلهة بحبها، إنها المكان المفضل لتفكير دينى ثاقب. إن البشر من أصحاب الديانات الوثنية هم شركاء عالم الطبيعة ولصقاء به، وجزء لا ينفصم عنه، وهو ما ينطبق تحديدًا على **المصرى القديم**. فَلْيُمعِلِ المرء النظر فى المساحات الشاسعة من رمال الصحراء وفى المَدَد الذى يوفره هذا النهر البالغ الطول، باعتباره ممرا خصبًا، فكان يوفر وحده دون غيره الحياة لعالم يعج بالمستنقعات، عالم جذاب تحفه المخاطر. وبطبيعة الحال أعرب **المصرى القديم**، بطريقة تلقائية، عن حبه للقوى جالبة الخير التى تحيط به، وعن الاعتراف بجميلها. كما سعى فى المقابل، إلى استمالة الكائنات والأشياء التى تكنُّ له العداء. فبث الحياة فى مجمل الكون، من خلال كائنات سامية، يصعب التحكم فيها، لكن فى وسع البشر الوصول إليها، إنها الآلهة. ظلت أشكال الآلهة وأفعالها تتطور تطورًا وئيدًا، حسبما تقتضيه التقاليد المحلية فى أغلب الأحوال، ثم توسعت حتى صارت حكايات وأساطير سعت إلى تقديم تفسير العالم، ومرت بفترة طويلة من الاختمار الروحى، بلغت منذ الألف الثالث ق.م إلى أولى رواياتها المكتملة، كما تشهد عليها المدونات المسهبة المنقوشة على جدران حجرات دفن الأهرامات الملكية، بدءًا من الأسرة الخامسة، حول عام ٢٤٠٠ق.م. إنه اختمار روحى يضرب بجذوره فى الماضى السحيق، لا يسعنا فى الوقت الراهن أن نرسم له مجرد صورة من صيد خيالنا.

إننا لا ندرك أحيانًا من هذه المسيرة الروحية الطويلة سوى مراحلها الأقرب إلينا.

فى البدء، لاحظ **المصرى القديم** أن بعض الحيوانات، وعلى رأسها ذكور القطعان الكبيرة، قد تميزت بقدراتها الإنجابية القوية، الأمر الذى يساعد على استمرارية الحياة. ولذلك فقد أحيط كل من الكبش أو الثور تحديداً، بأكبر قدر من مظاهر التكريم والتبجيل.

ففى **إلفنتين** قرب الجندل الأول، كان المصريون يعبدون الإله الكبش **خنوم**. إنه إله خالق، كان يتجلّى نشاطه فى مجال الحياة، بأسلوب شديد الخصوصية؛ فيشكل أُناساً صغاراً على دولاب فخارى. كان السبب وراء ذلك يستند إلى واقع محلى، لأن مستعمرة كبيرة من الفخاريين كانت قائمة فى هذه المنطقة لتظل فى مكانها حتى العصر اليونانى، كما كان **خنوم** «*إله المياه الرطبة*» مسئولاً عن الفيضان، لأن المكان الرئيسى لعبادته، كما سبق القول، كان على مقربة من هذا الجندل الذى ذهب المصريون إلى أنه المنبع الذى يتدفق منه نهر **النيل**. ومن ثمّ كان يُعبد فى ربوع **مصر**، من أقصاها إلى أدناها، بصفته هذه. ومع حلول فصل الصيف كانت تُقدّم له القرابين والأضاحى، فكان يُصور فى هيئة كبش أو إنسان برأس كبش. ولما كان البشر والحيوانات من مخلوقات الآلهة، لم يفعل الشكل الذى يتشبه بالإنسان سوى زيادة فاعلية إضافية، أكثر «*كونية*»، للصورة الإلهية.

أما الشمس(*)، وكان الواهب العظيم(**) للحياة، فكان ينظر إليه فى كثير من الأحوال بصفته ثوراً(**). إن **رع**، وهو أصلاً اسم جنس للجرم السماوى، يسمّى أحياناً «*الثور الذهبى بإطاره من اللازورد*».

إن هذا الفيض من الصور، بمختلف تنوعاتها وألوانها، هو سمة من سمات الفكر الدينى المصرى الذى لا يجد غضاضة فى نقل وقائع ملاحظاته البسيطة إلى عالم الأساطير الإلهية، فربما صارت السماء صقراً. إن **حورس** هو اسم جنس لهذا

(*) على القارئ ألا يغيب عن ذهنه، أن لفظ شمس مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

(**) التزمت بالتذكير ليستقيم المعنى. (المترجم)

النوع من الجوارح، فالطائر الذى يشاهده البشر محلقًا فوق سطح الأرض يندمج، فى ذهنهم، فى **المنطقة العليا**. أما عيناه فتصبح أولهما الشمس والأخرى القمر، وهما الأزهران(*) اللذان ينيران النهار والليل. وأحيانًا، وطبقًا لإدماج أكثر محدودية، فهو الشمس، **حور أختى،** أى «**حورس الأفقين**». إن صورة مقدسة منتشرة على نطاق واسع، وتشير إلى هذه الأسطورة - أسطورة *الشمس - ذات الجناحين*(**)، تشرف على بوابات المعابد والمبانى المقدسة، أو تبسط جناحيها فوق المشاهد الطقسية.

كما أحيطت البقرة بأكبر قدر من التبجيل والتكريم، إنها إحدى حيوانات القطيع واهب الغذاء ومصدر الخصوبة. وبفضل هذه السمة استطاعت أن تندمج فى السماء التى يغذى نورها الأرض ويخصِّبها. وأُطلق عليها اسم **حتحور**(***)، أى «**قصر حورس**»، بعد أن أصبحت السماء المسكن الفسيح **للشمس - الصقر**. إن أى صورة من الصور لا تستبعد أبدًا غيرها من الصور. إنها تتجمع فى تراكيب أسطورية تُضاعف وتُقوِّى القدرة الفاعلة للتصورات الإلهية. كانت **حتحور** تقف فوق الأرض، فظهرها هو السماء، وتستند حوافرها إلى سطح الأرض. وقد تتخذ أحيانًا هيئة امرأة منحنية فوق الكون لتلامس ساعداها وساقاها سطح الأرض. وقد يطلق على **المرأة - السماء** أيضاً اسم **نوت**.

هكذا أيضًا توصل المصرى إلى تفسير يوضح عودة الحياة مع كل فجر جديد، مع ظهور جرم النهار ظهورًا ممجَّدًا. والشمس الرضيع(****) المنبعث من عضو تناسل **نوت** أو **حتحور**، يشب ويكبر(****) كلما تقدم فى مساره الصباحى. وعندما يبلغ مرحلة الرجولة، وهو فى كبد السماء، يخصب «أمه - الزوجة»، ثم بعد أن يتقدم تدريجيًا فى السن، يختفى فى المساء فى فمها. وقد تتكرر الدورة نفسها مع عنصرين فاعلين آخرين هما البقرة والثور. عندئذ يُطلق على شمس الفجر اسم «**العجل الذهبى**

(*) القمر والشمس. المعجم الوسيط. (المترجم)

(**) أو الشمس المجنحة. (المترجم)

(***) **حوت حر** بالمصرية القديمة. (المترجم)

(****) التزمنا بالتذكير ليستقيم المعنى. (المترجم)

الصغير؛ إذ كان يطلق على الجرم السماوى اسم «ثور أمه»، فيولد من جديد من تلقاء ذاته، بواسطة عنصر أنثوى، هو فى آنٍ واحد الزوجة والأم. إنها أكمل وأتم صورة للأبدية والوحدانية الإلهية.

فإذا كانت الشمس تولد يوميا مرة أخرى، ويتجدد عالم النبات بحلول كل ربيع، فلابد أن يكون فى وسع الإنسان أن يولد من جديد، ليواصل حياته إلى أبد الآباد. وبطبيعة الحال، أصبح الصراع ضد الموت المدمر أحد أهم شواغل الفكر الدينى، ففى الديانات القديمة، كانت الآلهة المنوط بها استمرار الحياة بعد الوفاة، فى الغالب، ذات أصول زراعية. **بعل** أو **أدونيس** فى **آسيا** و**أوزيريس** فى **مصر**. لقد عانى **أوزيريس** الآلام ليكشف للبشر عن دروب البعث وقيامة الأموات. وتساعدنا **متون الأهرام** على إعادة صياغة هذه الحكاية الخيالية. كان **أوزيريس** أول الملوك الذين حكموا الأرض، كان ملكًا صالحًا وعلم البشر الزراعة وزراعة الكروم وعمل الحرفيين. كان أخوه **ست** الذى يُدمج فى الغالب فى قوى الصحراء الضارة المؤذية، يَنظر إلى أخيه بعين ملؤها الحسد، فقام «*بربط*» **أوزيريس** وقتله، وألقى بجثته فى الماء.

إن رواية متواترة، وإن كانت من أزمنة لاحقة، ووصلت إلينا من خلال **بلوتارخس**(*)، تصور **ست** وهو يمزق جسد **أوزيريس** إلى أربع عشرة قطعة، ويبعثرها على سطح الأرض. عندئذ، أخذت **إيزيس** أخت **أوزيريس** وزوجته و**نفتيس**، أخته الأخرى وزوجة **ست**، تنتحبان. فاشتد حزن الآلهة، ثم قامت **إيزيس** و**نفتيس** بالسعى سعيًا حثيثًا بحثًا عن جثمان **أوزيريس**. واستطاعت والدته **نوت** أن تنقذ جسده من التحلل «*فأعادت ربط عظامه ووضع قلبه فى مكانه وإعادة رأسه*». وكلها إيماءات رمزية تشير إلى ولادة جديدة، ثم يقوم **رع** ببث الحياة فيه، ليؤمِّن على هذا النحو بعثه حيا، بشكل قاطع ونهائى. وفى الروايات الأقل قدمًا، يقوم **رع** بإرسال **أنوبيس الإله** ابن آوى، لإعادة تشكيل جسده و«*صناعة*» المومياء الأولى، بينما تقوم **إيزيس** بعد أن تحولت إلى طائر صغير، بإعادة الأنفاس إلى زوجها بفضل تحريك جناحيها الكبيرين، فى حين تعمل الكلمات السحرية التى تنطق بها، على إعادة الحياة إلى الإله. وبعد أن

(*) مؤرخ يونانى من القرن الأول الميلادى، عاش فى **روما**. (المترجم)

تمددت فوق جسد **أوزيريس**، تحمل منه بابن، هو **حورس** الذى تتولى تنشئته سرا فى مستنقعات **الدلتا**، تجنبًا لانتقام عمه **ست**. وعندما يحين الوقت المناسب، سيستعيد **حورس** من **ست** الميراث الذى من حقه، وينتقم لأبيه.

هذه الحكاية الخيالية التى تعلى من شأن الإخلاص والوفاء اللذين يربطان كل زوجين، وبر الأولاد بوالديهم – وكلها من الخصال الحميدة عند المصريين – نقول إن هذه الحكاية تنطوى فى الغالب على قيمة رمزية. وسواء تحول الجسد الملقى فى الماء إلى «*الأخضر والأسود*» لونى الربيع المصرى، عندما يبرز نبات القمح الغض من بين الطمى، أم وُزِّعت قطعه الأربع عشرة على امتداد أرض **مصر**، يظل **أوزيريس** إلهًا للزراعة ورمزًا للخصوبة. إنه «*البذرة الجديدة*» التى يبدو أنها ماتت عندما كانت تدفن فى باطن الأرض، وتولد من جديد مع حلول الربيع من أجل حياة جديدة(*). ولما كان «*قويا نشيطًا، فى مياهه الشابة*»، فهو أيضًا رمز الفيضان الدورى المُخصِب. إنه يشير إذن من خلال موته وبعثه حيا، إلى أطوار حياة الطبيعة بتجديدها الدورى. إنه عالم النبات بدورته الثابتة ثبات الشمس، كما أن النظر الذهنى الدينى قد أدمج الصراع المحتدم بين **أوزيريس** و**ست**، فى التناقض الطبيعى القائم بين الخصوبة والجدب، أو النظام وفوضى الخواء، أو النور والظلام.

أما **أنوبيس**، وهو أول صانع للمومياوات، فيُصور فى هيئة ابن أوى أو فى هيئة آدمية برأس ابن آوى، فقد كان هذا الحيوان يتردد على مشارف الجبانات، بحثًا عن الطعام. ومن هنا، فقد ربط الفكر المصرى فى الغالب، بين صورة ابن آوى وفكرة الموت.

كان كل إله، يُعبد فى الأصل فى جهة محددة باعتبارها مكانه المقدس. وهنا ألّف كهنة فرعون مصنّفات لاهوتية، توضح أن *إلههم* كان «*أول القادمين*» خارج الخواء الأولى، وتشرح عملية خلق العالم. كانت **هليوبوليس**(**) – قرب العاصمة **منف** – هى

(*) وسترد الفكرة نفسها على لسان المسيح فى إنجيل يوحنا ١٢:٢٤ «إن لم تقع الحبة من الحنطة فى الأرض وتمت، تبق وحدها، وإذا ماتت أخرجت حبا كثيرًا». (المترجم)

(**) **يونو** عند قدماء المصريين، **المطرية** حاليًا. (المترجم)

المدينة المقدسة التي يَعبد فيها الإله **رع** منذ أقدم الأزمنة. أما مدينة **أوزيريس** فكانت تقع منذ الألف الثاني قبل الميلاد في **أبيدوس**(*) في **مصر العليا**، ثم طرأت بعض التطورات.

هل نحن أمام الإيمان بتعدد الآلهة polytheisme، أو بإله واحد monotheisme أو بوجود إله فوق الآلهة hénothéisme؟(**) سؤال محيِّر. ولكن لماذا هذا الإصرار على إسقاط مقولات حديثة على مفاهيم وأفكار قديمة؟ كان لكل شخص إلهه الخاص في مدينته. فتتذكر النصوص في أغلب الأحوال كلمة **نثر** - أي «*الله*» - دون تحديد اسم الإله المعنيّ. فلكل امرئ إيمانه الخاص. لم يكن التعصب وعدم التسامح قد ظهرا إلى الوجود. كان البشر يعبدون قوى الطبيعة، وكانت أسماؤها تختلف من مكان إلى آخر.

وفي عصر فتوحات **الرعامسة** والإمبراطورية العظمى، سوف تسمح رحابة الفكر هذه باستقبال الآلهة الأجنبية على نطاق واسع، فكانت آلهة الشمس أو عالم النبات. وسواء كانت **شمش**(***) أو **بعل**، فإن اسميهما ينطويان على ذات القوة وقدرة الحياة، كما هو الحال بالنسبة للإلهين **رع** و**أوزيريس**.

❖

هكذا كانت تسير الحياة على ضفاف نهر **النيل** على مرّ الأيام، وعبر المتع

(*) التصحيف اليوناني للاسم المصري القديم **أبجو** منطقة **العرابة المدفونة** قرب **البلينا** حالياً. (المترجم)

(**) يمكن أن نضيف إلى ذلك:

الإيمان بوحدة الوجود panthéisme، أو بالألوهية الطبيعية deisme (الله خلق الكون، ولكن ليس له صلة مباشرة بالعالم)، أو الاعتقاد بالله وحده théisme الذي يقرر وجود الله دون الاعتراف بالضرورة بالوحي. (المترجم)

(***) **شمس** في اللغة العربية و**شمش** في العبرية. (المترجم)

والملذات، كانت أسباب سعادة البشر بسيطة فى تلك الأزمنة القديمة. إن نصاً شعرياً يعود إلى حوالى عام ٢١٠٠ق.م(*)، يصفها على هذا النحو:

حسن حقا، عندما يهبط (المرء) النهر...

حسن حقا، عندما تُشدُّ الشبكة وتُصطاد العصافير...

حسن حقا، عندما تُعبَّد الدروب للتنزه.

حسن حقا، عندما تُشيَّد أيدى البشر الأهرامات وتحفر البرك وتعدُّ البساتين من أجل الآلهة.

حسن حقا، عندما ينتشى الناس ويشربون، سعداء القلب.

حسن حقا، عندما تتعالى صيحات الفرح من كل الأفواه، بينما زعماء الأقاليم يقفون هناك، فيشاهدون حفلات الابتهاج من منازلهم، وقد ارتدوا الكتان الناعم و(يمسكون) أمامهم عصا القيادة، بقلوب أبية.

حسن حقا، عندما تُجهَّز الأسِرَّة، ويُحاط فراش كبرى الشخصيات بأكبر قدر من الحماية، وعندما تكون حصيرة موضوعة فى الظل كافية لتوفير ما يحتاج إليه كل إنسان، عندما يُغلق الباب على من يرقد فى الأجمات.

(*) يتفق هذا التاريخ مع الأسرة الحادية عشرة. (المترجم)

الباب الأول

تاريخ إمبراطورية

الفصل الأول

الإمبراطورية: خيار لا مفر منه

أولاً: بحث عن مصادر الإمبراطورية

مملكة يسودها الهدوء

أول أزمنة المملكة

حول عام ٣٢٠٠ق.م قام **نعرمر** «بربط» **مصر العليا ومصر السفلى**، ليؤسس مملكة موحدة، تمتد من **أسوان** حتى **البحر المتوسط**، ووضع على رأسه **البشنت**(*)، جامعًا على هذا النحو بين تاج **مصر العليا** الأبيض الطويل والتاج الأحمر **لمصر السفلى**. إنه رمز دائم للسيادة على أرض **مصر**. ولما كان **نعرمر** الأول، في سلسلة طويلة من ملوك الأسرات المصرية الحاكمة، فقد أسس النظام الفرعوني.

وأغلب الظن أنه كان ينحدر أصلاً من مدينة **هيراكنبوليس**(**) Hierakonpolis، وأقام عاصمته في مدينة **ثني**(***)، على البر الغربي من نهر **النيل**، على بعد ١٠٠كم شمال **طيبة**. وستظل المدينة مركز السلطة على امتداد أكثر من أربعة قرون طوال الأسرتين الأولى والثانية[١]، من تاريخ **مصر**. ولكن بفضل ذكاءٍ سياسيٍ مؤكد، يبدو

(*) التصحيف اليوناني للاسم المصري القديم **پاسخمتي** أي القوتين. (المؤلفة)
لمزيد من التفاصيل حول هذه التسمية راجع: إيزابيل فرانكو: معجم الأساطير المصرية، ترجمة: ماهر جويجاتي، دار المستقبل العربي، ٢٠٠١، ص٨٠. (المترجم)

(**) التصحيف اليوناني للاسم المصري القديم **نخن**، **الكوم الأحمر** حاليًا، شمال **إدفو**. (المترجم)

(***) من غير المعروف حتى الآن الموقع الحقيقي لهذه المدينة. (المترجم)

أن **نعرمر** قد وضع، منذ ذلك الزمن، أساس مدينة جديدة واقعة عند التقاء المصرّين(*) عند رأس **الدلتا**، إنها مدينة **منف** «*ميزان القطرين*».

وبينما سعى **نعرمر** وخلفاؤه إلى الإبقاء على وحدة المملكة الجديدة بكل ما أوتوا من عزيمة، فقد أقاموا اقتصاداً مزدهراً، فتطورت الزراعة وتربية الماشية.

❖

ونشأت أولى أدوات الإدارة السياسية. وسوف تشكل أسس الإدارة الفرعونية وقاعدتها الراسخة، لتغالب الأيام، على امتداد آلاف السنين. وقُسِّمت **مصر** إلى أقاليم(**) ودوائر تم تحديدها تحديداً مصطنعاً، حسبما تمليه ضروريات الري والمنتج الزراعي. هكذا وُضعت ثمانية وثلاثون إقليماً تحت سلطة موظف مكلف من قبل السلطة المركزية. كان الملك، على ما يبدو، لا يزال يركز بين يديه كل السلطة، دون وسيط بينه وبين مختلف الأجهزة الإدارية.

إن الإدارة المركزية المسئولة عن مختلف احتياجات اقتصاد الحقول كانت تضم عدداً من **البيوت** الملكية، **بيت الحقول** المسئول عن أعمال الحصاد وتخزين المحاصيل الواردة من الحيازات الملكية، و**بيت المياه** الذي ينسِّق بين مختلف قراءات مقاييس **النيل** المنتشرة على امتداد النهر ويخطط لأعمال الريّ، وفي حالة انخفاض منسوب الفيضان كان عليه اتخاذ الإجراءات الضرورية لتجنب المجاعة، ثم **البيت الأبيض** الذي يشرف على إدارة أموال العاهل الملكي، و**البيت الأحمر** المسئول عن إدارة الطقس الجنائزي الملكي. وكانت دائرة الإشراف على الجيش ودائرة المحفوظات تستكملان منظومة مختلف الأجهزة الإدارية. أما الإدارة الإقليمية فكانت تضم حكام الأقاليم، وكان كل واحد منهم مسئولاً في المقام الأول عن صيانة الترع والقنوات الواقعة في حدود إقليمية، وعن جَعْلها صالحة لتوفير أكبر قدر من إنتاجية الأراضي. إن اللقب المصري الذي كان يحمله هذا الموظف الكبير، يعبِّر أفضل تعبير عن المهام الملقاة على

(*) **مصر العليا ومصر السفلى**. (المترجم)

(**) **سيپت** بالمصرية القديمة. (المؤلفة)

عاتقه. إنه **حج مر**، ومعناه حرفيا «*هذا الذى يشق الترعة*»، كما كان مسئولاً عن إعداد «حصر *بالذهب والحقول*»، أى الممتلكات من عقارات ومنقولات، وتعتبر عمليات عظيمة الأهمية عند استخدامها فى صورة نقاط مرجعية لتحديد التتابع الزمنى. وكانت المنازعات القانونية يتم البتُّ فيها فى عاصمة كل إقليم، بواسطة محكمة يطلق عليها **چاچات**، ولكننا لا نعرف شيئًا عن القانون المدنى.

وتطورت العبادات المحلية، وتعاظمت أهمية الإله الحامى الراعى لكل إقليم من الأقاليم. هكذا أخذ بنيان مَجْمع الآلهة يتشكل بتنوعاته.

احتفل المصريون بأعياد الآلهة، وكان ينظر إليها باعتبارها أحداثًا عظيمة الأهمية فى حياة البلاد، حتى إن التتابع الزمنى الذى أخذ به حجر **پالرمو**(٢)، على سبيل المثال، كان يعتمد على الإشارة إلى السنة التى شهدت الاحتفال بهذا العيد أو ذاك.

وظهرت شعيرة جديدة، سيستمر العمل بها طوال العصور التاريخية، ونقصد بها العيد **سد**، أو اليوبيل الملكى الثلاثينى الذى احتفل به لأول مرة الملك **دن** من الأسرة الأولى. وكان أشبه باستعادة احتفالات التتويج، والهدف منه ضمان استمرار حكم الملك ودوامه، من خلال سحر الإيماءات والتعويذات.

وفى هذاالزمن عبر المصريون حدود بلادهم لأول مرة. إن جيش **چر**، خليفة **نعرمر**، وصل إلى **النوبة**، عند الجندل الثانى على نهر **النيل**، وهو ما تؤكده مخربشة محفورة على إحدى الصخور. ونُظِّمت حملات أخرى فى اتجاه مناجم ومحاجر الصحراء الشرقية، فيما بين **النيل** و**البحر الأحمر**.

وازداد النظام الملكى استقرارًا وتوطيدًا.

يبدأ العصر الذهبى للمملكة الأولى بحلول الأسرة الثالثة وعهد الملك **چسر**، حول عام ٢٧٧٨ق.م، ليستمر حتى عام ٢٢٠٠ق.م مع نهاية الأسرة السادسة.

فى ذلك الزمن كان الملوك - الآلهة، يتربعون على العرش فى مدينة **منف** عاصمة المملكة.

وبالفعل، فقد صيغت شيئًا فشيئًا نظرية للنظام الملكى، سوف تظل قائمة فيما بعد. فالملك بجوهره الإلهى هو الوسيط بين الآلهة والبشر، ويظل **أبو الهول** الرابض فى **الجيزة** الصورة المهيبة لهذا التصور. إن الوحش الضارى بجسده المنحوت فى ذات الصخر، ووجه **خعفرع** الأملس المصقول وملامحه المزهوة، هو الحارس الملكى للجبانة، الذى يفرض جلاله الإلهى فرضًا بين الرمال الصهباء والسماء.

كانت قائمة الألقاب الملكية، قد استقرت لتظل دون تبديل حتى آخر **القياصرة**، إنها تكشف عن هذه السمة الكونية للعاهل الملكى الإلهى. إنها تضم خمسة ألقاب تصاحبها خمسة أسماء، يتحدد بعضها لحظة إتمام مراسم التتويج:

- **الاسم الحورى**(*) يضع العاهل الملكى تحت حماية الطائر المقدس، راعى مدينة **هيراكنبوليس** التى كان ينحدر منها **نعرمر** أول الملوك. ويصور الطائر الإلهى واقفًا مفلطحًا مخلبيه، فيحمى أول اسم من أسماء الملك المُدوَّن داخل تصويرة على الطريقة المصرية لسور القصر الملكى.
- **الاسم النبتى** - اسم السيدتين - يضع العاهل الملكى تحت رعاية الإلهتين الراعيتين للمملكتين الأصليتين، الإلهة **نخبت**، وهى الرخمة البيضاء **لمصر العليا**، والإلهة **واچت**، وهى صلُّ **مصر السفلى**.
- **اسم حورس الذهبى**(**) ويظهر فى عهد **خوفو** فى حين ظهر الاسمان السابقان منذ عهد **نعرمر**، ويربط هذا الاسم شخص الملك بشخص **حورس** الشمسى والسماوى(٢).

(*) نسبة إلى **حورس**. (المترجم)

(**) **حرنوب** بالمصرية القديمة. (المترجم)

* **اسم نيسوت بيتى**، أى «*هذا الذى ينتسب إلى نبات البوص والنحلة*»، ونترجمه عادة بعبارة «ملك **مصر العليا ومصر السفلى**». وهو يدمج الملك المصرى منذ **نعرمر** فى الفلورة(*) والفونة(**) رمزَىْ القسمين المكونين للمملكة.
* **اسم ابن رع** يربط ملك **مصر** منذ **خعفرع** ربطًا جسديا بكبرى القوة الكونية فى العالم، وقد أخذت عبادتها تنتشر فى البلاد، من أقصاها إلى أدناها.

ومنذ **خعفرع** أيضًا، دُوِّن الاسمان الأخيران داخل خرطوش، وهو التطور الخطى للعلامة الهيروغليفية **شن** التى تعنى «*يحيط*»، أو «*يرسم دائرة حول*». إننا أمام وسيلة أخرى لربط العاهل الملكى بأبيه الشمس(***)، بإدماج سلطان السيطرة الملكية فى «*الدائرة*» الشمسية ودورة النجم السماوى المتجددة على الدوام، وإلى أبد الآباد.

وسيظل النظام الملكى والدِّين مرتبطين فى المنظومة الفرعونية ارتباطًا لصيقًا؛ فليست المسألة مسألة «حق *إلهى*»، ففرعون هو ابن الإله، بل إنه الإله ذاته، مشاركًا فى قدرات الحياة فى السماء وفى الأرض.

هليوپوليس وأولوية رع

إن مكانًا مقدسًا عظيمًا، لا يبعد كثيرًا عن العاصمة السياسية **منف**، كان آخذًا فى التطور، بوصفه عاصمةً روحيةً حقيقيةً، إنها مدينة **هليوپوليس** حيث عبادة الشمس.

كان الملك من حيث طبيعته، الرئيس الطبيعى لجميع الكهنة، ويتمتع بالسلطة الروحية، فهو الذى يشيِّد المعابد، كما أنه يقيم الطقوس الدينية فى المشاهد الدينية التى تصورها النقوش والرسومات. وبطبيعة الحال، كان فى الممارسة العملية، يفوض

(*) الفلورة: أنواع النبات فى مكان ما وفى زمن معين. المعجم الجغرافى، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٧٤. (المترجم)

(**) الفونة: سبقت الإشارة إليها فى المقدمة.

(***) نعيد إلى الأذهان ما ذكرناه سابقًا، أن لفظ شمس مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

سلطاته لكبار الكهنة. كان أبناء العاهل الملكى يكلفون أصلاً بممارسة هذه الوظيفة فى كبرى المعابد؛ فنجد أن **رع حوتب**، ابن الملك **سنفرو** والد **خوفو** كان كبير كهنة **رع** فى **هليوبوليس**، وفضلاً عن ذلك كان قائد الجيش. ولما كانت كل عناصر الإدارة «*بين يدى الملك*»، فإن الفصل بين السلطة الدنيوية والسلطة الروحية كان مستحيلاً، الأمر الذى سوف يخلق بالضرورة، فيما بعد، مشاكل مؤكدة.

ويبدو أن كهنة **هليوبوليس** قد مارسوا نشاطًا واسعًا خلال هذه الأسرات الأولى، كما أن المذهب اللاهوتى الذى صاغوه قد انتشر على نطاق واسع، وربما كان النموذج الذى اهتدت به منظومات أخرى لتقدم تفسيرًا للكون.

ومن غير المستبعد، على كل حال، أن الأسرة الخامسة التى يحمل جميع ملوكها تقريبًا اسمًا يدخل فى تكوينه اسم **رع**، كانت تنتسب إلى أحد كبار كهنة **هليوبوليس** «*مغتصب السلطة*». ومن هؤلاء الملوك نذكر **ساحورع**، أى *ليت رع يحمينى*، و**نفر إر كا رع**، أى *كاملٌ هو ما ينجزه كا*[٤] *رع*، و**شبسس كا رع**، أى *كا رع مقدس*، وهلمَّ جرا. إن المصادر الموثوق بها عن هذه العصور القديمة شحيحة، ولكن إحدى الفرضيات التى تحاول تفسير سبب التغير الذى حدث فى الأسرة الحاكمة تقول الآتى: إن **أوسركاف** أول ملوك الأسرة الخامسة، ربما كان ابن الأميرة **نفرحتبس**، ابنة الملك **جدف رع** من فراعنة الأسرة الرابعة، والذى تولى الحكم بعد **خوفو** وقبل **خعفرع**، ابنها من زواجها من كبير كهنة **هليوبوليس**. وهكذا ربما انتقل تاج المُلك إلى عائلة مرتبطة بمدينة **رع** المقدسة، فى أعقاب «*انقلاب*»، إذا صح التعبير.

أجل، لقد ظلت مختلف العبادات المحلية مزدهرة، وأخذت عبادة **بتاح** – الذى يصور فى هيئة إنسان يرتدى رداء محبوكًا[٥]، وكان إلهًا خالقًا، وراعى الحرفيين، ورب **الحقيقة والعدالة** – أخذت تزداد أهمية فى العاصمة **منف**.

ولكن يبدو على كل حال أن ثمة محاولة لإيجاد شكل من التلفيقية الدينية قد ظهر لأول مرة، حول الكيان الإلهى الشمسى، الذى كانت عبادته تلقى أيضًا رواجًا واسعًا على المستوى الشعبى. هكذا شاعت حكاية حول الأصول المقدسة لملوك الأسرة الخامسة؛ إذ يبدو أن الإله **رع** قد تجسد فى زوجة أحد كهنته، وتُدعى **ردجدت**. وقد

وصلتنا هذه الحكاية بفضل بردية **وستكار** Westcar، فنرى أن **رع** يُرسل الآلهة للإشراف على ولادة **رديدت**.

*هيا أسرعوا، لمساعدة **رديدت** على وضع أطفالها الثلاثة[٦] الذين لا يزالون فى أحشائها، والذين سيتقلدون فى المستقبل هذه الوظيفة المرموقة الخيرة [الملك] فى أرجاء البلاد. سوف يشيّدون المعابد فى مدنكم، ويوفِّرون المؤن لهياكلكم، ويُثرون موائدكم بالماء الطاهر، ويزيدون من كمية قرابينكم الإلهية.*

❖ إنه تعريف صارم لتبادل المنفعة، إنه تبادل حيوى قائم بين الملوك والآلهة، بصفة رفاق مسئولين عن نظام العالم.

وحلت لحظة الولادة.

*انزلق هذا الطفل على يدَىْ **إيزيس**. كان طوله ذراعًا وعظامه صلبة وأعضاؤه مغشاة بالذهب وزينة رأسه من اللازورد الحقيقى؛ فقامت [الإلهات] بغسله بعد أن قطعت حبله السُّرِّى، ووضعته على قطعة قماش وسادة من الكتان. ودنت **مسخنت** منه قائلة: «هذا ملك، سوف يمارس وظيفته الملكية فى هذه البلاد كلها»، فى حين عكف **خنوم** على تقوية أعضائه.*

أكان طفلاً – إلهًا، يتكون من الشمس والسماء، أم ملكًا؟ إن الطبيعتين تتجسدان فى كيان واحد، كيان **الفرعون**.

وسوف تُطبع شئون الإدارة السياسية للدولة وعناصر الفن والمعمار، على حدٍّ سواء، بسرعة فائقة، بطابع التدين الشمسى نفسه الذى كان سائدًا.

العناصر الجديدة للسلطة

جوهر السلطة هو إصدار الأوامر، أى **أوج مدو** بالمصرية القديمة، ومعنى هذه العبارة «*التفوه بالكلمات*[٧]»، وإعلان الأحكام أيضًا، **أوجع** بالمصرية القديمة أى «*وَزَنَ*». يحتفظ الملك بكامل القدرات. إنه السلطة العليا، ولكن بالنسبة لهذا البلد وهو

فى أوج تطوره، لم تَعُد الإدارة التى أقامها ملوك **ثنى** كافية. كان من الضرورى التوصل إلى نظام أكثر أهمية مع التوسع فى تراتبية الهرم الوظيفى.

وبدءًا من عهد **سنفرو** حول عام ٢٧٢٠ق.م، فوَّض الملك جانبًا من صلاحياته إلى **ثاتى**، وهى كلمة نترجمها عادة بلفظ «وزير» الذى يرتبط بحقائق شرقية لاحقة. وهذا الوزير كان يعتبر «*إرادة السيد وأذنى العامل الملكى وعينيه*». كما كان رئيس العدالة، والمشرف العام على أهم دائرتين من دوائر الدولة وهما: شُونة الغلال والخزينة. كما كان يراقب الجيش، ويسهر على حسن سير الأشغال العامة ووسائل النقل النهرى. وكان مشرفو البعثات حلقة الوصل بينه وبين الإدارة الإقليمية، كان يُعيَّن من قبل الملك ويظل الرجل الوفى فى خدمة **الفرعون**.

كان كل «بيت» ينقسم إلى بيتين، فتظل الازدواجية الطبيعية لأرض **مصر**، مرجعية دائمة وشاملة. يستثنى من ذلك بطبيعة الحال «بيت *المياه*».

إن جهازًا إداريا أعلى، وهو **مجلس العشرة**، كان يجمع رؤساء هذه الوزارات المختلفة.

كانت طبقة الكتبة من أجهزة النظام الإدارى البالغة الأهمية؛ فيصورون جالسين وقد فردوا ورقة بردى على النُّقَب لتمتد من ركبة إلى أخرى، وتنمُّ ملامحهم على أنهم دائمو الانتباه، كما أن عيونهم ثاقبة الذكاء، بينما يمسكون بفرشاة الكتابة. كانوا مثقفين وأدباء رفيعى المستوى، ويشاركون مشاركة فعالة وسريعة، لا غنى عنها، فى حياة الدولة.

وظل حكام الأقاليم الثمانية والثلاثون يواصلون السهر على صيانة الترع والقنوات. ويديرون الأراضى الملكية، وصاروا مسئولين عن الشرطة العامة، وتجنيد العناصر للجيش. كما أن حكام الأقاليم، ولا سيما فى **الجنوب** وهم الأبعد عن **منف**، فى وسعهم أن يتولوا الإشراف على الكهنة المحليين.

ومن ثم، ستمتد النظرية الإلهية للسلطة الملكية إلى أجهزة المنظومة الإدارية ذاتها. إن الملك، وهو ابنُ **رع**، يضع كل جانب من جوانب سلطته تحت إمرة إله بعينه،

ليصبح كبير كهنته رئيس الجهاز الإدارى المعنِى. هكذا، فإن العبادات التى تقام من أجل الإلهة **ماعت**، وهى ضامنة نظام الكون واستقامة أدائه، والتى تتجسد فيها العدالة، سوف يتولاها الوزير بطبيعة الحال، مع إسناد مسئولية إقامة الطقوس إلى القضاة. و**تحوت**، الإله أبو منجل، راعى مدينة **هرموبوليس**(*) فى **مصر الوسطى**، وإله الكتابة والعلوم والمقاييس والمكاييل والقانون، سيصبح أحد مديرى الجهاز الإدارى كبير كهنته.

ومن هنا، يمكن القول إننا أمام ضرب من ضروب *التلفيقية الدينية*؛ فبالنظر إلى أن كبار الموظفين خاضعون للعاهل الملكى صارت الآلهة المحلية، من الآن، خاضعة بالتبعية للإله **رع**. إن العلاقة السياسية التى كانت تربط ملوك **مصر** بموظفيهم، أخضعها هؤلاء الملوك بإخضاعها للطابع الدينى لحكمهم المطلق. وبهذه الطريقة، أصبح فى الإمكان تحقيق التوليفة الجامعة للآلهة المحلية من حول الإله **رع**، استناداً إلى هذا التفسير للديانة وللسياسة، والذى سيظل من الثوابت فى تاريخ **مصر** القديمة، فيتسبب أحياناً فى مشاكل عويصة للسلطة الدنيوية، ولا سيما فى عصر **الرعامسة**.

تطور هذا النظام السلطوى على النحو الذى أصبح أداؤه يواجه مع مرور الوقت العديد من الصعوبات. كان الملوك يختارون بعض المقربين، ويُنعمون عليهم بأسمى مراتب الشرف وأكبر الوظائف، ولكن بعد فترة قصيرة استطاع هؤلاء المحظوظون تشكيل طبقة من أصحاب الامتيازات، ثم تعاظمت قوتهم واتسعت سلطاتهم، كما أقرَّ بعض الملوك الضعفاء، منذ نهاية الأسرة الخامسة، توريث الوظائف. وبدأ حكام أقاليم **الجنوب** يديرون بالتدريج شئونهم باستقلالية متزايدة بعيداً عن السلطة المركزية. ولعلاج هذا الخطر ظهر فى الأسرة الخامسة منصب «*حاكم الجنوب*»، ومهمته التنسيق بين حكام أقاليم **مصر العليا** ومراقبتهم، ولكن فى عهد **بيبى** الثانى، لم يعد الملك يتمتع بأى سلطة.

(*) **خمنو** بالمصرية القديمة، **الأشمونين** حالياً. (المترجم)

كما ظهرت طبقة حقيقية من الكهنة شكلت أيضًا تهديدًا لسلطة **الفرعون** الفائقة القدرة. وبالفعل فقد منح هذا الأخير رجال الدين امتياز عدم دفع الضرائب، فأتاح لأملاك المعابد أن تزداد ثراءً، كما استقر في عالم رجال الدين أيضًا حق توريث الوظائف.

وهكذا كاد كل إقليم يتحول إلى دويلة، أخذت تتباعد أكثر فأكثر عن دائرة الخضوع للعاهل الملكي، وسارت عملية تآكل المؤسسة الفرعونية الأولى ببطء، واستمرت حتى نهاية الأسرة السادسة.

الحملات والتجارة

وإذ أبحر المصريون مصعدين نهر **النيل** إلى الجنوب من الجندل الأول، نفذوا إلى **النوبة** ثم إلى **السودان**. وفتح **چسر**، حول عام ٢٧٧٠ق.م، المنطقة الواقعة بين **أسوان** و**تاكومپسو**(*) شمال **عمدا**. وفيما بعد سوف يطلق الإغريق على هذه المنطقة اسم **دوديكاشون** Dodékaschène، أي بلاد الاثنى عشر **شوينوى** scholnol بامتداد حوالى ١٢٠كيلومترًا. وشنَّ **سنفرو** حملة على **النوبة**، حول عام ٢٧٢٠ق.م، وعاد منها بغنائم وفيرة و٧٠٠٠ أسير طبقًا لما ورد في حجر **پالرمو**[٨].

ولما كانت البلدان الإفريقية الجنوبية لا تزال تحيا حياةً قبلية، كانت السيطرة عليها من السهولة بمكان. لقد توجه المصريون إليها بحثًا عن الذهب، ولا سيما مناجم **وادى العلاقى**، وهو وادٍ جاف يخترق **الصحراء الشرقية** فيما بين الجندل الأول والجندل الثاني. وقد دأبوا على استغلالها منذ زمن سحيق. كما كانوا يأتون من هذه البلدان بالبخور والعاج والأبنوس - هذا الخشب الأسود الثمين - وريش النعام.

وتواصلت الحملات بأعداد كبيرة. وكان الهدف من بعضها الكشف عن «دروب جديدة». ونشير على نحو خاص إلى أمراء **أسوان** الذين كانوا مستكشفين جسورين ونذكر منهم **حرخوف** الذى قام في عهود **پيپى** الأول و**مرنرع** و**پيپى** الثاني، حول عام

(*) عرفها المصريون تحت اسم **تا - كامسا**. (المترجم)

٢٤٠٠ق.م، بأربع رحلات متعاقبة. وإبان رحلاته الثلاث الأخيرة وصل إلى بلاد **يام** فى **السودان**، ومن الراجح أنها منطقة **دنقلة**. ونشأت روابط أيديولوچية؛ فقد توحد الإله النوبى **ديدون**، منذ وقت مبكر جدا، مع **حورس**. إن هذه النزعة إلى التلفيقية الدينية الهادفة إلى «*ربط*» الفتوحات، هى أسلوب مصرى كُتب له الدوام والاستمرارية، وسوف يلقى رواجًا كبيرًا فى عهود **التحامسة والرعامسة**.

❖

ومنذ أزمنة موغلة فى القدم كان المصريون على اتصال وثيق **بالبحر الأحمر**، وللوصول إليه كان الدرب المستخدم، فى المعتاد أكثر من غيره، هو **وادى الحمامات** الذى يبدأ من مدينة **كوبتوس**(*) Coptos، الواقعة إلى الشمال من **طيبة**، ليصل إلى ميناء **القصير** بعد سفر يستغرق أربعة أيام، بلا نقاط مياه، الأمر الذى كان يتطلب إذن تنظيم هذه الرحلة تنظيمًا صارمًا ودقيقًا.

وبعد أن تصل الحملات إلى **القصير**، كان فى استطاعتها أن تبحر فى اتجاه الجنوب. وبعد ذلك تتجه إلى بلاد **بونت** القريبة من **الصومال** الحالية، فهى «*الأرض الإلهية*»، لأنه على أرضها كانت تنمو أشجار البخور، فلا غنى عن البخور لإقامة شعائر الطقوس اليومية. كما كان بها أيضًا الأبانوس والعاج والذهب الخالص. هناك كان القوم يساومون ويقايضون، إذ كان البحارة المصريون يحضرون معهم بعض الأشياء المصنَّعة وبعض منتجات بلادهم الرخيصة، ليبادلوا بها هذه المنتجات الثمينة. واستنادًا إلى حجر **پالرمو** كان **ساحورع**، على ما يبدو، أول من أرسل حملة إلى هذا البلد القَصِيِّ، حول عام ٢٥٠٠ق.م.

وإذا انطلق المصريون من **القصير** مبحرين فى اتجاه **الشمال**، فإنهم يصلون إلى شبه جزيرة **سيناء** الصحراوية التى بدأ المصريون يستغلونها منذ عصور قديمة، وربما منذ ٣٠٠٠ق.م، كما كان من الممكن الوصول إليها برًا.

(*) تصحيف يونانى للاسم المصرى القديم **جبتيو**، وهى **قفط** حاليًا. (المترجم)

وقد عُثر على اسم الملك **چسر** منحوتًا على صخرة فى **وادى مغارة**، غرب شبه الجزيرة. ويُصور نقش صخرى آخر العاهل الملكى، وأمامه الإلهة **حتحور** التى تحميه. ويبدو أن **سنفرو** قد أعطى دفعة كبيرة لسياسة النفاذ إلى **سيناء**؛ ففى عهده وفى عهد خليفته **خوفو** استغل المصريون مناجم النحاس ومحاجر الفيروز والملاخيت(*) والزمرد، وعولج الكوارتز الحاوى على الذهب فى مكانه، وأُنشئت قرى للعمال، نظرًا إلى أن كل حملة من الحملات كانت تضم من ٢٥٠ فردًا إلى ٤٠٠ فرد. وعمل ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة، على التوسع بشكل كبير فى استغلال شبه الجزيرة، فنقلت ثرواتها من ذهب ونحاس وأحجار كريمة إلى **مصر**، تحت حراسة مشددة.

وفى شمال شرق **مصر**، وفيما وراء **القنطرة وبلوزيوم**(**)، فإن ممرًا بسيطًا عبر منطقة **النقب** الصحراوية يؤدى إلى **آسيا** التى زحفت منها شعوب، على امتداد آلاف السنين من التاريخ القديم، متجهةً نحو الجنوب، وقد شدَّتها ثروات وادى **النيل**. كان هذا الطريق الكبير هو المعبر الذى شهد مرور الغزوات بعد عام ٢٠٠٠ق.م، وفى عصر **الرعامسة** وفى زمن لاحق مع الاحتلال اليونانى ثم الرومانى.

وفى بادئ الأمر نصل إلى أرض **كنعان**، وكانت بلدًا بلا وحدة سياسية أو عرقية، تجوبها القبائل الرحل، وتعبرها القوافل القادمة من **بلاد العرب** أو **بلاد الرافدين**. ولعبت فيها **مصر**، منذ وقت مبكر، دور الشرطىّ؛ فمنذ عصر ملوك **ثنى** كان «*حامل أختام الأسيويين*» مكلفًا بجباية ضرائب الجزية مقابل حماية دروب القوافل. ومنذ هذه العصور القديمة اضطر ملك **مصر** أن يفرض هيمنته على البلدان الحدودية، وعلى موانئ **غزة** و**عسقلان** و**يافا**.

وإلى الشمال قليلاً، وعند سواحل **البحر المتوسط**، كانت تمتد **فينيقيا** من قمة جبل **الكرمل** وحتى مدينة **أوجاريت – رأس شمرا** حاليًا. كانت عبارة عن سهل ساحلى ضيق، يمتد **لبنان** من ورائه، وتسكنه شعوب سامية، وأرضه خصبة تشكل عددًا من *المدن – الدول* الثرية، وأكثرها ازدهارًا الموانئ المنتشرة على امتداد ساحل البحر:

(*) أو الدهنج. (المترجم)

(**) **تل الفرما** حاليًا. (المترجم)

صور و**صيدا** و**بيبلوس** و**سيميرا** و**أرواد** و**أوجاريت**. كان هذا البلد ملتقى الطرق والدروب، إنه بلد ثرى يعتمد على التجارة، تنتشر غابات أشجار الأرْز على جبل **لبنان**، فأخشابها مطلوبة أساسًا لبناء السفن.

إن العلاقات التى تربط **مصر** بميناء **بيبلوس** قديمة جدا. فالعديد من الكِسَف التى تحمل أسماء الأسرة الثانية، عُثر عليها إبان الحفائر التى باشرها الأثرى الفرنسى **بيير مونتيه** Pierre Montet، بين عامى ١٩٢١ و١٩٢٣ فى موقع المدينة التى تعرف حاليًا باسم **جُبيل**(*). كان الوصول إليها برا وبحرا ميسورًا على حد سواء. وفى شهرَىْ مايو ويونيو، عندما تهب الرياح الموسمية، كانت المراكب الشراعية تقطع فى أربعة أيام، المسافة بين دلتا **النيل** والسواحل الفينيقية، وتبلغ ٦٥٠ كيلو مترًا. واستنادًا إلى **حجر پالرمو** كان **سنفرو**(؟)(**) أول من أرسل إلى **بيبلوس** أسطولاً يتكون من أربعين سفينة، عادت جميعها محملة بخشب الأرْز.

ويبدو أن المدينة قد اعترفت منذ وقت مبكر بالسيادة المصرية. إن **أوناس** ملك **مصر**، حول عام ٢٤٢٥ق.م، قد صُوِّر فى معبد المدينة، بينما تعانقه «*سيدة **بيبلوس***» الإلهة **بعلت** زوجة **بعل**، وهى فى هيئة الإلهة **حتحور**، وهو مثال آخر على النزعة التلفيقية الدينية التى تعضد الوحدة السياسية. وقبل قرن من الزمن، ربما كان **ساحورع** قد اقترن بامرأة من **فينيقيا**، ليستهل بذلك عادة الزواج من أميرات أجنبيات، والتى ستصبح من الأمور الشائعة فى عصرِ **الرعامسة**. وإذا كان لنا أن نصدق التقليد الكلاسيكى المتواتر، والذى ظهر فى أزمنة متأخرة، فإن **إيزيس**، على ما يظن، هى التى علَّمت فتيات **بيبلوس** استخدام غطاء الرأس والتعطر بالطيب.

وفى زمن الحروب والدسائس الآسيوية، ستظل **بيبلوس** على الدوام من أخلص حلفاء **مصر**.

❖

(*) شمال **بيروت**. (المترجم)

(**) علامة الاستفهام الموضوعة بين قوسين تعنى أن الكلمة التى تسبقها تنطوى على معلومة غير مؤكدة. (المترجم)

أما فى الشرق، وفى **بلاد الرافدين** النائية، وفى المناطق المنخفضة من وادى نهر **الفرات**، سوف يقوم **سارجون** الفاتح بضم مملكتَىْ **سومر** و**أكاد** فى إمبراطورية موحدة، ستضم أيضًا **عيلام**. وعند شواطئ **دجلة**، لم تكن المملكة **الآشورية** وعاصمتها **أشور**، قد بلغت آنذاك القوة السياسية التى ستصل إليها فى عهد **الرعامسة**. ولايبدو أن هذه البلدان قد ربطتها روابط مباشرة مع **مصر**(؟).

❖

وفى الشمال فى شرق **البحر المتوسط**، تأكد وجود علاقات مع جزيرتَىْ **قبرص** و**كريت**، منذ عام ٣٠٠٠ق.م. وقد عُثر فى جزيرة **كريت** على علامات هيروغليفية تعود إلى الأسرات المصرية الأولى، استُخدمت عناصر زخرفية، كما عُثر فى مقابر وادى **النيل** على دنان فخارية من جزر بحر **إيجه**. كانت هاتان الجزيرتان الكبيرتان تمدان **مصر** أساسًا بالنحاس وزيت الزيتون والخشب العطرى. ومنذ ذلك الزمن تخصصت مدينة **فايستوس** Phalstos، فى جنوب غرب جزيرة **كريت**، فى الاتِّجار مع **الدلتا**.

كما يعتقد أن جزيرتَىْ **ميلوس** Melos و**ساموس** Samos كانتا مصدرا السبج، أى الزجاج البركانى الذى كان مستخدمًا فى **مصر**، منذ تلك العصور القديمة.

❖

وأخيراً، ففى الغرب، فى **ليبيا** الحالية، كانت تعيش أقوام متنوعة تشبه بعضها بعضًا، من الناحية العرقية، سكان **الدلتا**، وكان **التحنو** هم الأقدم على ما يعتقد، وقد تأكد وجودهم على سطوح الصلايات المصرية التى تعود إلى عصور ما قبل التاريخ. أما **التيمحو** فكانوا شعوبًا مارست تربية الحيوان وزرع الأشجار. وفى حدود مصادرنا قام **سنفرو** بأول حملة إلى **ليبيا**، ويحيطنا **حجر باليرمو** علمًا بأنه عاد من هناك ومعه ١١٠٠٠ أسير و١٣١٠٠ رأس ماشية. وفى الحقيقة كان الهدف من هذه الحملات، فى المقام الأول، منع هذه الشعوب من الوصول إلى القسم الغربى من **دلتا النيل**، وهو ما سوف يشغل بال الملوك **الرعامسة** أيضًا.

لقد تبنى الفراعنة الأوائل إذن سياسة شاملة من أجل استكشاف العالم المحيط

بهم وثرواته، لم يكن الهدف منها تحقيق الفتوحات أو توسيع المملكة، بل كانت تحركها الاحتياجات الاقتصادية، أى البحث عن المنتجات اللازمة للحياة اليومية وإقامة الشعائر، والتى كانت **مصر** تفتقر إليها. أضف إلى ذلك الاهتمام بالحفاظ على سلامة حدودها الطبيعية.

وتؤكد دراسة علاقات **مصر** الخارجية فى الألف الثالث قبل الميلاد، منذ ذلك الزمن، على وجود بعض المبادئ التى ستصبح فيما بعد مبادئ **الرعامسة** بعد انقضاء خمسة عشر قرنًا. تلك هى المنابع التى ستنهل منها **الإمبراطورية**.

الأهرامات والمسلات

كان *الملك -الإله* يرقد، إلى أبد الآباد، فى تابوته الحجرى، فى حجرة الدفن السرية داخل الهرم، المختفية تحت كتلة البناء الضخمة التى تشكل البناء العلوى لهذا المَعْلَم الأثرى. إن أكثر الأهرامات ارتفاعًا، هو هرم الملك **خوفو** الذى يبلغ ١٤٦مترًا(*). وقد أطلق الإغريق على هذه المعالم الأثرية اسم **پيراميد** Pyramide عندما شبهوها بكعكة من الدقيق والعسل، كان شكلها يتخذ هيئة الهرم، واسمها **پيراميس** Pyra-mis، إنه تشبيه قاصر وتماثل شكلى، يقلل من شأن هذا البناء المعمارى المهيب، والذى كان المضريون يطلقون عليه **مير**.

أجل لقد كان بناءً مهيبًا، ليس فقط لأنه كان يُدرج فى عداد عجائب الدنيا السبع(**)، ولكن لأنه فيض إلهى؛ فهو شعاع نور متحجر منبثق من الشمس ويلامس سطح الأرض. وتشير النصوص[9] إلى «*هذا اليوم الذائع الصيت عندما صعد الملك إلى مكانك، أيا رع! لقد داس بقدميه إشعاعك المجيد، وجعله سلَّمًا تحت قدميه*».

(*) وإن كان ارتفاعه فى الوقت الراهن ١٣٨ مترًا. (المترجم)

(**) وهى العجائب التى حددها الكُتَّاب الإغريق فى القرن الأول الميلادى، ومنها هرم **خوفو** ومنارة **الإسكندرية**. وهناك خطأ شائع يرى مثلاً أن برج **إيفل** أو برج **بيزا** المائل أو سور **الصين** من عجائب الدنيا السبع. ولا مانع من النظر إليها باعتبارها من عجائب الدنيا، بعيدًا عن الرقم سبعة. (المترجم)

إن الهرم، وكان مدرجًا، فى بادئ الأمر، ونذكر فى هذا الصدد الهرم الذى أمر **چسر** ببنائه فى **سقارة**، ليصبح أول مَعْلَم فى الفن المصرى، شُيِّد بالحجر المصقول، فالهرم هو «السلَّم» الضخم، الذى يرتقى بواسطته الملك المتوفى، صاعدًا نحو أبيه **رع**، ليتحد به اتحادًا أبديا.

وفوق هضبة **الجيزة**، وقرب غابة نخيل **سقارة**، وفى مكان لا يبعد كثيرًا عن العاصمة **منف**، تقف شامخة أهرامات الملوك الذين تربعوا على عرش **مصر**، بدءًا من الأسرة الثالثة وحتى الأسرة السادسة. كانت المجموعة الجنائزية الملكية لا تقتصر على الهرم، فعند شاطئ **النيل** كان معبد فى هذا المكان المنخفض من الوادى يستقبل جسد الملك المتوفى، بعد نقله على سفينة انطلاقًا من **منف**، فيرقد هنا لفترة سبعين يومًا، وهى المدة اللازمة للانتهاء من عملية التحنيط. ثم يسير الموكب عبر طريق صاعد ليصل إلى معبد قائم فى مكان مرتفع، يطلق عليه اسم المعبد الجنائزى، وكان يشيد فى المعتاد عند الواجهة *الشرقية* من الهرم(*). وهكذا فإن الكاهن عندما يقوم يوميا بأداء الشعائر الطقسية، يتجه ناحية **الغرب**، المكان الذى تختفى فيه الشمس عند المساء. وبفضل مبدأ التماثل، يصبح **الغرب** مملكة الموتى. وحول الهرم تتجمع مصاطب[١٠] كبار الموظفين، فتصطف على جانبَىْ شوارع منتظمة. هكذا تصبح الجبانة انعكاسًا للبلاط الملكى فى **منف** وقد تجمَّدت فى الحجر إلى الأبد.

وفى ظل الأسرة الخامسة، زمن «*الهيمنة*» الشمسية، شُيِّد معبد آخر، بجوار المعبد الجنائزى للهرم، خُصِّص لعبادة **رع**[١١]. إن موقع هذا المعبد ذاته يربط الخدمة الإلهية بالشعائر المقامة من أجل الملك، ويوحِّد بينهما من خلال شراكة وثيقة بين الملك والإله.

(*) من الملاحظ مثلاً أن المصريين قد بنوا هيكل قرابين هرم **أوسركاف** فى **أبوصير** فى الجهة الشرقية، وبنوا باقى أجزاء المعبد الجنائزى فى الجهة الجنوبية، وهى ضرورة حتَّمها موقع المكان. د.أحمد فخرى، الأهرامات المصرية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٢، ص٢٨٣. (المترجم)

وعُثر فى **أبو غراب** على أطلال معبد الشمس الذى شيده **نى أوسر رع**. والمعبد غير مسقوف، ليتمكن **رع** من النفاذ إلى مسكنه دون عناء. وللوصول إلى داخل المعبد يمر المرء عبر رواقٍ يفضى إلى فناءٍ فسيحٍ، فى وسطه مذبح، ومن خلفه شُيِّد هرم ناقص تعلوه مسلة ضخمة.

هكذا ظهر شكل المسلة لأول مرة. إنها مظهر من مظاهر شعيرة **البيوت إيل** أو **بيت إيل** فى المفرد، أى «بيت *الإله*»، التى شاعت وانتشرت فى حضارات الشعوب السامية. و**البيت إيل** هو حجر مُشيَّد، كما أنه حجر مقدس، ينظر إليه باعتباره بيت الإله. ونلتقى بمثل هذه الظاهرة فى حضارات الشرق القديم(*).

إن المسلة المصرية – واسمها **بن بن** فى اللغة المصرية القديمة – تصور الحجر الذى تألق(**) فوقه الشمس للمرة الأولى، فإذا خرج(**) من الخواء الأصلى، نوراً متوهجاً، فقد خلق الكون.

إن عدداً من مسلات عصر **الرعامسة** تزدان بها، فى الوقت الراهن، ميادين العواصم الأوروبية، لقد أصبحت الآن معالم معزولة وبلا موضوع، وبعيدة عن الفكر الذى كان قد صممها فى زمن المملكة التى يسودها الهدوء.

(*) راجع فى هذا الصدد حلم **يعقوب** كما ورد فى **سفر التكوين** من العهد القديم من الكتاب المقدس، الإصحاح ٢٨ الآيات من ١٠ إلى ٢٢. ونذكر تحديداً الآيات من ١٧ إلى ١٩: ... فخاف (**يعقوب**) وقال: «ما أرهبَ هذا المكان! ما هذا إلا **بيت الله**! هذا باب السماء!». ثم بكرَّ **يعقوب** فى الصباح وأخذ الحجر الذى وضعه تحت رأسه وأقامه نصباً وصب على رأس الحجر زيتا. وسمى ذلك المكان **بيت إيل**...

وفى الهامش وتعليقاً على عبارة **بيت إيل**، يقول المفسر إنها تعنى **بيت الله**. الكتاب المقدس، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٩. (المترجم)

(**) التزمنا بالتذكير ليستقيم المعنى. (المترجم)

الدفاع عن المملكة

الثورة

ومع نهاية الأسرة السادسة، حول عام ٢٢٦٠ق.م، قاد ضعف الملك **بيبى** الثانى وكبر سنه، إذ امتدت سنوات حكمه حتى بلغت تسعين سنة لتصبح الأطول فى التاريخ، قاد إلى تصدع المؤسسة الفرعونية الأولى وانهيارها. كانت القوى التى تهدد السلطة الملكية تغذيها طموحات حكام الأقاليم وتطلعات الكهنة، وربما أيضاً قدر من مقاومة الطبقات الدنيا من سواد الشعب، كل هذه الأسباب مجتمعة أخذت تبرز بوضوح أكبر، حتى آلت إلى اضطرابات وقلاقل اجتماعية، نجد صداها فى بعض النصوص:

انظروا إذن، فالرجال المفلسون صاروا أصحاب ثروات، ومن كان يتعذر عليه أن يصنع لنفسه زوج نعال يملك منها أكواماً.

انظروا إذن، الأغنياء ينتحبون والمعوزون فى فرح، وكل مدينة تقول: «دعونا نطرد الأقوياء من ديارنا ...»

*انظروا إذن، الذهب واللازورد والفضة والفيروز والعقيق الأحمر والبرونز وحجر **النوبة** تحيط بجيد الخادمات، بينما تهيم السيدات الكريمات الأصل فى طول البلاد وعرضها، ومن كنّ (فى الماضى) سيدات بيت، يقلن الآن: «واه! ليتنا نحصل على بعض ما يسد الرمق!»(١٢)*

كانت أزمة الضمير خطيرة. فلأول مرة، وهى المرة الوحيدة فى تاريخ البلاد، بدأ المصرى، بعد أن حُرم من البنى الهيكلية للنظام الملكى التى تُدخل عليه الطمأنينة، بدأ يطرح على نفسه الأسئلة وتنتابه الشكوك ويفكر فى الموت الذى يخلِّص المرء من منغصات الحياة.

الموت اليوم أمامى

مثل الشفاء بعد مرض،

مثل أول خروج بعد حادثة.

الموت اليوم أمامى

مثل رائحة المرّ،

مثل الجلوس تحت الشراع، فى يوم تشتد فيه الرياح.

الموت اليوم أمامى

كعطر زهرة اللوتس،

مثل حقيقة الوقوف عند شاطئ الثمل والسُكْر.

الموت اليوم أمامى

كطريق مألوف،

كعودة الإنسان من الحرب إلى داره.

الموت اليوم أمامى

كالسماء التى تصفو،

عندما يكتشف المرء ما لم يكن يعرفه...(١٣)

واستغل بدو أرض **كنعان** هذه الأوضاع ليجتاحوا القسم الشرقى من **الدلتا**، وأدرك المصريون آنذاك أنهم ينتمون إلى *أمة* وإلى *وطن*، تقع على عاتقهم مهمة تأمين سلامتهما.

سيختفى كل شىء طيب، وستصبح البلاد واطئة الأرض، بسبب التعاسة الناجمة عن هذه الأطعمة(١٤)*، (أى) عن الأسيويين المنتشرين فى طول البلاد وعرضها.*

*وفى الحقيقة سوف يحلُّ الأعداء ناحية **الشرق**، ويهبط الأسيويون إلى **مصر**... وتأتى حيوانات الصحراء[١٥]، لترتوى من نهر **مصر** وتنتعش عند شطآنها، أما الذين يستطيعون طردها فغائبون[١٦].*

بدأت كلمتى «*بلدنا*» و«جيشنا» فى الظهور فى سياق النصوص، فكانتا المصدرين الأولين لصياغة مفهوم الإمبراطورية فى العقول.

واستمر هذا الوضع المضطرب لما يقارب قرنًا من الزمن، وتعاقبت الأسرات المحلية من الثامنة حتى العاشرة، فكانت تحكم أحيانًا حكمًا متوازيًا ومتزامنًا، إلى أن جاء الأمراء **الأناتفة**(*)، المنحدرون أصلاً من **طيبة** فى **مصر العليا**، واستعادوا وحدة المملكة وأعادوا النظام الفرعونى، حول عام ٢١٦٠ق.م، إلى سابق عهده.

من أجل حماية السلطة الملكية

فى ذلك الزمن، أصبح آل **أمنمحات** وآل **سنوسرت** «**الرعاة الصالحين**» على رأس قطيعهم. إن هذه العبارة التى ظهرت آنذاك سوف تنتشر على نطاق واسع فى عصر **الرعامسة**[١٧]، عندما امتزجت عظمة الجلالة الملكية بالبشرية، وعندما أصبح الإنسان الهدف الأعظم لعملية الخلق وغايتها. ونقرأ الكلمات التالية التى وجهها **خيتى** الثالث إلى ابنه **مرى كا رع**[١٨]:

لقد أنعم بالكثير على البشر، فهم قطيع الإله الذى شكل السماء والأرض حسب رغبتهم، وردع المخلوق الشرير (أى التمساح)، والذى خلق نسمة الحياة من أجل أنوفهم، إنهم صوَرُه المنبثقة من جسده. ومن أجلهم خلق النبات والماشية والطيور والأسماك، غذاءً لهم. وخلق النور حسب رغبتهم... وعندما يبكون فإنه يسمع. لقد خلق

(*) مجموعة من الأمراء يحملون لقب **أنتف**. (المترجم)

لهم ملوكًا منذ البيضة، وجعل منهم قادة ليكونوا سندًا لظهر الرجل الضعيف... إن الإله يعرف كل اسم من الأسماء(١٩).

لقد وُلد نظام ملكي جديد، ليصبح الحارس اليقظ.

وأعاد **أمنمحات** الأول رسم حدود الأقاليم، وهي نقطة حرجة مرتبطة بالإدارة الإقليمية، وأُعيد تنصيب حكام الأقاليم وتثبيتهم في وظائفهم على أساس طاعة الملك، مع استبعاد توريث المناصب استبعادًا قاطعًا. وعندما أظهروا من جديد نزعات استقلالية قام **سنوسرت** الثالث بإلغاء هذا المنصب، وعاد البلاط الملكي ليصبح مركز الإدارة، وبات الوزير يعاونه من الآن «**كبراء الجنوب الثلاثون**».

ركز ملوك الأسرة الثانية عشرة جلَّ اهتمامهم على ازدهار الاقتصاد، بعد الأزمة الخطيرة التي مرت بها البلاد. فنفذوا مشاريع تنمية **الفيوم**، وهي واحة شاسعة تقع إلى الجنوب الغربي من **القاهرة** الحالية، ويرويها فرع من **النيل**، هو **بحر يوسف**. وأقاموا منظومة من الترع والقنوات هدفها تنظيم توزيع المياه، فأنشأوا سهلاً فسيحًا خصبًا. وشيَّدوا هَويسًا قرب **اللاهون**، عند مدخل الممر الذي ينفذ منه **بحر يوسف** إلى الواحة. كان هذا الهويس ينظم تدفق المياه، في حين شيَّدوا سدًا كبيرًا لحماية الوادي من المخاطر التي يشكلها تراكم المياه في زمن الفيضان. إن الاهتمام بتنمية هذه المنطقة سيصبح فيما بعد أيضًا الشغل الشاغل **للرعامسة**. وبعد **طيبة** التي كانت عاصمة البلاد في ظل الأسرة الحادية عشرة، حلت محلها **اللشت** عند مدخل الفيوم، في عهد **سنوسرت** الأول.

إن أعدادًا كبيرة من الحملات أُرسلت إلى **سيناء** وأصبحت تضم الآن من ٧٠٠ فرد إلى ٨٠٠ فرد للحملة الواحدة، فجُلبت إلى **مصر** منتجات شبه الجزيرة النفيسة، واستعادت التجارة مع **كريت** ازدهارها. ومنذ الأسرة الحادية عشرة أُعيدت إلى درب **وادي الحمامات** كفاءته، فهو الطريق إلى المحاجر وإلى **البحر الأحمر**. وفي منتصف الطريق أُقيمت واحة، وبجوار ميناء **القصير** أُنشئ ميناء **وادي جاسوس**، ومن الآن فصاعدًا سوف تصنع فيه السفن من خشب الأرْز، التي ستبحر في اتجاه بلاد **بونت**.

وعاد الازدهار إلى سابق عهده.

وفى هذا العصر ظهرت الترانيم من أجل الملك، وسوف يزدهر هذا النوع فيما بعد، لاسيما فى عصر **الرعامسة**. وعلى هذا النحو يعلن البشر اعترافهم بالجميل نحو الملك الذى يشاطرهم معاناتهم ويحميهم، كما أنه ملاذ الشعب وملجأه.

هكذا، فإبان قيام **سنوسرت** الثالث بزيارة إحدى مدن **مصر العليا**، وفى وسط الأفراح والاحتفالات الشعبية، ارتفعت أغانى جوقات المنشدين بالتناوب:

ما أعظم السيد لمدينته!

هو وحده يعادل الملايين! فالرجال الآخرون صغار

ما أعظم السيد لمدينته!

إنه القناة التى تحجز النهر من تدفق المياه

ما أعظم السيد لمدينته!

إنه القاعة الرطبة التى تسمح للإنسان أن يستريح حتى مطلع النهار

ما أعظم السيد لمدينته!

إنه سور ذو جدران نحاسية(٢٠)

ما أعظم السيد لمدينته!

إنه الملاذ الذى لا يضعف ساعده أبدًا

ما أعظم السيد لمدينته!

إنه الملجأ الذى ينجِّى الإنسان الخائف من أعدائه

ما أعظم السيد لمدينته!

إنه المأوى فى زمن الفيضان، والماء الرطب إبان الفصل الحار

ما أعظم السيد لمدينته!

إنه ركن دافئ وجاف شتاءً

ما أعظم السيد لمدينته!

إنه الجبل الذى يصد الرياح، عندما تهب عواصف السماء

ما أعظم السيد لمدينته!

*إنه (الإلهة) **سخمت**[٢١] فى مواجهة الأعداء الزاحفين على حدوده*[٢٢]

الحروب الخارجية وأول المواقع الاستيطانية

كما أصبح من الضرورى حماية البلاد من أى غزوات محتملة. ومن الآن، صارت **مصر** لا تسعى فقط إلى تأمين توسعها على الصعيد الاقتصادى، ولكن كان عليها أيضًا أن تدافع عن نفسها.

فعند حدود **الدلتا** الشمالية الشرقية شيد **أمنمحات** الأول **أسوار الملك**، وهى سلسلة من الحصون موزعة فى صف واحد من **بلوزيوم** حتى **هليوبوليس**، ويشغل كل واحد منها حامية صغيرة، مهمتها منع تسلسل البدو الرحل الذين اجتاحوا البلاد على امتداد قرنين. ويبدو أن المهاجرين الذين حلُّوا فى **مصر** واستقروا فيها قد حُرموا من حريتهم، وأُلحقوا بحيازات المعابد وكبرى الأملاك، ليشكلوا أولى الأيدى العاملة الأجنبية التى سيثير وجودها، فى أزمنة لاحقة، وفى عصر **الرعامسة** تحديداً، العديد من المشاكل.

واستُعيدت سياسة الصداقة وعلاقات التبادل الجيدة مع **أسيا** و**بيبلوس**، على وجه التحديد، وهيمنة **مصر** على **الريتنو** فى جوف **فينيقيا**. وتحقيقًا لهذا الهدف اضطر **سنوسرت** الثالث أن يُجرِّد حملة عسكرية حتى بلغ **سيشم** وهى مدينة **نابلس** الحالية. إن سيطرة **مصر** على هذه المناطق سوف يتيح لها فرض رقابتها على طرق **أسيا** التجارية، وقد برزت أهميتها تحديداً عندما أخذت إمبراطورية **بابل** الجديدة، فى **بلاد الرافدين**، تزدهر ازدهاراً ملحوظًا.

كان الوضع فى **إفريقيا** مختلفًا كل الاختلاف، فمن خلال ثلاث حملات ضمن **سنوسرت** الأول سيطرة **مصر** حتى الجندل الثالث، وقد استكمل **سنوسرت** الثالث إقرار السلام فى هذه البلاد.

ولإنجاز عملية تمصير الأراضى النوبية والسودانية أقدم **سنوسرت** الأول وخلفاؤه على تشييد المدن والمعابد والحصون، بهدف غرس وتوطيد سلطة ملك **مصر** على أكمل وجه فى بلاد **واوات** الممتدة من الجندل الأول حتى الجندل الثانى والمطابقة **للنوبة السفلى**، وفى بلاد **كوش** الممتدة من الجندل الثانى وحتى الجندل الرابع، والمطابقة للأراضى السودانية(*).

كانت **النوبة** و**السودان**، بالنسبة للمصرى القديم، امتداداً طبيعيا **لمصر**، ينظر إليهما باعتبارهما جزءًا لا يتجزأ من أراضيها. وعند مستوى الجندل الثانى، وعند نقطة التقاء المنطقتين الإفريقيتين(**)، تأسست مدينة **بوهن**، لتصبح مركز الإدارة المصرية فى هذه البلاد، ولتحل محل **عنيبة** البلدة النوبية، ولتقوم بدورها عاصمة قديمة لهذه الأصقاع. وشُيِّدت الحصون والقلاع على امتداد نهر **النيل**، ومن حولها خنادق مغمورة بالماء، ومحاطة بسور من الطوب وأبراج بارزة تخترقها المزاغل. إن جسراً متحركًا من الخشب كان يحمى مدخل هذه البنايات الدفاعية من جهة الصحراء، ويربطها بالنهر طريق منحدر. إن أكثر هذه المنشآت تطرفًا ناحية الجنوب أقيمت فى بلدتى **سمنة** و**قمة**، وتقعان على بعد ٧٠كم جنوب **بوهن**، الأولى على الشاطئ الأيمن والأخرى على الشاطئ الأيسر، وكانتا تحميان الوادى الذى يشكل فى هذا المكان ممرا ضيقًا إلى حدٍّ كبير(***).

(*) ويطلق عليها أيضًا **النوبة العليا**. (المترجم)

(**) أى **واوات** و**كوش**. (المترجم)

(***) يضم كتاب العمارة فى مصر القديمة، لعالم المصريات المصرى الدكتور محمد أنور شكرى، المتوفى فى ٨٧/٦/٢، رسومات تخيلية لهذه الحصون من شكل ١٣ إلى ١٦. كما يمكن الرجوع إلى M. Damiano-Appia: L'Egypte. Dict. Enc. de l'Anc. Egypte, Gründ, 1999 لمشاهدة تصور تخيلى لحصن **هلفاك** شمال **سمنة** من ص٢٤١ إلى ٢٤٨، فيعطى تصوراً رائعًا على امتداد هذه الصفحات الثمانى لهذا الحصن، وكأنها صورة ضوئية حية، لما كانت هذه الحصون عليه قديمًا. (المترجم)

هكذا، أخذ ملوك الأسرة الثانية عشرة، احتياطاتهم، ضد الغزوات المحتملة التى قد تقوم بها القبائل السودانية، وسيطروا سيطرة صارمة على هذه الربوع، لتصبح مستوطنات مصرية حقيقية، ومن أراضى الإمبراطورية فى المستقبل.

طيبة وآمون وأوزيريس فى أبيدوس

ولأول مرة، تندمج مدينة **طيبة** فى **مصر العليا** فى الحياة السياسية. وبالفعل فقد كانت المدينة العاصمة بالنسبة **للأناتفة والمناتحة**(*)، وحتى إذا هجرها ملوك الأسرة الثانية عشرة، وانتقلوا إلى **اللشت** الواقعة بعيداً جهة الشمال، فإنها ستظل محتفظة من الآن على أهمية مؤكدة. وشرع **سنوسرت** الأول يشيِّد أضخم مجموعة مقدسة فى التاريخ فيما نعلم، وهى معبد **الكرنك**، إنه أرض الإله **آمون** الذى دخل إلى عالم الشهرة من أوسع أبوابه، جنباً إلى جنب مدينته، وفى آن واحد.

إن **آمون** الذى لم تأت النصوص قط على ذكره حتى الآن، كان إله النسيم ونسمات الهواء والمرشد الموفق لمراكبيَّة نهر **النيل**، ويتلوَّن لحمه فى الغالب باللون الأزرق السماوى، ويظهر بغطاء رأس مرتفع ذى ريش. إن قادمتى(**) الصقر اللتين تعلوان قاعدة تاجه تذكرنا بأصوله السماوية. وقد كُرِّس له معبد فى **طيبة** منذ عام ٢٢٠٠ق.م. تقريباً.

وعندما أقدم الوزير **أمنمحات**(***)، وكان فى خدمة آخر المناتحة، على اغتصاب السلطة ليؤسس الأسرة الثانية عشرة، حول عام ٢٠٠٠ق.م، أعطى فى ذات الوقت الأولية لراعيه الإلهى وحاميه. وكوَّن من أجله سلكًا كهنوتيا له شأنه، يضم نحو عشرة

(*) مجموعة الملوك الملقبين **منتو حوتب**. (المترجم)

(**) القادمة هى إحدى ريشات مُقدم الجناح. المعجم الوسيط. (المترجم)

(***) **آمون إم حات**، بالمصرية القديمة. (المترجم)

ومعنى الاسم **آمون** هو الأول. (المؤلفة)

كهنة، كانوا جميعهم فى كبار الموظفين. ومن ثم فقد كان «*الكهنة الإلهيون*» الأربعة يشغلون إما منصب حامل الأختام أو كانوا من حكام الأقاليم.

ولكن كان يصعب على **آمون** أن يفرض نفسه بمفرده. فقد ظل **رع** إله **هليوبوليس** قويا، كما أن **سنوسرت** الأول ابن **أمنمحات** الأول شيَّد له معبداً فى مدينته، وتتباهى المدونة التكريسية لهذا الأثر بأنه تسلَّم مُلكه من **حور أختى** (أى «*حورس الأفقين*»).

*لقد أنجبنى **حور أختى** لتنفيذ ما ينبغى عمله من أجله، ولتحقيق ما أمر بإنجازه. لقد أراد أن أكون الراعى الصالح لهذا البلد، لأنه يعرف من يستطيع الإبقاء عليه فى نظام. لقد منحنى الموضوع الذى يشغل باله على الدوام، أى ما تنيره عينه*[٢٢]*... لقد جعلنى **سيد القطرين**، بينما كنت لا أزال غلاماً أغلف غير مختون...*

وتم التوصل إلى «*حل وسط*»، وفقًا لطريقة جديدة من التلفيقية الدينية، فتحولت الآلهة المحلية إلى أشكال أو أقانيم للإله **رع** الذى تآلف تآلفًا حميمًا مع إله **طيبة** الجديد، بل امتزج به. ومن الآن فصاعداً فإن **أمون - رع** بفضل سموه الروحى وتفوقه، سوف يقف على رأس مَجْمع الآلهة المصرية. هكذا سيصبح **أمون - رع** الإله العظيم للإمبراطورية.

كما أنه زمن انتشار عبادة **أوزيريس** على نطاق واسع بصفته إله البعث والقيامة، فمن خلال النموذج الذى يقدمه للبشر يوفر لهم الأساليب التى ستساعدهم على بلوغ الحياة الأبدية. ومن الآن لن يكون الخلود وقفًا على **فرعون**، بل سيُمنح لكل الذين يتمكنون بفضل سحر الشعائر والتعاويذ الدينية أن يكرروا لحسابهم الخاص وقائع أحداث موت الإله وقيامته.

إنه زمن اختيار **أوزيريس** موقع **أبيدوس** ليستقر فيه بشكل نهائى، ولتصبح هذه المدينة القائمة شمال **طيبة**، ولا تبعد كثيراً عن مدينة **ثنى** العاصمة الأولى للبلاد، مكانه المقدس العظيم. هذا التوطُّن الوطيد يعود فى أغلب الظن إلى **الأناتفة**، الأمراء

المحررين، الذين أرادوا بهذه الطريقة التواصل مع التقليد القديم المتواتر، ليربطوا نظامهم الملكى الجديد بحيوية هيبة السنوات الأولى للنظام الملكى. إنه زمن الاحتفال بأول الأسرار الدينية المستغلقة، من أجل استعادة أهم فقرات أحداث المعجزة **الأوزيرية**، من خلال الأداء المسرحى للإيماءات والكلمات. كما أنه زمن قيام رحلات الحج من كل حدب وصوب، متجهة نحو المدينة المقدسة، إلى جوار **أوزيريس**، سعياً فى طلب الضمانات التى تكفل الحياة الأبدية.

وبجدٍ ونشاط، انهمك الملوك «*الرعاة الصالحون*» فى أعمالهم، لتتولى الآلهة الدفاع عن المملكة وحماية البشر، ولكن طرأت فجأة مخاطر خارجية جسيمة.

المرحلة الأولى من الفتوحات القصية: إمبراطورية التحامسة

الغزوات والاضطرابات فى الشرق الأدنى

حول العام ٢٠٠٠ق.م، على ما يبدو، ومع قيام الأسرة الثانية عشرة، بدأت شعوب **آرية** تتحرك في اتجاه الجنوب. ربما جاءت من المناطق الواقعة شمال **بحر قزوين** و**البحر الأسود**. هكذا تدفق تيار ضخم من الهجرات.

استقبلت **إيران** أولى الهجرات، عندما وصلها **الميديون** و**الفرس** الذين سيقومون فى المستقبل وبعد مرور عشرة قرون، بدور بارز ومهم فى التاريخ. وإذ عبر غزاة آخرون **المضايق**(*)، فقد حطوا الرحال فى **الأناضول** ليؤسسوا مملكة **الحيثيين**. وتشكلت دولة **الميتانى** فى المنطقة الجبلية الواقعة عند منابع نهرَىْ **دجلة** و**الفرات**، ليفرضوا سيطرتهم على **الحوريين**(**)، الأقدم منهم(؟) والذين ظلوا مقيمين عند

(*) مضايق **البوسفور** و**الدردنيل**. (المترجم)

(**) **الميتانى** بنو عمومة **الحوريين**، وكلاهما من الشعوب **الهندوأوروبية**. د.عبدالعزيز صالح. الشرق الأدنى القديم. مكتبة الأنجلو المصرية. ١٩٨٤. ص٤٩١. (المترجم)

أطراف المملكة الجديدة. أما **مملكة بابل**، وكانت فى أوج ازدهارها، فى ظل حكم **حامورابى**، فقد استطاعت الصمود لبعض الوقت، ولكن عند وفاة العاهل الملكى لم يتمكن ابنه أن يتجنب قيام **الكاسيين**(*) بتأسيس أسرة ملكية جديدة.

أما **الساميُّون** من السكان الأصليين فقد تراجعوا فى اتجاه **الجنوب** بعد أن طردتهم الغزوات **الهندوأوروبية**. وبوفاة **أمنمحات** الرابع الذى أثارت قضية خلافته مشاكل عويصة داخل الأسرة الحاكمة، نفذ **الساميون** إلى داخل **مصر**، مستفيدين من الضعف المؤقت الذى أصاب المملكة. هذه الشعوب الآسيوية، وكان على رأس كل شعب منهم زعيم، تطلق عليها النصوص المصرية عبارة **حكاوخاسوت** ومعناها الحرفى «*ملوك البلدان الأجنبية*» وقد صحّفه الإغريق إلى **هكسوس**. وظلت أسرتان مصريتان هما الثالثة عشرة والرابعة عشرة، تحكمان دون تحقيق أمجاد تذكر، وحاولتا وقف زحف موجات الهجرات. ولكن حوالى ١٦٩٠ق.م، فى عهد **ديدومسو** الملك قبل الأخير من ملوك الأسرة الرابعة عشرة، احتل **الهكسوس** مصر بأكملها، وأشاعوا الرعب والإرهاب. وسوف تظل ذاكرة المصريين تحتفظ لفترة طويلة بذكرى بشعة عن هذه السنوات المرعبة. ونُصِّب أحدهم - وهو **ساليتس** - ملكًا، ليؤسس الأسرة الخامسة عشرة. ووقع اختيارهم على **أواريس**، عند الحدود الشرقية **للدلتا**، لتصبح عاصمة لهم، واتخذوا من **ست**[٢٤] بعد أن أدمجوه فى **بعل**، إلهًا رسميا.

التحرير على أيدى ملوك طيبة

ومرة أخرى، جاءت نهضة **مصر** من **الجنوب**، ومن مدينة **طيبة** تحديداً.

وبالفعل، لم يتمكن **الهكسوس** من فرض هيمنتهم على **مصر العليا** لفترة طويلة، إذ استطاع أمراء **طيبة** إقامة مملكة صغيرة، التزمت بالأسلوب الفرعونى، فضمت قسمين إداريين يدبر شئون كل منهما وزير. وأسسوا ما تطلق عليه مصادرنا اسم

(*) ساد **الكاسيون** على مملكة **بابل** من ١٥٣٠ إلى ١١٦٠ق.م. (المترجم)

الأسرة السابعة عشرة المصرية التى لم تتمكن من فرض سيطرتها الفعلية سوى على **مصر الوسطى** و**مصر العليا**.

وأخيراً استطاع **سقنن رع تاعا** وابناه **كامس** و**أحمس** أن يطردوا **الهكسوس**، بعد أن حرروا على التوالى **هرموبوليس** و**منف**، وقضوا على تحالف شكَّله **الهكسوس** مع أمير بلاد **كوش**، فقد اجتاح **كامس** **الواحات البحرية** فى **الصحراء الغربية**، وكانت ملتقى الدروب التى توفر اتصالاً مباشراً بين **السودان** و**مصر الوسطى**. واستولى **أحمس** على **أواريس** وطارد الغزاة الذين انسحبوا إلى أرض **كنعان**. وبعد حصار دام ثلاث سنوات استولى على حصن **شاروهان** الذى كان **الهكسوس** قد لجأوا إليه.

هكذا استردت **مصر** حريتها.

وفى عام ١٥٨٠ق.م، قام **أحمس**، بصفته ملك **مصر العليا** و**مصر السفلى**، بتأسيس الأسرة الثامنة عشرة، فكانت أولى أسرات عصر، كان مقدراً له أن يكون من أزهى العصور فى تاريخ **مصر**. وسوف يشكل **الرعامسة** الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين.

شاركت **طيبة** أمجاد أمرائها. وإذ أصبحت من جديد المدينة العاصمة، بصفتها مزكزاً إداريا وسياسيا ودينيا، فقد صارت من أكثر أماكن العالم القديم شموخاً ورفعةً.

وعلى أرض **الكرنك** المقدسة التى تبلغ مساحتها ثلاثمئة ألف متر مربع(*)، سوف يضيف كل فرعون مبانيه الخاصة، تعبيراً عن امتنانه للإله **أمون** «*ملك الآلهة وسيد عروش الأرضين*».

(*) حوالى ٧٢ فداناً. (المترجم)

ومن الآن، كان عدد من الدول العظمى قد ظهرت إلى الوجود فى **الشرق الأدنى**: مملكة **الميتانى**، ومملكة **خاتى**، والإمبراطورية **البابلية** فى أقاصى **بلاد الرافدين**، بينما أفل نجم مملكة **أشور**، بعد أن خضعت لمملكة **الميتانى**.

ومن بين جميع هذه الممالك، سرعان ما ظهرت مملكة **الميتانى**، باعتبارها الأقوى فى ذلك الزمن. فمن عاصمتهم **واشوجانى**، بسط ملوك **الميتانى** سلطانهم شرقًا على بلاد **أشور**، ومناطق نهر **دجلة** الشرقية، وشمالاً على المنطقة التى ستصبح **أرمينيا**، وغربيًا فى اتجاه **فينيقيا**.

إن هذه الدول الجديدة، سواء **الميتانى** أو **الخاتى**، قد ركّزت جلّ اهتمامها، فى بادئ الأمر، على فرض نفوذها على البلدان الثانوية من الناحية السياسية، وإن كانت مهمة، من الناحية الاستراتيجية، إذ تتيح لها الوصول إلى البحر وإلى طرق التجارة الدولية، الأمر الذى يفسّر سياسة الدسائس، التى اعتمدتها أنذاك **الخاتى** حول **كيزوواتنا**(*) **وأرزاوا**(**)، اللتين كانتا تفصلان هذه المملكة عن **البحر المتوسط**. وعلى النحو ذاته كان من مصلحة **الميتانى** أن تفرض هيمنتها على **نهارينا**[٢٥] **ونوحاسا** الواقعتين بين نهر **الفرات** و**فينيقيا**، وتقفان عائقًا أمام منافذها البحرية المباشرة. كما حيكت الدسائس حول **الأمورو** إلى الشمال من **أوجاريت**، فمنها كانت تنطلق الدروب مخترقة الرمال فى اتجاه قلعتَىْ **حلب وكركميش** الحصينين، على وجه التحديد، وكانتا على قدر كبير من الأهمية، لملتقى دروب القوافل.

وبطبيعة الحال، كانت الغاية القصوى من هذه السياسة التحكم فى الموانئ الفينيقية، بعد أن كانت **مصر** تهيمن عليها حتى الآن.

لم تعد مملكة **مصر** الدولة القوية الوحيدة فى **الشرق الأدنى**. فمن الآن ظهر لها منافسون يهددونها، وعلى رأسهم دولة **الميتانى**، التى ستسعى بعد عشرات السنين

(*) جنوب **الأناضول**. (المترجم)

(**) يعتقد أن **أرزاوا** هى **قليقية**. (المؤلفة)

إلى تشكيل حلف له وزن ضد **مصر**، فى محاولة من جانبها، لفرض سيطرتها على شواطئ **البحر المتوسط**، واستبدال نفوذها بالهيمنة الفرعونية التقليدية(*).

عندئذ، ورغبة من ملوك **مصر** فى الدفاع عن مملكتهم بعد أن أصبحت واقعة تحت تهديدات وطموحات منافسيها السياسية، فإنهم سيعملون على اتباع سياسة فتوحات حقيقية، وذلك بفضل قوة جيشهم، والشجاعة الشخصية التى تحلًى بها رجالاتهم، ومساعدة **آمون – رع**. كانت فتوحات دفاعية، الهدف منها حماية **مصر** من عدو محتمل، والحفاظ على مصالحها الحيوية.

كان الغرض من الفكرة الأولى للإمبراطورية إقامة منطقة عازلة تضم عدداً من البلدان التابعة اقتصادياً **لمصر**، هدفها الاستراتيجى الحماية، وخاضعة للإمبراطورية المصرية. لقد جاءت فكرة الإمبراطورية نتيجة للأحداث السياسية التى نشأت فى العالم المحيط **بمصر**، ولم تكن تحركها أبداً رغبة لا مبرر لها فى الاستحواذ على أراضٍ أجنبية؛ فالإمبراطورية الإفريقية أو الآسيوية، على حدٍ سواء، أصبحت من الآن ضرورة حيوية لا مناص منها للحفاظ على **مصر**.

هكذا، فإن المصريين الذين عُرف عنهم حبهم للسلام، فيطيب لهم قضاء أيامهم فى سعادة هادئة، أصبحوا المحاربين المغاورين الذين طبَّقت انتصاراتهم آفاق **الشرق**. كان هدفهم حماية وطنهم ومجتمعهم العتيق وازدهاره، فأصبحوا بعد فترة قصيرة يسيطرون على إمبراطورية شاسعة.

الفاتحون

كان **أمنحوتب** الأول و**تحوتمس** الأول، بدءاً من ١٥٥٠ق.م، من أوائل الملوك الذين عملوا على ضم الأراضى.

(*) مع تجنب الخطأ الشائع، فالباء تدخل على المتروك. راجع على سبيل المثال الآية ٦١ من سورة البقرة. (المترجم)

وعلى صخور جزيرة **طمبس**، جنوب الجندل الثالث من نهر **النيل**، أمر **تحوتمس** الأول بنحت مدونة تروى انتصاراته المظفرة:

*لقد أجهز على زعماء النوبيين. وصار الزنجى بلا قوة وبلا مقاومة بعد أن أمسكه بقبضته. لقد ضمَّ إلى **مصر** حدود جيرانه: ولم يبق أحد على قيد الحياة من بين **الرجال من أصحاب الشعر المقصب** الذين تمردوا على حمايته لهم، لم يبق منهم كائن من كان. لقد طُرح النوبيون أرضًا، مذبوحين ممددين على جنوبهم فى طول البلاد وعرضها[٢٦]. وتفوح من الوديان رائحة الجثث النتنة... ولا يوجد إنسان واحد من بين **الأقواس التسعة** مجتمعة[٢٧] يسير ضده. إنه أشبه بفهد دائم الشباب، متجول وسط قطعان الماشية فى المراعى. إن مجد **صاحب الجلالة** يصيبهم بالعمى.*

*ووصل (المصريون) إلى حدود أركان الأرض، واجتازوا أطرافها، بفضل ساعده القوى الساعى إلى المعركة. ومن الآن لن يوجد من يجرؤ على تحدِّيه. لقد فُتحت وديان كان يجهلها أسلافه، ولم يرها قط من كانوا يرتدون **البشنت**، وتمتد حدوده الجنوبية حتى **جنوب** هذا البلد[٢٨]، وحدوده الشمالية حتى هذه المياه الشاردة التى يصعد تيارها فى اتجاه **الجنوب**[٢٩]. ولم يحدث مطلقًا مثل هذا الأمر من قبل لغَيره من الملوك...[٣٠]*

هكذا، تأسست الإمبراطورية المصرية فيما بين الجندل الثالث على نهر **النيل** وحتى نهر **الفرات**، ومن قلب **إفريقيا** وحتى موانئ **آسيا الصغرى**. وأقام **تحوتمس** الأول لوحًا حجريًا حدوديًا عند ضفاف النهر العظيم، ليرسم حدود فتوحاته الشمالية.

وبالتزامن مع الإمبراطورية، نشأت أيديولوچية حربية جديدة، سوف تتطور تطورًا ملحوظًا فى عهد **الرعامسة**. وينبغى ألا ينخدع المرء بالنبرة الغنائية لهذه النصوص التى تنظر إلى الفتوحات الملكية باعتبارها فتحًا للكون. إن الهدف هدف سحرى، فالنطق بالكلمة يترتب عليه تحقيق ما تعبِّر عنه. هكذا تظل الفتوحات الفرعونية بقدر اتساع الكون، بفضل قوة **الكلمة**. ولا يُعتبر الأمر مبالغة تافهة، أو كما يقال أحيانًا دعاية مبتذلة، ولغوًا لفظيا، بل إنها من مظاهر المعتقدات الروحية الشائعة فى أوساط الساميين والأفارقة.

كان **تحوتمس** الثالث أول ملك يدرك بكل وضوح مفهوم الإمبراطورية.

فعند وفاة **تحوتمس** الثانى الذى استطاع أن يُحكم سيطرة **مصر** على **السودان** و**آسيا**، اغتصبت زوجته **حتشبسوت** السلطة طوال ثلاث وعشرين سنة، بحجة وصايتها على عرش البلاد فى بداية الأمر، لصغر سن الأمير. وعندما تربع هذا الأخير على عرش **مصر** عام ١٤٨٠ق.م، كان الوضع خطيراً، ففى داخل البلاد تركت **حتشبسوت** كهنة **آمون** فى **طيبة** يزدادون نفوذاً على نفوذ، ولكن الأحوال فى **آسيا** على وجه الخصوص كانت تنذر بخطر وشيك.

كانت **قادش**، قلعة حصينة تقع على نهر **العاصى** فى سهل **البقاع**، وسيظل أميرها على الدوام العدو اللدود للسلطة المصرية، ويبدو أنه وقف آنذاك على رأس حلف معادٍ لفرعون، وكان هذا التحالف بمبادرة ودعم من **الميتانيين**، يضم «*ثلاثمئة وعشرين زعيماً، ومع كل منهم جيشه الخاص*». إن حرباً ضروساً، ستدوم عشرين سنة، سوف تحتدم بين **مصر** و**الميتانى**، وتروى أحداثها أطول مدونة تاريخية فيما نعلم، والتى نطلق عليها *حوليات **تحوتمس** الثالث*. إنها عبارة عن ٢٢٥سطراً من النصوص، طول كل سطر منها، خمسة وعشرين متراً، ومنحوتة على الجدارين الشمالى والغربى من الممر الملتف حول قدس أقداس معبد **آمون - رع** الكبير، فى **الكرنك**.

لقد شن **تحوتمس** الثالث سبع عشرة حملة عسكرية متتالية، بواقع حملة كل سنة، فاستطاع إلحاق الهزيمة بهذا التحالف، وترسيخ الفتوحات المصرية عند نهر **الفرات**، بل تمكن إبان الحملة الثامنة من عبور النهر، واكتفى بالإغارة على مملكة **الميتانى**، وكان لا ينوى أن يسير إلى أبعد من ذلك، فظل نهر **الفرات** يشكل على الدوام الحدود الشمالية المثالية فى نظر المصريين.

لقد شُنَّت هذه الحملات من منطلق رؤية استراتيجية صائبة وشجاعة منقطعة النظير، وسوف يستعيد الملوك **الرعامسة** معظم التكتيكات التى اتبعها **تحوتمس** الثالث عندما شرع يخضع بلدان الشمال. ومن الحملة الأولى وحتى الرابعة استعاد **أرض كنعان** و**الريتنو** ليتمكن من إقامة قواعد راسخة فى البلدان المتاخمة **لمصر**، وفى جوف

فينيقيا. أما من الخامسة وحتى الثامنة، فقد كرر لمرتين تأمين نقاط ارتكاز وطيدة على امتداد ساحل **فينيقيا**، فأصبح فى إمكانه سرعة نقل جيوشه عن طريق البحر قبل أن يستولى على *«**قادش** الغادرة»*، ليتجه بعد ذلك شمالاً ويغزو **نهارينا**. وأخيراً، فقد استغلُّ الحملات من التاسعة إلى السادسة عشرة، لقمع كل حركات التمرد والقيام بجولات تفتيشية، تأكيداً للوجود المصرى. وفى نهاية المطاف كرَّست الحملة السابعة عشرة من جديد هزيمة **قادش والميتانى** بشكل نهائى.

إن بعض الروايات الطريفة ترصِّع هذه الملحمة الأولى فى التاريخ المصرى، نذكر منها كيف أخذ الشراب فى الجنود المصريين وأسكرهم، وهم فى سهول **أرواد** وهى من أكثر سهول **سوريا** الحالية خصوبة، بالإضافة إلى نقل السفن المبنية فى **بيبلوس** على متن عربات تجرها الثيران عبر صحراء أعالى **سوريا**، لاستخدامها فى عبور نهر **الفرات**، وأخيراً رحلة الصيد فى مواجهة ١٢٠فيلاً بمنطقة **نيى**، فى بلاد **نهارينا**، وكيف استطاع أحد ضباط الجيش، القائد **أمن إم حب** أن ينقذ حياة الملك. إن رواية مآثر **تحوتمس** الثالث الحربية، وقد سار وحارب فى مقدمة جيشه، تشكل توطئة لملحمة **الرعامسة** المجيدة:

*نهض الملك مع مطلع الفجر. عندئذ صدرت الأوامر إلى الجيش بأكمله بالانتشار... وتقدم **صاحب الجلالة** على متن مركبته المصنوعة من الذهب الخالص، وقد ازدان بحلة المعركة، مثل **حورس** صاحب الساعد القوى، رب القدرة، ومثل **مونتو الطيبى**(*)، بينما يقوم أبوه **أمون** بتقوية ساعديه... وفى خضم المعركة تسرى قوة **ست** فى أطرافه. عندئذ يُمسك **صاحب الجلالة** بأعدائه، وهو على رأس جيشه. وما إن يشاهد هؤلاء الأعداء **صاحب الجلالة** وقد أحكم قبضته عليهم، حتى يفروا هاربين فى اتجاه **مجدو**، ويترنحون ويسقطون ورءوسهم فى المقدمة، ووجوههم مرعوبة...*(٣١)

لما كان **تحوتمس** الثالث قائداً عسكريا عظيمًا واستراتيجيا ماهرًا، فقد اكتسبت **الإمبراطورية** المصرية بفضله هيبة مرموقة فى العالم الشرقى. دول **آسيا**

(*) نسبة إلى مدينة **طيبة**. (المترجم)

قاطبة تقدم له الجزية، عربون خضوعها فى الغالب، أو اعترافًا بقوته فى بعض الأحيان، نذكر منها دول **بابل** أو **أشور** أو **الخاتى**. وظلت **النوبة** و**السودان** هادئة مستكينة.

ولما كان **تحوتمس** الثالث إمبراطورًا فطنًا ثاقب البصيرة فقد تمكن أيضًا من إدارة شئون فتوحاته وفقًا لنظام ينمُّ، من جانبه، على قدر كبير من الوعى السياسى. كانت ممتلكات **مصر** الأجنبية تضم مجموعتين متباينتين من الأراضى، فنجد من ناحية **النوبة** و**السودان** حتى الجندل الرابع على نهر **النيل**، ومن ناحية أخرى الأراضى الأسيوية حتى نهر **الفرات**.

أما فى **إفريقيا** فقد أبقى **تحوتمس** الثالث على الإدارة «*الاستيطانية*» التى أقامها **آل سنوسرت** والتى طوَّرها، قبل فترة قصيرة، **أحمس** و**أمنحوتب** الأول. وكان الفرعون يفوِّض موظفًا مصريًا مقيمًا فى **بوهن** لإدارة الأراضى الإفريقية نيابة عنه. إنه «*رئيس أراضى الجنوب*» و«*الابن الملكى فى **كوش***». ويعاونه فى عمله نائبان، يتولى أحدهما شئون إقليم **واوات** والآخر إقليم **كوش**. إن نائب الملك هذا، وهو الاسم الذى أطلقه عليه المؤرخون المحدثون، قياسًا على المؤسسات الأحدث، كان يتمتع بالسلطات نفسها التى من اختصاص الوزير فى الوطن الأم. وفى عصر **الرعامسة** سيصبح نائب الملك هذا شخصية ذات شأن. وظلت **مصر** تستثمر هذه البلاد وواصلت تمصيرها، وانتشرت على نطاق واسع أعمال بناء المعابد التى توحِّد الآلهة المصرية مع الآلهة النوبية مع **فرعون**.

أما أقاليم **أسيا** بأراضيها الشاسعة المقسمة إلى دول صغيرة، فقد كانت تتمتع آنذاك بماضٍ حضارى زاهر وتقاليد متواترة منذ آلاف السنين، ولذلك فإن المبادئ التى رسمت إطار طريقة حكمها مختلفة كل الاختلاف. ولما كان **تحوتمس** الثالث لا يريد الإخلال بهذا التوازن فقد هداه فكره الثاقب إلى رفض تعديل النسيج السياسى لهذه الإمارات أو الممالك أو الجمهوريات التى أقامها الأقدمون، فمنح كل دولة، سواء كانت صغيرة أو كبيرة، حكمًا ذاتيا، وعين جهازًا إداريا عامًا، وهكذا حدَّد الأقاليم التى يقيم فيها حكام مصريون، يختصون فى الغالب بالشئون المالية، مهمتهم الرئيسية

جباية الضرائب المفروضة على كل مدينة أو دولة، وفقًا لما تتمتع به من خيرات أو ثروات. وقام **فرعون** بتنشئة أبناء الأمراء فى بلاط **طيبة**، فى رفقة الأولاد الملكيين.

ونشأت بالتدريج عادات كانت بمثابة قانون عرفى، ربط **مصر** بتوابعها فى **آسيا**، ينطوى على التزامات وحقوق خاصة بكل جانب فى المجالات السياسية والمالية والعسكرية والقانونية، وقد وضعت تحت رعاية الآلهة التى تضمن حسن تنفيذها.

الأيديولوچية الإمبراطورية الأولى

وظهر آنذاك وعى بالإمبراطورية، قائم على ما يبدو على فكر فيدرالى. كانت الأراضى الآسيوية المفتوحة تشكل ما يشبه تجمُّع دول، واحتفظت كل دولة منها بجانب كبير من استقلالها الذاتى. والرابط الذى كان يوحِّد أقاليم الإمبراطورية هو الدين، ولا سيما **الفرعون** الذى كانت شخصيته الإلهية تشكل، هى والآلهة جمعاء، كيانًا واحدًا.

إن **النشيد الإمبراطورى الأول** يُورد بعبارات شاعرية غنائية خطاب **آمون – رع** إلى «*ابنه المحبوب*» **تحوتمس**، إنه يمنحه القوة والنصر على الأراضى قاطبة، كما يعطيه خاصة أن يتجلى على التوالى فى نظر الشعوب التى غزاها فى هيئة آلهة كل شعب منها، ومن ثم يصبح سيدها *الشرعى*. ولا يشار إلى حق الغزو عنوة بقوة السلاح إلا عند الحديث عن **النوبة** و**السودان**، فقد نظر إليهما المصريون بصفتهما تابعتين تبعية طبيعية لبلدهم، ومن ثم لا يستوجب احتلالهما أن يكون مبررًا.

وسيقوم **الرعامسة** باستعادة هذا **النشيد الإمبراطورى الأول** لحسابهم، بعد ملاءمته لشكل آخر من الوعى بالإمبراطورية، وهذا النشيد هو نشيد حرب مظفَّرة(٣٢):

*كلمات قيلت من قبل **آمون – رع**، رب عروش **القطرين**: مرحبًا بك بجوارى، أنت الذى تَفرح لرؤية جمالى، أيا بُنىَّ، يا حامىَّ، يا **من خبر رع**(٣٣)، ليتك تحيا إلى أبد الآباد.*

إني أتـألق بسبب ما تكنُّه لي من حب، ويفرح قلبي عند قدومك الميمون إلى معبدي. إن ساعديّ ينضمان إلى جسدك، ليؤمِّنان حمايتك السحرية وحياتك. كم هي ممتعة رقتك بين أحضاني، فسوف أبقيك في مسكني إلى الأبد. ومن أجلك سوف أصنع العجب العجاب.

إني أعطيك القوة والنصر على كل البلدان الأجنبية. وفي كل الأراضي أقيم مجدك والرعب الذي تثيره. إن الفزع الذي تستشعره (النفوس) في حضرتك يصل إلى حدود أعمدة السماء الأربعة.

إني أشـيد بهيبتك في الأجساد جمعاء، وأنشر صيحة حرب ***جلالتك*** *على امتداد* ***الأقواس التسعة****، فأمراء كل البلدان الأجنبية قد تجمعوا في قبضتك. إني أبسط شخصيا ساعديّ وأربطهم من أجلك.*

إني أقيِّد النوبيين بعشرات الآلاف وبالآلاف. لقد وقع أهل الشمال في الأسر بمئات الآلاف. إني أعمل ليسقط أعداؤك تحت نعليك، وتطأ الأعداء أصحاب القلوب الخسيسة، طبقًا لما أمرتُ به، من أجلك.

ومن الآن، فالأرض في طولها وعرضها، ***وأهل الغرب وأهل الشرق****، خاضعون لسلطانك. إنك تدوس بقدميك كل البلدان الأجنبية وأنت سعيد القلب. ولا أحد من حاشيتك يستدير إلى الوراء، فأنا هاديك ومرشدك، وسوف تتمكن من اللحاق بهم.*

لقد عبرت مياه ثنية ***نهارينا*** *العظيمة[٣٤] بقوة واقتدار كما أمرتك. وعندما يسمع الأعداء صيحتك – صيحة الحرب – يدخلون في جحورهم[٣٥] وأحرمهم من نسمة الحياة، لأنني أضع الخوف منك في ثنايا قلوبهم.*

إن متوهِّجتي[٣٦] (الصل) التي على جبينك تُحرقهم، إنها تبدد الفسقة والأثماء. وتحرق بلهيبها سكان ***الجزر****[٣٧]. إنها تقطع رءوس الآسيويين. فلم يبق منهم أحدٌ، وقُضيَ على أولاد زعمائهم.*

لقد جعلتُ انتصاراتك تنتشر في ربوع البلاد، بينما ثعبان جبيني يضيء جسدك.

فلا وجود لإنسان واحد قد يتمرد عليك، حتى أطراف ما تحيط به السماء. إنهم يأتون حاملين جزيتهم على ظهورهم وينحنون أمام **جلالتك**، بناء على أوامرى. وأتصرف بحيث تخور قوى أعدائك عندما يحضرون إلى جوارك، وقلوبهم محترقة وأطرافهم مرتعدة.

لقد أتيت،

وحملتك على سحق أمراء **فينيقيا**،

وأمدّدُهم تحت قدميك، فى ربوع البلاد

لقد حملتهم على مشاهدة **جلالتك** بصفتك رب الأشعة،

وتتألق فى وجوههم مثل صورتى[٣٨]

لقد أتيت،

وحملتك على سحق شعوب **أسيا** وضرب زعماء أسيويى

ريتنو

لقد حملتهم على مشاهدة **جلالتك**، بعد أن ارتديت حُلّة (الحرب)،

بينما تمسك أسلحة المعركة على متن مركبتك[٣٩]

لقد أتيت،

وحملتك على سحق الأرض الشرقية، والسير فوق أبناء مناطق

بلد الإله،

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك نجمًا يطلق ضياءه، مثل

لهب ويُعطى أنداءه[٤٠]

لقد أتيت،

وحملتك على سحق الأرض الغربية، بينما ***كريت***

*و**قبرص** منحنية بسبب مجدك،*

*لقد حملتهم على مشاهدة **جلالتك**، ثورًا دائم الشباب،*

قلبه ماضي العزيمة وحاد القرنين، فتستحيل مهاجمته(٤١)

لقد أتيت،

*وحملتك على سحق سكان **الجزر** بينما ترتعد بلاد **الميتاني***

تحت وطأة ما تثيره من خوف

*لقد حملتهم على مشاهدة **جلالتك** تمساحًا، فهو رب الرعب*

وسط المياه، فيصعب الاقتراب منه(٤٢)

لقد أتيت،

*وحملتك على سحق **جزر الوسط**، و**الشديدة الاخضرار***

ترزح تحت وطأة صيحاتك، صيحات الحرب

*لقد حملتهم على مشاهدة **جلالتك** منتقمًا جبارًا، فتظهر ممجدًا*

على ظهر الثور الصريع(٤٣)

لقد أتيت،

*وحملتك على سحق بلاد **الأويتيو** بقوة*

مجدك،

*لقد حملتهم على مشاهدة **جلالتك** أسدًا،*

بينما تحولهم إلى جثث، على امتداد وديانهم(٤٤)

لقد أتيت،

وحملتك على سحق الأراضى الأكثر بعدًا، وأبقيت ما تحيط به

***الدائرة الكبرى** فى قبضتك*

*لقد حملتهم على مشاهدة **جلالتك** صقرًا بجناحين،*

فيستولى على ما يراه حسب رغبته(٤٥)

لقد أتيت،

وحملتك على سحق الأراضى الأقرب، وعلى ربط البدو

أسرى،

*لقد حملتهم على مشاهدة **جلالتك**، ابن آوى **الجنوب**،*

*ورب الركض، بمشيته السريعة، الذى يطوف **بالقطرين***(٤٦)

لقد أتيت،

*وحملتك على سحق النوبيين حتى بلاد **شاعت**، (سحقتهم) فى قبضتك.*

*لقد حملتهم على مشاهدة **جلالتك**، مثل أخويْك اللذين*

ضممتُ سواعدهما من أجلك، تعبيرًا عن النصر...(٤٧)

ولا تشكل إمبراطورية **التحامسة** وحدة سياسية فقط، تريد أن تكون قوية بلا إكراه، ولكنها وحدة دينية رحبة، تلتف حول شخص **فرعون** الذى أدمج فى ذاته آلهة **الشرق والبحر المتوسط** جمعاء. وهكذا كانت الغلبة لإمبراطور **مصر** وإرادة **آمون – رع**.

عندما خلف **أمنحوتپ** الثانى أباه **تحوتمس** الثالث، حول عام ١٤٥٠ق.م، حافظ بصلابة على الفتوحات بفضل حملتين عسكريتين فى **أسيا**. وإبان حملة العام التاسع من عهده عاد ومعه ٧١٠٠٠ أسير، وفقًا لما يذكره لوح حجرى عُثر عليه حديثًا فى **منف**، وكان من بينهم ٣٦٠٠ **عيرو**. وإذا نظرنا إلى **العيرو** باعتبارهم **العبرانيين**(*)، نكون أمام أول إشارة تاريخية لهذه القبيلة.

ومن الآن فصاعدًا، فإن إمبراطورية **مصر** التى لا ينازعها أحد مقامها الرفيع فى عالم **الشرق**، سوف يسودها السلام على امتداد قرن من الزمن تقريبًا، وحتى حول ١٣٨٠ق.م، عندئذ ستصبح الدبلوماسية ضرورية للحفاظ على الفتوحات التى حققتها الحروب.

ومن الواضح أن **أمنحوتپ** الثانى قد وقع معاهدة سلام مع **سوستاتر**، ملك **الميتانى** الذى كانت مملكته تتعرض أكثر فأكثر للقوة المتزايدة للملوك **الحيثيين**؛ فكانت أولى المعاهدات. ولما كانت اتفاقًا شخصيًا بين العاهلين الملكيين، كان لزامًا على **تحوتمس** الرابع(**) **وأرتاتاما** الأول أن يجددها. إن هذا التحالف الدفاعى المعقود، فى حقيقة الأمر، لعرقلة توسع **الخاتى**، دعمه زواج سياسى انعقد بموجبه قران **تحوتمس** الرابع بابنة العاهل **الميتانى**. فكان أيضًا القران الأول. ويُشكل هذا الحدث انقلابًا محدودًا على التقاليد المصرية المتواترة، لأن العرف كان يقتضى أن يتزوج الفرعون أخته أو أخته غير الشقيقة، حفاظًا على نقاء الدم. إن الأميرة **الميتانية** التى

(*) هذه ترجمة مضللة، ويجمع علماء المصريات من مختلف الجنسيات على خطأ النظر إلى **العيرو** باعتبارهم **العبرانيين**. راجع فى هذا الصدد هامش المترجم فى «كلير لالويت: طيبة أو نشأة إمبراطورية» ترجمة وتعليق ماهر جويجاتى، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ص٤٥٢.(المترجم)

(**) ابن **أمنحوتپ** الثانى. (المؤلفة)

سميت بالمصرية **موت إم ويا**، «أى (الإلهة) **مُوت** – وهى زوجة **أمون** – *على متن المركب الشمسى*»، أصبحت «*الزوجة الملكية العظيمة*» ووالدة **أمنحوتپ** الثالث. إن ضروريات السياسة صار لها الأولوية على التقاليد الموروثة.

ولكن برر كهنة **أمون** فى **طيبة** هذا الحدث. وفى الحقيقة فإن هؤلاء الكهنة ذاتهم، هم الذين أضفوا فى السابق الشرعية على قيام **حتشپسوت** باغتصاب العرش، ليصوغوا بالتالى النظرية الرسمية للولادة الإلهية، معلنين أن الملكة هى الإبنة المولودة من صلب الإله **أمون – رع**، عندما اتخذ هيئة والدها **تحوتمس** الأول، فحملت منه من كانت آنذاك «**الزوجة الملكية العظيمة**»، وهو ما توضحه النقوش والنصوص المنحوتة على جدران معبد **الدير البحرى** الجنائزى، القائم فى البر الغربى لمدينة **طيبة**. وعاد كهنة **طيبة** إلى الأخذ بالنهج نفسه، فاعتبروا **أمنحوتپ** الثالث الابن المولود من صلب **أمون – رع**، ونُحتت على جدران معبد **الأقصر** صور ومدونة، شبيهة كل الشبه بتلك الواردة فى **الدير البحرى**. كما سيعود **الرعامسة** إلى الأخذ بهذه الرواية للولادة الإلهية الملكية.

إن الزواج من أجنبيات، والذى سيصبح عنصراً مهماً من سياسة **الرعامسة**، كان منذ عهد **أمنحوتپ** الثالث عنصراً مهماً من العناصر التى اهتمت بها الدبلوماسية المصرية، حتى صار جناح الحريم فى **الأقصر** عامراً بالمحظيات. فلما كان فرعون **مصر** مهتماً بإقامة علاقات تجارية طَيِّبة مع **بلاد بابل** تزوج على التوالى ابنة الملك **كاداشمان – حربا** الأول، ثم أخته، ومع تربُّع **توشراتا** على عرش **الميتانى** عاد **أمنحوتپ** الثالث ليؤكد على التحالف بين النظامين الملكيين، فطلب من العاهل الملكى **الميتانى**، أن يتزوج أخته ثم ابنته بعد فترة قصيرة. إن الملكة **تيى** وكانت آنذاك «*الزوجة الملكية العظيمة*»، ربما كانت تعود إلى أصول **فينيقية**.

إن **مصر** الموفورة الخيرات والمزدهرة، والتى زادتها فتوحاتها ثراءً على ثراء، كانت آنذاك القوة المالية الأولى على مستوى العالم. واستطاع معدن الذهب أن يوفر صداقات جليلة الفائدة. لقد كتب **توشراتا** إلى **أمنحوتپ** الثالث قائلاً:

فليرسل لى أخى ذهبًا، بلا حدود، وبكميات كبيرة. وكل ما يريده أخى لبيته، فليخبرنى به كتابةً، وسوف يصله ما يريد، لأننى سأعطيه كل هبة يرغبها أخى، ***لأن هذا البلد بلده، وهذا البيت بيته***(*).

كان وضع فرعون وضعًا مرموقًا، والمدينون له تابعون موالون له. كان الوضع مماثلاً مع **بلاد أشور وبابل**، وسيكتب ملك **أشور** إلى ملك **الميتانى** قائلاً:

الذهب فى بلدهم وفير وفرة الغبار.

وبطبيعة الحال، تعود هذه السياسة المالية على إمبراطور **مصر** بهيبة، ترفع من شأنه.

إن سفراء غير معينين فى منصب ثابت، ولكنهم معتمدون لفترة القيام بمهمة محددة، لا يتوقفون عن التنقل من بلاط إلى آخر، بين بلدان **الشرق**. إنهم الموفدون الشخصيون للملوك، المبعوثون فى مهام سياسية أو بدافع المجاملة، كتسليم **جعران** تذكارى من الحجر أو الجشمت، صدر بمناسبة أحداث مهمة شهدها بلاط **طيبة**: من ميلاد إلى حفل تتويج فرعون أو زواجه، كما أن مدونة منحوته على الجانب المستوى من الوثيقة توضح مصدرها. وقد يكون الغرض من إصدار هذا الجعران الاستفسار عن صحة «*أخٍ*» مريض أو ما شابه ذلك... ونشأت *دائرة خاصة بالبلدان الأجنبية*، تُحفظ فيها المراسلات المتبادلة مع ملوك **أسيا**. واستخدمت هذه المراسلات، لغة دولية، هى **الأكدية**. وقد عُثر على جانب منها، فى **تل العمارنة** وفى **مصر** وفى **بوغاز – كوى** فى **تركيا**، وهى العاصمة القديمة **خاتوسا للخاتى**.

كانت العبارات المستخدمة والأعراف المرعية تلتزم ببعض الشكليات الرسمية الصارمة. هكذا نشأت أولى قواعد القانون الدولى برعاية الآلهة.

❖

(*) وهو ما نقوله اليوم فى شرقنا المضياف. (المترجم)

كما ظهر **الشكل الثانى للنشيد الإمبراطورى**، وسوف يعود **الرعامسة** فى زمن لاحق إلى استخدامه، إنه خطاب **آمون** الذى لم يعد يتحدث عن الفتوحات، ولكنه يؤكد على «**الأعاجيب**» التى يمنحها **للفرعون** وعلى عالمية خضوع شعوب الإمبراطورية، إنه نشيد السلام الذى حل فى زمن الازدهار. وقد نُحت النص على لوح حجرى كبير، كان من المفترض أن يوضع أصلاً فى معبد **أمنحوتب** الثالث الجنائزى بالبر الغربى لمدينة **طيبة**.

*كلمات نطق بها **آمون** ملك الآلهة: «يا بُنىَّ الذى من جسدى، يا محبوبى **نب – ماعت – رع**[٤٨]، يا صورتى الحية، أنت الذى خلقك جسدى، والذى أنجبَتك **مُوت** من أجلى، **مُوت** سيدة **إيشارو** فى **طيبة**، سيدة **الأقواس التسعة**. لقد نشَّأتك لتصبح سيد القوم الأوحد. إن قلبى يفرح فرحًا عظيمًا عندما أشاهد جمالك. عندئذ، أصنع من أجل **جلالتك**، أشياء رائعة. وسوف يتجدد شبابك إلى أبد الآباد، لأننى نصَّبتك باعتبارك شمس **الضفتين**.*

*وعندما أولِّى وجهى شطر **الجنوب**، أصنع من أجلك العجائب، فأجعل زعماء **كوش** الخسيسة، يأتون إليك حاملين جزيتهم فوق ظهورهم.*

*وعندما أولِّى وجهى شطر **الشمال**، أصنع من أجلك العجائب، وأجعل أقصى بلدان **آسيا** تأتى إليك حاملة جزيتها فوق ظهورها. وتقدم أطفالها، حتى تُمنح لها نسمة الحياة.*

*وعندما أولِّى وجهى شطر **الغرب**، أصنع من أجلك العجائب، فأجعلك تستولى على بلاد **تحنو** بحيث لا يتبقى منها شىء، وأُشيِّد للحماية هذه القلعة باسم **جلالتى**، يحيط بها سور شامخ يصل إلى عنان السماء، ويدعمها أبناء الزعماء النوبيين.*

*عندما أولِّى وجهى شطر النور، أصنع من أجلك العجائب، فأجعل بلاد **بونت** تأتى إليك من مناطقها، حاملة جميع النباتات الطيبة، لتلتمس منك السلام وتستنشق النسمات التى تمنحها[٤٩].*

إن **آمون** صاحب الواجهات الأربع هو ركيزة الإمبراطورية الأساسية والمقدسة. إن مجرد نظرته تقود إلى **فرعون** الموكب الطويل المكوَّن من أبناء شعوب **آسيا وإفريقيا** دافعى الجزية، وقد أتوا ليقدموا خيراتهم مقابل نسمات الحياة، ويسلمون أبناءهم.

وأدى تزايد ثروة الإمبراطورية أيضًا إلى تضخم ثروة كبار كهنة **آمون - رع**، فالهبات الملكية المقدمة إكرامًا لإله الانتصارات فى معابده لا حصر لها. وفى وسعنا أن نقرأ النص الآتى على مدونة تكريسية فى معبد **الكرنك** تعود إلى عهد **أمنحوتپ** الثانى(٥٠):

*وقع اختيار (**آمون**) علىَّ لأكون سيد شعب **مصر**، بينما كنت لا أزال صغيرًا فى العش. لقد أعطانى القسمين(٥١) وأسند إلى **جلالتى** مسئولية العرش، بصفتى إنسانًا يحقق أشياءً مفيدة من أجل أبيه.*

لقد صنعت من أجله مقصورة من ذهب، أرضيتها من الفضة. كما صنعت من أجله أعدادًا كبيرة من الآنية، أجمل من أبدان النجوم(٥٢). كانت كنوزه تضم أشياء ثمينة، جاءت مع جزية سائر البلدان. كانت شُوَنُه ممتلئة بالحبوب الطيبة، فتفيض حتى أعلى الجدران. وأُعدت من أجله قرابين إلهية.

ومن بين كبار كهنة **آمون** الذين سعوا إلى القيام بدورهم فى وراثة العرش إبان الأسرة الثامنة عشرة، نذكر **حپوسنب** فى عهد **حتشپسوت** ومن **خپر رع سنب** فى عهد **تحوتمس** الثالث، كما حصلوا أيضًا على مناصب مدنية، جعلت منهم كبراء المسئولين فى الدولة. فقد كان **من خپر رع سنب** مسئولاً عن الشئون المالية وتسلُّم ضرائب الجزية المهولة الواردة من أقاليم الإمبراطورية. وشغل كبير الكهنة **ميرى** فى عهد **أمنحوتپ** الثانى، وظيفة حاكم **مصر العليا**.

هل شكلت قوة الكهنة الدنيوية تهديداً للسلطة الإمبراطورية؟ وقد حدث على كل حال رد فعل عنيف فى مطلع عهد **أمنحوتپ** الرابع، إذ استعاد التقاليد **الهليوپوليتانية** القديمة فاضطهد السلطة **الآمونية**.

ولم يستمر الوضع سوى أربع عشرة سنة، بينما كانت الأحوال فى الخارج خطيرة.

وبالفعل، فمنذ عام ١٣٨٠ق.م، قرب نهاية عهد **أمنحوتب** الثالث، تقوض التوازن السياسى فى **أسيا** لصالح دولة **الحيثيين** التى كان يحكمها آنذاك ملك نشط شجاع، ونافذ البصيرة إلى حدٍّ بعيد، إنه **سوبيلوليوما**. واستغل هذا الأخير الفُرقة التى حدثت بين **الميتانى** و**الحورى**(٥٣)، ليتحالف مع **أرتاتاما** ملك **الحورى**، واستطاع أن يحاصر **الميتانى** وأن يغزوها، بالإضافة إلى **نوجاسا** وشمال **سوريا** الحالية وحتى **الأمورى**، وشكلت هذه العملية خطراً على الهيمنة المصرية التى باتت مهددة تهديداً ملحوظاً. وقد استغاث بفرعون، **ريب عدّى** ملك **بيبلوس** وغيره من أمراء **فينيقيا**. ولكن **أمنحوتب** الثالث بعد أن أصبح طاعنًا فى السن أخذ يماطل فى اتخاذ القرار المناسب، وتنازل دون معارك عن السلطة التى تركها له أسلافه على الأقاليم الآسيوية الشمالية. واستمال إلى جانبه ملك **الحيثيين**، فأبرم مع **سوبيلوليوما** معاهدة تحالف. ومن الآن فصاعداً، سيقع الحد الشمالى للممتلكات المصرية عند نهر **العاصى**. فكان التراجع الأول.

وبدورها، وإذ أرادت بلاد **بابل** أن تضمن أمن قوافلها وتجّارها، اتجهت إلى التحالف مع ملك **الخاتى**(*) القوى، بل إن **الميتانى** ذاته سعى إلى التقارب مع **سوبيلوليوما**.

وآخر ما فعله **أمنحوتب** الثالث الذى سيسعى إلى إعادة العلاقات مع ابن خاله، **توشراتا** ملك **الميتانى**، فطلب الزواج من إحدى بناته، وإن لم يحل ذلك دون حدوث الكارثة المتوقعة. كان زمن الدبلوماسية قد ولّى وانقضى وأخذ **الخاتى** يتوعّد ويهدّد.

(*) **خاتى**: هكذا أُطلق على دولة **الحيثيين**، بعد أن اتخذت من **خاتوساس - بوغاز كوى** الحالية - عاصمة للبلاد. الموسوعة المصرية، تاريخ مصر القديمة، وزارة الثقافة والإعلام، ص٢٢٢.(المترجم)

وفى بداية، عهد **أمنحوتپ** الرابع، قام **أزيرو** ملك **الأمورو** بقتل الحاكم المصرى المقيم فى الميناء الفينيقى **سيميرا**. وأصبح **أزيرو** من الآن تابعاً للملك **سوپيلوليوما**، ولم يصدر أى رد فعل من جانب **أمنحوتپ** الرابع، وكان أميراً شابا مهتما بالروحانيات، وشغله الشاغل الأيديولوچيا الدينية. وفى أعقاب قيام ابن ملك **الميتانى** باغتيال أبيه، أقدم **الحوريون** بمساندة **أشور أوباليت** الأول ملك **أشور**، على اجتياح **الميتانى** الذى استنجد ببلاد **خاتى**، وفقد استقلاله بشكل نهائى. وإذ ظل **أمنحوتپ** الرابع يماطل فى اتخاذ القرار الحاسم، أبرم معاهدة تحالف مع **أشور**، القوة الخطيرة الصاعدة، وقد هجر ملوكها مدينة **أشور** العتيقة، ليتخذوا من **نينوى** عاصمة جديدة. حتى الآن كانت بلاد **أشور** خاضعة لإمبراطورية **بابل**. ولكن كان ابن **بورنابورياش**، ملك **بابل** وولى عهده، قد عقد قرانه على إحدى بنات **أشور – أوباليت**، وأثمر هذا الزواج عن ميلاد ابن. وبعد وفاة الأب والابن، ثم بعد وفاة **بورنابورياش**، تدخل ملك **أشور** فى **بابل** لتنتقل وراثة العرش إلى الأمير الصغير الذى أنجبته ابنته. وهكذا أصبحت عاصمة **الفرات** العظيمة خاضعة لسيطرة بلاد **أشور**، التى تعاظمت قوتها وثرواتها إلى حدٍّ بعيد.

ومع ذلك، كان ملوك **مصر** يلتزمون بسياسة خاملة ومحايدة، فيتجنبون الحروب، وتهادنوا مع الممالك المنافسة من خلال عقد معاهدات، فكانت سياسة قصيرة النظر، إلى حدٍّ بعيد.

وفى أعقاب هذه الأحداث احتلت ثلاث قوى عظمى مسرح العالم الشرقى: **مصر** التى فقدت الكثير من هيبتها، إلى جانب الأقاليم الحدودية الشمالية لإمبراطوريتها، ثم **الخاتى** التى أبقت **الميتانى** تحت سيطرتها، وأخيراً **بلاد أشور** التى تسلطت على **بلاد بابل**.

كان **أمنحوتب** الرابع(*) مهدّدًا تهديدًا خطيرًا من جراء عداوة كهنة **أمون** الذين أراد القضاء عليهم، وعند وفاته أعاد **توت عنخ أمون** السيادة إلى إله **طيبة**. ومن المحتمل بعد ذلك أن تكون الأميرة **عنخ إس إن أمون**، أرملة **توت عنخ أمون** وابنة **أمنحوتب** الرابع و**نفرتيتى**، من المحتمل أن تكون قد سعت إلى الزواج من أحد أبناء ملك **خاتى**، رغبة منها فى خلافة زوجها على عرش **مصر**، ولا نعرف الدافع وراء تصرفها هذا. وبعد أن ظل **سوبيلوليوما** مترددًا، على ما يبدو، لبعض الوقت، همَّ الأمير بالرحيل، ولكنه قُتل وهو فى الطريق. ورغبة فى الانتقام زحف جيش **الحيثيين** فى اتجاه الجنوب، وثارت أرض **كنعان**، بينما تزوجت **عنخ إس إن أمون** أحد الموظفين، وهو **آى**، وكان عهده عهدًا بلا أمجاد.

جاء القائد العسكرى **حور إم حب** لينقذ **مصر**، ويُقال إنه المسئول، على ما يعتقد، عن اغتيال الأمير الحيثى. أو ربما كان **آى**. وأيًا كان الأمر، فإن **حور إم حب**، وهو قائد الجيش المصرى، نجح فى التصدى لقوات الحيثيين ومنعهم من عبور نهر **العاصى**، وسيطر على أرض **كنعان**. كان **حور إم حب** ينتمى إلى طبقة من النبلاء طيِّبة الأعراق رفيعة القدر. وحول عام ١٣٣٩ق.م، جاءه هاتف من **أمون**، ليخوِّله أسمى السلطات، فأصبح سيد **القطرين**.

كان ملكًا نشطًا نافذ البصيرة، فأعاد النظام الداخلى إلى سابق عهده، وحجَّم طموحات كهنة **أمون** وأعاد إلى مدينة **منف** رفعة شأنها. ولما كان بلا وريث، فقد اختار خليفةً له، القائد العسكرى الوزير **با رعمسيس**، الذى سيتربع على عرش **مصر** حول عام ١٣١٤ق.م، تحت اسم **رعمسيس** الأول ويؤسس الأسرة التاسعة عشرة.

(*) **أخناتون**. (المترجم)

ثانياً: التوازن الهش فى عالم القرن الرابع عشر قبل الميلاد

عندما تربع **رعمسيس** الأول على عرش **مصر** كان التوازن فى **الشرق** وفى حوض **البحر المتوسط** مزعزعًا إلى حدٍّ بعيد، فسادت المؤامرات والحروب، وأصبحت اللعبة السياسية تجمع باستمرار بين الأعمال الحربية والدبلوماسية.

وإلى جانب الطموحات المتنافسة لأقدم الدول، أضيفت إليها التطلعات الجديدة للشعوب **الأخائية**(*)، وتصادمت طموحات الهيمنة، سواء أكانت سياسية أم تجارية. وكانت موجة من الاضطرابات تلوح فى الأفق.

ولكن **مصر** التى ظل يحكمها، من الآن فصاعداً، ملوك عسكريون، سوف تستعيد تفوقها وثراءها ورفاهيتها، لتفرض قوتها وهيبتها على الممالك الأخرى.

مملكة الحيثيين القوية

أما **مصر** الخاملة المستكينة فى عهود **أمنحوتپ** الثالث و**أمنحوتپ** الرابع وخلفائهما، فقد شهدت، دون أى تدخل من جانبها، اختفاء **الميتانى** من المسرح السياسى. لقد تركت الملوك الحيثيين يرسخون أقدامهم فى شمال **سوريا** الحالية. ومن خلال حملتَيْه العسكريتين نجح **سوبيلوليوما** فى إخضاع **نوحاسا** و**حلب** و**قطنة**، ووصل إلى **دمشق**، كما استسلمت **قادش**، وأصبحت جميع البلدان من **لبنان** حتى **الفرات** بين يديه، وظل **أزيرو** ملك **الأمورى** حليفًا وفيًا.

ولم تجد صيحات الاستغاثة التى أطلقها أمراء **فينيقيا** آذانًا صاغية لدى **فرعون**، فظلت بلا استجابة حقيقية ولم تغير شيئًا من موقفه التسويفى، فترك

(*) أقدم الشعوب الإغريقية. (المترجم)

سوبيلوليوما يستولى على البلدان الحدودية الشمالية، لما كان يشكل فى يوم من الأيام إمبراطورية **التحامسة** العظيمة. ومنح ملك الحيثيين أولادَه الممالك والإمارات التى كانت خاضعة فى الماضى للهيمنة المصرية، نذكر منها تحديداً مدينتين مهمتين هما **حلب** و**كركميش** الواقعتين على نهر **الفرات**، وكانتا فى الوقت نفسه، محطتين تتوقف عندهما القوافل ومركزين استراتيچيين.

وبفضل ذكاء لافت للانتباه، ورؤية سليمة شاملة، استكمل ملك الحيثيين بناء الإمبراطورية التى أقامها بفضل فتوحاته، واستكملها من خلال دبلوماسية نشطة ومتواصلة. وأبرم مع **الميتانى** معاهدة فرضت على هذا الأخير سيادة الحيثيين، لا سيما بعد أن أصاب الوهن مملكة **الميتانى**، من جراء الانشقاقات والانقسامات الداخلية تحديداً. كما أبرم معاهدة أخرى مع **كيزوواتنا**، الواقعة فى المنطقة الممتدة من شرق جبال **طوروس** فى **الأناضول** وحتى **البحر المتوسط** وإلى الشرق من بلاد **خاتى** أيضاً. وتتكون هذه المعاهدة من أربع وستين مادة، وبموجبها كان ملك **كيزوواتنا** مطالباً، فى حالة وقوع نزاعات مسلحة، أن يقدم قوات عسكرية مقابل تمتعه ببعض الامتيازات. وإلى الشرق ظلت الهيمنة الحيثية تتوسع بصفة مستمرة، حتى أعالى وادى **الفرات**. ومن غير المستبعد، من جهة أخرى، أن يكون **أمنحوتپ** الرابع قد أبرم معاهدة مع **سوبيلوليوما**. ويستند هذا الافتراض على إشارة، يعوزها الوضوح، وردت فى نص الاتفاق المبرم فى وقت لاحق، حول عام ١٢٧٨ق.م، بين **خاتوسالى** الثالث و**رعمسيس** الثانى(٥٤).

ومن الآن، أصبح **الخاتى** يشغل مقدمة مسرح السياسة الدولية.

وحول عام ١٣٤٦ق.م، وفى عهد الملك **آى**، توفى **سوبيلوليوما**، متأثراً بوباء الطاعون الذى اجتاح آنذاك **آسيا الصغرى**. ولم يدم حكم ابنه **أرنوواندا**، سوى فترة قصيرة، لإصابته بالمرض نفسه، على ما يظن.

كما اضطر **مورسيل** الثانى، الابن الأصغر، أن يحارب فيما بعد على امتداد عشر سنين، تدعيماً لإمبراطورية **الخاتى** الجديدة، كما استطاع أن يؤمِّن سيطرته فى الجنوب على القسم الأكبر من **آسيا الصغرى**، بعد أن شن حملات عسكرية ضد

أرزاوا وحلفائها من الممالك المجاورة، التى أقامت تكتلاً مناوئًا له. وصارت **أرزاوا** دولة تابعة لبلاط **خاتوسا**. وفى الشمال، وفى منطقة **پُنت**(*) Pont أثارت شعوب **جاسجا** القلاقل من جديد. كانت شعوب خشنة الطباع، لا تزال تحيا حياة قبلية، وتعيش على تربية الخنازير وغزل الكتان... وعلى السلب والنهب، وفى صراع مع دولة الحيثيين، فى معظم الأحوال. وفى العام التاسع من عهد **مورسيل** الثانى وقع تمرد فى **سوريا**، فى مملكة **نوحاسا** بمنطقة **حلب** وفى **قادش**. وضرب الأشوريون الحصار على **كركميش**. وحارب **مورسيل** الثانى فى جميع الجبهات، فانسحب الأشوريون وقُضى على التمرد، وأعاد ملك الحيثيين تنظيم أقاليمه السورية.

وعندما خلف **موواتالى** أباه **مورسيل** عام ١٣١٥ق.م، وعشية تربع **رعمسيس** الأول على عرش **مصر** اتسعت ثورة **الجاسجا**، فاجتاحوا منطقة **خاتوسا** ذاتها، مما اضطر **موواتالى** إلى نقل عاصمته فى اتجاه الجنوب، كما عبروا نهر **هاليس**. وبعد فترة امتدت لعشر سنوات، ظلوا طوالها يعيثون فى الأرض فسادًا، نجح **خاتوسالى** أخو **موواتالى** فى سحقهم، بينما كان الملك شخصيًا يتغلب على ثورة أخرى فى **أرزاوا**.

كانت إمبراطورية **الحيثيين** تتشكل من اتحاد تعاهدى كونفيدرالى، تتحكم فيه لعبة الدسائس الدولية. كانت قوية فى الظاهر، ولكن بقاءها يعتمد على الحملات العسكرية المستمرة وبفضل أساليب دبلوماسية فطنة، كما كانت تصطدم بطموحات الهيمنة المنافسة، الصادرة عن **بلاد أشور** شرقًا وشعوب **الآخائيين** غربًا، فى بحر **إيجه** وعند شواطئ **أسيا الصغرى** ذاتها.

(*) وتقع فى شمال **أسيا الصغرى** وتطل على **البحر الأسود**. مع عدم الخلط بينها وبلاد **پونت** Pount الشهيرة الواقعة فى شرق **إفريقيا**. (المترجم)

صعود القوة الأشورية

وهيمنة بلاد بابل

ينظر إلى **أشور – أوباليت** الأول الذى امتدت سنوات حكمه من ١٣٦٦ إلى ١٣٣٠ق.م، باعتباره أحد كبار مؤسسى القوة **الأشورية**. وللأسف لم يصلنا سوى عدد محدود من الوثائق عن عهده، وتنحصر أساسًا فى المدوَّنات التى تُحيى ذكرى تأسيس المعابد.

وفى مرحلة أولى كما سبق أن نوهنا بذلك(٥٥)، أبعد مملكته عن علاقة التبعية القائمة بينه وإمبراطورية **بابل**، بل والأكثر من ذلك، فقد استطاع بطريقة غير مباشرة أن يمد سلطانه على الوطن الأم الكبير عند نهر **الفرات**. وبالفعل فإن حفيده **كاداشمان – حربا**، المولود من ابنته وابن **بورنابورياش**، استطاع أن يحكم إمبراطورية **بلاد الرافدين** لفترة قصيرة.

ولكن **كاداشمان – حربا** اغتيل على أيدى رعاياه **الكاسيين**، فكان المبرر الذى تذرع به **أشور – أوباليت** للتدخل تدخلاً مباشرًا، وإقامة **كوريجالزو** الثانى على العرش. وهو ابن **كاداشمان – حربا**، وابن حفيده إذن، كما كان فتًى فى مقتبل العمر، الأمر الذى أتاح بالطبع أن يفرض ملك **أشور** سيطرة واضحة على **بلاد بابل**.

دام حكم **كوريجالزو** الثانى اثنتين وعشرين سنة. ولكن الشعور الوطنى كان يجد صعوبة فى التكيف مع الهيمنة **الأشورية**. وعندما قام **إنليل – نيرارى**، ابن **أشور – أوباليت** بخلافة والده، حول عام ١٣٢٩، اضطر إلى خوض معركة عسكرية ضد **بلاد بابل**، خرج منها منتصرًا.

وفى عهد ابنه **أريك – دِن – إيلى**، من ١٣١٩ إلى ١٣٠٨ق.م، استؤنفت الحرب عند حدود المملكة. بدأت عند جبال **زاجروس**، ضد **الجوتى** وهم شعب يعيش فى الجبال، وكانت خشونة أخلاقهم وطباعهم المحاربة، قد ساهمت فى تدمير إمبراطورية

بلاد الرافدين الأولى التى أسسها **سرجون الأكّدى**(*). ثم خاض المعارك فى المنطقة الواقعة غرب أعالى وادى نهر **دجلة**، لإخضاع الشعوب المتحالفة مع البدو الآراميين، وكان النصر نصراً قاطعًا وشاملاً.

وفى مرحلة أولى تواءمت بلاد **أشور** مع قوتها الجديدة، واستوعبت فتوحاتها. ويبدو أن بلاد **بابل** قد أثرت تأثيراً أكيداً على الأشوريين على الصعيدين الثقافى والدينى. وهكذا فإن عبادة **مردوك إله بابل** الوطنى، قد تم الترحيب بها فى **نينوى**. وفى وقت لاحق، وبعد انقضاء عشرات السنين، سوف تبلغ بلاد **أشور** من القوة بحيث تشكل تهديداً خطيراً على **الخاتى** والتوازن القائم فى عالم الشرق.

الشعوب الآخائية ومصير طروادة

فى الألف الثالث قبل الميلاد كانت حضارة تُعرف **بالإيجية**(**) مزدهرة فى شرق **البحر المتوسط**. كان إشعاعها يلتف حول جزيرة **كريت**، كما ازدهرت أيضًا فى أرخبيل **القوقلادس** اليونانى les cyclades، وأهم جزره **ميلوس** الغنية بمناجم السبج الذى جرى استخراجه منذ وقت مبكر جدا. أضف إلى ما سبق جزيرة **قبرص** بثرواتها المتنوعة من غابات تغطى سلسلتين جبليتين ومن سهل شاسع مزروع قمحاً، ومن مناجم نحاس مهمة، وكان بكميات كبيرة حتى أعطى اسمه للجزيرة. وتطلق النصوص المصرية اسم **الاسيا** على جزيرة **قبرص**.

وحول عام ٢٠٠٠ ق.م، وصلت هذه الحضارة التى أبدعها «**رجال الجزر**»، المنتسبون إلى جنس يُعرف بعبارة عامة تحت اسم «**جنس البحر المتوسط**»، وصلت إلى أوج ازدهارها. وفى **كريت**، شُيِّدت آنذاك قصور **كنوسُّوس** Cnossos و**فايستوس** Phaistes و**ماليّا** Mallia. وبعد أن دُمرت، عام ١٧٠٠ق.م تقريباً، سواء من جراء زلزال أو أعمال تخريب قامت بها شعوب معادية (؟)، أعيد تشييدها. وتعتبر المرحلة التالية من تاريخ الجزيرة التى تتفق مع بدايات الأسرة الثامنة عشرة المصرية، من أزهى

(*) فى الألف الثالث ق.م. (المترجم)

(**) نسبة إلى بحر **إيجة**. (المترجم)

عصورها. إنه زمن الملك **مينوس** Minos، وهو حسب الأسطورة، الابن الإلهى للإله **زيوس** Zeus و**أوروبا**(*) Europe. وأسس هذا الملك إمبراطورية بحرية فى بحر **إيجة**، ليفرض بكل وضوح هيمنته السياسية على الجزر، كما أقام أبناءه على رأس المستوطنات التى أنشأها فى أرخبيل **القوقلادس**. وأسهمت الزراعة وتربية الماشية والصيد البحرى وأعمال التعدين فى ثراء جزيرة **كريت**، وكان نشاطها التجارى عند ملتقى بلدان **إفريقيا** و**آسيا** و**أوروبا** بالغ الأهمية.

هكذا انتشرت الحضارة الكريتية أو الميناوية فى أرجاء شرق **البحر المتوسط** وفى **البيلوبونيز**(**) Péloponnèse. وقد أثرت تأثيراً حضارياً مفيداً على **اليونان** التى كانت لا تزال حتى ذلك الزمن بلداً فقيراً ومتخلفاً، تجوبه الهجرات **الهندوأوروبية** التى اتخذت من هذه البلاد بالتدريج مقاماً لها واستقرت فيها.

واعتباراً من القرن السادس عشر قبل الميلاد، استقر بعض هذه الشعوب وهم **الأخائيين** فى منطقة **أرجوس** فى شمال شرق **البيلوبونيز**. وسيصبحون فيما بعد عنصراً أساسياً من مقومات الشعب اليونانى. وخضع **الأخائيون** فى بداية الأمر لهيمنة **كريت** الروحية والثقافية وهى فى أوج ازدهارها.

ولما كان **الأخائيون** محاربين بواسل، فقد قاموا عام ١٤٠٠ق.م، فى عهد **أمنحوتب** الثالث، بشن هجوم على **كريت**، وباغتوا العاصمة المهيبة **كنوسوس** Cnossos ودمروها وعاثوا فساداً فى قصور **فايستوس** و**حاجياترياداا** Hagia Triada. عندئذ ولدت حضارة جديدة، وُجدت مراكزها الرئيسية فى **تيرونس** و**ميقنية** تحديداً، ولكنها امتدت أيضاً إلى **إسبرطة** و**بيلوس** و**طيبة** القائمة فى **بيوسيا**(***) وإلى جزيرة **رودس**.

وتدين هذه الحضارة الميقنية بالكثير إلى **كريت** التى استغل **الأخائيون** تراثها الفنى والثقافى والدينى. ولكن بعض السمات المميزة لهذا الشعب الجديد طبعت أيضاً

(*) إحدى شخصيات الأساطير اليونانية. (المترجم)

(**) شبه جزيرة فى جنوب **اليونان**، بين بحرى **إيجة** و**الإيونى**. (المترجم)

(***) فى وسط **اليونان**. (المترجم)

بطابعها المجتمع الجديد الذى كان فى طور التشكيل، فالمظهر الذى يميل إلى تعاظم نزعة القتال والتحلى بالروح العسكرية، جعلهم يحولون القصور **المينوية** إلى قلاع متأهبة للدفاع ووضع الأسلحة ومعدات المحاربين فى المقابر. كما لم تعرف حكومة مركزية ولا مملكة موحدة، بل أمراء مستقلين يتنافسون فى الغالب فيما بينهم ويميلون إلى العنف، وينصب نشاطهم على أعمال الصيد البرى أو السلب والنهب. أما عن أبناء **كريت** الذين تعلموا على أيديهم، فقد ساعدهم **الآخائيون** على تطوير تجارتهم تطوراً عظيماً، فمهدوا لهم الطرق وشيدوا لهم الموانئ. وترتب على ذلك ازدهار مستمدٌ، فى آن واحد ليس فقط من الحروب وأعمال السلب والنهب، ولكن أيضاً من العلاقات التجارية. فلا يوجد موقع أثرى قدم لنا من الذهب مثل ما قدمه موقع **ميقنية**.

ولما كان **الآخائيون** قوماً من التجار يقدمون على أعمالهم بجرأة وجسارة، فقد جذبتهم، على نحو خاص، خيرات **الهيليسبونتوس**(*) Hellespont وموانئها وشعوبها من التجار. ومن غير المستبعد أنه بعد ١٤٠٠ق.م بسنوات، وفى عهد **أمنحوتب** الثالث أيضاً، وفى العصر الذى سعى فيه **ثيسيوس**(**) Thésée إلى توحيد جنوب **اليونان** حول **أثينا**، كانت حملة **الأرجونوت**(***) Argonautes أولى محاولات أبناء **ميقنية**، للوصول برحلاتهم البحرية إلى **الأوكسينوس بونتوس**(****) Pont-Euxin والاستيلاء على ذهب **كولخيس**(*****) Colchide. ولكن **طروادة** كانت لهم بالمرصاد، واضطر المغامرون **الآخائيون** أن يولُّوا أدراجهم، عائدين إلى بلادهم.

ويبدو على كل حال أن سكان **ميقنية**، المرتبطين بعلاقات مع شعوب ساحل **آسيا الصغرى**، قد أقاموا على ما يعتقد، وكالات تجارية فى **افسوس** و**ميليتوس**

(*) الاسم اليونانى الذى أطلقه الإغريق قديماً على **مضيق الدردنيل**. (المترجم)

(**) ملك يونانى، وفقاً لما هو وارد فى الأساطير اليونانية. (المترجم)

(***) كما ورد أيضاً فى الأساطير اليونانية. (المترجم)

(****) الاسم اليونانى الذى أطلقه الإغريق قديماً على **البحر الأسود** الحالى. (المترجم)

(*****) الاسم اليونانى الذى أطلقه الإغريق قديماً على المنطقة الواقعة شرق **البحر الأسود** وجنوب **القوقاز** الغنية بمناجم الذهب. (المترجم)

و**كولوفون**، على وجه التحديد. وحدث فى هذه الآونة، إذ استشعر **الحيثيون** الخطر الجديد الذى يشكله **الآخائيون**، ورغبة منهم فى الحيلولة دون سيطرتهم على ساحل **آسيا الصغرى**، فقد جمعوا من حولهم أبناء مناطق **طرواس**(*) و**موسيا** و**لوقيا**(**)، بعد أن أبرموا معهم سلسلة من المعاهدات، يقدمون بموجبها فرقًا عسكرية. كان ملوك **الخاتى** زعماء أذكياء نافذى البصيرة، يدركون كل الإدراك مصالح إمبراطوريتهم الشاسعة، فسعوا إلى حمايتها من خلال دول حاجزة، فكانت **الميتانى**، من ناحية **بلاد آشور** وشعوب ساحل **آسيا** الصغرى، ناحية **الآخائيين**.

إن لميناء **طروادة**، فى شمال غرب **آسيا الصغرى**، المتحكم فى **المضايق**(***) ويسمح بالعبور من **البحر الأسود** إلى **بحر إيجة**، أو يحظره، ظل يحتل على الدوام أهمية تجارية ذات شأن.

ومنذ ٢٤٠٠ق.م، فى زمن الدولة المصرية القديمة، فإن **طروادة** كانت فى بداية الأمر مجرد بلدة متواضعة للصيادين، سبق تدميرها للمرة الأولى حول عام ٢٠٠٠ق.م، على ما يبدو، كانت قد أصبحت إذن، منذ عام ٢٤٠٠ق.م، مدينة كبيرة، تضخم ثراؤها بفضل مكوس العبور التى تحصلها، أو محطة الوقوف التى توفرها للسفن التجارية.

وربما لحق بها الخراب للمرة الثانية، فى زمن الهجرات **الهندوأوروبية**، عام ٢٠٠٠ق.م، إلا أنه أعيد بناؤها لتشدَّ على ما يبدو فيما بعد، أطماع زعماء **ميقنية**. وفى عهد **رعمسيس** الثانى، حول عام ١٢٩٠ق.م، سيحاول **أجاممنون**(****) وأمراؤه وأسطوله تحقيق هذه المغامرة، فاندلعت حرب **طروادة**. ولكن دُمرت المدينة مرة أخرى، إلا أنها ستعود إلى الظهور من جديد، فالموقع الذى تشغله يشكل أهمية أساسية لتجارة العبور.

(*) وتقع **طروادة** فى وسطها. (المترجم)

(**) وتقع جميعها فى الجزء الغربى من **آسيا الصغرى**. (المترجم)

(***) وهى مضايق البوسفور والدردنيل. (المترجم)

(****) ملك **ميقنية**. (المترجم)

طرق الهلال الخصيب وكبرى الأسواق العالمية

من بلاد الرافدين إلى فينيقيا

إذا كانت الموانئ تقوم بدور مهم في عالم التبادل التجاري، فإن دور مدن الرمال على القدر نفسه من الأهمية.

إن سير القوافل عبر الدروب الطويلة مخترقة الصحارى ببطء، كانت تنقل على ظهور الحمير(٥٦) خيرات **بلاد الرافدين** حتى **البحر المتوسط**، وثروات **بلاد العرب** حتى شواطئ **فينيقيا**، كما تجلب إلى **مصر** أيضاً اللازورد الأصلي والنفيس من **أفغانستان** القصية.

هكذا نشأ طريق عبور كبير موغل في القدم، فيتم الإبحار صعوداً عبر نهر **الفرات** الطويل وصولاً إلى **بابل** و**ماري**، المدينة التي أحرقها **حامورابي**، حول عام ١٩٠٠ق.م، ثم اختراق صحراء أعالي **سوريا**، وكانت **حلب** محطة مهمة، تتوقف عندها القوافل التي تنقل معها ما تحتاج إليه من ماء ومؤن وما تحمله من خيرات، ويبيتون في الخيام عندما يرخي الليل سدوله. وتمر الأيام متباطئة بطء الحيوانات. وعند وصولها إلى خليج **الإسكندرونة**، عليها أن تختار بين طريقين، فإما أن تتجه شمالاً لتعبر شعاب جنوب شرقي **الأناضول** عبر جبال **طورس** وصولاً إلى **الحاتي**، أو تتجه جنوباً بمحاذاة **البحر المتوسط** وشاطئ **فينيقيا** وصولاً إلى **مصر**. إن هذا الطريق الطويل القديم الذي يتخذ هيئة القوس هو السبب وراء تسميته **بالهلال الخصيب**. كما أن دروباً ثانوية كانت تشق **بلاد كنعان والريتنو** في جميع الاتجاهات.

هكذا لا يزداد فهمنا لأهمية الموانئ **الفينيقية** فقط، ولكن أيضاً لمدن الرمال هذه، فكانت إمارات صغيرة هي في الغالب وكالات فسيحة ومواقع استراتيجية، وأهدافٌ لم تتوقف صراعات القوى الكبرى القائمة آنذاك للسيطرة عليها، وقد وضع **التحامسة** نصب أعينهم أن الاستحواذ عليها مصدر قوة إمبراطوريتهم وثرائها. كانت **مجدّو** نقطة وصول طرق القوافل القادمة من **بلاد العرب** ومحطة تتوقف عندها الدروب المتجهة إلى نهر **الفرات**، أما **دمشق** فتقع على الطريق الذي يربط موانئ **فينيقيا** بمدينة

بابل. أضف إلى ذلك **تونيب** و**قادش** و**تدمر** و**حلب** و**كركميش**، على نهر **الفرات**، وهى ملتقى الطرق القادمة من **البحر المتوسط** و**آسيا الصغرى** والمتجهة إلى **بلاد الرافدين**.

إن معظم دروب الصحراء هذه تنتهى عند **فينيقيا**. ومن المؤكد بطبيعة الحال، أن **فينيقيا** كانت أنذاك السوق العالمية الكبرى. ففى موانئها كانت تتكدس المنتجات من كل صنف ومن كل نوع، الواردة من **الشرق** ومن **إفريقيا** ومن **البحر المتوسط**. هنا كانت تتم الصفقات التجارية المربحة القائمة على المقايضات فى أغلب الأحوال، وفى هذه الأسواق الشرقية كانت المساومات والثرثرات المجهدة لا تنتهى، فالحياة تعج عجًا بجماهيرها وبمناقشاتها الحامية.

وفى الشمال نذكر على نحو خاص مدينة **أوجاريت**، وهى **رأس شمرا** الحالية. وقد شهد هذا الموقع حفائر على قدر كبير من الأهمية. كانت مدينة ثرية وملتقى مختلف الأعراق والأجناس، وتضم فى حقيقة الأمر عدداً من الموانئ، أهمها **أوجاريت** ذاتها. إنها شرم رائع فى وسعه استقبال سفن شراعية ذات حمولات كبيرة. وبالإضافة إلى ذلك كان يوجد إلى الجنوب قليلاً أربعة خيران(*). كانت **أوجاريت** تستقبل السفن القادمة من **كريت** و**قبرص** أو من جنوب شرقى **الأناضول**، لتربط على هذا النحو بحر **إيجه** ببلدان **المشرق**. كانت هذه المدينة النقطة التى ينتهى عندها طريق القوافل المؤدى إلى **حلب** ليلتقى بعد ذلك بنهر **الفرات** و**كركميش**، وقد عُرفت بنشاطها الصناعى، فتُصدِّر الأسلحة وأدوات الأكل من البرونز والثياب المصنوعة من الكتان والصوف ودنان زيت الزيتون والنبيذ، إلى جانب العطور والأدهان الموضوعة فى أحقاق من العاج أو الألبستر، وتتخذ شكل النماذج المصرية؛ كما كانت **أوجاريت** سهلاً ساحليًا خصبًا، تحفُّه التلال المغطاة بأشجار الزيتون والكروم. ثم تمتد الجبال

(*) مفردها **خور** وهو لسان من البحر يكون فى البر على شكل خليج صغير. نذكر على سبيل المثال خور **دبى** فى إمارة **دبى**: المعجم العربى الأساسى، جامعة الدول العربية، ١٩٦٩. (المترجم)

بغاباتها الكثيفة، حيث ترعى قطعان الخراف والماعز أعداد كبيرة. ويعتقد أن مشاهد طبيعية وأنشطة مماثلة كانت قائمة فى **بيبلوس** و**صور**. وكانت السفن الشراعية القادمة من **مصر** ترسو فى **بيبلوس**.

أما شئون **أوجاريت** فكان مسئولاً عنها أمير تاجر، وأمير صراف يقوم بالإقراض وربما كان مرابياً، ويشاركهما المسئولية قائد جيش وأسطول على قدر كبير من الأهمية، بالإضافة إلى مثقف حشد من حوله عدداً من الكُتَّاب وتحت تصرُفه مكتبة ضخمة، تضم آلاف اللوحات الطينية الصغيرة المكتوبة بلغات مختلفة. وأتاحت لنا الحفائر الكشف عن آلاف اللوحات الصغيرة فى المبانى العامة والخاصة. إن بعضها بمثابة ملاحظات دوَّنها التجار أو المواطنون لتذكرهم ببعض الشئون الإدارية أو المنزلية، أو عبارة عن قوائم بالمدن التى تدفع الجزية لمدينة **أوجاريت**. وتشكل لوحات أخرى المحفوظات الدبلوماسية المكتوبة **بالأكدية** التى كانت اللغة الدولية السائدة فى هذا العصر. وأخيراً فإن بعض اللوحات الكبيرة المكتوبة بلهجة **أوجاريت** كانت لنصوص أسطورية وطقسية.

فمن يتحكم فى **فينيقيا**، كان له إذن كل السلطان على **آسيا** ويستحوذ على خيراتها.

كان قطران يتطلعان إلى هذا الوضع: **مصر** التى كانت تسعى إلى الحفاظ على هيمنتها التقليدية على هذه المناطق. و**الخاتى** التى كانت قد فتحت شمال **سوريا** الحالية وأخذت تتوسع الآن حتى الحدود الشمالية **لفينيقيا**.

كانت لابد للمنافسة بين **مصر والخاتى**، قرب نهاية القرن الرابع عشر ق.م، أن تنتهى لا محالة، إلى احتدام الحروب بينهما.

ولكن **مصر** التى كان يحكمها من ذلك الوقت ملوك عسكريون، سيعرفون بما تحلَّوا به من شجاعة وذكاء، كيف يسيطرون على الأوضاع فى **آسيا**، بينما ظلت المناطق الإفريقية، هادئة هدوءاً نسبياً، نظراً لإحكام السيطرة عليها.

الفصل الثانى

الحروب والملاحم

أولاً: الرعامسة فى السلطة

رعمسيس الأول

حول عام ١٣١٤ق.م، تربع على عرش **مصر رعمسيس** الأول، الذى كان **حور إم حب** قد اختاره. ولن يدوم حكمه سوى سنتين، وكان الأول فى سلسلة طويلة من الملوك المحاربين.

أصوله

من الواضح أنه كان وزيراً وقائد جيش وزعيماً دينيًا، فى عهد **حور إم حب**. كان يتمتع بسلطات واسعة، وإن لم يكن مع ذلك رجلاً من أكابر القوم وأشرافهم، بل عسكريا فى الأساس، شأنه شأن أسلافه. ويبرهن اختيار **حور إم حب** على نفاذ بصيرته السياسية إلى أبعد حدٍ، فقد أدرك فى إطار الظروف القائمة آنذاك، أن زعيمًا محاربًا يستطيع وحده حماية ما تبقى من إمبراطورية **مصر** والقضاء على طموحات **الخاتى**.

كانت أصول **رعمسيس** الأول مسألة مثار خلاف بين علماء المصريات. ولكن فى مارس ١٩١٣، بينما كان عالم الآثار الفرنسى **ليجران** Legrain يباشر أعمال تنظيف الطريق الذى يربط فى **الكرنك** بين معبد **آمون** ومعبد **موت**، أن كشف عن تمثالين أمام تمثال **حور إم حب** العملاق بجوار الصرح العاشر. كان التمثالان من الجرانيت الرمادى، ويبلغ ارتفاعهما ١٢٥سم، ويصوران أحد كبار الموظفين فى وضع الكاتب(١). كان أحدهما مكرساً *«للأمير فى أرجاء البلاد، وعمدة المدينة، الوزير* ***بارعمسيس*** *المولود من رئيس رماة السهام* ***سيتى***». وكانت المدونة المنحوتة على النقبة المفرودة على

الركبتين مكملّة إذن على النحو الآتى لهذه الألقاب: «*رئيس حَمَلة الأقواس، والمشرف العام على الجياد ورئيس الأختام وقائد مركبات **صاحب الجلالة** والموفد الملكى إلى جميع البلدان الأجنبية والكاتب الملكى وقائد جيش **سيد القطرين** ورئيس كهنة الآلهة جمعاء والقائم بأعمال **صاحب الجلالة** فى **مصر العليا ومصر السفلى**، المشرف العام على مصبات **النيل**، النبيل، عمدة المدينة، الوزير **بارعمسيس***».

ولا يخامرنا أدنى شك فى الوقت الراهن، أن هذا الشخص ذا الحَول والطَّول، بما يشغله من مناصب ويحمله من ألقاب، كان فى الواقع من سيصبح **رعمسيس** الأول. لا سيما أن معظم هذه الألقاب سوف تكون أيضًا ألقاب ابنه **سيتى** الذى سيصبح **سيتى** الأول.

إن تابوتين جادت بهما **مدينة هابو**و**مدينة الغراب**، ثم اغتصبهما الأمير **نب وين**، كانا يخصان أيضًا **رعمسيس**، قبل اعتلائه العرش، وبصفته «*القائم بأعمال **صاحب الجلالة فى مصر العليا ومصر السفلى***»(٢).

عائلة رعمسيس

إن أباه **سيتى** المذكور فى مدونة تمثالى **الكرنك**، كان إذن رجلاً عسكريًا أيضًا، بصفته «*رئيس حَملة الأقواس*»، وكانوا من خيرة وحدات الجيش المصرى وأبرزها.

كما نعرف هذا المدعو **سيتى** بفضل لوح حجرى يحتفظ به المعهد الشرقى لجامعة **شيكاغو** Oriental Institute Museum. University of Chicago. وقد صُوِّر على هذا اللوح ثلاثة أشخاص، نُحتوا بالنقش البارز داخل كوة قليلة العمق. ويحيط بهم من على الجانبين خدم موقرون، يأتون إليهم بالتقدمات(٣). إن المدونة الخاصة بالشخص الأوسط، تشير إليه على النحو الآتى: «***الأوزيريس، سوتى*** (أو **سيتى**)، *رئيس حَمَلة أقواس **سيد القطرين***». وعلى يمينه تقف زوجته وعلى يساره أخوه: «*إنه أخوه، **خع إم واست**، حامل بيرق الحاشية* (الملكية)». *أما* اسم **خع إم واست**، فمعناه «*ذلك الذى يشرق متألقًا فى **طيبة***». وقد شاع هذا الاسم، فيما بعد، فى عائلة **الرعامسة**. كما صُوِّر هذا الأخ فى مجموعة نحتية تم الكشف عنها فى بلدة **كوّة**

بالسودان، الواقعة على نهر **النيل** فيما بين الجندلين الثالث والرابع، ويعود تاريخها إلى عهد **توت عنخ آمون**. وهنا يحمل هذا الأخ لقبَىْ: «*حامل البيرق على يمين الملك، ورئيس حَملة الأقواس فى بلاد **كوش***». فعائلة **الرعامسة** هى إذن تقليديًا عائلة من العسكريين.

كانت تتحدَّر أصلاً من شرق **الدلتا**، ومن مدينة **تانيس**(*) الواقعة عند مناطق **آسيا** الحدودية. وربما أثَّرت هذه الأصول على بعض جوانب سياسة **الرعامسة**، كما يفسر ذلك، تكرار اسم **سيتى**(**) فى هذه العائلة، والذى يعنى «*المنتسب إلى **ست***»(**)، الإله الذى كان يعبد بصفة خاصة فى القسم الشرقى من **مصر السفلى**. كما نعرف، من خلال لوح حجرى يعود تاريخه إلى عهد **رعمسيس** الثانى وتم الكشف عنه فى **تانيس**، أن الوزير **پارعمسيس** كان، قبل تربعه على العرش، قد أرسل ابنه **سيتى** لتقديم فروض الشكر والحمد للإله **ست**، فى مدينته(٤).

واستطاع **رعمسيس** الأول طوال عهده الذى دام سنتين، أن يحافظ على النظام والاستقرار اللذين استعادهما **حور إم حب**. إن ما وصلنا من وثائق عن هذه الفترة القصيرة شحيحة، إلا أنها تبدو فى العديد من المجالات وكأنها مقدمة تمهيدية لسياسة **الرعامسة** العظيمة، وهو ما كان مؤسس هذه الأسرة الحاكمة يستشعره منذ ذلك الحين.

رعمسيس الأول والآلهة

إن قائمة الألقاب التى أخذ بها **رعمسيس** الأول تؤكد على روابط النظام الملكى بالآلهة، فما زالت لا تتسم حتى الآن بهذا الجانب المحارب المنتصر الذى سيميز قائمة ألقاب خلفائه:

__الحورس__ الثور القوى، صاحب المُلك الأخضر(٥).

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم **جعنت**، **صان الحجر** حاليًا. (المترجم)

(**) الياء المضافة، هى ياء النسب فى اللغة المصرية القديمة، كما فى اللغة العربية. (المترجم)

__السيتان__ هذا الذى يتجلى بصفته ملكًا مساويًا __لآتوم__.

__الحورس الذهبى__ هذا الذى يدعم __الحقيقة والعدالة__ على امتداد __بلد – الشاطئين__.

__ملك مصر العليا ومصر السفلى__ فلتبق قدرة __رع__!

__ابن رع رعمسيس__[*] (إن __رع__ هو الذى أنجبه).

لقد عاد **أمون** من جديد، ليتمتع بامتيازاته، وشرع **رعمسيس** الأول فى تشييد أكبر أبهاء الأساطين، إنه بهو أساطين **الكرنك**، فيما بين الصرحين الثانى والثالث، من صروح معبد **أمون – رع** الكبير.

ولكن من الواضح أنه أظهر الريبة نفسها التى اعترت **حور إم حب** حيال كهنة **أمون**، فقد أراد أن يمنح أيضًا معتقدات **هليوبوليس ومنف**[**] مكانة ذات شأن.

❖ فعلى لوح حجرى عُثر عليه فى **سيناء**، يُدعى:

الإله الكامل ابن __أمون__ الذى ولدته __مُوت__ سيدة السماء، ليحكم كل ما يحيط به قرص الشمس (__آتون__)[٦].

❖ وعلى لوح حجرى تم الكشف عنه فى **بوهن بالسودان**، ويعود إلى العام الثانى من حكمه، فإنه يُدعى:

ذاك الذى يشرق متألقًا على عرش __حورس__ الأحياء، مثله مثل أبيه __رع__، على مر الأيام[٧].

وأخذ الرباط الذى يوحِّد الملك بمجموع آلهة البلاد يتأكد ويترسخ. وعلى هذا اللوح الحجرى نفسه فى **بوهن**، نقرأ النص الآتى:

(*) بالمصرية القديمة حرفيا: **رع مس سو**. (المترجم)

(**) **من – نفر** بالمصرية القديمة، وحرفها الإغريق إلى **ممفيس** والعرب إلى **منف**، وهى **ميت رهينة** حاليًا. (المترجم)

*كان **صاحب الجلالة** فى مدينته **منف**، ليقيم طقوس الحمد والثناء على أبيه **أمون – رع** وعلى **بتاح**، **ذاك الذى يوجد جنوب جداره**، رب حياة **القطرين**، وعلى كافة آلهة **البلد** المحبوب، كما أن هذه الآلهة تمنحه البسالة والقوة. هكذا فإن كل الأراضى، تتحد فى قلب واحد لتُبجل **كاءه**.*

كما اهتم **رعمسيس** الأول بتطوير طقوس العبادات فى **النوبة**، فعلى أحد الألواح الحجرية التى جادت بها بلدة **بوهن** ورد النص الآتى:

*أمر **جلالتى** بأن توضع تقدمات تغالب الأيام، من أجل أبى **مين – أمون** المقيم بمعبده، فى **بوهن**.*

تلى ذلك قائمة بالقرابين، وبالكهنة المنوط بهم أداء هذه الأعمال.

الصعود فى اتجاه الشمال

يبدو أن **رعمسيس** الأول قد عقد العزم على تعاظم دور العاصمة القديمة **منف**، وربما اختار أيضاً **تانيس** مقراً لإقامته خلال فصل الصيف، وهى المدينة التى تحدَّرت منها عائلته.

ومن ثم، فقد شرع فى التحرك واضعاً نصب عينيه **الصعود فى اتجاه الشمال**، الذى سيصبح أحد مبادئ سياسة **الرعامسة**. هكذا أخذت سلطة الملوك تعرض بعض الشىء عن سلطة كهنة **طيبة**، ومن جهة أخرى أخذ **الفرعون** يقترب من إمبراطوريته فى **آسيا**. إن إقامة قواعد عسكرية فى **الدلتا** سوف تساعد على زيادة سرعة انتقال الفرق العسكرية عند نشوب صراعات يصعب تجنبها.

لما كان **رعمسيس** الأول بعيد النظر نافذ البصيرة، فقد أشرك ابنه **سيتى** فى الحكم، ليختاره على هذا النحو، منذ نعومة أظفاره، خليفةً له.

وعلى لوح حجرى كبير مكرَّس للملك **رعمسيس** الأول فى معبد **أبيدوس** يعلن **سيتى**:

*أنا ابن مفعم بالبركة لصالح مَن أنجبه. أنا ابن يجعل (اسم أبيه) يحيا ... كنت مسرورًا على الدوام عند تحقيق ما كان يقوله. لم أصدر مطلقًا أمرًا إلا لتتوافق أفعالى مع رغباته، إلى أن يحين زمن تسلمى السلطة، فمنذ أن خرجت من بطن (أمى) مثل ثور حقيقى[٨]، شاركته مقاصده وتعاليمه. كان شمسًا متألقة، أما أنا فكنت بين يديه مثل نجم. عندئذ أخضعت أراضى **الفينيقيين**، ومن أجله دفعت الأعداء فى البلدان الأجنبية ليعودوا أدراجهم. من أجله أحمى **مصر**، حسب رغبته. فمن أجله أبقى على مُلكه، مثل **حورس** على عرش **أوزيريس**. ومن أجله أختار على مرِّ الأيام الحقيقة - العدالة، وأحملها مستقرة على صدرى. إنى أسهر على جنوده، وأبث فيهم وحدة الإرادة. ومن أجله أعددت تقريرًا، عن شئون **القطرين**. ومن أجله أتصرف ببسالة، فأحمى جسده فى بلدان أجنبية، كنا نجهل اسمها (حتى الآن). إنى أتصرف كبطل، حتى تتعرف عيناه على كمالى. وعندما لحق **بالمنطقة العليا** أشرقت أنا على عرشه[٩].*

هكذا استطاع ولى العهد **سيتى** أن يتعرف منذ وقت مبكر جدا على مفاتيح إدارة شئون الدولة، بل واضطر أن يخوض بعض المعارك الحربية فى البلدان الأجنبية، وأبلى فيها بلاءً حسنًا، وإن ظل تحت إمرة أبيه الملك.

إن قاعدة تمثال من الحجر الرملى الفاتح اللون، وهى التى عُثر عليها حديثًا فى أقباء المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة[١٠] IFAO تؤكد هذه الوقائع. فعلى هذه القاعدة، يلاحظ وجود آثار تمثالين متجاورين يصوران **رعمسيس** الأول **وسيتى** الأول. ونقرأ على المدونة النص الآتى:

*فليحىَ الإله الكامل، الشبيه (بالإله) **رع**، الذى يضىء **القطرين** مثل إله الأفق، (إنه) ملك **مصر العليا ومصر السفلى**، أمير البشر والحبور، رب **القطرين**، **من پحتى رع**[*]، له الحياة.*

*فليحىَ الإله الكامل، (إنه) النجم بالنسبة للأرض، فظهوره ممجدًا يعيد الحياة إلى البَشر أجمعين، (إنه) ملك **مصر العليا ومصر السفلى**، أمير **الأقواس التسعة**، رب **القطرين**، **سيتى**، له الحياة.*

هنا، يظهر الأب والابن، على قدم المساواة، سواء بالصورة أو بالنص. ولا يظهر **سيتى** بصفته وريث العرش، إلا من خلال هيئته وقائمة ألقابه. إنه نجم الأرض بتألقه الأقل من تألق جرم السماء ويشار إليه فقط بالاسم الذى حمله منذ ولادته، وليس باسم التتويج الذى لم يحمله بعد.

ولكن هذا المعلم، شأنه شأن النص السابق، يحملنا على الظن فى قيام مشاركة فى الحكم، وإن ظلت حقيقة ملتبسة، وبالطبع كان **رعمسيس** الأول يضطلع بالدور الرئيسى فى هذه المشاركة.

وسوف يصبح هذا الوضع أمرًا شائعًا عند **الرعامسة**. وربما كانت هذه الظاهرة برهانًا جديدًا على مشاعر الريبة حيال كهنة **آمون**، الذين كانوا يتدخلون أحيانًا إلى حد كبير فى شئون وراثة العرش.

إن الشمس[**] والنجم، وفقًا للمفاهيم الكونية لمدينة **هليوبوليس**، والأب والابن الملكيين، يندمجان أيضًا فى **أوزيريس** و**حورس**، رمزَىْ البر بالوالدين واستمرارية الأسرة الملكية الحاكمة. إن إشارة أخرى إلى هذا **البلبلة** المتعمدة يبرزها رسم فى مقبرة **رعمسيس** الأول، فى **وادى الملوك بطيبة**، وهى المقبرة رقم١٦[١١]: فقد صور

(*) لقب **رعمسيس** الأول، بصفته ملك **مصر العليا ومصر السفلى**. (المترجم)

(**) نذكر أن لفظ شمس مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

رعمسيس بين **حورس** وقد وضع **البشنت**(*) على رأسه و**أنوبيس**، وقد أمسك كلاهما يدَىْ الملك المتوفى والمبعوث حيًا. وفوق صورتَىْ الملك و**حورس** تمتد المدونة الآتية:

الأوزيريس ملك مصر العليا ومصر السفلى: من بحتى رع،

*ابن رع: **رعمسيس** صادق القول بجوار **أوزيريس**.*

*كلمات قالها **حورس بن إيزيس** والإله العظيم المقيم فى **بلد - الصمت**: لقد أقام ابنه، سيد **القطرين**، على عرش أبيه **أوزيريس**.*

وفى عام ١٣١٢ق.م، وبوفاة أول **الرعامسة** اعتلى **سيتى** الأول عرش **مصر** دون عناء.

ثانيًا: جيش الانتصارات

كما لاحظنا من قبل، كان الوضع فى **آسيا** ينذر آنذاك بتهديدات بالغة الخطورة.

ولما كان **رعمسيس** الأول مدركًا عواقب المخاطر الخارجية فقد أدخل تعديلات على نظم الجيش، وشرع **سيتى** الأول منذ اللحظات الأولى من حكمه، يتصدى للسير قُدمًا فى عملية تطويرها. وبالفعل سوف يصبح الجيش من الآن الأداة الرئيسية لقوة السياسة المصرية. إنه «**جيش - الانتصارات**»، وهى العبارة التى كان قد أطلقها **تحوتمس** الثالث على فيالق المحاربين القدامى الذين رافقوه، فى جميع حملاته العسكرية المظفرة.

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم **(پا) سخمتى**، ويعنى القوتين، إشارة إلى التاج المزدوج: الأبيض والأحمر. (المترجم)

كان لابد من الانتظار حتى الألف الثانى قبل الميلاد، لتتشكل فرق عسكرية من الجنود المحترفين لتأمين الحدود ومصبّات **النيل** وحصون **النوبة** وقلاعها، ووضع بعض الحاميات فى المدن **الآسيوية** ذات الأهمية الاستراتيچية.

كان الملك يقوم باختيار ضباطه من بين الرجال الذين لاحظ إقدامهم وبسالتهم، فيهبهم الأراضى المقتطعة فى الغالب من أملاك التاج، ويضمن لهم دخلاً ثابتًا، ويمنحهم قسمًا من الغنائم التى تم الاستيلاء عليها من الأعداء، ولا سيما «*الأسرى الأحياء*». هكذا تشكلت بالتدريج طبقة اجتماعية جديدة، تتمتع بثروات ضخمة وتحظى برضا الملك، ولكنها سوف تسهم فى زمن قريب جدا فى تهديد السلطة.

إن النظام القديم فى توفير الأفراد الجدد للجيش والقائم على التجنيد المحلى فى إطار كل إقليم على حدة، وفقًا لنسبة مئوية لكل أسرة، ظل معمولاً به مع تطويره. فبعد أن تقدم الإدارة العسكرية تصورها للأعداد اللازمة للوحدات العسكرية المخصصة لكل حملة، تحدد أعداد المجندين المطلوبين من كل عائلة. ويبدو أن بعض الاستثناءات كانت تُمنح للعائلات كثيرة الأفراد.

وبالإضافة إلى هؤلاء العسكريين المحترفين والمجندين كان الجيش المصرى يضم عددًا من وحدات المرتزقة والفيالق الأجنبية، المشكلة «عن طريق أفضل عناصر الأسرى الذين أخذهم **صاحب** الجلالة من ساحة المعركة»، وكان **تحوتمس** الثالث، على ما يبدو، أول من أخذ بهذه السياسة، وكلما زادت الانتصارات زادت أعداد هذه الفيالق. وأبرز هؤلاء المرتزقة شأنًا **الشراتنة** الذين تعود أصولهم إلى بلاد **شرداس**، فى **آسيا الصغرى**، وسبق أن هاجروا إلى الساحل **الفينيقى**. ولكن جميع أراضى الإمبراطورية الإفريقية والآسيوية، على حدٍ سواء، سوف تقدم إسهاماتها.

كانت القوات البرية تضم حتى عهد **حور إم حب**، وحدتين قتاليتين كبيرتين، عملاً بالازدواجية باعتبارها مبدأ أساسيا، فى كل جانب من جوانب الإدارة المصرية. وتأتى الوحدة الأولى من **مصر العليا** والأخرى من **مصر السفلى**. وأسس **رعمسيس** الأول، أو ربما **سيتى** الأول، ثلاث وحدات قتالية، تحت رعاية وحماية أكبر آلهة وادى **النيل**، وهى **أمون ورع وبتاح**. وأضاف **رعمسيس** الثانى وحدة قتالية ثالثة، برعاية **ست**، إله المدينة التى تحدَّر منها، كما كان إلهًا نصف أسيوى.

كان سلاح المشاة يتكون من سرايا تضم مئتى فرد للسرية الواحدة، يقودها حامل راية. وتنقسم كل سرية إلى أربع كتائب من خمسين فردًا لكل كتيبة. وتحمل أسماءً متشامخة، نذكر منها على سبيل المثال: «***أمنحوتب يتألق كقرص الشمس***» أو «***قوى هو ساعد رعمسيس***». كان أفراد سلاح المشاة مسلحين تسليحًا خفيفًا، إنهم حَمَلة الأقواس ومن خيرة الجنود. كانت أصولهم نوبية فى الغالب، لاشتهار أهالى **إفريقيا** بمهارتهم الفائقة فى استخدام القوس. وعلى كل حال فقد كان المصريون يطلقون على **النوبة** اسم **تا-ستى** أى «*أرض السهم*».

ظلت القوات البرية لفترة طويلة، تقدر بحوالى ألف وخمسمئة سنة، تتكون من سلاح المشاة فقط. ولكن منذ غزو **الهكسوس**، ظهر سلاح ثانٍ هو سلاح المركبات.

عندما قام **الهكسوس** باختراق **الدلتا**، فى القرن الثامن عشر ق.م، يبدو أنهم كانوا مجرد محاربين من المشاة، كما يبدو أن الخيول والمركبات الحربية لم تنتشر، فى واقع الأمر، إلا على أيدى **الهندوأوروبيين**، اعتبارًا من القرن السابع عشر ق.م، ولم يأخذ بها **المصريون** إلا قرب نهاية سيطرة **الهكسوس**، حول عام ١٦٠٠ق.م.

لم تعرف **مصر** ركوب الخيل الذى استخدم فقط فى جرِّ المركبات، وكانت الخيول محل تقدير **المصريين** الذين نظروا إليها بإعجاب. ومن بين الأسماء التى أطلقت عليها، يشير أحدها إلى الحصان بصفته «**نفر**»، أى «*الجميل*». وفى التصاوير يظهر أحيانًا باللون الوردى، وهو لون جديد ونفيس القدر فى نظر أهل **مصر**، فيلوَّن به ما يمتع الناظر إليه ويلفت انتباهه، وذلك عملاً بالأسلوب الانطباعى المصرى؛ فاختصوا الخيل إذن وأيضًا الفراشات وأحيانًا بشرة النساء الجميلات بهذا اللون.

كانت المركبة تتكون من صندوق من الخشب موضوع فوق عجلتين، مغطى أحيانًا بجلد أو معدن. كان جوادان يجرانها، وعلى متنها رجلان، قائد المركبة والمحارب المسلح تسليحًا خطيرًا. وفى الغالب يوجد **الفرعون** بمفرده على متن المركبة. وكان العنان المتحكم فى الجوادين يلتف حول وسطه، فيوجه الجوادين بتحريك الوركين ببراعة فائقة.

كان سلاح المركبات من خيرة أسلحة القوات البرية وأفضلها، كان موزعًا على عدة سرايا، تضم كل سرية خمسًا وعشرين مركبة، وعلى رأس كل واحدة «*قائد مركبة من المقر الملكى*». كان «*قائد سلاح المركبات*» مسئولاً عن مجمل هذا السلاح، كان يعاونه «*رئيس الخيول*» أو «*رئيس الإسطبلات الملكية*». ولما كان قادة المركبات الحربية يعتبرون صفوة العسكريين ونخبتهم، كانوا يتلقون أعلى قدر من الثقافة والتدريب وأرفعهما، شأنهم شأن الكتبة.

إن ظهور المركبات الحربية على هيئة سلاح رادع جديد، غيَّر من تكتيكات أرض المعركة. ومن الآن، عند التحام القوات المتحاربة تنطلق المركبات فى بداية الأمر، والجياد تعدو بأقصى سرعة لمواجهة العدو. وفى أعقابها يأتى حَمَلة الأقواس الذين يمطرون العدو بسهامهم، وبعد ذلك يتقدم سلاح المشاة، إما لاحتلال الأرض التى تمَّ الاستيلاء عليها، أو لوقف العدو فى حالة دحر الهجوم الأول، فى انتظار تجميع المركبات الحربية استعداداً لشن هجوم ثانٍ. وعندما يلوذ العدو بالفرار تطارده المركبات. لذلك، تُصوِّر لنا النقوش والرسومات **الفرعون** على متن مركبته، وأمامها نشاهد الأعداء المهزومين ينقلبون متدافعين، شأنهم شأن الحيوانات الصرعى أثناء رحلات الصيد(*). كانت الحرب فى نظر المصرى القديم بمثابة رحلة صيد كبيرة، كان طريدها الإنسان، فالوسائل والأدوات المستخدمة واحدة فى الحالتين.

(*) خير مثال على ذلك صندوق **توت عنخ أمون** الرائع الجمال، ويصور على جانبيه مشهد الأعداء المهزومين والحيوانات الصرعى. ويمكن تأمل هذه التحفة فى **المتحف المصرى بالقاهرة** ضمن آثار **توت عنخ أمون**، الطابق العلوى، الرواق رقم ٤٠. (المترجم)

وتطورت الأسلحة الهجومية، وظل القوس والسهام السلاح الرئيسى. ولكن المحاربين **المصريين** كانوا مسلحين أيضًا تسليحًا خطيرًا بالرماح والحراب والسيوف والخناجر والبلطات، بل والمقامع وبكل سلاح فى وسعه البتر أو الشق أو الاختراق أو الطعن أو الضرب ضربات قاضية. أضف إلى ما تقدم فاعلية الفيالق الأجنبية، إذ ظل كل شعب محتفظًا بأسلحته الخاصة من هراوات **النوبيين** الخشبية، والخناجر الطويلة **للشراتنة** ذوى الخوذات ذات القرنين، والسيوف العريضة المفلطحة **للفلستينيين** الذين يضعون على رءوسهم غطاء نباتيًا. وإذ تفاجئ الوسائل الهجومية العدو بتنوعها فضلاً عن تعددها، أصبح الهجوم أكثر فاعلية واستعراض القوة أكثر بطشًا.

كما تطورت الأسلحة الدفاعية. وتطور المئزر المثلث الشكل المصنوع من الجلد والمثبت أمام النقبة فحلَّ محله بالتدريج قميص من القماش أو الجلد مغطى برقائق معدنية، ولكن لم يرتدِ المحاربون الخوذات قبل الألف الأول قبل الميلاد، باستثناء **الشراتنة**.

كان **الفرعون** يقود الحرب. فهو الذى يضع خطط المعارك ويتناقش أحيانًا مع ضباط أركان حربه، كان وحده الذى يقف على رأس قواته، ويقود جنوده إلى النصر المظفر. كان الوزير رئيس الإدارة العسكرية الموزعة على دوائر إقليمية، ورؤساء الحاميات يأتون إليه بانتظام، ليعرضوا عليه تقاريرهم.

سفن الملك

من الآن ستقوم بحرية **الفرعون** بدور يضارع أهمية القوات البرية فى الدفاع عن الإمبراطورية، ففى عهد **رعمسيس** الثالث، سوف تخوض المعارك عند مصبات نهر **النيل** ذاته، إنها «سور من حديد ونار».

كان البحارة يجندون فى الغالب من بين أهالى الدلتا، الذين اعتادوا منذ وقت مبكرٍ جدا أن تجمعهم بالبحر ألفة، وقد أطلق عليه المصريون اسم «**الشديدة الاخضرار**»، سواء للإشارة إلى **البحر المتوسط** بألوانه اللازوردية أو إلى **البحر**

الأحمر. **وللاخضرار** فى هذا المجال، دلالة رمزية. فهو لون عالم النبات الذى لا يموت ويتجدد على الدوام، على غرار أمواج البحر التى لا تكف عن العودة إلى الشطآن. وسوف تصبح مدينة **منف** قاعدة بحرية عظيمة الأهمية.

كانت **سفن الملك** مراكب شراعية كبيرة، يقودها صف من المجدِّفين أو صفَّان فى بعض الأحيان، فيشدون بقوة على المجاديف، عند ميسرة السفينة وميمنتها، بينما تتعالى أغانيهم. كانت هذه السفن مصنوعة، فى أغلب الأحوال، من خشب صنوبريَّات **لبنان**، وقد يصل طولها إلى ستين متراً. وتنساب على صفحة نهر **النيل** أو تجرى عبر **الشديدة الاخضرار** أو تبحر بمحاذاة الشاطئ مدفوعة بالرياح التى تنفخ فى الشراع العريض الذى يتخذ شكل المعيَّن المنحرف والمثبت على عارضتين، والمرفوع على سارية مزدوجة أو بسيطة، ويتحكم فى السفينة من الخلف حبلا الرفع. ويعتمد توجيه السفينة إما على مجداف واحد فى المؤخرة أو على مجدافين طويلين وعريضين، واحد على كل جانب من جانبَىْ كوثل السفينة، وقد وضعا فوق شوكة تتحرك كالرافعة، وكان الربان يرفع أحدهما بواسطة حبل.

ولكن لا نعلم شيئاً عن التجهيزات الداخلية للمراكب، فكل ما نعرفه عنها جاءنا عن طريق التصاوير أو **النماذج** المصرية المصنوعة من الخشب أو الفينيقية المصنوعة من الصلصال. ولكنها ليست «*نماذج مصغرة*»، لأنها لا تبرز سوى الخطوط العامة لما تصوره.

كان المصريون بحارة جسورين، فركبوا البحار منذ أقدم العصور، وسبقوا أهالى **فينيقيا** بفترة طويلة، بل لقد علموهم تحديداً طريقة بناء سطح السفن.

فمن موانئ **المشرق** إلى **الصومال** ومن **السودان** إلى بحر **إيجة**، كانت الصنادل الكبيرة تحمل القمح والأحجار، وتقوم السفن الضخمة بنقل مواد البناء والبضائع والمنتجات النفيسة. وجنباً إلى جنب وسائل النقل التجارية، كان **تحوتمس** الثالث أول من أقام **طريقاً إمبراطورياً** حقيقياً، لنقل القوات المسلحة من **منف** إلى موانئ ساحل **فينيقيا**، فكانت السفن الحربية والمراكب – الإسطبلات والمراكب الحظائر – ترسو هناك، لتنقل إليها المحاربين الأشداء ومعداتهم وتموينهم.

شخصية الجندى

جندى المشاة

كان يطيب للمصريين أن يحيوا فى سلام ويعيشوا أياماً هادئة. لقد دُفعوا إلى القتال دفاعًا عن وطنهم، فنازلوا أعداءهم بشجاعة وبسالة. ولكن أوضاع الجندى وأحواله انتقدتها النصوص فى الغالب نقداً مريراً.

هكذا ففى خطاب من عصر **الرعامسة** بعث أحد الكتبة برسالة إلى زميل له، قائلاً:

ماذا تعنى بقولك «لأن يكون المرء جنديًا هو أكثر لطفًا من أن يكون كاتبًا».

تعال، فسأخبرك عن أحوال الجندى الذى كثيرًا ما يضرب ضربًا مبرحًا، إنه يُقتاد وهو لا يزال صبيًا صغيرًا، ليُحتجز فى الثكنات. وتسدد له ضربة مؤلمة على بدنه، وأخرى على حاجبيه، فى حين يُشجُّ رأسه بجرح، ثم يطرح أرضًا ويضرب كالبردى. عندئذ يعانى من الكدمات وهو محطَّم.

*فلننتقل إلى زحفه على **سوريا**، وسيره فوق الجبال. إنه يحمل طعامه وماءه على كتفيه مثل حمولة حمار، مما يجعل رقبته مشدودة كرقبة البهيمة، وتنحنى فقرات ظهره. إنه يشرب ماءً زعاقاً، ولا يُعفى من حمله إلا أثناء قيامه بأعمال الحراسة. وعندما يقترب من العدو، فهو أشبه بطير وقع فى الفخ.*

*وعندما يحين وقت العودة إلى **مصر** يكون أشبه بقطعة خشب نخرها السوس. إنه مريض وعليه أن يتمدَّد. عندئذ يُعاد على ظهر حمار(*) وقد سُرقت ملابسه وفرَّ خادمه.*

*أيها الكاتب **إينانا**، اعدل إذن عن الفكرة القائلة بأنه من الأفضل أن تكون جنديًا، من أن تكون كاتبًا* (١٢).

(*) وهو مصير شائن بالنسبة لأى مصرى. (المؤلفة)

أهو نص ينطوى على نقد فيه قدر من الفكاهة المسلية على خلفية من الحقيقة؟ أم كان **بالأحرى** تمرينًا بلاغيًا هدفه امتداح مهنة الكاتب وتقريظها، بل والنفور من الحرب على الأخص؟

البحّارة

كما أسلفنا، كان المصريون ملاحين، ركبوا البحر من زمن بعيد يزيد على **ألفَىْ** سنة، من سجاياهم كبرياء شعب من البحارة، فخورين بما اكتسبوه من معارف، وإحساسهم الغريزى باتجاه الرياح ونسيم البحر، كما كانوا رابطى الجأش فى مواجهة الشدائد.

ففى قصة تعود إلى بدايات الألف الثانى قبل الميلاد(١٣)، تُغامر حملة بالإبحار فى **البحر الأحمر**.

*لقد أبحرتُ هابطًا عبر **الشديدة الاخضرار** على متن سفينة تبلغ ١٢٠ ذراعًا طولاً و٤٠ ذراعًا عرضًا. ويضم طاقمها ١٢٠ بحارًا، من صفوة أبناء **مصر**. وسواء شاهدوا السماء فقط أو كانت الأرض فى مرمى بصرهم، كانت قلوبهم أكثر تصميمًا من قلوب الأسُد. كان فى وسعهم أن يتنبّأوا بقدوم العاصفة قبل وقوعها، أو بالزوابع قبل أن تحدث فجأة.*

حقًا، لقد غرقت السفينة، ولكن ما العمل فى مواجهة أمواج عاتية يزيد ارتفاعها على أربعة أمتار؟

ثالثاً: سيتى الأول وإعادة الإمبراطورية إلى سابق عهدها

*حورس الثور القوى الذى يشرق متألقًا فى **طيبة**، ويعيد الحياة إلى **القطرين**.*

***السيتان** صاحب النهضة والتجديد، والساعد المقدام الذى يدحر **الأقواس التسعة**.*

***الحورس الذهبى** صاحب الإشراق الجديد الوضّاء، والذى تتفوق أقواسه فى جميع البلدان.*

***ملك مصر العليا ومصر السفلى، من ماعت رع** (فلتبق عدالة **رع**).*

***ابن رع، سيتى،** محبوب **بتاح**.*

اعتلى **سيتى** عرش البلاد، عام ١٣١٢ق.م تقريبًا، ودام حكمه زهاء ست عشرة سنة، وحتى عام ١٢٩٦ق.م، على وجه التقريب.

كان على الملك الجديد يوم تتويجه، بعد الفراغ من صياغة مجموعة ألقابه، أن يدشن عهداً جديداً، يعمل على النهوض بإمبراطورية **مصر** وإحيائها.

إنه عصر جديد، فى حقيقة الأمر، لأن ارتقاءه العرش يتفق مع مرحلة جديدة من مراحل النجم **سوتيس**(*) Sothis(١٤). إن نصّى مدونتَيْن، عُثر على الأولى فى **نورى** ببلاد **النوبة** والثانية فى **سبيوس أرتميدوس**(**) Speos Artemidos، فى **مصر الوسطى**، تصف العام الأول من حكم **سيتى** الأول، «بأنه *بداية للأبدية*». فهل كانت بداية مرحلة جديدة من مراحل النجم **سوتيس** حتى وُصفت بهذا الوصف؟ أو كان الأمر مجرد أسلوب لإرضاء العاهل الملكى الجديد والتملق له؟ ويبدو أن الافتراض الثانى مستبعد وغير مرجّح. *فحلول مرحلة جديدة من مراحل النجم **سوتيس**،* هو حدث

(*) الاسم اليونانى لنجم **الشّعرى اليمانية**، **سيريوس** Sirius بالفرنسية، و**سوبدت** بالمصرية القديمة. (المترجم)

(**) **إسطبل عنتر** حاليًا. (المترجم)

على قدر كبير من الأهمية. فالسنة المصرية المدنية تبدأ فى التاسع عشر من شهر **يوليو**، عند خط عرض مدينة **منف**، ففى هذا اليوم يتزامن حدوث ظاهرتين، ربط المصريون بينهما: وصول فيضان **النيل** والشروق الاحتراقى للنجم **سوتيس**. فبعد أن ظل النجم **سوتيس** غير مرئى لفترة سبعين يوماً(*) – وهى فترة التقائه بالشمس، يصبح مرئياً من جديد، قبل وقت قصير من شروق الشمس. ولكن لما كانت مدة السنة المدنية المصرية ٣٦٥يوماً فقط، وأن الفارق بينها والسنة الحقيقية، لا يتم تعويضه كما هو الحال فى التقويم **اليوليانى**، بإضافة السنوات الكبيسة، فقد تأخرت السنة المدنية عن السنة الشمسية، يوماً كل أربع سنوات، بحيث لا يتفق اليوم الأول من السنة المدنية من جديد، مع السنة الشمسية إلا مرة كل ١٤٦٠سنة، ويطلق على هذه الفترة **مرحلة النجم سوتيس**، التى تعتبر بدايتها فى نظر المصريين، مستهل أزمنة جديدة. هكذا فقد بدأ عصر **الرعامسة**، فى ظروف كان من حسن طالعها وقوع هذا الحدث العظيم.

المعارك والانتصارات فى آسيا

منذ العام الأول من حكمه، أخذ **سيتى** الأول يستعد لخوض المعارك ضد **الحيثيين**، المنافسين الخطرين. إنه «*من يسحق كل البلدان الأجنبية سحقاً، ومن يخترق أراضيهم أثناء كل فصل من فصول الجفاف وكل فصل من فصول الإنبات*[١٥]».

كان البدو **شاسو** يثيرون القلاقل فيما وراء الحدود الشمالية الشرقية، فقد استولوا على ثلاث وعشرين مدينة حصينة، وعلى كل حال فربما كان **مواتالى** ملك **الخاتى** يحرضهم على الثورة.

إن مجموع حملات **سيتى** الأول العسكرية ترويها فى جانبها الأكبر، النصوص والنقوش المنحوتة على الواجهة الخارجية من الجدار الشمالى من بهو الأساطين

(*) والسبعون يوماً هى أيضاً الفترة اللازمة لعملية التحنيط. راجع:
M. Damiano- Appia. L'Egypte. Dict. Enc. Gründ. 1999, p.189. (المترجم)

العظيم فى **الكرنك** وعلى الجدار الشرقى من هذا البهو ذاته. فقد سُجِّلت هذه الرواية إذن، فى الجهتين الشمالية والشرقية، أى فى اتجاه **آسيا**.

ويقوم **سيتى** بحشد قواته العسكرية، ليسلك الطريق القديم الذى سار عليه الفاتحون، دروب **حورس**(*) التى تعبر الحدود عند **القنطرة – ثارو** عند المصريين – ولتتجه شمالاً إلى بلاد **كنعان**، دون أن يبتعد كثيراً عن **البحر المتوسط**. ولما كان **سيتى** الأول يحسب للمستقبل حسابه فقد أمر آنذاك ببناء قلعة حصينة بجوار كل نقطة ماء فى الصحراء، لتعسكر فيها من الآن حامية مصرية.

«إنه يرسم حدوده حسب رغبته، دون إمكانية صدِّ ساعده، إنه الملك الذى يحمى ***مصر*** *ويحطم أسوار البلدان التى يسودها التمرد»*[١٦].

وقمع التمرد بسرعة فائقة واستعاد المدن الحصينة الثلاث والعشرين التى كانت قد سقطت فى أيدى العدو.

عندئذ استسلم ***الشاسو****، بدءاً من حصن* ***ثارو*** *حتى أرض* ***كنعان****. كان* ***صاحب الجلالة*** *قد استحوذ عليهم، مثل أسد متوحش، وحوَّلهم إلى جثث على امتداد وديانهم، مضرجين فى دمائهم، فصاروا وكأنهم لم يوجدوا أبداً، وذلك بفضل قدرة أبيه* ***آمون****، الذى كان قد خصَّه بالبسالة والقوة، للتصدى لكل بلد أجنبى*[١٧].

لقد ظهرت أيديولوچية عسكرية جديدة، وأصبح **آمون** إله المعارك والاشتباكات الدموية التى تقود **ابنه الملك** إلى النصر، بينما يقدم له بلطته ليخوض الحرب.

(*) **حورس** الملكى. (المؤلفة)

بعد أن أحلَّ **سيتى** الأول السلام فى أرض **كنعان**، اضطر، وهو لا يزال فى العام الأول من حكمه، أن يتصدى لتحالف جمع بين أهالى مملكة **أمورو** و**الأراميين**، والشيء المؤكد أن **مواتالى** لم يكن بعيداً عن هذا التحالف. ولما كان **سيتى** الأول خبيراً ثاقب البصيرة بالشئون العسكرية، فقد استطاع أن يتصرف بسرعة، قبل أن يتمكن المتحالفون من الالتقاء بعضهم ببعض. إن نص لوح حجرى عُثر عليه فى **بيت شان** من مدن **الجليل**، يخبرنا أن جيش **أمون** قد استولى على مدينة **حماة الجليل**(*) وفى الوقت نفسه كان جيش **رع** يستولى على **بيت شان**، وجيش **ست** على **ينعم**[١٨]. هكذا تلاشى التحالف وأصبحت البلاد بأكملها فى يَدْى ملك **مصر**.

ولما كان **سيتى** فطناً متبصِّراً، سائراً على هَدْىِ سياسة **تحوتمس** الثالث نفسها إبان حملته الأسيوية الأولى، فقد واصل صعوده حتى **صور** وأخضع **لبنان**.

*إن زعماء **لبنان** العظام، وهم يعبدون رب **القطرين** ويمتدحون قدرته يقولون:*
*«إننا نجلُّك كما نجلُّ والدك **رع**، ونحيا من مشاهدتك»*[١٩].

حدثت بعد ذلك واقعة واحدة، رواها أيضاً اللوح الحجرى الذى عُثر عليه فى **بيت شان**، فربما هاجم **العابيرو** مدينة **رحام** الواقعة على ما يعتقد بين **بيت شان** و**ينعم**. ولكن النصر السريع كان من نصيب ملك **مصر**.

تلك هى أولى الحملات العسكرية وأولى الانتصارات التى أعادت إلى الإمبراطورية المصرية أقاليمها الآسيوية. إن نصوص ونقوش **الكرنك** تقدم وصفاً لمختلف مراحل العودة المظفرة **لفرعون** وجيشه إلى أرض الوطن.

(*) وتقع على الشاطئ الغربى من **بحيرة الجليل**، ويرى البعض أنها تقع إلى الجنوب قليلاً عند مدخل **وادى اليرموك**. ويجب ألا نخلط بين هذه المدينة والمدينة الأخرى التى تحمل هذا الاسم نفسه، وتقع على نهر **العاصى**. سليم حسن، مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢، الجزء السادس، ص٤٠. (المترجم)

كان فرح الملك المنتصر عظيماً:

لقد ابتهج عند بداية المعركة، فيحلو له (أن يهزم) من تمرَّد عليه، ويرضى قلبه لرؤية الدم، بينما يقطع رءوس المتمردين. إنه يحب لحظة سحق (المهزومين) أكثر من حبه ليوم عيد، عندما يذبح الأعداء معًا وبضربة واحدة[٢٠].

هذه النبرات القتالية جديدة كل الجدة(*). لقد أصبحت **مصر** تحت حكم ملوك من العسكريين، ابتعدوا كل البعد عن الإيديولوچية القديمة التى تصور الملك معزولاً فى عظمته وألوهيته، فصاروا يشاركون مشاركة عنيفة فى الدفاع عن الوطن والإمبراطورية. حقا إن **الرعامسة** يدشنون عصراً جديداً فى تاريخ **مصر**.

ثم لنا أن نشاهد من جديد المسيرة الطويلة والبطيئة للجيش المصرى عند عودته عبر **دروب حورس**، ومعه الأسرى والغنائم. وعند وصول **سيتى** الأول إلى **منف** يجد كبراء البلاط الملكى بأكملهم فى استقباله.

*وهمَّ كهنة وأمراء **مصر العليا ومصر السفلى**، بالحضور لتقديم الشكر والحمد للإله الكامل، عند عودته من بلاد **الريتنو** محملاً بكميات كبيرة ومهمة من الغنائم... إننا لم نشهد أحداً مثله منذ زمن **الإله**»*[٢١]، هكذا تحدثوا وهم يعبدون **صاحب الجلالة**، ممتدحين قوته: *«مرحبًا بك، أيها القادم من البلدان الأجنبية، يا من قاتلت*

(*) ومع ذلك، لا ينبغى أن ينزعج القارئ كثيراً من هذه القسوة المفرطة فى معاملة الأعداء، وعليه أن يضع هذه الممارسات والسلوكيات فى إطارها الزمنى، ولا يحكم عليها بمبادئ العصر الحديث الأخلاقية، وذلك عملاً بمبدأ **المفارقة التاريخية** anachronisme. ويكفى القارئ أن يلقى نظرة سريعة على سبيل المثال لا الحصر، على **سفر يشوع**، من **العهد القديم**، من **الكتاب المقدس**، ليرى كيف كان **بنو إسرائيل** يعاملون أعداءهم، فى زمن معاصر تقريباً، كما تذكر بعض الآيات (٧-١٨) الإصحاح ٣١ من **سفر العدد** من **الكتاب المقدس**:
نقاتلوا مدين، كما أمر الرب **موسى**، وقتلوا كل ذكر... وسبى **بنو إسرائيل** نساء **مدين** وأطفالهم وغنموا جميع بهائمهم ومواشيهم وأموالهم وأحرقوا بالنار جميع مدنهم... وقال لهم **موسى** هل استبقيتم الإناث كلهن؟... والآن فاقتلوا كل ذكر من الأطفال واقتلوا كل امرأة عرفت مضاجعة رجل. وأما إناث الأطفال اللواتى لم يعرفن مضاجعة الرجال فاستبقوهن لكم. (المترجم)

*وانتصرت، بعد أن أجهزت على أعدائك. إن زمنك بصفتك ملكًا سوف يشبه زمن **رع** في السماء. إن قلبك هو الآن **ناعم وأملس**. إن **رع** هو الذي رسم حدودك وساعداه يحميانك*(٢٢).

وبعد **أمون** إله المعارك، حل محله **رع**، حمايةً للملك، وبصفته إله السلام والأيام الهادئة. ويبدو أن عنصرى المُركّب **أمون – رع**، الذى شكله **أمنمحات** الأول(*)، قبل سبعة قرون من الزمن، قد أخذا ينفصلان ويتمايزان، ليقوم كل منهما بدوره الخاص. وسوف تسود هذه الفكرة طوال عصر **الرعامسة**.

❖ فى ذلك اليوم، يوم الاحتفال بالنصر، وسط تهليل جماهير الشعب وفرحتها الغامرة، تنضم أصوات الأسرى إلى الإجماع العام على المديح. هكذا فربما أراد بعض الزعماء الحذرين تقديم فروض الطاعة والولاء.

*إن زعماء البلدان الأجنبية الذين ظلوا يجهلون **مصر** حتى الآن*(٢٣)*، وأتى بهم **صاحب الجلالة** من انتصاراته على بلد **الريتنو** الخسيس، يقولون وهم يمتدحون الملك ويقدمون الثناء والحمد لحملاته المظفَّرة: «التحية لك! كم هو عظيم اسمك وقوتك الشديدة البأس! فمن الآن تفرح البلدان الأجنبية لأنها تسير فوق مياهك*(**)(٢٤)*. فلْيُصَب بالشلل كل الذين تعدَّوا على حدودك وليبق **كاؤك***(٢٥) *حتى يغالب الأيام! كنا لا نعرف **مصر**، فلم يطأ آباؤنا مطلقًا أرضها. وامًا! أعطنا الآن نسمات الحياة*(٢٦)*»*.

ويستمر العيد ويتواصل. عندئذ يفصح **سيتى** عن اعترافه بالجميل نحو **أمون – رع**، فيمنح كهنته قسماً من الغنائم والأسرى الذين سيخدمون من الآن فى أملاك الإله الذى سيوجه إلى الملك خطاب شكر. ولا شك، أنه بعد خروج التمثال الإلهى كان بعض الكهنة يتحدثون آنذاك باسمه(٢٧).

(*) الأسرة الثانية عشرة. (المترجم)

(**) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

*كلمات يقولها **أمون – رع**، سيد عروش **القطرين**: «أيا بُنىَّ، المولود من صُلبى، يا محبوبى، يا سيد **القطرين**، لقد وضعت الخوف منك، فى كل البلدان الأجنبية، إن مقمعتك البيضاء هى الآن فوق رءوس زعمائها (٢٨). فيأتون إليك، جميعهم معًا، حاملين هداياهم على ظهورهم، بسبب صيحات الحرب التى أطلقتها (٢٩).*

وعند عودته إلى **طيبة**، سيوضع أيضًا لوح حجرى نذرى فى معبد **بتاح**(*) فى **الكرنك**، علمًا بأن **بتاح** سوف يحتل مكانة مرموقة فى عصر **الرعامسة**، ويحتفل النص بالاتحاد المبارك الذى جمع بين الملك و**أمون**:

*لقد خصَّه **أمون** بالبسالة والقوة. إنه يأخذ مكانه أمامه، سعيد القلب، صانعًا الأعاجيب من أجل ابنه، مانحًا إياه **مصر العليا ومصر السفلى**، فضلاً عن **الغرب والشرق**(٣٠).*

فى **الشرق الأدنى** الذى يموج بدسائس **مواتالى** وطموحات الإمارات التى يتنازعها نفوذ كل من **مصر** و**الحيثيين**، لم تضع هذه الحملة الأولى المظفَّرة التى قام بها **فرعون مصر** نهاية لهذه المنافسات.

وفى العام الثالث أو الرابع من حكمه – حيث لم تحدِّد الوثائق التى فى حوزتنا التاريخ بكل دقة – فى هذا العام إذن، سار **سيتى** الأول على رأس جيشه، صاعداً بمحاذاة الشاطئ وصولاً إلى بلاد **الأمورو** التى احتلها. إنها الخطة العسكرية القديمة نفسها التى سار عليها **التحامسة**، بمعنى تأمين قواعد بحرية قبل الهجوم على جوف البلاد، وتحديداً على قلعة **قادش**. إن «**قادش الغدَّارة**»، فى **سهل البقاع**، وهى قرية **تل نبى مَنْد** حاليًا، كانت عاملاً مشتركًا فى كل التحالفات التى أبرمت ضد السلطة المصرية.

(*) فى الطرف الشمالى من معبد **الكرنك**. (المترجم)

ولأول مرة وقع الصدام بين **المصريين** و**الحيثيين** على أرض المعركة، أمام هذه المدينة، وخرج **سيتى** الأول منتصراً من هذه المواجهة. وهُزم **مواتالى** دون أن نعرف مع ذلك تفاصيل ما جرى من اشتباكات حربية. إن تقارير النصر المنحوتة فى **مصر** على صروح المعابد أو أحيانًا - كما نلاحظه فى **الكرنك** - على الجدران الخارجية لهذا المعبد، ليست لها قيمة وثائقية، فالهدف منها إحاطة الجميع علماً بقدرات **الفرعون** على تحقيق النصر. وبفضل النصوص والصورة التى يمكن أن تُبعث فيها الحياة، فى وسعها أن تجعل هذا النصر نصراً أبديًا، بالنظر إلى أن كل شكل منحوت أو مرسوم هو مستودع كامن للحياة، فبمجرد النطق بالكلمة تصبح حقيقة واقعة. إن هذه النصوص والصور ليست مسارد تاريخية، بل روايات ذات هدف سحرى. فالتاريخ فى **مصر** ليس له معنى استاتيكى. إن صياغة التاريخ لا تعتمد على أحداث متلاحقة وقعت فى لحظة معينة، يمكن ملاحظتها وتحليلها تحليلاً دقيقًا، أو على سلسلة لا تنقطع من الوقائع يمكن ترتيبها بإحكام، ولكن كل حدث يُلزم المستقبل ويفرض نفسه عليه، إنه لا يتوقف فهو ليس واقعًا يمكن تشريحه، إنه **يحيا** إلى الأبد فى واقعه ذاته وليس فى الذاكرة فقط. هكذا قد يصبح التاريخ سحراً عظيماً. وعليه فكل شىء سيعمل من أجل أن تحيا انتصارات الملك، المعلنة على جدران المعابد، وليس بهدف دعائى كما يُقال أحيانًا، ولكن بما يتفق وعقلية المصريين، ضمانًا لاستمرارية بقائها **حقيقة واقعة** وتأمينًا لها.

ففى نقوش معبد **الكرنك**، وفوق موكب الأسرى **الحيثيين** المارين بجوار مركبة **الفرعون**، نقرأ النص الآتى:

إنه يغطِّى النَّطف(٣١)(*) *وفقًا لما يرغبه فى بلاد* ***الخاتى*** *الخسيسة هذه، إن زعماءها يتساقطون تحت سيفه، وقد صاروا وكأنهم لم يوجدوا قط. عظيم هو مجده وسطهم، وكأنه شعلة*(٣٢).

(*) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

وفى **قادش** ذاتها، أقام **سيتى** لوحًا من الجرانيت، إحياءً لذكرى انتصاره على **مواتالى**. ولم يُعثر فى هذا الموقع سوى على جزئه العلوى[٣٣]. وفى القسم العلوى المقوس نُحت مشهد يصور **الفرعون** فى حضرة أربعة آلهة: **أمون** الذى سيصور من الآن فى حركة تقليدية وهو يقدم بلطة الحرب إلى الملك، و**ريشيپ** إله أسيوى محارب واضعًا على رأسه تاجًا مرتفعًا مخروطى الشكل ومن قمته يتدلى خلفه شريط طويل، ثم الإله **مونتو** وفى يده مقمعة، وأخيراً يقف **خونسو** الإله الابن فى ثالوث **طيبة** ممسكًا بصولجان. إنها ثلاثة آلهة معارك حربية، بالإضافة إلى كيان إلهى ملكى. واللافت للنظر وجود **ريشيپ**. إن هذا اللوح الحجرى هو أحد أول الشواهد على السعى الحثيث للتوصل إلى صياغة تلفيقية دينية، كحركة مميزة لروحانية **الرعامسة**، فضمّت الآلهة المصرية إلى الآلهة الأسيوية، لتتّحد حول شخص **الفرعون**، من أجل تعاظم **ترابط** الإمبراطورية.

وبالإضافة إلى ذلك، ووفقًا لبعض العناصر التى تعود إلى فترة سابقة، وتنتمى إلى أيديولوچية **التحامسة**، إذ يمتزج ملك **مصر** بأهم آلهة البلاد المحتلة، سوف تقدم التحية للملك **سيتى** الأول من قبل الأسرى الحيثيين فيعلنون قولهم:

*«التحية لك يا ملك **مصر**، يا شمس **الأقواس التسعة**[٣٤]...»*

(فقد كانت الشمس الإله(*) العظيم فى **الشرق الأدنى**).

ومنذ الآن لاحت فى الأفق حركة روحانية شاملة هدفها دمج شعوب الإمبراطورية.

(*) نذكر أن لفظ **شمس** مذكر فى اللغة المصرية القديمة، وليستقيم المعنى أبقينا لفظ **الإله** فى المذكر. (المترجم)

بعد هذا النصر، سعى **بنتيشينا** ملك **الأمورو** إلى الاعتراف بهيمنة ملك **مصر**. ولكن **مواتالي** الذى هُزم فى معركة **قادش**، شنَّ هجومًا جديدًا. ففى أعقاب معركة محلية خلع **بنتشينا** عن العرش، ليضع مكانه الأمير **سابيلي** الذى أبرم معه معاهدة تحالف.

ومن الآن سوف يشكل نهر **العاصى** الحدود بين أقوى دولتين فى ذلك الزمان، بينما حاولت المؤامرات **الحيثية** جاهدة إزاحة النفوذ المصرى فى شمال **سوريا** إلى الوراء. ولكن لم يسع أى من البلدين إلى أن يبادر إلى تقويض هذا السلام الهشِّ، لا سيما أنه قد فُرض على **مصر** أن تراقب جبهات أخرى وتخوض المعارك عندها.

أخطار جديدة ناحية الغرب

فى العام الخامس(؟)(*) من حكمه، اضطر **سيتى** الأول إلى التصدى لمحاولة غزو من ناحية **الغرب**، قام بها **الليبيون**.

إنهم القادمون الجدد. كانوا رجالاً شُقرًا، عيونهم زرقاء، وقد سجلت نقوش **الكرنك** سماتهم العرقية بعناية، ولكن ظلَّ المصريون يطلقون على هؤلاء الوافدين اسم **تحنو** وربما كانوا منذ ذلك الزمن من سيعرفون فى وقت لاحق تحت اسم **الماشواش**(**)، كما تأكد وجود هذا الاسم الأخير بعد ذلك بسنوات قليلة، فى عهد **رمسيس** الثانى. إنهم قوم تعود أصولهم إلى **البربر**، وربما كانوا إذن قد استقروا فى **ليبيا** منذ تلك الفترة.

وشنَّ **الفرعون** حملتين على الغزاة، واستطاع صدَّهم وطردهم. وإبان الاحتفال بالنصر وتسليم الغنائم إلى **أمون**، كانت آلهة أخرى حاضرة لتشارك فى هذا العيد وتثنى على الملك المنتصر:

(*) علامة الاستفهام الموضوعة بين قوسين تعنى أن الكلمة التى تسبقها تنطوى على معلومة غير مؤكدة. (المترجم)

(**) سوف يؤسسون فيما بعد الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين المصريتين. (المترجم)

* الإلهة **مُوت**، زوجة **أمون** فى **طيبة**، و«سيدة مدينة ***إيشرو*** سيدة السماء، رئيسة الآلهة: *«إنى أعطيك الأبدية بصفتك ملك **القطرين**، بينما تظهر متألقًا مثل رع».*

* **خونسو فى طيبة – نفرحوتپ** سيد الفرح و**تحوت** سيد **الأقصر** *«إنى أعطيك البسالة لتتصدى لبلاد **الجنوب**، والقوة ضد بلدان **الشمال**، ولتظل من خلفك كل حماية سحرية، وكل الحياة وكل الثبات وكل القدرة، مثل رع[٣٥]».*

تمرُّد النوبة

مؤخراً، وفى عام ١٩٧٠ تحديداً، تم الكشف عن أجزاء لوح حجرى، إبان أعمال تنظيف سور مدينة **صاى**، الواقعة بين الجندلين الثانى والثالث على نهر **النيل**[٣٦]. كان النص مشوهًا تشويهًا بالغًا، ولكن يمكن قراءة خرطوش **سيتى** الأول. وأمكن تجميع بعض الأجزاء المبعثرة وقراءة تسعة أسطر مدونة بالخط الهيروغليفى ومنحوتة بالنقش الغائر. ولوحظ آنذاك أنه يوجد نص مماثل مدون على لوح حجرى مشابه، ومن مقتنيات متحف **بروكلن** Brooklyn، جادت به **عمارة – غرب**، وهى مدينة صغيرة محصنة، تقع على البر الغربى من نهر **النيل**، جنوب **وادى حلفا**. فكانت مفاجأة لا يجود بها علم المصريات إلا فى القليل النادر. إن دراسة الوثائق الرسمية فى نصوص متوازية، مدونة أحيانًا فى عدد من النسخ، هى خير معين للدارس، لا سيما إذا كانت هذه المدونات مشوهة فى بعض أجزائها، فيتوصل إلى قراءة متصلة وصحيحة.

وتحيطنا قراءتنا علماً بأنه فى العام الثامن من حكم **سيتى** الأول حدث تمرد فى بلاد **إيرم** فى جنوب **مصر**، إنها منطقة قصية تقوم فيها الآبار بدور أساسى. استمرت الحملة لفترة تجاوزت الشهرين، وإبان هذه الحملة وقعت معركة دامت سبعة أيام متواصلة. ومن ثم يمكن القول إن التمرد كان بالغ الخطورة:

*اليوم العشرون من الشهر الأول من فصل الإنبات من العام الثامن(٣٧)... [النص مشوه]... **سيد القطرين: من ماعت رع**، حاكم **طيبة**. **ابن رع**، **سيتى**، محبوب **بتاح**، سيد عروش **القطرين**، الملك القوى، العاهل الملكى المجرد من التفاخر والمباهاة، الذى يخوض المعارك ويأسر فى كل بلد أجنبى، إنه البطل المقدام الأوحد الفريد. فعند عودته (من الحرب)، تُقام من أجله الاحتفالات، بعد أن هَزم (العدو) وغلبه وقهره. إن بذور المتمردين التى فى حوزته وفيرة، وقد جمع زعماءهم فى قبضته، ولا يستطيع أى بلد أن يصمد فى مواجهته، فقوته لا مثيل لها، لأنه مثل أبيه **ست**، الثور القوى، الرب العاشق للبسالة.*

*كان **صاحب الجلالة** فى مدينة **طيبة** مقيمًا فروض الحمد والثناء الشعائرية من أجل أبيه **أمون**، عندما جاء من يقول له: «إن أعداء بلاد **إيرم** يخططون للقيام بتمرد». فاستدار **صاحب الجلالة** نحو الموفدين لينصت إلى آرائهم. ثم وجَّه حديثه إلى الأمراء والكبراء والأصدقاء والرفاق (الموجودين هنا)، قائلاً: «إذا خطر على بال الرجال الأخسَّاء فى بلاد **إيرم** أن يعتدوا (على حدود **مصر**) فى زمن **جلالتى**، فإن أبى **أمون** - **رع**، هو الذى سيجهز عليهم بسيفى. لقد سبق أن دفعت إلى الوراء بلدًا آخر كان قد تصرف حيالى على النحو نفسه(٣٨)».*

*عندئذ فعل **صاحب الجلالة** نحوهم ما كان قد عقد العزم عليه، وأمر أن يُثخن فيهم تقتيلاً. وبينما كان الكبراء يُنزلون القصاص بجميع محال إقامتهم، كان **صاحب الجلالة** يتقدم ومعه سلاح المشاة وسلاح المركبات، وكانا يضمان جمعًا غفيرًا. ووصل جيش **صاحب الجلالة** إلى قلعة **صبيح**(؟). وفى اليوم الثالث عشر من الشهر الثالث من فصل الإنبات، تجمعت القوات فى مواجهة العدو. إن قدرة **الفرعون** أمامهم مثل وهج شعلة قد تدك الجبال. ومع بزوغ فجر اليوم السابع، «اقتادتهم» قدرة **من ماعت رع**، بحيث لم يبق منهم أحد، سواء كانوا رجالاً أو نساءً. كما دمَّر أيضًا آبارهم... [النص مشوه](٣٩).*

وبغض النظر عن أهمية هذا النص من الناحية التاريخية، فإنه ينطوى على فائدة أدبية؛ فقد اكتسب منذ ذلك الزمن إيقاع المآثر البطولية الشهيرة، التى عرفها

عصر **الرعامسة**، والقصائد الملحمية التى ستظهر فى وقت لاحق إبان الأسرة الثالثة والعشرين، فنذكر أساليب تقديم البطل وزحف الجيش المنتصر. إننا نعيش بداية المغامرات العسكرية العظيمة لعصر **الرعامسة** والشاعرية الغنائية المفرطة، فى جوٍ من النصر المبين.

إن لوحًا حجريًا عُثر عليه فى **جبل برقل** – أى **الجبل الطاهر** – عند مستوى الجندل الرابع على نهر **النيل**، ومؤرخ بالعام الحادى عشر من حكم **سيتى**، يشهد على الحد الأقصى الذى وصلت إليه القوات المصرية الزاحفة فى الأراضى السودانية، وهو الحد نفسه الذى وصل إليه **تحوتمس** الثالث. وللأسف الشديد فإن نص هذا اللوح مشوه إلى حدٍّ كبير، فتصعب قراءته.

استعادة الإمبراطورية

لقد استردت **مصر** أراضيها الآسيوية حتى نهر **العاصى**، وممتلكاتها الإفريقية. وتمَّ تأمين السلام عند الحدود الغربية، ووضحت هيبة **الفرعون** من جديد.

وعلى الجرف الصخرى المشرف على **النيل**، من على ارتفاع ٦٥مترًا – قبل بناء السد العالى – وفى **قصر إبريم** تحديدًا، على بعد ٢٣٥كيلومترًا جنوب **أسوان**، وإلى الشمال قليلاً من الجندل الثانى، أمر **سيتى** الأول **وأمن إم أوبه** نائب الملك فى **النوبة**، بنحت مدونة نذرية على سطح الصخرة المطلة على الوادى، فجاءت شاهدًا على العظمة ورفعة المقام، اللتين تم استعادتهما، كما تبلِّغ من بعيد، السودانيون المسافرون عبر النهر، صعودًا وهبوطًا، أنه لا يستطيع أحد من الآن أن يُنكر قدرات **مصر** وقوتها. أجل، إنه تحذير ينطوى على قدر كبير من الغطرسة والفائدة. ونقرأ فى هذه المدونة(٤٠):

*الإله الكامل الذى يضرب **الأقواس التسعة**، القلب القوى الذى يُجهز على أعدائه، ويثخن فى بلاد **كوش** تقتيلاً، ويدوس **الشحلو** بأقدامه ويقتاد زعماءهم أسرى. فليحى **الحورس**، الثور القوى، صاحب القلب الحازم مثل قلب ابن **نوت** (أى **ست**)، الملك المقدام الذى يرسم حدوده عند الأطراف القصية، حسب رغبته.*

*إنه ينجز فصول الحرث والفلاحة فى **البلد** المحبوب، ولكنه لا يحتاج إلى الشباب عند الحصاد(*). عندئذ، فإنه يدمّر منشآت (الأعداء) ويفكك مدنهم. وتكون جياده قد أُشبعت شعيرًا وأصبح جنوده سكارى من شرب النبيذ، بفضل قدرة ساعده القوى. وإليه يأتى أجانب **الجنوب**، وظهورهم منحنية، فى حين تسجد شعوب **الشمال** بسبب مجده، لأن كل ما يحيط به قرص الشمس يقع فى دائرة اهتماماته. إنهم يطيعون فى قلب واحد، فلا يوجد متمردون وسطهم. إنهم يندفعون تحت قدميه كما تفعل الكلاب، حتى تُعطَى لهم نسمات الحياة.*

*أيها الملك القوى الذى يحمى **مصر** بأن يسحق الأجانب، والذى يرد البلدان إلى أرضها، بالإضافة إلى الزعماء الذين لم يسبق لهم أن عرفوا **مصر**، وتمرّدوا على **صاحب الجلالة**(**). كانوا قد عبروا بقوة حدودك، ولكنهم شاهدوا مجدك والخوف الذى تثيره انتشر فى ربوع بلدهم، لأنهم كانوا قد استهانوا بمقاصدك.*

*أيها الأمير الجميل، لقد دمّرت بلد الزنجى بفضل ساعدك القوى. فمن الآن تمتد حدودك من بلاد **الجنوب** وحتى تخوم رياح **الشمال** وأطراف **الشديدة الاخضرار**.*

ملك مصر العليا ومصر السفلى: من ماعت رع،

***ابن رع: سيتى**، محبوب **بتاح** ومحبوب **أمون – رع**، ملك الآلهة، له الحياة لأزمنة لا نهائية وأبدية[٤٢].*

(*) كما سبق أن لاحظنا[٤١]، تُشنُّ الحملات العسكرية فى كل فصل من الفصول **برت** – أى فى موسم الإنبات – وفى كل فصل من الفصول **شمو** – أى فى موسم الجفاف. ولا تُشنُّ فى فصول الحرث والبذر التى تحتاج إلى أيدى عاملة كثيفة. راجع أيضًا الهامش ١٥ من هذا الفصل. (المؤلفة)

(**) من الواضح أن النص يشير هنا إلى التمرد السودانى، بالنظر إلى موقع هذا اللوح الصخرى. (المؤلفة)

كما عثر على لوح صخرى آخر، قرب الجندل الأول، من نهر **النيل**، ويعود تاريخه إلى العام التاسع من عهد الملك. وفى القسم المقوس فى أعلى الأثر، يقوم **سيتى** الأول بإحراق البخور من أجل الثالوت الإلهى المحلى: **خنوم** و**ساتيس**(*) و**أنوكيس**(**). ويشيد النص بعودة الازدهار والمنافع التى يمنّ بها الملك، إنه المعين الذى يحافظ على شعبه.

*... الإله الكامل، ابن **أمون**، الذى يضرب الجموع الغفيرة ويأتى بالأسرى الأحياء. إنه يحب جنود المشاة وأفراد المركبات الحربية، إنه الشخص المقدس المهيب الذى يحمى الشباب ويشيع الازدهار بين أجيال **البلد** المحبوب، ويملأ المخازن ويزيد الشُوَن اتساعًا، ويعطى المُعوِز ما يحتاج إليه، ويعبِّر عن صداقته للميسور، والذى تقوِّى مقاصده البشر، ويزرع العلس، فهو حبيب القمح وسيد الخبز. إنه «**يملأ**» جميع الأبدان، وفى زمنه لا يتمدد أحد وهو يتضور جوعًا. والجميع فى ربوع البلاد يتهللون فرحًا بسبب الأطعمة التى يُجزلها لهم...*[٤٣]

لما كان **سيتى** الأول الملك الواسع العطاء، «*حبيب القمح وسيد الخبز*»، فسوف يكرِّس السنوات الأخيرة من حكمه فى استثمار ممتلكاته ليضمن **لمصر** مزيداً من الخيرات والموارد[٤٤].

وبعد أن عمَّ الازدهار، فلن يؤثِّر فيه شيءٌ بالسلب، وسوف تعيش البلاد حتى نهاية عهده حياة هادئة، اعتماداً على موارد إمبراطوريتها الشاسعة.

وعلى الجدار الشرقى من معبد **أمون - رع** الكبير فى **الكرنك**، نُقش **نشيد إمبراطورى** مهيب. إنه يستعيد بعض مقاطع نشيد **تحوتمس** الثالث، ويستلهم بعض جوانب نشيد **أمنحوتب** الثالث[٤٥]، ولكنه يتخذ دلالات سياسية أكثر تحديداً وقيمة أكثر عالمية.

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم **ستت**. (المترجم)

(**) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم **عنقت**. (المترجم)

كلمات قيلت من قبل **أمون – رع**، سيد عروش **القطرين**:

أيا بُنيَّ الذى من صلبى، يا محبوبى، يا سيد **القطرين. من ماعت رع** الذى يستطيع التسيُّد على كل بلد من البلدان الأجنبية، أنا أبوك فانشرُ هيبتك فى **الريتنو** الأدنى، و**الأسيويين والنوبيين**، على حدٍّ سواء، خائرون تحت نعليك.

إنى أتصرف بحيث يأتى إليك زعماء أراضى **الجنوب**، وتتسلَّم أولادهم فضلاً عن كل منتجات بلادهم الطيبة، فى هيئة جزية. وسوف تعطيهم فى المقابل نسمات الحياة(٤٦).

إنى أدير وجهى شطر **الشمال** وأصنع العجائب من أجلك... وأتصرف بحيث يصبح المتمردون أشبه بعصافير صغيرة فى أعشاشها، بسبب قوتك. وأتصرف بحيث تأتى إليك بلدان كانت، حتى الآن، تجهل **مصر**، (تأتى) محملة بجزيتها من فضة وذهب ولازورد وكل أنوا ع الأحجار الكريمة التى تعود إلى **بلد الإله**.

إنى أدير وجهى شطر **الشرق** وأصنع العجائب من أجلك وأربطه بأكمله لصالحك، وأوحِّده فى قبضتك. فمن أجلك، أجمِّع بلاد **بونت** جمعاء وجزيتها من راتنج وبخور مقدس، فضلاً عن كل خيرات **بلد الإله** الطيبة.

إنى أدير وجهى شطر **الغرب** وأصنع العجائب من أجلك. وأُعاقب بلد **الثحنو** بأكمله، وأتصرف بحيث يأتون إليك أذلاء راكعين، بسبب صيحات الحرب التى صدرت عنك، بينما يُجزل زعماؤهم التهليل من أجلك.

إنى أدير وجهى شطر السماء وأصنع العجائب من أجلك. إن آلهة الأفق السماوى تغتبط بسببك، أنت يا من جئت إلى الدنيا مع تباشير الفجر على غرار **رع**، فمثله تُولد من جديد فى شباب دائم، ومع كل يوم جديد، تأتى بالاستقامة والسداد.

إنى أدير وجهى شطر الأرض وأصنع العجائب من أجلك. وبينما تحاط علمًا بانتصاراتك على كل بلد أجنبى، تفرح الآلهة فى معابدها، من أجلك. وسوف تُحقق

*زمنًا أبديا بصفتك ملكًا على عرش **جب**، بعد أن تتسلّم المُلك وتكون مقمعتك البيضاء قد ضربت **الأقواس التسعة**.*

*إنى أتصرف بحيث يرون **جلالتك، سيّد** الأشعة، بينما تتألق فى وجوههم، مثل صورتى.*

*إنى أتصرف بحيث يرون **جلالتك** وقد ارتديت حُلّة الحرب، بينما تمسك بأسلحة القتال على متن مركبتك.*

*إنى أتصرف بحيث يرون **جلالتك**، نجمًا يرسل بريقه فى هيئة شعلة ويعطى أنداءه.*

*إنى أتصرف بحيث يرون **جلالتك** ثورًا فى شباب أبدى، ثابت القلب، بقرنين حادين، من الصعب الهجوم عليه.*

*إنى أتصرف بحيث يرون **جلالتك** تمساحًا، **رب الهلع على الشاطئ**، من الصعب الاقتراب منه.*

*إنى أتصرف بحيث يرون **جلالتك** بصفتك سخونة شعلة، وشكلاً من أشكال **سخمت** وقد احتدم سعارها.*

*إنى أتصرف بحيث يرون **جلالتك** أسدًا، بينما تُحوّلهم إلى جثث على امتداد وديانهم.*

*إنى أتصرف بحيث يرون **جلالتك** وكأنك غسق(٤٧)... لقد بلغت قدراته حدا من القوة بحيث تستحيل مهاجمته، سواء فى السماء أو فى الأرض(٤٨).*

إن الصور البلاغية الجديدة، مقارنة بالأناشيد السابقة، والناشئة عن الشاعرية المصرية مرهفة الحسّ، وُضع تحتها خط، للإشارة إليها. **فمن المفيد قراءة النصوص المصرية، والإقلال من الكلام، عن جهل كما هو سائد فى أغلب الأحوال، والابتعاد عن العبارات الرسمية الطنّانة، وعن الصيغ المقولبة والنصوص الجامدة التى تلوكها الألسن دون ملل، وعن الكلام والأساليب المسهبة المكررة بلا فائدة.** ولا ريب أن هذا النشيد العظيم ينهل من الأناشيد السابقة، ولكنه يتكيّف مع الواقع السياسى الجديد،

فلم تعُد النصوص تشير إلى أراضى الإمبراطورية، التى كانت قد أصبحت كلاً واحداً، **لا فرق** بين مختلف أراضيها، فلا تذكر أقسامها المكونة، كما كان الحال فى عهد **تحوتمس** الثالث. كما أخذت الصورة الأسطورية **للملك - البطل** تتعاظم. إنه كيان إلهى متعدد الأشكال المفعمة بالبركة وبالتأثير المواتى أو المرعب، إنه يُحلُّ الوئام بين أطراف الفتوحات التى تحققت بمساعدة **أمون** والدفاع عنها. إن ملكًا عظيماً، سوف يئول إليه العمل الفذ الذى بدأه **سيتى** الأول على الصعيدين المادى والروحى، ويحتفظ به بفضل ما بذله من جهد.

ولى العهد رعمسيس

الابن الإلهى

كان **سيتى** الأول قد تزوج سيدة تُدعى **توى**، لا يجرى فى عروقها دم ملكى، كانت ابنة **رايا** القائد العام لسلاح المركبات. **وثويا**، وكانت امرأة بسيطة المنبت. فعن طريق الأب والأم كان **رعمسيس** ينتسب إذن من ناحيتين، إلى فئة العسكريين. كان له أخوان أو ثلاثة إخوة وأختان، إحداهما هى **حنت مى رع** التى سوف يتزوجها، لتصبح إحدى «*الزوجات الملكيات العظيمات*» الخمس.

ولما كان **رعمسيس** لا ينتسب، من ناحية الأم إلى عائلة كريمة الأصل، فربما شعر بالحاجة إلى تبرير حقه فى اعتلاء العرش والتأكيد على ذلك، تأكيداً لا يمكن دحضه.

ومن ثمّ، فقد استعاد لصالحه مشاهد ونصوص الولادة الإلهية كما وردت فى معبدَىْ **الدير البحرى والأقصر**(٤٩). وبالفعل، فقد عُثر على كتل حجرية تعود إلى عهد **رعمسيس** الثانى، ثم أُعيد استخدامها فى عدد من المبانى اللاحقة(٥٠)، وتحديداً فى معبد **رعمسيس** الثالث الجنائزى، فى **مدينة هابو**، بل وفى الكثير من مبانى العصر **البطلمى**. وقد صُورت على هذه الكتل الحجرية والدة **رعمسيس** الثانى، بالإضافة إليه وهو فى سن الطفولة، وهما يشاركان الآلهة فى بعض المشاهد الطقسية(٥١). ويعتقد أن هذه الكتل الحجرية، كانت أصلاً جزءاً من المقصورة التى أمر **رعمسيس** الثانى

بإقامتها من أجل والدته، عند الجانب الشمالى من **الرامسيوم** - وهو معبده الجنائزى فى البر الغربى من مدينة **طيبة**. وقد دُون على إحدى هذه الكتل النص التكريسى المعتاد: «*لقد شيَّد معلمًا صرحيًا من أجل والدته، الوالدة الملكية **توى**،* (شيِّد) *مقصورة...*[٥٢]»

وللأسف، فإن هذه الكتل مشوهة تشويها بالغًا، ولكن ما زال فى وسعنا التعرُّف على النقوش التى تحتفل تحديدًا بما يلى:

* اقتران الإله **أمون - رع** بالملكة **توى** الجالسة على سرير تحمله إلهتان، وقد تداخلت سيقانهما. ومن الحديث الإلهى ما زال فى إمكاننا قراءة الكلمات الآتية: «...*كم هى مبهجة أندائى. إن عبيرى هو عبير **بلد الإله** ورائحتى هى رائحة **بونت**. سوف أقيم ابنى ملكًا...*[٥٣]»

* إرضاع المولود الإلهى، وإليه تتحدث **سشات**، إلهة الكتابة وزوجة **تحوت**. إن دورها مرضعة، الذى تقوم به فى المعتاد الإلهة **حتحور**، دور ملحوظ: «*إنى أُرضع سيدى... وأقيم مُلكه مُلكًا راسخًا... على عرش **رع**، بحيث تكون مدة حياة هذا الأخير، هى مدته*[٥٤]».

* التقديم إلى **حتحور**، الإلهة السماوية الخصبة والمرضعة: الأمير الشاب **رعمسيس** يواجه **حتحور** التى تسلمه قلادتها **منات**، فى حين يقف من خلفه **أمون - رع**، وقد مدَّ ساعده الأيمن ليحميه ويقول: «*عندما كنت لا تزال طفلاً صغيرًا، تأكد أن مدة حياة **رع** هى لك*[٥٥]».

* هبات تاسوع طيبة. ما زال فى وسعنا أن نقرأ: «...***مونتو** يعطى الحياة والقوة. و**أتوم** يعطى الازدهار. و**شو** يعطى الفرح...*[٥٦]»

كان الأمير الشاب **رعمسيس** سليل عسكريين، ولكنه كان أيضًا ابن إله، فقد وقع عليه الاختيار منذ وقت مبكر جدا ليخلف أباه **سيتى** الأول. وقد جاء اسمه «*الشخصى*(*)» ليؤكد على هذا الاهتمام: إنه **ستپ - إن - رع**، أى «*هذا الذى اصطفاه **رع***».

(*) هو اسم العرش أو اسمه بصفته ملك **مصر العليا ومصر السفلى**. (المترجم)

ربما يعود تاريخ المشاركة فى الحكم إلى العام السابع من عهد **سيتى** الأول، وإن كان نظام المشاركة فى الحكم هذا لا يعتبر ظاهرة جديدة فى التاريخ المصرى، فقد سبق أن لاحظنا وجوده بصفة خاصة، مع **أمن إم حات**، حول العام ٢٠٠٠، عندما اختار ابنه سنوسرت ليخلفه، ومع ذلك فإنه يعتبر من سمات عصر **الرعامسة**، إذ رأى كل من **رعمسيس** الأول و**سيتى** الأول و**رعمسيس** الثانى، على التوالى، أن يختار الابن الذى يشاركه السلطة. ومما لا ريب فيه أنهم حاولوا بتصرفهم هذا، أن يتجنبوا أى مناقشات حول وراثة العرش أو يحُولوا دون تدخل كهنة **أمون** تحديداً، ولكن ربما أيضًا، لإعداد ولى العهد إعداداً أفضل للقيام بمهامه فى المستقبل، فتتاح له فرصة الوقوف عن كثب على شئون البلد وطرق إدارتها. هكذا كان من المأمول أن تتم مراسم تتويج الملك الجديد دون اضطرابات أو حدوث انقطاع فى خط السياسة المعمول بها، كما كانت هذه التدابير أسلوبًا آخر للحفاظ على الإمبراطورية.

وتشهد مبانى **سيتى** الأول وآثاره بشتى الطرق والأساليب، على هذا الاهتمام بإشراك الأمير الشاب **رعمسيس** فى العرش. إن نصوص ونقوش **أبيدوس** و**القرنة** و**الكرنك** على وجه التحديد، تعزز ما كان يشغل بال **سيتى** الأول.

ويحتفظ المعبد الذى شيَّده **سيتى** الأول فى **أبيدوس**(*)، بمشهد يصور الملك و**رعمسيس** وهما يقدمان معًا القرابين إلى الآلهة وإلى خراطيش أسلافهم الملكيين[٥٧]، كأسلوب صريح للتأكيد على استمرارية الأسرات الحاكمة. ويظهر **رعمسيس** فى هيئة أمير متوَّج، وإن لم يوضع بعد اسمه داخل خرطوش. كما تظهر هذه الحقيقة بكل وضوح، فى المدونة التكريسية التى أمر **رعمسيس** الثانى بنحتها فى هذا المعبد ذاته.

(*) وفى **العرابة المدفونة** حاليًا، على وجه التحديد قرب **البلينا**. وربما كان هذا المعبد، من حيث جماله وأصالته، من أروع آثار **مصر** قاطبة، لا سيما أنه فى حالة جيدة من الحفظ. (المترجم)

(ذات يوم) ظهر أبى فى مجده للشعب، بينما كنت لا أزال طفلاً بين يديه، وتحدث بشأنى قائلاً: «توجوه ملكًا، حتى أستطيع رؤية كماله وأنا على قيد الحياة». فاستدعى رجال البلاط ليوضع التاج على هامتى، ولما كان لا يزال حيًا على سطح الأرض قال بخصوصى: «ضعوا أيضًا الصلّ على رأسه، حتى يكفل وحدة هذا البلد، وحتى يربط (البلدان الأجنبية) *ويعير الشعب اهتمامه...»، فعظيمًا كان الحبُّ الذى يكنُّه نحوى. وخصَّنى بعد ذلك بحريم ملكىٍ، يغصُّ بالنساء الجميلات فى القصر. واختار من أجلى زوجات... ومحظيات... انظروا، فقد كنت مثل* ***رع*** *فوق الشعب، بل وكانت* ***مصر العليا ومصر السفلى*** *منذ ذلك الحين، تحت نعلَىَّ(٥٨).*

هكذا بدأت مسيرة حياة **رعمسيس** الثانى «الغرامية» بكثرة علاقاته وتعددها، ومنذ أن كان صبيًا. إنها أيضًا سمة أخرى من سمات، هؤلاء الجنود الأشداء المولعون بالملذات، أولئك هم **الرعامسة**.

وتحتفظ **طيبة** بنسخة مقابلة لما سبق، فعلى الجدار الشمالى من ردهة معبد **سيتى** الأول الجنائزى فى **القرنة**، على البر الغربى من نهر **النيل**، صُوِّر **رعمسيس** بينما يقوم بتتويجه الثالوث الإلهى **أمون - رع** و**موت** و**خونسو**، فى حضرة أبيه **سيتى**. ويتحدث **أمون - رع** قائلاً:

فليكن ثابتًا، فليكن ثابتًا التاج فوق رأسك. استدر ناحية أبيك ***رع****، حتى تبقى الأراضى المصرية من أجلك فى سلام، فى حين تبقى البلدان الأجنبية تحت نعليك(٥٩).*

وفى هذا المعبد نفسه، وجنوب الصُّفَّة، نرى مشهداً بالنقش الغائر يصور **سيتى** الأول و**رعمسيس**، وهما يستقبلان المراكب المقدسة لآلهة **طيبة**، وقد خرجت فى موكب مهيب. ودُوِّن خطاب الترحيب كما جاء على لسان **سيتى**:

*مرحبًا فى سلام، أيا **أمون – رع**، يا رب الأرباب، يا ملك الآلهة، يا أبا الآباء، يا أقوى الأقوياء، أيها **الأقدم الأصلى** الذى جاء إلى الوجود قبل أى شىء سواه، يا سيد العظمة والجلال، الذى سبق له أن ربط **القطرين** منذ أن كان فى **النون**(٦٠)، بين **السماء العليا والسماء السفلى**(٦١). كم هو جميل ظهورك! كم هو لطيف وجهك! عندما يصل مركبك إلى معبدى...*

*ليتك تثبت وريشى ثباتًا راسخًا، بعد أن يكون **سيد القطرين أوسر ماعت رع ستب إن رع**، قد اعتلى عرشى فى سلام، فى حين لا يزال الآن واقفًا أمامه، بصفته ابنى المحبوب. ولكننى أعرف بما تحمله البذرة التى خرجت منك. ليتك تمنحه زمنًا أبديا، حتى يُحيِىَ اسمى من جديد، تنفيذًا للأمر الصادر من فمك(٦٢).*

إن هذا النص وهو فى حقيقة الأمر، من وضع **رعمسيس** الثانى، يؤكد على حقيقة البنوة الإلهية لهذا الأخير، ثم المشاركة السياسية التى ربطته بأبيه الذى كان لا يزال متربعًا على العرش، وأخيراً الخلط بين النظام الملكى والدين، وما يجلبه من تأثير مفيد.

كان الأمير **رعمسيس** شابا فى مقتبل العمر، عندما بدأ تدريباته العسكرية. فعلى أحد نقوش الجدار الشمالى من بهو أساطين **الكرنك**، صُوِّر فى صحبة والده إبان إحدى حملات **أسيا**(٦٣). هكذا فقد ألمَّ منذ وقت مبكر جدا بفنون الحرب، كما تعرَّف بلاشك على الدسائس التى كان يحيكها بلاط ملوك وأمراء **الشرق الأدنى**، والمخاطر الكامنة التى كانت لا تزال تهدد **مصر**. ومن ثم، سنلاحظ أن تصرفاته منذ اعتلائه العرش، تنمُّ عن ذكاء ونفاذ بصيرة، لحماية الإمبراطورية.

إن لوحًا حجريًا عُثر عليه فى **كوبان** من مواقع **النوبة**، ويعود تاريخه إلى العام الثالث من عهد **رعمسيس** الثانى، يشير إلى مسيرة حياة الأمير الشاب المشارك فى الحكم، على الصعيدين السياسى والعسكرى، والنص عبارة عن خطاب موجه من أفراد حاشية الملك:

*كنت ترسم الخطط بصفتك أميرًا صبيا، بينما كنت لا تزال فى البيضة. كنت تُبلّغ بشئون **القطرين**، بينما كنت حدثًا، لا زال يحمل خصلة شعر الطفولة. فلم يُشيَّد مبنىً إلا وكان تحت إشرافك، ولم يُكلف أحد بمهمة إلا وكنت مسئولاً عنها. وعندما كنت حدثًا فى العاشرة من عمره، أصبحت منذ ذلك الزمن، قائدًا عاما للجيش*(٦٤).

كما عهد إليه أبوه بقيادة بعض الحملات، وتحديداً إلى المحاجر. إن اللوح الحجرى الذى يعود إلى العام التاسع من عهد **سيتى** الأول، والذى عُثر عليه قرب الجندل الأول(٦٥)، يروى الواقعة الآتية:

*أمر **صاحب الجلالة** بأن يكلِّف جمع غفير من العاملين بصنع مسلات سامقة ورشيقة، إلى جانب تماثيل شامخة ورائعة باسم **صاحب الجلالة**. كما أمر ببناء سفن كبيرة، رُبطت بعضها ببعض، مثلها مثل الصنادل وتمّ سحبها. كان الكبراء والضباط فى عجلة من أمرهم، بينما كان ابنه البكر واقفًا أمامهم، منجزًا من أجل **صاحب الجلالة** أعمالاً مفعمة بالبركة.*

كما قاد شخصيا حملة عسكرية إلى **النوبة**، وهو لا يزال فى الثانية والعشرين من عمره، وكان يصطحبه اثنان من أبنائه هما **أمون حر ونم إف**(*) وكان عمره خمس سنوات و**خع إم واست**(**) وكان عمره أربع سنوات. وكان النصر حليف هذه الحملة. وإحياءً لذكرى هذا الانتصار أمر بتشييد معبد صغير فى **بيت الوالى**، جنوب الجندل الأول، نصفه محفور فى صخر الجبل.

(*) ومعناه: «**أمون على ساعده الأيمن**»
Ch. Leblanc, Nefertari, Ed. du Rocher, 1999, p.74. (المترجم)
(**) ومعناه «**الذى يتجلى (فى مجده) فى طيبة**». المرجع السابق، p.155. (المترجم)

عند وفاة **سيتى** الأول، حول عام ١٢٩٦ق.م، كان **رعمسيس** فى الخامسة والعشرين من عمره، وكان منذ هذه السن أميراً واسع الخبرة، وعلى دراية بشئون الإمبراطورية.

كانت له زوجتان: **نفرتارى** (أى *الجميلة*(*))، وهى سيدة نبيلة، وتُبرز نقوشها ورسوماتها جمالها، وسوف تظل دائمًا المحبوبة. والزوجة الأخرى هى **إيزيس نوفرت** (أى ***إيزيس الجميلة***)، وتنحدر من أصول غامضة. وقد رزق بخمسة أبناء وابنتين، ولابد من أن يضاف إليهم الأولاد المولودون من المحظيات، وكانت أعدادهن كبيرة منذ ذلك الزمن. كان الأطفال كُثر. ويشكلون خير ضمان لاستمرارية الأسرة الحاكمة.

رابعا: رعمسيس الكبير

حورس *الثور القوى، محبوب* ***ماعت****، رب أعياد اليوبيل، مثل أبيه* ***بتاح تا تان****.*

السيتان: *هو الذى يحمى* ***مصر*** *والذى يربط البلدان الأجنبية.*

حورس الذهبى: *غنىٌّ بالسنوات، صاحب الانتصارات المهيبة.*

ملك مصر العليا ومصر السفلى، أوسر ماعت رع ستپ إن رع، *(أى* «قويتان هما حقيقة وعدالة **رع**، هو الذى اصطفاه **رع**»*).*

ابن رع: رعمسيس*(**) (أى* «هذا الذى أنجبه **رع**»*)، محبوب* ***أمون****(***).*

(*) أو «الأجمل»، المرجع السابق p.15. (المترجم)

(**) تصحيف الاسم المصرى القديم **رع - مس - سو**. (المترجم)

(***) **مرى أمون**، بالمصرية القديمة. وقد استخدم مسيحيو **مصر** اللفظ الأول **مرى** أى محبوب، للإشارة إلى قديسيهم، كان يقال مثلاً: **مار جرجس** و**مار مرقص**، وما شابه ذلك... وهناك خطأ شائع، كان يقال مثلاً **مارى جرجس**. (المترجم)

حول عام ١٢٩٦ق.م، اعتلى إذن **رعمسيس** الثانى عرش **مصر**، وظل ملكًا متوجًا لفترة حكم مديدة بلغت ٦٧سنة، فكانت واحدة من أطولها(*) وأكثرها مهابة فى تاريخ وادى **النيل**، وكان مقدرًا له ذلك سلفًا.

*لقد ربط التاجين من أجلك، منذ أن كنت فى بطن أمك **إيزيس**. لقد أُعيد الاخضرار إلى نصيب **الحورسين**(**) وسنواتك هى مثل سنوات **أتوم**(٦٦) **أمير الشمال وملك مصر العليا ومصر السفلى** مثل **بتاح - تا - تان**. إن **الأرض السوداء والأرض الحمراء** تحت نعليك(٦٧)، و**سوريا** وبلاد **كوش** اجتمعت فى قبضتك. و**البلد المحبوب** فى فرح، منذ أن تسلمت مقاليد الحكم، لأنك وسّعت حدوده(٦٨).*

سبعة وستون عامًا من الانتصارات وسلام مديد، سبعة وستون عامًا لإمبراطورية ظلت تنتقل من نصر إلى نصر، نتيجة لفكر ونشاط قائمين على عزم وتصميم.

كما أن الأعوام السبعة والستين، تؤكدها بردية عُثر عليها **سير فليندرز بيترى** Sir Flinders Petrie فى مدينة **الغراب**(٦٩)، كما تتفق هذه المدة مع الأعوام الستة والستين وشهرين التى يذكرها **مانتون** Manéthon، ونقلها عنه بعد ذلك **يوسفوس**(٧٠) Josèphe. وقد احتفظت ذاكرة المصريين بهذا العهد المديد باعتباره نموذجًا. ومن ثم، ففى زمن لاحق وبعد مرور ١٤٠ سنة، سوف يُدوِّن **رعمسيس** الرابع النص التالى فى **أبيدوس**، على لوح حجرى، مكرس للإله **أوزيريس**، ويعود تاريخه إلى العام الرابع من عهده:

(*) ربما كانت مدة حكم **بيبى** الثانى من الأسرة السادسة أطول، وإن كان هناك خلاف بين علماء المصريات حول الرقم الدقيق لعدد هذه السنوات. راجع: M.Damiano-Appia L'Egypte. Dict. en-cyclopedique. Gründ, 1999, p.212 et 282. (المترجم)

(**) مثنى **حورس**. (المترجم)

المنافع التى أنعمتَ بها على حيازتك، من أجل توفير ما يلزم قرابينك المقدسة، والسعى للحصول على كل ما هو مفيد وكل ما هو نافع، يمكن تقديمها لمعبدك على مدار الأيام، على امتداد هذه السنوات الأربع، إنها أعظم بكثير مما فعله من أجلك الإله العظيم، الملك ***أوسر ماعت رع – ستپ إن رع،*** *على امتداد سبع وستين سنة من عمره. ومن ثم، ليتك تمنحنى الحياة المديدة والمُلك المجيد اللذين وهبتهما له*(٧١).

واجبات البرّ بالوالدين

قبل القيام بأى نشاط سياسي، أراد **رعمسيس** أن يكرِّم أباه مرة أخيرة، فيتقدم إليه بما يستحق من شكر وحمد. لما كان **رعمسيس** يراعى واجب الاحترام، فيبدو أنه كان مرتبطًا بوالديه ارتباطًا حميمًا. ومن ثم، فإن جميع المعالم المكرسة للملكة **توى**، تعود جميعها تقريبًا إلى عهده.

كما أراد أن تقام لأبيه جنازة رسمية. كان **سيتى** قد وافته المنية فى قصره القريب من مدينة **تانيس**(*). لقد تمَّ إبلاغ **طيبة** بالنبأ، عن طريق بعض الموفدين، لفتح المقبرة التى حُفرت وأُعدت، فى سريِّة تامة فى صخر جبل **وادى الملوك**، فى الشيخ **عبدالقرنة**. وبعد انقضاء سبعين يومًا(**)، ومع الانتهاء من تجهيز المومياء الملكية، انتهت عمليات حماية جسد المُصلح الذى أعاد الإمبراطورية إلى سابق عهدها، حمايته إلى أبد الآباد، فأقلع موكب طويل من المراكب، صاعدًا نهر **النيل** صوب **الجنوب**، يتقدمه **رعمسيس** الثانى. وفى الطريق وعند **هليوبوليس ومنف**، عرَّف الملك الجديد نفسه. وبعد رحلة بطيئة، استغرقت قرابة خمسة عشر يومًا، رسى الموكب على **البر**

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم **چانت، وصان الحجر** حاليًا، فى شرق **الدلتا**.(المترجم)

(**) جدير بالملاحظة أن سفر **التكوين من الكتاب المقدس** يشير إلى تحنيط **يعقوب**، قائلاً: «وأمر **(يوسف)** خُدامَه الأطباءَ أن يحنطوا أباه **(يعقوب)**، ... ودام ذلك أربعين يومًا، لأن كذلك تدوم أيام التحنيط. وبكى عليه المصريون سبعين يومًا». (الإصحاح ٥٠:٢-٣). (المترجم)

الغربى المواجه لمدينة **الأقصر** وقصرها ومعبد **أمنحوتپ** الثالث، وسلك الموكب الطريق الطويل الموصِّل إلى الجُرف الصخرى فى **الغرب**. كان التابوت الذهبى موضوعًا فوق زحافة، ومعه الأثاث والقطع الثمينة، بينما الملك واقف يطلق البخور على جثمان أبيه، وسط صراخ الندّابات وأنين جماهير الشعب.

ومن الآن، سوف يرقد **سيتى** فى بيته الأبدى، إلى أن طرده منه المفسدون فى الأرض، اللصوص السلابون. وعلى مدار الأيام سوف يقيم الكهنة فى معبده الجنائزى **بالقرنة** شعائر إحيائية، كما ستحافظ القرابين الغذائية على حياة الملك اللانهائية فى العالم الآخر، بجوار أبيه **رع** وإلى جانب **أوزيريس**.

من أجل عاصمة للإمبراطورية

واتخذ **رعمسيس** الثانى من الأقاليم الحدودية المحصَّنة مقامًا له، فكان قراره هذا باكورة نشاطه السياسى. ظلت **منف** و**طيبة** فى الماضى عاصمتى **مصر** بعد أن قامت بضم أراضٍ إفريقية وأسيوية، لتصبح أشبه بأعضاء فى دولة اتحادية تهيمن عليها **مصر**. تلك كانت على ما يبدو الفكرة التى حدَّدت أبعاد سياسة **تحوتمس** الثالث. ولكن من الآن سوف تصبح العاصمة مدينة جديدة، تقع عند الحدود الفاصلة بين **مصر** و**آسيا**، إنها مدينة نصف مصرية ونصف أسيوية، فكانت حقًا عاصمة لإمبراطورية شاسعة تجمع أجناسًا مختلفة. كان ينظر الآن إلى الإمبراطورية باعتبارها مجموعة لأراضٍ تشكل وحدة، وقد تجمعت فى يد زعيم واحد، هو **الفرعون** الذى سيتولى من الآن التنسيق بين أنشطتها السياسية والروحية. وربما كان الملك الشاب قد فكر منذ زمن بعيد فى هذه الإمبراطورية الجديدة التى ستجعل من **مصر** مركز إشعاع لعالم شاسع ومتنوع. كان قد تمرَّس، منذ أن كان حدثًا فى مقتبل العمر، على فنون الحرب، ولعبة الدسائس، فسعى بلاشك إلى صياغة هذا الفكر السياسى الجديد، ليؤمِّن بشكل أفضل عظمة وطنه وازدهاره. ونجد إرهاصات هذا الفكر، من قبل، فى نشيد **سيتى** الأول الإمبراطورى.

سوف تُعرف المدينة الجديدة تحت اسم «بيت **رعمسيس** - محبوب ***أمون***، مهيبة *هى انتصاراته*». ويُختصر فى الغالب فى عبارة **پر - رعمسيس**.

وحول قصر الصيف الذى شيَّده **رعمسيس** الأول، حيث أقام **سيتى** الأول، أمر **رعمسيس** الثانى بتشييد تجمع سكنى فسيح، بدياره وحدائقه ومبانيه الإدارية ومعابده. هنا ستتحصن القوات البرية والبحرية، على مقربة من أرض العمليات الحربية فى **آسيا**. كانت أراضى **الدلتا** خصبة، وتغصُّ بالقنص والأسماك، فكان إمداد المدينة بالطعام أمرًا سهلاً ميسورًا.

إن الفكرة التى وجهت تأسيسها، تظهر بكل جلاء فى نشيد، تمَّ الشَدْوُ به احتفالاً بالمدينة ذاتها:

*لقد شيَّد **صاحب الجلالة** مقرًا حصينًا، اسمه «**مهيبة هى انتصاراته**». ويمتدُّ فى موقع وسط بين **فينيقيا** و**البلد** المحبوب، يغصُّ بالأطعمة والأغذية. إنه يشبه مدينة **هرمونتيس**[٧٢] Hermonthis(*) وسوف يدوم دوام **منف**. والشمس[٧٣] تسطع فى أفقيه، كما أنها تستريح فيه. وجميع الناس تركوا مساكنهم وجاءوا للإقامة فى أرضه. إن **غربه** هو معبد **أمون**، وقسمه **الجنوبى** هو معبد **سوتخ**(**)، و**عشتروت** تتجلى فى **شرقه**، و**واچيت** فى **شماله**[٧٤]. إن قصر المدينة يشبه أفقىْ السماء و**رعمسيس - محبوب أمون** يقيم فيه كإله. إن **مونتو - فى القطرين** هو حاجبه و**شمس**(***) **الأمراء** هو وزيره، و**سعادة مصر - محبوب آتوم** هو حاكم إقليمه، فالبلاد قاطبة تأتى إلى هذا المكان[٧٥].*

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم **إونى، أرمنت** حاليًا. (المترجم)

(**) أى **ست** أو **ستش** بالمصرية القديمة. (المترجم)

(***) نعيد إلى الأذهان أن لفظ شمس مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

إذن، فقد كان المقر عاصمة إمبراطورية، رَسمت حدودها معابد أكبر إلهين فى **مصر** وهما: **أمون وواچيت**، ومعابد أكبر إلهين فى آسيا وهما: **سوتخ وعشتروت**، وقد اتحدت جميعها لحماية المدينة. هنا يتولى الحكم **رعمسيس** المماثل **للإله – الشمس** فى قصره – الأفق. إنه السيد الأوحد؛ بالنظر إلى أن أبرز وظائف الدولة وأرفعها، كالحاجب والوزير وحاكم الإقليم، هى فى الواقع أشكال ونعوت ملكية مؤلَّهة: **مونتو – القطرين** و**شمس الأمراء** و**سعادة – مصر**. ويُبرز هذا النص الفكر الجديد للنظام الملكى، الاتحاد السياسى والروحى لأراضى الإمبراطورية حول شخص **رعمسيس**. إنه فكر مزهوٌّ، بالنسبة لملك شاب وطموح.

إن وصفًا عاديًا وإن كان مفيدًا بمعلوماته عن العاصمة الجديدة، يقدمه خطاب دوَّنه الكاتب **پاباسا**، أثناء إحدى سفرياته إلى **پر – رعمسيس**، وأرسله إلى سيده الكاتب **أمن – إم – اوپت**:

*لقد وصلت إلى **بيت رعمسيس محبوب أمون**، ووجدته فى غاية الازدهار. إنه مكان جميل لا مثيل له، ومع ذلك فإنه يشبه **طيبة**، إن **رع** ذاته هو مؤسسه. والحياة فى **المقر الملكى** ممتعة وحقوله تزخر بكل أنواع المنتجات الطيبة وعلى مدار الأيام. تتوفر له الأطعمة على أكمل وجه، إن قنواته مليئة بالأسماك، وبركه بالعصافير، ومروجه يكثر فيها الكلأ الأخضر الذى يصل (ارتفاعه) إلى ذراع ونصف. وفى الحقول المزروعة اكتسبت ثمارها مذاق العسل. إن شُوَنه التى يلامس ارتفاعها السماء مليئة بالشعير والعَلس، ويتكدس فيها البصل والكراث. وفى البساتين تتكوَّم الزهور، وإلى جانب ذلك، فإن الرمان والتفاح والزيتون فى حدائق الفواكه. إن عذوبة نبيذ **كاى إم كمت** تتجاوز حلاوة العسل، والأسماك الحمراء تسبح فى بحيرة المقر الملكى وسط نبات اللوتس.*

(يلى ذلك حصر بمختلف أنواع الأسماك الموجودة)

*إن **بحيرة حورس** مليئة بالملح وقناة **پهر** بالنطرون. والسفن تغادر المرسى وتعود إليه.*

وتتوفر للمدينة يوميا كميات كبيرة من الأطعمة، ومن ثم فكل من يقيمون فيها يفرحون، حتى لم تعد لديهم رغبات يريدون الإفصاح عنها، وفيها يتساوى العظماء بقليلي الشأن.

*تعالَ حتى نحتفل من أجلها بأعياد السماء وأعياد بداية الفصول. إن البرك توفر نبات البردى وبحيرة **حورس** الغاب، كما توجد بساتين الفواكه وأطواق زهور الحدائق... وطيور البرك وعصافيرها...*

*إن شباب المدينة «**المهيبة هى انتصاراتها**» يرتدون يوميا ملابس (العيد). ويراق على رءوسهم زيت الزيتون العذب، بعد أن تم تصفيف شعرهم مؤخرًا. إنهم يقفون هنا بجوار بابهم، وقد أمسكوا بأيديهم الزهور مع نبات البردى الوارد من معبد **حتحور** وباقات القناة **پهر**[٧٦].*

إن **پر – رعمسيس**، مدينة مزدهرة، فى موقع حالفه التوفيق عند اختياره. فتحيط به من الغرب ومن الشمال «**مياه – رع**»، وهى أحد الفروع الشرقية **لدلتا** نهر **النيل**، ومن الجنوب والشرق قناة اسمها «**مياه أواريس**»(*). هكذا كانت المدينة محاطة بدفاعات طبيعية. وفى الجنوب، كان دخول الميناء من جهة البحر المتوسط سهلاً، بفضل فروع **النيل** وقنواته، فتستطيع السفن أن ترسوا فى يسر. أما ثكنات القوات العسكرية فكانت موزعة على الجهات الأصلية الأربع، تحسبًا لخوض معارك دفاعية محتملة، أيًا كان المكان الذى يصدر منه التهديد. كان القصر الملكى قائمًا فى الشمال الغربى وإلى جانبه المبانى الرسمية. وقام **رعمسيس** الثانى بتوسيع القصر إلى حدٍّ كبير. أما حىُّ الحرفيين فقد كان قائمًا فى الجنوب الغربى، ويمتدُّ باقى المدينة جنوبًا وشرقًا[٧٧].

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم لمدينة **حوت وعرت**، ويعتقد أنها لا تبعد كثيراً عن **قنطير** حالياً. (المترجم)

إن تحديد موقع **پر – رعمسيس** على وجه الدقة قد أثار مناقشات لا تنتهى: أهو **تانيس**، أم **أواريس**، أم **پلوزيوم** أم **جوشن**، أم **القنطرة**؟ ولا شك أنه كان لا يبعد كثيراً عن **تانيس**، إذا لاحظنا الأعداد الكبيرة من تماثيل **رعمسيس** الثانى العملاقة التى عثر عليها فى هذه المدينة.

كانت **پر – رعمسيس** عاصمة سياسية، بعيدة عن **طيبة** التى ستقوم من الآن بدور العاصمة الدينية، إن بُعد السلطة الدنيوية بالنسبة لكهنة **آمون** الأقوياء كان بادرة موفقة من جانب **رعمسيس**، وإن كان قد سبق أن استهلها أسلافه، منذ **حور إم حب**.

وأخيراً، فإن مدينة **پر – رعمسيس** المتيقظة، كانت تؤمِّن حراسة الإمبراطورية والدفاع عن وادى **النيل**. ففى سياق خطاب مسهب يوجهه الإله **پتاح** إلى الملك، يتحدث قائلاً:

*لقد شيَّدتُ مقرا ملكيا مهيئًا لتحصين حدود **القطرين**،* (لقد شيدتُ) ***بيت رعمسيس – محبوب آمون****. عساه يزدهر على وجه الأرض على غرار دعائم السماء الأربع، **فجلالتك** قائم بثبات فى قصره*(٧٨).

زمن الأبطال - ملحمة قادش

عندما أصبح **رعمسيس** الثانى ملكًا، كان الموقف فى **آسيا** يشكل من جديد تهديداً خطيراً. فلم يتوقف **مواتالى** عن إبرام تحالفات جديدة مع شعوب **آسيا الصغرى** وشمال **سوريا**، ليشكل فى مواجهة **مصر** كتلة رهيبة خاضعة لهيمنته السياسية. ومن ناحية أخرى، كانت **الخاتى** تتجه أكثر فأكثر جهة البحر، لتتاجر مع شعوب الساحل وجزر بحر **إيجه**، بعد أن أكسبتها قوة الشعوب **الميقانية**، أهمية

اقتصادية جديدة، باتت تنافس سياسة الهيمنة المصرية فى **البحر المتوسط**. إن الصدام بين **مصر** و**الخاتى**، كان أمراً لا مفرَّ منه. واستعدَّ الملكان لهذه المواجهة.

دعَّم **رعمسيس** جيشه، وطوَّر الفرقة الرابعة التى يشملها برعايته الإله **ست** – المندمج فى الإله الأسيوى **سوتخ**. والآن أصبحت كل فرقة تضمُّ خمسة آلاف فرد. وجُنِّدت قوات من مستوطنات **النوبة**، بالإضافة إلى المرتزقة من بين أسرى الحرب الذين جاءوا من **أمورو** ومن بين **الشراتنة** الذين هاجروا إلى ساحل **فينيقيا**.

ومن المحتمل، أن **رعمسيس** قد خاض المعارك فى أكثر من جبهة، منذ العام الثانى من حكمه. إن نص لوح حجرى جاء من **أسوان** يشير بالفعل إلى الآتى:

*هُزم **الأسيويون** وسُلبت أراضيهم ونُهبت، لأنه داس بقدميه أجانب **الشمال**. وسقط **التمحو** بسبب ما يثيره من رعب. وحُرم **النوبيون** من نسمات (الحياة)*(٧٩).

أهو مجرد تأكيد شكلى على الهيمنة؟ أم إشارة إلى اشتباكات عسكرية فى **أسيا**، كمقدمات للصدام الخطير بين المصريين والحيثيين؟ وهذا الرأى الأخير، هو الأقرب إلى الصواب. ومن المرجَّح أيضاً أن بعض المعارك قد دارت رحاها عند الحدود الليبية والنوبية، تدعيماً للهيمنة المصرية على هذه المناطق، الأمر الذى سيساعد **رعمسيس** بعد ذلك، تطبيقاً لتكتيك صائب وفطن، على حشد كل قواه فى حربه ضد **الخاتى**.

وفى العام الرابع من حكمه، كان **الفرعون** لا يزال فى **أسيا**. ولم يصلنا سوى القليل من الشواهد على نشاطه هناك. ولكن عُثر على لوح حجرى شديد التشوه، بجوار **نهر الكلب**، فيما بين **بيروت** و**بيبلوس**(*)، ويشهد على مرور العاهل المصرى فى هذه الأماكن. كذلك عُثر فى **تل النوير** – على قصعة تحمل مدونة بالهيراطقية تشير

(*) **جبيل** حالياً، شمال **بيروت**. (المترجم)

إلى العام الرابع. ويساعدنا علم **الباليوجرافيا**(*) paléographie على تحديد التاريخ، وهو الأسرة التاسعة عشرة وعصر **رعمسيس** الثاني، بلا شك. ويبدو إذن أن **الفرعون** المصرى قد رتّب على أحسن وجه، للهجوم الكبير الذى كان يستعد لشنه فى العام التالى، فاتجه صعوداً على امتداد الشاطئ، وصولاً على ما يظن، إلى **بيبلوس**، وهو ما فعله من قبله كل من **تحوتمس** الثالث ووالده **سيتى** الأول، بهدف تجهيز القواعد البحرية.

فى هذه الأثناء، كان **مواتالى** قد شرع يبرم تحالفًا واسعًا مع أمراء **آسيا** الصغرى وشمال **سوريا**. وقد عمل أحيانًا على شراء هذه التكتلات. هكذا استطاع أن يجمع من حوله أكثر من عشرين شعبًا، من بينهم، على وجه التحديد، شعب **پداسيا** وشعب **داردانيا**(**) وشعب **موسيا**(***) وشعب **لوكيا**(****) وشعب **أرزاوا** وشعب إقليم **كودا**، الواقع بين **لوكيا** وجبال **طوروس**، ومملكة **نهارينا** والمدن **الفينيقية**: **أوجاريت** و**مشنت**، وقلاع وحصون أعالى **سوريا كركميش** على نهر **الفرات** و**حرّان**، فى الجنوب الشرقى، و**حلب** و**قادش** على نهر **العاصى**.

ومرة أخرى، كان من المنتظر أن تتم المواجهة أمام هذه المدينة الأخيرة. ولكن سيجد **مواتالى** أن من ينازله أمير شاب يتحلى بخصال بطولية.

*كان **صاحب الجلالة** آنذاك سيداً فى مقتبل العمر، وبطلاً لا مثيل له. كان قوى الساعدين، مقدام القلب وقدرته أشبه بقدرة **مونتو** فى زمنه، وشكله كاملاً مثل شكل **آتوم**، والجميع كانوا فرحين لرؤية جماله.*

(*) علم الكتابات القديمة. (المترجم)

(**) الاسم القديم لإقليم **طروانيا** وعاصمته **طروادة**. (المترجم)

(***) فى شمال غرب **آسيا الصغرى**. (المترجم)

(****) منطقة ساحلية فى جنوب **آسيا الصغرى**. (المترجم)

*عظيمة هى انتصاراته على كل البلدان الأجنبية. ولا نعرف متى يتأهَّب لخوض المعركة. إنه سور منيع بجوار جنوده، ودرعهم فى يوم الواقعة. إنه قوَّاس لا مثيل له، أقوى من مئات الآلاف مجتمعين. وعندما يتقدَّم، فإن وجهه الإلهى يخترق أعدادًا غفيرة لا حصر لها، لأن قلبه ممتلئ بقوته. إنه راسخ الصدر ساعة المعمعة، وكأنه لهب لحظة إذكائه. شجاعته صُلبة، مثل شجاعة ثور مستعدٌ للمعركة. إنه يعرف سائر البلدان. فقد لا يستطيع ألف رجل أن يستمروا فى مقاومته. ومئات الآلاف يتلاشون عندما يرونه. إنه رب الرهبة، إن صيحاته، صيحات الحرب، تنفذ إلى قلب الأراضى قاطبة، بالنظر إلى عظمة هيبته، وضخامة الذعر الذى يثيره، مثله مثل الإله **سوتخ** فوق الجبل(٨٠)... ناجعة هى خططه، كاملة هى أوامره، وكلمته ينظر إليها دائمًا على أنها الأفضل.*

إنه يهبُّ لنجدة سلاح مشاته يوم المعركة، ويحمى سلاح مركباته على أفضل وجه. إنه يعود برفاقه ويُعين جنوده. إن قلبه أشبه بجبل من النحاس، إنه:

ملك مصر العليا ومصر السفلى: أوسر ماعت رع - ستپ إن رع،

***ابن رع: رعمسيس** - محبوب **آمون**، له الحياة للزمن الأبدى واللانهائى مثل أبيه **رع**(٨١).*

هكذا تحدث الكاتب **پنتاءور** فى مطلع قصيدة طويلة مكرسة لتقرير المعركة، ويجول بخاطرنا أحيانًا أننا نستمع إلى نبرات **هومرية**. ولكن **هوميروس** الذى عاش، طبقًا للروايات المتواترة، بعد مرور أربعة قرون، ربما كان على دراية بهذه النصوص المصرية. ومن حقنا، على كل حال، أن نفترض ذلك.

وبفضل عدد من الوثائق، نستطيع أن نستعرض مختلف الوقائع التى تتابعت على امتداد هذه المعركة، التى كانت على جانب كبير من الأهمية من حيث تأثيرها على مستقبل **مصر** و**الشرق الأدنى**. فقد وصلنا، بادئ ذى بدء، نص التقرير الرسمى المدون على جدران عدد من المعابد، بالإضافة إلى النقوش التى تزينه بالصور

التوضيحية[٨٢]. كما حفظ لنا الزمن هذه القصيدة الملحمية الكبيرة التى وضعها الكاتب **پنتاور** احتفالاً بكبرى مآثر العاهل الملكى، وقد صلتنا منها نُسخ مدونة على ورق البردى، كما دُوِّن هذا النص على جدران عدد من هذه المعابد[٨٣].

وفى اليوم التاسع من الشهر الثانى من فصل الجفاف، من العام الخامس من عهده – أى قرب نهاية شهر **مايو** – وبعد الفراغ، فى هذه السنة، من حصاد الشعير والقمح والكتان، زحف **رعمسيس**، بمرافقه سلاحَىْ مشاته ومركباته وفيالقه ومرتزقته وسلاحَىْ الخدمات الإدارية والتموينية – أى ما مجموعه أكثر من عشرين ألف فرد – زحف متجهًا صوب الشمال، «*ببسالة وقوة ومجد*». مرَّ **بالقنطرة** التى تشكل الحدود، وتجاوزها ليسلك **دروب حورس**، الطريق الملكى لكل الفاتحين.

جميع البلدان ترتعد عند اقترابه، والأمراء يقدمون له الجزية، والمتمردون يأتون منحنين بسبب الرعب الذى يثيره مجده، ويتقدم جيشه عبر ممرات ضيقة بلا عناء أو صعوبة، وكما لو كان يسير على طرق ***مصر***.

وتتقدم الفرق الأربع ببطء، فى صف طويل وبالترتيب، فرقة **آمون**، تليها فرقة **رع**، ففرقة **پتاح**، ثم فرقة **ست** فى آخر المطاف. ولم يتخلل هذا التقدم أحداث تُذكر، إلى أن وصل عند أطراف مدينة **قادش**.

كان **الحيثيون** قد سبق لهم «*أن اختبأوا إلى الشمال الغربى* من مدينة ***قادش***، *متأهبين لخوض المعركة*». كانوا يشكلون «*جمعًا غفيرًا لا مثيل له، فيغطُّون التلال والوديان، وبسبب أعدادهم الهائلة كانوا أشبه بالجراد*».

كادت خدعة **مواتالى** تتسبب فى ضياع **مصر**. ففى **شابتونا**، على بعد عدة كيلومترات من **قادش**، جاء بدويان من **الشاسو** وكانا موفدين سرِّيَّيْن من قبل **مواتالى**، والتقيا **الفرعون** وزعما أنهما فرَّا من صفوف العدو وأقنعاه بأن ملك **الخاتى** ما زال فى **حلب**. ولم يخامر **رعمسيس** أدنى شك حقيقى، فأقام بالتالى معسكره، عند

شاطئ نهر **العاصى** الذى وصل إليه رأس جيش **آمون**. وكان جيش **رع** على مسافة سبعة كيلومترات تقريباً، ولم يكن قد اجتاز حتى الآن مخاضة النهر. أما جيشا **پتاح** و**ست**، فقد كانا أبعد بكثير. وأخيراً، فإن كتيبة من صفوة العناصر كانت تنتظر «*عند شاطئ بلاد* ***الأمورو***». واستراح الملك جالساً على عرش من الذهب الخالص وبجواره أسد، «*إنه الأسد الحىّ، رفيق* ***صاحب الجلالة*** *والذى ينتصر على أعدائه*». لقد صور **الرعامسة** أنفسهم فى الغالب فى صحبة أسد. أهو أسد تم ترويضه؟ لا يهمُّ، لأن الملك والأسد، من طبيعة واحدة.

وفجأة جيء بجنديين من **الحيثيين**، قام بعض أفراد قوة الاستطلاع بأسرهما، وضُربا ضرباً مبرحاً «*لاستنطاقهما عن مكان وجود زعيم* ***الخاتى*** *الخسيس*»، وهكذا افتضح أمر الخديعة. وعلى جناح السرعة عقد **رعمسيس** مجلس حرب مع ضباطه، وصدر أمر إلى الوزير بالإسراع بتقدم جيش **رع** فى اتجاه الشمال. ولكن هجوم **الحيثيين** المباغت سوف يستبق هذا التحرك. وأوقع الأعداء الهزيمة بجيش **رع**، وهاجموا فرقة **آمون** وتوغلوا داخل معسكر **رعمسيس**. هل كانت إمبراطورية **مصر** على شفا الانهيار؟

عندئذ نهض ***صاحب الجلالة*** *مثل أبيه* ***مونتو*** *وبعد أن أخذ حُلَّة المعركة، ارتدى الزرد. إنه مثل* ***بعل***[84] *فى زمنه. إن المركبة الكبيرة التى تحمل صاحب الجلالة اسمها «****النصر – فى طيبة****»، وتعود إلى الإسطبل العظيم الذى يخص* ***أوسر ماعت رع – ستپ إن رع****، محبوب* ***آمون****. إنه يندفع مسرعًا ومتوغلاً وسط الأعداء القادمين من* ***الخاتى****. إنه بمفرده، فلا أحد معه. ويتقدم لينظر خلفه ويكتشف أن ٢٥٠٠ مركبة تحيط به، ويسدُّون الطريق إلى الخارج، إنها مركبات على متنها محاربو هذا العدو الخسيس، القادمون من* ***خاتى*** *ومحاربو عدد من المناطق الأخرى الذين فى صحبته. لقد جاءوا من* ***أرزاوا*** *و****حلب*** *و****أوجاريت*** *و****قادش*** *و****لوكيا****. كانوا ثلاثة رجال معًا على متن المركبة الواحدة.*

ورفع **رعمسيس** صلاة متشامخة محركة للمشاعر، طالباً مساعدة الإله **آمون** الذى سيقوده إلى قمة النصر:

ما من قائد واحد معى، ما من قائد مركبة واحدة، ما من قائد مشاة واحد، ما من حامل درع واحد. إن سلاح مركباتى، هو فى مواجهتهم أشبه بالغنيمة، فما من جندى واحد صامد لخوض المعركة.

*كما قال **صاحب الجلالة**: ماذا حدث إذن، أيا أبى **آمون**؟ فهل يمكن لأب أن ينسى ابنه؟ وهل ما أفعله أمر تجهله؟ ألم أسِرْ أو أتوقف إلا بأمرك، دون أن أخالف الهدف الذى حدَّدته لى؟ كم هو عظيم رب **مصر**، أعظم من أن يسمح لأجانب بالظهور عند أطراف طريقه. من هم فى نظرك هؤلاء الآسيويون، يا **آمون**؟ إنهم كائنات خسيسة، لا يعرفون **الإله**(*).*

*ألم أُشيِّد من أجلك العديد من المعالم العظيمة وملأت معبدك بالأسرى؟ من أجلك شيَّدت معبدى لملايين السنين(٨٥)، كما منحتك كل ثرواتى ملكًا لك. إليك أقود كل الأراضى مجتمعة لإمداد قرابينك الإلهية، وأتصرف بحيث يأتون إليك بعشرات آلاف الأبقار، وفى الوقت ذاته بعطر الزهور بأريجها الطيب... من أجلك بنيت صروحًا شامخة من الحجر، كما أقمت شخصيا سواريها. وإليك أحضرت المسلات من **إلفنتين**(**) وأنا الذى رافقت الحجر. فمن أجلك تجوب السفن على صفحة **الشديدة الاخضرار** لتجلب إليك جزية البلدان الأجنبية...*

*إنى أناديك، يا أبى **آمون**. إنى وسط جمع غفير من أعداء لا أعرفهم. لقد اتحدت ضدى البلدان الأجنبية جمعاء. أنا وحدى ولا أحد معى على الإطلاق سوايَ. لقد هجرنى سلاح مشاتى، وما من جندى واحد من جنود سلاح مركباتى قد نظر إلىَّ. إنى أصيح إليهم، ولكن ما من أحد منهم يسمعنى، عندما أناديهم.*

(*) إنهم الكفَّار، بلغة عصرنا. (المترجم)

(**) عرفها المصريون القدماء تحت اسم **أبو**. (المترجم)

ولكن **أمون** فى نظرى، أفضل من ملايين الجنود، ومن مئات آلاف المركبات، ومن عشرة آلاف رجل وإخوة وأولاد مجتمعين فى قلب واحد. إن جهد الرجال لا ينفع فى شىء، إن **أمون** أكثر فائدة منهم... إنى أرفع هذا الدعاء، أنا عند حدود البلدان الأجنبية، ولكن منذ الآن يندفع صوتى صوب مدينة **هرمونتيس**.

وألاحظ أن **أمون** يلبِّى ندائى ويمدُّ يده إلىَّ وأنا سعيد. ويصيح من خلفى: «أنا، وجهًا لوجه معك، يا **رمسيس – محبوب – أمون**! أنا معك، فأنا أبوك ويدى مع يدك. أنا أفضل من مئات آلاف الرجال، أنا سيد الانتصار، الذى يحب البسالة».

عندئذ، اكتشفت أننى قوى القلب، منشرح الصدر(*) وكل ما أُقدم عليه يتحقق. أنا مثل **مونتو**، فأُطلق السهام بيدى اليمنى وأُمسك بقبضة يدى الأخرى. أنا أمامهم مثل **سوتخ**. واكتشفت فجأة أن المركبات الألفين وخمسمئة التى كنت وسطها قد طُرحت أرضًا ممددة أمام جوادَىَّ. فما من أحد من بينهم تلقى عونًا لمحاربتى، وفى أبدانهم وهنت قلوبهم بسبب الرعب الذى أثيره، وسواعدهم خارت قواها حتى أصبحوا لايعرفون الرمى بالقوس، ولا يجدون ما يكفيهم من قوة للإمساك بحرابهم. وبسببى يغوصون فى الماء كما تغوص التماسيح، فيتساقطون على وجوههم، الواحد على الآخر، وأقتل منهم، كيفما أشاء. فما من أحد ينظر خلفه، وما من أحد آخر يلتفت وراءه، وما من أحد ممن سقطوا سينهض من جديد.

إن ملك **خاتى** الذى كان يقف وسط سلاحَىْ مشاته ومركباته كان يشاهد المعركة التى يخوضها **صاحب الجلالة** بمفرده بدون سلاح مشاة أو سلاح مركبات، كان يقف هناك ويتلفت مذعورًا. عندئذ استدعى عددًا كبيرًا من الأمراء الآخرين، كل واحد منهم على رأس سلاح مركباته. مجهزين بأسلحة المعركة. (فوصل) أمير **أرزاوا** وأمير **موسيا** وأمير **حرَّان** وأمير **لوكيا** وأمير **داردانيا** وأمير **كركميش** وأمير **حلب** وإخوة ملك **خاتى**، وشكلوا كيانًا واحدًا. والمجموع ٢٥٠٠ مركبة، اندفعت مباشرة ضد النار(٨٦).

(*) هكذا حرفيا فى الأصل. (المترجم)

(فعاودت) *الهجوم عليهم. فأنا مثل* **مونتو** *وتصرفت بحيث يعانون من قوة يدى، أثناء قيامى بمهمتى، فى لحظة. إننى أثخنهم ذبحًا وأقتلهم فى أماكن وجودهم.*

يتحدث كل منهم إلى رفيقه قائلاً: إن الذى بيننا ليس إنسانًا، إنه ***سوتخ*** *العظيم البسالة، إنه* ***بعل*** *ذاته. إن ما يُقدم عليه من عمل ليس من فعل بشر، بل عمل كائن متفرد، فى مقدوره إنزال الهزيمة بمئات الآلاف دون مساعدة سلاح مشاة أو سلاح مركبات. هيًا، فلنسرع، ولْنَلُذ بالفرار من أمامه، حتى نبحث لأنفسنا عن الحياة ونستنشق نسمات الهواء (من جديد). انظروا، فكل من يتقدم ليقترب منه تصبح يده واهنة وتُشلُّ حركة جسده بالكامل. فلا يستطيع المرء أن يُمسك قوسًا أو حربةً، عندما يشاهده قادمًا مسرعًا على الطريق.*

وبحلول المساء، وبينما كانت أرض **قادش** مغطاة بالأعداء القتلى، عاد الجيش الذى كان قد لاذ بالفرار، فوبَّخهم **رعمسيس** وقرَّعهم، على ما فعلوه.

وبعد تناول **الفرعون** قسطًا من الراحة ليلاً، ومع بزوغ فجر اليوم الثانى من أيام المعركة، بدأ يُعدُّ جنوده للقتال.

كنت متأهبًا للمعركة، أشبه بثور نفد صبره. عندئذ نهضت ضدهم مثل **مونتو** *وكنت قد دبرت، فى هذه المرة، كل ما يلزمنى من جنود ورجال بواسل. ونفذت إلى داخل المعمعة، وقاتلت كصقر ينقض على فريسته. وصِــلُّ جبينى كان يُجهز من أجلى، على الأعداء... كنت مثل* ***رع*** *عند الفجر وأشعتى كانت تحرق أجساد العصاة. وكل واحد منهم كان ينادى على رفاقه قائلاً: «احترسوا! احموا أنفسكم! لا تقتربوا منه! انظروا، إن* ***سخمت***(٨٧) ***العظيمة*** *هى التى تؤازره، إنها بجواره فوق جواده ويدها مع يده». وكل من كان يمشى ليقترب منه كان وهج اللهب يحرق جسده.*

هذه القصيدة، هى أول نص غنائى كبير فى الأدب الفرعونى، إن غنائيته ذات «نبرة مصرية»، تتداخل فيها الصور الحسية وأبعاد الكلمة السحرية، ورواية الوقائع بالأساطير. إنه نصٌّ لا يُفرِّق بين عالم الواقع والعالم الأسطورى، فيختلطان اختلاطًا لصيقًا، كما لا يفرق بين البطولة على أرض الواقع والإشادة بها إشادة حماسية فى أسلوب بلاغى جزْل. لقد تركت ملحمة **قادش** والشجاعة الشخصية التى تحلَّى بها **رعمسيس** الثانى أثرًا عميقًا فى الوعى المصرى؛ فمن الآن سوف تُصاغ روايات الحرب فى الغالب باعتبارها **قصائد ملحمية**، تتحد من خلالها الآلهة وقوى الكون فى شخص الملك لإعطائه أقصى فاعلية.

إنه زمن الأبطال، فإذا سرنا فى اتجاه **الشمال** نجد أنه الزمن الذى شهد أسطول **الآخيين**(*)، يحمل على متنه طموحات أحفاد الملك الأسطورى **أتريوس**، عندما أقلعت سفنه مبحرة فى اتجاه **طروادة** بقيادة **أجاممنون** وأمراء **ميقينية وإسبرطة وبيلوس**(**).

إن مدينتَىْ **قادش وطروادة** مكانان سالت فيهما الدماء وسجَّلتا أمجادًا ملحمية فى الروايات الأسطورية للبشرية. كان **رعمسيس وأخيليوس**(***) **وأوليسيوس**(***) أبطالاً معاصرين، ما زالت مآثرهم الحربية تداعب ذاكرة البشر عندما يلتقى التاريخ بالأسطورة.

وترك ملك **خاتى** أرض المعركة، وأرسل موفدًا حاملاً خطابًا إلى **رعمسيس**. ويتحدث الشاعر المصرى على لسانه قائلاً:

أيها العاهل الملكى، يا حامى جيشه المقدام بفضل ساعده القوى، أنت سور لجنودك يوم المعركة، يا ***ملك مصر العليا ومصر السفلى***، *يا أمير الفرح ورب* ***القطرين***

(*) أقدم الشعوب الإغريقية. (المترجم)

(**) مدن يونانية قديمة. (المترجم)

(***) من أبطال الأساطير الإغريقية. (المترجم)

أوسر ماعت رع – ستپ إن رع،

ابن رع، الأسد سيد القدرة

رعمسيس – محبوب – أمون،

له الحياة إلى أبد الآباد.

إن خادمك يتحدث، ليعلن مجاهرةً أنك ابن رع ومن صُلبه، وأنه وهبك البلدان قاطبة متحدة فى بلد واحد. إن أرض مصر وأرض خاتى هما خدّامك. إنهما تحت قدميك. إن رع والدك المعظم قد وهبهما لك. لا تكن عنيفًا معنا. انظر، إن مجدك لعظيم، وأرض خاتى (ترزح) تحت ثقل قدرتك... لا تجعل كلامك بالغ القسوة، أيها الملك المنتصر، فالسلام أنفع من الحرب، أعطنا نسمات الحياة(٨٨).

كان النصر الذى حققته **مصر** نصراً مبيناً، ولكنه أقل بكثير من الصورة التى نقلتها الصياغة الشعرية للوقائع، فلم تتم محاصرة **قادش**، والذى حدث فقط أن كل من الغريمين المتحاربين عاد إلى بلده. فمن جانبه استُقبل **رعمسيس** فى **مصر** من قبل شعب فى قمة الفرح والابتهاج، وكان الملك المنتصر يتقدم صفوفاً طويلة من الأسرى المحمَّلين بغنائم لا حصر لها. وأُخرجت تماثيل الآلهة عند مرور موكب الملك وسط تهليل الجماهير المحتشدة. وما إن يصل الفرعون إلى **پر – رعمسيس** حتى يأمر بإقامة احتفال مهيب لتقديم الأضاحى إلى ثالوث **طيبة**: **أمون – مُوت خونسو** وإلى **رع – حور أختى**، وهى آلهة النصر واستعادة السلام.

الصراع المصريُّ الحيثيُّ

كان هذا السلام سلامًا زائفًا، لم يدم طويلاً، فالنصر الذى تحقق فى **قادش** لم يكن سوى وقفة قصيرة، فى سياق التنافس السياسى والاقتصادى الذى وضع **مصر** و**الخاتى** وجهًا لوجه.

وسيظل **رعمسيس** الثانى يحارب فى **آسيا**، من العام السادس حتى العام الثامن عشر من عهده.

فبعد أن هُزم **مواتالى** فى **قادش** عاد إلى الهجوم، بأن دبر مؤامرات جديدة. وعملاً بنهج سبق استخدامه، فقد أثار تمردًا فى أرض **كنعان** عند حدود **مصر** الشمالية الشرقية، ففى العام السادس انصرف البدو **شاسو** إلى الكثير من أعمال السلب والنهب فى المنطقة، بينما رفضت مملكتان جديدتان الاعتراف بالسيادة المصرية: **مؤاب** فيما وراء **البحر الميت**، و**آدوم** إلى الجنوب منه.

وفى حوزتنا بعض الشواهد على هذه الحملات العسكرية، التى قام بها **رعمسيس** الثانى فى **آسيا**، ولكنها تفتقر أحيانًا إلى الوضوح والتفاصيل، ولا تحمل تاريخًا فى جميع الأحوال. والمقصود تحديدًا النقوش المنحوتة على الصرح الأول من **الرامسيوم**، وعلى القسم الجنوبى من الجدار الشرقى من بهو الأساطين الكبير فى معبد **آمون - رع بالكرنك**، وعلى الجانب الخارجى من الجدار الشرقى من فناء **رعمسيس** الثانى فى معبد **الأقصر**(٨٩). إنها فى الأساس مشاهد الهجوم على مواقع حصينة والاستيلاء عليها، وقد ذُيِّلت بمتن توضيحى على النحو الآتى: «*المدينة* (الفلانية) *التى هزمها* ***صاحب الجلالة***». وصُوِّر الآسيويون فوق أسوار المدينة وقد أمطروا بوابل من السهام، ويتوسلون إلى **الفرعون** المنتصر أن يعفو عنهم.

إن العام الثامن من عهده - أى عام ١٢٨٨ق.م، على وجه التقريب - قد شهد نشاطًا عسكريًا محمومًا.

وبالفعل ففى هذه الفترة، توفى **مواتالى**، كما أدت الخلافات التى دبُت فى أوساط الأسرة الحاكمة إلى إضعاف قدرات **الخاتى**. لقد احتدمت هذه النزاعات بين

أورهيتسوپ، ابن الملك المتوفى وأخيه **خاتوسالى**. وبطبيعة الحال استغل **رعمسيس** هذه المشاكل المؤقتة التى ألمت بمنافسه القوى، فبينما كان يؤيد مطالب **أورهيتسوپ** زحف بجيوشه فى اتجاه الشمال.

فاحتلَّ ثمانىَ مدن على وجه اليقين، وربما خمس عشرة، إلا إذا كان قد شن حملة سابقة فيما بين العامين الخامس والثامن، وهو ما قد يشير إليه لوح حجرى عُثر عليه شمال نهر **الكلب**، وإن كان هو أيضًا شديد التشوه. فمن بين المدن التى تم الاستيلاء عليها، نذكر **عسقلان** - شمال **غزة** مباشرة وبعض مدن **الجليل** و**لبنان** مثل **ساتونا**. وإذ واصل تقدمه ناحية الشمال، استولى **رعمسيس** على قلعة **داپور** الحصينة فى بلاد **أمورو**، وتصور النقوش أن خمسة من الأبناء الملكيين كانوا فى رفقة أبيهم، فيتسلقون السلالم ببسالة ليصلوا إلى شرفات سور القلعة. ومن الملاحظ أن **رعمسيس** قد جعل من الحرب قضية عائلية.

وخلال هذه الحملة، على ما يعتقد، وبينما كان عائدًا إلى **مصر**، قاتل فى مملكتى **مُؤاب** و**أدوم**، واستولى تحديدًا على مدينة **ديبون** فى **مُؤاب**، إلى الشرق من **البحر الميت**. أو ربما دارت هذه الاشتباكات فى **شرق الأردن** الحالى، فى غمار حملة عسكرية أخرى، ومن الصعب أن نصل إلى رأى قاطع.

ففى عام ١٢٨٨ق.م تقريبًا، كانت سيطرة **رعمسيس** تمتد آنذاك على نطاق واسع فى **الشرق الأدنى** الآسيوى، وتحديدًا حتى نهر **العاصى**، أو إلى الجنوب منه قليلاً، بحيث تشكل **دمشق** الحدود الفاصلة بين منطقتى نفوذ كل من **مصر** و**الخاتى**.

وفى ذلك الزمان استفحل الوضع الخارجى وازداد خطورة، ومرة أخرى تقوض التوازن الدولىُّ. وبالفعل، بينما كان الجيش المصرى ينقض على موقع **داپور** الحصين ويستولى عليه، فإذا بملك **أشور**، **عداد - نيرارى**، يستغل هو أيضًا المشاكل الداخلية التى كانت تعانى منها **الخاتى**، ورغبةً منه بالتالى فى تعزيز وضعه بصفته ثالث القوى العظمى فى العالم الشرقى، إذا به يتوغَّل إلى داخل **الميتانى**، وهكذا وصلت مملكة **نينوى** إلى نهر **الفرات**.

ولكن **خاتوسالى** الثالث الذى كان قد استطاع أخيرًا أن يخلف **مواتالى**،

تحالف مع مملكة **بابل**، ليضع حداً، ولو بصفة مؤقتة، للتطلعات الأشورية، فطرد قوات **عداد - نيرارى** من **الميتانى**.

وفى العام العاشر من حكمه، من المحتمل أن **رعمسيس** قد تدخل عسكريا فى **فينيقيا**، وهو ما يؤكده، على ما يبدو، لوح حجرى ثالث عُثر عليه إلى الجنوب عند نهر **الكلب**. وفى غمار ذلك ربما ضرب **رعمسيس** الحصار على مدينة **تونيپ** الكبيرة الواقعة إلى الشمال من **قادش**، ورأى ملك **خيتا** من المفيد أن يرسل إليها بعض المساعدات العسكرية للقضاء على الطموحات المصرية.

وصرف **رعمسيس** انتباهه لبعض الوقت عن **آسيا**، ففيما بين العام ١٥ والعام ١٨ وقع تمرد جديد بمنطقة **إيرم** فى **السودان**. كان **سيتى** الأول قد سحق التمرد الأول، فى العام الثامن من عهده، ثم قام الأمير **رعمسيس**، عندما كان مشاركًا فى الحكم، بشن حملة عسكرية ثانية، خرج منها منتصراً.

عندئذ عقد الملك العزم على التدخل بجيشه لمساندة نائب الملك، الذى كان يجد بعض الصعوبات فى جباية الجزية. واصطحبه أربعة من الأبناء الملكيين، نذكر منهم **ست - إم -ويا**(*)، وهو ابنه الثامن، و**مر إن پتاح**، وهو ابنه الثالث عشر، والذى سيخلفه على عرش **مصر**، وكان كلاهما فى سن العشرين. وعادوا بسبعة آلاف أسير. وفى المدينة الإقليمية الجديدة المسماة «**مدينة - رعمسيس**»، فى غرب مدينة **عمارة**، نُقشت على جدران المعبد مشاهد احتفالية بمناسبة النصر، كما نقشت أيضًا على جدران بوابة المدينة الرئيسية، لتعلن على هذا النحو جهاراً نهاراً، عن قوة **الفرعون**، موضوعًا للتأمل يتّعظ به كل من يفكر فى التمرد، كما نُقشت بعض مشاهد هذه الحملة النوبية بمعبد **رعمسيس** الثانى فى **أبيدوس**.

وفى العام ١٨، ظهر **رعمسيس** الثانى من جديد فى **آسيا**، ويشهد على ذلك لوح حجرى عُثر عليه فى **بيت شان**. والنص المدون عليه لا يذكر أحداثًا محددة، ولكنه يؤكد على الإيديولوچية الجديدة بحماستها الغنائية التى تُمجِّد النصر، وهى السمة

(*) ومعناه «**ست - فى قاربـ(ـه)**». راجع:

Ch. Leblanc. Nefertari. Ed. du Rocher, 1999, p.286 (المترجم)

المميزة لعصر **الرعامسة**، فتداخل فيها تداخلاً رائع الصور الحسية والأساطير، فى صياغة شعرية تُرضى القلب والعقل، ومحركة للمشاعر فى بعض الأحوال.

*عندما يُمسك قوسه على متن مركبته ويقبض على سهمه، فإنه أشبه بنجم وسط جمع غفير، إنه رجل قوى يخترق الأعداء الذين تهاوَوْا عند الأقاليم المحصنة فى أطراف الأرض، بعد الإجهاز على زعمائهم وجيوشهم. وكان **صاحب الجلالة** من خلفهم مثل ثور من ذهب، وصقر فى كبد السماء بالنسبة للعصافير الصغيرة، وأسد ضارٍ فى حظيرة الأغنام، وشعلة تؤججها نباتات خطرة، بينما عاصفة هوجاء تُسعِّر النار. إنهم أشبه بريش العصافير فى مهب الريح. أبدًا، لم يحقق أحد، ما حققه فى مواجهة البلدان الأجنبية*(٩٠).

وبعد أن تربع **سلمانازار** الأول على عرش **أشور** بوقت قصير، اجتاح من جديد **الميتانى**، وأقام حدوده بصفة نهائية عند نهر **الفرات**.

وأمام هذا الخطر الجديد، وبعد أن ضاق كل من **مصر والخاتى**، ذرعًا من حروب استمرت ثلاث عشرة سنة، سعيا إلى التحالف لتأمين السلام.

واستطاع **رعمسيس** الثانى أن ينقذ الإمبراطورية، بفضل ذكائه وشجاعته الشخصية. وأمر بأن يُنحت فى **الكرنك** جانب من أول مقاطع **النشيد الإمبراطورى** للفرعون **تحوتمس** الثالث، ولكن دون أن يذكر أسماء أى بلد أو دولة، خلافًا لما كان قد فعله سلفه من ملوك التحامسة، وكان يقصد إيجاد صيغة لدولة اتحادية. ومن الآن، وبعد أن جرى تجميع البلدان الأجنبية وتداخلها، ولكن بلا تمييز بينها، أصبحت تشكل كلاً واحداً يدين بالولاء للفرعون **رعمسيس – الإله** بمختلف أشكاله. ومرة أخرى يتحدث **أمون – رع** إلى ابنه، من خلال خطاب أكثر إيجازاً:

*إنى أتصرف، بحيث يَرَوْن **جلالتك** مثل رب الضياء، بينما تتألق فى وجوههم بصفتك صورتى*

*إنى أتصرف، بحيث يرون **جلالتك**، وقد ارتديت حُلّتك الحربية، بينما تمسك بأسلحة القتال على متن مركبتك*

*إنى أتصرف، بحيث يرون **جلالتك**، مثل ثور، شبابه أبدى، ثابت القلب، حاد القرنين، يصعب الهجوم عليه*

*إنى أتصرف، بحيث يرون **جلالتك** مثل تمساح، رب الرعب على الشاطئ يصعب الاقتراب منه*

*إنى أتصرف، بحيث يرون **جلالتك** مثل وهج شعلة، كشكل من أشكال **سخمت** المرعبة*(٩١)

النشيد أقصر من نشيد **سيتى** الأول(٩٢). ووفقًا للميثولوچيا الملكية لعصر **الرعامسة**(٩٣) فإن الملك المحارب المرهوب الجانب يندمج فى الأجرام السماوية والأشكال الحيوانية فى الكون. وعن نشيد **تحوتمس** الثالث، نُقلت المقاطع التى تتفق والأيديولوچيا الجديدة.

معاهدة سلام وتحالفات قائمة على رابطة الزواج

الوفاق الودّى

يبدو أن **خوتاسا لى** الثالث، المهدد أكثر من غيره بالطموحات **الأشورية** قد بادر إلى الأخذ بسياسة التقارب مع **مصر**. ولا شك أن أسس المعاهدة قد وضعت فى **خاتوساس**(*). ويعتقد أن مشروع معاهدة، قد دُوِّن **بالأكدية** على لوحة صغيرة من الفضة، ختمها الملك شخصيا وأُرسلت إلى **پر – رعمسيس** عن طريق موفد **حيثى**(**).

(*) عاصمة **الخاتى**، **ويوغازكوى** حاليًا. (المترجم)

(**) **الحيثيون** هم سكان بلاد **الأناضول** فى العصور القديمة، وسكان دولة **خاتى**، نسبة إلى العاصمة **خاتوساس**. (المترجم)

وبعد أن أدخل عليه **رعمسيس** الثانى بعض التعديلات الطفيفة، أعاد إلى **خاتوساس** نصاً آخر للمعاهدة.

وضعت النسخة الحيثية، فى **هليوبوليس**، عند قدمَىْ تمثال الإله الشمسى، كما نحتت ترجمتها المصرية على جدران عدد من المعابد فى **مصر** ذاتها: كالواجهة الجنوبية من الجناح الشرقى للصرح التاسع فى **الكرنك**، وعلى مرسى جزيرة **إلفنتين**(*)، وفى النوبة أيضاً، وفى **السودان** فى الفناء الخارجى أمام معبد **غرب عمارة**، وفى الجانب الجنوبى من واجهة المعبد الكبير فى **أبوسمبل**، وفى **عكاشة** الواقعة على بُعد ٢٥كم شمال **وادى حلفا**.

أما النسخة المتضمنة قَسَم **رعمسيس** الثانى فقد وُضعت عند قدمَىْ تمثال **تاشوب** إله **الحيثيين**، وأعيد نسخها على ألواح صغيرة من الصلصال لتوضع فى المحفوظات الرسمية لدولة **خاتى**، ليُعثر عليها فى مطلع القرن العشرين، إبان الحفائر التى قام بها عام ١٩٠٦، الدكتور **هوجو وينكلر** Hugo Winckler، فى **بوغاز – كوى**، **بتركيا**.

وتاريخ المعاهدة محدد بكل دقة «*فى اليوم الحادى والعشرين من الشهر الأول من فصل الإنبات، من العام الحادى والعشرين من حكمه*» – أى فى النصف الأول من شهر ديسمبر، «*فى زمن* ***جلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى: أوسر ماعت رع – ستپ إن رع، ابن رع: رعمسيس – محبوب – أمون***».

إنها أول معاهدة فى تاريخ العالم يصل إلينا نصها(**).

وتعترف المقدمة بشكل رسمى بمسئولية **مواتالى** فى فسخ المعاهدة التى سبق أن وقعها كل من **أمنحوتپ** الرابع و**سوپيلوليوما**، وربما تمَّ إحياؤها من جانب **سيتى**

(*) أو جزيرة **أسوان**، كان اسمها **آبو** بالمصرية القديمة، ومعناها **الفيل**. (المترجم)

(**) الترجمة العربية الكاملة لنص المعاهدة واردة فى:

كلير لالويت، نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة، المجلد الأول، ترجمة ماهر جويجاتى، دار الفكر، ١٩٩٦، ص ص: ١٠١-١٠٦. (المترجم)

الأول و**مواتالي** ذاته. ولما كانت المعاهدات تُبرم حتى هذا اليوم بين الملوك، ومن الضروري إذن تجديدها إذا لزم الأمر من قبل من يخلفونهم، فلأول مرة يُلزم هذا النص أخلاف الملكين:

*في البدء ومنذ الزمن الأبدي، قامت علاقات بين زعيم **مصر** العظيم وزعيم **خاتي** العظيم، ولم يسمح **الإله** أن يتدخل الأعداء للتفريق بينهما،* (كل ذلك) *بمقتضى معاهدة. ولكن في زمن أخي **مواتالي** كان هذا الأخير يحارب زعيم **مصر** العظيم.*

*والآن، واعتباراً من هذا اليوم، لاحظ أن **خاتوسالي**، زعيم **خاتي** العظيم، قد حرَّر معاهدة ليسمح بإقرار العلاقات التي خلقها **رع** وخلقها **سوتخ**،* (العلاقات) *بين أرض **مصر** وأرض **خاتي**، وللحيلولة دون تدخل الأعداء للتفريق بينهما،* (وذلك) *لأبد الآباد.*

*أجل، فإن **خاتوسالي** زعيم **خاتي** العظيم، هو الذي أقرها مع **أوسرماعت رع - ستب إن رع**، زعيم **مصر** العظيم، ليسود بينهما اعتباراً من هذا اليوم وإلى الأبد، السلام والأخوة الصادقة. سوف يكون أخاً لي، ويعيش معي في سلام، وسوف أكون أخاً له، وأعيش معه في سلام، إلى الأبد...*

*وأولاد أولاد زعيم **خاتي** العظيم، سوف يتآخون ويعيشون في سلام مع أولاد أولاد **رعمسيس - محبوب - آمون**، زعيم **مصر** العظيم. هذا جزء من علاقات الأخوة وعلاقات السلام التي بيننا. فليكن شعب **مصر** في سلام ويتآخى مع بلاد **خاتي** بأكملها وإلى الأبد*(٩٤).

تتضمن هذه المعاهدة، تحديداً، مواد تنص على عدم الاعتداء واحترام أراضي كل جانب، وحلفاً دفاعياً متبادلاً يكفل مكافحة المتمردين كفاحاً مشتركاً، والوعد بتسليم اللاجئين السياسيين، وضمان العفو عن هؤلاء. وقد وضعت المعاهدة تحت رعاية آلهة البلدين، وحمايتها المقدسة:

*أما عن كلمات هذا الاتفاق الذى أبرمه زعيم **خاتى** العظيم مع **رعمسيس – محبوب – أمون**، زعيم **مصر** العظيم، فقد دُوِّنت على هذه اللوحة الصغيرة المصنوعة من الفضة.*

*وعلى هذه الكلمات، فإن ألف كيان إلهى من بين آلهة وآلهات أرض **خاتى**، وألف كيان إلهى من بين آلهة وآلهات أرض **مصر**، تقف معى شاهدةً على هذه الكلمات **الشمس رب**(*) السماء... وملكة السماء والآلهة سادة القَسَم والآلهات سيدات الأرض... و**إيشارا** سيدة الجبال وأنهر أرض **خاتى** وآلهة بلاد **كيزوواتنا** و**أمون** و**رع** و**سوتخ** وآلهة وآلهات جبال (!) وأنهر أرض **مصر**، والسماء والأرض والبحر العظيم والرياح والسُحب.*

*إن الكلمات المدونة على هذه اللوحة الصغيرة المصنوعة من الفضة إنما هى من أجل أرض **خاتى** وأرض **مصر**.*

*وكل من لا يتقيَّد بها فإن ألف إله من آلهة أرض **خاتى**، وألف إله من آلهة أرض **مصر**، سوف تقضى على بيته وبلده ورعاياه.*

*أما من يلتزم بهذه الكلمات المدونة على هذا اللوح الصغير المصنوع من الفضة، سواء أكان من بلاد **خاتى** أم كان من أبناء شعب **مصر**، ولن يتجاهلها، فإن ألفًا من آلهة **خاتى** إلى جانب ألف من آلهة **مصر**، سوف تعمل حتى يكون مزدهرًا وحتى يحيا مع أهل بيته وأولاده ورعاياه.*

ومن بين الرسائل التى عُثر عليها فى **بوغاز – كوى**، والتى تبادلها **رعمسيس** الثانى و**خاتوسالى** الثالث، تؤكد رسالتان على هذا التعهد المتبادل بين الملكين، وعلى الضمانة المقدسة التى تكلفها الآلهة.

لقد كتب **رعمسيس** قائلاً:

(*) لما كان لفظ شمس، مذكر فى اللغة المصرية القديمة، أبقينا لفظ رب فى المذكر ليستقيم المعنى.(المترجم)

*أجل، إن الوثيقة الخاصة بالقَسَم الذى أدَّيتُه للملك العظيم، أخى ملك **خاتى**، قد وُضعت عند أقدام... وأمام الآلهة العظيمة التى هى أيضًا شاهدة على كلمات هذا القَسَم.*

*أجل، إن الوثيقة المتضمنة القَسَم الذى نطق به الملك العظيم ملك **خاتى**، بشأنى، قد وُضعت عند قدمَىْ الإله الشمسى فى **هليوبوليس** وأمام كبار الآلهة، كى تصبح شاهدة على كلمات هذا القَسَم.*

ورد عليه **خاتوسالى** قائلاً:

*لقد أصغيت بانتباه إلى هذا القَسَم. أجل فإن لوحة القسم التى صنعتُها من أجلك(*) موضوعة أمام الإله الشمسى فى **أرينا**[٩٥] وأمام كبرى آلهة بلاد **خاتى**، فسوف تصبح شاهدة على كلمات هذا القَسَم الذى حلفتُ به من أجلك. أجل، فإن لوحة القسم التى صنعتَها من أجلى موضوعة أمام الإله الشمسى، فى **هليوبوليس** وأمام أكبر آلهة بلاد **مصر**، وسوف تصبح شاهدة على هذا القَسَم الذى نطقتَ به من أجلى...*

أجل، فإن أكبر آلهة بلدينا قد أصبحت شاهدة على القَسَم الذى تبادلناه. وعلى مرِّ الزمن لن أنساه أبدًا، وأعيره أكبر قدر من الاهتمام وأحافظ عليه على أحسن وجه[٩٦].

ومن جديد عرف **الشرق الأدنى** السلام واستعادت **مصر** الهدوء والازدهار.

(*) المقصود لوحة صغيرة من الفضة ملحقة بنص المعاهدة ومزخرفة على الوجهين بزخارف تصور **سوتخ** والإلهة – الأم عند **الخاتى** ويحتضن كل منهما على التوالى الملك والملكة. (المؤلفة)

أجل لم تكن الحدود قد رسمت بشكل دقيق، ولكنها، كانت معروفة ضمنًا. ومن الآن وعلى امتداد خمسين سنة، سيظل نهر **العاصي** يشكل الحدود المعترف بها من جانب الدولتين القويتين في ذلك الزمن، واللتين ستسعيان إلى تطوير ثرواتهما في جوٍّ من الهدوء والوئام. عندئذ ستعيش **مصر** و**الخاتي** وبلاد **بابل** أسعد عصورها، على امتداد تاريخها.

ونشأت صداقة بين الملكين، وإن كدَّرتها أحيانًا بعض الحساسيات.

لقد أرسل **رعمسيس** خطابًا إلى **خاتوسالي**، يقوله فيه:

عساك أن تكون في صحة جيدة، أنت والمقيمون معك في مقرك، وزوجتك وأبناؤك وجيوشك وجيادك. وعسى أيضًا أنت تكون جميع بلادك مزدهرة.

*لقد قرأت لتوي الكلمات التي أرسلها لي أخي قائلاً: «لماذا، تتحدث إليَّ يا أخي وكأنني أحد رعاياك؟». فما تقوله لي على هذا النحو، وهذه الكلمة التي كتبتها لي قد آلمتني. إني أعيرك أكبر قدر من الاهتمام، بالإضافة إلى ما حققته من أشياء عظيمة في كل البلاد. أجل، فإن الملك العظيم في مناطق بلاد **خاتي** هو أنت. إن الإله – الشمس(*) وإله العواصف، قد سمحا بأن تأخذ مكان جدِّك. تُرى، لِمَ إذن أكتب إليك ظنًّا مني أنك أحد رعاياي؟ عليك أن تتأكد أنني أنظر إليك باعتبارك أخًا لي*[٩٧].

أهي مبارزة عبر الخطابات؟ أم صداقة متشامخة؟ أيًا كان الأمر، فلم تترتب عليها نتائج خطيرة.

إن المبادلات بين البلدين وهي كثيرة، كانت ذات طابع سلمي. فنجد أن **رعمسيس** يرسل إلى **الخاتي**، مهندسًا معماريًا مصريًا يُدعى **بريماخو**، ليشيِّد قصرًا

(*) نعيد إلى الأذهان أن لفظ شمس، مذكر في اللغة المصرية. (المترجم)

لأحد الأمراء التابعين للملك **خاتوسالى**، ويطالب هذا الأخير بأن يُرسل له كمية من الحديد، فقد تزايد استخدام هذا المعدن لصناعة الأسلحة، بعد أن شاع استعماله فى **آسيا** إبان الغزوات **الهندوأوروبية**. كما شكل منه ملوك **الخاتى** مخزونًا احتياطيًا، يحتفظون به عند حليفتهم مملكة **كيزوواتنا**، حيث تتم معالجة المعدن الخام، كما أقيمت فيها ورش ملكية للسلاح.

وأرسل **خاتوسالى** خطابًا إلى **رعمسيس**، يقول فيه:

*أما عن الحديد، وهو الموضوع الذى تطرقت إليه فى خطابك، فأنا لا أمتلك حديدًا ضمن مخزونى فى **كيزوواتنا**. فالوقت غير موات لصناعته، ومع ذلك فقد أرسلت خطابًا لإعداد حديد نقى. ولم يُجهز حتى الآن، وبمجرد الانتهاء من إعداده سوف أرسله إليك، وليس فى وسعى أن أبعث إليك اليوم سوى خنجر من حديد*[٩٨].

حفلات زفاف الربيع

إن الصداقة التى غالبت الأيام تعززت فى وقت لاحق، بعد مرور اثنتى عشرة سنة، فى العام ٣٤ من سنوات حكم **رعمسيس** بإقامة رابطة أوثق، فتزوج **رعمسيس** ابنة ملك **الخاتى**، فكانت نهاية سعيدة لصراع طويل الأمد حول مناطق النفوذ.

إن التحضير الدبلوماسى الذى استغرق فترة طويلة، والمفاوضات والرحلة الرسمية والاحتفال المهيب الذى صاحب إتمام هذا الزواج، تؤكد على أهمية الطابع الاستثنائى لهذا القران.

ومن بين المراسلات العديدة المتبادلة آنذاك، فإن الخطاب الذى أرسله **رعمسيس** الثانى إلى **بودوخيپا**، ملكة **الخاتى** ملىء بالدلالات الموحية إلى أبعد حد، بهذه المساومات الطائلة بشأن هذا الزواج، وموحية أيضًا بالدور السياسى التى قامت به **بودوخيپا**، ابنة أحد كهنة الإلهة **عشتار** أو **عشتروت**. فشأنها شأن ملكات **الخاتى**

الأخريات، كانت صاحبة تأثير مؤكد على إدارة شئون الدولة، فقد سبق لها أن وضعت ختمها على نص المعاهدة، وأرسل إليها **رعمسيس** خطاباً شديد الشبه بالخطاب الذى أرسله إلى **خاتوسالى** ذاته.

*مكذا يتحدث **أوسر ماعت رع – ستپ إن رع** الملك العظيم، ملك **مصر**، ابن رع: **رعمسيس – محبوب أمون**، إلى **پوبوخيپا** الملكة العظيمة، ملكة **الخاتى** أقول لها: أجل، ففيما يخصنى، فإن أحوال أخيك(*) طيبة، وكذلك مقار إقامتى وأبنائى وجيوشى وجيادى ومركباتى والوضع الداخلى فى بلادى على أكبر قدر من الازدهار.*

أما فيما يخصك يا أختى، فعسى أن تكون أحوالك أيضاً طيبة، وكذلك مقار إقامتك وأبنائك وجيوشك وجيادك ومركباتك وكبراء الدولة، وعسى أن يكون الوضع الداخلى فى بلادك على أكبر قدر من الازدهار.

*مكذا أتحدث إلى أختى: أجل، فإن رُسُلى قد وصلوا إلى جوارى مع وصول رُسُلك. فقدموا إلىّ، تقريراً عن ازدهار الملك العظيم، أخى ملك **خاتى**. كما قدموا إلىّ، تقريراً عن ازدهار أختى وأولادها وبلادكما. إن قلبى يبتهج إلى أبعد حدٍّ، عندما يسمع ما يقال عن ازدهار أخى وازدهار أختى وازدهار بلادكما. عساكما تكونان فى صحة طيبة ومسرورين سروراً عظيماً!*

*لقد رأيت اللوحة التى أبلغتنى أختى إياها، وسمعت كل شىء عن الشئون الخاصة بأختى ملكة **خاتى** التى كتبت إلىّ بأسلوب على أكبر قدر من الكياسة.*

*كما قلت أيضاً لأختى: «أجل، إن الملك العظيم ملك **خاتى**، قد كتب إلىّ (أيضاً) على النحو الآتى: مُرْ بأن يحضر بعض رجالك ومعهم زيت فاخر صافٍ، فيمكن سكبه على رأس ابنتى، لاصطحابها بعد ذلك إلى مقر الملك العظيم، ملك **مصر**». هذا ما قاله أخى فى رسالته. أجل إن هذا القرار صائب جدا: إن الإله – الشمس وراءه*

(*) أى **رعمسيس** ذاته. (المؤلفة)

*وإله العواصف وآلهة **مصر والخاتي** هى التى سبَّبته. هكذا فقد اُتُّخذ هذا القرار من قبل البلدين الكبيرين(٩٩).*

صحيح أن الأسلوب لا يتميز دائمًا بطلاوته، ولكن الدبلوماسية التى وجَّهت هذه المبادلات نجحت نجاحًا مؤكدًا.

وقرب نهاية خريف عام ١٢٦٢ق.م تقريبًا، غادرت الأميرة الشابة **خاتوسا**، فى رفقة موكب مرموق من الجند وكبراء الدولة وسفراء البلدين. وقد سبقتها بائنتها(*) المكونة من قوافل محملة بالحلىِّ النفيسة والكنوز والخيرات. واجتازت الأميرة الشابة ممرات جبال **طوروس** وعبرت **كيزوواتنا** ووصلت إلى **حلب**. واستجابةً لتضرعات **رعمسيس**، ومن أجلها أصبح الجوُّ فى هذا الفصل من السنة معتدلاً، فلم يتعرض للأمطار والثلوج. كانت الأميرة العربون الحىَّ لأهم معاهدة فى تاريخ **الشرق الأدنى**، وهكذا وصلت إلى **قادش**، عند **الحدود** الفاصلة بين الدولتين. هنا، تركتها أمها **بودوخيبا**، فى حين استقبلها الجيش المصرى وكبراء الدولة المصرية، وقد جاءوا جميعًا للترحيب بها. وانضمَّ الجنود المصريون إلى زملائهم الحيثيين من الآن فى استعراض واحد. واجتازت الأميرة، أرض **كنعان**، يتبعها موكبها الطويل، ثم سارت بمحاذاة ساحل **سيناء**، حتى وصلت إلى **پر-رعمسيس**، عاصمة البلاد، حيث ينتظرها خطيبها المهيب. واستقبل **رعمسيس** الأميرة القادمة من أقاصى المعمورة. ومن الآن سيصبح اسمها **مَا أت**(**) **حور نفرو رع**، أى «*تلك التى ترى **حورس** وجمال **رع***»، تعبيرًا واضحًا عن علاقة المودة والألفة التى تربط الملك بزوجته، وعمت البلاد الأفراح.

وسجلت بعض النصوص هذا الحدث العظيم، وأقيمت ألواح حجرية تذكارية، ومنها تحديدًا لوح **الكرنك** القائم أمام الجناح الشرقى من الصرح التاسع، وآخر أمام

(*) البائنة ما تحمله العروس من بيت أبيها من مال أو جهاز عند زفافها. المنجد فى اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت، طبعة ثانية، ٢٠٠١، ص١٢٧. (المترجم)

(**) **مَا أ** = يرى. وقد انتقلت هذه الكلمة إلى العامية المصرية، مع غيرها من الكلمات والعبارات والتركيبات النحوية. (المترجم)

معبد **غرب عمارة**، فى فنائه الخارجى، ولوح **عكاشة** واللوح الحجرى أمام الواجهة الجنوبية من معبد **أبو سمبل** الكبير. كما دونت نسخة مختصرة من هذا النص فى معبد الإلهة **مُوت**، جنوب معبد **الكرنك**.

والمدونة المكونة من ٤١ سطراً، تبدأ بعبارات المديح والثناء المسهبة المتعارف عليها، ثم تنتقل إلى التعليق على الرحلة:

*(1.32) عندئذ أذِن ملك **خاتى** العظيم برحيل ابنته البكر، تتقدمها كميات كبيرة من الجزية من ذهب وفضة وبرونز بمقادير وفيرة، ومن خدم وجياد بأعداد تفوق الحصر، ومن أغنام وماعز وكباش لا تُعدُّ ولا تُحصى - تلك هى الجزية المقدمة إلى ملك **مصر العليا ومصر السفلى أوسر ماعت رع - ستپ إن رع، ابن رع، رعمسيس - محبوب أمون**، له الحياة.*

*وجاء من يقول **لصاحب الجلالة**، ليُدخل البهجة على قلبه: «أجل، إن ملك **خاتى** العظيم قد أذِن بأن تأتى ابنته البكر، ومعها كميات كبيرة من الجزية ومختلف أنواع المنتجات* (التى تفوق الحصر) *حتى أنها تغطى الطريق* (تغطيةً تامة). *إن الأميرة وكبراء دولة **خاتى** ينقلونها معهم. لقد اجتازوا العديد من الجبال والممرات الرهيبة. لقد وصلوا الآن إلى حدود **صاحب الجلالة**. فليسمح إذن للجيش وكبراء البلد بالتوجه لاستقبالهم».*

*عندئذ ابتهج **صاحب الجلالة** ودخل إلى قصره وقلبه يتهلل فرحًا، بعد أن نما إلى علمه هذا الخبر* (الذى ظل) *سرا لم يعرفه أحد فى **مصر** حتى الآن. فأوفد على جناح السرعة الجيش وكبراء الدولة لاستقبالهم.*

*عندئذ تدبَّر هذه الفكرة فى قلبه وتأملها، قائلاً: «كيف سيتصرف أولئك الموفدون الذين أرسلتهم لتوى، ويسيرون الآن فى طريقهم إلى بلاد **جاهى**، فى هذه الأيام بالذات، وفى هذا الفصل الذى تشتد فيه الرياح وتتساقط الثلوج؟» عندئذ قدم قربانًا عظيمًا إلى أبيه **سوتخ** واقترب منه قائلاً: «السماء بين يديك والأرض تحت قدميك، وما تأمر به يحدث. مُرْ بأن يتوقف هطول الأمطار وهبوب الرياح الباردة وتساقط الثلوج، حتى تصل إلى جوارى الرائعة التى وهبتها لى». سمع والده **سوتخ***

كل هذه الكلمات فاستكانت السماء وحلت أيام الصيف فى زمن الشتاء. وبالنسبة لجيشه وبالنسبة لكبرائه، بدى الجسد أكثر نشاطًا وتفجر القلب فرحًا.

وعندما وصلت ابنة ملك **خاتى** إلى **مصر** كان مشاة صاحب الجلالة وجنود سلاح مركباته وكبراء دولته يرافقونها، وقد اختلطوا بمشاة **الخاتى** وجنود سلاح مركباته، ليشكلوا جيشًا واحدًا من جنود **أسيويين ومصريين**. كانوا يأكلون ويشربون معًا، ولهم قلب واحد وكأنهم إخوة. فلا أحد منهم يصدُّ الآخر، والسلام وروح الإخاء يسودان بينهم، عملاً بمقاصد الإله ذاته، ملك **مصر العليا ومصر السفلى**، **أوسر ماعت رع - ستپ إن رع**، **ابن رع**، **رعمسيس - محبوب - أمون**، له الحياة.

كان جميع زعماء البلدان التى يعبرها الموكب فى حيرة من أمرهم، فأخذوا يتلفتون وقد أصابهم الوهن، بعد أن شاهدوا رجال **خاتى** وقد انضموا إلى جيش ملك **مصر العليا ومصر السفلى**، رب **الأرضين**، العاهل الملكى صاحب الساعد القوى، حامى مصر **أوسر ماعت - ستپ إن رع**، **ابن رع**، سيد التجليات المتألقة **رعمسيس - محبوب - أمون**، له الحياة...

فى الشهر الثالث، من فصل الإنبات، من العام ٣٤... أُحضرت ابنة ملك **خاتى** البكر أمام **صاحب الجلالة**، ومعها العديد من ضرائب الجزية (التى وصلت فى صحبتها). ووجدها قلب الملك بالغة الجمال. وخلع عليها اسمها: «الزوجة الملكية **ماأت حور نفرو رع**، ابنة ملك **خاتى** العظيم وابنة سيدة **خاتى** العظيمة».

كانت رائعة من الروائع الخفية، التى لم يعرف أحد أنها ستصل إلى **مصر**، ولم يسمع عنها أحد شيئًا. كان أبو الملك، الإله **پتاح - تا - تان**، هو صاحب هذا القرار. هكذا أصبحت بلاد **خاتى** بقلب واحد، تحت قدمَىْ **صاحب الجلالة**(*). وخَلّدَت الملكة

(*) من المؤكد أن هذا القول لم يكن يروق لملك **خاتى**، ولكن كان يحلو للمصرى القديم المبالغة ويعظِّم كل شىء، لخلق واقع أكثر تأثيراً. (المؤلفة)

وما زالت هذه الظاهرة عنصراً مؤثراً فى موروثنا الثقافى. ومثال ذلك أن مذيعة مشهورة فى إحدى الفضائيات المصرية، قد ذكرت يوم ٢٧/٦/٢٠٠٦، بمناسبة الاحتفال بمرور ٥٠سنة على إقامة العلاقات الدبلوماسية بين **مصر والصين**، أن **حتشپسوت** فى رحلتها الشهيرة إلى الشرق قد وصلت إلى **الصين** على حدِّ قول بعض العلماء!!! [هكذا]. (المترجم)

الشابة إلى الراحة داخل القصر، وتبعت الملك فى كل يوم من الأيام، وسطع اسمها فى جميع أرجاء البلاد(١٠٠).

إن الدور البارز الذى آل إلى **بتاح** فى سياق هذا الحدث يظهر أيضًا فى نص آخر، كما كان فضلاً عن ذلك وسيلة لإبعاد كهنة **آمون** عن كل بادرة مرتبطة بالحياة السياسية. هذا النص الآخر، هو مرسوم صادر عن الإله **بتاح**، ومؤرخ بالعام التالى، أى العام الخامس والثلاثين من سنوات الحكم، وأعيد نسخه فى عدد من المعابد. فيتحدث **بتاح** إلى **رعمسيس** قائلاً:

*لقد حوَّلتُ بلاد **خاتى** باكملها لتصبح عنصرًا فى قصرك. لقد وضعت فى قلب أهلها* (الرغبة) *فى التوجه إلى **كاك**، محملين بكل الجزية التى استولى عليها زعماؤهم فضلاً عن ثرواتهم بصفة إسهام لمجد **جلالتك**. إن ابنة* (ملك **خاتى**) *تتقدم على رأس* (الموكب) *إرضاءً لقلب **رب القطرين**... إنها رائعة خفية، لم تعرف بعد العمل الفطن الذى حقَّقتُه ليعرف قلبك السلام*(١٠١).

وبعد فترة من الزمن جاء أخو الملكة الشابة، ولى عهد ملك **خاتى** الذى سيخلف **خاتوسالى** الثالث، تحت اسم **تودخالياش** الرابع، جاء ليزور صهره الملكى. وأمضى فصل الشتاء فى **مصر**، ومن المحتمل أن الأمير كان يمهد لقيام **خاتوسالى** ذاته بزيارة رسمية. وعلى كل حال كان المشروع قائمًا. وبالفعل فإن خطابًا أرسله **رعمسيس** إلى ملك **خاتى**، يدعو هذا الأخير لزيارة **پر-رعمسيس** للتعرف على «أخيه» وبلده. ولما كان رد **خاتوسالى** مختصراً بعض الشىء وتسويفياً، فقد جدَّد **رعمسيس** الدعوة:

*الإله - الشمس فى **مصر** وإله العواصف فى **خاتى** سوف يُتيحان لأخى أن يزور أخاه، عسى أن يقبل أخى هذا الاقتراح ليأتى لزيارتى. هكذا سنتقابل وجهًا لوجه، ونجلس فى المكان الذى أمارس منه المُلك. سوف أواصل سيرى حتى أرض **كنعان**، للقاء أخى ورؤيته والترحيب به **وسط بلادى**[١٠٢].*

يا له من تعبير موحٍ، يعبِّر بوضوح عن فكر **رعمسيس** الثانى الإمبراطورى، فتمتد الإمبراطورية بلا تمييز، من بلاد أو مناطق تبدأ من السودان وتنتهى عند نهر **العاصى**، لتشكل وحدة كاملة متكاملة.

هل نظر **خاتوسالى** إلى هذا العرض بارتياب؟ هل ذهب إلى الظن بأن هذه الرحلة قد تعنى من جانبه الاعتراف بنوع من التبعية **لمصر**؟ هل كان مريضًا؟ ويبدو أن الزيارة لم تتم. ومع ذلك فإن بعض الشواهد، وإن كانت غاية فى الضآلة فى حقيقة الأمر، قد تبرهن على أن لقاء القمة هذا ربما حدث، ولكن فى سرية تامة. هكذا، ففى خطاب مرسل من **خاتوسالى** إلى أمير **كودا**، يطلب ملك الحيثيين من هذا الأخير أن يستعد لمرافقته فى رحلته إلى **مصر**. كما وردت إشارة إلى هذه الرحلة فى خطاب حرَّره **إينى - تشوب**، أمير **كركميش** القوى.

حقا، إنها قرائن هزيلة للغاية، بالنسبة لحدث بهذه الأهمية. إن الإجابة الشافية على هذا الحدث الذى ما زال يكتنفه الغموض، ربما يقدمه لنا فى السنوات القادمة اكتشاف وثيقة جديدة أكثر وضوحًا.

لما كان هذا الزواج من أميرة حيثية قد استثار الخيال الشعبى استثارة شديدة، فقد نُسجت من حوله الحكايات والروايات الخيالية. وقد وصلتنا إحداها مدونة على لوح حجرى، من مقتنيات متحف **اللوفر** فى **باريس** (C284)، ويعود تاريخها إلى سبعة قرون أو ثمانية قرون لاحقه على التاريخ الحقيقى للحدث الذى ترويه. فعلى حدٍّ قول هذه الوثيقة، جاءت **نفرورع** من بلد بعيد جدا، حتى إن رحلتها إلى **مصر** قد استغرقت سبعة عشر شهراً. ويُقال إن شقيقة الأميرة أصيبت بمرض غامض وإن

رعمسيس، على الرغم مما يتحمله المسافر من عناء ومشقة، قد أرسل طبيباً مصريا وتمثالا إلهيا لطرد الأرواح الشريرة التي تسلطت على المريضة الشابة.

وآخر شكل تقمصته هذه الأميرة الحيثية، يعود إلى القرن التاسع عشر الميلادى، فى **فرنسا**، ومن وضع الشعراء **البرناسيين**(*) les poètes parnassiens. إن الشاعر **ليكونت دى ليل**(**) Leconte de Lisle، قد كرَّس فى ديوانه القصائد الهمجية Poèmes barbares قصيدة يهديها إلى **نفرورع** التى حوَّلها إلى ابنة **رعمسيس** الثانى:

Hier Neferou - Ra courait parmi les roses,
La joue et le front purs polis comme un bel or,
Et souriait, son coeur étant paisible encor,
De voir dans le ciel bleu voler les ibis roses.

وفيما يلى الترجمة العربية لهذه الأبيات:

*بالأمس كانت **نفرورع** تجرى وسط الورود،*
ووجنتها وجبهتها صافيتان وناعمتان كالذهب الخالص،
كان قلبها لا يزال وادعًا وهى تبتسم،
لمشاهدة طيور أبى منجل الوردية اللون، محلقة فى السماء الزرقاء.

قليل من التاريخ وكثير من الحكايات الخيالية، وتصورات شخصية عن فلورة **مصر** القديمة وفونتها...

(*) الشعراء **البرناسيون**: هم مجموعة من الشعراء الذين ظهروا فى **فرنسا** فى منتصف القرن التاسع عشر رد فعل للإغراق فى الرومانسية، واهتموا بتجويد الأسلوب وتنميقه. (المترجم)

(**) شاعر فرنسى (١٨٥٨-١٨٩٤). (المترجم)

وعلى كل حال فقد ترك **رعمسيس** الثانى فى الماضى أثرًا عميقًا فى عقول البشر ومازال. إن ولعه الشديد بالمآثر البطولية والمغامرات فى المناطق النائية، ومصير خطيبته الشابة القادمة من بلاد **خاتى**، وعبورها الجبال والصحارى للالتحاق بزوجها المرتقب، كان من المستحيل ألا تهتز له مشاعر أصحاب النفوس المرهفة.

مرة أخرى، حفلات زفاف حيثيَّة

وإذ بلغ الودُّ والوئام أوجهما من الآن فصاعدًا، يبدو أن **خاتوسالى** قد اقترح على **رعمسيس** الثانى أن يزوجه إحدى بناته الأخريات. ولكن أصداء هذا الزواج كان أقل دويا من سابقه، بعد أن أصبح أمرًا مألوفًا.

إن لوحين حجريين فى **مصر** يؤكدان هذا الحدث، فقد عُثر على أحدهما فى المعبد الكبير بمدينة **كوبتوس** والآخر فى **أبيدوس**، أمام الجدار الجنوبى للفناء الأول من معبد **سيتى** الأول.

*أمر ملك **خاتى** العظيم بأن يرسل إلى ملك **مصر العليا ومصر السفلى اوسر ماعت رع – ستپ إن رع، ابن رع: رعمسيس – محبوب آمون**، كميات كبيرة من الجزية شديدة الثراء، واردة من بلاد **خاتى وجاسجا وأرزاوا وكودا**.* (وكانت من الضخامة) *بحيث استحال تحرير قائمة بها،* (كما أرسل) *قطعانًا من الجياد بأعداد كبيرة وقطعانًا من الماشية، وأعدادًا ضخمة من قطعان الماعز والأغنام. وكانت تتقدم **ابنته الأخرى**، الآتية إلى **رعمسيس** فى **مصر**. **لقد حدث ذلك، للمرة الثانية**.*

*لم يكن المشاة يتقدمونها ولا راكبو المركبات الحربية. كانت آلهة أرض **مصر** وآلهة كل منطقة أجنبية هى التى تصرفت، بحيث يتولى كبار أمراء كل بلد شخصيا بإحضار جزيتهم إلى **رعمسيس**، ذهبهم وفضتهم وأوانيهم المصنوعة من الحجر الأخضر وقطعانهم من الجياد والماشية والماعز والأغنام،* (كما أحضروا) *فى الوقت*

*نفسه أولاد أمراء أرض **خاتى**، كما قدموا كل ما يملكون حتى حدود أراضى **رمسيس**. لقد حضروا بمبادرة منهم.*

*لم يكن زعيم يقودهم عندما حضروا، ولا جنود مشاة، ولا جنود سلاح المركبات، بل **پتاح - تا - تان**، أبو الآلهة الذى وضع كل البلدان وكل المناطق الأجنبية تحت قدمَىْ هذا الإله الكامل، للزمن الأبدى، الأبدى*[١٠٣].

مرة أخرى نجد أن **پتاح** هو الذى يرأس حفلات الزفاف، إنه **پتاح** صاحب العبادات الموغلة فى القدم، وقد أخذت أهميته تتعاظم أنذاك ويعلو نجمه[١٠٤].

هكذا كانت إمبراطورية **مصر** تسير فى سلام على طريق الازدهار، تحت قيادة عاهل ملكى بطل فخور بنفسه.

الفصل الثالث

إمبراطورية الرعامسة

والسلام المصرى

أولاً: فكر الإمبراطورية

تصوَّر **الرعامسة** إمبراطوريتهم باعتبارها بلداً واحداً، ووحدة سياسية وروحية ودينية رحبة، تندمج فيها الشعوب والمعتقدات فى رابطة منسجمة، لا مجال لفض خَتْمها. إنه تصور جديد متشامخ، جعل من **مصر** مركز العالم. كان **الرعامسة** عسكريين طموحين، يدركون كل الإدراك عظمة وطنهم، كانوا رجال سياسة بارعين ورجال دولة ثاقبى البصيرة. ومع ذلك لم يكونوا فى مأمن من بعض المشاكل الداخلية المرتبطة بتدبير شئون **مصر**.

وفى أعقاب فتوحات **سيتى** الأول و**رعمسيس** الثانى العظيمة، والحروب الآسيوية والإفريقية، عرفت إمبراطورية **الرعامسة** عصرها الذهبى، فعلى امتداد نصف قرن من الزمن ساد السلام وتعاظمت ثروة **مصر** وخيراتها، بذل خلاله الملكان الجهد الجهيد لتوحيد مختلف الأراضى التابعة لهما على الصعيدين السياسى والروحى، فلم يجرؤ أحد على معارضتهما بالنظر إلى هيبتهما الفائقة وما تثيره أسلحتهما من خوف بالغ.

عند حدود الأرض

فى نص المديح من أجل **سيتى** الأول المنحوت على اللوح الحجرى الذى عُثر عليه فى **قصر إبريم**(*)، يبدو أن هيمنة **مصر** كانت عالمية على ما يبدو، فتمتد على كل

(*) شمال **أبو سمبل**. (المترجم)

حال، بعيداً بقدر ما يمكن لخيال إنسان أن يكتشف من أراضٍ، واقعة بين الرياح والبحر

*إن حدودها الجنوبية تصل إلى أطراف الرياح، ويقال عن حدودها الشمالية إنها تلامس **الشديدة الاخضرار**[١].*

إن الإله **رع – حور أختى** الإله الشمسى للأيام الهادئة، عندما يمتدح ابنه **رعمسيس** ينظر إلى **مصر**، باعتبارها محور الإمبراطورية التى تمتد حتى الجهات الأصلية الأربع

*إنى أمتدحك بسبب ما فعلته، يا بنىَّ المحبوب الذى أعرفه والذى أُحبه. أنا أبوك وأمنحك الزمن الأبدى واللانهائى، بصفتك ملك **القطرين**. إن مدة حياتك ستكون مثل مدة حياتى على عرشى الأرضى. إن سنواتك ستكون مثل سنوات **أتوم**. إنك تسطع مثل **حورس** فى الأفق وتُضىء **القطرين**.*

*إنك تحمى **مصر** وحدودك بعيدة. إنك تستولى على **سوريا** وبلاد **كوش** و**التحنو** و**الشاسو** والجزر القائمة فى قلب **الشديدة الاخضرار**، بفضل انتصار ساعدك المقدام[٢].*

إن **التحنو** الذين يعودون إلى أقدم العصور، ما زالوا فى نظر المصريين العرق النمطى لأهل **ليبيا** فى **الغرب**، فى حين إن **الشاسو** يمثلون شعوب **آسيا** فى **الشرق**.

إن نصًا منحوتًا على الجدار الجنوبى من القاعة الأولى فى معبد **أبو سمبل** الكبير يشدُّ انتباهنا، بصفة خاصة، لأنه يقدم لنا تعريفًا شاملاً للفكر الإمبراطورى لعصر **الرعامسة**

*إن **رعمسيس** الباسل المقدام مثل **مونتو** يسوق **الزنجي** إلى **الشمال** و**الأسيويين** إلى **النوبة**. لقد حدَّد مكان **الشاسو** في بلاد **الغرب** وأقام **التحنو** في جبال* ***الشمال (لبنان)***[٣].

إن الشعوب المذكورة هي قبل كل شيء شعوب **الإمبراطورية**. فإليها ينتسب أفرادها قبل أن يكونوا من رعايا هذه المنطقة من العالم أو تلك. إننا أمام أدق تعريف توصل إليه المصريون عند وصف هذه **الإمبراطورية المصرية**، كما داعبت خيال **الرعامسة** واستطاعوا تحقيقها على أرض الواقع، قبل مئات السنين على ظهور **قياصرة روما**. وهناك سمة مشتركة تقرب أبناء **مصر** من أبناء **الإمبراطورية الرومانية**، فقد كانا شعبين من المزارعين، يرتبطان ارتباطًا لصيقًا بأراضيهما، وفي سعيهما للدفاع عنها جنحوا، خطوة فخطوة إلى غزو أقسام كبيرة من العالم.

من أجل روحانية عالمية

في هذه الأزمنة القديمة، عندما كان ما هو روحاني على القدر نفسه من أهمية ما هو زمني ودنيوي، كان اندماج الشعوب يسير بالضرورة جنبًا إلى جنب اندماج العقائد اندماجًا متناغمًا، في مناخ يقوم فيه التسامح واحترام مختلف الأيديولوجيات بدور فعال وأساسي. إن الرغبة في فرض فكر واحد، مهما بلغ من السمو، لن تظهر الحاجة إليه إلا في وقت متأخر، إذا وضعنا جانبًا فترة «*هرطقة*» **أمنحوتب** الرابع القصيرة، إنها هرطقة بالنظر إلى العنف وعدم التسامح المصاحبين لها(*).

(*) راجع: كلير لالويت، طيبة، ترجمة وتعليق ماهر جويجاتي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ص ص ٥٨٥-٦٢٩. (المترجم)

فإذا كان من الممكن غزو الشعوب بالقوة، فإنه من الضرورى بقاء العقول حرة، حينئذٍ سوف تسعى إلى الوحدة فى يسر وسعادة، تحركها رغبة مشتركة فى الحفاظ على عقائد كل شعب من الشعوب. وقد كانت تشكل فى ظل إمبراطورية **الرعامسة** روحانية وثنية رحبة، عاشت فى إطارها الآلهة باعتبارها قوى العالم، ولا تختلف فيما بينها سوى بأسمائها.

كما أن العمل الأيديولوچى الذى اضطلع به **الرعامسة**، كان هو أيضًا على قدر كبير من الأهمية.

ففى سعيهم إلى توحيد المعتقدات، شرعوا فى تبسيط مَجْمع الآلهة المصرية واختزال عناصره، من خلال مجهود رسمى، ونشأت بين الكيانات الإلهية نزعة تلفيقية(*) صارمة.

إن نص ترنيمة مكرسة للإله **آمون - رع**، ومن مقتنيات متحف **ليدن** فى الوقت الراهن ومدونة على البردى فى زمن **رعمسيس** الثانى، تكشف بكل وضوح عن هذه النزعة

*ثلاثة هى الآلهة جمعاء: **آمون ورع وبتاح**. فلا مثيل لها. إن اسمه(**) خفى بصفته **آمون**(٤). ووجهه(**) هو وجه **رع** وجسده(**) هو جسد **بتاح**(٥).*

(*) ينبغى التمييز بين مفهومين:

١. **التلفيقية** syncrétisme نزعة فلسفية بعيدة عن الروح النقدية، وترمى إلى جمع مصطنع بين أشتات من أفكار أو دعاوى غير متلائمة لتكوين مذهب واحد.

٢. **التركيب** synthèse الجمع بين عناصر متفرقة ومحاولة التأليف بينها.

مجمع اللغة العربية، معجم الفلسفة، القاهرة، ١٩٨٣. (المترجم)

(**) بضمير الغائب المفرد هكذا! (المترجم)

إنه إله ثلاثى الأوجه. ففيه تتحد ثلاث شخصيات إلهية، وهى من كبرى الآلهة، على امتداد التاريخ المصرى. إن قوة الاسم، أى قوة **الكلمة** الخلاقة، هى من نصيب **آمون**. وتألق وجهه الوضّاء، هو تألق **رع**. أما جسده فهو جسد **پتاح**، الإله صاحب الرداء اللاصق المحبوك، فيشير جسده إشارة رمزية إلى لحاء شجرة يطوّقه تطويقًا، ويتمتع بالتالى بكامل قوى التجديد لعالم النبات. ويمثل هذا الثالوث المقدس إذن كبرى القوى الموجودة فى الكون، والتى تُبعث فيها على الدوام حياةً متجددةً، إلى جانب القدرة على الخلق.

ويستطرد النص على النحو الآتى:

*لقد تأسست مدنها على سطح الأرض للزمن الأبدى، **طيبة** و**هليوپوليس** و**منف**، للزمن اللانهائى. وإذا صدرت رسالة من السماء فإنها تُسمع فى **هليوپوليس**، وتردد فى **منف**، مدينة الإله صاحب الوجه الجميل(٦)، وتُكتب بعلامات **تحوت**(*) من أجل مدينة **آمون**، عند معالجة شئون البلاد. وإذا صدر قرار فى **طيبة**...*

* **آمون ورع وپتاح** كلٌّ جامع، وثلاثة.

إن **هليوپوليس** وهى مدينة **رع**، ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالسماء. وتسجَّل الرسالة فى **منف**. ولكن سوف يصدر أمر التنفيذ عن **طيبة**.

وفى فقرات أخرى من هذا النص، ينظر إلى آلهة **ثامون** مدينة **هرموپوليس**(**) باعتبارها الشكل الأوَّلى للإله **آمون**. فالآلهة الأخرى هى أقانيم للإله **آمون** أو أحد أوجهه المحوَّرة.

(*) أى بالعلامات الهيروغليفية. (المؤلفة)

(**) **خمنو** بالمصرية القديمة و**الأشمونين** حاليًا. (المترجم)

وبطبيعة الحال، فإن هذه النزعة إلى التلفيقية تخص **أمون** بمكان الصدارة. أحدث ذلك، بتأثير من كهنة **طيبة**؟ ولكن، أليس **أمون** هو إله الانتصارات، والضامن الأمين لقوة الملوك؟ ويبرهن وجود **بتاح** على إرادة ملكية وراء هذه النزعة إلى إعادة تجميع مَجْمع الآلهة المصرية. وبالفعل كان **الرعامسة** متحمسين لإله **منف**، ويكنُّون له ورعًا حميمًا. والشاهد على ذلك، دراسة أسماء الأعلام. هكذا نجد أن الابن الثالث عشر من أبناء **رعمسيس** الثاني وخليفته كان يُسمَّى **مر إن بتاح**، أي «محبوب **بتاح**». أكانت رغبة سياسية في موازنة سلطة كهنة **أمون** المتعاظمة؟ أم الحاجة إلى الارتباط بأقدم التقاليد المتواترة للفكر المصري، وإلى أول أزمنة المملكة، عندما كانت **منف** عاصمة البلاد، فظل المصريون يحتفظون على الدوام، بذكرى هذه الأزمنة، باعتبارها نموذجًا للعصر الذهبي، كما نعرف أن المصريين أكثر الشعوب حفاظًا على التقاليد.

إن المكانة المتميزة التي آلت إلى **بتاح** في إطار حياة الدولة يظهر بوضوح من خلال نص مسهب، يتخذ شكل حوار بين **بتاح** و**رعمسيس** الثاني، وقد نُحت على جدران عدد من المعابد، فنذكر الجدار الجنوبي من الفناء الخارجي في **الكرنك**، والجناح الجنوبي من صرح معبد **عكاشة** وفي معبد **أبوسمبل**. كما سيستعير **رعمسيس** الثالث هذا النص بمعبده الجنائزي في **مدينة هابو**.

يتحدث **بتاح** إلى **رعمسيس** الثاني، قائلاً:

عندما أشاهدك يتحمس قلبي، فأقترب منك في معانقة من ذهب، وأحتضنك في أبد الدهر والثبات والقوة، وأتَّحد بك في ازدهار القلب وسعادته. إني أرتبط بك في الحماس والابتهاج والمتعة والملذَّات. إني أجعل فكرك فكرًا إلهيًا مثل فكري. إني أختارك وأُمعن النظر فيك وأهيِّئك، ليكون قلبك سعيدًا وتكون كلماتك مؤثرة. فلا يجوز أن تجهل شيئًا، لا شيء على الإطلاق. إني أحيطك بنصائح الحياة، حتى تجعل الآخرين يحيون حسب مقصدك. لقد أقمتك بصفتك ملكًا للزمن الأبدي، وحاكمًا يغالب الأيام للزمن اللانهائي. لقد صهرتُ أعضاءك في الذهب الخالص وعظامك في النحاس(٧).

جمال هذا الخطاب محرك للمشاعر. إنه يقيم صلة جسدية وروحانية بين الإله والملك، تكاد تكون شراكة حب، وهى على كل حال انصهار تام وشامل.

كما يتحدث **بتاح** قائلاً:

*إنى أمنحك البسالة والقوة، وقدرة ساعدك، فى كل بلد من البلدان. فمن أجلك رَبطتُ رغبات الأراضى كافة بعد أن وضعتها تحت نعليك. عندما تظهر متألقًا على مرِّ الأيام، تُؤدِّى لك جزية **الأقواس التسعة**، بينما يُقدم لك كبار أمراء كل بلد من البلدان أولادهم الذين أخضعتهم لساعدك المقدام، لتفعل بهم ما تريد. لقد وضعت هيبتك فى القلوب كافة وحب الآخرين لك فى كل جسد. لقد نشرت ما تثيره من رعب عبر البلدان الأجنبية، بينما الخوف منك يجوب الجبال، والأمراء يرتعدون كلما تذكروك. ليت **جلالتك** يزدهر وأنت قائم على رأسهم بثبات. إنهم يأتون إليك صائحين طلبًا للسلام، لأنك تسمح أن يحيا من تريد وتقتل حسب رغبتك*(٨).

هل أصبح **بتاح** منافسًا للإله **آمون**، فى مجال كان حتى الآن من اختصاص إله **طيبة**، نقصد بذلك الحرب والهيمنة على القوى الأجنبية؟ الأقرب إلى الصواب، أن آلهة الثالوث المقدس الجديد، التى كانت متشابهة من الناحية الرسمية فى قدرتها، كان لها أيضًا صلاحيات مماثلة، بل قد تستطيع أن تتبادلها، فيما بينها. ولا شك أن عملية الانصهار التى سعى إليها **رعمسيس** الثانى كانت كاملة وأكثر فاعلية لحماية **مصر**.

وبطبيعة الحال، فإن هذه التلفيقية الرسمية، التى لم يترتب عليها أى تصرفات قسرية، لم تَحُل دون استمرار إقامة الشعائر الدينية من أجل الآلهة المحلية وتحديداً **مونتو** فى **هرمونتيس** و**مين** فى **كوبتوس** و**حتحور** فى **دندرة** و**حورس** فى **إدفو** و**خنوم** فى **إلفنتين**، على سبيل المثال. وببساطة شديدة كان ينظر إلى هذه الآلهة باعتبارها صورة محوَّرة للثالوث الرسمى. إن هذه المحاولة الساعية إلى تنظيم مَجْمع الآلهة، لم تكن الأولى فى واقع الأمر، فقبل سبعة قرون من الزمن سبق أن حاول **أمنمحات**

الأول، وإن فى إطار أقل شمولاً، أن يصوغ منظومة تُخضع الآلهة المحلية إلى إله **طيبة**(٩).

وظلّ **أوزيريس** وحده، بعيداً عن هذه **المبادرات** ومحاولات التجميع. فلما كان يفتقر إلى سلطة سياسية ظل الإله الذى يعلِّم البشر الطريق إلى البعث واستعادة الحياة.

❖

ولكن العمل الذى أقدم عليه **الرعامسة** على الصعيد الروحانى، والجدير بالملاحظة، هو اهتمامهم الدائم باستقبال الآلهة الأجنبية، بينما كانت الآلهة المصرية تجد أماكن جديرة لعبادتها فى بلدان أخرى غير **مصر**. هكذا نشأت ديانة عظيمة حقا على امتداد الإمبراطورية.

إن عبادة **بعل** إله العواصف العظيم عند **الساميين** فكان بالتالى سيد الملاحة البحرية وحاميها، ثبت وجودها فى **مصر** منذ عهد **أمنحوتب** الثانى فى **پرو نفر**، أى «*الخروج السعيد*»، وهو ميناء مدينة **منف**. ولما كان **بعل** إله الحرب أيضًا، فقد أجلّه **الرعامسة** على وجه خاص ويجلّوه. فكان يطيب لملوك **مصر**، عند خوض المعارك الحربية، أن يندمجوا فيه. كان **رعمسيس** الثانى فى **قادش** هو «*بعل ذاته*» فى نظر **الحيثيين** المرعوبين، وفى الكثير من الأحيان كان **بعل** و**ست** يعتبران كيانًا واحداً. فتأسست عبادة **بعل – ست** فى أحد معابد العاصمة الجديدة، فى **پر – رعمسيس**.

كما أن **عشتروت** – وهى إلهة محاربة عند الساميين وكانت تُدعى فى الغالب **عنات** عند المصريين(*)– قد انضمت بكل وضوح إلى عالم الأساطير المصرية، ويطلق عليها أحيانًا لقب «*ابنة رع*» أو «*ابنة **بتاح***» أو «*رفيقة **ست***». وفى النسخة المختصرة *للوح الزواج* يطلق على **رعمسيس** الثانى اسم «رضيع **عنات**». فالإلهة هى التى تُرضع *الملك – الطفل*، لتقوم بالدور الذى يعود تقليديا إلى الإلهة **حتحور**، كما قد تكون الإلهة

(*) ونجد على كل حال أن هذين الشكلين يندمجان فى الغالب فى كيان واحد. (المؤلفة)

التى تضمن انتصار الملك فى المعارك الحربية. إن الدعامة الرأسية لظهر مجموعة تمثالين جادت بها **تانيس** ومن مقتنيات متحف **اللوفر** Le Louvre فى الوقت الراهن، وتصور **رعمسيس** الثانى والإلهة **عنات**، تحمل المدونة الآتية:

*كلمات قالتها **عنات**:*

*أيا رب **القطرين**، يا **أوسر ماعت رع – ستپ إن رع**،*

*يا سيد التجليات المتألقة، يا **رعمسيس – محبوب – أمون**،*

*أنا والدتك **عنات**، إنى أقيمك فى عيد بواسطة الحياة والثبات والقوة.*

*يا رب **القطرين**، يا **أوسر ماعت رع – ستپ إن رع**،*

*يا سيد التجليات المتألقة، يا **رعمسيس – محبوب – أمون**،*

لقد فتحت الأراضى قاطبة لأننى معك، والمذابح (التى تُقدم عليها) *هى أشبه بلهب نار فى قلب الأمراء.*

*يا رب **القطرين**، يا **أوسر ماعت رع – ستپ إن رع**،*

*يا سيد التجليّات المتألقة، يا **رعمسيس – محبوب أمون**،*

محبوب **عنات**، *سيدة السماء*(١٠).

وعلى جزء من نقش جاء أيضًا من **تانيس** ومن مقتنيات متحف **بروكلن** Brooklyn فى الوقت الراهن، يقف **رعمسيس** الثانى و**عنات** وجهًا لوجه. ويطلق على الإلهة لقب «***عنات**، سيدة السماء، من أجل **رعمسيس – محبوب – أمون***(١١)».

وعلى لوح حجرى مكرَّس للإلهة **عشتروت**، موضوع بمعبد **پتاح** فى **منف**، نشاهد **مر إن پتاح**، وهو يقدم البخور للكيانين الإلهيين، بينما تُدعى **عشتروت** «*سيدة السماء التى تقف على رأس الآلهة جمعاء*(١٢)».

ويشهد أيضًا علم أسماء الأعلام على انتشار عبادة **عنات – عشتروت** فى

مصر على نطاق واسع. ونعرف أحد كبار الموظفين الذين عاشوا فى عهد **سيتى** الأول وكان يُدعى «**عشترتىّ**»(*)، ويشغل منصبىْ *كبير المشرفين على إسطبل **أمون** وقائد حاملى الأقواس*[١٢]». كما عُثر فى **كانايس**(**) فى **الصحراء الشرقية** على لوح حجرى لهذا الموظف الكبير. وفى سياق النص المدون على هذا الأثر يقدم فروض الشكر والحمد لكبار آلهة **مصر** جمعاء، كما صُوِّر فى الجزء الأعلى من اللوح وهو يقدم القرابين لسبعة آلهة: **أمون** و**موت** و**رع** و**أوزيريس** و**إيزيس** و**حورس** و**عشتروت**. وقد صُوِّرت هذه الأخيرة فى هيئة أحد أشكالها التقليدية، كإلهة فارسة[١٤]. ويوفر لنا هذا اللوح دليلاً آخر على الانصهار التام الحادث آنذاك، بين مختلف العبادات.

إن الإله **حورون** وهو **إله – صقر**، يعود إلى الساميين وإلى القاطنين فى **البحر المتوسط**، وكان يُعبد تحديداً فى أرض **كنعان** وفى **لبنان**، قد حظى فى **مصر** فى ذلك العصر، على قدر كبير من التبجيل والتوقير. كان قد لقى رواجًا واسعًا على المستوى الشعبى منذ عهد **تحوتمس** الثالث فى منطقة **منف**، وكُرِّس له معبد فى عهد **أمنحوتب** الثانى، على ما يظنّ، بجوار تمثال أبوالهول فى **الجيزة**، بعد أن تمَّ الخلط بينه وبين الإله الشمسى المسمى **حور – إم – أخت**، الذى صحفه الإغريق إلى **حرماخيس** Har-makhis، أى *حورس فى الأفق*. إن مجاورة أماكن العبادة والاستعانة بهيئة الصقر سهَّلا اندماج هذين الكيانين الإلهيين. وربما كان منشأ هذه الظاهرة يعود إلى مستوطنين آسيويين جاءوا ليعملوا فى **مصر**، وأقاموا عبادة **حورون** فى هذا المكان. وسرعان ما تبنى **الرعامسة** هذا الإله، وخصصوا له معبدًا صغيراً فى العاصمة الجديدة، وكُرِّس له عدد من الألواح الحجرية[١٥].

إن مجموعة نحتية من حجر الجرانيت جديرة بالملاحظة، وتشدُّ انتباهنا على نحو خاص، عُثر عليها فى **تانيس** وهى من مقتنيات **متحف القاهرة** فى الوقت الراهن، تصور **رعمسيس** الثانى فى حماية الصقر **حورون**. إن موضوع قيام أحد الآلهة

(*) أى المنتسب إلى **عشتروت**، والياء المشدَّدة فى آخر الكلمة هى ياء النسب كما فى اللغة العربية. (المترجم)

(**) عند خط عرض **أدفو**. (المترجم)

بحماية العاهل الملكى تناوله فن النحت فى **مصر** القديمة بكثرة، حتى أصبح كلاسيكيا، فقد سبق أن شاهدنا أجنحة الصقر **حورس** وهى تحتضن رأس **خعفرع**(*). كما صُوِّر **أمنحوتپ** الثانى فى حماية البقرة **حتحور**، وقد استقر التمثال الملكى بين قائمتى الحيوان الإلهى وتحت خطمه القوى(**). كما أن **أمنحوتپ** الثالث يقف بين القائمتين الأماميتين لكبش **أمون** فى حماية الحيوان الإلهى المهيمن عليه، حتى يكاد يسحقه سحقًا بضخامة قامته، عملاً بأسلوب التماثيل الجماعية شديد الذكاء والوحى إلى أبعد حدٍّ(***). وتتميز مجموعة **حورون – رعمسيس** الثانى بخصوصيتها المتميزة، فبين رجلى الصقر المهيمن الذى يرتدى التاج **پشنت** يوجد تمثال صغير يُصوِّر **رعمسيس** فى هيئة طفل جالس القرفصاء ويعلو رأسه قرص الشمس، وقد وضع سبابته اليمنى فى فمه، وهى حركة تقليدية تدل على الطفولة، ويمسك بيده اليسرى ساق نبات البوص. إنه «**تمثال – أحجية**»، ينبغى قراءته باعتباره كتابة مشفَّرة. إن اسم الملك الصغير يقرأ **رع**، المقابل لصورة الشمس، و**مس** المقابل للاسم الدال على الطفل وعملية الإنجاب أيضًا، وأخيراً **سو** العلامة الصوتية(****) phonogramme الدالة على نبات البوص والمستخدمة لكتابة ضمير الغائب. فتكون القراءة على النحو الآتى: **رع – مس – سو**، أى «*رع هو الذى أنجبه*» = **رعمسيس**(*****). هكذا نرى أن

(*) المتحف المصرى بالقاهرة، القاعة رقم ٤٢ من الطابق الأرضى. (المترجم)

(**) المتحف المصرى بالقاهرة، القاعة رقم ١٢ من الطابق الأرضى. (المترجم)

(***) راجع: أنييس كابرول، أمنحوتپ الثالث، ترجمة ماهر جويجاتى، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢، ص٥٠٩ وما بعدها واللوحات ٧ و٨ و٩ و٢٩ و٣٠. (المترجم)

(****) أى استخدام العلامة التصويرية idéogramme لا بالنظر إلى معناها بل من أجل قيمتها الصوتية. (المترجم)

(*****) يمكن مشاهدة هذا التمثال الرائع الجمال فى المتحف المصرى بالقاهرة، الطابق الأرضى، الرواق رقم ١٠. كما وردت له صورة فى دليل المتحف المصرى باللغة العربية، ١٩٩٩، ص٩٢. (المترجم)

حورون يقوم فى هذه الحالة بالدور الذى كان يئول فى أحوال أخرى إلى أكبر الآلهة المصرية مثل **حورس** أو **حتحور** أو **أمون**. وتحمل قاعدة التمثال المدونة الآتية:

*الإله الكامل **أوسر ماعت رع** – **ستپ إن رع**، ابن رع، **رعمسيس** – **محبوب – أمون** ومحبوب **حورون**، من مدينة **پر** – **رعمسيس**.*

هكذا صار **حورون** إلهًا مصريا.

إن إلهًا ساميا آخر، وهو الإله المحارب **ريشيپ** الذى كان وجوده مؤكدًا أصلاً فى **مارى**(*) **وأوجاريت**(**)، كانت عبادته قائمة فى **مصر** قرب نهاية الأسرة الثامنة عشرة. ثم زاد انتشارها فى عصر **الرعامسة**، لتستمر حتى عصر **البطالمة**. ويسهل التعرف على هذا الإله بفضل تاجه المخروطى العالى، الذى يتدلى شريطان من قمته جهة الخلف. وقد يزدان غطاء الرأس هذا برأس غزال، والذى قد يؤكد وجوده على طبيعة أصوله باعتباره من آلهة الصحارى. إن هذه الخصائص المتنوعة سهلت اندماج **ريشيپ** فى **ست**. ويوضح هذا الخلط قدرة الآلهة المصرية على التأثر أيضًا بالصفات الآسيوية، وبالفعل، يصوَّر **ست** أحيانًا مرتديًا التاج المخروطى نفسه الذى يرتديه **ريشيپ**(١٦).

هكذا اتخذت الآلهة الأجنبية مكانها فى مَجْمع الآلهة المصرية على أكمل وجه، وانصهرت فيه، عملاً بالنزعة الغالبة إلى العالمية التى تُغذِّى الفكر الدينى.

وصارت أوجه الترابط والتآلف على المعالم الصرحية كثيرة ومتعددة، بين الآلهة، بأصولها المختلفة. هكذا، فإن لوحًا حجريًا يحتفظ به فى الوقت الراهن، **متحف القاهرة** وجادت به منطقة **القنطرة**، يصوِّر على امتداد صفين **أمون – رع** يتبعه **ريشيپ** أمام مائدة قرابين، وفى الصف نفسه يظهر **حورون** فى هيئة آدمية وبرأس

(*) فى **العراق** الحالى. (المترجم)

(**) فى **سوريا** الحالية. (المترجم)

صقر يعلوه **البشنت**، بينما يتعبّد صاحب اللوح إلى هذه الآلهة(١٧). وعلى لوح حجرى آخر يعود إلى عصر **الرعامسة** جادت به **الدلتا** أيضًا، صُوِّر فى الجزء المقوس من أعلى اللوح **ريشيب** إلى جانب **حورس** أو **حورون** وبجوارهما **بتاح**. وبالنظر إلى غياب أى نص توضيحى، وما ترتب عليه فى حقيقة الأمر من استحالة التمييز بين **حورس وحورون** من مجرد هيئتهم الخارجية، خير شاهد على هذه التلفيقية الدينية البالغة. وتأسيسًا على ذلك سوف نجد صعوبة فى التمييز بين صورة كل من **ست** أو **ريشيب** فى أحد التصاوير، إذا لم يُذكر اسم الإله بوضوح فى سياق المدونة.

كما أن الآلهة الإفريقية قد شملها أيضًا هذا التجميع العظيم للمعتقدات. إن تبنِّى الإله **ديدون** يعود إلى ماضٍ موغل فى القدم(١٨)، كما نجدُ أن بعض الآلهة الأخرى التى تتخذ هيئة الصقور وكانت تُعبد فى **إفريقيا** يُشار إليها مرارًا وتكرارًا فى عهد **الرعامسة**. ونذكر تحديداً الآلهة **حورس** الثلاثة، وأولهم فى **بوهن** العاصمة الإدارية لنائب ملك **مصر**، والثانى فى **ميعام** وهو الاسم القديم لمدينة **عنيبة** التى ظلت عاصمة **النوبة** لفترة من الزمن، والثالث فى **باك** من مدن **الجنوب** المهمة. وفى القسم المقوس فى أعلى لوح حجرى عثر عليه فى **كوبان**، ويعود إلى العام الثالث من عهد **رعمسيس** الثانى، يتعبد الملك لأبيه «***حورس الذى فى باك***» ويُطلق فى اتجاهه البخور، وردًا عليه يوجه الإله الخطاب التالى، ليشكره:

إنى أضع من أجلك، البلدان الأجنبية تحت نعليك، وأمنحك الزمن الأبدى بصفتك ملكًا(١٩).

تلتزم هذه العبارات بأسلوب مصرى صرف، إلى حد كبير.

ويبدو أن **الرعامسة** قد أرادوا إقلمة ديانة عالمية، تنصهر فيها كافة العبادات انصهارًا متناسقًا، سعيًا منهم إلى إيجاد مزيد من الترابط والتآلف بين أرجاء الإمبراطورية.

❖

بل وربما سعوا، بدافع الكبرياء، أن ينضموا شخصيا إلى هذا المَجْمع الإلهى المركب من عناصر متنوعة. فأن يكون ملوك **مصر** موضع عبادة، لم يكن آنذاك أمرًا جديدًا. فقد كان **سنوسرت** الثالث يُعبد فى **النوبة** و**أمنمحات** الثالث و**أمنمحات** الرابع(*) فى **سيناء** على وجه التحديد، كما كانت تماثيل الملوك تُعبد فى كل مكان. ولكن يبدو أن هذه الظاهرة قد بلغت ذروتها فى عهد **رعمسيس** الثانى.

إن بعض أعمال التنقيب التى تمت فى الخفاء قد قادت إلى الكشف عام ١٩٢٠ عن مجموعة من الألواح الحجرية جادت بها - على حدِّ قول «*المنقبين*» من أبناء **مصر** - بلدة **هربيط** الواقعة فى شرق **الدلتا**(**)، وأطلق عليها الإغريق **فاربيتوس** Pharbai-thos. ومن سياق مدونات هذه الألواح نعرف أنها نُحتت من أجل جنود حامية أحد المواقع المحصنة، القائمة عند الحدود الشرقية **لمصر السفلى**، للحيلولة دون تسلل البدو السلابين. إن واهب كل لوح من هذه الألواح يتعبد للملك **رعمسيس** الثانى ويقدم له القرابين، «*فقد كان الملك موضع إجلال وتكبير من خلال مظاهره المختلفة التى تجسدها تماثيله العملاقة*» [كما صُوِّرت على هذه الألواح] «*لتكشف عن مختلف مقوماته وأوضاعه. وصُوِّر التماثيل العملاقة ذاتها، وكانت محل عبادة شعبية، عددها أربعة. وكل تمثالين منها صُوِّرا معًا وعلى حِدَة، ولهما المظهر نفسه، وأطلق على أحدهما اسم تتويج الملك وهو **أوسر ماعت رع**، وعلى الآخر الاسم الشخصى للملك وهو **رعمسيس**. كما أن تمثالين عملاقين يصوران الملك واقفًا وعلى رأسه تاج **مصر العليا** الأبيض*». ويحمل الأول اسم **أوسر ماعت رع - مونتو - فى القطرين**، وقد أضيفت إليه مرة واحدة صفة «*الإله العظيم المنصت إلى التضرعات*»، وهى الصفة التى تُميِّز العبادات الشعبية. ويحمل الثانى اسم «***رعمسيس** - محبوب **أمون** - الإله*». أما التمثالان العملاقان الآخران فيصوران الملك جالسًا على العرش، واضعًا **البشنت** على رأسه. ويدعى أحدهما «***أوسر ماعت - ستپ إن رع - محبوب أتوم***»، والآخر «***رعمسيس** - محبوب **أمون** - شمس الأمراء*».

(*) وجميعهم من ملوك **الدولة الوسطى**. (المترجم)

(**) شمال **الزقازيق**. (المترجم)

*«وإذا استندنا إلى كثرة تكرار صورة كل تمثال من هذه التماثيل العملاقة على الألواح الحجرية، نجد أن **أوسر ماعت رع – ستبِ إن رع – مونتو** – في القطرين»، كان إلى حد بعيد، الأكثر شعبية، فقد وردت صورته على أكثر من أربعين لوحًا حجريًا*[٢٠]...». وعدد كل ما تم الكشف عنه من ألواح يصل إلى خمسة وستين.

والمقصود به هنا بكل وضوح، *تماثيل عملاقة* كانت محل عبادة. وعلى لوح **موسيه**(*) الحجري، صُوِّر **رعمسيس** الثاني في الصف الأدنى وهو يُوزِّع الهدايا على فرقه العسكرية، في حضرة تمثاله الذي صُوِّر في حجم أكبر من الملك ذاته مرتين، لأنه صورة إلهية. وعلى لوح آخر من هذه الألواح الحجرية ينعت التمثال الملكي «*بالتمثال العظيم*» وهي الصفة التي تستخدم على سبيل المثال للدلالة على تمثالَيْ **أمنحوتب** الثالث العملاقين، المعروفين اصطلاحًا بتمثالي «**ممنون**»(**) Memnon، القائمين في سهل البر الغربي لمدينة **طيبة**.

ومن المحتمل أن هذه التماثيل العملاقة كانت قائمة أصلاً أمام صرح معبد من المعابد وفقًا للعرف السائد، وربما في مدينة **پر – رعمسيس**؟

ولا يخامرنا أدنى شك أن هذه الشعائر كانت جزءًا من عبادة شعبية؛ الأمر الذي قد يبرهن أيضًا على ارتباطها بعبادة رسمية، بالنظر إلى أننا نشاهد **رعمسيس** ذاته مصوَّرًا على أحد هذه الألواح، وهو يقدم القرابين إلى تمثاله هو شخصيا. وبالمثل فإن الصف العلوي للألواح الحجرية التي عُثر عليها في **وادي السبوع بالنوبة**، يتحلى بمشاهد تُصوِّر **رعمسيس** مزدانًا بمختلف الألقاب والشارات، وفي رفقة عدد من الآلهة، وهو يتعبد شخصيا لذاته[٢١].

(*) أي: **لقد ولد**! (المؤلفة)

(**) لمزيد من التفاصيل راجع:

- كلير لالويت: طيبة، ترجمة وتعليق ماهر جويجاتي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ص ص٥٦١–٥٦٢. (المترجم)
- أنييس كابرول: أمنحوتب الثالث، ترجمة وتعليق ماهر جويجاتي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢، ص٥١٦.(المترجم)

فأن يكون العاهل الملكى قد اهتم شخصيا بإعداد هذه التماثيل العملاقة هو ما يبرهن عليه نص لوح حجرى عثر عليه عام ١٩٠٧، فى **منشية الصدر**، قرب ضاحية **مصر الجديدة**:

فى اليوم الثامن من الشهر الثانى من فصل خروج النبت (من الأرض)(*) germination، من العام الثامن، من عهد

ملك مصر العليا ومصر السفلى اوسر ماعت – ستپ إن رع،

*ابن رع: **رعمسيس – محبوب – آمون.***

*فى ذلك اليوم، كان **صاحب الجلالة** موجودًا فى **هليوپوليس**، ليقيم المدائح الشعائرية من أجل أبيه **الهليوپوليتانى***

رع – حور أختى – أتوم، رب القطرين.

*كان **صاحب الجلالة** يتنزه فى صحراء **هليوپوليس**، إلى الجنوب من معبد **رع** وإلى الشمال من معبد **التاسوع**، وتحديدًا أمام معبد **حتحور** سيدة **الجبل الأحمر**[٢٢]. وفجأة، لمح **صاحب الجلالة**، حجرًا رمليًا ضخمًا أحادىَّ الكتلة[٢٣]. لم يكن أحدٌ قد شاهد مثله منذ زمن **رع**. كان ارتفاعه يتجاوز ارتفاع مسلة من حجر الجرانيت. لقد اكتشفه **صاحب الجلالة** شخصيا، بفضل توهّجه المماثل لتوهج الأفق. وسلمه **صاحب الجلالة** لخيرة الحرفيين من أعظمهم درايةً ومهارةً، فى اليوم الحادى والعشرين من الشهر الثالث من فصل الجفاف(**)، من العام الثامن. وفى اليوم الثامن عشر من*

(*) وهى الترجمة للفظ پرت المصرى، والتى يأخذ بها البعض. د.عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٤، ص١٠٥. ويرى البعض الآخر ترجمة هذا اللفظ بعبارة: انحسار المياه وبروز الحقول. Vercoutter, l'Egypte.I. PUF. 1992. p.72. (المترجم)

(**) أو التحاريق، كما يطلق عليه د. عبد العزيز صالح، فى المرجع السابق، وهو فصل شمو بالمصرية القديمة. (المترجم)

*الشهر الثالث من فصل الجفاف، من العام التاسع - أى بعد مرور عام كامل، انتهى العمل من التمثال الكبير الذى يصور **رعمسيس - محبوب - أمون - الإله**.*

نتعرف فى هذا النص، على اسم أحد التماثيل العملاقة، كما ورد فى ألواح **هربيط** الحجرية.

*عندئذ كافأ **صاحب الجلالة** المشرف العام على الأشغال، فقدَّم له كميات كبيرة من الفضة والذهب، وأُغدق بالعطايا الملكية على الحرفيين البواسل الذين عملوا على صنع التمثال، فأمَّن لهم **صاحب الجلالة** حمايته على مدار الأيام، فقد كانوا يعملون من أجله بقلب ودود*[٢٤].

فمن غير المستبعد إذن أن يكون **رعمسيس** الثانى بصفته إمبراطورًا فى **إفريقيا وآسيا** قد سعى إلى تعظيم عبادته شخصيا. هكذا، فقد أصبح الرباط الطبيعى والمقدس الذى يوحِّد بين أراضى الإمبراطورية هو الإله الحى على الأرض. وإذ كان وجوده يضفى الشرعية على فتوحاته، فإنه يجعل من هذا الاتحاد واقعًا عادلاً وراسخًا ونهائيًا. ومن المحتمل أيضًا أن **رعمسيس** الثانى، وقد أدرك كل الإدراك مدى عظمته وسلطانه واتساع شعبيته وقوة بأسه، قد رأى من المناسب والطبيعى أن ينضم هو شخصيا إلى مَجْمَع الآلهة الرحب الذى سعى إلى التآلف بين آلهته، ليصبح من الآن نقطة التقائها ومحورها الأساسى.

كما أن **يوليوس قيصر**(*)، سيصبح هو أيضًا إلهًا، فى وقت لاحق.

وفى عهد **رعمسيس** الثانى وصلت الإمبراطورية المصرية إلى أعلى مدارج الهيبة والإجلال.

(*) فى القرن الأول قبل الميلاد. (المترجم)

ثانياً: السلام المصرى

الثراء والازدهار

وتدفقت القبائل من كل حدب وصوب. ومع استتباب السلم والسلام عاد النشاط الاقتصادى إلى سابق عهده وعمَّ الازدهار من جديد. وبعد أن ألقى الملوك سلاحهم، كرَّسوا حياتهم لاستثمار ممتلكاتهم.

وتشيد النصوص بعظمة **الرعامسة** الذين يُشيعون الخير واليُمن، فيُقال عن **سيتى** الأول: «*فى زمنه، لم يتضور أحد جوعًا*[٢٥]»، وعن **رعمسيس** الثانى: «*إنه الإله الكامل، إنه* ***«كا» مصر****، فيوفرُ للبلاد قاطبة ما تحتاجه من مأكل وطعام*[٢٦]» وهو «*من يجعل* ***طيبة*** *تفيض بكل ما هو خيرٌ وطيِّب، من طعام وغذاء*[٢٧]».

إن **رعمسيس** الثانى هو، الملك العظيم، ملك الوفرة والبحبوحة؛ فبفضله يعم الخير واليمن، كما يؤازره الإله **پتاح** مؤازرة بلا حدود، فيوجه إليه الحديث فى الخطاب الذى سبق ذكره[٢٨]، بالعبارات الآتية:

إنى أعطيك ***نيلاً****(*) عظيمًا، و**الأرضين** لك، إذ تفيضان بالخيرات والطعام الوفير، كما أن المأكل، فى كل مكان، وحيثما تسير. إنى أعطيك الحبوب على الدوام، غذاءً* ***للشاطئين****، فى كل فصل من فصول السنة. والقمح فى وفرة رمال الشطآن، والشُّوَن تلامس السماء وأكوام البذور أشبه بالجبال. ويفرح الناس عند رؤيتك ويشبعون، فالأطعمة والأسماك والطيور تحت قدميك. إن* ***مصر العليا*** *و**مصر السفلى** تأكلان من الأطعمة التى تخصك. لقد وُهبت السماء، فضلاً عما تحتويه. وجىء (بالإله)* ***جب****(**)[٢٩]، بالإضافة إلى ما بداخله. والمياه الرطبة تأتى إليك، محملة بطيورها.* ***وحورسى خايت****(**)[٣٠] يجلب الأشياء المغذية* ***لكاءات رع*** *الأربعة عشر، وقد وضعها*

(*) نهر **النيل**. (المترجم)

(**) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

تحوت على كل دروبك. وإذا فتحت فمك فإنك تُثرى من تريد، لأنك خنوم الحيّ ومُلك قوى، وقادر مثل مُلك رع عندما كان يحكم القطرين، يا ملك مصر العليا ومصر السفلى، يا أوسر ماعت رع – ستپ إن رع، وابن رع: رعمسيس – محبوب – أمون.

إنى أجعل الجبال، تُشكّل من أجلك معالم جميلة، عظيمة ومهيبة. إنى أجعل البلدان الأجنبية، تُبدع من أجلك مختلف أنواع الأحجار الكريمة القيمة، لتوضع بصورة موفقة فى المعالم المشيدة باسمك. إنى أجعل كل الأعمال (التى تم إنجازها) ذات تأثير مواتٍ من أجلك، وأن يعمل من أجلك كل الحرفيين، وكل من يسير على قدمين أو على أربعة أقدام، وكل ما يطير وينطلق. إنى أضع فى قلب كل بلد من البلدان (الرغبة) فى أن يقدم لك قربانًا، وأن يعمل الأمراء، من أجلك، كبارًا كانوا أم قليلى الشأن، فلا يسعون إلا بقلب واحد، لإرضائك، يا ملك مصر العليا ومصر السفلى، يا أوسر ماعت رع – ستپ إن رع، أيا ابن رع، يا رعمسيس – محبوب – أمون[٢١].

إن هذا النشيد الإمبراطورى الحق، لزمن السلم، لا يشيد بازدهار أسطورى. فقد تضافرت بالفعل كل الظروف آنذاك، لتضع **مصر** على رأس البلدان الأكثر ثراءً فى العالم.

ضرائب جزية إذعان أم صداقة

أراد **رعمسيس** الثانى أن تُسجَّل، إلى أبد الآباد، مظاهر الشكر والحمد التى تقام إكرامًا لرفعة عظمته. ففى فناء معبد **الأقصر** أمر بنقش موكب طويل مكون من إحدى وثلاثين شخصية[٢٢]. ويتقدم هذا الموكب كيان إلهى خنثوى، بوصفه أحد أشكال نهر **النيل**، الذى أُضفى عليه طابع مقدس، وهو يقدم خيرات النهر فوق صينية. وقد أطلقت عليه المسارد الخيالية اسم **نوى** أى «*الذى يأتى ويجلب... بكميات كبيرة*». و**نوى** بوصفه كيان إلهى هو إما المياه المُخصبة أو شكل من أشكال **المحيط الأولى** الذى انبثقت منه الحياة فى أول أيام الخليقة، وهو على كل حال قوة من قوى الطبيعة،

تجود بالغذاء والخيرات. إن **تحوت** «*سيد الكلمات الإلهية، وكاتب **التاسوع***» يلقى خطاباً، يصعب للأسف قراءته، من كثرة ما أصاب النص من تشوهات. أما الأشكال الثلاثون التى تسير فى أعقاب **نوى**، فتشخِّص «*مناطق المناجم*» فى العالم، وجميع «*الجبال والتلال*»، وما تحتويه من كنوز. ويوجه كل واحد منها كلامه إلى الملك العظيم قائلاً: «*إنى آتى وأجلب لك...*»، فالإسهامات كثيرة وجليلة الفائدة. إن العديد من هذه المناطق الجالبة للخيرات قائمة فى **الجنوب**، فى **النوبة** و**كوش** حتى الجندل الرابع، أو فى **الصحراء الشرقية**. ولكن من **مصر** ذاتها، يجود «*تل **إدفو***» بالذهب و«*تل **كوبتوس***» «*بالكحل والذهب والأحجار الكريمة بالمئات وعشرات الآلاف*». وتقع **إدفو** و**كوبتوس**، عند منافذ دروب عظيمة الأهمية، تقطعها القوافل القادمة من **الجزيرة العربية** ومن **البحر الأحمر**. ومن **بونت** تأتى «*الأحجار الكريمة مكدسة تكديساً*» بالإضافة إلى رأتنج البُطم. وتجود الواحات **الخارجة** و**الفرافرة** و**الداخلة**، فى **الصحراء الغربية**، «*بمختلف أنواع الأحجار الكريمة مكدسة تكديساً*». ومن **سيناء** يأتى الفيروز. ومن كل حدب وصوب تتجه جميع الطُرق إلى **الأقصر**.

كما أن بعض الإسهامات الأخرى تُقدِّم عربون صداقة... أو تعبيراً عن احتراز ينم عن الخوف. ومن **قبرص** يأتى «*معدنا الفضة والنحاس بمئات الملايين وعشرات الآلاف*». ومن **سنجار** - ويحتمل أنه **جبل سنجار**، شمال **بلاد الرافدين** - تأتى «*الفضة والأحجار الكريمة*» ومن **كريت** «*جميع أنواع الأحجار الكريمة بأكوام كبيرة*». والكلمات الدالة على إسهامات جزر **القوقلادس** les Cyclades و**نهارينا** و**فينيقيا**، غير مقروءة. وفى نهاية المطاف، وفى مؤخرة هذا الموكب الطويل، تأتى «*مستنقعات*» الأرض، ومن الواضح أن منطقة **نهر الفرات** هى المقصودة، فتقدم «*مختلف أنواع الأحجار الكريمة الحقيقية، المعبأة فى عدد كبير من الأكياس*».

وحتى إذا كانت الكميات المذكورة مبالغاً فيها، يظل واقع الحال يؤكد أن مناطق **إفريقيا** و**آسيا** فى مجملها، وقسماً من المناطق التى ستُعرف فى زمن لاحق تحت اسم **أوروبا**، تساهم لمختلف الأسباب فى ثروة **مصر** فى العصر الإمبراطورى.

هكذا، فتحت **مصر** أبوابها على مصاريعها للتجارة.

فبعد أن استعادت سيطرتها على موانئ **فينيقيا** احتلت مكان الصدارة فى حركة تجارة **البحر المتوسط**، إلى جانب التحكم فى النشاط الاقتصادى للطريق الممتد من **البحر المتوسط** إلى إمبراطورية **بابل**.

حتى الآن لم تكن **مصر** تمتلك سوى موانئ نهرية، ولا سيما **منف**. وفى ذلك الزمن فإن ميناءً بحريا جديداً، سيصبح محطة تتوقف عندها السفن الشراعية التى تمخر مياه **البحر المتوسط**، فكانت **فاروس** pharos فى غرب **الدلتا**، الميناء المختار لرسو السفن المتاجرة مع **مصر**. فالسفن القادمة من جزر **البحر الإيونى وبحر إيجه** تدفعها الرياح الموسمية التى تهب من الشمال طوال فصل الصيف. كما كانت **فاروس** ميناءً تتوقف عنده السفن القادمة من موانئ **فينيقيا** والمبحرة من **صور** أو **صيدا** أو المتجهة إلى موانئ **إفريقيا** ومنطقة **برقة** ثم مدينة **قرطاجنة**. كما كانت نقطة مراقبة فريدة فى بابها، فتسمح، فى آن واحد، برصد كل التحركات فى أعالى **البحر المتوسط** وساحل **الدلتا** وتخوم **ليبيا**.

لقد عُثر فى الشمال الغربى من جزيرة **فاروس**(*) وإلى الجنوب منها، على بقايا **منشآت** بحرية ضخمة، غارقة فى مياه البحر، ويعود أقدمها إلى عصر **تحوتمس** الثالث الذى يعتبر أول ملك مصرى يدرك برؤيته الثاقبة أبعاد الإمبراطورية، ولكن معظم هذه البقايا تعود إلى عهد **رمسيس** الثانى. ففى عام ١٩١٦ وبطلب من **خديو**(**) **مصر**، أرسلت **فرنسا** ضفادع بشرية مع المهندس **جونديه** Jondet للقيام

(*) فوق أرض هذه الجزيرة تقع حالياً قلعة **قايتباى** فى **الإسكندرية**. (المترجم)

(**) مع ملاحظة أن لقب **خديو** قد منحه السلطان العثمانى لحكام أسرة **محمد على** بداية من ١٨٦٧... وفى الوقت الذى فرضت فيه **بريطانيا** الحماية على **مصر** عام ١٩١٤، استبدل الإنجليز بلقب **خديو** لقب **سلطان**... ثم تغير عام ١٩٢٢ إلى **ملك**. جوان فوتشر كنج، معجم تاريخ مصر، ترجمة عنان على الشهاوى، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢، ص٣٩١. (المترجم)

بأعمال التنقيب فى أعماق البحر. ومن ثم تم الكشف عن رصيف طوله ٧٠٠ متر، يمتد داخل البحر، ويحميه حاجز لصد الأمواج، يبلغ طوله كيلومترين، وينتهى عند حوض لرسو السفن عند أرصفة عرضها أربعة عشر متراً، وتقع على امتداد أحواض مساحتها ستين هكتاراً(*)(٣٣).

ولن يفعل **الإسكندر الأكبر** سوى استعادة الموقع الذى سبق أن استخدمه **الرعامسة**، قبل حوالى ألف سنة.

كما يذهب البعض أحيانًا إلى أن علاقات **مصر** البحرية، إبان حكم **سيتى** الأول، قد توسعت لتصل إلى **البحر الأسود**، إذ عثر فى هذه المنطقة على تمثال صغير للإله **أمون** يعود تاريخه إلى عهد هذا الملك(٣٤). ولكن من المحتمل جدا أنه وصل إلى هناك فى رفقة قافلة من قوافل التجار. فالتبادل التجارى على أساس المقايضة كان على قدر كبير من النشاط، وكان عدد لا حصر له من القوافل ينقل مختلف الخيرات، من أبعد المناطق وأقصاها.

كما ازدهرت التجارة النهرية إلى حدٍّ كبير، فكانت السفن **الفينيقية** و**الآخائية**(**)، تشق مياه نهر **النيل**، متجهة جنوبًا، وصولاً إلى مدينة **طيبة**، حيث ارتبط التجار **الآخائيون** بأواصر الصداقة مع عائلات مصرية، وإن كانت هذه الروابط قد بدأت فى ظروف بعيدة عن صورة الرقة والوداعة والروعة الشائعة(٣٥). ومن المحتمل، أن سفنًا قادمة من **بحر إيجه** قد صعدت النهر حتى **السودان**، أسوة بما فعلته الآلهة الإغريقية التى كان يحلو لها أن تعرِّج على **الإثيوبين** - أى أصحاب الوجوه السوداء(٣٦). إن تجاراً من **بحر إيجه**، من أمثال هذا التاجر الذى عثر على منزله فى **تل العمارنة**، قد اتخذوا من **مصر** مستقرا لهم، ليحققوا النجاح والثراء من تجارة المصوغات والأدهان والعطور والسلع الترفية(٣٧). وتحول **النيل** إلى طريق عبور عظيم

(*) الهكتار الواحد يعادل ١٠٠٠٠ متر مربع أو فدانين وثلث الفدان تقريبًا. (المترجم)

(**) **الآخائيون** هم أقدم الشعوب الإغريقية. (المترجم)

الأهمية، فأصبح ممرًا لنقل السلع من **الهيليسپونتوس**(*) l'Hellespont إلى قلب **إفريقيا**. ومع البضائع تنتشر الأفكار والقصص والمسارد الخيالية. هكذا تُبودلت الأفكار وامتزجت، لتخلق تصنيفًا أسطوريا رحبًا، نهلت منه الحضارات المتعاقبة مختلف أساطيرها. إن البحارة وقادة القوافل وأفرادها، كانوا فى العصور القديمة بمثابة الباعة الجائلين للأفكار.

لقد شدت خيرات البلاد وثراؤها الرحالة فتوقفوا عندها. وبعد أن استولى **مينلاس**(**) Ménélas على **طروادة**، وصل إلى شاطئ **مصر**، ليبقى بها بعضا لوقت «*ليملأ خزائنه ذهبًا ومؤنًا، وهو يلتقى بهؤلاء الرجال الذين يتكلمون لغة غير لغته، مبحرًا على مقربة من سواحلهم*[٣٨]». وربما حصل آنذاك من أحد الأثرياء المصريين على عشرة **تالانات**(***) ذهب وحوضَىْ حمَّام من الفضة وركيزة ثلاثية القوائم من معدن الذهب[٣٩]. ويروى **أوليسيوس**(****) Ulysse أنه قضى سبع سنوات فى **مصر**، حيث جمع ثروة طائلة، ليرحل بعد ذلك متجهًا إلى **فينيقيا** ومعه شحنة كبيرة من البضائع يريد تصريفها[٤٠]. لقد ألقى أبطال الماضى السلاح، ليدخلوا مجال التجارة بحثًا عن الثروة.

كانت **مصر** أعظم أمة تجارية، فى ذلك الزمن، ففى مناخ يسوده السلام والازدهار يكتسب المرء «قلبًا شديد النعومة».

(*) الاسم الذى أطلقه القدماء على مضيق **الدردنيل** Dardanelles. (المترجم)

(**) ملك أسطورى على مدينة **أسبرطة** ومؤسسها. ورد ذكره فى ملحمة **الإلياذة** التى وضعها **هوميروس**. (المترجم)

(***) **التلان** وحدة وزن يونانية تعادل ٢٦ كيلو جرامًا. كما أنها قطعة نقد. (المترجم)

(****) من أبطال ملحمة **الأوديسا** التى وضعها **هوميروس**. (المترجم)

الأمر اللافت للانتباه آنذاك إلى أبعد حدٍّ، أن تداول الذهب الذى كانت **مصر** مركزه، قد ساد وانتشر على نطاق واسع. وبذل **سيتى** الأول و**رعمسيس** الثانى قصارى جهدهما لاستغلال مناطق الذهب فى **الصحراء النوبية والشرقية**. كانت الصعوبة كامنة فى أن الدروب المؤدية إلى هذه المناطق تفتقر تماماً إلى نقاط لتزويد المسافر بالماء، وترتب على ذلك أن معظم قوافل «*غاسلى الذهب*»، كان يستحيل عليها الوصول إليها، بالنظر إلى أن أفرادها يموتون عطشاً وهم فى الطريق.

وذهب **سيتى** الأول فى العام التاسع من حكمه، إلى الصحراء النوبية قرب **وادى مياه**، الواقع على مسافة ستين كيلومتراً شرق مدينة **الرديسية** الحالية، وعلى بعد مئة كيلومترٍ تقريباً جنوب درب **وادى حمامات** القديم، عند خط عرض شمال **إدفو**.

*فى ذلك اليوم كان **صاحب الجلالة** يقوم بجولة تفقدية فى الصحراء، على مقربة من الجبال* [فى أطراف جرف **الصحراء الشرقية**]*، عندما اشتاق قلبه أن يرى المناجم التى يُستخرج منها الذهب الخالص. وبعد أن صعد وتعرف على المجارى النابضة لعدد كبير من الأنهر، توقّف وهو فى الطريق ليتشاور مع قلبه. وقال **صاحب الجلالة**: «كم هو شاق السير فى هذا الطريق بدون ماء! فكيف يستطيع المسافرون أن يظلوا على قيد الحياة؟ سوف يهلكون حتماً، وقد جفّ حلقهم... إن الإنسان الظمآن تصعد منه الأنّات لذاته هو وحده فى هذا البلد المشئوم. فلأسرع إذن! سوف أستفسر بدايةً عن احتياجاتهم، ثم أشق من أجلهم نقطة ماء حتى تعود إليهم الحياة... وستأتى الأجيال لتمتدحنى، ليس فقط بسبب قوتى بطبيعة الحال، ولكن أيضاً بسبب رقة مشاعرى واهتمامى بمصير رواد الدروب».*

*وبعد أن تفوّه **صاحب الجلالة** فى قلبه بهذه الكلمات، ظل يجوب الصحراء بحثاً عن موقع يقيم فيه بئراً. انظروا إذن، إن الله مرشده، كى يساعده على الوصول إلى*

مُراده. عندئذ صدرت الأوامر إلى العمال قاطعى الأحجار بأن يحفرروا فى صخر الجبل بئرًا، سوف تعيد الحيوية والنشاط إلى المسافر المتعب فترطب قلبه المضطرم. وبعد الانتهاء من بناء المنشأة أطلق عليها هذا الاسم العظيم: «فلتكن عدالة ***رع*** *ثابتة» وفاضت فيها الماء، فكانت مياه غزيرة مثل مياه كهفى* ***إلفنتين****. عندئذ قال* ***صاحب الجلالة****: «انظروا، لقد استجاب* ***الإله*** *لأدعيتى، فمن أجلى نقل الماء إلى الجبال*[٤١]».

وبعد ذلك، «*وعملاً بالقصد الآتى إلى قلبه، كما أمر به* ***الله***»، أسس **سيتى** مدينة لاستقبال الباحثين عن الذهب،...

... بأن حفر فى الجبل معبدًا ليقيم فيه ***أمون*** *و* ***رع****. كما أن* ***بتاح*** سيستقر فى قصره و***حورس*** *و****إيزيس*** والملك ***سيتى*** *و****التاسوع الإلهى****، سيتخذون من هذا العبد مسكنًا لهم.*

وعند الانتهاء من تشييد هذا المعبد، جاء **سيتى** شخصيًا لافتتاحه، وألقى خطابًا بعد أن تعبَّد إلى «*آبائه الآلهة جمعاء*». ورداً على «*الراعى الصالح وعلى آبى البشر أجمعين وأمهم*»، يتحدث الباحثون عن الذهب، معلنين معًا فى صوت واحد كلمات الشكر:

أيا ***أمون****، أعطه الأبدية، ضاعف من أجله الزمن اللانهائى. أيتها الآلهة التى تقيم فى هذه البئر، امنحيه مدة حياتك، مثلما فتح من أجلنا الطريق الذى فى وسعنا أن نسير عليه الآن، فى حين كان مغلقًا فى السابق*[٤٢].

ولكن الذهب من الأشياء شديدة الإغراء. ولتجنب أعمال السرقة وضع **سيتى** المناجم فى حماية الآلهة التى ستتولى من جانبها إدانة اللص والحكم عليه. ويتحدث إلى العمال بأسلوب نصف جاد نصف مازح، قائلاً:

*الذهب هو لحم الآلهة. إنه لا يخصُكم. إياكم إذن أن تقولوا ما قاله **رع** عند بدء الكلام: إن بشرتى من ذهب إبريز وخالص! أما **أمون** رب معبدى، فإن عينيه على ممتلكاته. إنهما لا يريدان أن يُسلبا ما فى حوزتهما*(٤٣).

*أما كل من قد يدير وجهه عما أمر به **أوزيريس**، فسوف يلاحقه **أوزيريس**، وسوف تلاحق **إيزيس** زوجته وسوف يلاحق **حورس** أولاده... وسوف ينفذون حكمهم، كلٌ فيما يخصه*(٤٤).

كان التحريم قاسياً وصارماً. إن سرقة الآلهة من رابع المستحيلات.

وانتقل ذهب الصحراء قرب **الرديسية** ليزيد الخزانة المصرية ثراءً.

❖

ركز **رمسيس** الثانى اهتمامه على مناجم الذهب فى **وادى عكيتا**، فى منطقة **وادى العلاقى**، وكان المصريون يستخرجون منه هذا المعدن النفيس منذ عصور موغلة فى القدم؛ الأمر الذى لم يكن على الدوام محل ترحيب أبناء هذه المنطقة. ومن ثم فقد شيَّد المصريون قلعة **كوبان**، عند مدخل الدرب جهة نهر **النيل** وبداية **وادى العلاقى**. كان الهدف من هذه القلعة حماية هذه المنطقة المنتجة للذهب، وفى الوقت نفسه تخزين هذا المعدن النفيس. ولكن حدث بعد ذلك، بالنظر إلى ما كان يحيط هذه الرحلة من صعوبات ومشقة كالنقص فى التزود بالماء، أن تباطأ إلى حدٍّ كبير، نشاط هذا الموقع.

إن قصة **رعمسيس** الثانى مع مناجم الذهب يرويها لوح حجرى عثر عليه **بريس دافين** Prisse d'Avennes(*) عام ١٨٤٣، فى خرائب قلعة **كوبان**. وقد اقتناه **لويس دى سان فيريول** Louis de Saint-Ferriol ونقله من **مصر** إلى قصره فى **أورياج لى بان** Uriages-les-Bains فى **فرنسا**، لينتهى به المطاف بعد ذلك فى متحف مدينة **جرينوبل** Grenoble الفرنسية. وتدور الأحداث فى العام الثالث من عهد **رعمسيس**، فى اليوم الرابع من الشهر الأول من فصل الإنبات:

*كان صاحب الجلالة فى **منف** يقيم الذبائح الشعائرية من أجل آبائه، آلهة **مصر العليا ومصر السفلى**، التى كانت قد منحته النصر وزمن حياة مديدة لملايين السنين. وحدث ذات يوم، بينما كان **صاحب الجلالة** جالسًا على عرش من الذهب الخالص ومكللاً بالتاج ذى الريشتين العاليتين، أن تذكّر الأراضى الصحراوية التى يأتى منها الذهب. عندئذ شرع يضع خططًا لحفر الآبار على امتداد الدروب المفتقرة إلى الماء. وبالفعل، كان قد سمع أحاديث مفادها أن أعدادًا كبيرة من مناجم الذهب قائمة فى **صحراء عكيتا**، ولكن الدرب المؤدى إليها يفتقر كليًّة إلى الماء. وإذا كان عدد محدود فقط من أفراد القوافل من غاسلى الذهب يصل إلى هناك، فلأن الآخرين يموتون عطشًا وهم فى الطريق، وفى الوقت نفسه، كانت الحمير التى تتقدم القافلة تَنْفَق وسواء فى غدواتهم أم فى روحاتهم، لم يكن فى وسعهم أن يتزودوا بما يكفيهم من ماء فى قِرَبِهم. ولذلك، وبسبب نقص المياه، لم يعد أحد يجلب الذهب من هذه المنطقة.*

وتشاور **رعمسيس** مع الأمراء وكبراء البلاط الملكى. وتحدث نائب الملك فى **كوش** قائلاً:

(*) عالم مصريات فرنسى (١٨٠٧-١٨٧٩). (المترجم)

*هذا البلد محروم من الماء منذ زمن الإله، ويموت المرء فيه عطشًا. لقد أراد كل ملك أن يحفر بئرًا دون أن ينجح أحد منهم. إن الملك **من ماعت رع**(*) قد حفر (بئرًا) عمقها مئة وعشرون ذراعًا (**)، ولكنها صارت مهملة على الطريق فى الوقت الراهن، فلا يتدفق منها الماء. ولكن إذا وجهت كلامك أنت شخصيًا، إلى الإله **حعبى** أبى الآلهة، قائلاً: «مُر لتأتى المياه إلى هذا التل»، فسوف يتصرف طبقًا لما طلبته ووفقًا لمقاصدك التى ستتحقق فى وجودنا، حتى فى غياب أى خطاب(***)، لأن أباك الآلهة تحبك أكثر من أى ملك آخر جاء إلى الوجود منذ **رع**.*

أنصت **رعمسيس** واتخذ قراره على جناح السرعة، ووجه حديثه إلى الأمراء قائلاً:

*ما أصوب كل كلماتكم. ومن المؤسف أنه لم ينجح أحد فى انبثاق الماء فى الصحراء منذ زمن الإله كما أخبرتمونى. فسوف أكون أنا من يحفر هناك بئرًا سوف توفر الماء على مدار الأيام... وفقًا للأمر الذى سيصدره أبى **أمون رع**، رب عروش **القطرين والحورس** الثلاثة، أرباب **النوبة**، لأنها «تغسل القلب»(****) عن طريق الأمور المرغوبة.*

وعلى الفور، أرسلت حملة. وتبرَّم العمال المحليون بعض الشىء وتأفَّفوا، متعللين بأن البحث عن الماء يقتضى الذهاب «**إلى العالم الآخر**». وأخيراً، وبفضل ابتهالات **رعمسيس** الثانى تحقق النجاح، وكتب نائب الملك فى **كوش** يحيط الملك علماً

(*) **سيتى** الأول. (المؤلفة)

(**) الذراع الواحدة تعادل نصف متر تقريبًا. (المترجم)

(***) صلاة صامتة يرفعها **رعمسيس**. (المؤلفة)

(****) أى تدخل السرور. (المؤلفة)

بما يأتى: «[لقد انتهينا من حفر البئر]. *إن ماءً بارتفاع اثنتى عشرة ذراعًا، يتدفق منها، على عمق أربع أذرع*[٤٥]».

وسيأتى ذهب صحراء **كوبان** ليزيد أيضًا من ثراء خزائن **مصر**.

هكذا، فإن **مصر** بفضل إمبراطوريتها الشاسعة، وبفضل أيضًا الذكاء السياسى الذى تحلى به **الرعامسة** ورؤيتهم الثاقبة للمستقبل، تزخر بالخيرات وتفيض بها. وتشهد ملحمة **الإلياذة** على ذلك[٤٦].

هذا الازدهار سوف يوفر لجموع المصريين الأيام الهادئة التى كان يتطلع إليها كل مصرى، فهى أعز أمانيه. وسوف يحيا البلاط فى **پر-رعمسيس** فى رغد من العيش ونعومته. إن معابد الآلهة، وعلى رأسها معبد **أمون** الإله كافل الانتصارات، سوف تحصل على أملاك ومقتنيات دنيوية طائلة. وأخيرًا، سوف يسهر **الرعامسة** أيضًا على تحسين ظروف حياة جماهير الشعب، التزامًا منهم بالطريق الذى سبق أن رسمه **حور إم حب**.

بلاط الرعامسة وكبرى مدنهم

«الملكات»(*) الثلاث

كانت ثلاثًا فى الأساس: **منف**، العاصمة العتيقة للمملكة، وكانت تعبد **بتاح** منذ أقدم الأزمنة. ثم **طيبة**، عاصمة الإمبراطورية الاتحادية **للتحامسة** والمكان المقدس للإله العظيم **أمون**. وأخيرًا، **پر-رعمسيس**، عاصمة الإمبراطورية العظيمة الموحدة، فى عصر **الرعامسة**، وصاحبة مَجْمع الآلهة التى جاءت من مختلف الأوطان.

(*) المقصود بالملكة المدينة العاصمة. (المترجم)

إن **منف** وهى أقدم المدائن فى **مصر**، والتى أسسها **نعرمر** على ما يعتقد، ظلت محتفظة بالهيبة التى تضفيها عليها أصولها الموغلة فى القدم؛ فقد كانت فى نظر المصريين مدينة العصر الذهبى، المدينة التى يفترض أن الملوك الإلهيين قد اتخذوا منها مقاماً لهم، كما يرقدون فى أهراماتهم المشيدة على مقربة منها. ولكنها كانت أيضاً مدينة **حديثة**، أقام فيها **الرعامسة** فى أغلب الأحيان، وعملوا على تطويرها. كان ميناؤها واسع النشاط، وترسانتها ومصانعها مزدهرة. كانت مدينة حضرية تكثر فيها المبانى المترفة والمساكن الفاخرة، وتزخر بحدائقها الغنَّاء وڤيلاَّتها(*) villas. إنها مدينة مقدسة يرتفع فى وسطها معبد **پتاح**، وإلى الغرب من هذا المعبد أمر **رعمسيس** الثانى وابنه **خع إم واست** ببناء قصر فخم للاحتفالات اليوبيلية.

أما **طيبة** العظيمة الثرية المهيبة، فهى عاصمة روحية ذات تألق واسع الانتشار. **وطيبة** هى أيضاً المدينة التى حرَّر أمراؤها البلاد مرتين متتاليتين، من الغزوات التى اجتاحت التراب الوطنى وأعادوا النظام الملكى.

وعلى البر الشرقى تمتد المساحة المقدسة الشاسعة **للكرنك**، الذى سعى فراعنة مختلف العصور إلى الإكثار من الشواهد على ورعهم حيال **أمون**، وإلى الجنوب منه شَيد كل من **أمنحوتپ** الثالث **ورعمسيس** الثانى، على التوالى، معبد **الأقصر**. وفى **الأقصر** أيضاً أقيم القصر الملكى والمساكن الفخمة المحاطة بالحدائق. وعلى البر الغربى من النهر، نجد أن المنطقة المحصورة بين الأرض المنزرعة والجرف الصخرى **للصحراء الغربية** تشغل كبرى جبانات الملوك والملكات والأمراء الملكيين، وقد دفن جميعهم فى بطن الجبل ابتداءً من عصر **أمنحوتپ** الأول. كما أقيمت فى هذه المنطقة

(*) لفظ محدث، بناء واسع تحوطه مساحة خضراء، د.أحمد مختار عمر، المكنز الكبير، دار النشر سطور، ٢٠٠٠، ص٧٩٥. (المترجم)

«*قصور ملايين السنين*»، إنها المعابد الجنائزية التى تقام فيها يوميًا الشعائر الخاصة بالملوك، وفى المكان نفسه وُزِّعت مقابر كبار رجال الدولة. فهنا يلتقى جميع أفراد البلاط الإمبراطورى، فى جمود أبدى لموت لم يكن سوى حالة ظاهرية.

كانت **طيبة** مدينة مصرية، ولكنها جامعة أيضًا لمختلف الأوطان. فبستقبل ميناؤها السفن القادمة من بلدان قصيَّة، مثل **كريت** وجزر **بحر إيجه** و**اليونان**.

كانت مدينة مفعمة بالحيوية، سعى **الرعامسة** إلى تحويلها فى المقام الأول إلى مكان مقدس عظيم الشأن. إن ترنيمة تعود إلى عصر **رعمسيس** الثانى، نخصها بالشكر والحمد، على النحو الآتى:

*إنها ملكة المدائن، إنها الإلهية، عين **أتوم** وعين **رع**. إنها **طيبة** الأقوى من أى مدينة أخرى. لقد أعطت **البلد** لسيد واحد بفضل انتصاراته. وعندما تقبض على القوس وتُمسك بالسهم فما من أحد فى وسعه أن يحارب بجوارها، بسبب عظمة مقدرتها. إن جميع المدن الأخرى تُعلى من شأن اسمها، إنها قيِّمة عليها، وأقوى منها جميعًا...*

*و**طيبة** نموذج كل مدينة. كان الماء والأرض فيها عند بدء الأزمنة(٤٧). ثم حلَّت الرمال لتحيط بالحقول وخلقت التربة فوق التل الأولىّ، عندما جاءت الأرض إلى الوجود. وبعد ذلك وصل البشر ليتخذوا منها مستقرًا، وأسسوا كل مدينة وفقًا لاسمها الحقيقى. هكذا، فسائر المدن الأخرى خاضعة لسلطة **طيبة**، عين **رع**(٤٨).*

طيبة الشامخة المزهوة، يسعى كهنة إلهها الأقوياء إلى الإعلاء من شأنها.

ولكن المدينة التى أراد **رعمسيس** الثانى أن تكون المركز الجغرافى والسياسى لإمبراطوريته الشاسعة، كانت **پر-رعمسيس**. إنها مدينة بلا ماضٍ، كما تتجه بالكامل صوب المستقبل الإمبراطورى الجديد **لمصر**، كما تصوره ملوكها الصناديد.

إنها مدينة متنافرة وشديدة الثراء، تمتزج فيها الشعوب ومختلف الآلهة، وفيها يخالط أناس من كل اللغات ومن كل الأجناس بعضهم بعضاً. إنها مدينة القصور والمساكن الفخمة والحدائق والأعياد وأماكن الترفيه، ففى **پر-رعمسيس** كان يقيم أفراد البلاط والعائلة المالكة وكبراء رجال الملك.

القصور والڤيلات والحدائق

عمل **رعمسيس** الثانى جاهداً على تطوير قصر **رعمسيس** الأول و**سيتى** الأول الصيفى، وزاده ثراءً. كان فسيحاً ويضم عدداً كبيراً من الحجرات. ويمكن أن نلمّ بمجمل تخطيطه استناداً إلى تخطيط القصر الذى ألحقه **رعمسيس** الثانى بمعبده الجنائزىّ بالبر الغربى لمدينة **طيبة**، والمعروف اصطلاحاً **بالرامسيوم** Ramesseum.

كان القسم الأوسط يضم بهو أساطين، تحمل أساطينه اسم **رعمسيس** باللونين الأبيض والأزرق، اللذين يرمزان إلى الشمس والسماء، هكذا يمتزج العاهل الملكى بالوسط السماوى امتزاجاً كاملاً. وفى الجنوب هناك ممر عريض يفضى إلى قاعة العرش، كما أنها فى شكل بهو أساطين، ومخصصة أيضاً للاستقبالات. كانت جدران القاعتين المتعاقبتين باللون الأبيض، فى حين كانت الأرضية وهى من القراميد البرّاقة، تتألق برونق مختلف الألوان الأصفر والأسمر والأزرق والأحمر والأبيض. وإلى الجنوب من الحجرة الثانية كان العرش الملكى قائماً تحت مظلة، وهو من الذهب الخالص، وللوصول إليه يصعد المرء عدة درجات. وازدانت المظلة والدرجات بزخارف تصور رعايا أجانب فى وضع الخضوع. وعلى الدرجة الأخيرة كان المشهد يصور الأسد الملكى وهو يلتهم أحد الأعداء. وعلى قاعدة العرش هناك زخرف باللون الأزرق يصور نباتات المستنقعات. وإلى شمال بهو الأساطين الأوسط يوجد سلم صغير

يفضى إلى «*شرفة التجلى*»، التى تسمح فى بعض المناسبات بظهور الملك فى مجده، ليشاهده رجال البلاط وأفراد الشعب. وإلى الجنوب من قاعة العرش، يُشكِّل عدد من الحجرات المتعاقبة الأجنحةَ الخاصة وأجنحة العائلة المالكة. وفى هذا القسم من القصر كانت الزخارف أكثر حميمية وأكثر دفئًا. فعلى الجدران ذات الألوان الزاهية، صورت الطيور وحيوانات نهر **النيل** وجميلات الحريم.

وإلى الشمال من القصر كان الحى الراقى يمتد بمساكنه الفخمة. كانت الفيلات المحاطة بالحدائق بنايات على قدر كبير من الأهمية. وتتكون كل واحدة منها من قاعة استقبال ذات أساطين وحجرة معيشة، متجهة ناحية الشمال، بها أريكة وقاعدة مرتفعة لقدور الشرب وغسل الأيدى وموقد مركزى. وأخيراً، يصل المرء إلى الأجنحة الخاصة، من حجرات نوم وحمامات ببلاطة مستوية لأعمال التطهر، وقنوات تصريف ومراحيض فى مكان معزول، مزودة بمقاعد ثابتة أو متحركة. كانت الأرضيات تتكون فى الغالب من أجرٍ مسطح، مغطّى بزخارف نباتية ذات ألوان زاهية. ومن خلال حجرة المعيشة، كان فى وسع المرء أن يصل إلى السطح الذى يتجه، بطبيعة الحال، ناحية الشمال الذى يهب منه النسيم العليل المرطب للجو. وأحيانًا، وفى الفيلات الأكبر حجمًا، خُصِّص طابق علوى للأجنحة الخاصة. أما المطابخ ومساكن الخدم وحظائر الحيوانات فكانت تقع بعيداً عن المسكن بالمفهوم الحقيقى.

كانت الحدائق والتعريشات وأحواض الماء تحيط بالفيلا التى شُيد سور من حولها. وكانت النباتات المفرطة النمو متنوعة، لا سيما أن العاملين فى بساتين الملك نجحوا، منذ عهد **تحوتمس** الثالث، فى أقلمة بعض الأنواع السورية. إن حوضًا أو أكثر كانت تظلله الأشجار بمختلف أنواعها كنخيل الدوم وأشجار الجميز والسنط البرى والخروب والرمان والتين والصفصاف. وفى هذه الأحواض كانت تطفو أزهار اللوتس الزرقاء والبيضاء ويسبح فيها البط الأزرق والأسماك المتعددة الألوان. كانت هذه الأحواض من المفاخر التى تعتز بها كل حديقة مصرية. كانت مياه **النيل** تغذيها بعناية فائقة، بفضل شبكة من القنوات التى كانت تغطى ريف **مصر**. وكانت هذه

الأحواض أيضاً رمزاً للحياة والخصوبة فى بلد تحيط به الصحارى، كما أن بساتين الخُضر وحدائق الترويح عن النفس، حيث تنمو زهور الأُقحوان والمريو والجُلبان العَطِر واللُفّاح والورود الخطمية البرية والديدحان، إلى جانب بساتين الكروم المعرَّشة، كانت تشكل من حول هذه البيوت واحات من الطراوة والنضارة، بألوانها المتناسقة وجمالها المتناغم. ويُشيد الحكماء بدور الحديقة فى سعادة الإنسان. فيقول الكاتب **آنى**(*) فى تعاليمه:

أعدَّ لنفسك حديقة محاطة بالرياض، إلى جانب أراضٍ تفلحها. وازرع هناك أشجاراً تكون ملاذاً للأماكن المجاورة لدارك. واملأ نظراتك من جميع هذه الزهور بقدر ما تستطيع عيناك تأملها، فما ينبغى أن يُحرم المرء من أىٍّ منها. إنه لأمر مفرح ألا نتركها(٤٩).

العائلة المالكة

لا يمكن القول إن النساء كُن قليلات فى بلاط **پر – رعمسيس**. وسواء ارتَبَطْنَ بعلاقة القرابة أو المصاهرة إذ كُنَّ يُشكلن من حول **رعمسيس** الثانى كوكبة من الشابات الجميلات، فقد جئن إلى هناك عن حب أو بدافع سياسى أو قرابة الدم التى أولاها الفراعنة على الدوام اهتماماً كبيراً. كان **رعمسيس**، وهو فى زهرة شبابه قد تعرف على عالم ملذّات العشق والغرام، حيث إن والده **سيتى** الأول كما سبق أن رأينا(٥٠) قد أنشأ من أجله جناحاً للحريم، بينما كان لا يزال فى العاشرة من عمره!

إن المرأة التى أحاطها **رعمسيس** بكل مظاهر الاحترام والإكرام، كانت أمه الملكة **تويا** التى كانت لاتزال على قيد الحياة فى العام ٢١ من حكمه، فقد عُثر على

(*) من الأسرة الثامنة عشرة. (المترجم)

خطاب أرسلته **تويا** إلى بلاط الحيثيين، يعود تاريخه إلى هذا العام تحديداً. ولا شك أنها توفيت فى العام ٢٢ من حكم **رعمسيس**، بعد أن بلغت الستين من عمرها تقريباً. وكان الملك قد أعد لها مقبرة كبيرة وجميلة فى **وادى الملكات** أو **بيبان الحريم** كما يُطلق عليه البعض أحيانًا. وقبل ذلك لم تكن قد دفنت فى الجبل الغربى لمدينة **طيبة** سوى **سات رع**، زوجة **رعمسيس** الأول ووالدة **سيتى** الأول. إن تابوتًا من حجر الجرانيت الوردى كان يحتوى التابوتين النفيسين اللذين يضمان الجسد المحنط لوالدة الملك العظيم.

كانت **لرعمسيس** شقيقتان. الكبرى وهى **تيا** كانت «*منشدة **أمون***»، وارتبطت بعبادة هذا الإله فى **پر – رعمسيس**. وبعد زواجها، عيّن الملك زوجها «*مشرفًا عامًا على خزائن **الرامسيوم** وقطعانه*». أما الشقيقة الصغرى وهى **حنت مى رع** فقد تزوجها **رعمسيس** وجعلها «*زوجة ملكية عظيمة*».

أ – العرائس

وبالفعل، كانت المرة الأولى التى يتمتع فيها **الفرعون** بعدد من الزوجات *الرسميات*، يقال لهن «*الزوجات الملكيات العظيمات*». كن أربعًا بل وربما خمسًا: **نفرتارى**، المحبوبة. و**إيزيس–نوفرت**، والدة **مر إن پتاح**، خليفة **رعمسيس**. وأخته، **حنت مى رع**. و**ما أت حور نفرو رع**(*)، ابنة ملك **الخاتى**، ومن المحتمل أيضًا، أنه تزوج ابنته **بنت – عنات** التى أنجبتها **إيزيس – نوفرت**. أكانت إباحية مشينة كما يُقال أحيانًا؟ لا، لقد كان **رعمسيس** إلهًا، وما كان يبدو سلوكًا طبيعيًا فى نظر ملك **إلهى** لم

(*) أى: «*تلك التى ترى **حورس*** (أى الملك) *تجسيدًا* (للإله) **رع**».
(المترجم) Ch. Leblanc. Nefertari. Ed. du Rocher, 1999. p.269.

يكن مسموحًا به فى الحياة العائلية للبشر، فبالنسبة لهم كان ما يعرف اصطلاحًا(*) بالأخلاق تحدده قواعد شديدة الصرامة.

أما جميلات الحريم والمحظيات، وكنّ بأعداد كبيرة، فقد أتيْن من **مصر** ومن مختلف بلدان الإمبراطورية.

إن **نفرتارى** التى ظل **رعمسيس** يكنُّ لها على الدوام عظيم المودة، وبقيت الزوجة الرئيسية حتى وفاتها، كانت أيضًا ملكة منذ العام الأول من حكمه. لم تكن تنتسب إلى أصول ملكية، بل كانت «*سيدة نبيلة*» شريفة النسب، تعود أصولها على ما يعتقد إلى **طيبة**. وتُدعى فى الغالب «محبوبة **مُوت**». هل كان هذا اللقب مرتبطًا بمدينة **طيبة** حيث كانت **مُوت** زوجة **آمون**؟ أو كانت هذه الصفة مجرد مقابل مطلوب للقب «محبوب ***آمون***» الذى كان ينعت به زوجها؟ وبالفعل فمنذ العام الأول نجد أنها ترافق **رعمسيس** الثانى إلى **طيبة** لحضور مراسم تشييع جنازة **سيتى** الأول، كما حضرت تنصيب **نب ونَنف**، كبير كهنة **آمون**. وفى العام الثالث تصورها نقوش الصرح الجديد فى معبد **الأقصر**، القائم أمام المبانى السابقة التى شيدها **أمنحوتب** الثالث، تصورها ممشوقة القوام بجوار العاهل الملكى. كما أنها بجواره فى التماثيل الجماعية المنحوتة فى حجر الجرانيت والقائمة فى الفناء الأول من المعبد. وفى **وادى الملكات** شرع **رعمسيس** يجهز من أجلها أجمل مقابر هذا الموقع. إن الرسوم بألوانها المرهفة، تُكثر من الصور الرقيقة للملكة المحبوبة بقدِّها الفارع وتُخلدها. إنها ترتدى ثيابًا من الكتان الرقيق الناعم الشفاف، ذات الثنايا الرائعة المتنوعة، وتزدان بحليٍّ نفيسة، ما زالت ألوانها الزاهية متموِّجة. إن الملكة التى تصاحبها الآلهة تُكثر من الشعائر التى

(*) من وجهة نظر الحضارة الغربية، ويمكن القول إن فراعنة **مصر** قد سبقوا بعشرات القرون وطبقوا ما سيقوله فيما بعد الفيلسوف الألمانى **نيتشه** Nietzche (١٨٤٤-١٩٠٠): **لا توجد ظواهر أخلاقية ولكن توجد ظواهر تُؤوَّل تأويلاً أخلاقيا** Par delà le Bien et Mal: الفقرة ١٠٨.(المترجم)

ستجعلها خالدة خلوداً أبدياً. كما كرّس لها **رعمسيس**، هى والإلهة **حتحور**، المعبد الصغير الذى أمر بحفره فى صخر جبل **أبو سمبل بالنوبة**، بجوار المعبد الكبير المكرس لشخصه وللإله **أمون - رع**: «*لقد صَنع هذا المعبد - المحفور فى الجبل، إنه عمل يدوم إلى الأبد - من أجل الزوجة العظيمة **نفرتارى**، محبوبة **موت**، للزمن الأبدى واللانهائى،* (من أجل) ***نفرتارى**، فالشمس تتألق حبًا فيها*». هكذا أراد **رعمسيس** تخليد حبه لها.

من المحتمل، أنها توفيت فى العام ٢٤ من حكمه، وعلى كل حال، أثناء أعمال زخرفة المعبد الصغير فى **أبوسمبل**، أى فيما بين العامين ٢٤ و٣٤.

هل قامت بدور سياسى؟ لا نستبعد ذلك.

إن بعض الألقاب التى مُنحت لها تحملنا على تأكيد ذلك. إنها ألقاب **الفرعون**، ولكن فى صيغة «*المؤنث*»، فهى «*سيدة القطرين*» و«*القائمة على **مصر العليا** و**مصر السفلى***» و«*سيدة الأراضى قاطبة*» و«*تلك التى تُرضى الآلهة*». وتأسيساً على واقع أنها كانت فى أغلب الأوقات تصاحب العاهل الملكى فى الاحتفالات الرسمية، يؤكد على الدور المهم الذى كانت تقوم به.

ومن جانب آخر، فإن عدداً من المدونات - ولاسيما تلك التى نُحتت على جدران مقبرتها - تشرك الملكة مشاركة مباشرة فى الدورة الأبدية الشمسية والأوزيرية، من خلال محاكاة مصائر الملك، اعتماداً على عملية خلط مقصودة بكل تأكيد. هكذا، فعلى الجدارين الشمالى والغربى من الحجرة الخارجية لمقبرتها نقرأ النص الآتى:

*كلمات قالها **أوزيريس - ونن نفر**(*) - المتسيِّد على **الغرب**، رب **الأرض***

(*) صفة من صفات **أوزيريس** ومعناها «*ذاك الذى يبقى كاملاً*». إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص٢١٩. (المترجم)

المقدسة، الإله العظيم، ملك الأحياء، رب أرض الصمت: «إنى قادم نحو ابنتى المحبوبة، سيدة الأرضين، والزوجة الملكية العظيمة، نفرتارى - محبوبة - موت، ليتها تحيا! إنى أمنحها أفضل مقر إقامة فى بلد الصمت، بينما تتجلى فى السماء على غرار أبيها رع، وتصل إلى مكانها داخل الأرض المقدسة. إن قلبها سعيد فى مكان الحقيقة، بعد أن التحقت بالتاسوع العظيم[٥١]».

أما النص المدون على **شاوبتى** من الحجر الصابونى(*) stéatite الأسود، ومن مقتنيات **متحف القاهرة**، حالياً، فإنه يقول بشكل أكثر إيجازاً:

إن أوزيريس يُنير الزوجة الملكية العظيمة التى يحبها، (ينير) نفرتارى - محبوبة - موت[٥٢].

كما يدل هذا النص على التلفيقية الدينية السائدة فى هذا العصر: فالتألق المشع وهو من أهم أنشطة **رع**، يمكن أن يكون أيضاً من أنشطة **أوزيريس**.

وفضلاً عن ذلك، ففى سياق خطاب **أنوبيس** الذى صُوِّر فى هيئة ابن آوى الأسود الجنائزى، راقداً فوق مقصورته، تظهر **نفرتارى** وهى تؤدى الأنشطة التقليدية للملك المتوفى وقد بعث حياً:

تعالى إلىّ. سوف أعطيكِ مكاناً فى الأرض المقدسة. سوف تشرقين، ممجدةً، فى السماء مثل أبيك رع، بعد أن تحصلى على زينة الرأس(**) وتلحق بكِ والدتكِ

(*) أو **الإستياتيت** لهذا الحجر ملمس زلق أو صابونى. (المترجم)

(**) التيجان. (المؤلفة)

إيزيس ومعها نفتيس. إنهما تشكلان جمالك مثل جمال أبيك رع. هكذا ستظهرين متألقة فى السماء، وفقًا لهيئته. سوف تُضاء الجبانة بأشعتك، فى حين نجد أن التاسوع الإلهى الكبير القائم فى الأرض المقدسة يخصص لها مكانًا. إن والدتك نوت سوف تجزل لكِ المديح كما فعلته من أجل حور أختى. إن أرواح په وأرواح نخن سوف تقيم من أجلك شعيرة التهليل والاغتباط، على غرار أبيكِ المتسيِّد على الغرب. كما سيؤمِّن التاسوع الإلهى الكبير حماية جسدك. تعالى إلى والدتك إيزيس، وسوف تستريحين على عرش أوزيريس، بينما تستقبلك آلهة الأرض المقدسة. إن قلبك سيظل سعيدًا أمام الأبدية، أيتها الزوجة الملكية العظيمة، يا سيدة القطرين المتسيِّدة على البلدان كافة، أيا نفرتارى - محبوبة - مُوت[٥٣].

سوف تمتزج الجميلة بالشمس وتجلس على عرش **أوزيريس**، شأنها شأن **فرعون**. إن اندماج الملكة فى **رع** طبقًا لمختلف المقومات فكرة ثابتة ففى المدونة المنحوتة على غطاء تابوتها الحجرى، وهو من مقتنيات متحف **تورينو** فى **إيطاليا**، يُقال أيضًا(*):

... إن رع ذاته يجعلنى طاهرة، بينما تقف هناك والدتى نوت فرحة وأنا سائرة فى طريق الأفقين[٥٤].

وهناك صور أخرى محورة ستتخذها **نفرتارى** بعد وفاتها، ففى وسعها أن تصبح «نجومًا *لا تفنى*» متألقة فى السماء. ولكن يبدو أننا نتعامل هنا مع مصير عادى لا غرابة فيه، بالنظر إلى أنه المصير المطلوب من أجل **إيزيس - نوفرت**، فيُقال:

(*) مع ملاحظة أن الملكة هى التى تتحدث. (المؤلفة)

*ليتها تحيا بصفتها **سوتيس**(*). ليتها ترتفع فى اتجاه السماء وسط الأجرام!*
*ليتها تسهر أمام **خيرى**! نجمًا أوحد متفردًا، بجوار فخذى **نوت**(٥٥).*

هل كانت **نفرتارى** تتمتع بذكاء سياسى ثاقب؟ هل عُرفت برجاحة رأيها فى شئون الإمبراطورية؟ أو أنها كان على الأرجح مجرد حوار غرامى غريب، وصل إلينا بعد آلاف السنين؟ إن التوازى الواضح بين الصفات وبعض الأفعال الرسمية والمصائر الأبدية، لكل من **رعمسيس** وزوجته الأثيرة، يبدو أنه كان أمرًا مرغوبًا ومطلوبًا، ربما. للوصول إلى أعلى درجات الخلود، لاقترانٍ يريد أن يكون اتحادًا شاملاً وكاملاً. كانت **نفرتارى** ملكة محبوبة إلى أقصى حدٍّ. فأراد زوجها الملكى أن يمنحها، وهى على قيد الحياة وبعد مماتها، كبرى الامتيازات التى كانت حتى الآن مقصورة على الملوك.

كان مقدراً للفرعون **رعمسيس** أن يتزوج إحدى بناته التى أنجبتها **نفرتارى**، وهى الأميرة **مريت - أمون**، أى: «*محبوبة **أمون***». غير أن **رعمسيس** قد تزوج فى الحقيقة ثلاثًا من بناته على الأقل، ورزق منهن أولادًا. فكان فى ذات الوقت أباهم وجدَّهم. إن إلهًا فقط كان فى وسعه أن يسلك هذا المسلك!

عند وفاة **نفرتارى** أصبحت **إيزيس - نوفرت** الملكة الرئيسية إلى جانب **حنت مى رع**، أخت الملك التى لم تقم على ما يبدو سوى بدور مغمور.

أما **بنت - عنات** فهى شخصية فريدة، تشدُّ اهتمامنا شدًا. كانت ابنة **إيزيس - نوفرت** و**رعمسيس** الذى تزوجها. إن اسمها فى اللغة الكنعانية يعنى «*خادمة **عنات***» - أو **عشتروت**. إنه دليل آخر على أن الديانة المصرية كما تصورها **رعمسيس**، كانت

(*) أو **سيريوس**. (المؤلفة)

تنهل من جميع الأوطان. لقد احتلت فى البلاط الملكى مكانة مرموقة، إذ يبدو أنها كانت «*الزوجة الملكية العظيمة*»، فى آن واحد، إلى جانب والدتها. فعلى لوح صخرى عُثر عليه فى **أسوان**، ويعود إلى العام ٢٤ أو العام ٣٠ من حكم **رعمسيس**، صُوِّرت **إيزيس – نوفرت** ومعها **بنت عنات**، وهما تحملان هذا اللقب. وفى وقت لاحق، وبعد انقضاء عدة سنوات، وعلى لوح صخرى أيضًا فى محاجر **جبل السلسلة**، صُوِّرت «**الملكتان**» إلى جانب **رعمسيس** الثانى[٥٦] إبان الاحتفال بثانى أعياد اليوبيل.

وحول العام ٣٤ من الحكم يبدو من الواضح أن **إيزيس – نوفرت** كانت قد توفيت، لتنتقل بدورها إلى «*بيت الأبدية*»، فى **وادى الملكات**. عندئذ، سوف يؤول الدور الرئيسى إلى الابنتين – الزوجتين: **مريت آمون وبنت عنات**، وربما رأى **رعمسيس** فى هذا السلوك أسلوبًا يظل به وفيًا للعاطفة الودودة التى كانت تربطه بوالدتيهما!

ب – الحريم والمحظيات

إن جناحًا للحريم على قدر كبير من الأهمية، كان تابعًا أيضًا للملك، ويضم محظيات مصريات أو بنات أمراء أجانب. وإذا كانت الزوجات الرسميات يقمن فى **پر – رعمسيس**، بالإضافة على ما يظن إلى بعض المحظيات البارزات أو المحظوظات، فإن جناحًا كبيرًا للحريم كان قائمًا فى **مى ور** عند مدخل **الفيوم**. كان أشبه بمكان معزول ملائم ومريح وبعيد إلى حدٍ ما عن العاصمة، وربما كان **رعمسيس** يهدف بلا شك، إلى عدم الخلط بين شئون الدولة وحياته الغرامية. كما كانت ترسل إليه المحظيات اللواتى فقدن القدرة على الإبهار، بعد أن تقدَّمت بهن السن على سبيل المثال، أو لأى سبب آخر. والأقرب إلى الصواب أنه وقع الاختيار على هذا الموقع، لأنه كان فى وسع المرء أن يمارس فى هذه الواحة الخصبة رياضاته المحببة كالقنص أو صيد الأسماك. وباختصار فإن جميع المتع والملذات وُجدت مجتمعة فى هذا المكان للترويح عن نفس عاهل ملكى قوى. لقد كانت **مى ور** مكانًا يستريح فيه المحارب.

كان يدير جناح الحريم هذا «*مشرف على الحريم*»، موفد من قبل فرعون، يراقبه هو شخصيًا، كانت هذه المؤسسة الملكية الحقيقية تمتلك أراضى وقطعان ماشية وتحتاج إلى خدمات عدد كبير من الكتبة والموظفين والعمال.

والفتيات اللواتى تجمّعن هناك لم يعشن حياة كسل بلا عمل، فى انتظار زيارة سيدهن العاهل الملكى. بل كن يُزاولن الغزل والنسج، ويشرفن أيضًا على الأعمال المنزلية. ومن الصعب تقدير أعدادهن، ولكن يعتقد أنها كانت كبيرة. فالإمبراطورية شاسعة والملوك والأمراء يتطلعون إلى نَيْل رضى الفرعون القوى، وكانت فتاة جميلة تعتبر هدية تقدَّر حق التقدير. ولن يجد المرء صعوبة فى تصور الجو الذى كان سائدًا فى **مى ور**: إنها جماعة مؤلفة من مختلف الأجناس، ثرثارة ومنهمكة فى أعمالها، تتنازعها الدسائس والغيرة والحسد. ولكن لم تصلنا سوى شواهد محدودة على الحياة الخاصة فى الحريم الملكى.

ج – ***ذرية كثيرة العدد***

رزق **رعمسيس** بطبيعة الحال بعدد كبير من الأولاد(*). وهنا، فإن عالم المصريات الذى يحاول النفاذ إلى أعماق هذا الماضى السحيق، يجد نفسه يتصدى لمهمة شاقة وعويصة. إن «سجلات» المواليد الوحيدة التى بين أيدينا تضم نقوش المعابد وألواح المقابر الحجرية ورسوماتها. إن قوائم الأمراء الملكيين الرئيسيين تحديدًا قد نقشت فى معابد **مصر** و**النوبة**، وتوفر لنا، على الأقل، ترتيب ولادتهم، ولكنها ليست كاملة مطلقًا. إن أسماء ثلاثين أميرًا فقط مذكورة فى معبد **وادى السبوع**، وتسعة وعشرين فى **أبيدوس**، وثلاثة وعشرين فى **الرامسيوم**، وثمانية عشر فى معبد **الأقصر**، وثمانية فى **أبوسمبل** و**الدر**، وخمسة فى **تانيس**. وانشغل علماء المصريات فى العصر الحديث بهذه القضية، واستطاعوا رغم ما واجهوه من مصاعب، أن يضعوا قوائم.

(*) يلاحظ أن هذا اللفظ يطلق على الذكر والأنثى. المعجم الوسيط والمعجم العربى الأساسى.(المترجم)

إجمالية لهذه الذرية كثيرة العدد، ودارت مناقشات بين العلماء، واتفقوا أخيراً على إعداد حصر رسمي بهؤلاء الأولاد، فكانوا خمسين ابنًا وثلاثًا وخمسين بنتًا، ولا يشمل هذا العدد سوى الذين صوروا على المعالم الأثرية. أما بالنسبة للباقين، فالأمر متروك لشرود الخيال.

لقد أنجبت **نفرتارى** للملك أربعة أبناء وبنتين. وصُور هؤلاء الأولاد الستة على الواجهة الخارجية لمعبد **أبوسمبل** الصغير، واقفين على جانبى المدخل، بين تماثيل الملك والملكة، وباختصار فإنها لوحة عائلية.

ويبدو أن أبناء **نفرتارى** قد وافتهم المنية جميعًا وهم فى زهرة شبابهم. وفى حدود علمنا، على كل حال، فلا يبدو أن أيًا منهم قد قام بدور يذكر، ربما إذا استثنينا الابن البكر المدعو **أمون حرخپشف** ومعناه «*أمون على ساعده*»، وكان يلقَّب:

ابن الملك البكر، المولود من صلبه، الابن الملكى الأول، المولود من صلبه.

وبالفعل فقد ورد اسمه على الدوام على رأس قوائم الأمراء. وإذا تغير اسمه، كما يمكن أن يُفترض، إلى **ست حرخپشف** ومعناه: «*ست على ساعده*»، فمن المؤكد أن استبدال اسم **ست** باسم **أمون**(*) قد حدث أيضًا بكل تأكيد بالنسبة لاسم الابن السابع للملك **رعمسيس**، نقصد الأمير **ست إم ويا**(**)، ومن ثم يمكن القول إن هذا الأمير البكر كان لايزال على قيد الحياة فى العام ٢١ من سنوات الحكم. وبالفعل، فقد عُثر فى **بوغاز - كوى**، على خطاب وجهه إلى ملك **الحيثيين**. وربما كان لا يزال على قيد الحياة فى العام ٥٢ من حكم **رعمسيس**. إن **أوستراكون**، من مقتنيات متحف

(*) مع تجنب الخطأ الشائع، فالباء تدخل على المتروك. راجع على سبيل المثال: الآية رقم ٦١ من سورة البقرة، والمعجم الوسيط والمعجم العربى الأساسى. (المترجم)

(**) أى: «*ست فى قاربـ(ـه)*». (المترجم)

اللوفر، فى الوقت الراهن، يذكر الأمير **ست حرخپشف**، حاملاً لقب **ريعت** الذى كان يطلق، على ما يعتقد، على المشارك فى الحكم. فمن المحتمل أيضًا، أنه كان ينظر إليه باعتباره وريث العرش (؟). ولكن يبدو أنه لم يحتل مكانة بارزة فى الحياة السياسية، وإن لم يصلنا، على كل حال، أى دليل قاطع فى هذا الشأن.

وفى المقابل، فإن اثنين من أبناء **إيزيس – نوفرت** الثلاثة كان ينتظرهما مصير عظيم.

إن ابنها البكر، ويُدعى **رعمسيس**، لم يترك هو أيضًا دليلاً على وجوده. ولكن على واجهات مقصورة منحوتة فى الصخر فى **جبل السلسلة**، صُوِّر **رعمسيس** الثانى **وإيزيس – نوفرت** وبجوارهما ابنهما الثانى **خع إم واست** وبنت – **عنات**، أمام إلهى **منف: پتاح ونفرتوم**. إن المدونة التى تعود على ما يعتقد إلى العام ٣٦ من عهد الملك تذكر الآتى:

*أخوه(*) البكر، **الريعت**، الكاتب الملكى، القائد العام و**الابن البكر** للملك **رعمسيس**.*

ومعنى ذلك كما يقال أن **ست حرخپشف** كان قد تُوفِّى إذن، الأمر الذى يناقض الشواهد السابقة. ولا شك أنه ينبغى النظر إلى عبارة «**الابن البكر**» باعتبارها تخص، فى هذه الحالة، ذرية **إيزيس – نوفرت**، على وجه التحديد. أما لقب **ريعت**، الذى ينعت به الأمير **رعمسيس**، فإننا نلتقى به فى مدونة تُذيِّل مشهدًا مماثلاً فى **أسوان**، يعود تاريخها إلى العام ٣٩ من سنوات الحكم. الأمر الذى قد يبرهن على أن هذا اللقب لا يطلق دائمًا على المشارك فى الحكم مشاركة رسمية، كما تحاول إثباته نظرية حديثة. ولكنه يشير إلى ابن بارز ورفيع المقام، وإن لُقِّب به المشارك فى الحكم أيضًا، فى بعض الأحوال.

(*) يشير الضمير هنا إلى **خع إم واست**. (المؤلفة)

ويظل من الممكن مع ذلك، أن الابنين البكرين لكل من **نفرتارى** و**إيزيس - نوفرت** كانا يعتبران فى بادئ الأمر، وريثىْ العرش. ولكن يبدو أن **رعمسيس** الثانى قد عدَّل هذا الاختيار الأول، المتفق مع ترتيب الميلاد.

وبالفعل، فإن الدور الذى قام به الابن الرابع، وفقًا لقوائم الأمراء، أكثر وضوحًا، على الأقل بالنسبة لنا. كان اسمه **خع إم واست** أى: «*ذاك الذى يشرق متألقًا فى **طيبة***(*)» واحتل مكانًا مرموقًا إلى جانب أبيه الذى كان يسعى بكل وضوح إلى اختياره خليفة له.

كان الابن الثانى للملكة **إيزيس - نوفرت**، وقد وُلد بلا شك فى فترة مشاركة **رعمسيس** فى الحكم. وكما سبق أن رأينا[٥٧]، فقد شارك عندما كان فى الرابعة فقط من عمره، فى حملة **النوبة** التى قادها أبوه. وفى سن العشرين، عُيِّن كاهن **سم**(**) للإله **پتاح**[٥٨]. كان مقربًا إلى **رعمسيس** الثانى، فاستنادًا إلى مدونة فى معبد **بيت الوالى**، فهو...

*...الابن الملكى، الذى من صلبه، محبوبه، والنطفة الإلهية الصادرة عن الثور القوى، إنه **خع إم واست***[٥٩].

ومن سياق النص المنحوت على لوح حجرى حامل ناووس(***) stèle nao-phore عثر عليه فى **السيراپيوم**[٦٠] Seapeum، ينظر إليه باعتباره:

(*) على اعتبار أن **واست** هو الاسم المصرى القديم لمدينة **طيبة**. (المترجم)

(**) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

(***) naophore (من اليونانية، أى: «*حامل ناووس*»). طراز من التماثيل يُصور بوجه عام، رجلاً راكعًا يحمل أمامه ناووسًا يظلل تمثالاً أو شارة إلهية. تأكد وجوده فى المعابد اعتبارًا من الأسرة الثامنة عشرة. وفيما بعد سوف يُصور الرجل واقفًا أو جالسًا.

l'Egypte. Édité par Regine Schulz et Mattias Seidel, Könemann, Traduction de l'allemand, p.517. (المترجم)

الربعت، القائم على رأس **القطرين**، هذا الذى يحل محل **جب**(٦١).

وعلى تمثال فى متحف **فيينا**، ينظر إلى الأمير باعتباره: صورة ***حورس***(٦٢). إن هذه الألقاب تجعل منه الخليفة المختار للفرعون **رعمسيس** الثانى.

وسوف يتولى هو شخصيا، تنظيم احتفالات اليوبيل الملكية الأولى، من العام ٣٠ وحتى العام ٤٢. وبهذه المناسبة، نشاهد **رعمسيس وخع إم واست** معًا، فى المقاصير الصخرية فى **أسوان وجبل السلسلة**، وهما يقدمان القرابين للآلهة.

كانت أدواره متعددة وأهميته مؤكدة. وقد وقع اختيار الملك عليه ليصبح كبير كهنة **پتاح** فى **منف**، وبصفته هذه، اسندت إليه مسئولية حراسة مقبرة العجول **أبيس**(*). إن مدونة تكريسية مسهبة تُشيد بمواهبه وبالأعمال التى أنجزها فى عاصمة **مصر** القديمة:

*يتحدث الكاهن سم، الابن الملكى **خع إم واست** قائلاً:*

*«أنا(**) وريث صنديد، وحام يقظ، وحكيم بارع فى أعماله، لقد كان محبوبًا وتم اختياره منذ أن كان(***) طفلاً. والذى نشّأه (العجل) **أبيس** الحىُّ فى حضرة **پتاح**، والذى تمت الإشارة به فى وظيفته (باعتباره) **يون موتف**(****)(٦٣)، بينما كان شابا فطنًا ...»*

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم: **حپ**. (المترجم)

(**) فى صيغة المتكلم. (المترجم)

(***) هكذا فى صيغة الغائب. (المترجم)

(****) راجع الهامش فى أخر الكتاب. (المترجم)

*كما يتحدث الكاهن **سم**، الابن الملكى، **خع إن واست**، قائلاً:*

*«أيها الكهنة **سم** وكبار كهنة **منف**، يا كبار أعيان معبد **بتاح**. أيها الآباء الإلهيين والكهنة الأطهار، يا رؤساء المعابد وخُدَّام الإله والكهنة المرتلين... يا جميع الكتبة العارفين بالإله العظيم... (أنتم جميعًا) الذين ستقفون فى حضرة الإله عندما ستدخلون المعبد الذى كنت أعمل فيه من أجل **أبيس** الحىِّ، عندئذ سوف تنظرون مليًا إلى ما صنعته من أجله والمنحوت على الجدار الحجرى، بصفته شيئًا مباركًا وعظيمًا، فريدًا فى بابه، لا مثيل له، لقد دُوِّن كتابةً، تدوينًا ثابتًا فى قاعة الأعياد الكبرى؛ فى مواجهة هذا المعبد، من أجل الآلهة القائمة فيه... لقد صنعت تمثالاً من ذهب ومن كل أنواع الأحجار الكريمة. لقد عيَّنت له قربانًا إلهيا يوميا، إبَّان أعياد السماء وإبَّان أيام مطلع العام، على مدار السنين، بالإضافة إلى القرابين المقدمة له فى المعتاد. لقد خَصَّصتُ له كهنة أطهارًا وكهنة مرتِّلين... لقد أعددت له أمام معبده، مقرًا عظيمًا من الحجر يستريح فيه أثناء النهار، بعد أن يكون قد اتحد بالأرض. وبجوار هذا المقر العظيم أقمت من أجله مائدة قرابين كبيرة، من الحجر الجيرى الجميل الوارد من **طرة**، نُحتت عليها قرابين إلهية وكل ما هو جميل وكل الأشياء الطيبة... سوف يصبح كل ذلك مباركًا لكم، جالبًا للخير، وسوف تنظرون إلى ما صُنع من قبل باعتباره عملاً متواضعًا (٦٤)».*

يبدو إذن أن نشاط الأمير فى **منف**، كان على قدر كبير من الأهمية.

وبينما كان عالم المصريات الفرنسى **أوجست ماريت** Auguste Mariette يُنقِّب فى **السرابيوم** عثر على **مخربشة** مدونة على جدار إحدى الحجرات الجنائزية للعجل **أبيس**، توضح تاريخًا هو العام ٥٥، الذى حدده بحكم **رعمسيس** الثانى(٦٥). كان يوجد تابوت حجرى فى هذه الحجرة، وبداخله عثر على جسد آدمى. واستنتج **ماريت**، أنه جسد **خع إم واست**، المتوفى بالفعل فى العام ٥٥. ولكن العالم الفرنسى كان متسرعًا فى استنتاجه. فمن غير المحتمل أن يدفن أمير فى **السرابيوم**، وإن كان **خع إم واست**،

المرتبط بصفته الكاهن **سم**، ارتباطًا لصيقًا بدفنات العجل **أپيس**. ومنذ ذلك الحين، وجدت هذه المسألة حلاً لها، عندما تم الكشف فى **كفر البطران** بجوار هرم **خوفو** الكبير على مقبرة تعود إلى هذا الأمير(٦٦). ومع ذلك، فمن غير المستبعد أن تكون مقصورة جنائزية قد كُرست له فى جبانة العجول المقدسة. فعلى باب وهمى من حجر الجرانيت، عثر عليه فى الموقع، يمكن للمرء أن يقرأ الأدعية الجنائزية التالية، فى شكل مردًات:

* على اليمين: *فليحىَ الكاهن* ***سم***، *الابن الملكى* ***خع إم واست***، *كما تحيا النجوم فى جسد* ***نوت***، *فليته يشاهد* ***حتحور***، *سيدة السماء.*

* على اليسار: *فليحىَ الكاهن* ***سم***، *الابن الملكى* ***خع إم واست***، *كما تحيا فى* ***نوت***، *السماء المرصعة بالنجوم*(٦٧).

هكذا وُعد الأمير بمصير نجمى، شأنه شأن والدته **إيزيس - نوفرت** والشخصيات الفائقة التميز فى الحاشية الملكية.

إذا كانت مقبرة **خع إم واست** قد تم الكشف عنها قرب الهرم الكبير، فلأن أنشطته فى **منف**، كانت بكل تأكيد، على قدر كبير من الأهمية، ولأنه كان بالإضافة إلى ذلك. بصفته مؤرخًا محنكًا ملمًا بعظمة بلاده وسؤددها، فقد أحاط الآثار القديمة بكل اهتمامه وعنايته. وتنفيذًا للأوامر الصادرة عن أبيه فقد أخذ على عاتقه ترميم النصوص المدونة فى أهرامات ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة. لذلك نجد أن هرم **أوناس**، وهو آخر ملوك الأسرة الخامسة، يحتفظ بقائمة ألقاب **رعمسيس** الثانى، فوق النص الآتى(*):

أمر ***صاحب الجلالة*** *بأن يُكلف، كبير كهنة* ***پتاح***، *الكاهن* ***سم***، *الابن الملكى* ***خع إم واست***، *بأن يعيد اسم* ***أوناس*** *ملك* ***مصر العليا ومصر السفلى***، *لعدم ظهور*

(*) على واجهة الهرم الجنوبية. (المترجم)

*اسمه أمام الهرم، وجعل معالم ملوك **مصر العليا** وملوك **مصر السفلى** تُغالب الأيام، وبحيث يتم ترميم المعالم التى صارت خرابًا(٦٨).*

ونُحتت مدونات مماثلة وأنجزت مثل هذه الأعمال، فى أهرامات الملوك **چسر** من الأسرة الثالثة، و**شپسسكاف** من الأسرة الرابعة، و**أوسركاف** و**ساحورع** و**نى أوسر رع** من الأسرة الخامسة.

إن نشاطه المتميز هذا، بصفته مؤرخًا وفقيهًا لغويا وأثريا، وباختصار العبارة لقلنا بصفته **عالم مصريات**(*)، إن هذا النشاط قد امتد ليشمل معالم أثرية أخرى من الماضى، ليترك عليها بصماته. فعلى أحد التماثيل العديدة للأمير **كا وعب**، ابن **خوفو** وهو من مقتنيات **متحف القاهرة** فى الوقت الراهن، ما زلنا نقرأ على مقدمة القعد المدونة القديمة، فى حين نحت **خع إم واست** مدونته الخاصة على جوانب القاعدة الثلاثة الأخرى. لقد أسس **رعمسيس** الثانى مصلحة آثار حقيقية، وكان ابنه مدبرها، لقد ركز جل اهتمامه على كل ما يرتبط بعظمة وطنه، سواء فى الحاضر أو فى الماضى.

كان **خع إم واست** الابن المفضل، والوريث المختار منذ زمن بعيد، وقد أُعد لتسلم السلطة. ولكن وافته المنية، فى العام ٥٥ من حكم أبيه الذى كان آنذاك فى الثمانين من عمره. من المؤكد، أن هذه الوفاة قد عكرت صفو السنوات الأخيرة من حياة العاهل الملكى، وهو ما يمكن أن نفترضه على الأقل!

كان الأمير يتمتع بشعبية كبيرة. لقد غالبت شهرته بصفته عالم الأيام، وبالتدريج نشأت حول شخصه حكايات خرافية. وبالفعل، ففى زمن لاحق تروى

(*) أقترح إضافة اسمه إلى قائمة علماء المصريات على النُصب المحيط بتابوت **أوجست ماريت** Auguste Mariette فى الطرف الغربى من حديقة المتحف المصرى. (المترجم)

نصوص برديتين من العصر **الرومانى** مغامرات **ستنى - خع إم واست** المثيرة للإعجاب، وكان معاصراً للفرعون **رعمسيس** الثانى وكبير كهنة **پتاح** فى **منف**.

فبمساعدة أحد السحرة، ومن خلال عدد كبير من المغامرات، توصل البطل إلى العثور على كتاب مقدس، «*هو مخطوط دونه الإله **تحوت** شخصيا*»، يضم مجموعة من التعاويذ السحرية القوية التأثير. ثم بمعاونة ابنه **سنوسيريس**، وهو أيضاً ساحر محنك، تمكن من الهبوط إلى مثوى الأموات، فكان النزول الأول(*).

يكشف هذا النص عن بقاء ذكراه ماثلة فى حافظة المصريين، ويبدو أنهم جعلوا منه شخصاً فطناً وثاقب البصيرة وعالماً، وملماً إذن بأسرار السحر وخباياه.

وبوفاة **خع إم واست**، أصبح أخوه **مر إن پتاح** وريثاً للعرش، فى كل من **پر-رعمسيس** و**منف**. كان ثانى أبناء **إيزيس - نوفرت** والأمير الثالث عشر فى قائمة المعابد وثالث من وقع عليهم الاختيار ليخلفوا أباهم - بعد **أمون حرخپشف** و**خع إم واست**.

كان منذ ذلك الحين يساعد أباه فى بعض المهام الإدارية فى العاصمة. هكذا، فإن ألقابه تبرهن على حسن اختيار **رعمسيس** له، إنه...

*... **ربعت**، القائم على رأس **القطرين**، والكاتب الملكى، حارس الختم، القائد العام للجيش، الابن الملكى، **مر إن پتاح***(٦٩).

ومثله مثل أخيه، كان مكلفاً بالإشراف على مقبرة العجل **أپيس**.

(*) توجد ترجمة عربية كاملة لهذه القصة المثيرة. راجع: كلير لالويت، نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة، ترجمة ماهر جويجاتى، المجلد الثانى، دار الفكر، ١٩٩٦، ص ص: ٢٦٤-٢٩٩. (المترجم)

وإذ منحه **رعمسيس** صفة «*الابن البكر للملك*»، فقد رأى **مر إن پتاح** أنه من المناسب إصدار بعض الجعارين[٧٠]، لإبلاغ هذا القرار الملكي، على أن تحمل هذه المدونة:

__الريعت__، الذي يشغل مكان __جب__، إنه وريثه والنطفة الإلهية المنبثقة من الثور القوي. إن الأراضي المصرية والبُلدان الأجنبية مجتمعة في قبضته، إنه السامر على تقديم قربان __ماعت__[٧١] إلى الآلهة جمعاء، إنه الواحد المتفرد، الذي لا مثيل له، الذي استحوذ على أمراء كافة البلدان الأجنبية، إنه الأول في __القطرين__... الذي يقود __الشاطئين__، إنه الكاتب الملكي والقائد العام للجيش، إنه الابن الملكي، __مر إن پتاح__، ليته يحيا للزمن اللانهائي[٧٢]!

وعلى لوح حجري عثر عليه في **السيراپيوم**، ويعود إلى آخر سنوات حكم **رعمسيس** الثاني ويحمل اسم الأمير، يُشار إليه بصفته...

الكاتب الملكي، __ريعت__، القائد العام للجيش، __وابن الملك البكر__، الذي من صلبه، إنه __مر إن پتاح__[٧٣].

هكذا، فقد ورث هذا الأخير الألقاب التي نُعت بها على التوالي كل من **أمون حرخپشف** و**خع إم واست**، كما أضيفت إليها الألقاب التي تخص الملوك ذاتهم. ولا يخامرنا أدنى شك أن تأثير **مر إن پتاح** على أبيه بعد أن تقدمت به السن، كان عظيمًا. وعلى امتداد الاثنتي عشرة سنة الأخيرة من سنوات حكم **رعمسيس** الثاني كان قد أصبح في الحقيقة مسئولاً عن تدبير شئون **الإمبراطورية**، وهو في الستين من عمره.

وإذا كانت **نفرتاري** هي الأقرب إلى قلب العاهل الملكي، فإنه يبدو أن إرادة

العاهل الملكى قد سعت إلى إشراك أبناء **إيزيس - نوفرت** فى السلطة.

ومن بين أبناء **نفرتارى** الأربعة، فإن ابنًا آخر خلاف **أمون حر خبشف**، قد برز بفضل تميزه، إنه **مرى - أتوم**، ومعناه «محبوب ***أتوم***»، الذى كان مسار حياته المهنية أشبه بمسار حياة **خع إم واست**، ولكن يبدو أن العلاقات التى ربطته بأبيه كانت عاطفية أكثر منها سياسية. ففى مدونة منقوشة على عمود ظهر تمثال يحتفظ به متحف **برلين**، يشار إلى الأمير بصفته:

*عينا الملك، هذا الذى يقف على رأس **مصر العليا** و**مصر السفلى**، والناس يفرحون لسماع كلماته، إنه كبير كهنة **رع**، صاحب اليدين الطاهرتين، إنه **مرى - أتوم**(٧٤).*

كان **مرى - أتوم** كبير كهنة **رع** فى **هليوبوليس**. هكذا يمكن القول، إن أبناء العاهل الملكى، كانوا يكلَّفون بشغل منصبين من ثلاثة من أعظم مناصب كبار الكهنة فى **مصر** بمدينتى **منف** و**هليوبوليس**.

أما الآخرون، فقد أُسندت إليهم جميعًا مناصب مرموقة فى البلاط الملكى.

أما بنات **رعمسيس**، فقد كانت لهن قوائم مماثلة لتلك التى وُضعت للأمراء، وإن كانت أكثر اقتضابًا. فمن بين البنات الثلاث والخمسين اللواتى حصرهن المؤرخون فى العصر الحديث، على مجمل المعالم الأثرية، فإن ستًا وعشرين بنتًا فقط ذُكرن فى قائمة **أبيدوس** بالمعبد الجنائزى للملك **سيتى** الأول، وست عشرة فى معبد **الأقصر**، وإحدى عشرة فى **وادى السبوع**، وتسعًا فى **أبو سمبل** و**الدر** وثلاثًا فى **الرامسيوم**. إن **أوستراكون** من مقتنيات متحف **اللوفر** يذكر خمس عشرة. وإذا استثنينا تلك التى تزوجهن أبوهن، فإننا نعرفهن معرفة قاصرة.

إن عائلة **رعمسيس** كانت كثيرة العدد وواسعة العطاء وبالغة الثراء. وفيما يخصها يمكن القول إن عمل عالم المصريات لم يكتمل بعد، إن الكشف عن وثائق جديدة، سوف يساعدنا، على ما يحتمل فى المستقبل المنظور، على توفير معرفة أفضل

بجميع هذه الشخصيات التى تشكل ذرية الملك العظيم بأعدادها البالغة الكثرة، وبحياتهم وما قاموا به من أعمال.

رجالات الملك وكبراؤه

كانت الحياة بالنسبة لكبار أعيان الإمبراطورية تبدو حياة يسر، فينعمون فى **پر – رعمسيس** بسعة العيش ونعومته.

وتقدم لها النصوص والصور وصفًا طريفًا ممتعًا. هكذا فإن **أوستراكون** يُصوِّر رجلاً على متن مركبته وهو يتفقد أملاكه، يتقدمه زنوجه الراكضون، ويقول النص:

*هَدِّئ قلب **أمون** بواسطة قلبك. سوف يهبك شيخوخة سعيدة. سوف تعيش حياة ممتعة إلى أن تبلغ وضع **إيماخو**[٧٥]، وشفتاك سالمتان وأطرافك بالغة القوة، فى حين تظل عينك ترى من على بعد. سوف تصعد على متن مركبتك مرتديًا الكتان الناعم وعصًا ذهبية فى يدك، ممسكًا عصًا جديدة والسروج السورية من الجلد. ويركض الزنوج أمامك، لتحقيق رغباتك. وسوف تنزل فى قاربك المصنوع من خشب الأرز، وقد جُهِّز على أكمل وجه من القيدوم وحتى الكوثل. سوف تلحق بمحل إقامتك الذى شيدته لنفسك. سوف تمتلئ بالنبيذ والجعة، والخبز واللحوم، وتُذبح الأبقار وتُفتح جرار النبيذ، وتكون الأغانى الجميلة «فى»[*] وجهك. إن رئيس صانعى عطورك، سوف يمسحك بالزيت العذب، ورئيس كرَّاميك سوف يقدم لك عناقيد العنب ويهديك رئيس حقولك طيورًا ورئيس الصيادين سمكًا. وتعود سفنك من **سوريا** محملة بكل ما هو طيب ومفيد. وتمتلئ حظيرتك بالعجول. وتزداد أعداد خُدَّامك. سوف تغالب الأيام، بينما يسقط عدوك. إن من يتهمك سوف يصبح خائر القوة. وسوف تمثل بين أيدى **التاسوع** وتصبح بارًا*[٧٦].

(*) هكذا فى الأصل. (المترجم)

وإذا أردنا الوقوف على هذه الحياة، بثرائها وترفها، الناجمة عن ازدهار الإمبراطورية... أو تمنينا أن نعيش مثلها، يكفينا أن نتأمل المشاهد المرسومة على جدران مقابر الأفراد على البر الغربي لمدينة **طيبة**... هكذا، نشاهد الأعمال التى يقوم بها أفراد حاشية الملك، وكيف يقضون أوقات فراغهم.

كان كبراء الدولة عديدين ويشغلون وظائف متنوعة. ففى **بيت** الملك ساهم الإدرايون وقواد الجيش و«الأفارقة»، فى تصريف شئون الإمبراطورية المترامية الأطراف.

د - *الوزراء فى السلطة*

يظل الوزير هو الشخصية الأبرز والأهم فى الجهاز الإدارى، بل من الأحرى أن نقول «الوزيران»، فقد رأى **تحوتمس** الثالث أنه من الضرورى ازدواج هذا المنصب فعيَّن وزيراً **لمصر العليا**، فى حين امتدت سلطة الوزير الآخر على **مصر السفلى**. كان منصباً ذا شأن واسع النفوذ. ففى الخطاب الذى وجهه **تحوتمس** الثالث إلى الوزير **رخ مى رع** يوم تعيينه، يؤكد على ضخامة وتنوع العمل المطلوب إنجازه، وعلى الأخص ضرورة أن يلتزم حكمه بالعدل:

اعلم أن الوزير هو النحاس الذى يحمى ذهب بيت سيده[٧٧](*)*. إنه لا يخفض وجهه أمام كبار الموظفين والقضاة، ولا يختار تابعيه من بين كائن من كان، من الأفراد... عليك أنت، السهر على أن يتم كل شىء، طبقًا للقانون، وطبقًا أيضًا لحقهم، مع كفالة العدالة لكل امرئ. على القاضى أن (يحيا) سافر الوجه، لأن الماء والهواء ينقلان مختلف تصرفاته، ولا يجهل أحد أفعاله*[٧٨].

(*) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

إلى جانب هذا الواجب الأخلاقي، يتولى الوزير عدداً من المهام المادية. فيتلقى تقريراً عن كل شكوى وصلت إلى الملك بشرط تقديمها كتابة، ويوفد رُسل الملك إلى حكام الأقاليم وإلى العمد، لكل عمل من أعمال التفتيش المفيد. كما أنه يعين مفرضى **مصر العليا** و**مصر السفلى**. ويقدمون له تقريراً كل أربعة أشهر على ما لمسوه، ويسلِّمون له كل وثيقة مرسلة من محاكم دوائرهم.

كما يقوم بحشد الجيش لمرافقة الملك، عندما يقوم هذا الأخير بالانتقال على صفحة نهر **النيل** هبوطاً وصعوداً. ويُصدر تعليماته إلى الفرق العسكرية، ويستقبل كل الرؤساء، من أكبرهم إلى أقلهم شأناً.

كما يأمر بقطع الأشجار، بناء على طلب **بيت** الملك. كما يُبلغ حكام الأقاليم الأوامر الخاصة بحرث الأرض أو الحصاد. كما يتولى أعمال الشرطة فى كل إقليم ويعيِّن الوظائف، ويحدد أملاك المعابد ويحرر كل العقود.

كما يحدد إيرادات الضرائب المستحقة للمخازن الملكية. ويفتح باب **بيت الذهب** فى حضرة حارس الختم. ويحضر وصول الجزية الواردة من أقاصى الأرض وأدناها. ويقوم بإحصاء كل قطعان الماشية. كما يقوم بالتفتيش على خزانات مياه الشرب مرة كل عشرة أيام، وبالمثل على المخزون من الأطعمة الصلبة.

ويُقدم له تقرير عن شروق النجم **سوتيس** وفيضان **النيل**. ويُقدم له تقرير عن هطول أمطار السماء. كما يوفد كل رُسل القصر الملكى. ويدبر شئون **الأرضين** عندما يخرج الملك فى حملة عسكرية على رأس الجيش. عندئذ يُقدم **لصاحب الجلالة** تقريراً عن أحوال **القطرين**. ويضع الأختام على كل مرسوم يصدره الملك[٧٩].

ومن ثم نجد أن الوزير يتحكم فى كل جانب من جوانب أجهزة الدولة، ولكنه

يظل على اتصال وثيق بالعاهل الملكى(*).

إن أحد أهم الشخصيات على صعيد الإمبراطورية، فى عهد **سيتى** الأول، كان الوزير **پاسر**، الذى ظل يشغل هذا المنصب، فى مطلع عهد **رعمسيس** الثانى، لمدة عشرين سنة.

كان ابن **نب نترو**، كبير كهنة **أمون**. أما والدته التى لا نعرفها معرفة جيدة، فيبدو أن **منف** كانت موطنها الأصلى. فمن خلال أسرته كان **پاسر** يرتبط باثنتين من كبرى مدن **مصر**، فضلاً عن علاقته بكبار كهنة **طيبة**. هكذا يبدو لأول وهلة أنه شخصية عظيمة الشأن. واستناداً إلى المدونات التى عُثر عليها يُعتقد أنه كان مقرباً من **سيتى** الأول، الذى كان يعرفه منذ زمن بعيد. إنه يوجه ترنيمة إلى العاهل الملكى عند حضوره لمراسم تتويجه، فرُقِّى منذ اليوم الأول من حكم **سيتى** الأول إلى أرفع المناصب.

*تحية لك، يا ملك **مصر**، يا شمس **الأقواس التسعة**! أنت الإله الذى يحيا من الحقيقة والعدالة، العارف بسرائر القلوب فيزن الأجساد، عارفًا ما بداخلها، أنت الحكيم مثل سيِّد **الثمانية**(٨٢)(**) العالم مثل **پتاح** الذى خلق مهن الحرفيين.*

*وعرف قلب **صاحب الجلالة** السعادة، بعد أن اتحد به الفرح، فى حين كانت البهجة والغبطة فى القصر. كان يشعر بمتعة الإله **رع** نفسها، وهو فى قلب الأفقين.*

(*) للاطلاع على النص الكامل لهذه التعليمات راجع: كلير لالويت، طيبة أو نشأة إمبراطورية، ترجمة وتعليق ماهر جويجاتى، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥ ص ص ٢٧٩-٢٨٧. (المترجم)

(**) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

*كانت أمه **ماعت** تحمى أطرافه، بينما ظهر مع **الساحرة العظيمة**(*) وكانت هذه الأخيرة فى مكانها، بين حاجبيه والثعبان **محن**(٨٣) فوق رأسه(**). ومع الصولجان والسوط حصل على وظيفة أبيه **جب**. (كانت الآلهة) تصيح فى السماء، والبلاط فى عيد. ولم تتوقف أرباب **مليوبوليس** عن إعلان سعادتها. كان **الكرنك** يهلل فرحًا وغبطةً، وبالتحديد **أمون – رع**، عندما شاهد ابنه على عرشه. وأخذ مكانه أمامه، فرح القلب، منجزًا الأعاجيب من أجل **صاحب الجلالة**. (ومن أجله) أعاد الاخضرار إلى **مصر العليا** وإلى **مصر السفلى**، بعد أن اتحد **الغرب والشرق**.*

*وأمر **صاحب الجلالة** إذن، بأن يصبح «**هذا الخادم**»(***)، **الصديق** الأول فى القصر الملكى ويُرقَّى إلى المشرف العام على الأملاك، وكبير كهنة **الساحرة العظيمة** وأن **تتجدد** من أجله وظائف **عمدة المدينة**(****) والوزير(٨٤).*

واستنادًا إلى هذا النص، فمن غير المستبعد إذن أن يكون **پاسر** قد شغل منصب الوزير من قبل، فى زمن حكم **رمسيس** الأول القصير.

ومثل سلفه **رخ مى رع** الذى سبقه بعشرات السنين، صور فى مقبرته(*****)، القائمة فى البر الغربى لمدينة **طيبة**، الاحتفالات المصاحبة لتبوئه الرسمى منصب الوزير. وفى إطار أحد المشاهد، يُقدم له تمثال صغير **لسيتى** الأول، ويتحدث إليه أحد أعيان البلاط الملكى قائلاً:

(*) أى الصل الملكى. (المؤلفة)

(**) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

(***) أى **پاسر**. (المؤلفة)

(****) أى طيبة. (المؤلفة)

جدير بالملاحظة أن من أسماء **طيبة**: **نيوت**. ومعناها الحرفى: **المدينة**. (المترجم)

(*****) المقبرة رقم ١٠٦. (المترجم)

*يبتهج صاحب الجلالة لكل كلمة من كلماتك. أنت عينا ملك **مصر العليا** ومصر **السفلى**، وأذنا ملك **مصر السفلى**، فأنت شخص مفعم بالبركة لسيده. إنك «**تفتح قلب**» كل وظيفة(*)، وتعاليمك تنتشر فى ورش الحرفيين(٨٠).*

إنه الرباط الحىُّ بين البشر و**الفرعون**.

*ويقال له كل ما فى القلب، فلا يخفى عليه شىء، إنه يملأ أذنى **حورس**(**) بكل حقيقة. ويبتهج الجميع (لسماع) كلماته(٨١).*

على الرغم من إقامة **پاسر** فى **پر-رعمسيس**، فإنه كان كثير التردد على **طيبة** لمتابعة أعمال تشييد المقبرة الملكية... ومقبرته شخصياً. ويبدو أنه قد طبق بالفعل العدل، وحكم حُكماً منصفاً، فتمتع بشعبية عريضة وسط عمال **دير المدينة** العاملين فى مواقع العمل فى **طيبة**.

كان موظفاً مخلصاً وفياً، وموضع ثقة الملك ورجل بلاط ثاقب البصيرة. ورغم روابطه برجال الدين فى **طيبة** يبدو أنه التزم بالخط الدينى الجديد الساعى إلى إعادة البهاء الرسمى التليد إلى عبادات **هليوپوليس** و**منف**. إن العثور على قطعتين أثريتين تعودان إليه، عظيم الأهمية فى هذا الصدد.

الأولى تمثال يُصوِّر **پاسر** جاثياً متعبداً، يقدم قرباناً فى هيئة لوح حجرى، وقد أصبح موضوعاً تقليديا ثابتاً، منذ بداية الأسرة الثامنة عشرة، ونُحتت ترنيمة على هذا اللوح. إن هذا القربان لا يخص **أمون**، كما كان الحال فى أغلب الأحوال، بل إنه مقدم إلى **رع - حور أختى**، إله **هليوپوليس**.

(*) أى: مُلِمٌّ إلماماً تاماً بالشئون العامة. (المؤلفة)

(**) أى الملك. (المؤلفة)

*التعبُّد إلى رع - **حور أختى**، عندما يشرق فى الأفق الشرقى من السماء، من قبل **الأوزيريس**، عمدة **المدينة ياسر**، صادق القول، الذى يقول:*

«التحية لك يا إله الأفق، بمطالع فجرك المتألق الذى يولد من جديد صغير السن على الدوام، على مدار الأيام، أيها الكبش الحىُّ، يا بداية كل ما يوجد، أيها الأقدم الأصلى، يا أبا الآلهة. لقد أضأت الأرض، بفضل أشعة أعضائك الإلهية، أيها القدرة العظيمة القائمة فى السماء. ليتك تتصرف بحيث أغدو وأروح فى الجبانة، على امتداد كل يوم من الأيام. أتح لى أن أستطيع تأملك عندما تشرق وأن أرضيك عندما تغرب فى أفق(ك). ليتنى أذهب (من جديد) إلى منزل الأحياء، إذ يظل قلبى باقيًا معى، فلا يفارقنى طوال الزمن اللانهائى(٨٥)».

هكذا كان إله **هليوبوليس** مطالبًا بتلبية الأمانى الجنائزية الأساسية، كحرية الحركة فى العالم الآخر، وإمكانية العودة إلى الأرض، ومرافقة نجم النور والحياة.

أما القطعة الأثرية الأخرى فهى تمثال من الجرانيت الرمادى، يُصور أيضًا الوزير **ياسر**، ومن مقتنيات متحف **القاهرة** فى الوقت الراهن. وعلى جانب قاعدة التمثال، دُوِّنت **صيغة القرابين**(*) التقليدية التى يقوم الملك بموجبها بتقديم قربان إلى الآلهة التى تمنُّ فى المقابل ببعض الإنعامات على صاحب الصورة أو التمثال. وجدير بالملاحظة هنا، أن الصيغة موجهة فى البداية، إلى الآلهة الثلاثة، لثالوث **الرعامسة**:

(*) **صيغة القرابين** proscynème. وهى الصيغة التى تبدأ بعبارة **حتپ دى نسو** أى «هبة يعطيها الملك». د.عبد الحليم نور الدين، اللغة المصرية القديمة، ١٩٩٨، د.ن، ص٢٦٦.(المترجم)

***أمون - رع*، سيد عروش *القطرين*،**

***ورع - حور- أختى - أتوم، الهليوبايتانى*(*)، سيِّد *الأرضين*،**

***وبتاح القائم إلى الجنوب من جداره، سيد حياة القطرين*[٨٦].**

ثم ترد بعد ذلك، أسماء البعض الآخر من آلهة **مَجْمع الآلهة**، نذكر منها **تحوت** **ونيت** و**الساحرة العظيمة** و**أوزيريس** و**سوكر**...

وقد يتفهم المرء السبب الذى حمل **رعمسيس** على الاحتفاظ إلى جانبه، منذ تربعه على العرش، على رجل سبق أم تمرَّس بشئون السياسة، ملماً كل الإلمام بأحوال البلد، كما كان الرفيق المخلص الأمين فى خدمة أبيه **سيتى** الأول ومن رجال البلاط المرتبطين بالتيار الروحانى الذى طبع الإمبراطورية بطابعه.

لقد تم الكشف عن عدد كبير من تماثيل هذا الشخص المرموق فى مواقع **طيبة** و**منف**.

ولما كان منصب الوزير على قدر كبير من الأهمية، لم يكن من الغريب، أن يعهد **رعمسيس** الثانى بهذا المنصب إلى **خعى**(**)، بعد أن حُرم من خدمات **پاسر**. ونعرف أن أميراً يحمل هذا الاسم قد كُلِّف بتنظيم احتفالات اليوبيل السادس للملك، ونحن على حق كل الحق، إذا ذهبنا إلى القول بأن هذا اليوبيل قد أُقيم فى **القنطرة**، إذ عثر فيها على قوالب من الطين المحروق تذكر اسمه. كما عثر فى هذه المدينة ذاتها، على ساكف من الحجر الجيرى صور عليه الوزير **خعى** وهو يتعبد إلى خرطوشَىْ **رعمسيس** الثانى. وتأسيساً على ذلك، أمكن استنتاج أن الأمير الملكى **خعى** والوزير الذى يحمل الاسم نفسه، كانا شخصاً واحداً[٨٧].

(*) المنتسب إلى **هليوبوليس**. (المترجم)

(**) وهو من أبناء **رعمسيس** الثانى، ومعنى اسمه «*الذى يتجلَّى متألقًا*». (المؤلفة)

وبفضل مدونة من **جبل السلسلة**، نعرف أيضًا، أن الوزير **خعى**، قد شارك أيضًا فى الاحتفال باليوبيل الخامس إلى جانب الأمير **خع إم واست**، كما أنه اضطلع بمهامه فى وقت لاحق، فى إدارة الأعياد الملكية. ومن ثم، فمن الممكن جدا، أن هذا الوزير كانت تجرى فى عروقه دماء ملكية، بالنظر إلى أنه كان يشارك **خع إم واست**، ابن الملك المفضل، ويظهر معه جنبًا إلى جنب.

ومن بين الوزراء الآخرين الذين عملوا فى خدمة **رمسيس** الثانى والإمبراطورية، كانت شخصية **رع حوتپ**(*)، من أبرزهم وأرفعهم شأنًا، إذا نظرنا إلى أهمية ألقابه، إذ كان شخصية مرموقة وكريمة النسب، بالإضافة إلى الوصف الذى يقدمه عن أنشطته، وذلك من واقع النص المنحوت على لوح حجرى يحتفظ به متحف **القاهرة**:

إنه...

...النبيل الذى يتسيَّد على ***القطرين****، والأب الإلهى المحبوب، رئيس أسرار معبد* ***نيت****، والذى يملأ قلب* ***حورس*** *فى الأفقين، وفم الملك فى أرجاء البلد، والقاضى الملحق بمدينة* ***نخن***(**)، *وكبير كهنة الإلهة* ***ماعت****، حامل المروحة عن يمين الملك،* ***وعمدة المدينة****، إنه الوزير* ***رع حوتپ***(88).

كما أنه...

... *كبير كهنة* ***رع وآتوم*** *وكبير كهنة* ***پتاح*** *والكاهن* ***سم*** (لهذا الإله ذاته)، *ومدير أعياد* ***ذاك – الذى – يوجد – إلى – الجنوب – من – جداره***(***) *وكبير المشرفين على*

(*) ومعناه: «*ليت* **رع** *يكون راضيًا*». (المؤلفة)

(**) **الكوم الأحمر** حاليًا، شمال **إدفو**. (المترجم)

(***) أى **پتاح**. (المؤلفة)

*أملاك **رب القطرين** فى القصر... إنه المشرف العام على مواقع العمل، ورئيس الحرفيين وحارس مدونات الإله الكامل فى **قاعة الحقيقة**، إنه فم ملك **مصر العليا** وموفد ومنادى ملك **مصر السفلى**، إنه من يُسعد سيده فى القصر المهيب، ومن يقدم إلى سيده **الحقيقة – العدالة**، إنه الأمير على رأس جماهير البشر والخدم فى أرجاء البلد، و**عمدة المدينة**، إنه الوزير **رع حوتپ**(٨٩).*

يا لها من قائمة رائعة، تخلط بين الألقاب والخصال الشخصية وما تحقق من أعمال، ولكن الأمر الجدير بالملاحظة على وجه التحديد، هو أن الوزير الذى كان كبير كهنة **ماعت**، بحكم منصبه، يشغل أيضاً منصب كبير كهنة **رع – اتوم** فى **هليوپوليس** وكبير كهنة **پتاح** فى **منف**، وهما من كبرى المناصب، فضلاً عن أن هذا الوضع شديد الندرة. ويبدو أن هذا الشخص المرموق قد جمع بمفرده الوظائف التى شغلها الابنان الملكيان: **مرى اتوم** و**خع إم واست**، اللذان خلفهما على ما يُظن.

ويحلو له أن يتباهى بما حققه من أعمال وبملامح شخصيته:

*أنا مخلص وفىٌ ومستقيم القلب، إنى أمقت الكذب، وأحيا من ممارسة العدل والإنصاف على مدار الأيام. أنا إنسان حكيم لا مثيل له، فى وسعه أن يشرح كل أعمال **تحوت**(٩٠).*

ربما يؤكد كل ذلك، على الأهمية المبالغ فيها (؟)، التى كانت من نصيب بعض كبار رجال الدولة، من شاغلى أكبر المناصب الدنيوية والروحية، فى النصف الثانى، من حكم **رمسيس** الثانى.

ولكن يبدو أن **رع حوتپ** ظل خاضعاً **للفرعون**، وبالفعل فإننا نشاهده على أحد الألواح الحجرية التى تم الكشف عنها فى **هربيط**(٩١) وهو يتعبد للعاهل الملكى.

*إنه يغدق المدائح على **كا** رب التجليات المجيدة، **رعمسيس – محبوب – أمون**، الإله العظيم الذى يُنصت إلى تضرعات البشر، ليمنح الحياة والصحة والقوة والمديح والذكاء والحب لـ«**كا**» النبيل، الأمير... **رع حوتب**(٩٢).*

كان رع **حوتب** من كبراء حاشية الملك، فهل كان رجلاً خاضعًا لسيطرة الملك الذى وثِق به واستأمنه، فاحتلَّ بالتالى مكانة مرموقة؟ أو كان طموحًا كثير التطلعات؟ إن الكشف عن آثار جديدة، ربما ساعد ذات يوم على التعرف بشكل أفضل على مصيره.

هـ – العُمَد

ومن بين رجال الإدارة الملكيين، نذكر أيضًا عُمد كبرى المدن، وفى مقدمتها **طيبة** و**منف**.

كان الوزير **پاسر** عمدة **طيبة** حيث كان أبوه كبير كهنة **أمون**. هكذا كانت **مدينة الجنوب**(*) بين أيدى أصدقاء الملك وخلصائه.

ومن بين القائمين على إدارة **منف**، يشد اثنان منهم اهتمامنا أكثر من غيرهم، بسبب آثارهما التى تم الكشف عنها، لأن ما نعرفه عن كبراء البلاط الملكى، شأنهم شأن الجهاز الإدارى فى الأقاليم، نستقيه أساسًا من مقابرهم فى **طيبة** وتماثيلهم وألواحهم الحجرية التى كرسوها وأهدوها إلى الآلهة وإلى العاهل الملكى. تلك هى قاعدة مألوفة فى مجال العلم الذى تخصصنا فيه. ومن هذا المنطلق فإننا نعرف

(*) من أسماء **طيبة ولييوت رسيت** بالمصرية القديمة. حول مختلف أسماء طيبة وألقابها راجع: د. سيد توفيق، أهم آثار الأقصر الفرعونية، دار النهضة العربية، ١٩٨٢، ص ص ١٥– ١٩. (المترجم)

حياتهم فى العالم الآخر أو على الأقل الحياة التى كانوا يتهيأون لها أو يتطلعون إليها، معرفة أفضل مما أنجزوه من أعمال إدارية، «*فى زمن حياتهم على وجه الأرض*». ومع ذلك، فإن المشاهد المرسومة على جدران «*بيت الأبدية*» الخاص بكل منهم، قد تقدم لنا بعض التوضيحات حول أنشطتهم الرسمية.

وفيما يتعلق بعمدة **منف** واسمه **حوى**، أو من الأفضل أن نقول إنه **أمنحوتپ** المدعو **حوى**، فقد عُثر على تابوته، وهو من حجر الجرانيت الأحمر وآية فى الجمال، ويبلغ طوله ٢٧٠سم. كما عُثر على تابوته الداخلى الآدمى الشكل، وهو من الجرانيت الوردى، ويبلغ طوله ٢٢٥سم وارتفاعه ١٠٧سم[٩٣]. وعلى السطح الداخلى للغطاء الثقيل لأول هذين التابوتين، حُفرت، وفقًا للأعراف السائدة، صورة كبيرة لإلهة السماء **نوت** الممددة فوق جسد المتوفى المحنط، حمايةً له، كما تحمى الأرض وهى ممددة فوقها **فنوت** بجسدها المرصع بالنجوم، هى أم الشمس.

*كلمات قالتها **نوت**: إنى أتمدد فوق ابنى **حوى**، الكاتب الملكى الحق، عمدة **منف**... باسمى **نوت**. لن أبتعد عن هذا الابن الذى هو ابنى، كما لن أبتعد عن **جب**، محبوب الآلهة، **الأول والأقدم** من بين أفراد **التاسوع***[٩٤].

هكذا، فإن مقارنة، فيها الكثير من الإطراء، قائمة بين **حوى** وإله الأرض، إطراء وطمأنينة بالنسبة للحياة المنتظرة فى العالم الآخر، وقد تم توضيحها على أكمل الوجه بالصورة والنص.

إن مقبرة العمدة **پتاح مس**(*) قد جادت بأربعة أعمدة مربعة، كانت فى السابق جزءًا من مجموعة أثرية فريدة، ومن مقتنيات متحف **ليدن** فى الوقت الراهن. وعلى

(*) ومعناه: «*لقد أنجبه **پتاح***». وهو اسم مختار سلفًا لمن يسهر على مصانر **منف**. (المؤلفة)

أوجهها نحتت ترانيم إلى الآلهة[٩٥]. وعلى كل عمود من هذه الأعمدة، صُوِّر **بتاح مس**، مرتديًا ثوبًا طويلاً من الكتان الأبيض له ثنايا، ونراه على أحد الأوجه متعبداً للإلهين **رع** و**أوزيريس** لمرتين على التوالي، وللإله **رع - حور أختي**. وعلى كل وجه من الأوجه الجانبية صُوِّر العمود **جد**، الرمز **الأوزيري** للثبات والديمومة، كما دُوِّن ابتهال إلى **أوزيريس**. وأخيراً، نُحِتت، على الوجه الرابع من كل عمود، ترنيمة إلى كبرى آلهة الخلق أو تجديد الحياة:

* *الحمد لك والثناء، أنت يا من أتى إلى الوجود بصفته **رع**، والذى يسطع الآن متألقًا بصفته **حورأختى**، الصورة المقدسة ذات الأشكال المتعددة، رب السماء وحاكم الزمن اللانهائى. ليته يَمنح القدرة على الذهاب والمجىء فى الجبانة وأن يتأمل قرص الحياة عندما يتألق من أجل **كا... بتاح مس**.*

* *الحمد لك والثناء، أنت يا من أتى إلى الوجود بصفته **بتاح - أوزيريس**، حاكم الزمن اللانهائى، ملك **منفس** ورب **أبيدوس**، العامل الملكى القائم على رأس **التاسوع**. ليته يَمنح القدرة على الذهاب والمجىء فى **راستاو**[٩٦]، والركون إلى الراحة فى الجبانة، وإنجاز تحولاته من أجل **كا... بتاح مس**.*

* *الحمد لك والثناء، أنت، أيها الوديع حبًا، أيا **أوزيريس**، يا سيد **الغرب والصحراء**، الكبش الإلهى القائم فى السماء، الذى أَخَذَت منه العدالة كل مأخذ. ليته يجعل قلبى دائم الازدهار للزمن اللانهائى، من أجل **كا... بتاح مس**.*

* *الحمد لك والثناء، يا **تا تان - بتاح**، يا رب الفرح الذى يظل قلبه باقيًا، والذى يهنأ بالحقيقة والعدالة. ليته يَمنح القدرة على الذهاب والمجىء فى الجبانة وأن يتأمل قرص الشمس عندما يظهر ساطعًا فى السماء، من أجل **كا..بتاح مس**، صاحب القبر الجميل[٩٧].*

جاءت صياغة هذه النصوص الأربعة صياغةً متوازنة، مُتسقة مع ذوق المصريين المولع بالتناغم والتناظر، الموفق بين القوالب التشكيلية أو بين الجُمل. إنها عبارات شكر وإجلال للآلهة، ومطالب يلتمسها مقدمها للحصول على بعض المزايا بعد وفاته. وجاءت هذه النصوص تعبيراً صادقًا عن النزعة التلفيقية الدينية، عملاً بإرادة **الرعامسة** الرسمية. لقد ذُكرت آلهة ثلاثة، وإن لم يُشر إلى **آمون** فى سياق هذه التضرعات، فلا غبار على ذلك، لوجودنا فى **منف**. ولكن يلاحظ أيضًا أن الأشكال والصفات الإلهية تتداخل وتتبادل بين **رع وبتاح**، وأكبر الآلهة **الإقليمية**، **وأوزيريس** الإله المستقل للبعث واستعادة الحياة. ولما كان **بتاح مس** من رجال البلاط المشهود لهم بالاستقامة فقد التزم بالحركة الدينية السائدة فى عصره.

و- *وبعض كبراء الدولة الآخرين*

فى استطاعتنا أن نتعرف، إلى حدٍّ ما، على كبار رجال الجهاز الإدارى الذين لا حصر لهم، العاملين فى بلاط **الرعامسة**، والمسئولين عن إدارة جانب كبير من شئون الإمبراطورية، أو نُلم بهم إلمامة سطحية، فى استطاعتنا ذلك بفضل مقابرهم أحيانًا، أو تمثال عُثر عليه هنا، أو مدونات لوح حجرى جاء من هناك. كان بعضهم مشرفًا عامًا **لسيد القطرين** أو رئيس الخزائن أو مدير الشونة(*) المزدوجة، إلى جانب أعداد كبيرة من الكتبة الملكيين، وكانوا شخصيات مرموقة، يشكلون دوائر أساسية فى الجهاز الإدارى المعقد الضخم، وينتسبون فى الغالب إلى طبقة النبلاء. وفى هذا الصدد، وفى عهد **سيتى** الأول تحديداً، نذكر على سبيل المثال **يونى**، ابن كبير الأطباء **أمنحوتب**، وكان...

(*) **شنوت** بالمصرية القديمة. (المترجم)

*النبيل، الأمير، الصديق الأوحد، فم الملك، العظيم الشأن فى وظيفته المرموقة. إنه يملأ أذنَىْ **حورس**(*) بالحقيقة والعدالة، إنه كبير الكهنة المرتلين والمشرف العام على الأملاك الملكية*(٩٨)...

كانت كلها مناصب دنيوية وروحانية، يمكن أن تُعهد بلا تمييز إلى شخص واحد.

ز- *العسكريون*

قام العسكريون، بطبيعة الحال، بدور بارز فى بلاط **الرعامسة**، ونذكر منهم: قواد الجيوش، وقواد سلاح المركبات، ورؤساء الإسطبلات، والموفدين الملكيين، وحملة البيارق... كان الوزير هو المسئول الإدارى عن هذا العالم بأكمله، ويسهر على تجنيد العناصر الجديدة وعلى حسن أداء الجيش، كما أن رجال الحاميات فى القلاع والحصون كانوا مسئولين منه. ولكن إذا دارت رحى الحرب يقوم الملك بوضع خطط العمليات الحربية، ويقود الجند إلى ساحة الوَغَى.

كانت بعض الشخصيات عظيمة الشأن أو هى كذلك على الأقل فى نظرنا، استناداً إلى الكشوفات الأثرية غير المنتظرة والفريدة فى بابها. نذكر منهم على سبيل المثال **سوتى**(**) الذى كان فى عهد **رعمسيس** الثانى

*كبير الملك، ومحبوبه، والقائد العظيم للجيش، وكبير قادة مركبات **صاحب الجلالة**.*

كما كان أيضاً

(*) الملك. (المؤلفة)

(**) صيغة معدلة للاسم **سيتى**، وكانت مألوفة فى ذلك العصر. (المؤلفة)

رئيس خزائن رب القطرين والمشرف العام على مواقع العمل فى مكان الأبدية[99] [أى المقبرة الملكية].

هذا القائد للجيش كان مسئولاً أيضًا عن مالية الدولة وبناء مقبرة الملك الصخرية. ربما كان **سوتى** أحد الرجال الذين لاحظ **رعمسيس** تميزهم فى المعارك الحربية، فأسند إليه أرفع المناصب.

وبشأنه يمكن أن نتحدث عن صُدف الحفائر، فقد شاء الحظ ذات يوم من أيام شهر أكتوبر ١٨٩٩، بينما كان أحد أبناء قرية **الخوالد**، المواجهة لمدينة **أبو تيج** فى محافظة **أسيوط**، يقوم بعمل ورع، إذ كان يحفر مقبرة لعائلته فى مكان لا يبعد كثيرًا عن بلدته، أن أخرج إلى النور، عن غير قصد، مقبرة صخرية، بدا له أنها تعود إلى عصور قديمة. لقد اعتاد الفلاحون المصريون أن تُفاجأ معازقهم أو معاولهم أو محاريثهم، بالكشف عن ثروات وكنوز ظلت مدفونة فى أراضيهم لآلاف السنين. لقد قامت **مصر** و**روما** «بزرع» الآثار فى طول البلاد وعرضها. وأبلغ الرجل الطبيب المأمور المحلى، وأُخطرت **مصلحة الآثار**. عندئذ تمَّ الكشف شمال القرية وجنوبها عن جبانة يعود تاريخها إلى الأسرة التاسعة عشرة، وقد توارت أسفل مدافن حديثة[100]. كانت مقبرة **سوتى** محفورة فى منطقة تربتها طَفْلية ورطبة، ومن ثم اضطر العمال أن يرفعوا سقفها فوق أعمدة من الحجر الجيرى، بسبب هشاشة التربة. كانت المقبرة تتكون من بئر مغطاة ببلاطة، تفضى إلى بهو يضم ستة أعمدة مربعة من الحجر الجيرى، دونت عليها **صيغة القرابين**، ثم نصل إلى حجرة أخرى، تتصل بحجرة الدفن بواسطة خندق.

كان **سوتى** يدخر لنا مفاجآت أخرى. ففى شهر يوليو ١٩١٨، وبجوار **دير الشلويت** عند الطرف الجنوبى من جبانة **طيبة**، وفى المنطقةالتى شُيد فيها معبد صغير فى العصر **الرومانى**، عثر أحد الفلاحين وسط حقوله على تمثال من الجرانيت الأسود

مزركش ببقع وردية اللون، ويصور رجلاً جالساً على الأرض، ومدثر فى معطف كبير، وتكتَّف ساعداه فوق ركبتيه وهو وضع شائع عند نحت التماثيل، ومستمد من وضع الكاتب. كان رأسه ناقصًا(١٠١)، ولكن نُحتت مدونة على جانبى المعطف الأمامى والخلفى.

*«**سوتى** الذى يمتدح الإله الكامل، (**سوتى**) القائد العام لجيش **سيد الأرضين**، ومدير بيت الفضة وبيت الذهب يتحدث قائلاً: «إنى قادم إليك، يا **رب** الأرض المقدسة، يا **أوزيريس** الواقف على رأس **الغرب**، إنى أدخل فى وجودك، والقلب محمَّل بالحقيقة والعدالة(١٠٢)»...*

يدخل **سوتى** إلى القاعة الكبرى حيث سيقوم **أوزيريس** ومساعدوه الإلهيون بمحاكمته، ويُوزن قلبه على ميزان العدالة.

إنها الآمال التى كان يتطلع هذا الشخص العظيم فى بلاط **رعمسيس** الثانى إلى تحقيقها بعد وفاته، كان يرقد إذن فى منطقة **طيبة**، فى هذه الأرض المقدسة التى كان قد سُجِّى فى باطنها لأكثر من ثلاثة آلاف سنة. إن علم الآثار مغامرة يباغتنا أحيانًا بما ليس فى الحسبان. ويقدم لنا علم المصريات المفاجآت والعجب العُجاب المتجددة على الدوام.

إن **سوتى** الذى كان يجمع بين الوظائف العسكرية والإدارية، كان بلا شك من أبناء **الجنوب**، وقد جاء إلى البلاط الملكى، ربما بعد أن أبلى مرةً بلاءً حسنًا فى ساحة القتال إلى جانب **رعمسيس**. وبالفعل فإن تمثالاً من الألبستر، من مقتنيات **متحف القاهرة** فى الوقت الراهن، يصوره جاثيًا، بينما يقدم ثلاثة آلهة فوق قاعدة، التزامًا بحركة شعائرية. وهذه الآلهة الثلاثة هى **خنوم** و**ساتيس** و**أنوكيس**. ومن حقنا أن نذهب إلى الاعتقاد بأن هذا الورع من جانب **سوتى** نحو ثالوث مدينة **إلفنتين** يشير إلى موطنه الأصلى.

وبطبيعة الحال ليته كان فى وسعنا أن نقدم وصفًا وتحليلاً لحياة بعض الضباط أو الجنود. ولكننا نفتقر إلى الوثائق، ولا توفر لنا المقابر سوى أسماء وألقاب ونذور جنائزية. وقد نعرف أحيانًا صورهم وبعض المشاهد البارزة من حياتهم، خلدتها جدران مقاصيرهم الجنائزية، إلى جانب بعض الإشارات المتفرقة. ويمكن أن نتخيل عددهم وأهميتهم فى مدينة **پر - رعمسيس**. فهناك، وفى الجهات الأصلية الأربع، أقيمت معسكرات **جيش - الانتصارات**، ولكن أمجاد **الفرعون** فقط كانت تستحق أن تخلَّد، إلى أبد الآباد.

ومع ذلك فإننا نعرف تاريخ حياة **مننا**، مرافق مركبة **رعمسيس** الثانى، يوم احتدام المعركة أمام **قادش** فى العام الخامس من حكمه. كان **مننا** الوحيد من بين أفراد الجيش كله الذى لم يتخلَّ عن سيده، رغم ما أصابه من هلع. ففى قصيدة **بنتاؤور**، صدرت هذه الكلمات على لسان **رعمسيس**:

*عندما لاحظ **مننا** المرافق لمركبتى أن أعدادًا كبيرة من المركبات تحاصرنا، خارت قواه، وصار قلبه جبانًا، ونفذ رعب عظيم إلى بدنه. عندئذ قال **لصاحب الجلالة**: «يا سيدى الكامل، يا أمير البسالة وحامى **مصر** الأعظم، يوم الوَغَى، إننا هنا بمفردنا وسط الأعداء. انظر، لقد تخلى عنّا سلاح المشاة وسلاح المركبات. وامًا! لِما تبقى هنا، حتى ينتزعا النسمات من فمنا؟ أتح لنا أن نبقى سالمين، نجِّنا، يا **أوسر ماعت رع - ستپ إن رع**!»*

*عندئذ قال له **صاحب الجلالة**:*

*«شدد من أزرك! ثبِّت قلبك! يا مرافق مركبتى! سوف أهاجم الأعداء مثل الصقر الذى ينقض على فريسته. سوف أقتل وأثخن ذبحًا. من هم هؤلاء الآسيويون فى مواجهتك؟ ماذا يستطيعون ضد **أمون**، هؤلاء الجبناء الذين لا يعرفون الله؟ لن يشحب وجهى من الخوف، حتى فى مواجهة الملايين منهم[١٠٣]».*

حقا إنها وسيلة وإن كانت سحرية لشحذ بسالة **فرعون** عن طريق الكلمات، ولكنها وسيلة أيضًا لتكريم الرفيق المخلص الوحيد الذى وجده **رعمسيس** واقفًا بجوازه فى المعركة، لتظل ذكراه على هذا النحو باقية مع ذكرى سيده، إلى أبد الآباد.

كما عرف الجهاز الإدارى العسكرى أعداداً كبيرة من الكتبة. لقد تميزوا بالفطنة والحصافة، سواء كانوا كتبة الجيش أو كتبة سلاح المركبات أو كتبة الإسطبلات، فسجلوا بعناية فائقة كل ما يرد من جياد وبشر ومُؤن، وكان يقع على عاتقهم، إلى حد كبير، فاعلية الجيش المصرى.

وحديثًا، وعند الزاوية الجنوبية الغربية للسور الذى يرسم حدود حرم المعبد الكبير للإله **پتاح** فى **منف**، وتحديداً فى بهو أساطين معبد صغير، شيده **رعمسيس** الثانى، فى هذا المكان، وكرَّسه أيضًا للإله **پتاح**، عُثر على مائدة للمسكوبات من الماء بغرض التطهر. إنه معلم نذرىٌّ مكرس لإله **منف**، ومقدم من **أمن إم حات**، كاتب ترسانات المدينة البحرية[١٠٤]. كان تمثال الكاتب يشغل أحد جانبَىْ المائدة الصغيرين، ولكنه شديد التلف. وما زال الجذع ملتصقًا بالمائدة، لأن تفريغ الكتلة الحجرية فى هذا المكان كان يحتاج إلى عمل على قدر كبير من الدقة. والجدير بالملاحظة أن المعلم الأثرى يتخذ فى مجموعه شكلاً نمطيًا إلى حد ما، يحاكى سور حصن، يتكون من ثلاث زوايا ناتئة وبروزات أربعة فى السور وبرجين ركنيين وبرجين فى الوسط. وفى أعلى السور شرفات محفورة حفراً بارزًا عند حافة الوعاء المستطيل. إننا أمام وثيقة فريدة فى بابها، فقد أرادت بكل وضوح أن تحاكى الجدار الكبير لسور معبد **پتاح** الذى بدأ **رعمسيس** الثانى بناءه واستكمله ابنه **مر إن پتاح**. وحول جوانب الأثر الثلاثة نُحتت ترنيمة اتخذت أسلوب المناجاة، وهو أسلوب أدبى شاع على نطاق واسع فى ذلك العصر:

*المديح لك، أيا **پتاح**، يا من يرفع السماء ويخلق قوت البشر والآلهة.*

*المديح لك، أيا **پتاح**، عندما تتألق فى قاربك لملايين السنين.*

المديح لك، أيا **بتاح**، *يا رب الزمن الأبدى، الذى يجعل جميع البشر يحيون من جمالك.*

المديح لك، أيا **بتاح**، *يا صاحب القلب الوديع، أيها الكائن المقدس الذى يُظهر الحقيقة والعدالة.*

المديح لك، أيها الإله صاحب الوجه الجميل، والإله المحبوب.

المديح لك، يا رب الحقيقة والعدالة، الذى يستمع إلى من يعملون على إرضائك.

المديح لك، فى **منف**، *الأعظم من سائر المدن.*

المديح لك، بجوار السور العظيم، فى هذا المكان الذى يُستجاب فيه للتضرعات(١٠٥).

هكذا فإن المديح يخص ثلاثة أوجه للإله: الإله العالمى الذى يبدو أنه، استناداً إلى بعض النعوت، قد تمّ الخلط بينه وبين **رع**. وأخيراً إله منطقة **منف** وهو الإله الأكثر شعبية الذى يستجيب للتضرعات، «*بجوار السور العظيم*»، فكان يسهل على عامة الناس الوصول إلى هذا المكان حيث كان يفترض أن **بتاح** الرءوف العطوف يستجيب لطلبات والتماسات أتباعه المؤمنين به.

هذه الدراسة التى خصصناها لكبراء رجال بلاط **بر - رعمسيس**، وإن كانت جزئية وغير شاملة، فإنها تُلمح إلى وجود عائلات على قدر كبير من النفوذ، وقد أغدق عليها **الفرعون** أسمى الرتب والمراتب وأشرفها، وأهم المناصب وأرفعها شأناً.

وفى هذا الصدد، نشير إلى نص يبين ما نقصده بأكبر قدر من الوضوح، وقد دُوِّن على لوح حجرى - من مقتنيات متحف **نابولى** فى الوقت الراهن - ومُقدَّم من

أمن إم إينت(*) بن **ون إن نفر**، كبير كهنة إله **طيبة**، ورفيق الصِّبا **لرعمسيس** الثانى. استطاع **أمن إم إينت** أن يحصى أربعة وعشرين من أقاربه شغل جميعهم مناصب رفيعة فى الجهاز الإدارى أو الجيش أو سلك الكهنوت. كان يريد أن يبرهن بذلك أن أبناء جلدته كانوا من ذوى النفوذ والشأن الرفيع(١٠٦). وكما سنلاحظ فيما بعد، فإن البعض الآخر من هذه العائلات قد تمتع بالتالى بسلطة سياسية أكيدة، ربما أصبحت تشكل، فى آخر المطاف، خطرًا على الملك، بعد أن أصبح طاعنًا فى السن.

ح - الأفارقة

كما كان بلاط **رعمسيس** يضم الأفارقة، إذ كانت **النوبة** و**السودان** خاضعتين للسيطرة المصرية، وتُدار وتُدبر شئونها من عاصمة الوطن الأم. وكان موظفو المستعمرات بأعداد كبيرة.

كان **أمن إم أوبت**(**) بن الوزير **پاسر** «*حاكم بلاد* ***الجنوب***، *والابن الملكى فى* ***كوش***» فى عهد **سيتى** الأول وبداية عهد **رعمسيس** الثانى. وفى هذا السياق لا ينطوى لقب «*الابن الملكى*» بالضرورة على وجود علاقة عائلية بالعاهل الملكى، كانت التقاليد المتوارثة تقضى أن يحمل نواب الملك هذا اللقب، منذ أن كان أول من شغل هذا المنصب أميرًا حقيقيا تجرى فى عروقه دماء ملكية. ومن ثم كانت عائلة **پاسر** تشغل فى أنحاء الإمبراطورية أكبر المناصب التى تُلقى على عاتق صاحبها مسئوليات جسام. وكان **الفرعون** يعرف كيف يكافئ أصدقاءه وموظفيه المخلصين الأوفياء.

كان **يونى** «*ابنًا ملكيًا فى* ***كوش***» فى عهد **رعمسيس** الثانى، ولكن وردت إشارة إليه بالفعل، فى مدونة تعود إلى عهد **سيتى** الأول. كما كان موظفًا مرموقًا فى خدمة العائلة المالكة.

(*) ومعناه: «***أمون*** *فى الوادى*». (المؤلفة)

(**) ومعناه: «***أمون*** *فى الحريم*». (المؤلفة)

ولا شك، أنه بصفته، «*المشرف العام على مواقع العمل فى معبد* ***أمون***»، بدأ بإنشاء معبدى **أبو سمبل**. لقد أمر بنحت لوح صخرى على مقربة من معبد **نفرتارى** الصغير. وفى جزئه العلوى المقوس نشاهد **يونى** وهو يقدم مروحة من الريش إلى **رعمسيس** الجالس على عرشه. والنص القصير عبارة عن ترنيمة إلى الملك.

ليت أباك ***أمون*** *– رع يحميك ويمنحك كل الحياة والثبات والقوة. ليته يعطيك الزمن الأبدى بصفتك ملكًا والزمن اللانهائى بصفتك القيِّم على* ***الأقواس التسعة***(١٠٧).

وعملاً بأسلوب بلاغى شاع على نطاق واسع فإن شخصية الملك مزدوجة، تمامًا كما أن الزمن الذى لا حدود له والذى سيُعطى له مزدوج. هكذا، فإن هذين الوجهين للعاهل الملكى يكشفان بكل وضوح التمييز الذى عرفه المصريون بين لفظ **نسوت** ومعناه: «*ذاك الذى ينتسب إلى البوص*»، وهو النبات الذى يرمز إلى **مصر العليا** التى جاء منها فى كثير من الأحوال ملوك وحَّدوا **مصر**، ومن ثم فإنه يطلق على ملك **مصر**، وبين الإمبراطور أى القيِّم على **الأقواس التسعة**، أو كما يقال أحيانًا بنبرة تُشدِّد على الجانب الدينى، فيطلق عليه «*شمس* ***الأقواس التسعة***». هذان اللقبان اللذان سبق أن التقينا بهما فى نص للوزير **پاسر**(١٠٨)، يؤكدان على تصميم **رعمسيس** الثانى على ربط الحكومتين فى شخصه، حكومة **مصر** وحكومة البلدان الخاضعة للهيمنة المصرية، بعد أن أصبحت لا تشكل سوى قطر واحد.

ومن العام ٢٥ إلى العام ٣٤ من عهد **رعمسيس** الثانى، قام **پاسر** آخر، الذى نطلق عليه **پاسر** الثانى، بشغل منصب نائب الملك فى بلاد **الجنوب**. كان لا يرتبط، على ما يبدو، بأى علاقة عائلية بالوزير. فاسم **پاسر** من الأسماء الشائعة، كما يعنى «**السَّرِىّ**(*)». بل كان ابن عم **أمن إم إِينت** الذى ربطته صداقة حميمة بالملك **رعمسيس**

(*) أى: الشريف، الكريم الحسب. المعجم الوسيط والمعجم العربى الأساسى. من حقنا مقارنة اللفظ المصرى القديم باللفظ العربى. (المترجم)

منذ نعومة أظفارهما، فنال مقابل ذلك هو وعائلته أسمى مراتب الشرف. إن **پانست تاوى**، وهو أحد أعمام **پاسر** الثانى، كان قائد الجيش، ثم شغل ابنه **نخت مين** هذا المنصب نفسه.

وفى العام ٣١ أصابت منطقة **أبوسمبل**، هزَّة أرضية عنيفة، مُحطِّمة أساسات المعبد بالإضافة إلى بعض الأعمدة المربعة والتماثيل. وساد الاعتقاد بأنه غضب الآلهة(*). وأحيط **رعمسيس** علمًا ولكن أمكن استئناف العمل فيما بعد، إلى الانتهاء منه دون حوادث أخرى. وبعد إنقاذ **أبو سمبل** من زلزلة الأرض، جرى إنقاذه حديثًا من المياه(**). إن **أمون ورع – حور أختى وپتاح**، ثالوث **الرعامسة** المقدس، الماثل بجوار **رعمسيس**، يحمون «*بيتهم*».

ومرة أخرى، نقف أمام إحدى المغامرات الرائعة والموفقة التى يفاجئنا بها علم الآثار، عندما تمَّ الكشف عن ألواح **پاسر** الثانى الحجرية، فى **أبو سمبل**. فأثناء إحدى بعثات **باريز** Baraize فى النوبة، وكان مدير الحفائر فى **أبوسمبل**، التقى فى الموقع، فى فبراير ١٩٣٢ بسائحة من مدينة **نيويورك**، هى السيدة **أن أرشبولد** Anne Archbold، التى سألته عن بعض الإيضاحات. وأبدى أمامها افتراضًا مفاده أن معبدًا ثالثًا، ربما يكون قائمًا بين المعبدين وما زالت أكوام الرمال تغطيه(***). وواصلت السيدة **أرشبولد** رحلتها فى اتجاه **الجنوب**، ومن **وادى حلفا**، أرسلت برقية إلى **باريز** فى ١١ فبراير، تخبره بأنها تضع تحت تصرف **مصلحة الآثار المصرية** مبلغ ألفى دولار للقيام بإزاحة الرمال عن المنطقة المحصورة بين معبدى **أبوسمبل**. ووافق وزير

(**) وتحديداً الإله **ست** رب الاضطرابات.

Ch. Desroches Noblecourt. Ramsés II. Pygmalion, 1996. p.328. (المترجم)

(**) الإشارة هنا إلى إنقاذ معبدى **أبوسمبل**، عند بناء **السد العالى**. (المترجم)

(***) إن أحلام علماء المصريات لا حدود لها. فيرون أن أصغر كوم من الرمال قد يخفى كنوزًا مدفونة. (المؤلفة)

المعارف العمومية و**مصلحة الآثار**(*). وتم إبلاغ السيدة **أرشبولد** بتقبل أحرً آيات الشكر والامتنان، ولكن لم يتحقق حلم **باريز**. ومع ذلك، فأثناء القيام بأعمال رفع الرمال، عُثر على ثلاثة ألواح كبيرة تعود إلى **پاسر** الثانى، لوحين حجريين غير ثابتين، والثالث منحوت فى الصخر(١٠٩).

ووسط القسم العلوى المقوس من اللوح الصخرى، صُوِّر **پاسر** متعبداً إلى **رعمسيس** الثانى الجالس على عرش نحتت على قاعدته صورتا عدوَّين صريعين. فلما كانت هذه الصورة تشير من ناحية إلى الانتصار على أبناء **إفريقيا**، وإلى ألوهية **الفرعون** من ناحية أخرى، فقد كانت مؤهلة لبث الرعب فى قلب **النوبيين** عند صعودهم نهر **النيل** وهبوطهم، ومن ثمّ دفعهم إلى الخضوع. كان هذا اللوح أشبه بما نطلق عليه، فى أيامنا هذه، نُصب «الردع» وفى الوقت نفسه كان يشيد **پاسر** من خلاله بسيده ويثنى عليه.

أما اللوحان الحجريان غير الثابتين، فقد نقلا إلى المتحف المصرى **بالقاهرة** الذى يحتفظ بهما ضمن مقتنياته. وفى القسم العلوى المقوس من اللوحين صُوِّر **پاسر** وهو يتعبد للإله **أمون**، إلى جانب نص منحوت يحدد هبة من الأراضى تدوم إلى الأبد، يقدمها **پاسر** بناء على أمر من **رعمسيس** الثانى وباسمه. وسوف تخصص إيرادات هذه الأراضى لضمان قيام العبادة فى «*الركيزة العظمى للإله **أمون** فى **فارس***(**)». وترتبط هذه «*الركيزة*» بأحد الأعمدة الأربعة التى ترفع السماء، كما ترتبط بالشكل الذى كانت تقوم عليه عبادة **أمون** فى هذا الموقع **النوبى**. إن إدارة هذه الأراضى وإيراداتها كانت تُعهد بالوراثة إلى عائلة موظف محلى، هو الكاتب **خاى**. وكانت مساحة هذه الأراضى تبلغ هكتارين(***) تقريبًا. إن الأراضى التى تُقدم هبة للمعبد،

(*) وكانت تابعة **لوزارة المعارف**. (المترجم)

(**) وتقع إلى الجنوب من **أبوسمبل**. (المترجم)

(***) أو ما يعادل حوالى خمسة أفدنة. (المترجم)

من أجل ضمان صيانته وإقامة الشعائر بفضل ما تدره من إيرادات، كانت أمراً شائعاً مألوفاً.

وفى العام ٣٤ خلف **باسر** شخص متقدم فى السنّ، اعتزل بسرعة، ولكن أراد **رعمسيس** أن يعبر له عن تقديره. هذا الشخص هو **حوى** الذى كان قائد سلاح المركبات، ورافق موكب الأميرة الحيثية **ما أت - حور - نفرو رع** حتى **پر - رعمسيس** لتتزوج من الملك.

إن الأقوى، على ما يبدو، من بين سائر نواب الملك فى عهد **الرعامسة**، كان بلا شك، **ستاو** الذى شغل هذا المنصب من العام ٣٨ حتى العام ٦٣ من عهد **رعمسيس** الثانى.

هل كان ابن العاهل الملكى؟ إنه لم يذكر، على كل حال، فى القوائم الرسمية للأمراء الذين تجرى فى عروقهم دماء ملكية. حقًّا لقد كان يحمل لقب «*الابن الملكى*»، ولكن كما سبق أن لاحظنا، كان يُمنح هذا اللقب أحياناً إلى أشخاص يريد الملك أن يميزهم على هذا النحو. كما تظل أصوله غير مؤكدة.

كان شاباً نشطاً حازماً، قام بأعمال على قدر كبير من الأهمية. ووصلتنا رواية مختصرة عن حياته، نُحتت على لوح حجرى شديد التلف والتشوه، مع الأسف الشديد.

*إنى أكرِّم الإله الكامل، **الحورس** المحبوب من **الحقيقة - العدالة**. أنا إنسان علَّمه **صاحب الجلالة** داخل قصره... لقد شببت فى **بيت** الملك منذ أن كنت طفلاً... وتوفَّرت لى أطعمة طيبة مقدمة من الموائد الملكية وتخرَّجت من **بيت التعليم** بصفتى كاتبًا... ورُقيت **صديقًا أوحدَ لصاحب الجلالة**، بينما كنت لا أزال فى مقتبل العمر، وعُيِّنتُ الكاتب الرئيسى للوزير. وحدَّدت الضرائب للبلد بأكمله على لفة كبيرة من ورق البردى، وكنت ملائمًا لأهمية هذا العمل وكفؤًا له... واستطاع سيده أن يلاحظ كم كنت ناجحًا، عندما زدت من كميات القرابين الإلهية المقدمة لجميع الآلهة، فزخرت*

خزائنها بمختلف الأشياء، بينما كانت شُونها تلامس السماء، وقطعانها بلا حصر. كما استطاع أن يكتشف فاعليتى، لأننى كنت آمر بنقل حصيلة الحصاد إلى الشُوَن (الملكية)... بالملايين وجعلتها تفيض بالقمح... لم أسمح على الإطلاق بالإضرار بالبلد بأى شكل من الأشكال، وتصرفت بحيث يُجِلّ الشباب **صاحب الجلالة** ويبجلونه. عندئذ عيننى العاهل الملكى كبير المشرفين على أملاك **آمون – رع**، ملك الآلهة. كنت مدير الخزائن الإلهية وقائد عيد **آمون**، ممسكًا بين يَدَى مائدتين من ذهب متألقتين لأقدمها لوجهه، توقيراً **لصاحب الجلالة** ولتعظيم **رب القطرين** وتمجيده... ومن جديد لاحظ سيدى أن اسمى عظيم وجالب للخير. عندئذ، عيَّننى «ابنًا ملكيًا فى هذا البلد **كوش**»... وجلبت ضرائب **كوش** بعد أن ضاعفتها، وأمرت بأن تصبح وفرة جزية هذا البلد كوفرة رمال الشطآن، الأمر الذى لم يصل إليه من قبل أىُّ ابن ملكى فى **كوش** منذ زمن الإله، رغم غنائم الساعد القوى **للفرعون**، سيدى الكامل. عندئذ، فإن بلد **إيرم** الخسيس (جاء راضخًا) بالإضافة إلى زعيم **إيكوياتا** ومعه زوجته وأولاده وعائلته وأهل بلده. وربطت قوسه، بينما سرت فى الطريق على رأس جيشه. وبعد ذلك، تمَّ جمع ضرائب جزية طائلة ونقلت إلى **مصر**.

ثم شيَّدت معبد **رعمسيس – محبوب – آمون** فى أملاك **آمون**، بأن أمرت بحفر الجبل، وأنجزت عملاً مقدراً له أن يدوم للزمن الأبدى. وملأت المعبد بعدد كبير من العاملين من بين أسرى **صاحب الجلالة**، بينما امتلأت مخازنه بالمؤن حتى لامست السماء. كان الشعير والعَلَس والقمح، بكميات كبيرة. كان قائمًا بجوار معبد **آمون** (الذى شيده) سيدى، **رعمسيس – محبوب – آمون**.. كما أعدت بناء كل معابد **كوش** بالكامل، والتى كانت قد تهدَّمت فأقيمت من جديد، لصالح الاسم العظيم **لصاحب الجلالة**.... وامتدحنى سيدى من أجل ما صنعته، والذى كان يعلى من شأنه.

وجعلنى شخصًا عظيمًا فى المحكمة، لأفصل فى دعاوى **القطرين**، كما أصبحت أول **الأصدقاء**، على رأس رجال البلاط... كان جميعهم ينحنون أمامى... لأننى أقول دائمًا الحقيقة، ولا أقترف الكذب. وفى حقيقة الأمر، فأنا أعرف أن **صاحب الجلالة** يُحب **الحقيقة – العدالة**.... وأنا خادم الإلهات(١١٠).

فمنذ نعومة أظفاره إذن، تعلم **ستاو** وتربى فى القصر الملكى، سواء كان ابن **رعمسيس** أو ربما بدافع من المودة والصداقة نحو عائلته، هكذا كان الصبى متميزًا(١١١). لا شك أنها كانت أيضًا وسيلة لإعداد من سيصبحون فى المستقبل على رأس الجهاز الإدارى، إعدادًا ملكيًا. وقد حصل على التأهيل الموسوعى المخصص للكتبة(*). كان مسار حياته المهنية فيما بعد، ما يسمى اصطلاحًا بالمسار *«البامر المرموق»*، كان فى البداية جابيًا نشطًا مخلصًا لعمله، عند تحصيل ضرائب البلد لخدمة المعابد والملك، ثم ألحق، على نحو أكثر تحديدًا، بأملاك **آمون - رع**. وإذ لاحظ **رعمسيس** الثانى قيمته ومزاياه الشخصية، عينه *«ابنًا ملكيًا فى* ***كوش****»*. ويبدو إذن أن صاحبنا قد أثقل إلى حدٍّ ما بالضرائب على كاهل السودانيين الخاضعين **لمصر**، الأمر الذى قد يفسر التمرد الذى ورد ذكره. وفى هذا الصدد، يصعب على المرء أن يكتب كلمة تمرد أو النطق بها، فقد يعنى ذلك إضفاء واقع خطير عليها. إننا نذكر هذه الكلمة فقط لوصف ما حدث فى البلد الجنوبى **إيريم**، كما فى عهد **سيتى** الأول وفى منطقة مجاورة بلا أدنى شك. إن نشاط نائب الملك، فى مجال البناء والتشييد كان بلاشك على قدر كبير من الأهمية، وذلك قبل أن يصبح أحد كبار القضاة فى محكمة الدولة.

فقد شارك إلى حدٍّ كبير، فى إقامة المعابد النوبية فى **أبوسمبل** و**جرف حسين** و**وادى السبوع** وكان يوجد فى هذا الموقع الأخير معبد سبق أن شيده **أمنحوتب** الثالث، ولكنه كان مهدمًا. وإلى جانب الأيدى العاملة التى وفرها أبناء هذه المناطق، فإن قسمًا منها جاء من الإغارة على الواحات **الليبية** فى **كركور** أو **دنقل** أو **سليمة**.

وفى فبراير/ مارس ١٩٠٩، وأثناء القيام بأعمال إزاحة الرمال عن ممر تكتنفه تماثيل **أبى الهول** وعن المبانى المشيدة من الطوب التى تتصدر معبد **رعمسيس** الثانى فى **وادى السبوع**، تمَّ الكشف تحت الرمال عن أحد عشر لوحًا حجريا، ظلت مدفونة

(*) بمقياس هذا العصر، وبعيدًا عن أى مفارقة تاريخية anachronisme، كان هذا الأسلوب فى إعداد القيادات أسلوبًا ناجعًا وفعالاً، يبتعد عن الاختيارات العشوائية القائمة على المحسوبية أو العلاقات الشخصية أو غيرها، بصرف النظر عن الكفاءة. (المترجم)

فى هذا المكان طوال آلاف السنين. ويعتقد أنها كانت معاصرة لتاريخ بناء المعبد. كانت سبعة منها لاتزال فى مكانها، الواحد بجوار الآخر، وتستند إلى الجدار المبنى من الطوب، والذى يشكل السور الشمالى لمر تماثيل أبوالهول، وكانت قائمة بداخله وتتجه واجهتها الأمامية، ناحية الجنوب(١١٢). وقد نقلت من مكانها لتصبح من مقتنيات **متحف القاهرة**، فى الوقت الراهن.

إن أكبر الألواح – ويعود تاريخه إلى العام ٣٤ من عهد الملك – دُوِّن عليه نص حياة **ستاو**. لقد كانت جميعها. ذات أشكال وأوضاع مختلفة، ومكرسة للآلهة المحلية وللفرعون **رمسيس** الثانى. إن ثلاثة من هذه الألواح مقدمة من **ستاو** شخصيًا. أما الأخرى، فمُقدمة إلى نائب الملك هذا، ذاته، من قِبل مساعديه، ولاسيما من العسكريين ومن حملة البيارق، على وجه التحديد. وتشهد جميع هذه المعالم على إقامة الشعائر من أجل «*رمسيس فى بيت آمون*»، أى الملك ذاته، تمامًا كما كان يُعبد فى معبد **وادى السبوع**(١١٣).

كما كان يدخر لنا الموقع مفاجآت أخرى. وحديثا وفى عام ١٩٥٩، وبينما كان **لبيب حبشى**(*) يقوم بجولة فى هذه المنطقة، ويزور خرائب معبد **أمنحوتب** الثالث، سأل الحارس، وهو من أبناء المنطقة، لمعرفة «*ما إذا كانت هذه الخرائب لا تزال تخفى شيئًا هامًا*». فأجابه الرجل عن احتمال وجود تمثال ما زال مختفيًا تحت الرمال(١١٤). وكشفت أعمال التنظيف عن قاعدة تمثال جماعى وجزئه الأسفل. لقد كان حجمه فى الأصل حجمًا طبيعيًا. وهو من الحجر الرملى، ويصور **ستاو** وزوجته **مُوت – نفرت** أى «**مُوت** – *الجميلة*»، «*رئيسة حريم آمون*». فكم من الآثار ما زالت تنتظر الكشف عنها!

كما تساعدنا مدونات **ستاو** على التعرف على بعض أحداث حياته الأخرى، الزاخرة بمختلف الأنشطة. هكذا، فمن المرجح أنه قد صعد إلى **مصر العليا**، بمناسبة الاحتفال باليوبيل الملكى الخامس، فى العام ٤٢ من عهد الملك. وبهذه المناسبة، فقد

(*) عالم مصريات مصرى. يحمل أحد شوارع **الأقصر** اسمه، ويقع بجوار فندق **إيتاب** ETAP، ويربط شارع **كورنيش النيل** بشارع **معبد الكرنك**. (المترجم)

فعل فى الحقيقة ما أقدم عليه الأمير **خع إم واست**، إذ أمر بنحت لوح صخرى فى بلدة **الكاب بمصر العليا**، وهو جدير بالملاحظة. وقد عُثر عليه بجوار معبد، من العصر البطلمى، حُفر نصفه فى الجبل واللوح منحوت فى ضلع من صخرة بارزة بروزاً طفيفاً. وقد شُيِّدت أمامه شرفة من العصر **الهلّينستى**، ومن المؤكد أنها قد أقيمت مع مراعاة وجود هذا اللوح، دون أن نعرف الهدف منها، على وجه التحديد[١١٥]، حيث كان اللوح يضم الصور والنصوص المألوفة.

كان عدد كبير من الموظفين، يعاونون نائب الملك فى إدارة مقاطعات **الجنوب**. وكان الأقرب منه «*قائمقام* (**إيدنو**) *منطقة* ***واوات***» و«*قائمقام منطقة* ***كوش***». إن عُمد كبرى المدن مثل **ميعام** (أو **عنيبة**) كانوا من المصريين، وفى الوقت نفسه كان يقع على عاتقهم إقامة الشعائر من أجل الآلهة المحلية. فالجمع بين مختلف الوظائف كان أمراً مقبولاً. هكذا فإن **حور نخت**(*)، قائمقام **واوات**، كان أيضاً عمدة **ميعام**، وأيضاً ابن العمدة السابق. فقد أخذت وراثة المناصب تصبح أمراً مستقراً فى مقاطعات الإمبراطورية البعيدة. وفى الوقت نفسه كان **حورنخت** كبير كهنة **حورس** المحلى. كما وُجد أيضاً منصب «*رئيس كهنة كافة آلهة بلدان الجنوب*»، الغرض منه التنسيق بين مختلف العبادات.

كان «*رئيس شونة* ***حورس*** (بلدة) ***ميعام***» و«*رئيس شونة* ***حورس*** (بلدة) ***بوهن***»... وغيرهم، يحصون المحاصيل وقطعان الماشية، فيساهمون بالتالى فى ازدهار البلاد. وكان «*رئيس حملة الأقواس ورئيس صحارى ذهب* ***أمون*** *فى* ***النوبة***» يسهرون على استخراج المعدن النفيس.

كان الأفارقة كثيرون، فيقومون بحماية حدود الإمبراطورية الأكثر تطرفاً ناحية **الجنوب** ويؤَمِّنون استثمار هذه الأصقاع.

(*) أى **حورس** قوى. (المؤلفة)

الأعياد الملكية، وأعياد اليوبيل

كان يفترض بصفة دورية أن يقوم الملك بتجديد مُلكه، فضلاً عن تجديد قواه الحيوية فى الوقت نفسه، من خلال احتفالات طقسية، يدور بعض فقراتها علنًا، فى حين كان بعضها الآخر على قدر كبير من الخصوصية. كان المصريون يطلقون فى العصور القديمة على احتفالات اليوبيل هذه، عبارة *أعياد* **سِد**[١١٦](*).

كان الاحتفال باليوبيل عيداً كبيرًا يعمُّ البلاد بأسرها، يستوجب استعدادات لفترة طويلة مع وجود مشرف عام مسئول عن التنفيذ.

كان جمع غفير من الحاضرين المختارين يحتشدون لهذه المناسبة. ويبدأ الاحتفال بوصول الآلهة والإلهات التى وُضعت تماثيلها على متن القوارب التى تشق مياه نهر **النيل**، لتلقى مراسيها فى المكان المخصص لإقامة هذا العيد. ومن بين الحضور كان الأمراء وكبراء أعيان البلاط وممثلو بلدان الإمبراطورية وسفراء البلدان الأجنبية. وفى المكان واليوم المحددين، يُعلن رسميًا الاحتفال بالعيد **سِد**.

تبدأ مراسم الاحتفال بموكب رسمى فى الفناء العام للمعبد، وفيه وفوق قاعدة أقيمت مقصورة مشيدة من مواد خفيفة، وبداخلها عرش. كان الملك فى صحبة الأمراء والوزيرين وكبار شخصيات الدولة وأعيانها قد غادروا القصر متجهين إلى المعبد. عندئذ يجلس العاهل الملكى على العرش بعد أن وضع التاج المزدوج(**) على رأسه. وأحيانًا كانت تضم المقصورة غرفتين، فيظهر فيهما الملك على التوالى، مرتديًا تاج **مصر العليا** الأبيض فى الأولى، وتاج **مصر السفلى** الأحمر فى الأخرى. عندئذ كان يدير وجهه صوب الجهات الرئيسية الأربع، فارضًا سيطرته على هذا النحو، على الأرض بأسرها. وفى هذه اللحظة تقوم أربع مجموعات، تتكون كل واحدة من إلهين - هل كانت مجرد تماثيل أو أدوار إيمائية يؤديها الكهنة؟ - فيرفعون فوقه أياديهم. كان **تاتنن** و**ست** يمثلان **الجنوب**، و**أتوم** و**حورس** (؟) يمثلان **الشمال**، و**خبرى** و**جب**، يمثلان -

---

(*) **سِد**: كلمة مصرية قديمة. وأعياد **سِد** بالمصرية القديمة: **حِب سِد**. (المترجم)

(**) **البشنت**. (المؤلفة)

الغرب، و**إيزيس** و**نفتيس** يمثلان **الشرق**. كان بعض الكهنة يصعدون درجات القاعدة ويقدمون للملك مختلف الأشياء المقدسة. نذكر منها على سبيل المثال، عمود سارية ينتهى برأس كبش **آمون** أو تصوير للإله **آتوم**، أو تمثال صغير لأبوالهول، بينما يرتل كاهن آخر التعويذة الآتية:

*يتجلى **حورس** فوق عرش **الجنوب**، وعندئذ تلتقى السماء والأرض.*

وتتكرر هذه التعويذة أربع مرات فى اتجاه كل جهة من الجهات الأصلية الأربع. وربما أشارت هذه الشعيرة إلى زمن لم تكن السماء والأرض منفصلتين فيه، فكانت الآلهة أول الملوك الذين حكموا العالم. ومعنى ذلك أن يكتسب الملك بفضل سحر الحركات والإيماءات والكلمات مُلكًا ومصيراً إلهيين، بالإضافة إلى تسيده على الكون.

بعد ذلك، يغادر الموكب فناء المعبد، ويتجه إلى مكان القصر الذى وقع عليه الاختيار لإقامة الشعائر الأخرى. وعندئذ تستطيع الملكة أن تنضم إلى الموكب، ولكنها لا تدخل المبنى. وعند مدخل القصر كان الملك يرتدى التاج الأبيض ويحمل الصولجان والسوط، وهى من شارات المُلك. ويقدم قرباناً عظيماً إلى ضيوفة الآلهة. ثم يجلس فوق عرش متحرك يحمله ستة كهنة، ويدخل القصر.

ثم يظهر مرتدياً المعطف اليوبيلى. إنه رداء محبوك، يصل إلى الركبة، يتخذ من الأمام عند الرقبة شكل الرقم سبعة. ولا يظهر من هذا الرداء سوى اليدين. هكذا، وإذ يظهر الملك فى هذه الهيئة، يبدو أنه أراد الانتساب إلى آلهة الخلق ذات الرداء اللاصق المحبوك، مثل **بتاح** أو **أوزيريس** أو **مين**. إنها مالكة للقوى المتجددة إلى أبد الآباد، مثل قوى عالم النبات[١١٧]، وهو ما تبرهن عليه، على ما يبدو، فقرات العيد التالية، وما زالت توضحه المشاهد المنحوتة على جدران معبد **سيتى** الأول الجنائزى فى **أبيدوس**. كانت الشعيرة تقام إما فى مقبرة أو فى مقصورة صغيرة تحاكى شكلها. فيصور الملك ممدداً فوق سرير، وقد لُوِّنت بشرته باللون الأخضر. وعلى المظلة فوق السرير كتبت عبارة: «**استيقظ**». وبجوار المضجع الملكى، وضعت شارات السلطة من ملابس وأسلحة مُرتَّبة، والتى سيرتديها الملك أو يمسك بها، بعد أن يعود إلى الحياة. هنا نصل إلى ذروة الشعائر. سوف يعود الملك إلى الحياة، كما فعل **أوزيريس**، ليستهل

عهداً **جديداً**. وتقف الآلهة هنا، تراقب الحياة الجديدة، على اليسار **إمستى وحبى**(*)، وهما من أبناء **حورس**، ومن آلهة **الآنية الكانوبية**، الأول برأس آدمى والثانى برأس قرد شبيه برأس الكلب، وبجوارهما **أنوبيس**. وفى المقدمة صُوِّر **أوزيريس**. أما على اليمين، فتوجد عشرون آلهة أخرى، نذكر منها **دواموتف وقبح سنوف**، إنهما ابنا **حورس** الآخران، ورأساهما يزدان بهما غطاء **الإنائين الكانوبيين** الآخرين وهما على التوالى رأس كلب ورأس صقر. وبجوارهما توجد الآلهة **شو وتحوت وإيزيس**. ثم تُؤدَّى شعيرة فتح الفم التقليدية بواسطة آلة من النحاس تشبه القَدوم. كما تقدم له «**عين حورس**» وهى القربان الذى أعطاه الابن البار إلى أبيه **أوزيريس** بعد أن بُعث حيًا. كما تقدم له جرة لبن، غذاءً لهذا المولود الجديد المتميز. واللبن هبة من **إيزيس**.

وتتزاحم الآلهة - كل الآلهة - لمشاهدة الملك، بعد أن تجددت قواه واستعاد شبابه ونشاطه، ليعود من جديد إلى قصره، حيث ينتظره عرشه الذى كان قد تركه ملكًا «*خارت قواه*».

هكذا، فإن **الفرعون** على امتداد زمن حياته، كان يحتفل لحسابه فى واقع الأمر، بسرٍ **أوزيريس** المقدس. إنه لعبة درامية كبرى للحياة والموت وإعادة بعث الحياة، والتوحُّد مع مصير عالم النبات. إن أوجه الشبه مع المواقف والتعاويذ، بتأثيراتها السحرية، كان يُنتظر منها أن تساهم فى الشباب الأبدى للعاهل الملكى. إن العيد **سِد**، وهو بمثابة إعادة شحن القوى الحيوية، ينطوى على لحظات أساسية ثلاث:

١ - فى **المعبد**، حيث يتوحَّد **الفرعون** مع الآلهة، أول الملوك الذين حكموا الأرض.

٢ - فى **المقبرة**، للانتقال إلى حياة جديدة.

٣ - فى **القصر**، فإن الملك المنهك القوى يستعيد نشاطه وحيويته ليبدأ عهداً جديداً.

(*) يجب التمييز بين الأسماء المصرية القديمة الآتية: **حب** وهو اسم العجل **أبيس**، و**حعبى** إله **النيل**، و**حبى** أحد أبناء **حورس** الأربعة. (المترجم)

كما أن طقسين بما لهما من مغزى، يختتمان هنا العيد: طقس رفع العمود **چد** وإقامته. إنه يصور شجرة قُضِّبت فروعها، رمزًا للآلهة الزراعية ومن ثم الجنائزية، مثل **سوكر** و**أوزيريس**. فمع طلوع الفجر يقوم الملك برفع العمود الراقد على الأرض بواسطة حبال، هكذا فإنه يحاكى التجديد المزدوج لقوى الحياة، ظهور الشمس فى الصباح واستفاقة عالم النبات. فالملك يولد من جديد، شأنه شأن الشمس والأشجار... إن هذا الطقس يؤكد ويثبِّت الطقس السابق الذى منح **الفرعون** حياة جديدة.

وكان فى وسع الملكة والعائلة المالكة إن يرافقوا الملك لحضور هذا الاحتفال.

وأخيرًا، يأتى الدور على طقس العَدْو. بل المقصود تكرار العَدْو، أربع مرات، لإتاحة الفرصة للملك **الجديد**، وقد ارتدى نُقبة بسيطة يتدلى منها ذنب حيوان وتتقدمه سارية **واپ واوات**، الإله ابن آوى، «*فاتح الطريق*»، أن يبسط من جديد سلطته على أملاكه الأرضية، فى الجهات الأصلية الأربع. ولاشك أن إتمام هذين الطقسين، كان يجرى فى مكان، لايبعد كثيرًا عن القصر.

وأخيراً، وفى ختام هذه السلسلة الطويلة، تجرى محدّدًا احتفالات تتويج الملك.

ثم تستسلم المدينة للفرح والابتهاج ويبدأ العيد الشعبى.

إن «**إعادة شحن**» القوى الملكية لم تكن سمات تنفرد بها **مصر** فى العالم القديم. إننا نلتقى بها فى حضارات أخرى، وإن بمقومات مختلفة. إن التجديد والإحياء بواسطة النار، على وجه التحديد، كانا يمارسان فى كبرى المدن الفينيقية، مثل **صور**. فتُحرق دُمية تصور الملك، ليولد من جديد من رمادها ويحيا حياة **جديدة**(١١٨).

من العام ٣٠ وحتى العام ٦٧ من حكمه، احتفل **رعمسيس** الثانى بثلاثة عشر يوبيلاً – أى مرة كل ثلاث سنوات تقريبًا، بعد اليوبيل الأول، فى العام ٣٠.

إن الأعياد الأربعة الأولى، فى السنوات ٣٠ و٣٤ و٣٧ و٤٠ تولّى الأمير **خع إم واست** الإعلان عنها والإعداد لها، كما تشهد على ذلك المدونات والمشاهد المنحوتة فى المعبد المحفور فى صخر **جبل السلسلة**، **بمصر العليا**:

*العام ٣٠، العيد سِد الأول، **لسيد القطرين، أوسر ماعت رع- ستب إن رع**، له الحياة للزمن اللانهائى. أمر **صاحب الجلالة** بالإعلان عن العيد **سِد** فى أنحاء البلاد،* (من قبل) *ابن الملك، الكاهن **سِم**، **خع إم واست***[١١٩].

النص منحوت فى كوة عند واجهة المعبد المحفور فى صخر الجبل وأمام صورة للأمير. وفى جزيرة **بيجة**(*) أيضاً، قرب الجندل الأول، على نهر **النيل**، فى وسعنا أن نقرأ هذه المدونة الصخرية:

*العام ٣٠، أول عيد **سِد**. العام ٣٤، تجديد العيد **سِد**. العام ٣٧، العيد **سِد** الثالث، **لسيد القطرين، أوسر ماعت رع - ستب إن رع**، سيد التجليات المجيدة، **رعمسيس - محبوب - أمون**، له الحياة للزمن اللانهائى. قام **صاحب الجلالة** بتكليف(**) الكاهن **سِم**، **خع إم واست**، ابن **الملك**، بالإعلان عن أعياد اليوبيل فى أرجاء البلاد*[١٢٠].

والأقرب إلى الصواب، أن أحداث أول هذه الأعياد اليوبيلية على الأقل، قد دارت فى **منف**، العاصمة العتيقة، حيث كان يجرى على ما يرجّح الاحتفال بأول هذه الأعياد الملكية. وفى سياق حديث تحتفظ به بردية **هاريس** Harris، يقول **رعمسيس** إلى الإله **بتاح**:

من أجلك جعلت من اليوبيل الأول فى عهدى عيداً كبيراً وعظيماً (للإله) ***تاتان**... لقد رمّمت معبدك ومقاصير قصر **اليوبيل**، بعد ما أصابها من دمار، منذ وقت بعيد*[١٢١].

لقد أراد **رعمسيس** الارتباط بماضى **مصر** التليد والعريق بمختلف الأساليب.

(*) غرب جزيرة **فيلاى**. (المترجم)

(**) حرفيا: وضع أمام وجهه. (المؤلفة)

وكان الاحتفال باليوبيل الثانى احتفالاً عائلياً. إن لوحاً حجرياً جاد به أيضاً معبد **حور إم حب**، المحفور فى صخر **جبل السلسلة**، يقف خير شاهد على أهمية درجة القرابة لكل فرد من أفراد العائلة المالكة. وكانت أولى الشخصيات النسائية آنذاك، هى **إيزيس – نوفرت**، بعد أن كانت **نفرتارى** الجميلة قد انتقلت إلى «*دار الأبدية*» الخاص بها.

وفى مشهد الوسط، المنحوت بالنقش الغائر، وأمام الإلهين **بتاح** و**نفرتوم**، نرى **الفرعون** فى صحبة «*ابن **الملك**، محبوبه، الكاهن **سم**، **خع إم واست***» و«*الزوجة الملكية العظيمة **إيزيس نوفرت***» و«*الأميرة الأولى، العظيمة، ابنة الملك، الزوجة الملكية العظيمة* **بنت – عنات**». وقد دُوِّن اسما الملكتين، الأم والابنة، داخل خرطوش. وصُوِّر فى الجزء الأسفل أميران، هما **رعمسيس** و**مر إن بتاح**(١٢٢). إن ذرية **إيزيس – نوفرت** تحتل مركز الصدارة.

إن هذه الأعياد الملكية التى كان يصاحبها سلوك حاتمى من قبل العاهل الملكى فيُكثر من العطاء، كانت بلا شك أعياداً شعبية. فنقرأ على **أوستراكون**(*) النص الآتى:

منسوب *__النيل__ مرتفع من أجل العيد **سد** الأول* (للفرعون) ***أوسر ماعت رع – ستبن إن رع**، ابن **رع**، **رعمسيس – محبوب – آمون**، له الحياة. إنه يجلب ذراعًا* (من الماء)، *ولا يُوجد سَدٌّ يصمد أمامه، إنه يصل إلى التلال، ويضم أعدادًا لا حصر لها من الأسماك والطيور... وكل ما هو طيب يمكن أكله. القلوب سعيدة والآلهة تقيم الأعياد وروح **مصر** هادئة فى زمنه. إنه يخفى (؟)، على مدار الأيام، أسماكًا وطيورًا والناس لا يحتاجون شيئًا، وعاد البلد إلى مكانه. **والتاسوع** الإلهى حشد* (أبناء) ***مصر العليا** للإكثار من أطعمتك، فتكون فى وفرة الرمال، وتفيض خزائنك بكل ما هو طيب،*

(*) ostracon لفظ يونانى مفرد، وجمعه **أوستراكا** ostraca. إنه شقفة من الفخار أو الحجر الجيرى تستخدم فى الكتابة أو الرسم. (المترجم)

من زيت زيتون وبخور ونبيذ، بكميات لا حصر لها. إن شئونك تلامس السماء وتذخر بالمأكولات، فهى مثل حبات الرمل.

وبعد أن تصور أبوك أمون كمالك فى قلبه، فإن جميع الآلهة وجميع الإلهات ترضى عن كمالك وتمضى سحابة يومها فى المجاهرة به: «أنت الملك الذى يعمل كليةً بيديه، إنه يعرف قدرته، إنه باسل...»[١٢٣]

وبمناسبة الاحتفال بعيد اليوبيل الرابع، فى العام ٤٠، يبدو أن بعض التنافر قد نشأ بين **خع إم واست** والوزير **خعى** الذى كان قد خلف **پاسر** المخلص الأمين(*).

فعلى اللوح الحجرى الملكى فى معبد **حور إم حب** المنحوت فى صخر **جبل السلسلة**، ورد النص الآتى:

*كلَّف صاحب الجلالة، الكاهن سِم، **خع إم واست**، ابن **الملك**، بالإعلان عن عيد **سِد** الرابع، فى جميع أرجاء البلاد وفى أنحاء **مصر العليا ومصر السفلى**.*

وعلى لوح حجرى وضع فى هذا المعبد ذاته، من قبل الوزير **خعى**، ورد النص الآتى:

*كلَّف **صاحب الجلالة** الوزير **خعى**، النبيل، الأمير، الأب الإلهى، المحبوب، فم **نخن**، الخادم الأول للإلهة **ماعت**، قاضى **المدينة** وعمدتها، (كلَّفه) أن يعلن إقامة العيد **سد** الرابع، فى جميع أرجاء البلاد وفى أنحاء **مصر العليا ومصر السفلى***[١٢٤].

هل هو صراع على النفوذ؟، أو هو مجرد توزيع للأعباء، بين شخصين يحتلان مكانة مرموقة فى الدولة، فيقوم أحدهما بالدور الأكبر فى مدينة **منف** والآخر بصفته

(*) كان **رعمسيس** الثانى آنذاك فى الخامسة والستين من عمره. فبصفته حاكماً أوتوقراطياً، وفى هذه السن الكبيرة بمقياس هذا العصر، وبعد أن حكم أربعين سنة متواصلة، هل يمكن القول إن سيطرته على شئون الحكم قد بدأ يزحف عليها وهن الشيخوخة؟ (المترجم)

عمدة **طيبة**، مع بقاء الصيغة التقليدية دون تغيير؟ وعلى كل حال، فقد تكررت الظاهرة نفسها عند الإعلان عن عيد اليوبيل الخامس. أما العيد السادس فيستولى **خعى** بمفرده، على الإعلان عنه.

ونظل لا نعرف المدينة التى وقع عليها الاختيار لإقامة هذه الأعياد.

ويبدو أن **رعمسيس**، بعد أن احتفل بعيد اليوبيل التاسع فى العام ٥٤ من حكمه، قد عهد إلى أبناء **طيبة** مهمة الإعلان عن هذه الاحتفالات والإعداد لها، على أن تقام فى مدينة **هرمونتيس**(*)(؟)، العاصمة القديمة لإقليم **طيبة**. ففى العام ٥٤، كُلِّف **يوپا**، *الكاتب الملكى، كبير المشرفين فى* ***الرامسيوم*** *ومعبد* ***أمون***.

ثم جاء الدور على **نفررنپت**، عمدة **طيبة**، فى العامين ٥٧ و٦٠. أيعتبر هذا التكليف دليلاً على الطموحات الجديدة التى كانت تحرك كهنة **أمون** الذين كانوا يستعيدون شيئًا من قوتهم، وهو ما نعرفه، على كل حال، من شواهد أخرى؟

وأكثر من أى ملك آخر، كان **رعمسيس**، «*سيِّد أعياد اليوبيل*» مثله مثل «*أبيه*» **پتاح**.

المعابد والكهنة والأعياد المقدسة

إن «سلام **الرعامسة**» الذى استمر أكثر من خمسين سنة، قد أتاح للملوك تشييد المعابد وتجهيزها تجهيزًا نفيسًا، بينما كان الاحتفال بأعياد الآلهة يجرى وسط مظاهر البذخ والأبهة، وابتهاج وأفراح شعب لم تعد أحزان الحروب الخارجية تعكِّر صفو حياته.

(*) **إونى** بالمصرية القديمة، و**أرمنت** حاليًا. (المترجم)

ماذا كان الهدف من إقامة معبد إلهي وما هي دلالته؟ إن معبد **أمون-رع** الكبير في **الكرنك**، خير ما يوضح ذلك. فإذا تركنا جانبًا ما دخل عليه من تغييرات ثانوية، يُمكننا الكشف عن العناصر الثابتة التي تشكل البنية الأساسية «*القصر/الإله*».

بداية فلننظر إلى النسق الذي يربط مختلف أجزائه، فمن خلال مسار قد يطول أو يقصر من الغرب إلى الشرق، ينتقل المرء من عالم الدنيا إلى عالم المقدس، ومن النور إلى العتّمة.

ومن النهر يبدأ طريق كبير، تحفه على الجانبين تماثيل أبو الهول، ويفضي إلى الصرح الذي يشكل مدخل المكان المقدس. كانت الآلهة تتجسد آنذاك في هيئة أبو الهول، لتقوم بحراسة مسكنها الخاص. وأمام المعابد المكرسة للإله **أمون**، كانت هذه التماثيل برأس كبش، الحيوان المقدس للإله **طيبة**. وفي **الكرنك** وُزِّع أربعون منها على صفين متواجهين. ولكن في **وادي السبوع** على سبيل المثال، فإن تماثيل أبوالهول وهي بجسم أسد كانت برأس صقر، وهي حالة شديدة الندرة. ومردُّ ذلك أن المسكن الإلهي كان مكرسًا للإله **رع -- حور أختي، الهليوبوليتاني**.

كان الصرح يتكون من برجين كبيرين من الحجر، يستطيلان عرضًا، وتميل واجهته الخارجية بوضوح كلما ارتفعنا إلى أعلى، مع بقاء واجهته الداخلية عمودية. ويكتنف البرجان باب المدخل، كان طول الصرح الأول في **الكرنك** ١١٣مترًا وسُمكه ١٥مترًا. والصروح مجوفة في داخلها، وقد يُبنى فيها أحيانًا سلَّم يصعد إلى القمة، إلى جانب حجرات للكهنة أو لاستخدامها مخازن (؟). كانت واجهة الصرح تزدان بسوارٍ مركبة في سُمك البناية، ترفرف في أعلاها البيارق التي تشير، من على بعد، إلى وجود مسكن إلهي. وأمام الصروح تنتصب مسلتان من كتلة واحدة في أغلب الأحوال، وفي بعض الأحيان كانت تقام تماثيل عملاقة للملك، فأقيمت ستة تماثيل في معبد **الأقصر**، تُصور **رعمسيس** الثاني، في صحبة **نفرتاري**. وعلى سطوح الصروح وعلى جدران المعبد الخارجية، كانت النقوش تروي مآثر العاهل الملكي البطولية.

وبعد عبور الصرح ندخل إلى فناء ذى صُفَّات، وهو القسم العام من المعبد، حيث تنتظر جماهير الشعب، على وجه التحديد، مرور المواكب الدينية. وفى الغالب كانت تماثيل ملكية وموائد قرابين مقامة فى الفناء.

يلى ذلك بهو الأساطين الذى تؤدى فيه بعض المراسم الشعائرية، التى لا يحضرها سوى الكهنة وبعض المحظوظين من علية القوم. كان هذا الفناء عبارة عن صحن فسيح من الأساطين. كان بهو **الكرنك**، وهو من عمل **سيتى** الأول و**رعمسيس** الثانى، فى المقام الأول، يبلغ ١٠٢متر طولاً و٥٣متراً عرضاً، ويضمُّ ١٣٤ أسطوناً عملاقاً، يبلغ ارتفاعها ٢٣ متراً. وقد نُقشت عليها ورُسمت مشاهد دينية، تلتزم بالمواضيع الثابتة المتواترة، فتُصور تقديم القرابين وإطلاق البخور والتطهر والتعبد للإله.

وأخيراً، وفى المؤخرة، وشرق بهو الأساطين، توجد أجنحة الإله الخاصة، حيث لا يدخلها إلا الكهنة «*أصحاب الأيدى الطاهرة*» أو العاهل الملكى. وتضمُّ **الناووس**، وهو عبارة عن مقصورة مربعة ذات سقف هرمى الشكل، إشارة إلى المعابد البدائية، وكان يُحتفظ بداخلها بتمثال الإله، فى دولاب من الحجر الصلد. كما كان يوضع قارب المواكب الرسمية أحياناً فى هذا **الناووس** أو فى حجرة ملحقة. وفى بعض الأحوال كانت مقاصير ثانوية تظلل بعض الآلهة الأخرى. هكذا، فبمعبد **بتاح** فى **منف** حلت **عشترت** ضيفة عليه، بصفتها «ابنة» الإله، عملاً بحركة التجميع الروحى الكبرى التى أرادها **الرعامسة**. وكان بعض المقاصير الجانبية بمثابة حجرات يحفظ فيها كل ما هو ضرورى لإقامة الشعائر.

وبجوار المعبد كانت «*بحيرة مقدسة*»، تعيد إلى الأذهان المياه الأولية التى غطَّت الكون فى مرحلة ما قبل الخلق، ثم انبثق منها الإله الخالق، من تلقاء ذاته، فى اليوم الأول. كانت البحيرة المقدسة احتياطياً كامناً للقوى، فمنها ومع كل فجر جديد، من المنتَظر أن ينبثق الخلق من جديد، فى دورة أبدية للحياة المتجددة على الدوام. وهنا، كانت تقام مراسم شعائرية فى تواريخ محددة، كما كان يجد فيها الكهنة ماء الطهور اللازم للوضوء.

وكانت تلحق بالمعبد فى حدٍّ ذاته بعض المبانى لاستخدامها سكنًا للكهنة أوشُوَنًا أو مخازن أو «بيوت حياة»(*) للكتبة والحرفيين والمزخرفين. كان سور شاسع من الطوب يحيط بالحيازات المقدسة. وفى **الكرنك** كانت أبواب من الحجر الرملى تنفتح فى محاور المعبد.

كانت المعابد الجنائزية لفراعنة **مصر** تلتزم بصفة عامة منذ عصر **التحامسة**، بالتخطيط نفسه للمعابد الإلهية. وتقام على مقربة من **النيل**، على البر الغربى من مدينة **طيبة**، عندالحد الفاصل بين الأرض الزراعية والصحارى، وبعيدة عن المقبرة المحفورة فى صخر الجبل الغربى.

كان المعبد المصرى يرتبط بفلسفة خاصة، فجاء تعبيرًا عنها. فلم يكن مكانًا للصلاة أو للخلوة مع النفس، يستطيع كل فرد أن يحضر الشعائر الدينية، كما هو الحال بالنسبة للكنائس المسيحية أو المساجد الإسلامية أو المعابد اليهودية.

المعبد المصرى مكان مغلق، يعمل فى خدمته أشخاص من أصحاب الحظوة، وقع عليهم الاختيار طبقًا لمعايير على قدر كبير من الصرامة، فيُكلَّفون بالسهر على إله المعبد ورعايته. هكذا كانوا يساعدون فى الحفاظ على ترابط عناصر العالم وتماسكها. وبالفعل، فإن ما صنعه الخالق من عمل منظم منذ اليوم الأول، تتهدده على الدوام قوى الخواء، فعلى الرغم من إقصائها فإنها تظل تشكل خطرًا دائمًا. والآلهة وحدها فى وسعها حماية النظام. وإذا كانت هذه الآلهة تتجلى فى أشكال مرئية متعددة، آدمية أو حيوانية أو نباتية، فقد كانت لها «**قصور**» على الأرض. ولما كانت حالّة فى تماثيلها، كان لابد من حمايتها من كل إصابة عدائية أو شوائب تنتقص من فاعليتها. لهذا السبب يتمّ إسكان الإله فى أعمق أعماق المعبد، تحميه سلسلة متعاقبة من الحجرات والقاعات، يُحرَّم دخولها على البشر، وتظل غارقة فى ظلام دامس لا يُوحى بأى شىء. إن خدمة الآلهة تستدعى ليس فقط التعبد لها ولكن أيضًا حراسة يقظة وفطنة.

(*) أى مدارس. (المترجم)

إن مختلف عناصر البناء فى حد ذاته، لها دلالتها الرمزية. فيشير الصرح إلى جبل الأفق بِتْلْيه(*)، فمنه تبزغ الشمس مع كل فجر جديد(**)، إنها لحظة خلق متجدد إلى أبد الآباد. ومدخل المعبد بمثابة بياض الصبح الذى يدعو يوميًا إلى حياة جديدة، المدخل إلى الطريق الذى يسلكه جِرم الحياة.

كان المصريون «يصعدون» إلى المعبد. وبالفعل فإن أرضية المكان المقدس ترتفع ارتفاعًا منتظمًا إلى حد كبير، بدءًا من المدخل وصولاً إلى قدس الأقداس، وعلى العكس يميل السقف إلى الانخفاض. هكذا، فإن الكون قبل الخلق، كانت تعلوه الأكمة المنبثقة من المياه، وعليها سوف يُقدم الخالق على عمله المبدع. إن **الناووس** الذى يضم صورة الإله، وهو النقطة التى تتجه إليها أرضية المعبد وسقفه، يشير إشارة موحية إلى هذه الأكمة، تمامًا كما أن مياه البحيرة المقدسة تشير إلى العالم غير المخلوق، وإن كان يحتوى منذ تلك اللحظة قوة النور والحياة وقدرتهما.

ويشير بهو الأساطين إلى العالم المصرى، فالسقف الملوَّن باللون الأزرق هو السماء. إنها مرصعة بالنجوم الصفراء، فالنحاس فى نظر الفكر المصرى كان المادة التى تتكون منها النجوم. ويزدان أحيانًا بخرائط النجوم(***) أو بدوائر البروج(****). ومن «تربة» الأرضية، ترتفع نباتات المستنقعات، التى تزخرف صورها قاعدة الجدران،

(*) راجع العلامة الهيروغليفية **جو** برناديت مونى: المعجم الوجيز فى اللغة المصرية بالخط الهيروغليفي، ترجمة ماهر جويجاتي، دار الفكر، ١٩٩٩، ص١٩. (المترجم)

(**) راجع العلامة الهيروغليفية **أخت**. المرجع السابق ص٣٦. (المترجم)

(***) ومن أمثلتها الحجرة الفلكية فى **الرامسيوم**، معبد **رمسيس** الثانى الجنائزى. (المترجم)

(****) ومن أشهر أمثلتها دائرة بروج معبد **دندرة**، وهى من الحجر الرملى، وتعود إلى القرن الأول قبل الميلاد. ومساحتها ٢٥٥سم × ٢٥٣سم. وللأسف فقد قطعها أحد تجار الآثار الفرنسيين عام ١٨٢١، ونقلها إلى **فرنسا**. وهى من مقتنيات متحف **اللوفر** فى الوقت الراهن. راجع:

G.Andreu, M.-H.Rutschowscaya, Ch.Ziegler. L'Egypte Ancienne au Louvre, Hachette. 1997, pp.210-211. (المترجم)

فى حين إن «*غابة*» الأساطين النباتية بتيجانها التى تحاكى شكل نبات اللوتس أو البردى أو سعف النخيل تشير إلى خصوبة الأرض.

ولما كان المعبد هو **العالم الأصغر** microcosme، المحمل بقوى سحرية، فقد كانت الغاية منه حماية الآلهة، وبالتالى الإبقاء على ترابط الكون وتماسكه.

كان الملك الضامن الأول لهذه الحماية ولهذا الترابط ولهذا التماسك، لأنه هو الذى يقوم بتشييد القصور للآلهة[١٢٣]، ويوفِّر لها كل الخيرات ويكفل حسن أداء العمل فيها. ولما كانت الآلهة والملوك مرتبطة من خلال خدمات متبادلة، فإنها تساهم فى توازن العالم وفى الوئام والسلام بين البشر.

إن مدونتين كبيرتين، تعودان إلى عهد **سيتى** الأول، تقدمان دليلاً مسهبًا على هذه الأيديولوجية. الأولى وهى مشوهة فى بعض أجزائها، منحوتة على الجدار الجنوبى من معبد **إسطبل عنتر**(*)، فى **مصر الوسطى**، إلى الجنوب قليلاً من **بنى حسن**، والمكرس للقطة **باخت**(**). ففى لوحة ضخمة نرى، على اليسار، **سيتى** الأول راكعًا بين **أمون-رع** الذى يمد يده نحوه، و**باخت** التى تنظر إليه، وهى بجوار **تحوت**. وعلى اليمين تقدم **باخت** شارات المُلك، بينما يلقى **تحوت** الخطاب المألوف فى هذه المناسبة.

ويقول النص تحديدًا:

*الإله الكامل، ابن **باستت**، الذى أرضعته **سخمت**(***)، سيدة السماء[١٢٦]، إنه بيضة **رع**، التى جاءت **باخت** بها إلى الدنيا، والذى قامت **الساحرة العظيمة** على تربيته، إنه البذرة الإلهية المنبثقة من **أتوم**، والذى أطعمته **واجت**... إنه الملك اليقظ*

(*) أطلق الإغريق على هذا «البيت الإلهى فى الوادى»: **سبيوس أرتميدوس** Speos Artemidos، أى **كهف أرتيميس** Artemis. (المؤلفة)

(**) قطة أو أسدة، فالخلط بين الحيوانين قائم فى بعض الأحوال. (المؤلفة)

(***) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

*الفطن، الذى أنجز أشياء مباركة، إنه ابن **التاسوع** البكر على أكمل وجه، الذى يبنى المعابد، ويرمم المعابد التى تهاوت وغطتها الأتربة، ليجعلها أكبر من ذى قبل... والذى يتيح للصور المقدسة أن تستريح فى مقاصيرها، ويمدُّ موائد القرابين باحتياجاتها اليومية... ودُشِّنت معالم أكثر جمالاً من تلك التى كانت موجودة من قبل. كانت موائد قرابينها مصنوعة من الذهب والفضة وبأعداد تفوق الحصر... ومباخرها من الذهب والفضة. وشُوَنها(*) تفيض بالقمح، وخزائنها تزخر بثروات متنوعة، والخدم ملحقون بالمعابد، والحقول والبساتين وظفت بها هيئة من العاملين... هكذا فإن المساكن المقدسة مجهزة «**بما يفوق الأفضل**» ولن يقال فى المستقبل: «آه! لو كنت!» وذلك بفضل حياة وازدهار وقوة **ملك مصر العليا ومصر السفلى**: **من ماعت رع**، ابن رع: **سيتى – محبوب – بتاح**...*

وتتحدث **باخت** سيدة **جو-دس** إلى **تحوت**، سيد الكلمات الإلهية، قائلة:

*تعالَ، لمشاهدة هذا المعلم البالغ العظمة والروعة، الذى صنعه من أجلى ابنى المحبوب، **سيد القطرين، من ماعت رع**، وفقًا لما أمرت به فى المرة **الأولى**، بعد أن تحدثت بفمك قائلاً: «سوف يشرق ابنى على العرش ويبقى على كرسى المُلك لزمن لانهائى، إنه ابن **رع**، **سيتى – محبوب – بتاح**. سيقوم شخصيًا ببناء المعالم من أجل الآلهة، بموجب ما يأمره به ملك الزمن الأبدى. سوف يشيِّد معلمًا صرحيًا من أجل **باخت** ويشكل (صور) الآلهة.*

(*) جمع **شونة**. وفضلت استخدام هذا اللفظ، المستخدم فى المصرية والمنقول عن المصرية القديمة **شنوت**، أى مخزن غلال. راجع: المعجم الوسيط. وبرناديت مونى، المعجم الوجيز فى اللغة المصرية بالخط الهيروغليفى، الترجمة عن الفرنسية، ماهر جويجاتى، دار الفكر، ١٩٩٩، ص١٢٠. (المترجم)

*لقد عمل وفقًا لما أمرته به، يا **رب** الزمن الأبدى. لذا، امنحه الحياة والثبات والقوة، ويكون الفرح كله إلى جواره.*

*امنحه **أبدية** مماثلة (لأبدية) **جلالتك واللانهائية** التى تقيم فيها.*

*امنحه نصرًا على نصر، مثل (الإله) **مين**... فلتكن ضرائب الجزية بلا حصر، (الضرائب) التى تقدمها (بلاد الإمبراطورية)، مجتمعة فى قلب واحد.*

امنحه أعدادًا وفيرة من القطعان وعشب بلا حصر كالجراد.

*امنحه أنهار **نيل** عظيمة، تتوفر فيها الأشياء كلها بأنواعها.*

امنحه بلدانًا سالمة... وليسكن قلبه فى كل مكان، يودّ أن يوجد فيه!

يَسِّر له أن تضع الآلهة جمعاء من حوله حمايتها السحرية، مع الحياة والثبات والقوة، بمقتضى دعاء ابنتك العظيمة. فلا ينسيَنَّ أحد ما أقوله»

*كلمات قالها **تحوت**، رب الكلمات الإلهية:*

*«كم هى رائعة كلماتك، يا **باخت**، يا سيدة **جو-تس**. سوف أقيم ابنى إقامة راسخة، (ابنى) **سيد القطرين: من ماعت رع**، ابن رع الذى يُرضى الآلهة، سيد التجليات المجيدة، **سيتى - محبوب - بتاح**، بصفته الملك الأبدى، بسبب المعلم الذى شَيده من أجل أمه **باخت**، سيدة **جو-تس** العظيمة، للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى[١٢٧]».*

إن العبارات الدالة على هذا التبادل الموفق للخدمات بين الآلهة من جهة والملوك من جهة أخرى، نلتقى بها فى نص آخر يعود تاريخه أيضًا إلى عهد **سيتى** الأول، وعُثر عليه مؤخرًا فى بلدة **نورى بالسودان**، على بعد ٣٥كم شمال الجندل الثالث. إنه منحوت على لوح صخرى ضخم، مساحته ٢٨٠سم فى ١٥٦سم، ويضم نصًا من ٥٩سطرًا. وعلى يسار هذا اللوح نحتت فى الصخر ذاته مدونة من ٦٩سطرًا. وهنا

فإن أملاك **أوزيريس** المقدسة فى **أبيدوس**، هى هدف هبة العاهل الملكى. ويعلن النص على وجه التحديد، فى سياق خطاب الملك:

*لقد وفرتَ حماية جديدة لمدينة **أبيدوس** وازدهارًا لهيئة العاملين بها، بفضل ما قررتَه. لقد شيدتَ قصره الإلهى ليكون شبيهًا بأفق السماء، فينير إشعاعه كل الوجوه. لأن صور أرباب **الأرض الكبيرة**[128](*) قد غُشيت بالذهب. أما الصور الإلهية القائمة على عروشها فإن أشكالها حقيقية وسليمة، كما كانت فى زمن **رع**، بينما رُصعت قواربها بالأحجار الكريمة. إنك تقدم لها **ماعت**[129] على مدار الأيام، لأنها تحيا بها. كما تُقدِّم لها المسكويات الطاهرة والنباتات والأزهار وقرابين الخبز. وتجلب لها «**المياه المتدفقة فى اتجاه الشمال**»، إلى المكان الذى يريده [**أوزيريس**]، من أجل إطعام أرباب **الأرض المقدسة**.*

*لقد ازدان القصر الإلهى بكميات كبيرة من الذهب، من إبريز الصحارى، وعندما يشاهده الناس تهلل القلوب فرحًا وتتعالى أصواتهم حمدًا وتسبيحًا. إن قيمته تُضفى عليه هيبته، مثل هيبة أفق **رع** فى فجره الفتىّ. إن الباحة فى المعبد أشبه بمسطح من الفضة، تتألق عند مشاهدتها. إن أبواب القصر الإلهى البالغة الضخامة، مصنوعة من خشب أشجار أرز الغابات، وغُشيت مصاريعها بالذهب الخالص والجانب الخلفى من تجاويفها(؟) من النحاس. ويستعيد المرء نشاطه وحيويته عندما يشاهد أشكالها والصروح الضخمة من الحجر الجيرى الوارد من طرة، وأبوابها من الجرانيت. إن جمالها يدانى **عمود** السماء، ويتآخى مع **رع** فى أفقه.*

*وتبدو البحيرة الممتدة أمام المعبد أشبه **بالشبيبة الاخضرار** التى لا نعرف شيئًا عما تحيط به. وعند النظر إليها، فإنها تتألق مثل لون اللازورد. وفى وسطها نبات البردى والبوص، وتزخر يوميا بنبات اللوتس المزهر... إنها محاطة بأشجار تلامس السماء، صُلبة العود صلابة أشجار الأرز فوق جبالها. إن القارب **نشمت**[130]*

(*) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

الكبير ينضم إلى البحيرة لتأمين إبحار والد هذا المعلم. (وإذ يشاهد كل ذلك). *يتهلل فرحًا ويَسعد ملاَّحوه...*

إن المخازن مكدَّسة بالأطعمة والقرابين الإلهية بملايين الملايين. والخدم العاملون هنا هم أولاد الزعماء الذين أسرهم الملك في بلاد ***الريتنو***. *ويجعل كل واحد يعرف واجبه المرتبط بقواعد الطهارة. كما قدَّم له أيضًا مواقع تربية الطيور في بركة، حيث أعداد الطيور بعدد حبات رمال الشاطئ... ومن أجله، تُشوى الطيور في معبده. والحظائر ملأى بالثيران السمينة والأبقار والعجول والمعز والمهوات(*). ويصل عدد العجول الصغيرة إلى مئات الملايين. ولا توجد قواعد تساعدنا على حساب كمياتها الضخمة. إنه يُكثر من* ***أجله*** *جميع المواشي من كل الأنواع التي تضرب في الأرض. والثيران التي تُساند الأبقار، تزيد أيضًا من أعدادها. والنباتات الغضة كثيرة وسط العشب، ونبات البوص يزدهر من جديد، في فصل النماء، وبالملايين أيضًا... ويسهر الرعاة على قطعانهم، وسوف تنتقل هذه المسئولية أبًا عن جد، للزمن الأبدي واللانهائي. وتُعطى لهم المروج، عند مدخل مواقع تربية الطيور(؟) في البرك، كما تقدم لهم الأوراق والزهور. وتُترك لهم الأرض لاستخدامها طريقًا للسير ولايدخلها أحد، وتتجول الثيران والأبقار في البرك وعلى الشطآن... في حين تلد الأبقار وتلازم العجول الصغيرة أمهاتها، لأنها لم تنفصل بعد عنها.*

كما تكونت أساطيل صغيرة من المراكب، لتجلب إلى المعبد مزيدًا [من النباتات المقدسة؟، أهي أشجار بخور؟]، *وقد وصلت أعدادها الكبيرة جدا حتى أصبحت تغطي* ***الشديدة الاخضرار*** *في حين لم تعد المراكب موجودة عند مصبَّات النهر. كان طول السفن المزودة بملاحين، يبلغ مئة ذراع، ومن بين حمولاتها نباتات بلد الإله* [أي بلاد ***بونت***]. *وكانت ترسو في الميناء، حتى تُطعم* ***الأرض الكبيرة***، *حتى أطرافها.*

كما أجرى من ***أجله***، *تعدادًا بالملايين، للأراضي المنخفضة وللجزر وللأراضي المرتفعة ولجميع الحقول ذات المحاصيل الوفيرة بالخيرات، والتي ينوي تقديمها إلى* ***كائه***(١٣١).

(*) جمع: المهاة. (المترجم)

يميل هذا النص أحيانًا إلى الأخذ بمواضيع تقدم وضعًا لمشاهد ريفية مثالية، إذ كان المصريون بصفتهم فلاحين، تشد حياة الحقول انتباههم على الدوام، وأحبوها، كما يعطينا عن ثراء المبانى الشامخة والهبات المقدمة إلى المعابد فكرة يعوزها الوضوح والدقة، وإن أخذت بطبيعة الحال، بعين الاعتبار، تمجيد أفعال العاهل الملكى، كلازمة مألوفة شاعت فى كتاباتهم ومدوناتهم.

يلى ذلك نص مرسوم **سيتى** الأول، الذى يمنح بعض الامتيازات لأملاك **أوزيريس** فى **أبيدوس**، وتحديداً إعفاء هيئة العاملين فى المعبد من التجنيد ومن أعمال السخرة المعتادة، والتصريح لهم بحرية الملاحة عبر نهر **النيل**، ومنع أى كائن من كان، أن يقترب من أراضى المكان المقدس ليضع يده على أى شخص أو يستولى على أى حيوان من حيوانات القطعان أو أى حقل. وسوف يعاد نسخ هذا النص، بعد انقضاء قرن من الزمن تقريبًا، فى عهد **رعمسيس** الثالث، لصالح الإله **خنوم** فى **إلفنتين**.

لماذا إذن نُحت هذا المرسوم فى أراضى **السودان** القصية؟ إنه أيضًا أسلوب آخر من التدوين كتابةً، ينطوى إذن على قدرة إيجاد واقع ملموس، والإعلاء من شأن قوة ملك **مصر** وسط هذه الشعوب التى تجنح بسرعة إلى التمرد، بالإضافة إلى التأكيد، بأسلوب على قدر كبير من الوضوح، على سعة الرخاء الذى فى وسعه أن يمنحه.

وفى المقابل، فإن آلهة **أبيدوس** و**أوزيريس**، اعترافًا بالجميل، سوف تمنح العاهل الملكى «*مدة حياة **رع** ومُلكًا أرضيًا ثابتًا ودائمًا على عرش **حورس**، لزمن لانهائى*[١٣٢]». كما سيقوم **رعمسيس** الثانى، فى سنواته السلمية، بإمداد الأماكن المقدسة بثروات مادية طائلة.

الكهنة والشعائر الدينية

كان المعبد إذن مكانًا أثيرًا، ففيه يحافظ الإله على توازن العالم، بمعاونة الملوك. ولما كان موجودًا فى تمثاله، داخل **الناووس**، فقد كان كيانًا معرَّضًا للإصابة بأى

أضرار، ولابُد من حمايته ومساعدته على الحياة، بتنظيفه بالماء وإلباسه وإطعامه وحفظه بعيداً عن أى شائبة أو دنس، من أجل تأمين فاعليته المقدسة.

ومن الناحية النظرية، كان الملك وحده أهلاً لأداء الطقس الإلهى. فالنقوش المصرية، تصور دائما الملك وهو يقيم هذه الطقوس. ولكن لاستحالة وجوده فى جميع معابد البلاد فقد فوَّض سلطاته لبعض الكهنة المختارين. إن إدارة الأملاك الدنيوية وأداء الشعائر، كانا يتطلبان وجود هيئة كبيرة من العاملين فى كل معبد من المعابد، سواء كانوا من العلمانيين أو من رجال الدين.

أ - رجال المعبد

تيسيراً على القارئ، سوف نطلق اسم «*كبير الكهنة*» على الحبر الأعظم على رأس كل عبادة من العبادات، ولكن المصريين كانوا يطلقون عليه فى معظم الأحوال «*الخادم الأول للإله*»، أو على وجه التحديد، «*كبير متأملى رع*» للإشارة إلى كبير كهنة **هليوبوليس**، أو «*رئيس الحرفيين*» للإشارة إلى كبير كهنة **بتاح** أو «*كبير الخمسة فى منزل* **تحوت**»، وهو كبير كهنة **هرموبوليس**، كإشارة إلى أولى النظريات اللاهوتية التى تمت صياغتها فى هذه المدينة، والقائلة بأن العالم خلقته خمسة كيانات إلهية. إن كبير الكهنة، وهو الرئيس الدينى الذى ينوب عن الملك، كان يشغل أيضاً منصباً إدارياً، فينهض بأعباء عدد من الوظائف الدنيوية المهمة: فيقوم بتدبير شئون الأملاك التابعة للمعبد. بل حدث فى عهد **رمسيس** الثانى، أن كهنة **أمون** فى **طيبة**، كانت تحت إمرتهم مِلشيا مسلحة.

كان كبير الكهنة، من حيث المبدأ، يعيِّنه الإله بواسطة هاتف الوحى الإلهى، ولكن فى واقع الأمر، كان يعيِّنه الملك الذى يختاره، فى أغلب الأحوال، من بين كبراء العصر، تقديراً لخدماتهم المخلصة النزيهة، ورغبة منه فى تكريمهم. كأن يكون من أعيان البلد أو وجهائه أو من قادة الجيش، وقد سبق أن تحدثنا عن بعض هذه النماذج. لم تعرف **مصر** تراتبية هرمية كهنوتية، بالمعنى الحرفى للعبارة. إن اثنين فقط

من كبار كهنة **أمون**، استطاعا فى عهد **رمسيس** الثانى، أن يصلا إلى منصب الحبر الأعظم، بعد أن اجتازا كل درجات المراتب الكهنوتية.

كانت هذه المراتب بالغة الأهمية. فالكهنة الذين وصلوا إلى أعلى الدرجات، كان يُسمح لهم «*بتأمل كل تحولات الإله*»، أى الاقتراب من قدس الأقداس، ومشاهدة تمثال الإله. كان يطلق عليهم، حسب المكان، «*الآباء الإلهيون*» أو «*خُدَّام الإله*» فى أغلب الأحوال. أمَّا الإغريق فقد أطلقوا عليهم اسم **الأنبياء** Prophètes(*)، لأنهم نظروا إليهم باعتبارهم لسان حال الوحى المقدس. إن هذه التسمية تقلِّص إلى حدٍّ كبير من دورهم، كما كانوا يوزعون، فى أغلب الأحوال، على أربع طبقات متعاقبة. وفى استطاعة «*خادم الإله الثانى*» أن يحل محل كبير الكهنة فى مختلف مهامه.

ولما كان المعبد مكان طهارة، فلا يُسمح بالتالى بدخول عامة الشعب، فقد كانت الطهارة البدنية فرضًا أساسيًا لابد أن يلتزم به خُدَّام الإله. كان عليهم أن يتوضأوا «*مرتين أثناء النهار ومرتين أثناء الليل*»، وأن تكون رءوسهم محلوقة وقد أزيلت أشعارهم ونُتفت، وختنوا أيضًا، وأن يمتنعوا عن كل علاقة جنسية طوال فترة خدمتهم فى المعبد، وألا يتصرفوا بما يتعارض مع النواهى الدينية الخاصة بإله المدينة كالمحرمات الغذائية أو الأفعال الممنوعة. وعليهم ألا يرتدوا سوى الملابس المصنوعة من أرق أنواع الكتان، لأن استخدام الصوف والجلود كان محظورًا حظرًا مطلقًا، فكلاهما ناتج من حيوان فيه حياة.

كانت هذه الفروض الصارمة تُلزم أيضًا الكهنة من شاغلى المراتب الأخرى. كان **الكهنة - المرتلون**(**) هم **العلماء** الذين يعرفون إذن التعاويذ المطلوبة لأداء الشعائر وترتيب فقراتها. إنهم ينظمون الاحتفالات الدينية، ويسهرون على التقيد تقيداً صارمًا بترتيبات الطقس الدينى، ويقومون بتلاوة التراتيم الخاصة بإقامة الشعائر.

(*) من اليونانية prophêtês أى لسان حال أحد الآلهة. (المترجم)

(**) ويطلق عليهم بالمصرية القديمة: «*أولئك الذين يحملون لفّة* (بردى)» دُوِّنت عليها تعاويذ ترتيبات الطقوس الدينية. (المؤلفة)

وكان كبير الكهنة المرتلين هو أيضاً كبير السحرة، فوجوده يبعث الحياة فى عدد كبير من قصص الأدب المصرى المثيرة للإعجاب.

ومن بين هيئة الكهنة العلماء فى المعبد نذكر **الكهنة - الفلكيين**، الذين يحدِّدون أنسب المواقيت لإقامة الاحتفالات الدينية، **والكهنة - المنجِّمون**، الذين يميزون بين أيام السعد وأيام النحس على مدار السنة. كانوا عارفين معرفة واسعة بدلالة الإشارات التى تُرسلها الآلهة إلى البشر، كما كانوا يقدمون خدماتهم بصفتهم قادرين على طرد الأرواح الشريرة أو بصفتهم أطباء.

كان «**الكهنة - الأطهار**» يقفون، على ما يبدو، على رأس التراتبية الهرمية لكهنة **مصر**، كما كان يطلق عليهم «**الكهنة من أصحاب الأيدى الطاهرة**»، ويكلفون تحديداً بزينة الإله. وفى المواكب الدينية، كانوا يسيرون أمام القارب المقدس أو يحملونه. كما كانوا يؤدون بعض الأعمال المادية فى المعبد، فهم أشبه بالكاهن المسئول عن شئون المعبد، فيصعب الاستغناء عنه.

ولكن الخدمة الإلهية فى **مصر** التى تؤديها هيئة ثابتة من الكهنة، لم تكن هى نفسها على مدار السنة. كانوا موزعين على أربع **فرق** متماثلة من حيث تشكيلها. كانت كل **فرقة** منها، تأخذ على عاتقها الإدارة المادية وأداء ترتيبات طقوس الشعائر الدينية طوال شهر واحد. ومن الناحية النظرية، فإن كل كاهن من كهنة كل فرقة، لم يكن فى الخدمة سوى لفترة ثلاثة أشهر فى السنة. وفى فترات فراغهم، كان فى وسعهم، إذا رغبوا، أن يعودوا إلى قراهم ويعيشوا حياة المصريين العاديين. فلم توجد حواجز صارمة تفصل حياة رجال الدين عن غيرهم من العلمانيين. ولكن كان الكهنة طوال فترة خدمتهم فى المعبد يخضعون لفروض بالغة الصرامة، والتقيد بها أمر واجب، لتجرى فقرات إقامة الطقوس الدينية حسبما تقتضيه الشعائر المقدسة. كما كان لابد أن يتمتع هؤلاء الرجال بمُثُل أخلاقية سامية حتى لا يستسلموا لبعض إغراءات الحياة العلمانية التى يعودون إليها بصفة دورية، فيظلون الخدام «*من أصحاب الأيدى الطاهرة*»، فلا يحق لهم انتهاك أى من المحرمات المادية أو الروحية. فإذا كان الدين

religio(*) رباطًا يوحد الآلهة والبشر، ويسمح لهؤلاء أن يفهموا القوى الخارقة للطبيعة، ويُؤثِّروا فيها عند الضرورة، فقد كان الكهنة بفضل نظامهم الشخصى المنضبط يساهمون أيضًا فى تأمين حماية كل ذلك والحفاظ عليه.

إن عددًا كبيرًا من العلمانيين كانوا يعاونون الكهنة، ومن بينهم «أصحاب العمل الموقوت» الذين يقدمون بلاشك خدماتهم طوعًا ومجانًا، ويؤدون فى المعبد أعمالاً مادية. ومن الراجح أنهم كانوا فى الأصل، ومن واقع الاسم الذى أطلق عليهم، يقدمون خدماتهم لفترة لاتتجاوز بالضرورة الساعة الواحدة.

كما كان المعبد يضم المنشدين والموسيقِّيين، كالعازفين على القيثارة والنافخين فى المزمار أو البوق، وكانوا مصدر فرح وابتهاج للآلهة. كانوا معاونين لا غنى عنهم، ولكنهم لايشغلون أى منصب دينى بمعنى الكلمة.

وكما كان الملك الرئيس الطبيعى للكهنة الذكور، كانت الملكة، من الناحية النظرية، تتولى إدارة هيئة المعبد من النساء. فكانت «*زوجة الإله*»، على رأس الحريم المقدس، لتصبح فى وقت لاحق «المتعبدة الإلهية». ويبدو أن الحريم الإلهى، لم يكن يتكوّن من خليلات عُزلن عن العالم، بل إن هذه التسمية النظرية، كانت تضمُ سيدات نبيلات من البلاط الملكى، يشغلن مجرد مناصب شرفية. ومن بين السيدات المرتبطات ارتباطًا حقيقيًا بالمعابد، وجدت بطبيعة الحال، كاهنات لأداء الشعائر الدينية للإلهات وتحديداً شعائر **حتحور**، وإن لم يكن الأمر قاعدة ثابتة. كما أن بعض السيدات العلمانيات كنّ يقدِّمن مساهماتهن طوعًا وبدون مقابل، بصفتهن موسيقيات ومنشدات وراقصات، فيدخلن قدرًا من البهجة والسرور بفضل سلوكهن المرح وأناشيدهن المقدسة.

وأخيرًا كان إداريون يساعدون كبير الكهنة فى الإشراف على اقتصاديات قصر الإله، وإدارة أراضيه وقطعانه، ويراقبون واردات الضرائب. وكان الكتبة معاونين لا غنى عنهم، يضبطون الحسابات ويسطرون المحررات المقدسة.

(*) كلمة لاتينية. (المترجم)

ب - ترتيبات الطقس الديني

في جميع معابد **مصر**، وفي لحظات حياة البشر الثلاث الكبرى، أي في الفجر والظهر والمغرب، كانت تقام شعائر، تحددت ترتيبات طقسها الديني اليومي تحديداً واضحاً. ولما كان الهدف منها الحفاظ على حياة الإله في مسكنه، كانت تحاكي أفعالاً بشرية، بعد ارتقائها إلى مستوى أكثر سمواً، من خلال تأويلات أسطورية، مستعارة في الغالب من اللاهوت الشمسي ومن اللاهوت **الأوزيري**، ويرمز كلاهما إلى استعادة الحياة وتجديدها بشكل ثابت ودائم.

ونذكر تحديداً، النقوش الجدارية المنحوتة في المقاصير السبع، في المعبد الذي شيده **سيتي** الأول في **أبيدوس**، والتي تقدم لنا وصفاً لمشاهد ترتيبات الطقس الديني عند إقامة هذه الشعائر التي تتكرر يومياً، بلا كلل أو ملل. إن نسخة مكتوبة لترتيبات إقامة هذه الشعائر، عثر عليها مدونة على بردية، جاد بها معبد **أمون-رع** في **الكرنك**، ومن مقتنيات متحف **برلين**، في الوقت الراهن.

فمع شروق الشمس، عندما تعود الحياة إلى سابق عهدها، يخرج الكهنة، وقد ارتدوا ملابس من الكتان الأبيض، يخرجون من مساكنهم القائمة على مقربة من المعبد، ويسيرون في صفوف طويلة تتخذ شكل الموكب، ويتجهون صوب **البحيرة** المقدسة، ليتوضأوا ويتطهروا في **الماء الأولي**. ومع أول النهار وبياض الصبح يتوجهون إلى المعبد، حيث يتممون توضؤهم في «**بيت الصباح**».

عندئذ، كانت توضع كميات كبيرة من الأطعمة على منضدة في القاعة التي تسبق القسم الخاص بقدس الأقداس.

وبدوره يتطهر الملك. وعلى النقوش الجدارية، يصور دائماً الملك، ولكن في الواقع، كان كبير الكهنة هو الذي يقوم بأداء الشعائر الدينية. إن كاهنين يقومان بدور كل من **حورس** و**تحوت**، يصبان عليه محتوى إبريقين، يتحول سائلهما إلى خيط رفيع

وطويل من علامتي(*) الحياة والازدهار(**). وبعد ذلك يمسك المبخرة بيده بينما يصعد ببطء إلى قسم قدس الأقداس، الذى يتكون فى **أبيدوس** من شطرين، يفصلهما فاصل وهمي، عبارة عن صورة عمود مربع متصل بالجدار، الشطر الأول مخصص لاستراحة المركب المقدس، ويضم الثاني **الناووس** وهو من حجر أحادي الكتلة، ويظلل تمثال الإله، القابع فى غبش مسكنه.

ومن احتكاك حجر الصوان يشعل الملك المسارج، ويجوب بها ليلقى شعاعًا من الضوء على باب **الناووس** وجوانبه الخارجية. هكذا، كان يشرق أيضًا الفجر الوضّاء على الإله الحبيس فى بيته المصنوع من الجرانيت ويدعوه إلى الاستفاقة. كما أن النور مصدر الحياة يطرد الأرواح الشريرة والضارة.

إن أدخنة حبات البخور التى تحترق، تتصاعد لتنقّى الجو وتطهّره وتعطّره، ويبدأ الحضور فى تلاوة التعاويذ المقدسة وترتيلها.

وهنا نلتقى بالتصور الثانى الأساسى فى **مصر القديمة**، عندما يُفتح **الناووس** مرتين متعاقبتين، فيُفتح إذن من الناحية النظرية، مرة من قبل ملك **مصر العليا** وأخرى من قبل ملك **مصر السفلى**. ويكسر الملك الختم المصنوع من الصلصال، والذى كان يغلق المكان المقدس غلقًا محكمًا. ثم يحرّك المزلاج الذى كان ينظر إليه أحيانًا، بصفته إصبع **ست**، السيء القصد، لأنه يشكل عائقًا أمام خروج الإله بعد أن أُوقظ من نومه الذى دام طوال الليل. ويفتح الفرعون بابَىْ الناووس(***). *«إن بابَىْ السماء مفتوحان،*

(*) العلامتان **عنخ** و**واس**. يمكن مشاهدة صور تمثل هذه المشاهد فى:
OMM Sety and Hanny Elzeini: Abydos. LL Company, Los Angeles, 1981, Fig 10-15, 10-16, 10-18.(المترجم)

(**) أصبحت العلامة **واس** رمز الهناء والرفاهية والازدهار. راجع:
M.Damiano - Appia. L'Egypte. Dictionnaire encyclopédique, Gründ, édition française, 1999, p. 274. (المترجم)

(***) كان أغلبها من الخشب ليسهل نقلها على متن القوارب، إبان المواكب الاحتفالية. وللناووس حجرته الخاصة فى المعبد. وكانت هذه المقصورة تُسمّى أيضًا الناووس. المرجع السابق ذكره، L'Egypte. Dict. enc. p.193. (المترجم)

إن بابَىْ الأرض قد أُزيل حاجزاهما». ويتجلى الله في النور. أي «*يتم الكشف عن وجهه*». ويسجد الملك، ويرتفع شَدْو الترانيم، من خلال أناشيد مناجاة مُسهبة تعبيراً عن ورع شاكر النعمة:

*التحية لك، يا **آمون – رع**، فى فُتوَّتك، يا رب **طيبة**، يا زينة الآلهة. فعند رؤيتك يهلل البشر فرحًا، يا سيد الهيبة، إنك تُهدِّئ المخاوف الشديدة، يا ملك الآلهة جمعاء، أيها الإله العظيم الحيُّ حبا، يا ملك السماء، وخالق النجوم، إنك تجعل من الآلهة ذهبًا خالصًا، وتُنجب السماء وتفتح الأفق، وعندما تتحدث تأتى الآلهة إلى الوجود. أيا **آمون–رع**، يا سيد **عروش القطرين**، القائم فى **الكرنك**، أيا **آمون–رع**، يا ثور أمه(*)، الجالس على عرشه العظيم، يا سيد أشعة النور الذى بخلق الكثرة الكاثرة، أيها الإله يا صاحب الريشتين العاليتين، يا ملك الآلهة، أيها الصقر العظيم، إنك تُدخل البهجة فى الصدر(**)، فجميع البشر يعبدونك حتى يتمكنوا من الحياة*(١٣٣).

ومن جديد، يصعد دخَّان البخور. ويدخل الملك إلى **الناووس**، ويحتضن تمثال الإله، فى عناق له فاعلية سحرية، ثم يقدم له قربانًا.

وتتكرر ترتيبات هذا الطقس الدينى مرتين، ولكن يختلف القربان فى كل مرة. ففى المرة الأولى، تُقدَّم عين **حورس**، رمزًا للبرِّ بالوالدين، من جانب الإله الابن تجاه **أوزيريس**، والعودة إلى موقف صائب وعادل، بعد أن يكون **ست** قد أشاع الفوضى واستعاد الخواء. ويرمى هذا الموقف، بلا شك، إلى الإفصاح عن التوازن الطبيعى للعالم، الذى يسهر عليه الآلهة والملوك. أما القربان الثانى وهو مكمِّل للأول، فهو القربانِ **ماعت**: فيرفع **الفرعون** ناحية وجه الإله تمثالاً صغيراً للإلهة التى تضمن

(*) لمزيد من التفاصيل راجع: إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص٢٥١. (المترجم)

(**) أى فى القلب. (المؤلفة)

المحافظة على **الحقيقة والعدالة**، وبالتالى على ترابط العالم وتماسكه. إن **ماعت** من حيث جوهرها ذاته، لا يمكنها سوى أن تندمج فى الإله اندماجًا كاملاً:

*يعود إليك شبابك بمجرد رؤية ابنتك **ماعت**، إنها تحييك بفضل عطر أندائها. وتضع **ماعت** نفسها كالتميمة على عنقك، تضع نفسها على صدرك. والآلهة تقدم لك **ماعت** فائدةً لك، لأنها(*) تعرف حكمتها. أجل، إن الآلهة والإلهات التى فى طويّتك(١٣٤)، تجيء إليك (بالإلهة) **ماعت**، لأنها(*) تعرف أنك تحيا بها. فعينك اليمنى هى **ماعت**، وعينك اليسرى هى **ماعت**، ولحمك وأعضاؤك هى **ماعت**. ونسمات جسدك وقلبك تعود إلى **ماعت**. إنك تجوب **القطرين** حاملاً **ماعت**. ومسح رأسك بالأدهان هو **ماعت** وتسير بينما يداك ترفعان **ماعت**. إن ثيابك هى **ماعت**. وما تأكله هو **ماعت** وما تشربه هو **ماعت** ونسمات أنفك هى **ماعت**(١٣٥)...*

من الصعوبة بمكان أن يكون التعبير عن التعايش المطلق بأسلوب أوثق وأكثر إحكامًا ودقةً. هكذا، فمنذ أن يستيقظ الإله يتأكد من أن توافق وتناغم العالم المحيط به على أكبر قدر من الانسجام.

عندئذ، وبعد أن يشعر بالرضا، يتناول طعام إفطاره وسط دخان المباخر، ليوفّر لـ"**كا**"ئه احتياطيات سحرية من الطاقة الكامنة فى الأطعمة.

كان لابد بعد ذلك من إتمام زينته. ومن جديد، يتطهر الملك(**) بالماء وبالبخور، ويتناول التمثال ليخرجه من **الناووس** ويضعه على الرمل، أى على أرض **مصر**. ثم يحضر أربعة صناديق تحتوى أقمشة وأدهانًا، ويكرسها للإله باستخدام البخور. ويُغسلُ بدن الإله مرتين بالماء ومرة واحدة بالبخور، بعد أن يكون القائم على أداء

(*) أى الآلهة. (المترجم)

(**) أو **الكاهن الطاهر** فى حقيقة الأمر. (المؤلفة)

الشعائر قد دار من حوله أربع مرات، ويُلبَس الإله أقمشة بيضاء وخضراء وحمراء، إنها بالتأكيد ألوان رمزية. فالأبيض هو لون ضوء الشمس. والأخضر لون عالم النبات وأوزيريس، والأحمر لون الدم. هكذا يصبح الإله على اتصال بكل عناصر مصادر الحياة فى الكون. كما يُمسح بزيوت صافية وأدهان وعطور، ويُزيَّن بالحُلىّ. ثم يُعاد وضع التمثال فى الناووس، بينما يُنثر الرمل على الأرضية. وتتم عملية تطهير أخيرة بواسطة النطرون والماء والبخور. ويُغلق الناووس من جديد بالمزلاج، ويوضع ختم جديد، وعند انسحابه يمحو الكاهن آثار قدميه بواسطة مكنسة، حتى لايأتى شىء يُعكِّر طهارة المكان المقدس الذى يسهر منه الإله على العالم.

أما القرابين التى اقتات منها الإله، فقد توضع أمام موائد آلهة ثانوية، أو أمام تماثيل الملوك أو الأفراد الذين نالوا شرف وضع تماثيلهم فى المعبد. ثم تنقل القرابين لتوزيعها على رجال الدين والعاملين العلمانيين فى المكان المقدس.

وعند الظهيرة كانت الشعائر تقتصر فقط على الرش بالماء وإحراق البخور، ولا تتكون من وجبات طعام.

أما الشعائر التى تقام فى المساء فإنها تكرر جزئيًا شعائر الصباح، وإن ظل الناووس مغلقًا. بل يبدو أن مشاهد الطقوس الدينية كانت تقام فى مقاصير ثانوية مجاورة للناووس.

عندئذ، يخلد الإله إلى النوم، مثله مثل البشر.

وللمرة الأخيرة، يُطهَّر المكان المقدس بإحراق البخور. وعندما يرخى الليل سدوله يعود الكهنة إلى مساكنهم القائمة بجوار المعبد، ويسيرون فى موكب يتكون من صفوف طويلة. وإن كان الإله والبشر قد خلدوا إلى النوم، فإنهم كانوا ينتظرون عودة الشمس لتُبعث الحياة من جديد.

كانت ترتيبات الطقس الدينى فى المعابد الجنائزية الملكية تقام وفقًا لأساليب شبيهة إلى حدٍّ كبير. ومن الناحية النظرية، كان الابن البكر للملك يتولى الخدمة، وهو

الذى كان يفوض سلطاته لبعض الكهنة، تماماً كما كان **الفرعون** ابن الإله يقيم شعائر أبيه بواسطة هيئة متخصصة من العاملين.

ج - كبار الأحبار وكهنة آخرون

فى عصر **الرعامسة** كان أحبار **أمون** شخصيات عظيمة ذات حَوْل وطَوْل.

وقرب نهاية عهد **سيتى** الأول قام **نب نثرو** كبير كهنة **الكرنك**، بدور عظيم الأهمية، فكان والد الوزير **پاسر**، وينتسب إلى عائلة من أصحاب الحظوة عند الملك.

وعند وفاة **سيتى** الأول توقف ابنه مؤقتًا عن ممارسة أى نشاط سياسى، ورافق، بورَع بالغ، جسد أبيه المحنط، إلى مقره الأبدى فى **وادى الملوك**. وبعد الانتهاء من شعائر الدفن، وبعد الاحتفال بالعيد **أوپت** فى معبد **الأقصر**(١٣٦)، كان أول أفعال **رعمسيس** الثانى الذى مكث فى **مصر العليا**، تعيين كبير كهنة آخر للإله **أمون**، إذ كانت المنية قد وافت **نب نثرو**. ويبدو أن مجلساً قد انعقد، حضرته الجميلة **نفرتارى**. ووقع اختيار الملك على **نب وننف** الذى كان بالفعل كبير كهنة **أونوريس**(*) والإلهة **حتحور** فى **دندرة**(**)، وكانت سلطاته الكهنوتية تشمل جزءاً من **مصر الوسطى** ومن الإقليم **الثينى**. وقد صدَّق **أمون** على هذا الاختيار.

وفى مقبرته، أمر **نب وننف** بنحت نص يصف تولِّيه منصبه بحضور **الفرعون** والملكة وكبراء البلاط الملكى:

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم **إن - حرت**. (المترجم)

(**) الاسم الحالى لمدينة **إونت تانتيرى** عند قدماء المصريين، كما أطلق عليها الإغريق **تانتيريس** Tentyris. المرجع السابق ذكره، Dict. enc. p.94. (المترجم)

في اليوم الأول، من الشهر الثالث، من فصل الفيضان(*)، من العام الأول، أبحر **صاحب الجلالة** في اتجاه **الشمال** قادمًا من **مدينة الجنوب** حيث قام بتأدية المدائح الشعائرية من أجل أبيه **أمون-رع**، سيد **عروش القطرين**، الثور العظيم، رئيس **التاسوع**، ومن أجل **مُوت** العظيمة، سيدة **إيشرو**، ومن أجل **خونسو - نفرحوتب**، ومن أجل **التاسوع** المقيم في **طيبة**، وذلك إبان عيد **أوبت** الجميل. وعند الوصول، أُعلنت التمنيات بالحياة والازدهار والصحة، من أجل ملك **مصر العليا ومصر السفلى**، **أوسر ماعت رع- ستپ إن رع**، ليته يحيا للزمن اللانهائي! وبعد النزول إلى البر في الإقليم **الثيني**، أحضر **نب وننف**، كبير كهنة **أمون**، ليمثل بين يدَيْ **صاحب الجلالة**. كان لا يزال آنذاك، كبير كهنة **أونوريس**(١٣٧) وكبير كهنة **حتحور**، سيدة **دندرة**، وكبير خدم جميع آلهة **الجنوب**، وحتى المكان المسمَّى: «**وجهى - طى - آمون**»، في **الشمال** حتى **ثني**.

وقال له **صاحب الجلالة**: «سوف تكون من الآن كبير كهنة **أمون**. وتصبح خزائنه وشُوَنه، تحت ختمك، وتكون رئيس معبده، وتخضع كل مُؤنه لسلطاتك. أما معبد **حتحور**، سيدة **دندرة**، فسوف تئول، من الآن، مسئولية الإشراف عليه إلى (ابنك(١٣٨))، بالإضافة إلى جميع مناصب آبائه والموقع الذي كنت تشغله. إني أُقْسِم، وقدر حقيقة أن **رع** يحبني، وأن أبي **أمون** يمتدحني، أنني عيَّنت في وجوده جميع رجال البلاط، و«**الفم الأعلى**» في الجيش. ومن أجله، أُعيدت تلاوة أسماء الكهنة - خُدَّام الآلهة، وأسماء كبراء معبده الذين كان في وسعهم إمعان النظر في وجهه. ولم يشعر بالرضا عند سماع أي منهم، إلا عندما نطقت باسمك.

أنجِز إذن من أجله أشياء مفيدة، لأنه يتوق إليك. أما أنا، فكنت أعْرف أنك إنسان مقتدر، ومفعم بالبركة، ومن ثم فليتك تُزيد أيضًا من مقدار المدائح المخصصة **لـ**كا**ئه** وتجديد تلك المخصصة لـ**كا**ئي. عندئذ، سوف يثبِّتك على رأس معبده ويمنحك شيخوخة (سعيدة)، ويسمح لك، أن تلقى مراسيك عند أرض **مدينته** ويعهد

(*) وهو الفصل **أخت**، بالمصرية القديمة. (المترجم)

إليك بحَبْل قيدام(*) (قصره الإنهى) وحبل كوثله(**)، لأنه يتوق إليك أنت وحدك، وأنه لم يذكر اسم أحد غيرك. سوف يُعطيك **القرب**، لأن أبى **أمون** إله عظيم لا مثيل له، إنه يفحص الأبدان ويفتح القلوب(***)، إنه حكيم مطلع على سرائر كل كائن من الكائنات. لا يوجد إله سواه بلغت قدرته حداً يُمكّنه من إنجاز ما فعله. فلا يُمكن للمرء أن يتجاهل نصائحه، ولابد من الوثوق فى كلماته، لأنه رب **التاسوع**، فهو الذى اختارك... وجذبك إليه بسبب فاعليتك».

عندئذ اجتمع رجال البلاط و**الثلاثون**(****)[139] لعبادة كمال **صاحب الجلالة**، وللسجود مرّات ومرّات عديدة أمام هذا الإله الكامل، وإغداق التهليل له(****)[140]، وإرضاء (الصل الموجود على جبينه) وتبجيل وجهه والإعلاء، إنى عَنان السماء، من شأن قدرته. وتحدثوا قائلين:

«أنت، يا أيها الحاكم (فى خدمة) **أمون**، سوف تدوم للزمن الأبدى، هذا الزمن الذى خلقه الإله قبل أجيال وأجيال، ليتك تحتفل بأعياد اليوبيل بالآلاف، ليت عدد سنواتك تكون بقدر حبات الرمال. ليتك تعود إلى الحياة مع كل فجر جديد، ليتك تستعيد شبابك، من أجلنا، مثل قرص الشمس ومثل القمر... إنك تحكم بصفتك ملك **القطرين**، وقد أضحت **الأقواس التسعة** تحت إمرتك. إن نطاق حدودك يصل إلى حدود السماء، وكل ما يغطيه يخضع لك، وما يحيط به القرص تحت بصرك، وما تلامسه **الشديدة الاخضرار** يرضخ لك، فى حين أنك قائم على الأرض، على عرش **حورس**، متألقًا بصفتك ملك الأحياء. إنك تجنّد الأجيال الشابة فى **البلد** المحبوب، وتقضى على

(*) مقدمة السفينة. (المترجم)

(**) مؤخرة السفينة. (المترجم)

(***) من حقنا أن نعقد مقارنة مع الآية رقم٩ من الإصحاح الأول من **سفر الحكمة** من **الكتاب المقدس** المسيحى: **إنك فاحص القلوب والكلى، أيها الإله البار**. وقد ورد فى هامش هذه الآية وتفسيراً لها أن الكليتين هما مركز الأهواء والنزوات الواعية، والقلب هو مركز النشاط الواعى للعقل والعاطفة. الكتاب المقدس، دار المشرق، بيروت ١٩٨٩، ص١٣٩٩. (المترجم)

(****) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

*الأعداء، أنت يا صاحب الثبات والمُلك على الأرض مثل أبيك **أمون – رع**. إنك تحكُم بأسلوبه نفسه، إنك على الأرض أشبه بالقرص فى السماء، إن مدة حياتك مساوية لمدته، حيث إنه يمنحك الزمن الأبدى والزمن اللانهائى والحياة والقوة، أيها الملك الكامل، يا محبوب **أمون**...»*

عندئذ، قام صاحب الجلالة (وسلَّم **نبوننف**) *حلقتيه الذهبيتين وعصاه المصنوعة من الذهب الخالص، ورُقِّى إلى كبير كهنة **أمون** ومدير بيتَىْ الفضة والذهب وكبير المشرفين على **الشونتين** ورئيس الأشغال ومدير كل فرق حرفيِّى **طيبة**. ومن ثمَّ فقد كُلِّف رسول ملكى بإبلاغ **مصر** بأسرها، بأن بيت **أمون** وجميع أملاكه وكل رجاله* (قد سلِّموا إلى **نبوننف**)[١٤١].

وبعد الخطابات والاحتفالات المعتادة فى مثل هذه المناسبات، يبدو أن **رعمسيس**، رغبة منه فى تكريم هذا الشخص(؟) أو بالأحرى لإبقائه خاضعًا له، أسند إليه أيضًا مناصب دنيوية رفيعة فى جهاز الدولة. ومن الواضح أيضًا أن ظاهرة توريث المناصب الكهنوتية قد أخذت تنزع إلى تأكيد نفسها، فنلاحظ أن وظيفة كبير كهنة **حتحور** التى كان يشغلها **نبوننف**، قد أُسندت إلى ابنه.

ونهض **نبوننف** بأعباء منصبه هذا لمدة اثنتى عشرة سنة. ولما وافته المنية، عيَّن الملك خلفًا له، **ون إن نفر** والد صديق طفولته **أمن إم إينت**، الذى سبق أن تعرفنا عليه، وأُقِرَّ إذن فى منصبه، فى العام ١٢ من حكم الملك، ليحتفظ برتبته الكهنوتية حتى العام٢٧.

وفى هذا التاريخ، فإن الوفىَّ الأمين **پاسر**، وكان وزيرًا منذ عهد **سيتى الأول**، بل ربما **رعمسيس** الأول(؟)، وجد نفسه يُنهى مسار حياته العملية بطريقة مشرفة وكريمة، فأُسند إليه منصب الحبر الأعظم للإله **أمون**، وكان والده قد نهض فيما مضى

بأعباء هذا المنصب المرموق. ورغم كبر سنه، فقد ظل كبير الكهنة فى **طيبة**، حتى العام ٣٨، يعاونه خادما الإله الثانى والثالث(*): **روما** وابنه **باكن خونسو**.

وسوف يصبح هذا الأخير، منذ العام ٣٩، كبير الكهنة، الأرفع شأنًا والأعظم قدرًا فى عهد **رمسيس** الثانى، واستنادًا إلى المدوَّنات التى وصلتنا، يبدو أن هذا الرجل كان مزهوًا بشخصه، ولكنه فى الوقت نفسه، كان محبًا لأعمال الخير، ثاقب البصيرة، وفيًا للملك مخلصًا له، ويكنُّ للإله **أمون** ورعًا يهزُّ المشاعر، إذ ظل فى خدمته منذ نعومة أظفاره. كان آنذاك فى الستين من عمره، واستمر فى النهوض بأعباء منصبه طوال سبع وعشرين سنة. ويعتقد أنه قد توفى وهو ابن مئة سنة. وقد وصف هو بنفسه، مسار حياته العملية الطويلة فى نص منحوت على دعامة ظهر رأسية لتمثال، من مقتنيات متحف **ميونيخ** Munich فى الوقت الراهن:

*يتحدث النبيل، الأمير **باكن خونسو** كبير كهنة **أمون**، قائلاً:*

*«كنت إنسانًا بارا وعادلاً ومفيدًا لسيده، يراعى مقاصد إلهه ويسير على صراطه، ويقيم على أفضل وجه مراسم الاحتفالات داخل معبده. كنت كبير المشرفين على مواقع العمل فى معبد **أمون**، متمتعًا بثقة سيده الكاملة.*

أنتم، يا أيها الرجال أجمعين، يا أصحاب البصيرة الثاقبة، وأنتم يا من ستدوم إقامتكم وتأتون فى أعقاب الملايين والملايين من السنين، فبعد أن بلغتُ أقصى الكبر وأصابنى الوهن، أنتم يا أصحاب القلوب التى انفكَّت عقدتها إلى حدٍّ ما، حتى تميِّز القيمة وتتعرف عليها، أنتم جميعًا، سوف أعرِّفكم بنفسى، عندما كنت لا أزال على الأرض، فتعرفون كل وظيفة شغلتها، منذ أن وُلدت.

لقد امتدَّت طفولتى لأربع سنوات.

(*) أى الكاهن الثانى والكاهن الثالث. (المترجم)

ثم امتدت أيام الفتوة لاثنتى عشرة سنة، وأنا رئيس إسطبل الترويض التابع للملك **من ماعت رع**[١٤٢].

وأصبحت بعد ذلك، **كاهنًا طاهرًا**، لمدة أربع سنوات.

ثم كاهنًا إلهيًا للإله **أمون** لمدة اثنتى عشرة سنة.

وأصبحت أخيرًا، الخادم الثالث للإله **أمون**، لمدة خمس عشرة سنة.

ثم الخادم الثانى للإله **أمون**، لمدة اثنتى عشرة سنة.

عندئذ، امتدحنى [الملك **رعمسيس**]، لأنه تأكد من خصالى وصفاتى، فعيَّننى كبير كهنة **أمون**، لمدة سبع وعشرين سنة.

كنت أبًا صالحًا لأهل دارى، فأساعد على تربية الشباب، ومن كان ضيق الحال أمدُّ له يدى، وأجعل المُعوِزَ يستردُّ قواه، وأعمل فى معبد **أمون**، عملاً متقنًا.

كنت كبير المشرفين على مواقع العمل فى **طيبة**، من أجل ابنه(*) الذى من صلبه، (ابنه)، ملك **مصر العليا** و**مصر السفلى**: **أوسر ماعت رع – ستپ إن رع**، ابن **رع**: **رعمسيس – محبوب – أمون**، له الحياة. لقد شيدت مبانى أبيه **أمون** الذى كان قد أقامه على عرشه. كنت مساعد الملك وكبير كهنة **أمون**، أنا **باكن خونسو** الذى يتحدث ليقول ذلك أيضًا.

لقد عملت عملاً متقنًا فى معبد **أمون**، عندما كنت كبير المشرفين على مواقع العمل، فى خدمة سيدى. لقد شيَّدت من أجله معبدًا اسمه: **رعمسيس – محبوب أمون – الذى – يُصغى – إلى – التضرعات**[١٤٣]، قائمًا عند الباب العلوى من معبد **أمون**[١٤٤]. وأقمت داخل أسواره، مسلات من الجرانيت، كان جمالها يقارب السماء. وأمامها، أقيم مبنى من الحجر، قبالة **طيبة**. ورُويت الحدائق وغُرست بالأشجار. كما صنعتُ بابين كبيرين من الذهب، كان جمالهما يلتقى بالسماء. وشذبتُ سَوار بالغة

(*) أى ابن **أمون**. (المترجم)

*الطول، وأقمتها فى الفناء المقدس أمام المعبد. كما بنيت مركبين كبيرين، من أجل **أمون وموت وخونسو** للانتقال على صفحة النهر(١٤٥)».*

أما القسم الأكثر إثارة للمشاعر والأكثر إنسانية، من هذه المدونة، فيُقرأ على قاعدة التمثال:

كنت إنسانًا صموتًا، عادلاً، مفيدًا لإلهه، إنسانًا ينحنى الآن على كل ما أنجزه... فتقبض يداه على الحبل الذى يتحكم فى دفّته، وهو على قيد الحياة.

*اليوم أنا أكثر سعادة من الأمس. إن كل فجر جديد يعطينى مزيدًا من البهجة، ذلك منذ أن كنت طفلاً، وحتى هذا اليوم الذى حلّت فيه سنّى الكبيرة، وأنا داخل معبد **أمون**، فبينما أتبعه فى كل مكان ما زالت عيناى تستطيع، مشاهدة وجهه المقدس. ليته يكافئنى، ويبقينى واقفًا على الدوام وسعيدًا، بعد أن تجاوزت سن مئة وعشر.*

من المؤكد أن **باكن خونسو** كان يتحلّى بحكمة عظيمة وإيمان عميق. كان شاهدًا على أكبر أحداث الإمبراطورية. ولا يجانبنا الصواب، إذا قلنا إنه وُلد فى عهد **حور إم حب**، وبدأ يصعد درجات سلمه الوظيفى فى عهد **سيتى** الأول. كما كان موظفًا مرموقًا فى خدمة عائلة **الرعامسة**.

وفضلاً عن ذلك فقد عُرف عنه نشاطه الواسع على الصعيد المعمارى، فإليه يرجع الفضل فى إقامة القسم الأكبر من المعبد الذى شيّده **رعمسيس** الثانى فى معبد **الأقصر**. كما أن ذكرى **باكن خونسو**، يحتفظ بها ميدان **الكونكورد** place de la Concorde، فى قلب **باريس** Paris، وذلك بفضل المسلة الشامخة المنحوتة فى كتلة واحدة من الجرانيت الوردى، والتى أشرف شخصيًا على إقامتها أمام قصر الإله. إنه يرقد منذ ثلاثة آلاف سنة فى مقبرته فى **دراع أبو النجا**، بالبر الغربى لمدينة **طيبة**. ولكن كما كان يرجوه بقيت ذكراه حية، إلى جانب ذيوع شهرته. إنه أحد كبار الكهنة الذين نعرفهم على أفضل وجه، أو على الأقل مقارنة بآخرين نعرفهم معرفة سيئة.

والأمر الجديد بالملاحظة بدايةً، فى شأن تعيين كبار الكهنة هؤلاء، أنهم يُختارون فى الواقع من قبل الملك. كما نلاحظ أيضًا، فى **مصر العليا** أن المناصب التى تُسند إلى كبراء الدولة المحليين ووجهائها، كانت تُورَّث أبًا عن جد. ولا نلتقى بهذه الظاهرة بهذا الوضوح فى **مصر السفلى**، حيث يبدو أن الوزراء أو الأمراء أو كبار ضباط الملك، يُكلَّفون فى أغلب الأحوال بشغل منصب كبير كهنة **منف** أو **هليوبوليس**، وهما المدينتين الأقرب إلى العاصمة وإلى السلطة المركزية.

هكذا ففى **مصر العليا**، انتقل منصب كبير كهنة **حتحور** فى **دندرة** من **باكن خونسو** وهو غير الشخص الذى يحمل الاسم نفسه وسبق ذكره، انتقل هذا المنصب إلى ابنه. والشىء نفسه حدث فى **أبيدوس**، مع **ونن نفر**، وهو أيضًا غير الشخص الذى يحمل الاسم نفسه، وسبق ذكره. كان كبير كهنة **أوزيريس**، وشغل هذا المنصب منذ عهد **سيتى** الأول، واستمر فيه فى عهد **رعمسيس** الثانى، لينقله بعد ذلك إلى ابنه **حورى**، بعد موافقة الملك.

هكذا تشكلت عائلات من كبار الكهنة، وكان **مين مس**، كبير كهنة **أونوريس** فى مدينة **ثنى**، من أقارب **ونن نفر** ذاته.

وفى **منف**، فى **مصر السفلى**، شغل **حوى** ثم **باحم نثر** على التوالى، منصب كبير كهنة **بتاح**، وانتقل هذا المنصب بعد ذلك إلى **ديديا**، ابن **باحم نثر** البكر، ليعود بعد ذلك إلى الأمير **خع إم واست**. وعند وفاة هذا الأخير أسندت هذه الوظيفة إلى أصغر أبناء **با حم نثر**، وهو الوزير **رع حوتب** الذى سيشغل إلى جانب الوزارة منصب كبير كهنة **رع** فى **هليوبوليس**. وفى السنوات الأخيرة من حكم **رعمسيس** الثانى، نجد أن **حورى** حفيد الملك، وابن **خع إم واست**، سوف يصبح كبير الكهنة فى **منف**.

وفى **هليوبوليس** وفى صدر عهد **رعمسيس** الثانى، أسند هذا الأخير منصب كبير الكهنة إلى **باك**، رئيس سلاح مركباته، رغبةً منه فى تكريمه، تقديراً على ما قدَّمه من خدمات مخلصة. ثم آل هذا المنصب إلى **أمن إم أوبت**، من عائلة **أمن إم إينت**، رئيس الفرق النوبية المعاونة الملحقة بالجيش. وبعد ذلك، شغل هذا المنصب، **مرى أتوم** الابن السادس للملك، والذى رزق به من زوجته **نفرتارى**، واستمرَّ فيه من العام ٢٦ إلى العام ٤٦ من عهد الملك، وخلفه الوزير **رع حوتب**.

وهكذا، وباستثناء بعض الأمراء الملكيين وبعض العسكريين الذين أراد الملك مكافأتهم، نلاحظ أن كبرى العائلات قد استحوذت تدريجيا على كل المناصب الدينية المهمة. وكانت هذه الظاهرة، أحد العناصر التى وراء الضعف الذى عانت منه السنوات الأخيرة من عهد الملك. زد على ذلك أن المناصب النسائية الأساسية فى المعبد سوف يسندها كبار الكهنة فى الغالب إلى قريباتهم.

إن مقبرة من المقابر فى حالة جيدة من الحفظ، إلى حدٍّ ما، أو لوحًا حجريا أو تمثالاً، ما زالت تشهد على كثرة الكهنة والرجال العاملين فى المعبد، فنتعرف من خلالها شيئًا فشيئًا، على هذا العالم فى هيئة نُبذ ولمحات خاطفة.

وفى حوزتنا مصادر المعلومات نفسها، فيما يخص كهنة المعابد الملكية الجنائزية، ولكنها محدودة للأسف. كان هؤلاء الكهنة مفوضين من قبل الملك لضمان إقامة الشعائر على مدار الأيام، من أجل أبائه وإدارة حيازاته الجنائزية الخاصة.

وفى هذه الحالات أيضًا نعرف العديد من أسماء الأشخاص والوظائف المنوطة بهم، فضلاً عمًّا يعبرون عنه من رغبات لحياتهم الأبدية، ولكن لم تتوفر سوى القلة القليلة من المعلومات عن حياتهم أو مسارها الوظيفى.

ومع ذلك، قد نتوصل إلى التعرف أحيانًا على طباع الشخص أو موطنه الأصلى أو عائلته.

بل يحدث أحيانًا أن تفصح زخارف المقبرة عن قدر بسيط من شخصية صاحبها. فلنذكر على سبيل المثال **خونسو**(*)، كبير كهنة معبد **تحوتمس** الثالث الجنائزى، فى عهد **رعمسيس** الثانى. ألم يكن يتميز إلى حدٍّ ما، بطبيعة ميَّالة إلى حياة الريف؟ فقد أمر بأن تُرسم فى أحد أسقف مقبرته فى **الشيخ عبد القرنة** تحليق فَرَاشات وردية اللون وجراد أزرق واندفاع العصافير حول عُشِّها.

ألم يكن المدعو **أمن إم إينت**، الأب الإلهى فى معبد **أمنحوتپ** الثالث الجنائزى، خاضعًا للنظام الملكى ومدافعًا أمينًا عنه، عندما أمر بغرض إطالة زمن خدمته فى منصبه إلى أبد الآباد، والترفيه عن الملوك الموتى، بأن تُرسم على جدران مقبرته فى **قرنة مرعى**، مشاهد طواف تماثيل **أمنحوتپ** الثالث والملكة **تيى** على صفحة البحيرة المقدسة، خلف موكب احتفالى طويل، بعد أن يكون الكهنة قد وضعوا التماثيل على متن القارب، بكل مظاهر الورع والخشوع؟ ويعتبر هذا الرسم من التصاوير شديدة الندرة.

ويمكن أحيانًا الجمع بين الوظائف فى المعابد الجنائزية مع إقامة الشعائر فى المعبد الإلهى. هكذا فإن **پانحسى**، «*خادم*»(**) **أمنحوتپ** الأول، فى عهد **رعمسيس** الثانى، كان أيضًا رئيس منشدى مائدة **آمون**. فقد يتناول الإله طعامه على أنغام الموسيقى. كان **پانحسى** شأنه شأن الكثير من المصريين، تشده مشاهد الحدائق وما تثيره فى النفس من إحساس بالانتعاش والنشاط، فأمر بزخرفة القسم الشمالى من سقف مقبرته، بكرمة متشعبة، تنشر على نطاق واسع فروعها المحملة بعناقيد العنب ذات اللون الأخضر الغامق، على خلفية صفراء، كما تتدلى منها، مرسومة رسمًا

(*) المقبرة رقم ٣١ من مقابر الأفراد بالبر الغربى لمدينة **الأقصر**. (المترجم)

(**) ترجمة حرفية لكلمة **حم** بالمصرية القديمة، ويقصد بها **كاهن**. (المترجم)

نمطيًا مبسطًا. أوراق باللون الأخضر الفاتح وعناقيد عنب ضخمة باللون الأزرق الغامق، وتتآلف كل تلك الألوان فى تناغم رقيق يُشعُّ نوراً. وفى وسط السقف تنتشر أزهار عريضة متألقة.

إن المكان الحالى لهذه المقبرة، فى جبانة **دراع أبو النجا**، مكان غريب(*)، إذ يقع السقف بكل وضوح عند مستوى الطريق الحالى، وينحشر حشراً وسط البيوت المدفونة مثله فى الأرض نفسها، ولكنها تقع عند مستوى أعلى بعض الشىء. هكذا يشاطر **پانحسى** عن كثب حياة البشر، فى أيامنا هذه.

كان **نچم** المشرف العام فى معبد **رعمسيس** الثانى الجنائزى فى حياة الملك، بل وكان تحديداً مدير شئون المعبد. إن تمثالاً يصوره جالسًا فوق وسادة، وقد تدثر جسده فى رداء واسع، ويضع يديه على ركبتيه، ويمسك فى يده اليمنى سنبلة قمح يانع[١٤٦]. وبين رجليه، ينتصب تمثال للإله **پتاح – تاتن**. هكذا يُعبِّر عن شكره شكراً مزدوجاً: بداية إلى إله **منف** الذى كان **نچم** على ما يظن من أتباعه المؤمنين، ثم إلى إله القمح وخصوبة أراضى **الرامسيوم** التى يُقدم باعتزاز غلة من غلاتها، فيُعرف على هذا النحو المنصب الذى شغله. فكان على ما يعتقد رجلاً مرتبطًا بالأرض، يعشق السلم والسلام وقد يشير اسمه أيضًا إلى هذه الخصال، فالاسم **نچم**، يعنى «*الوديع*». إن صيغة القرابين المنحوتة على دعامة ظهر التمثال الرأسية، تعلن:

فيتفضل الملك بتقديم قربان إلى ***پتاح*** *حتى يَمنح هذا الأخير مدة حياة على الأرض تصاحبها الإنعامات الملكية، ومجموع سنوات* (تبلغ من الكثرة) *حتى إنها تستعصى على الحصر،* (حياة) *بلا تعاسة، يُستبعد منها الرعب،* (يمنحها) *إلى كا...* **نچم**[١٤٧].

(*) وهى المقبرة رقم ١٦. (المترجم)

إن النصوص المدونة على المعالم التى خلَّفها هؤلاء الكهنة تكشف، فى بعض الأحيان، عن أصالة متفردة.

إن **أوسرحات**، كبير كهنة معبد **تحوتمس** الأول الجنائزى فى عهد **سيتى** الأول، يتقدم إلى الآلهة والإلهات، فى سياق صيغة القرابين، المدونة على جدران مقبرته، بالطلبات الآتية:

*ليتها تمنحنى نضارة النجوم وشذى النسمات المنعشة، دون أن يُطرد **باؤه**(١٤٨)(*) أبداً. ليت اسمه يُنادَى عليه، ويظهر فى كل الأعياد، على مرِّ الأيام... من أجل **كا**... **أوسرحات**(١٤٩).*

وننتقل إلى **نخت أمون**، رئيس مائدة قرابين **الرامسيوم** فى عهد **رعمسيس** الثانى. إنه يقارن نفسه بالإله **تحوت**، الذى ينظر إليه بصفته شبيهاً له، استناداً إلى كل الأفعال الخيِّرة التى قدمها هذا الأخير من أجل **أوزيريس**. وهكذا، فإنه يسعى إلى انتزاع رضا إله البعث إلى أبد الآباد:

*أنا قادم إليك، يا سيد **الأرض المقدسة**، القيِّم على الزمن اللانهائى، الابن البكر الذى أنجبه **جب**، الأول الذى ينتسب إلى جسد **نوت**. إنى ألامس الأرض بجبينى أمام سيد الجبانة الذى رفع السماء بساعديه. أنا شبيه **تحوت**، وأبتهج بسبب كل ما فعله، فقد جلب لك النسمات من أجل أنفك والحياة والقوة من أجل وجهك الجميل... يا حاكم **الغرب**. إنه يسمح بتألق النور على صدرك، إنه يضىء الطريق المعتم، ومن أجلك يطرد الشرور العالقة بجسدك(١٥٠)...*

(*) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

إننا نعرف أحيانًا أصل هؤلاء الرجال أو عائلتهم.

هكذا، فإن **ثيا** مدير خزينة **الرامسيوم** والكاتب الملكى، كان قد تزوج شقيقة **رعمسيس** الثانى، ابنة **سيتى** الأول والملكة **توى**. وكانت تُدعى أيضًا **ثاى**، مثل زوجها. ولا شك أن **رعمسيس**، رغبة منه فى تكريمه، قد عهد إليه بإدارة الشئون المالية فى معبده الجنائزى. وحفظ لنا الدهر عددًا من معالم **ثيا** الأثرية، نذكر منها هُرَيْمًا نحتت عليه ترانيم للآلهة[١٥١] وأيضًا لوحًا حجريًا فريدًا فى بابه، إذ له «أربعة أوجه»، وفى حقيقة الأمر، فهو كتلة حجرية مربعة القَطْع، قممها الأربع مستديرة مثل الألواح الحجرية[١٥٢]، ودُوِّنت على كل وجه من أوجهها ترانيم إلى **رع** و**أتوم** و**أوزيريس** و**سوكاريس**. ومن ترنيمة **رع** ننقل النص الآتى:

*تحية **لك**، يا **رع** - **خبرى** - **أتوم** - **حورس**، أنت يا من تعبر السماء، أنت أيها الصقر الإلهى للآلهة، يا صاحب الوجه الجميل بريشتيه العاليتين! ليته يسمح، بتأمل القرص ومشاهدة القمر وتوقير الإله العظيم على عرشه، من قِبَل... **ثيا***[١٥٣].

إن التلفيقية الدينية التى تُميز عصر **الرعامسة** تحديدًا تتجلَّى هنا بكل وضوح. فالكيان الإلهى المشار إليه يجمع بين شخصيات **رع**(*) و**خبرى**(**) و**أتوم**(**) و**حورس**، الصورة القديمة للصقر السماوى، وإلى الكيان الإلهى المذكور، تضاف شخصية **أمون** الأحدث عهدًا، والذى جرت العادة أن توضع على رأسه قاعدة تاج تعلوه قادمتان(***) سامقتان. وتأسيسًا على ذلك، ومن خلال وحدة وثيقة تجمع بين الأسماء والأشكال، نحصل على كيان شمسى **كامل**. ويبدو أن هذا النص يؤكد أيضًا على الشعائر الدينية التى تُقام من أجل الملك؛ **فالفرعون** يشكل ثالوثًا مقدَّسًا مع الشمس والقمر، عند الإعلان عن المصائر الأبدية التى يتطلع إليها صهره.

(*) القرص الشمسى. (المؤلفة)

(**) الشكل الأول والأخير، لدورة الشمس، عند الصباح وعند المساء. (المؤلفة)

(***) القادمة: الريشة الكبيرة فى مقدم جناح الطائر. المعجم الوسيط. (المترجم)

ولأسباب نجهلها، كان فى استطاعة الأجانب أحيانًا، أن يتبوأوا مناصب عظيمة الأهمية. هكذا، فإن **رعمسيس - إم - پر - رع** ومعناه **رعمسيس - فى - معبد - رع** كان كبير حرّاس **الرامسيوم** فى عهد **رعمسيس** الثانى **ومر إن پتاح**، وكان اسمه الأصلى **بن أزين**، أى **ابن إيزن**، وهو اسم ساميٌ يشير إلى الأصول **الكنعانية** لهذا العظيم من وجوه المجتمع(١٥٤). ونعرف من جهة أخرى أنه كان قادمًا، مثل أبيه **يوپا**، من بلدة **زيرى باشان**، وهو اسم مكان **كنعانى**، كان معروفًا عند المصريين، وقد ورد ذكره فى لوحات **العمارنة**، وتقع هذه البلدة فى شمال دولة **الأردن** الحالية(*). وربما أتى به **رعمسيس** الثانى إبان حروبه المظفَّرة فى هذه المناطق، بل وربما تم تنشئته فى **مصر** فى بيت حريم **مى ور**، على سبيل المثال، شأنه شأن غيره من أسرى الحروب. وهكذا فقد تمصَّر، واتخذ لنفسه اسمًا جديدًا، ويبدو أنه ارتبط بعبادة الشمس. وبالفعل كان أحد ألقابه: «*هذا الذى يُحب **هليوپليس***». كم كنا نودُّ أن نعرف المزيد عن حياة هذا الشخص، التى تتَّفق تمامًا مع التصور الذى تفتَّق عنه ذهن **رعمسيس** الثانى حول **مصر**، إنها جماعة مؤلفة من أوطان مختلفة موحَّدة.

ومن المسلَّم به أن هيئة الموظفين هذه، هى فى نظرنا مكونة من عناصر متعددة ومتنوعة. إن الكشف عن وثائق جديدة، وهو ما نرجوه ونتوقعه دائمًا، ربما سيساعدنا على فهم هذه الهيئة فهمًا أفضل.

الأعياد المقدسة

كان الاحتفال بالأعياد فى عصر **الرعامسة** تعمها كل مظاهر الفخامة والعظمة. وفى مصر الفرعونية، كانت الأعياد تعود إلى أصول متنوعة. فقد عرفت أعياد قومية أو محلية وأعياد مواسم أو أعياد دينية بالإضافة إلى الأعياد الجنائزية التى كانت العائلة تقوم فى هذه المناسبة بزيارة قبر القريب المتوفى، لتقدم له بعض الأطعمة المفضلة(**).

(*) وليس **فلسطين**، حتى لا يأتى من يقول إنه كان يهوديا. (المترجم)

(**) يبدو أن هذه العادة لم تختف، وإن دخل عليها بعض التغيير. (المترجم)

إن مهرجانات تقريظ أكبر الآلهة ومدحها، كانت تعتبر مناسبة قد يتوقف أثناءها نشاط المجتمع فى طول البلاد وعرضها لعدد من الأسابيع، ويترتب عليها انتقال الحجيج والدخلاء الفضوليين، على نطاق واسع. إن تقويماً دقيقاً، يحدد قائمة الأعياد، نُحت فى معبد **رعمسيس** الثانى، فى **أبيدوس**.

ويبدو أن نصوص وتصاوير عصر **الرعامسة** تؤكد على أهمية ثلاثة أعياد: عيد **حريم أمون** فى **طيبة** أو عيد **أوبت**(*) كما كان يطلق عليه. وقد نحتت مشاهده الرئيسية على أساطين بهو الأساطين الكبير فى **الكرنك**. ثم عيد **مين** الذى صُوِّرت مواكبه الاحتفالية وشعائره فى **الرامسيوم**. وأخيراً، **عيد الوادى** الذى صُوِّرت فقراته فى معبد **سيتى** الأول الجنائزى فى **الشيخ عبد القرنة** وعلى جدران **الرامسيوم** وعلى أساطين بهو الأساطين الكبير فى **الكرنك**.

ونعرف أن **رعمسيس** الثانى عندما شرع يحتفل بأول عيد **أوبت** فى عهده، بعد أن انتهت مراسم دفن والده، مكث فى **طيبة**. ولما كان **نب نترو**(**) قد وافته المنية، ولم يكن **نبوننف** قد نُصِّب بعد رسمياً فى عمله الجديد، ترأس الملك شخصياً الاحتفالات بدلاً من كبير الكهنة. هكذا فقد باشر بنفسه، أحد أهم الامتيازات الملكية، ليؤكد بثبات أنه سيد البلاد الجديد، كما كان فى الوقت نفسه، يستحوذ على حق إقامة الطقوس الدينية فى **طيبة**.

كان العيد يبدأ فى اليوم التاسع عشر، من الشهر الثانى، من فصل الفيضان، أى خلال النصف الأول من شهر أكتوبر، قبل انحسار مياه الفيضان، مخلفاً وراءه التربة المخصَّبة. كان يستمر لفترة أربعة وعشرين يوماً بل وسبعة وعشرين يوماً، أحياناً. كان موضوعه الزيارة التى يقوم بها **أمون الكرنك** إلى حريمه فى معبد

(*) و**أوبت** هو الاسم الذى كان يطلق على الحريم. (المؤلفة)

(**) كبير كهنة **الكرنك**. راجع الفقرة السابقة من هذا الفصل. (المترجم)

الأقصر. كان إذن عيداً مزدوجًا للخصوبة، خصوبة الأرض وخصوبة الآلهة، عيد استعادة الحياة وتجديدها، والحفاظ على القوى الحيوية والطاقة الخلاقة.

ففى **الكرنك**، وعند الفجر، يُفتح الناووس الذى يضم تمثال **أمون**، ويقوم الملك شخصيًا بوضع القرابين أمامه من أطعمة وزهور لتتكدس أمام الصورة المقدسة. وهنا، ينتظر فى مقصورته، قارب الإله - القارب **أوسرحات**(*) - المصنوع من خشب الأرز «*وقد كُفِّت بالذهب، من أفضل ما جاء من الصحارى، إنه يتألق بكل أنواع الأحجار الكريمة*[١٥٥]»، ينتظر لحظة الرحيل. وفى الخارج توجد ثلاثة قوارب فوق قاعدة، يخص أولها الإلهة الأم **مُوت**، والثانى الإله الابن **خونسو** والأخير الملك، لمرافقة الإله فى رحلته.

يبدأ الموكب من الطريق المؤدى إلى نهر **النيل**. يتقدمه جُندى معلنًا انطلاق الموكب، عندما ينفخ فى نفيره، وإلى جانبه ضارب الطبل ينظم بإيقاعه سير الموكب. والحدث الاستثنائى أن **رعمسيس** الثانى شخصيًا يتقدمه، «*فاتحًا الطريق للإله **أمون***». إنه يرتدى فوق ثيابه الملكية الزى الكهنوتى بجلد الفهد. ويُلقَّب بعبارات متألقة تألقا فريداً، إنه: «*كبير كهنة **أمون**، ملك **مصر العليا** و**مصر السفلى**، له الحياة*». وتصل القوارب الأربعة عند شاطئ النهر، محمولة على أكتاف «*الكهنة الأطهار*». وهنا، توضع على متن مراكب كبيرة مخصصة للملاحة فى النهر. ويبحر الأسطول الصغير، يتقدمه قارب **أمون** المتألق، وينساب على صفحة النهر متجهًا إلى معبد **الأقصر**. وعلى شاطئ النهر أيضًا، يرافقه موكب طويل، يضم الكهنة بطبيعة الحال، وقد جاءوا جميعًا، لأنه يوم عيدهم، وإلى جانبهم الجنود والموسيقيون والمنشدات والراقصات. إن مرتزقة ليبيين وزنوجًا جاءوا أيضًا ليعبِّروا عن فرحتهم، بأداء رقصات بلادهم، بينما تتمايل الراقصات على إيقاع الموسيقى. إن جمعًا غفيراً من عامة الشعب ومن الحجيج تجمعوا فى مكان لا يبعد كثيراً عن الشاطئ، ويطلقون الصيحات ويهللون فرحًا وابتهاجًا. ويتداخل كل صخب الأعياد هذا مع دق النفير وقرع الطبول ورنَّات تحريك

(*) ويعنى: «ذو القيدام القوى». (المؤلفة)
والقيدام هو مقدمة القارب. (المترجم)

المصلصلات الأكثر حدةً ورقة تناغم آلة العود، يتداخل جميعها لتتجه صعوداً نحو **أمون** القوى، تقديراً لعظمته وإجلالاً له.

كما عاش معبد **الأقصر** ساعات انتظار محموم. وعلى جانبى الطريق المؤدى من نهر **النيل** إلى المعبد، أقيمت مقاصير صغيرة من الخشب تشبه مثيلتها فى المعابد، وتزدان بظُلة يرفعها أسطونان على شكل نبات البردى. وتتكدس فى كل منها الأطعمة من مختلف الأنواع، كتعبير آخر عن الخصوبة موضوع هذا العيد. ويتولى المُضحُّون ذبح الأبقار السمينة، ويتمُّ تقصيبها فى مكانها، وينهمك الخدم ينقلون قطع اللحم على عجل إلى المعبد. يحدث كل ذلك وسط الصياح والشمس والغبار والذباب.

ويصل **أمون**، وعلى الفور تُنقل القوارب المقدسة إلى داخل المعبد وتوضع فى مقاصيرها، وعلى امتداد أحد عشر يوماً تجرى وقائع عُرس الإله فى أعماق غبش المكان المقدس والصمت المهيمن عليه. وفى هذا الإطار تدور فقرات شعيرة أسرار الحياة التى تولد من جديد، لتضمن على هذا النحو فى الخفاء استعادة قوى الحياة وتجديدها، فى ذات اللحظة التى يقوم فيها **النيل** بتخصيب تربة **مصر**.

وفى الخارج يحتفل سواد الشعب بالعيد، فيقيمون فى الطعام والشراب واللهو ويفرطون فيه(*).

وسوف تلتزم العودة إلى **الكرنك** بالشعائر نفسها، وسط مظاهر مماثلة من الفرح والابتهاج.

إن أحد مشاهد هذه العودة جديرة بأن تسترعى انتباهنا. فقرب صرح **الكرنك** صُوِّر فى مقدمة الموكب طابور من الأبقار السمينة وقد زُينت قرونها بالأزهار، استعداداً لذبحها. وفى معبد **الأقصر**، وفى الركن الجنوبى الغربى من الفناء الأول، سُجِّل هذا الموضوع بمزيد من التوضيح: «خلف سبعة عشر ابنًا من أبناء **رمسيس** الثانى يتقدم صف من الكهنة و*الثيران*. وبشكل عام، فإن كل عنصر من هذا الطابور يتكون من شخص يمسك حبلاً يسحب به ثوراً يكتنفه كاهن آخر. إن الشخص الأول

(*) إنها مشاهد مألوفة فى الموالد فى **مصر**. (المترجم)

من كل مجموعة يضع على رأسه شعراً مستعاراً، ويتقدم فى وضع التعبُّد، وقد حنى صدره إلى الأمام انحناءة بسيطة، ويمسك على امتداد جسده باقة زهور كبيرة مركبة. أما الشخص الثانى حليق الرأس فهو يقدم فى كثير من الحالات أرغفة خبز مثلثة الشكل. لقد سُمِّنت، الثيران جيِّداً، وتسير متثاقلة على حوافرها المشوهة، وقد تزيَّنت بمناسبة العيد، وطُوِّقت أعناقها بالزهور أو بالحلقات المجدولة، وعُلِّقت بآذان بعضها صفائح أو حلقات. وبين قرون الثيران الأربع الأولى صُوِّر الموضوع المألوف للريش المُركَّب العالى، إلا إذا كان يمثل سيقان زهرة اللوتس. ويحمل الثور الخامس رأساً مستعاراً يمثل زنجياً. أما الحيوان السادس فيبدو أنه يشبه نوعًا من البقريات ذات السَنام... وتنتصب فوق رأسه صورة آسيوى، يمكن التعرف عليه من صورته الجانبية ولحيته المدببة الطويلة. كان له ساعدان مضمومان ويرتفعان إلى الأمام فى وضع التعبُّد(١٥٦)».

ولأول وهلة، فإن الاختلاف بين **الإفريقى** و**الأسيوى** واضح جلى ويجدر ذكره. فالإنسان فى الحالة الأولى هو جزء من بدن الحيوان، كما أن قرنيه يشكلان مع ساعدى **الزنجى**، شيئًا واحداً. أما فى حالة **الأسيوى** فإنه لا يُظهر سوى ملامح آدمية، وكل ما فى الأمر، أنه موضوع فقط فوق جبين الحيوان الذى يبدو أنه ينبثق منه. وتكشف هذه الجزئيَّة فى تناول الصورتين عن الاختلاف العميق فى نظرة المصريين لكل من شعوب **الجنوب** و**الشمال**(*).

إن الموضوع وهو سياسىٌ بكل تأكيد، كان يرمى فى إطار أعياد **مدينة الجنوب**(**) الدينية، المكرسة لدوام الحياة واستمراريتها، إلى تعزيز فكرة دوام الإمبراطورية واستمراريتها. وهو ما يفسِّر وجود أبناء **رعمسيس** الثانى فى مقدمة الموكب، تأكيداً على استمرارية الأسرة الحاكمة، كواقع مستقبلى. إن وجود رءوس

(*) يا له من وصف رائع تقدمه المؤلفة، جعلنا نعيش لحظة بلحظة هذا المشهد الرائع، بصوره المبهرة ونغماته التى تسحر الألباب. شكراً لها إذ أعادتنا عن جدارة ثلاثة آلاف سنة إلى الوراء. (المترجم)

(**) **نيوت رسيت** بالمصرية القديمة، أى **طيبة**. (المترجم)

الزنوج والآسيويين بين قرون الحيوانات رافعين أيديهم متوسلين، وفقًا لحركة تقليدية، والذين سيتم ذبحهم مع الحيوانات فى آن واحد، قد يبدو ظاهرة غريبة غير مألوفة. ولكن إذا أدركنا أن ذبح حيوان يعتبر أحيانًا بمثابة ذبح عدو، تصبح الرمزية فى هذه الحالة مزدوجة، فتتعاظم إذن فاعلية الصورة. هكذا، تؤكد هذه الشعيرة هيمنة **مصر** على الأراضى القصية إلى جانب استمرارية النظام الملكى. وقد ظهرت أساسًا فى عصر **الرعامسة** وتحديدًا فى عهد **رعمسيس** الثانى، كما صُورت فى معابد **الكرنك والأقصر وأبيدوس**، وأيضًا فى معابد **النوبة** فى **بيت الوالى وكوة**، وسط السكان الأفارقة لمطالبتهم بالخضوع. وفى هذا الزمن، تشكل إذن هذه الشعيرة إضافة ذات بعد سياسى إلى عيد **أوبت**، فكان عيدًا يحتفل فى آن واحد بخصوبة الأرض الخضراء العامرة انتظارًا لموسم الحصاد المقبل، وأيضًا بالخصوبة الإلهية واستمرارية الحياة، وأخيرًا بدوام الإمبراطورية حتى تغالب الأيام. هذه الإضافة تتفق كل الاتفاق مع فكر **رعمسيس** الثانى.

ومن جهة أخرى، يمكن النظر إلى هذا المشهد الختامى، مشهد العودة، بصفته *ردًا* متناغمًا *كمقابل* لمشهد آخر، كان يمهِّد لهذا العيد ويتفق معْ خروج الآلهة من ناووسها، بينما يقيم **التاسوع الكبير** شعائر العبادة من أجل **آمون** و**مُوت** و**خونسو**. وتُصاغ الكلمات على النحو الآتى:

__آتــــوم__ : ليتك تُشرق شروقًا جميلاً، يا __آمون__ – رع!

ليتك تُعطِى __حياة وقوة لرب القطرين__،

__اوسر ماعت رع – ستپ إن رع__.

__شــــو__ : ليتك تتجلَّى تجليًا جميلاً، يا سيِّد الآلهة!

ليتك تُعطِى __الصحة__ لسيد التجلِّيات المجيدة،

رعمسيس – محبوب – آمون.

__تفنــوت__ : ليتك تُشرق شروقًا جميلاً، يا __آمون__ – رع!

ليتك تُعطِى __البسالة لرب القطرين__،

اوسر ماعت رع – ستپ إن رع.

جـــب : *ليتك تتجلّى تجلّيًا جميلاً، يا سيِّد الآلهة!*

ليتك تُعطِي ***النصر*** *لسيد التجلّيات المجيدة،*

رعمسيس – محبوب – آمون.

[**نــوت** : تُعطي الحياة والقوة].

أوزيريس : *ليتك، تتجلّى تجلّيًا جميلاً، يا سيِّد الآلهة!*

ليتك، تُعطِي الملك لسيد التجلّيات المجيدة،

رعمسيس – محبوب – آمون.

إيزيــس : *ليتك تُشرق شروقًا جميلاً، يا* ***آمون – رع!***

ليتك تُعطِي ***مدة حياة رع، لرب القطرين،***

أوسر ماعت رع – ستپ إن رع.

ســت : *ليتك تتجلّى تجلّيًا جميلاً، أيها القيِّم على* ***التاسوع!***

ليتك تُعطِي ***سنوات آتوم*** *لسيد التجلّيات المجيدة،*

رعمسيس – محبوب – آمون!

نفتــيس : *ليتك تُشرق شروقًا جميلاً، يا* ***آمون – رع!***

ليتك تُعطِي ***عرشك لرب القطرين،***

أوسر ماعت رع – ستپ إن رع.

كما أن **حتحور**، سوف تُعطِي **رعمسيس** الزمن اللانهائي، وتغدق عليه آلهة أخرى، صفات مادية وروحانية، من خلال صياغة مقاطع شعرية مماثلة، تتوازن توازنًا متناغمًا(١٥٧).

هكذا، فربما عمل **رعمسيس** الثاني، على إطالة فترة أعياد **أوبت** وتأطيرها، إذا صح التعبير، بمشاهد سياسية، الهدف منها ضمان أن تتحقق على أرض الواقع الإمبراطورية التي كان يحلم بها، وأن تغالب الأيام، وذلك بفضل **آمون** وبنعمته.

كما تُقدِّم لنا آثار **رعمسيس** الثانى صوراً تعود إلى غيرها من المدائح الإلهية.

ففى الفناء الثانى من **الرامسيوم**، صُوِّرت مختلف فقرات عيد الإله **مين**. إنه إله خالق بعضو ذكر منتصب، ورداء محبوك. وربما كانت شواطئ **البحر الأحمر موطنه الأصلى**، فهو الإله القديم لأصحاب القوافل وقوادها، واتخذ من مدينة **كوبتوس**، شمال **طيبة**، مكانه المقدس الرئيسى. ولكن كان له فى **المدينة**(*) ذاتها، مقصورة. ويبدو أن شخصيته قد «*تركت أثراً*» فى هيئة **أمون** الذى عُبد فى معبد **الأقصر**، إذ صُوِّر أيضاً بعضو ذكر منتصب، برداء محبوك رافعاً ساعده، وممسكاً بسوط، مثله مثل **مين**.

كما أن «*طلعة مين*» هذه، كانت تجذب أعداداً كبيرة من الحجاج وجماهير غفيرة. كانت تقع فى الشهر الأول(**) من فصل الجفاف(***)، أى قرب نهاية شهر **مارس**، فى زمن الحصاد. ومن ثم كان عيد **أوبت** وعيد **مين** لحظتين بارزتين فى حياة الحقول، يتعين على الآلهة والملك أن يحتفلوا بهما.

وفى اليوم المحدد، كان ينتظم فى **طيبة**، الموكب الأول، خارج القصر الملكى. ويظهر الملك مرتدياً زيَّه الرسمى ويجلس على مُتَّكَأ، موضوع تحت قبة، ومحمول فوق محفة يرفعها اثنا عشر رجلاً. وكانت المظلات والمذبَّات توفِّر للملك وسائل الراحة[158].

(*) **نيوت**، وهى من أسماء **طيبة**. (المترجم)

(**) شهر **باخنس** الذى تحول إلى **بشنس** فى التقويم المصرى المعاصر المعروف بالقبطى، بعيداً عن أية دلالة دينية. ويرى د.عبدالعزيز صالح أن **بشنس** نسبة إلى الإله **خونسو**. (حضارة مصر القديمة، د.ن، ١٩٨٠. ص٤١). والنقطة الجديرة بالملاحظة أن أقباط **مصر** يحتفلون بمولد العذراء **مريم** فى اليوم الأول من شهر **بشنس**. (راجع **السنكسار**). فهل من وجه للمقارنة؟ (المترجم)

(***) **شمو** بالمصرية القديمة. ما زال المصريون يحتفلون بهذه المناسبة، يوم **شم النسيم**، بعد تصحيف كلمة **شمو** إلى **شم**. وبدخول المسيحية **مصر** أصبح هذا العيد يقع فى فترة الصوم الكبير لدى الأقباط، فتأجل الاحتفال به، إلى يوم **الاثنين** التالى لعيد القيامة الذى يحدد نهاية الصوم، وتاريخه غير ثابت يتغير من سنة إلى أخرى، ولكنه يتفق دائماً مع أحد أيام **الأحد**. (المترجم)

وفى مقدمة الموكب كان الموسيقيون والكهنة يسيرون. ثم يأتى الأبناء الملكيون وكبار رجال الدولة. كان كاهن مرتل يشرف على الاحتفال، ويقرأ من بردية طويلة، بينما كاهن آخر حليق الرأس وعارى الصدر حتى الخصر، يتقدم مقصورة الملك، ويطلق البخور فى اتجاه العاهل الملكى، وخلف **الفرعون** يسير وجهاء وجند آخرون.

وعند وصول الملك أمام مقصورة **مين** يهبط من المحفة ويصبح أمام تمثال الإله. إن إطلاق البخور وإهراق ماء المسكوبات وتقديم القرابين، كانت توفر للإله مظاهر الشكر والحمد الرئيسية. عندئذ تبدأ طقوس الاحتفال الدينى. وصُوِّرت فى مقصورة **مين** اثنتان من صفاته المميزة، الأولى هى عبارة عن كوخ مخروطى الشكل، ربما كان محاكاة لمعبده العتيق فى **الصحراء الشرقية**، وتُصوِّر الثانية خستين ذواتى أوراق طويلة(*) وكانت معروفة لدى القدماء بخاصيتها فى تقوية النشاط الجنسى.

عندئذ، يضع «*الكهنة الأطهار*» التمثال الإلهى على حامل، ليبدأ موكب احتفالى آخر ينتهى عند استراحة، سوف توضع فيها الصورة المقدسة.

وعلى رأس الموكب، يسير الكهنة موزعين على صفين، ويحمل كل واحد منهم على كتفه الأيمن تمثالاً صغيراً لأحد الملوك من أسلاف **رعمسيس**، ويسنده بيده اليسرى. وفى **الرامسيوم** صُوِّرت هذه التماثيل موزعة على صفين، ومرتبة ترتيباً زمنياً عكسياً حسب حكم كل من أصحابها، بدءاً من **رعمسيس** الثانى ورجوعاً إلى الوراء وصولاً إلى **نعرمر**. وبطبيعة الحال لم يُصوَّر جميع الملوك. وبالفعل لا يوجد سوى أربعة عشر ملكًا. خمسة فى أحد الصفين وتسعة فى الآخر وهم: **نعرمر** و**مونتوحوتپ** و**أحمس** و**أمنحوتپ** الأول و**تحوتمس** الأول فى جانب وفى الجانب الآخر، **تحوتمس** الثانى و**تحوتمس** الثالث و**أمنحوتپ** الثانى و**تحوتمس** الرابع و**أمنحوتپ** الثالث و**حور إم حب** و**رعمسيس** الأول و**سيتى** الأول و**رعمسيس** الثانى. فلم يُصور سوى ملكين من أقدم الملوك، وهما الملكان اللذان استهلا نظامًا ملكيًا موحداً جديداً. واستعادا المؤسسة الفرعونية، بعد سنوات طويلة من انفراط عقد الوحدة. وبعد ذلك صُوِّر جميع

(*) لقد شاهدت هذا النوع من الخسّ فى أسواق **الأقصر** ويختلف عن الخس الذى يباع فى أسواق **القاهرة** مثلاً، بأوراقه القصيرة. (المترجم)

ملوك الأسرة الثامنة عشرة، باستثناء **حتشبسوت** مغتصبة العرش و**أمنحوتب** الرابع و**توت عنخ أمون**. كما صُوِّر ملكا **الرعامسة** الأوائل. ويبدو أن هذا الاختيار يعكس بوضوح رؤية متبصِّرة لتاريخ **مصر**. هكذا يظهر **رعمسيس** بصفته الوريث الحق لأجداده، كما أن استمرارية النظام الملكى، فضلاً عن استمرارية الحياة، أبًا عن جد، وخلفًا عن سلف، فى حدود سلسلة متواصلة، تسعى إلى تأكيد تجديد القوى التى تولد بالضرورة من جديد، وعلى الدوام. كما صُورت الملكة ضمن الموكب، إنها الملكة المخصِّبة، التى يتجسد فيها الملك، والتى تضمن من جانبها استمرارية ملوك الأسرات الحاكمة.

وبصفته العنصر المركزى فى هذا الموكب الاحتفالى، يسير بعد ذلك التمثال **مين** فوق حامله، وفى أعقابه يأتى **رعمسيس** شخصيًا مصحوبًا بثور أبيض مكرس للإله. ويرمز وجود الثور بكل وضوح إلى قدرات **مين** الجنسية، فى حين يُقربه لونه الأبيض من الدورة الشمسية. إن طقس الثور الأبيض معروف فى حوض **البحر المتوسط** وفى جزيرة **كريت** تحديداً .

وهنا يقال للإله:

*ليتك تتجلَّى متألقًا من أجل آلهة **الشرق**!*

ومن ثمَّ، يندمج **مين** فى الشمس، إذ تشمل كلاهما الدورة نفسها لقوى الولادة المتجددة والحياة التى تستعيد نشاطها على الدوام.

وبينما ينشد كاهن مرتل ترنيمة، يطلق البخور، تعبيراً موحداً عن شكره وامتنانه للإله وللملك وللحيوان المقدس، لأن ثلاثتهم من أصحاب القدرات الإنجابية.

وفى أعقابهم، يسير ثمانية عشر من حاملى القرابين والشارات الإلهية.

فى هذه اللحظة، ووفقًا لترتيبات الطقس الدينى، تقع فقرة بالغة التفرد، إنها «نشيد زِنْجِى **بونت**»، ونذكر فيما بعد كلماتها ذات الإيقا ع المتناغم:

*إن حبّى لك، يا **مين**، هو الأثر الذى أقدمه لك. تحية لك، يا **مين**، يا رب **سينوت** وسيد **إيبو** إن جسدك من اللازورد(١٥٩). كم هو قوى وجهك، أيها الثور القادم من الصحارى، وصاحب القلب السعيد عند تعيينك ملك الآلهة.*

هل كان هذا «*الزنجى من **بونت***» كاهنًا؟ أو منشدًا زنجيا؟ ولما كان **مين** أصلاً، على ما يعتقد، إله أصحاب القوافل وقوادها، فقد وحّد المصريون دائمًا بينه وبين المناطق الواقعة شرق **مصر** وجنوب شرقيها، ومن أشهرها كانت بلا شك بلاد **بونت**، وهى **الصومال** حاليًا، بل وربما جزء من **السودان**. إن سكان **بونت** ليسوا من الجنس الحامى، ولكن تفترض إحدى الأساطير أن **مين** قد خلق الزنوج الذى يقومون بدور ما، فى الشعائر التى تقام من أجله.

عندئذ، يصل الموكب إلى الاستراحة التى ترتفع أربع درجات ويستقر فيها التمثال الإلهى.

وبحضور الملك تُطلق الطيور ناحية جهات الأفق الأصلية الأربع:

*أيا **امست***(*)*، اتجه ناحية **الجنوب**، وقُلْ لآلهة **الجنوب**،*

*أيا **حبى***(**)*، اتجه ناحية **الشمال**، وقُلْ لآلهة **الشمال**،*

*أيا **دواموتف***(***)*، اتجه ناحية **الشرق**، وقُلْ لآلهة **الشرق**،*

(*) أحد أبناء **حورس** الأربعة، ويصور فى الغالب برأس آدمى، ويسهر فى المعتاد على الإناء **الكانوبى**، الذى يحتوى على كبد المتوفى. (المترجم)

(**) أحد أبناء **حورس** الأربعة، ويصور فى الغالب برأس قرد، ويسهر فى المعتاد على الإناء **الكانوبى**، الذى يحتوى على رئتى المتوفى. (المترجم)

(***) أحد أبناء **حورس** الأربعة، ويصور فى الغالب برأس كلب، ويسهر فى المعتاد على الإناء **الكانوبى**، الذى يحتوى على معدة المتوفى. (المترجم)

*أيا **قبح سنوف**(*)، اتجه ناحية **الغرب**، وقُلْ لآلهة **الغرب**،*

*إن **حورس** بن **إيزيس وأوزيريس** قد أخذ التاج الأبيض والتاج الأحمر،*

*وملك **مصر العليا ومصر السفلى، أوسر ماعت رع – ستب إن رع**،*

قد أخذ التاج الأبيض الكبير والتاج الأحمر.

وبعد أن اتخذ أبناء **حورس** الأربعة هيئة الرسل المجنحين، يعلنون فى أرجاء العالم سيطرة **رعمسيس** الثانى وهيمنته، بعد أن استحوذ على عرش **حورس**.

هكذا، فإن هذا العيد، عيد الحصاد وسلطة الإله **مين** المُخصِبة، كان أيضاً بمثابة ترنيمة مديح ملكية فى حق **الفرعون** الباسط سلطته على الأرض.

وفى الفصل قبل الأخير، يقدم الملك إلى الإله ضُمَّة من نبات العَلَس، بصفة باكورة الحصاد. ولا يختلف ترتيب القائمين على الشعائر. فمن جديد، تتقدمهم تماثيل الملوك الأجداد الأوائل، يليها الثور الأبيض، ثم الملك والملكة **نفرتارى**، وقد ثنت ساعديها على صدرها. وتشير جميع هذه العناصر، بشكل من الأشكال، إلى فكرة الخصوبة واستمرارية سلالة الأسرة الحاكمة. ويقدم أحد الكهنة ضُمَّة سنابل قمح إلى **رعمسيس** الذى يقوم بشذبها وتسويتها بواسطة منجل:

*ويُحضِر أحد كَهنة الموكب منجلاً من النحاس، مغشّى بالذهب، ومعه أيضاً ضُمَّة من نبات العَلَس، ويُسلِّمهما الملك. عندئذ، تقوم كاهنة بتلاوة التعويذات سبع مرات، بينما تطوف حول الملك الذى يقوم بقطع الضُمَّة بواسطة المنجل الذى يمسكه بيده. ثم توضع أمام أنفه، فأمام الإله **مين**، وتُسلِّم إحدى السنابل إلى الملك.*

(*) أحد أبناء **حورس** الأربعة، ويصور فى الغالب برأس صقر، ويسهر فى المعتاد على الإناء **الكانوبى** الذى يحتوى على أمعاء المتوفى. (المترجم)

إن عيد **مين** هذا، شأنه شأن عيد **أوبت**، كان ترنيمة مديح عظيمة، تقدم في آن واحد الشكر والحمد للإله، بصفته منجباً، إذ تظل فيه القوى الخلاقة حية نشطة على الدوام، على غرار قوى الأرض المنتجة للمحاصيل، كما تؤكد في الوقت نفسه على استمرارية النظام الملكي ودوامه، من خلال عملية تماثل وتطابق، من أجل مزيد من الفاعلية.

ولم يرد المشهد الأخير في **الرامسيوم**، ولكنه صُور بالإضافة إلى العيد بأكمله في معبد **رعمسيس** الثالث الجنائزي، في مدينة **هابو**.

فبعد الانتهاء من هذه الاحتفالات، يلتحق **مين** بمقصورته، وبعد إرضاء القوى المنجبة وتلبية ما تحتاج إليه، يؤدي **الفرعون** للمرة الأخيرة شعائر إطلاق البخور وإهراق ماء المسكوبات.

إن هاتين الترنيمتين المكرستين لمدائح الشكر والحمد، تعتبران نداءً بالغ الشدة موجهًا إلى قوى الحياة، وتربطان ربطًا وثيقًا بين النظام الملكي والمصائر الإلهية والأبدية للأرض.

إن عيداً آخر في **طيبة** يجدد هذا النداء، ولكن لصالح الأموات هذه المرة. إنه **عيد الوادي**، وتدور وقائعه مع ميلاد الهلال الجديد، خلال شهر **أبريل**، ويستمر أحد عشر يوماً.

وعند خروج الملك من قصره يتجه إلى **الكرنك**، في معبد **أمون**، ويدعو الإله للانتقال إلى البر الغربي من النهر، لزيارة المعالم الجنائزية لأسلافه، لإنعاشهم وإحيائهم.

وكما هو حادث دائمًا، يعبر **أمون** النهر على متن قاربه المصنوع من خشب الأرز والذهب متجهًا إلى **الغرب**، يسبقه القارب الملكي ويسير في أعقابه قاربا **موت** و**خونسو** ويصل إلى شاطئ الجبانات، ويواصل رحلته عبر القنوات حتى مشارف الصحراء ويتوقف برهة عند **الرامسيوم**.

ويوجه الإله حديثه إلى **رعمسيس** قائلاً:

يا بُنيَّ المحبوب، إن قلبي يفيض فرحًا بسبب الحب الذي تكنُّه لي. إني أتَّحد بجمالك، في الحياة وفي القوة، ويُبدي وجهي إعجابه بوجهك الجميل، في حين يتَّحد صِلاَّيَ على جبينك.

سوف أعلن من أجلك انتصاراتك على كل البلدان الأجنبية،

*أجل، إن **الجنوب** مثل **الشمال** و**الغرب** و**الشرق**، أُخضعها لسلطتك، وأجعل زعماء البلدان الأكثر بعدًا، يأتون إليك، (البلدان) التي كانت تجهل منذ زمن الإله، سادة **مصر**. إنهم محملون بمختلف أنواع الجزية الواردة من مناطقهم، إنها تثقل ظهورهم، بسبب ما تثيره في نفوسهم من خوف.*

*أجعل صيحات حربك تنتشر في كل البلدان الأجنبية، فالرعب الذي تثيره نفذ إلى قلوبهم مثل رعب إله **أومبوس**(*) [**ست**].*

*وأجعل شهرتك وانتصاراتك المجيدة تتعاظم، وتتجاوز شهرة وانتصارات أي ملك من ملوك **مصر العليا** الآخرين، وأي ملك من ملوك **مصر السفلى** الآخرين، من سادة القدرة.*

*إني أجعل اسمك يظل مزدهرًا مثله مثل **المنطقة العليا**. وما دُمت باقيًا تظل السماء باقية للزمن اللانهائي، لأنك ابني المحبوب، الذي يتربع على عرشي ويُسعد قلبي*(١٦٠).

(*) أطلق الإغريق اسم **أومبوس** على بلدتين. الأولى هي **نبي** عند المصريين و**كوم أمبو** الحالية. أما **أومبوس** التي تعنينا هنا، فهي **نوبت** عند المصريين، وتقع حاليًا شمال **نقادة**. والمسافة بين البلدتين حوالي مئتي كيلومتر. تقول متون الأهرام: «***ست** المقيم في **نوبت**، رب **مصر العليا***».

M. Damiano - Appia. L'Egyote. Dictionnaire Encyclopédique, Gründ, 1999, pp. 162, 193, 232.

(المترجم)

إنها قصيدة منظومة من أجل **رعمسيس** الثانى. وعند قراءتها نسمع أصداء الخطاب المسهب الذى وضعه **آمون** من أجل **تحوتمس** الثالث، وهو النشيد الإمبراطورى الذى سيعود إليه كل الفاتحين. وإذا كان مصدر الإلهام واضح، فإن النشيد الذى نحن بصدده مختصر، وأكثر جزالة وأصالة، ويشدِّد على اتساع الإمبراطورية وأبدية ألوهية **رعمسيس**.

وعندما يصل **آمون** إلى **الرامسيوم** سوف يرحب بزيارة آلهة الجبانة، نعنى تماثيلها، إلى جانب **أمنحوتب** الأول، الولىِّ القيِّم على شاطئ الأموات وحاميه، فقد كان أول الملوك الذين دفنوا فى البر الغربى لمدينة **طيبة**. ويوضع تمثال الملك المتوفى فوق محفة يحملها الكهنة، ويحيط به حملة المراوح فيحركون المراوح والشماسى. وسوف يترتب على اجتماع الآلهة تجديد حياة كل الذين دفنوا على مقربة من هذا المكان.

وفى المساء تحضر كبرى عائلات **طيبة**، بعد أن عبرت بدورها النهر، وتنتظم فى موكب، ليسير أفراده على ضوء المشاعل التى يحملونها، حتى يصلوا إلى مقابر ذويهم. كانوا يجلبون معهم مؤنًا طائلة، ليحتفلوا بين الأهل بزيارة **آمون إلى « الغرب الجميل»**.

وعلى البر الآخر كان فى استطاعة أبناء **الأقصر** أن يتابعوا ببصرهم هذه المسيرة بمشاعلها التى تتلألأ ومضات نورها فى ظلام الصحراء، فتجلب للموتى النار مجددة الحياة.

لما كان المصريون يتمتعون بطابع الوداعة والبشاشة، فقد أحبوا الأعياد التى تجدد حياة البلاد والبشر بمختلف الأساليب. لم تكن مناسبات عابرة لمجرد التسلية واللهو لا طائل منها، لا هدف منها سوى إسعاد النفس، بل كانت أيضًا أنشطة روحانية سامية، تنطوى أفعالها، فى الغالب، على قيمة أسطورية، والمجاهرة بعقائد إيمانية عظيمة ترتبط بالقوى التى تسيِّر العالم، ألا وهى الآلهة والملوك الذين يشكِّلون مع قوى الطبيعة شيئًا واحداً، فيضطلعون بعمل تجديدى أبدى.

كان الاحتفال بأعياد **الرعامسة** الثلاثة، تجرى وقائعه فى **طيبة**. وهكذا ترسَّخت مكانتها بصفتها عاصمة **مصر** الدينية.

إن معلوماتنا عن حياة سواد الشعب المصرى شحيحة والشواهد الأثرية نادرة، فالبيوت المبنية من الطين أو الطوب اللبن لم تقاوم صروف الدهر(*).

ولكن أطلال قرية حرفيين ما زالت باقية فى البر الغربى لمدينة **طيبة**، وتحديداً فى **دير المدينة**(**)، قرب تل **قرنة مرعى**، جنوب الجبانة.

كان **تحوتمس** الأول قد أنشأ هذه القرية لجميع العاملين فى المقابر والمعابد الجنائزية الملكية من حرفيين وعمال. كانت تضم فى هذه الفترة حوالى أربعين منزلاً محاطة بجدار أشبه بسور للحماية. كان السكان أساسًا من المصريين، وأيضًا من بعض المهاجرين **الهكسوس والنوبيين**، بصفتهم عاملين أحرارًا. إن الجبانة المجاورة تكشف عن معاناتهم من ضيق ذات اليد.

ثم تحسنت ظروف حياتهم فى عهد **التحامسة**. فنظم الجهاز الإدارى إمداد القرية بالماء. وبجوار الباب الشمالى أقيمت نقطة ماء، يشرف عليها حارس، ووضعت الأزيار على امتداد حوارى القرية. وفى عهد **أمنحوتب** الثالث كانت القرية تضم حوالى خمسين منزلاً داخل السور، وبدأت تتوسع خارجه.

وسيتولى **الرعامسة** إعادة بناء وتنظيم قرية **دير المدينة**، بعد أن هُجرت فى عهد **أمنحوتب** الرابع، عندما رحل البلاط الملكى بعيداً إلى **تل العمارنة**. وشُقَّت شوارع جديدة عبر المنازل القديمة، وشُيِّدت أحياء جديدة. وفى عهد **سيتى** الأول كانت القرية تضم سبعين منزلاً داخل سور القرية، وخمسين أخرى خارج السور، وتقف شاهداً على تطور القرية، فكان الحرفيون يسكنون منازل يحميها سور القرية، ويسكن العمال غير المهرة خارج السور. ووصلت القرية فى عهد **رعمسيس** الثانى إلى قمة

(*) راجع حول هذا الموضوع: دومينيك ڤالبيل، الناس والحياة فى مصر القديمة، ترجمة ماهر جويجاتى، دار الفكر، الطبعة الثانية، ٢٠٠١. (المترجم)

(**) كان المصريون يطلقون عليها اسم: **تاست ماعت** أى **مقر الحقيقة العدالة**. (المترجم)

ازدهارها(*). بل يبدو أن قدراً من الاهتمام بتنايم القرية وتجميلها قد وجه التخطيط الجديد الذى نفذه الرعامسة. فيمكن التعرف على خمسة شوارع مستقيمة، تصطف على امتدادها المنازل التى شيدت بالطوب وكسيت جدرانها بطبقة من الملاط قبل طلائعها بالجير. إنها صغيرة إلى حدٍ ما، وعمقها كبير مقارنة بعرضها. إن أكبر الحجرات حجرة المدخل التى تضم ما يشبه المصطبة، وتبلغ حوالى مترين طولاً و١٢٠سم عرضاً، وترتفع عن الأرض بمقدار ٩٠سم، ويصعد إليها المرء عبر ثلاث أو أربع درجات. ويدخلها الضوء من خلال شبابيك، ثُبِّتت عليها عناصر متشابكة. أما القسم المتبقى من المنزل فيتكون من حجرة أخرى أصغر، هى حجرة النوم، وربما كانت هناك حجرتان. وينتهى هذا القسم بالمطبخ وكان غير مسقوف، ويضم فرناً ومعجناً. إن بقايا الدرجات الأولى من سلالم تحملنا على الاعتقاد بأن هذه المنازل كانت تضم أقباء، بل وأسطحاً أحياناً. وكانت جميع الأبواب مدهونة بطلاء أحمر، وهو اللون الذى يطرد الأرواح الشريرة، أما الجدران فهى بيضاء، ومزخرفة أحياناً ببعض الرسومات، ولكن لحقت بها أضرار بالغة. والرسومات ذات مواضيع دينية مثل **حورس** و**إيزيس** فى مستنقعات الدلتا، أو مواضيع دنيوية فتصور راقصات عاريات ونساء ومن يتزيَّنّ. وكانت أرضية الحجرات من تربة معبَّدة، مغطاة بطبقة من الملاط وملونة باللونين الأبيض والأحمر فى المساكن الأكثر ثراءً(**).

وقرب القرية شُيِّدت مقاصير نذرية للآلهة وللملوك: **أمنحوتپ** الأول و**تحوتمس** الثالث و**سيتى** الأول و**رعمسيس** الثانى.

(*) وإلى هذا العصر تعود أروع مقابر **دير المدينة**، ورغم صغر حجمها فهى آية فى الجمال ونضارة الألوان. ونذكر منها على سبيل المثال: مقابر **سن نجم** و**إن حر خعو** و**پاشد**. (المترجم)

(**) راجع: د. محمد أنور شكرى، العمارة فى مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص ص٨٣-٨٤ و١٤٥.

ود. سيد توفيق، آثار الأقصر، النهضة العربية، ١٩٨٢، ص ص ٢٧٨-٢٩٢.

و Alberto Siliotti. Guide illustré. Vallée de Rois, des Nécropoles et des Temples de Thèbes. White Star S.r.l. 2004. pp.130-139. (المترجم)

أما الجبانة فكانت لا تبعد كثيراً. وقد أعدّت حجرات الدفن لتستقبل عدداً كبيراً من أفراد العائلة. كانت المقابر تضم أحياناً مقصورة جنائزية يعلوها هُرَيم منحوت، يصل إليها المرء عبر سلّم لُوِّنت درجاته باللون الأزرق أو الأصفر. إنهما لونا المجال السماوى، المفعمان بالخير والبركة. وفى أغلب الأحيان، كانت ألواح حجرية ذات ألوان زاهية تزدان بها الواجهات.

والحياة فى القرية حياة ميسورة نسبياً والطعام متوفر ومناسب، وأساسه الخبز ويقدم أحيانا محشواً بالحبوب أو اللحم. كان أبناء القرية يستهلكون اللحم البقرى أو البَتلُّو وأيضًا لحم الغزلان والظباء والضباع التى يتم تسمينها بعد اصطيادها. ويأكلون العصافير والطيور مشوية أو مسلوقة، أما الأسماك بمختلف أنواعها فكانت تؤكل أيضًا مشوية أو مسلوقة، وأما الخضراوات فعديدة منها البصل والثوم والفاصوليا والكراث والعدس وورق نبات اللوتس، كما كانوا يتناولون الفواكه كالبلح والتين والرمّان والمشمش وثمار العُنّاب والخروب. وبعض هذه الفواكه كان يجفف ويحفظ للشتاء. كما كانوا يشربون الجعة والنبيذ واللبن(*).

كان العمال يخضعون لسلطة رئيسين، يعاونهما مجلس من الحرفيين والعمال غير المهرة، وتحت تصرفه إدارة صغيرة من الكتبة والمراقبين. ومن المرجح أن الرئيسين كانا ينوبان عن الوزير، وأن أعضاء المجلس كانوا يُختارون بالانتخاب(؟)(**).

كما وُجدت روابط خاصة، هى أشبه بالطوائف الحرفية. كانت **النخبة** تضم رؤساء العمل والمشرفين على العمال والنحاتين والمصورين والرسامين والكتبة، ثم يليهم منفذو الأعمال المطلوبة من عمال غير مهرة وقاطعى الأحجار والحفّارين، وأخيراً نصل إلى عامة الناس وصغارهم الذين يوفرون لأبناء القرية معاشهم من طعام

(*) لقد سال لعابى على قائمة الطعام هذه وأنا أترجمها، فهل يشاركنى القارئ الشعور نفسه! (المترجم)

(**) وذلك قبل ثلاثة آلاف سنة. (المترجم)

ومشرب وغيرهما، كالسقَّائين والبقَّارين وصيَّادى السمك وصيَّادى العصافير والغسَّالين(*). كانت هذه الطوائف أو الاتحادات منضمة إلى جمعيات دينية تمتلك المقاصير التى يجتمعون فيها فى الأعياد لإقامة الطقوس الدينية وتنظيم المواكب الاحتفالية. وكان الملك الولىُّ أمنحوتب الأول سيد الجميع وشفيعهم، أما الملك المتربع على العرش، فهو حاميهم. هكذا ظهرت أول حركة نقابية خاضعة للدولة وعلى الطريقة المصرية(**).

وبالفعل كان عقداً يربط هؤلاء العاملين الأحرار بالدولة، لفترة محددة. ويبدو أن الحقوق نفسها كانت مضمونة للجميع، وحتى للعاملين الأجانب الذين تُعطى لهم أسماء مصرية. ولكنهم كانوا يندمجون مع أبناء البلد إلى هذا الحد أو ذاك. ويحدِّد العقد الأجر وكمية العمل. هكذا، فإن العامل صانع الطوب كان مطالباً بصب عدد معين من الطوب يومياً. كما أن الشهر المكون من ثلاثين يوماً، كان ينقسم إلى ثلاثة أسابيع من عشرة أيام للأسبوع الواحد، وعلى العامل أن يعمل ثمانية أيام ثم يحصل على يومين راحة(***). كما كان يمنح أجازات استثنائية بمناسبة أكبر الأعياد(****): أربعة أيام مثلاً فى أكبر المواكب الملكية الاحتفالية(١٦١). إن معلوماتنا مستمدة من نصوص **الأوستراكا** التى عثر عليها بكميات كبيرة بجوار القرية(*****).

إن مشرفاً عاماً على العمل كان يراقب بكل دقة التقيُّد بأيام العمل وعدد ساعاتها. وكان كاتب مكلفاً بتسجيل العطلات. وقد عثر على ورقة بردى مؤرخة بالعام ٤٠ من حكم **رمسيس** الثانى، دوَّن عليها أحد الكتبة غياب عدد من العمال وأسبابه:

(*) يا له من مجتمع فائق التنظيم. (المترجم)

(**) وذلك أيضاً قبل ثلاثة آلاف سنة. (المترجم)

(***) نعم، هكذا! (المترجم)

(****) عن عدد أيام الأعياد والأجازات راجع: كلير لالويت، طيبة، ترجمة وتعليق ماهر جويجاتى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، هامش ص٥٢٩. (المترجم)

(*****) فى المكان الذى يطلق عليه حالياً اسم بئر الأوستراكا الكبيرة وتقع شرق المعبد البطلمى الكائن إلى الشمال الشرقى من القرية. (المترجم)

* **پـــن لوا** : فى الـــيوم الـرابع عـشــر، من الـشــهــر الأول، من فــصل الفيضان(*). خرج ليشرب بصحبة **خونسو**.
* **حور إم ويا** : فى اليومين الحادى والعشرين والثانى والعشرين، من الشهر الثـالث، من فـصل الـفيضـان. خـرج بصـحـبة المشـرف على العمال.

  فـى اليـوم الثـامن، من الـشـهـر الثـانى، من فـصل الـبذر(**) (الشتاء). كان يعدُّ الجعة.

  فى الأيام السابع عشر والثامن عشر والحادى والعشرين، من الـشـهـر الثـالث من فـصل الجـفـاف(***) (الـصـيف). كـان مريضًا (****).
* **حوى نفـر** : فى اليومين السابع والثامن، من الشهر الثانى من فصل البذر. كان مريضًا.

  فى اليـومـين الثـالث والخامس، مـن الشـهـر الثـالث، من فـصل الصيف. كان يعانى من متاعب فى العينين.

  وفى اليومين السابع والثامن: كان مريضًا.
* **آمن إم ويا** : فى اليوم الخامس عشر، من الشهر الأول، من فصل البذر. كان يعاون فى تحنيط **حورمس**.

  فى اليوم الـسـابع، من الشـهر الثـانى، من فصل البذر. كان غائبًا.

  وفى اليوم الثامن. كان يعدُّ الجعة.

(*) **أخت**، بالمصرية القديمة. (المترجم)

(**) **پرت**، بالمصرية القديمة. (المترجم)

(***) **شمو** بالمصرية القديمة. (المترجم)

(****) أى كان فى أجازة مرضية! (المترجم)

وفى اليوم السادس عشر. عمل على تدعيم الباب.

* **سـيـيا** *: فى اليوم السابع عشر، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان. لدغه عقرب.*

فى اليوم الخامس والعشرين، من الشهر الأول، من فصل البذر. كان مريضًا.

* **خونسو** *: فى اليوم السابع، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان. وفى اليومين الخامس والعشرين والثامن والعشرين، من الشهر الثالث، من فصل البذر. كان مريضًا.*

فى اليوم الثامن، من الشهر الرابع، من فصل البذر. كان يؤدى الخدمة لإلهه.

فى اليوم الرابع عشر، من الشهر الأول، من فصل الفيضان. كان عيده.

وفى اليوم الخامس عشر. كان عيده.

* **أنـوى** *: فى اليوم الرابع والعشرين، من الشهر الأول، من فصل الشتاء. ذهب لإحضار الحجر، من أجل* ***قن حر خپشف****(*).*

وفى اليوم السابع، من الشهر الثانى، من فصل البذر. الشىء نفسه.

وفى اليوم السابع عشر. كان غائبًا(١٦٢)(**).

كانت الأجازات المرضية نادرة. ولكن الأحداث قليلة الأهمية سواء المرتبطة بالحياة اليومية أو ذات الطابع العام أو الشديدة الخصوصية، كان يترتب عليها فى بعض الأحيان أيام غياب، فتسجل بكل دقة.

(*) أى كان فى مأمورية رسمية! (المترجم)

(**) يا لكفاءة هذا الجهاز الإدارى ودقته. (المترجم)

وإذا رأى العمال أن ظروف العمل مكروهة أو غير مناسبة، كان فى استطاعتهم أن يضربوا عن العمل، فكانوا «**يرقدون**»(*)، على حدِّ التعبير المصرى.

كان عمل الحرفيين منذ عهد **حور إم حب** فى حماية الملك. وفى وسعهم أن يمتلكوا بيتًا، وفى هذه الحالة كان عليهم فقط دفع الضريبة فى هيئة بعض أعمال السخرة(**). إن سرقة أدوات عامل كانت تعتبر إثمًا شنيعًا، تستحق عقابًا تنزله الآلهة. وبالفعل فإن العامل الذى يشكل الحجر أو يلوِّن أو يصور، يُبدع أشكالاً ينظر إليها الفكر المصرى باعتبارها مستودعًا مفترضًا للحياة الكامنة فيه(***)، عرضة لأن تدبَّ فيه الحياة. وتأسيسًا على ذلك كان العامل أو الحرفى خالقًا، وبالتالى شخصية ذات شأن، يستحق كل التقدير. كان عمَّال **دير المدينة** يلعبون دورًا ضروريًا ومفيدًا على أكبر قدر من الأهمية، فقد كان عملهم يَنصبُّ تحديدًا على بناء المعابد الجنائزية وحفر المقابر وتشكيل التماثيل، فيعملون إذن من أجل الحياة الأبدية **للفرعون**، الذى كان، من جانب آخر، يقرُّ لهم بالجميل، ولجميع من شاركوا فى العمل فى إقامة هذه المعالم، الأمر الذى يشهد عليه نص يعود إلى العام الثامن من عهد **رمسيس** الثانى، منحوت على لوح حجرى عُثر عليه فى **منشية الصدر**، وسبقت الإشارة إليه(١٦٣):

أيها العاملون المختارون والبواسل، إنى أعرف أيديكم التى شكلت من أجلى الكثير من معالمى. أنتم يا من تعشقون صياغة الأحجار الكريمة من كل نوع، وتَنْفذون إلى داخل الجرانيت وترتبطون بالكوارتزيت، أنتم (يا أيها الرجال) الشجعان الأقوياء عندما تشيِّدون المعالم، فبفضلكم سوف أتمكن من تزيين كل المعابد التى أقمتها، طوال

(*) يا لعظمة هذا **الرقاد**! قبل ثلاثة آلاف سنة. (المترجم)

(**) حول أعمال السخرة يمكن الرجوع إلى تعليقات المترجم فى: كلير لالويت، طيبة، ترجمة وتعليق، ماهر جويجاتى، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، هوامش ص ص٨٥-٨٦ و٥٣٩ و٥٤١ و٥٤٢. (المترجم)

(***) كان يطلق على النحات، **سى عنخ** فى اللغة المصرية القديمة أى «**هذا الذى يعيد إلى الحياة**». المرجع السابق، ص٤١٥. (المترجم)

مدة زمنها. أنتم، يا أيها المحاربون الأشاوس الذين لا يعرفون الكلل، ويسهرون على الأشغال طوال فترة استمرار العمل، وتنجزونها بحزم وفاعلية. أنتم يا من يُقال لهم: «اعملوا وفقًا للخطط». أنتم يا من تذهبون لإحضار الأحجار من **التلّ المقدس**، لقد أصغيت إلى أحاديث بعضكم للبعض الآخر. لن أدّخر وسعًا لأغدق مِنني عليكم وتكون أفعالى مطابقة لأقوالى.

أنا **رعمسيس - محبوب - أمون**، أنا الذى يساعد الأجيال الشابة لتنمو وتترعرع فأتيح لهم أن يحيوا، وسوف تغمركم الأطعمة ولن ترغبوا أيضًا فى زيادة مآكلكم من حولكم. سوف أوفر لكم كل ما تحتاجون إليه بشتى الوسائل. هكذا ستعملون من أجلى بقلب محبٍ، فأنا حامى مهنتكم القوى والمدافع عنها. وبين أيديكم ستكون الأطعمة أثقل من الأعمال التى تقومون بها، هكذا تتمكنون من العيش والنمو. إنى أعلم مدى قسوة صنعتكم وفائدتها، وأعزف أن العمل أمر مفرح عندما تكون البطون ملآنة.

من أجلكم سوف تتكدس الشُوَن بالقمح، حتى لا تقضوا يومًا واحدًا محرومين من الطعام المُحْيِي. سيحصل كل واحد منكم مؤنًا تكفيه لمدة شهر. كما مَلأتُ المخازن بكل الأصناف من خبز ولحوم وفطائر لحمايتكم (من التضور جوعًا، وملأتها) بالنعال والملابس، وبالكثير من الأدهان حتى يمكنكم مسح رءوسكم مرة كل عشرة أيام، وارتداء (ملابس جديدة) مرة كل سنة، وتكون أقدامكم راسخة ثابتة كل يوم. إن أيًا منكم لن يبيت حزينًا مهمومًا، بسبب القحط.

كما عَيَّنت عددًا كبيرًا من الإداريين لتلبية احتياجاتكم. سوف يوفر لكم الصيادون الأسماك وآخرون كالفلاحين، سيزرعون الخضراوات. والفخاريون سوف يشكلون على دولابهم أعدادًا كبيرة من الأزيار، هكذا سوف تصبح المياه من أجلكم رطبة فى فصل الصيف.

ومن أجلكم أيضًا، لا تتوقف **مصر العليا** عن الإبحار فى اتجاه **الدلتا**، و**الدلتا** فى اتجاه **مصر العليا**، (بحمولات) من الشعير والعَلَس والحنطة والملح والفول بكميات كبيرة.

لقد فعلت كل ذلك، حتى يُقال إنكم تزدهرون، بينما تعملون من أجلي، بقلب واحد[١٦٤].

هذا الكرم الحاتمي من جانب الملك، الذي خصَّ به تحديداً حرفيِّي منطقة **هليوبوليس**، كان يوزع بأسلوب مماثل في **دير المدينة**، موقع العمل العظيم، لملوك **الرعامسة**.

كانت لروابط طوائف عمال القرية محاكمها الخاصة. فتُعرض المنازعات على ما يشبه مجلس من المحكِّمين، يتكون من حرفيين، يرأسه أحد المشرفين على العمال، ويُصدر المجلس أحكامه باسم الملك[١٦٥]، ولكن كانت اختصاصاته تنحصر في الشئون العادية. أما العقوبة التي يتم توقيعها فكانت في المعتاد الضرب بالعصا، أما القضايا الخطيرة، لا سيما الجنائية، فكانت من اختصاص محكمة يرأسها الوزير.

وبالنسبة للمصريين المولعين بالمرافعات والشكايات، فتتيح لهم كثرة القضايا أمام المحاكم إشباع هوايتهم هذه. إن أعداداً كبيرة من البرديات قد نقلت إلينا الدعاوى التي تدور حول خلافات محلية تافهة، بل ونعرف دعوى قضائية رُفعت بشأن انتقال أحد المناصب، واستمرت، في نفس العائلة، بدءاً من عهد **أحمس** واستمرت حتى عهد **رعمسيس** الثاني، أي أن نظر القضية دام ثلاثة قرون.

كما تروي لنا المقابر وسطوح **الأوستراكا**، حياة القرية ذاتها وحياة سكانها.

ففي مقبرة **إيبوي**(*)، النحات في عهد **رعمسيس** الثاني، ما زال في وسعنا متابعة سير أعمال الحقل وقطف العنب والصيد النهري ونشاط الأسواق والتجار المنهمكين في أشغالهم والعودة من رحلة صيد في الصحراء، بل ومشاهد أعمال الغسيل والصباغة.

(*) وهي مقبرة رقم ٢١٧ من مقابر **دير المدينة**. (المترجم)

وقد يحقق الحرفيون أحياناً نجاحاً فى حياتهم المهنية، ليصعدوا درجات الترقى الوظيفى. ونعرف رساماً أصبح كاتباً وأنهى حياته فى منصب حامل المروحة على يمين الملك[١٦٦]. وهو منصب مرموق، إذ كان هذا اللقب من ألقاب الأمراء الملكيين.

كما أن حياة **رع مس**(*) تميط اللثام عن الكثير. فقد عُيِّن كاتباً فى **دير المدينة**، فى العام ٥ من عهد **رمسيس** الثانى، قبل معركة **قادش** ببضعة شهور. كان ابن موفد ملكى، ومن العاملين بخزينة معبد **تحوتمس** الرابع الجنائزى فى بداية الأمر. كان فطناً، ثاقب البصيرة. فآثره الوزير **پاسر** وأكرمه وأرسله إلى **دير المدينة**، وسرعان ما حقق هناك ثروة كبيرة، إذا أخذنا بعين الاعتبار عدد الآثار الكبيرة نسبياً التى خلَّفها وراءه، ومنها الكثير من الألواح الحجرية إلى جانب **ثلاث** مقابر(**). كما كان يتمتع بمواهب أدبية. وكتب، على وجه التحديد، مرجعاً موجزاً فى تفسير الأحلام وكتاباً فى الافتتان السحرى.

وللتعرف على أخبار قرية مصرية، فما علينا إلا التوجه إلى **دير المدينة**. فإلى جانب الأحداث ذات الطابع الرسمى سنجد وقائع بسيطة تشكل نسيج الحياة اليومية لسواد الشعب(***)، وإن ظلت تحرك مشاعرنا بعد مُضى آلاف السنين[١٦٧].

(*) وهو بالطبع خلاف **رع مس** وزير **أمنحوتپ** الثالث، ومقبرته رقم ٥٥ فى **الشيخ عبد القرنة**. راجع: كلير لالويت، طيبة، ترجمة وتعليق ماهر جويجاتى، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ص٥١١. (المترجم)

(**) وهى المقابر أرقام ٧ و٢١٢ و٢٥٠، فى **دير المدينة**. (المترجم)

(***) إذا أراد القارئ أن يعرف المزيد عن الحياة اليومية فى **مصر القديمة** يمكنه الرجوع إلى: دومنيك ڤالبيل، الناس والحياة فى مصر القديمة، ترجمة ماهر جويجاتى، دار الفكر، طبعة ثانية، ٢٠٠١. (المترجم)

ثالثا: القوى الداخلية وأول التهديدات

قرب نهاية عهد **رعمسيس** الثانى كانت بعض عناصر المجتمع المصرى من كهنة وعسكريين وعمال أجانب قادرة على تهديد السلطة الملكية، أو إضعافها على أقل تقدير. كما أن كبر سن العاهل الملكى الذى كان يناهز التسعين من عمره، قد جعله لا يقوى على التصدى للتهديدات المتنامية.

كان **رومع - روى**، كبير كهنة **آمون** فى **طيبة**، قد خلف **باك إن خونسو** وظل فى هذا المنصب بصفته الحبر الأعظم حتى نهاية الأسرة التاسعة عشرة تقريباً. وقد شغل جميع أفراد عائلته أكبر مناصب الكهنة، كان **باك إن خونسو** ابنه البكر، «*الخادم*(*) *الثانى*» للإله **آمون**، وابنه الثانى الكاهن **سم** فى **الرامسيوم**، وأكبر أحفاده «*الخادم الرابع للإله*» أما ثانى أحفاده فكان «الكاهن صاحب اليدين الطاهرتين»، فى معبد **آمون**. ومن ثم، كان أفراد هذه العائلة ذاتها، يشغلون جميعهم مناصب رسمية مرموقة. ولا يبدو أن **رعمسيس** قد تصدى لهذه المحسوبية الخطيرة التى مارسها **رومع - روى**.

وفضلاً عن ذلك، فقد استطاع هذا الأخير أن يحصل من الملك الطاعن فى السنِّ، على لقب «*رئيس خُدَّام الآلهة الجمعاء*». فكان وضعاً يمنح كهنة **آمون** سيادة وهيمنة تثيران القلق.

هكذا، ومع ظهور عائلات كهنوتية قوية سواء من حيث تكوينها أو بما اكتسبوه من تفوق على العبادات الأخرى، من الناحية النظرية على الأقل، أخذت مكانة كهنة **آمون** فى التعاظم تعاظماً له شأنه داخل **الدولة**.

وفى الوقت نفسه، كانت أراضى المعابد وأملاكها تتحول إلى حيازات إقطاعية حقيقية تنافس سلطات **الفرعون** الدنيوية. لقد تزايد ثراؤها بفضل سخاء الهبات الملكية والغنائم التى جاءت بها الحملات العسكرية المظفَّرة، حتى أخذت تتحولً، أكثر فأكثر،

(*) أى الكاهن. (المترجم)

إلى كيانات إدارية واقتصادية، تميل إلى الانسلاخ بعيداً عن وصاية الملك. إن مرحلة جديدة تم تخطِّيها عندما منح **رمسيس** الحيازات الدينية امتياز الإعفاء من الضرائب.

كما كان لكهنة **أمون** جماعات مسلحة خاضعة لهم. وكان لهم سلطاتهم القضائية الخاصة ومحاكم دينية تُصدر أحكامها استناداً إلى قوة الوحى الإلهى.

هكذا ظهرت إلى الوجود قوة **طيبية**(*) فى الأساس، على هامش السلطة الملكية، أصبحت على وشك التحول إلى تهديد لها. وسوف يصبح هذا الخطر واقعًا حيا قرب نهاية الأسرة العشرين، عندما قام **حرى حور** كبير كهنة **أمون** بإقامة نظام ملكى **ثيوقراطى**(**) فى **مصر العليا**، ليؤسس الأسرة الحادية والعشرين. وكان فى الإمكان الكشف عن هذا الخطر منذ أواخر عهد **رمسيس** الثانى.

كما أن شريحة اجتماعية أخرى مكونة من رجال الجيش، بدأت أيضًا تشكل تهديداً على السلطة المركزية. فإذ أراد **رمسيس** مكافأة ضباط جيشه البواسل، منحهم أراضى لا يجوز التصرف فيها، وسرعان ما أخذ مالكوها يعتبرون أنفسهم من المحظوظين أصحاب الامتياز. لقد أُغدقت عليهم المنح والمكافآت فى هيئة ذهب إلى جانب الألقاب الفخرية، وكان تحت تصرفهم جماعات كبيرة من الخدم، تتكون من الأسرى الذين جاءوا بهم من الحروب التى خاضوها وقدَّمهم الملك لهم. فصاروا يمتلكون بكل وضوح ثروات دنيوية طائلة(***).

(*) نسبة إلى مدينة **طيبة**. (المترجم)

(**) كلمة théocratie مكونة من كلمتين يونانيتين: theos وتعنى الله وKratos وتعنى القوة والسلطة. ومن ثم فإن **الثيوقراطية** هى نظام فى الحكم يفترض أن السلطة تنبع مباشرة من الله، وتمارسها عمليًا طبقة من رجال الدين وعلمائه. Dict. Robert. هكذا يمكن القول، مع شىء من التجاوز، إن **مصر** قد أحرزت قصب السبق فى تأسيس أول حزب دينى فى التاريخ. (المترجم)

(***) حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى الكتاب القيم: د.أحمد قدرى، المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الإمبراطورية، ١٥٧٠ق.م - ١٠٨٧ق.م، ترجمة مختار السويفى ومحمد العزب موسى، مراجعة الدكتور محمد جمال الدين مختار، هيئة الآثار المصرية، ١٩٨٥. (المترجم)

هكذا نشاهد على ما يبدو، وإن في حدود ضيقة، ولكنها جديرة باكتساب أبعاد غير محمودة العواقب، نشاهد تجزئة الحيازات الملكية لتوزيعها على الكهنة والعسكريين. ومن جهة أخرى، وكما لاحظنا من قبل، أخذت عائلات قوية تجمع بين مختلف مناصب الدولة الكبرى، التي كانت ترمي إلى أن تصبح وراثية. هكذا كانت الأوضاع تتجه إلى اقتطاع المزيد من سلطة **الفرعون** المطلقة.

لقد نشأت صعوبة أخرى من أعداد العاملين الأجانب الكبيرة التي استقرت في **مصر**. ولكن كان رد فعل **رعمسيس** على هذا الصعيد أكثر صرامة.

لقد جاء هؤلاء العاملون من أصول مزدوجة، فمن جهة، كانوا رجالاً أحراراً أتوا يبحثون عن عمل في **مصر** التي كانت الحياة فيها ميسورة. كانوا يعتبرون أيدي عاملة مفيدة، في ذلك الزمن، عندما كان ازدهار الإمبراطورية يتيح **لفرعون** القيام بمشاريع إنشائية ضخمة، بدءاً من قلب **السودان** وحتى شواطئ **البحر الأبيض**. كان العاملون الأجانب يوفرون للأيدي العاملة المحلية مساهمة لا يستهان بها.

ومع ذلك فإن رقابة صارمة عند الحدود كانت تأخذ ذلك بعين الاعتبار. كان ضباط يسجلون لكل مهاجر من هؤلاء المهاجرين، يوم عبوره وموطنه الأصلي، وحالته الاجتماعية، واسم والده، وكانت أوضاعهم مماثلة لأوضاع العمال المصريين.

وإلى جانب هؤلاء العمال الأحرار، وُجد أسرى الحرب الذين كانوا يشكلون أيدي عاملة خاضعة للسخرة.

كان الأجانب يعيشون في أغلب الأحوال في طوائف، تتجمع على أساس الجنسية الواحدة. هكذا، فحول معبد **الكرنك** أقيمت مستوطنات من السوريين منذ عهد **تحوتمس** الثالث. وجاء تجار من الأصل نفسه ليعيشوا بين ظهرانيهم. وعلى مقربة من معبد **أمنحوتب** الثالث، في **الأقصر**، أقيم حيٌّ سوري، يرأسه ابن أمير جيء به من **سوريا**. وفي محاجر **طرة**، على البر الشرقي من **النيل**، قبالة **منف**، كان بعض

الهكسوس لا يزالوا يعملون. وقد استخدم بعض **الفينيقيين** لتشييد معبد **بتاح** الكبير فى **منف.** كما كانوا يعملون فى الترسانة البحرية فى المدينة العظيمة...

وفى بعض الأحوال، كانت بعض القبائل الأجنبية تُطرد من **مصر**، فى أعقاب بعض أعمال العصيان أو المطالب غير المبررة...

❖

هكذا عاشت **مصر** فى سلام وازدهار لمدة تقارب خمسمائة سنة.

إن **سيتى** الأول و**رعمسيس** الكبير، قد أسَّسا مع غيرهم من عظماء الفاتحين إمبراطورية شاسعة، يحميها تحالف يضم الآلهة المصرية والآسيوية والإفريقية. وإذا كانت بعض العناصر الداخلية فى **مصر** عُرضة لتصبح خطيرة، فإن الوضع الخارجى، فى المقام الأول، هو الذى كان يُشكِّل تهديداً خطيراً على السلام، عندما تربَّع **مر إن بتاح** على العرش، ليخلف أباه.

الفصل الرابع

أمجاد الإمبراطورية وانحطاطها أو الدفاع عنها

أولاً: انتصارات مر إن پتاح

كان **مر إن پتاح** مشاركًا فى الحكم(١) خلال السنوات الأخيرة من عهد **رعمسيس** الثانى الهرم، بل ربما أدار بالفعل دفة الحكم. كان الابن الثالث عشر من أبناء العاهل الملكى، وتُوِّج ملكًا نحو عام ١٢٢٩ق.م. وعلى امتداد عشر سنوات سيظل ساهرًا على مصائر الإمبراطورية، لا يغمض له جفن.

حورس *: الثور القوى الذى يفرح مع* ***ماعت****.*

السيلتان *: إنه صاحب القدرة العظيمة والانتصارات المهيبة.*

حورس الذهبى *: سيد الرهبة، صاحب الهيبة الجليلة.*

ملك مصر العليا ومصر السفلى: با إن رع - مرى أمون *(كبش رع، محبوب* ***أمون****).*

ابن رع *:* ***مر إن پتاح*** *(محبوب* ***پتاح****)، الذى يجد فى* ***ماعت*** *ما يرضيه.*

بعد سنوات حكم أبيه المديدة، يبدو أن البلاط والشعب كانا يعرفان **مر إن پتاح** حق المعرفة، ولذلك فقد لقىَ من جانبهم كل الترحيب. إن نشيداً، على الطريقة المصرية، يمتدح صفاته:

*أيا **با إن رع – محبوب – أمون**، الأول على كل السفن[٢](*)، العصا القديرة، والحسام الذى يُثخن فى الشعوب الأجنبية تقتيلاً، أيها الرُمح! لقد هبط من السماء ووُلد فى **هليوبوليس**، بينما كانت تنظَّم من أجله، انتصارات على كل البلدان. كم هو سعيد اليوم على مدار سنواتك، كم هو عذب صوتك، وكم هى رقيقة كلماتك، بينما تُشيِّد **بر – رعمسيس – محبوب – أمون**، المدينة التى تتقدم البلدان الأجنبية، وترسم حدود مصر[٣](*)، إنها المدينة ذات الشرفات الجميلة، والمنازل المتألقة باللازورد والفيروز. ففيها يُعسكر سلاح المركبات، ويتجمع سلاح المشاة ويرسو الأسطول. إنها تجلب إليك الجزية (قائلة): «لك الحمد». كما حضرتَ مع كتائبك من حَمَلَة الأقواس، أصحاب الوجوه الأبية والأنامل الملتهبة، التى تتقدم... عندما يشاهدون الملك، واقفًا متأهبًا للقتال، فحتى الجبال لا تستطيع أن تقف أمامه ثابتة راسخة، لأنها تخشى من الهيبة التى تحيط به. يا **با إن رع – محبوب – أمون**، ستظل باقيًا ما بقى الزمن الأبدى، وسوف يظل الزمن الأبدى موجودًا ما دمت أنت موجودًا. لأنك تجلس على عرش أبيك **رع – حور أختى**، جلوسًا راسخًا[٤].*

أخطار جديدة تهدد التوازن الدولى

وبعد قليل، سوف يضطر الجيش إلى مغادرة معسكراته فى **بر – رعمسيس**، فمنذ نهاية عهد **رعمسيس** الثانى أخذت تهديدات جديدة تقوض التوازن الدولى الذى كان قائمًا بفضل المعاهدة المصرية الحيثية. والآن، كانت تأتى هذه التهديدات، فى آن واحد، من البر والبحر.

فمن ناحية، كانت مملكة **آشور**، بعد أن استقرت عند نهر **الفرات** وسيطرت على **بلاد الرافدين**، صار يقودها ملوك طموحون وأقوياء، اتخذوا من مدينة **نينوى** عاصمة لهم. وباتت هذه المملكة تشكل خطرًا داهمًا ودائمًا على بلاد الحيثيين ومناطق شمال **سوريا**، حيث سعت إلى بسط نفوذها.

(*) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

ومن ناحية أخرى، كان **الأخائيون**، المنتصرون فى **طروادة** قد بسطوا آنذاك نفوذهم بلا مُنازع، على بحر **إيجه** بالكامل وعلى مضايق **الدردانيل**. كانت الحضارة الآخائية بالغة الازدهار. ولكن **الدوريين** القادمين من شمال **البلقان** بدأوا يزحفون على **اليونان**، واجتاحوا البلاد عبر موجات متلاحقة، وفى طريقهم كانوا يأتون على الأخضر واليابس. فأُحرقت كل المدن الآخائية الكبيرة. إن شبه جزيرة **أتيكا**(*) فقط، لم يتعرَّض لها أحد. ومن شبه جزيرة **البيلوبونيز**(**) Péloponèse، انتقل **الدوريون** إلى جزيرة **كريت**، وأجهزوا على ما تبقى من حضارتها واحتلُّوا جزيرة **رودس**. وفى **آسيا الصغرى** وصل الغزاة إلى المستوطنات الآخائية الساحلية، ولكن تصدت لهم جيوش الحيثيين، وأوقفت زحفهم، ومنعتهم من الوصول إلى جزيرة **قبرص**.

ومن ناحية أخرى، يبدو أن غزو الدوريين **لليونان** سبقه غزو لقسم من **آسيا الصغرى**، فقد سعت على ما يبدو شعوب **هندوأوروبية** جديدة إلى الاستقرار فيها. وحاولت مملكة **خاتى** أن تتصدَّى ببسالة للغزاة على جميع الجبهات وأن تطردهم. ولكن الغلبة كانت إلى جانب هذا الاجتياح العاصف.

إن حركة الشعوب هذه، القادمة من **اليونان** أو من **آسيا الصغرى**، ترتبت عليها نتيجتان خطيرتان، كان لهما تأثير على استمرار حالة السلم فى **الشرق** وعلى مستقبل الإمبراطورية المصرية ومصيرها.

فمن ناحية، وبعد أن رفض **الأخائيون** الإذعان للغزاة، أبحروا على متن سفنهم، ومعهم نساؤهم وأولادهم. لجأ بعضهم إلى شبه جزيرة **أتيكا** وإلى جزيرة **وبيه**(***). أما القسم الأكبر منهم، فقد ركب البحر ليتجه بعضهم إلى **ليبيا**، والبعض الآخر إلى **فينيقيا وأرض كنعان**.

(*) وتضم العاصمة **أثينا**. (المترجم)

(**) جنوب **اليونان**. (المترجم)

(***) جزيرة **وبيه**. كبرى جزر بحر **إيجه**، وتقع إلى الشمال من شبه جزيرة **أتيكا**. (المترجم)

ومن ناحية أخرى، فإن الشعوب القاطنة فى المناطق الساحلية، من **آسيا الصغرى**، بعد أن طردت من **موسيا** و**ليديا** و**كاريا** و**لوكيا**، سافرت بحراً إلى **ليبيا**. فى حين رحل بعضهم براً، هابطين بمحاذاة ساحل **البحر المتوسط**، فكانت عملية خروج على نطاق واسع.

هذه الشعوب التى أخذت فى بحثها عن موئل جديد تجوب البحار والأراضى فى جميع الاتجاهات، تطلق عليها النصوص المصرية اسم **شعوب الشمال والبحر**.

وفي هذا الإطار الدولى المتوتر وهذه الأجواء المريعة، تربع **مر إن پتاح** على عرش **مصر**، ليخلف أباه **رعمسيس** الثانى.

مقدمات العام الرابع

كان عمر **مر إن پتاح** آنذاك يناهز الستين. ولكنه كان رجلاً نشطًا حازمًا، وعلى دراية تامة بأحوال الإمبراطورية وشئونها، ويبدو أنه كان مصمماً على دفع الخطر الذي سيشكل تهديداً مباشراً على **مصر**، البلد الأكثر ثراءً فى هذا الزمن والأكثر جاذبية للطامعين، فإليه قد تتجه أنظار هذه الشعوب بأصولها المختلفة، والتى أخذت تتجمع شيئًا فشيئًا، فى **ليبيا** وبلاد **كنعان**.

وأرسل سفنًا محملةً بالقمح إلى **تودخليا** الرابع، ملك **خاتى** الذى انهزم أمام الغزاة، على جميع الجبهات، وكان يحاول أن يقاوم مقاومة بطولية. إن إرسال هذه الشحنة لخير دليل على أن **مصر** كانت لا تزال تحتفظ بسيطرتها على **البحر المتوسط**.

ومن المحتمل أيضًا أن بعض الأسلحة قد أرسلت إلى الأمراء السوريين لمساعدتهم على الدفاع عن أنفسهم وعن الإمبراطورية. ولا تستند هذه الفرضية سوى على قرائن ضئيلة، فقد عُثر تحديداً فى **أوجاريت** على سيف يحمل خرطوش **مر إن پتاح**(٥).

إن هذه الوقائع، ونحن لا نعرف سواها فى الوقت الراهن، تبرهن على أن **الفرعون** الجديد قد اتَّخذ موقفًا بالغ النشاط فى مواجهة هذه الاضطرابات القادمة من الشمال، وأنه كان واعيًا كل الوعى بخطورتها.

كما كان مدركًا أن الصدام المسلح آت، لا مفرَّ منه، فعمل فى بادئ الأمر، على تعزيز دفاعاته عند حدوده مع كل من **ليبيا** و**آسيا**، حيث حدثت على ما يعتقد أولى عمليات تسلل أجنبى. وربما استغلت **كوش** هذه الأوضاع لتعلن تمردها. وهو ما يشير إليه، على ما يعتقد، النص المنحوت على لوح حجرى جاد به معبد **عمدا**:

*جاء من يقول **لصاحب الجلالة**، إن العدو عند الحدود [**الليبية**] قد عبرها، ناحية الجنوب. حدث ذلك، فى اليوم الأول، من الشهر الثانى، من فصل الجفاف، من العام الرابع. عندئذ أجهز الجيش الباسل **لصاحب الجلالة** على **الليبى** الخسيس، بحيث لم يبق أحد من شعب هذا البلد... بمئات الآلاف. أما الباقون فقد عُرضوا فى أعلى الأشجار، جنوب **منف**. وكل المقتنيات التى تم الاستيلاء عليها، نقلت إلى **مصر**، فقد هُزم مجموع زعماء هذه المناطق، بفضل المجد المتشامخ **لصاحب الجلالة**، لتظل صيحات حربه فى القلوب.*

*لقد حوَّلوا **الريتنو** إلى بلد يتقدم فيه الأسد وتتعثر أقدامه. لأن شعلة فمه كانت موجهة ضد الحدود لتهزم (الأعداء) دفعة واحدة. وأصبحت هذه البلاد بلا خلف أو ولد. وجيء **بالمچاى**[٦] إلى **مصر**، وأضرمت فيهم النار فى حضرة من تبقى منهم. وقُطِّعت أيديهم، لأنهم كانوا قد تمردوا، وقُطعت آذان الآخرين وسُملت أعينهم(*). وهكذا نُقلوا إلى بلاد **كوش**، وأصبحوا فى مدنهم أكوامًا، حتى لا تتمرد **كوش** بعد ذلك، الزمن الأبدى، بعد أن صار هذا البلد بائسًا.*

(*) هذه القسوة غير المعهودة، ستقدم المؤلفة تفسيرًا لها فى الأسطر اللاحقة. (المترجم)

*هكذا، فإن **با إن رع – أمون**... اندفع كالأسد فى اتجاه حدوده الغربية، ثم انتصب ليحارب حتى أطراف الأرض، بحثًا عن جميع أعداء هذا البلد، حتى لا يتكرر أبدًا مثل هذا التمرد.*

*يا **مر إن بتاح**، يا صورة **رع** الحية، إن ما تثيره من رعب قد نفذ إلى جنوب البلاد، بينما ترتعد **الأقواس التسعة** وبلاد **الريتو** المجتمعة، وحتى أطراف الظلام. إن **با إن رع – محبوب – أمون**، قد ساقهم، بفضل أنفاس فمه، لقد ساقهم (جميعًا) دفعة واحدة.*

*إنه يحمى **مصر**، ويؤمِّن **البلد** المحبوب. إنه يُهمل **النوبيين**، ويجعل بلاد **الخاتى**، تأتى إليه على أقدامها، مثلها مثل الكلاب. ومن كانوا يجهلون **مصر** فى السابق يأتون من تلقاء ذاتهم، بسبب قوة الخوف الذى يثيره فى النفوس، وبسبب قدرته. لقد ربط البلاد ومنح السلام للأراضى المصرية. إنه يُسعد **مصر**، لأنه يعرف كل مفيد لها* (٧).

وفى العام الرابع من عهده، شُنَّت إذن حملتان عسكريتان على الأقل، وربما ثلاث. كان الهدف منها صدَّ الغزاة عند الحدود **الليبية** وربما **الأسيوية**. إن ذكر **الخاتى** فى عداد الأعداء لايخص شعوب **الحيثيين**(*) ذاتهم، بل الغزاة القادمين من هذه المنطقة أو بالأحرى بعض **الحيثيين** المعزولين الفارين من بلدهم والباحثين أيضًا عن أرض تأويهم.

أما عن القسوة غير المعهودة، المستخدمة عند قمع التمرد فى بلاد **كوش**، فإنها صادرة عن رغبة **مر إن بتاح** فى السيطرة سيطرة تامة على **الجنوب**، بعيدًا عن أى قيود، ليركز كل قواه فى مواجهة الخطر الرئيسى.

(*) **الحيثيون** هم سكان بلاد **خاتى**، فى **الأناضول**. لأن الحاء تنطق خاء.

M. Damiano-Appia. l'Egypte. Dict. Enc. Gründ, 1999, p.124. (المترجم)

في العام الخامس من عهد **مر إن پتاح**، وتحديداً في الشهر الثاني(*)، من فصل الجفاف، تم غزو **مصر** من جهة **الغرب**.

وحول هذا الحدث، نُحتت في **الكرنك** مدونة مسهبة من ثمانين سطراً. وللأسف، يعاني هذا النص من الفجوات، ولاسيما في مطلعه:

*الزعيم الخسيس، المهزوم في **ليبيا**، **مريي**، ابن **ديد**، سليل بلاد **التحنو** مع حاملي أقواسه... **الشراننة** [**شاردن**] **والشكلش** [**شاكاروشا**] **والآخائيين** [**اكاواشا**] **واللوكيين** [**روكو**] **والإتروسك** [**توروشا**][٨](**)، هكذا، فقد جاء ومعه صفوة محاربي بلده ومقاتليه. كما اصطحب معه زوجته وأولاده... ووصل إلى الطرف الغربي (من **مصر**) في حقول **پر إير**[٩].*

كان جيش الغزاة قد اقترب في واقع الأمر، من منطقة **منف**. والشعوب المذكورة هنا تعود أصلاً إلى بلاد **اليونان** ومنطقة **أسيا الصغرى** الساحلية، وللأسف فإن فجوة في النص تحرمنا من اسمين، ربما كانا اسمى **الفلستينيين** [**پاليستيو**] **والليبيين** [**ليبو**] الذين أعطوا اسمهم **لليبيا**، فيما بعد. في هذه الفترة كانت أعداد كبيرة من المهاجرين قد اتخذوا إذن من السهوب الليبية مقامًا لهم. كانت هذه الأراضي قليلة الخصب، فلا توفر لهم ما يكفي من أسباب العيش، مما يفسِّر سعيهم إلى التوغل في أرض **مصر**، التي أغدقت عليها الآلهة بنعمها وخيراتها. ويُعتقد أنهم كانوا قد اكتسبوا قدراً من التنظيم. وعلى كل حال، فقد اختاروا لهم زعيماً هو **مريي**، ليقودهم للانقضاض على الأرض التي ساد بينهم الاعتقاد بأنهم وُعدوا بها(***).

(*) في شهر **مايو**. (المؤلفة)

(**) راجع الهامش في آخر الكتاب. (المترجم)

(***) فكانت في نظرهم أرض الميعاد! (المترجم)

يبدو إذن أن رد فعل **مر إن بتاح** لم يكن فوريًا. وبالفعل، فإن نصي أسطون عثر عليه في خرائب معبد هذا الملك، في **هليوبوليس**(١٠)، يشير إذن، إلى وصول الغزاة في الشهر الثاني من الصيف، في حين إن المعركة ذاتها لم تقع إلا في الشهر الثالث، استنادًا إلى مدونة **الكرنك**. فكان أمام **مرنبي** متسع من الوقت، خلال هذا الشهر، ليتقدم إلى الأمام في **الدلتا**، وقد عاني أبناء هذه المنطقة آنذاك، بإحساس مؤلم وخوف شديد، بعد فترة السلام التي دامت طويلاً في عهد **رمسيس** الثاني. كما بدأوا، على ما يعتقد، يستقرون في الأرض التي احتلوها، وهو ما تشير إليه بقية نص **الكرنك**:

*وبسببهم، ثارت ثائرة **صاحب الجلالة** وصار كالأسد.*

*استمعوا إلى كلمات سيدكم الملكي وتعرَّفوا على ذلك(*). أنا زعيمكم الذي يرشدكم كما يرشد الراعي قطيعه. إني أقضي سحابة يومي في البحث [عمًّا يفيدكم] كالأب الذي يسهر على إعالة أولاده. إنكم ترتعدون كالعصافير، لأنكم لا تعرفون الآن الخير الذي في وسع هذا الأخير [الوالد] أن يفعله... لقد سبق بالفعل أن اجتاحت **الأقواس التسعة** الحدود، وعلى مرِّ الأيام يعبرها المتمردون... لقد دخلوا، المرة تلو المرة، إلى حقول **مصر** ووصلوا حتى **النهر العظيم**. إنهم هناك، يمضون الأيام والشهور، وقد استقروا... لقد وصلوا أيضًا إلى تلال **الواحة**، واُخترقت مقاطعة **الفرافرة**(**). لقد حدث الشيء نفسه في عهد ملوك آخرين، وفي أزمنة عويصة أخرى... ويقضون يومهم في التجول في البلد، ويحاربون يوميًا ليملأوا بطونهم. إنهم يتجهون إلى أرض **مصر** بحثًا عمًّا هو ضروري لفمهم... إن زعيمهم يتخذ هيئة كلب، إنه رجل حقير، معدوم القلب(١١).*

(*) من المعتقد أن الملك كان يوجه حديثه إلى رجال حاشيته الذين تجمعوا على جناح السرعة، وقد أصابهم الذعر عند الإعلان عن الغزو الجديد. (المؤلفة)

(**) إلى الجنوب الغربي من **الفيوم**. (المؤلفة)

وفى الشهر الثالث من فصل الصيف، غادر الجيش المصرى معسكراته قويا وعلى أعلى قدر من التدريب، رغم خمسين سنة من السلام:

كان قائد حَملة الأقواس على رأس الجيش الزاحف للقضاء على ***ليبيا***. *وبينما كانوا يسيرون قدمًا كانت* ***يد الإله*** *معهم، وكان* ***أمون*** *القريب منهم بمثابة درعهم*(١٢).

وأنعم **پتاح** على **فرعون** برؤيا جاءته فى المنام ليشجعه على خوض المعركة:

عندئذ رأى ***صاحب الجلالة*** *فى منامه شيئًا يشبه تمثال* ***پتاح***، *واقفًا أمامه... وإذا* (بالتمثال) *يوجه إليه حديثه قائلاً «أمسِك». وأعطاه حسامًا*. (وأضاف قائلاً): *«اطرد بعيدًا عنك قلبًا يرتعد خوفًا»*(١٣).

وفى اليوم الثالث، من الشهر الثالث، من فصل الصيف، أى حوالى ٢٢ يونيو:

خرج جيش ***صاحب الجلالة*** *بمركباته الحربية. إن* ***أمون – رع*** *معهم، وإله* ***أومبوس*** [**ست**] *يمد لهم يده... في دمائهم، لن يفلت منهم أحد. وظلَّ حَمَلة أقواس* ***صاحب الجلالة*** *يقتلون منهم، لمدة ست ساعات. هكذا أُسلموا للسيف... وبينما كانوا يحاربون كان زعيم* ***ليبيا*** *الخسيس واقفًا، مرعوبًا، ثم جثى على ركبتيه... ملقيًا بسرعة نعليه، وقوسه ودرعه... بسبب الفزع الذى غمر جسده والخوف الشديد الذى سرى فى أعضائه. عندئذ، ذُبح:...*

... (وتم الاستيلاء) *على ممتلكاته، ومعداته، وفضته، وذهبه، وأدوات أكله البرونزية، وممتلكات زوجته، وعرشه، وأقواسه، وسهامه، وكل المشغولات التى جاء بها من بلده، بالإضافة إلى أبقاره ومواعزه وحميره*، (ونُقل كل ذلك) *إلى القصر الملكى، ليقدم فى آن واحد، مع الأسرى. ومع ذلك، فقد أسرع زعيم* ***ليبيا*** *الخسيس بالهروب فى اتجاه بلده... ثم أرسل* (قائد) *قلعة* ***الغرب*** *تقريرًا إلى القصر قال فيه: «لقد جاء*

*مريى المهزوم، كان جسده يهم بالفرار بسبب جُبنه. لقد مرَّ بجوارى، فى قلب الليل، ما عدا ... ولكنه هُزم لأن كل الآلهة تحمى **مصر**. إن كل المفاخر التى تباهى بها استحالت عدمًا، وكل ما قاله عاد وسقط على رأسه. ولا يُعرف الآن إن كان ميتًا أو حيا .. ولكن إذا كان لا يزال حيًا فلن يقود أبدًا* (الجيش)*، لأنه لم تعد له مكانة، بعد أن أصبح عدوًا لجيشه... لقد عُيِّن مكانه* (قائد) *آخر، تم اختياره من بين إخوته، والذى سيحاربه إذا رآه»*[١٤].

وتُقطع أيدى الموتى فى ساحة القتال، إنها من مغانم النصر التى تقدم إلى **الفرعون**، واهب المكافآت، كما تقطع أعضاء تذكير **الليبيين** القتلى وغيرهم من الشعوب غير المختونة **كالآخائيين**. ثم تُضرم النار فى معسكر العدو، بعد سلبه ونهبه بكل عناية، كما تُحرق الخيام المصنوعة من الجلد.

هكذا، ينطلق الجيش المنتصر، ومعه الأسرى والغنائم، سائرًا فى موكب طويل لا ينتهى، مخترقًا مدن **الدلتا** وقراها، وسط تهليل الجماهير الشعبية وابتهاجها.

*كان قادة حَمَلة الأقواس والمشاة وسلاح المركبات وكل الفيالق محملين بالغنائم. تتقدمهم الحمير التى تحمل أعضاء التذكير الغُلفاء لرجال **ليبيا** ومعها فى الوقت نفسه أيدى أبناء كل البلدان التى كانت معهم. كانت أشبه بالأسماك وسط الأعشاب....*

عندئذ، تعالت صيحات فرح البلد من أقصاه إلى أدناه، والمدن والأقاليم تهلل ابتهاجًا بهذه الأحداث الرائعة التى شهدتها (**مصر**)...

(وسار الجيش) *تحت شرفة* (القصر الملكى) *ليُتاح **لصاحب الجلالة** مشاهدة بسالته*[١٥].

إن قائمة الغنائم ذاتها تعرضها وثيقتان أساسيتان من خلال نص **الكرنك** وأسطون النصر فى **هليوبوليس**.

وفى **الكرنك**، ينصب التركيز على الأسرى من البشر:

المجموع ٩٣٧٦ شخصًا [منهم]:

أبناء الزعماء : ٦٣٥٩

الشكلش : ٢٢٢ رجلاً

الإتروسك : ٧٤٢ رجلاً

الليبيون : ٢١٨ رجلاً

زوجات الزعماء : ١٢

ولكن أيضاً:

*سيوف برونزية **للماشواش***[١٦]: ٩١١١

*جياد كانت مخصصة لركوب زعيم **ليبيا** الخسيس وأولاده وجميعها حيَّة*: ١٢.

ماشية من مختلف الأنواع: ١٣٠٨

أدوات أكل متنوعة: ٣١٧٦[١٧].

وعلى أسطون **هليوبوليس**، يُذكر أيضًا ٩٣٧٦ أسيراً. وهو خير دليل على أن كتبة **مصر** كانوا يراعون الدقة التامة فى أعمالهم. ولكن غنائم الحيوانات والمشغولات أكثر تحديداً:

حلى من الذهب والفضة : ٥٣١

أوان برونزية : ٣١٧٤

جياد: ٤٤(*)

أبقار حية وحمير ومواعز وكباش: ١١٥٩٤

قطع من الكتان الملكى : ٦٤

سيوف : ٩٢٦٨

أقواس : ٦٨٦٠

كنائن(**) وسهام: ١٢٨٨٦٠

بالإضافة إلى كل ممتلكاتهم.

وفى قاعة القصر الملكى الكبرى، يظهر الملك فى حضرة رجال البلاط:

*كان موظفو **صاحب الجلالة** يطلقون صيحات الفرح لتصل إلى عنان السماء، والحاشية كانت هناك، على الجانبين...*

• **الملك** (نهاية الخطاب):

*إن **رع** منتصر، وقوته موجهة ضد **الأقواس التسعة**. إن **سوتخ** يهب النصر والقدرة إلى **الحورس** الذى يسعد **بالحقيقة – العدالة**. لقد ضُربت **الأقواس التسعة**... أنا الابن البكر على عرش **جب**. عندما شغلت وظيفتى... كان هؤلاء **الليبيون** يتآمرون للنيل من **مصر**. أجل، لقد سقطوا الآن، لقد أجهزتُ عليهم... إن نِعَمى فى جسد الرجال، وأجلب عليهم الخيرات أكثر من أى أب أو أم... إنى أتصرف بحيث تتقدم **مصر**، مثلها مثل النهر. والشعب يحبنى، تمامًا كما أُحبه. إنى أُعطى الناس نسمات (الحياة) فى مدنهم... وتُقدم لى المدائح بسبب قدرتى. ويظل عصرى باقيًا فى فم*

(*) من المؤكد أن الغزاة كانوا لا يعرفون سلاح المركبات، واكتفوا بالعربات التى تجرها الأبقار ولم يمتلكوا سوى أعداد محدودة من الجياد. (المؤلفة)

(**) جمع كنانة: جعبة صغيرة من جلد أو نحوه لوضع السهام. ويطلق مجازًا على **مصر أرض الكنانة**. (المترجم)

الأجيال الشابة، عصرى الذى أُنجِزت فيه أعمال ميمونة، انطلاقًا من الأفعال العظيمة والخيِّرة التى حققتُها من أجلها...

• رجال البلاط:

*عظيم هو ما حدث **لمصر**... إننا أمام وقائع مهيبة، لم يشهدها آباؤنا من قبل، إنها روائع سيُنصت إلى روايتها رجال آخرون. فمن الآن أصبح **الليبى** طالبًا للرحمة، وأسيرًا تمَّ إحضاره. لقد أتحت للأعداء أن يصبحوا كالجراد المنتشر على الطرقات... أما نحن، فننام فى فرح وسرور، فى كل فصل من فصول السنة*(١٨).

وفى هذه الحالة على الأقل، لا يبدو أن **مر إن پتاح** قد اشترك فى المعركة. كان طاعنًا فى السن(*)، وربما ذهب إلى الاعتقاد بأن هزيمة الغزاة أمر لا شك فيه، لافتقارهم إلى التدريب الكافى على فنون الحرب، ولأن تحركاتهم فى ساحة القتال كان يعوزها التنسيق والتنظيم، بالإضافة إلى تدنى مستوى تجهيزاتهم الحربية. تُرى، ماذا كانت تفعل إذن هذه العربات الثقيلة التى تسحبها الأبقار الضخمة، فى مواجهة المركبات الحربية الخفيفة وجياد **صاحب الجلالة** الرشيقة؟ وبالفعل، كانت ست ساعات كافية ليهزمهم الجيش المصرى. فكانت هزيمة فادحة، أتاحت **لمصر** سلامًا مؤقّتًا. هكذا تحطم الهجوم الأول الذى شنته **شعوب البحر**.

وشُيدت المعالم الأثرية احتفالاً بهذا النصر. وربما أقيمت أساطين تذكارية أخرى مثل الأسطون الذى عثر عليه فى **هليوپليس**، ومن مقتنيات **متحف القاهرة** فى الوقت الراهن. كما يروى نصه معركة العام الخامس. إن التصاوير التى نحتت عليه بالنقش الغائر تعبِّر تعبيرًا بالغ الدلالة عن الفكر الدينى **للرعامسة**.

وبالارتباط مع نص النصر صُوِّرت على أحد الجوانب ثلاثة آلهة وهى تقدم للملك حُسام النصر. والآلهة هى بالترتيب، من أسفل إلى أعلى: **آمون وعشتروت وسخمت**. وعلى الجانب الآخر، وفى خط موازٍ مطلق، وبالارتباط مع مشاهد تُصور الأسرى، تُقدم ثلاثة آلهة أخرى، حساماً إلى الملك. والآلهة هى بالترتيب، من أسفل إلى

(*) كان يناهز آنذاك الخامسة والستين من عمره. (المترجم)

أعلى، **رع حور أختى وست ومونتو**. إن هذا التوازى مقصود بكل تأكيد، بالنظر إلى أنه يضع على المستوى نفسه، إلهين شمسيين عظيمين وإلهين أجنبيين أو مندمجين وإلهين محاربين، كما أن الإلهين المصريين يحيطان فى تناسق تام بالآلهة الأجنبية. ولكنها جميعًا ترمز معًا إلى قوة الإمبراطورية وقدرة الدفاع عنها.

ولما كانت هذه الغزوة وهذه المعركة، قد حدثتا بعد نصف قرن من السلام، فلا شك أنهما تركتا أثرًا عميقًا فى النفوس.

لقد نُحت نشيد عظيم للنصر على لوح حجرى، وضع فى **الكرنك**. إنه يجعل من **مر إن پتاح** بطل أسطورى، وينتهى بترنيمة من أجل السلام، محركة للمشاعر:

لقد حلَّ فرح عظيم فى ***مصر****، ويتصاعد الابتهاج والتهليل فى مدن* ***البلد المحبوب*** *التى تتحدث عن الانتصارات التى أحرزها* ***مر إن پتاح*** *على* ***الثمنو***(*)*. كم هو محبوب الأمير المنتصر! كم هو عظيم بين الآلهة! كم هو فطن، صاحب الحل والربط!*

كم هو لطيف أن يجلس المرء ويُثرثر فى الكلام! وأن يتمكن من السير بخطى واسعة فى الطريق، بلا خوف فى قلب البشر. لقد هُجرت القلاع، وأُعيد فتح الآبار، فأصبحت من الآن متاحة للموفدين. إن شرفات أسوار الحصون هادئة والشمس فقط هى التى تُوقظ الحراس الرقباء. ويرقد رجال الشرطة وينامون. ورجال الاستطلاع فى الحقول (يسيرون) كما يروق لهم. والماشية فى الريف ترعى فى حرية، بلا رعاة، وتعبر (وحدها أيضًا) أمواه النهر. ولم نعد نسمع فى الليل نداءات أو صيحات (مُعلِنةً): «قف! انتبه، هناك شخص قادم يتحدث لغة الرجال الآخرين». والمرء يسير وهو يغنى، ولم نعد نسمع أصوات النُّواح. ومن جديد، عُمِّرت المدن بسكانها ومن يحرث (الأرض) على أمل الحصاد، هو الذى سيأكله.

(*) لم يكن المصريون قد تعرفوا حتى الآن، على أسماء هذه الشعوب الجديدة، فكانت تخوم **الغرب** أى **ليبيا**، لا تزال فى نظرهم بلد **الثمنو** الذين وُجدوا منذ ماضٍ موغل فى القدم. (المؤلفة)

*وأقبل رع على **مصر**، بينما وُلِد من كان مقدرًا له أن يكون حاميها، **ملك مصر العليا ومصر السفلى**، **با إن رع وابن رع: مر إن پتاح**.*

وبعد أن تجمّعت الإمبراطورية من جديد استعادت السلام. ويواصل النص حديثه قائلاً:

*يتساقط الزعماء قائلين: سلام[١٩]! ولا أحد من بين **الأقواس التسعة** يرفع رأسه، وبلد **التحنو** مهزوم.*
***والخاتى** مسالمة.*
*وتخلت **أرض كنعان** عن كل ما كان لديها من مساوئ.*
*وشُدَّت **عسقلان** شدا.*
*وتم الاستيلاء على **جيزر***
*وأصبحت **ينعام**، كأنها لم توجد مطلقًا.*
*وبادت **إسرائيل**(*)، بل إن بذرتها لم يعد لها وجود(**).*
*وصارت **سوريا** (***) أرملة في نظر **مصر**.*
لقد اتحدت كل البلدان. إنها في سلام.
*وكل من كانوا يهيمون، يربطهم الآن ملك **مصر العليا ومصر السفلى**: **با إن رع، ابن رع: مر إن پتاح**، له الحياة، مثل **رع**، على مرِّ الأيام[٢٠].*

(*) الإشارة هنا إلى قبيلة وليست إلى قطر أو دولة أو مملكة، كما يتضح من المخصص المرفق بهذا الاسم المخصص علامة مفسرة ليست لها دلالة صوتية، تضاف إلى الكلمة لتحديد مجال دلالتها). بل ويؤكد الدكتور **رمضان السيد** أن القراءة الصحيحة لهذه الكلمة بالمصرية هى **يزرويل**، ومن ثم يشير هذا الاسم إلى سكان **سهل يزرويل - مرج ابن عامر** حاليًا، شمال شرق **جبال الكرمل** وليس إلى إسرائيل. راجع: تاريخ مصر القديمة، هيئة الآثار المصرية، ١٩٩٣، الجزء الثانى، ص ص ١٨٠-١٨٥. (المترجم)

(**) تشبيه كثير الاستعمال لبلدة خُرِيت. سليم حسن، مصر القديمة، الجزء السابع، هيئة الكتاب، ١٩٩٢، ص١٠١. (المترجم)

(***) **خارو** بالمصرية القديمة. المرجع السابق. (المترجم)

ويطلق على هذا اللوح الحجرى أحيانًا اسم لوح **إسرائيل**، لأنها المرة الأولى فى التاريخ التى يرد فيها هذا الاسم.

كان المصريون يعشقون السلام والحياة التى لا تعرف الخوف. ويبدو أن الوعد بحلول أيام تشرق فيها شمس حانية مع مطلع كل فجر، نستشفه من خلال هذا الخطاب الذى وجهه **أمون - رع** إلى **مر إن پتاح**، فى **الكرنك**:

أمسك بيلطتك من أجلك(*)، أيها الملك، يا صاحب مطالع الفجر المقدسة، والقوة النافذة، والساعد المقدام عندما يقاتل عدوه(*). لقد جئتَ(*) بكل البلدان الأجنبية التى كانت قد تعدّت على حدودك(*). لقد استحوذتَ(*) على الأرض قاطبة، فى قسمها الجنوبى وختمتها بختمك فى شمالها[٢١].

وبعد الهزة العنيفة، استعادت الحياة فى **مصر** مسارها الطبيعى «**وكأنها نهر**».

استعادة السلام، الآلهة والإمبراطورية

كانت العائلة المالكة تعتقد على ما يبدو أن فى وسعها الحفاظ على استمرارية الأسرة الحاكمة. كان **مر إن پتاح** قد اتخذ لنفسه زوجتين: الأولى اسمها **إيزيس - نوفرت** الثانية والأخرى **بنت - عنات**(**) الثانية أيضاً.

كان الابن البكر **سيتى - مر إن پتاح**، ومنذ أن كان فى الثانية عشرة من عمره، وعملاً بتقاليد **الرعامسة**، يشارك فى الحملات العسكرية التى قادها والده، وربما تلك التى خاضها فى العام الرابع. ففى بردية **أوربينى** Orbiney، نجده يحمل الألقاب الآتية:

(*) يتحول النص دون حرج من صيغة المخاطب إلى صيغة الغائب والعكس، وهو ما لاحظناه من قبل. (المترجم)

(**) ويلاحظ أن تأثير **رمسيس** العظيم لم يُمح. (المؤلفة)

«الكاتب الملكى، قائد الجيش، كبير الملك، ابنه المعظم: ***سيتى - مر إن بتاح***[٢٢]».

كما يبدو أنه كان إلى جانب والده فى تصريف شئون البلاد، بصفته مشاركًا فى الحكم، عملاً بتقاليد **الرعامسة**.

واصل **مر إن بتاح** عمل والده الروحى وتقيَّد بالأيديولوچيا الإمبراطورية الجديدة التى كان **حور إم حب**(*) قد سبق أن أدرك أبعادها.

كما وردت أكبر آلهة ثالوث **الرعامسة** فى أسماء تتويج الملك ذاتها(**). إنه «كبش ***رع***» و«محبوب ***آمون***» و«محبوب **بتاح**».

واستمرت آلهة الإمبراطورية تحظى بكل الإجلال والتبجيل أسوة بالآلهة المصرية. إن نقشين آخرين نُحتا على أسطون **هليوبوليس** لهما دلالة ملحوظة، ففوق المشاهد التى سبق وصفها يُوجد تصويران. فمن ناحية، نجد أن **آمون** الواقف أمام **مر إن بتاح**، يعطيه حُساماً بيده اليمنى، قائلاً له:

أمسِك حسامك فى مواجهة كل الأجانب.

والملك واضعًا التاج الأحمر على رأسه، يُطلق البخور من أجل الإله، ويؤدى شعيرة الرش بالماء الطاهر. وفى المقابل، فإن الإلهة **عنات** تظهر مرتدية التاج الأبيض تكتنفه ريشتان وقرنان أفقيان، ويتدلى شريط طويل على ظهرها، وتقدم بيدها اليمنى الحسام إلى الملك. إنها: «***عنات*** *المتسيِّدة على البلد بالكامل*». أما **مر إن بتاح** الذى يطلق البخور فإنه يرتدى التاج الأزرق(***). هكذا، فإن كيانين إلهيين كبيرين من **مصر**

(*) آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة. راجع أيضًا: كلير لالويت، طيبة أو نشأة إمبراطورية، ترجمة وتعليق ماهر جويجاتى، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، الفصل العاشر. (المترجم)

(**) راجع مطلع هذا الفصل. (المترجم)

(***) لمزيد من التفاصيل عن التاج الأزرق ومختلف التيجان. راجع: إيزابيل فرانكو، معجم الأساطين المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص ص ٨٥-٨٩ و١٤١ و٢٠١ و١٨٦. (المترجم)

والإمبراطورية، وهما **أمون وعنات**، يشملان النصر برعايتهما. هذان التصويران هما أشبه «بنسخة مختصرة» للتصاوير التى سبق وصفها، ولكن دلالتها أكبر بكثير، لا سيما إذا لاحظنا أن اهتمام **أمون** ينصب على البلدان الأجنبية(*)، فى حين إن **عنات** معنية بالبلد ذاته(**). إن هذا التبادل المقصود للصلاحيات. يؤكد بلا شك على التعايش المشترك اللصيق للكيانين الإلهيين، وقد اتحدا دعمًا لإمبراطورية **الرعامسة** وحمايةً لها.

إن أوضاع المعابد التى عمل **الرعامسة** على زيادة ثرائها - كما لاحظنا من قبل - قد أخذت تتحول ومعها أراضيها، إلى حيازات شاسعة، مستقلة عمليًا عن العرش، لها فرقها العسكرية التابعة لها ونظامها القضائى الخاص، ولم تكن هذه الأوضاع تشكل فقط خطرًا، بل تفتقر أيضًا إلى الوضوح، وتميزت بقدر كبير من الغموض.

قام **مر إن بتاح**، منذ العام الثانى من حكمه، بإحصاء كل ممتلكات المعابد وإعداد حصر بها. إن نص المرسوم الذى فرض هذا الجرد الرسمى منحوت فى معبد **مدينة هابو** الصغير(***)، على الجانبين الجنوبى والشمالى من القسم المكرس لقدس الأقداس والمخصص للقارب المقدس:

*فى اليوم التاسع والعشرين، من الشهر الأول، من فصل الفيضان، من العام الثانى، فى عهد جلالة ملك **مصر العليا ومصر السفلى، با إن رع - محبوب - أمون**، أمر **صاحب الجلالة** بأن يُطلب من الكاتب الملكى، كبير الكهنة المرتلين، كبير الحجاب، والأب الإلهى الثانى (؟) الحقيقى والمعظَّم، أن يتولى حصر جميع آلهة وإلهات **مصر العليا ومصر السفلى**(٢٣).*

(*) **خاسوت**، بالمصرية القديمة. (المؤلفة)

(**) **تا**، بالمصرية القديمة. (المؤلفة)

أى **مصر** ذاتها. (المترجم)

(***) بجوار معبد **رمسيس** الثالث. (المترجم)

ويُجدَّد هذا المرسوم فى العام الثالث. ونُحت نصه تحديداً فى الشرفة العليا من معبد الملكة **حتشبسوت** الجنائزى فى **الدير البحرى**، جنوب البوابة المشيدة من حجر الجرانيت:

*فى الشهر الثالث، من فصل الفيضان، من العام الثالث، فى عهد **جلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى: با إن رع - محبوب - أمون، ابن رع: مر إن پتاح**. أمر **صاحب الجلالة** بأن يُطلب من الكاتب الملكى، كبير الكهنة المرتلين، الحاجب، الأب الإلهى **الأول**، الحقيقى، المعظَّم، أن يتولى حصر جميع آلهة **مصر العليا ومصر السفلى***(٢٤).

ولا نعرف نتائج هذا التعداد الذى كان يخص بطبيعة الحال ثروات الآلهة، إذ يبدو أن الملك أراد أن يعرف مدى ضخامتها على وجه الدقة.

وفى **طيبة** كان **رومع روى** لايزال يشغل منصب كبير كهنة **أمون**. فعلى لوح حجرى عُثر عليه فى **جبل السلسلة**، صُوِّر بجوار الملك **مر إن پتاح** وهما يتعبدان لإله **طيبة**. ومن المعتقد أن هذا الأثر قد أقيم بمناسبة زيارة قام بها **الفرعون** وكبير الكهنة، إلى محاجر هذه المنطقة. ويحمل **رومع روى** الألقاب الآتية:

*الأمير، الأب الإلهى صاحب اليدين الطاهرتين، رئيس الأسرار فى السماء وفى الأرض وفى العالم الآخر، ذابح أضاحى (؟) **كاموتف**، قائد جُند **أمون**، رئيس الفضة والذهب فى بيت **أمون**، رئيس الأشغال الخاصة بكل معالم **صاحب الجلالة**، إنه كبير كهنة **أمون***(٢٥).

وفضلاً عن ذلك فهو:

*رئيس جميع كهنة **مصر العليا ومصر السفلى***(٢٦).

لقد كان إذن شخصاً جليل القدر، بعيد المطمح.

وشأنه شأن العديد من كبار كهنة **أمون**، فهو مدير الإنشاءات الملكية. وطوال فترة شغله لمنصب الحبر الأعظم فى **الكرنك**، يبدو أنه لم يُشيِّد معبداً أو مقصورة، ولكنه ركَّز جل اهتمامه على إصلاح وترميم مساكن كبار الكهنة، القائمة فى جنوب شرقى أملاك **أمون**، عند مستوى الفناء الممتد من الصرح السابع وحتى الصرح الثامن وخارجه، أى فى محور المعبد الشمالى الجنوبى، وعند حافة البحيرة المقدسة. وكان تأسيس هذا المبنى يعود إلى الأسرة الثانية عشرة. وعلى وجه التحديد فقد أعاد بناء المبنى الملحق، المخصص للخبَّازين وصنَّاع الجعة للأملاك الإلهية. وللاحتفاظ بذكرى هذا الحدث، أمر بنحت صورته إلى جانب مدونة، على الصرح الثامن من صروح **الكرنك**. كان هذا الأسلوب وقفًا حتى الآن على **الفرعون**، فلا يحق لأحد غيره استخدامه. وهنا، استطاع **رومع روى** أن يسلب هذا الحق. إنها واقعة بالغة الأهمية، وتدل بكل وضوح على التفتت التدريجى لبعض الامتيازات الملكية لصالح كهنة **طيبة**. ويقدم النص وصفًا للأعمال الإنشائية التى تم تنفيذها لصالح كبير الكهنة، إجلالاً له، وارتقاءً بشأنه:

*أيها الكهنة الأطهار وكتبة معبد **أمون**، أيا خدَّام القرابين الإلهية السعداء، أيها الخبازون وصنَّاع الجعة وصنَّاع الحلوى والعيَّاشون(*)، أيا جميع من ينجزون كل أعمالهم من أجل سيدهم، ومن يدخلون القاعة الطاهرة القائمة فى المعبد، تفوَّهوا باسمى كل يوم من الأيام، حافظوا على سمعتى الحسنة، مَجِّدونى بسبب أعمالى الخيِّرة بصفتى رجلاً مقتدرًا. لقد وجدت هذه القاعة مدمَّرة تدميرًا كاملاً: جدرانها متصدعة ومشغولاتها الخشبية تالفة وعضادات الأبواب الخشبية متداعية، كما تتساقط الألوان التى كانت تغطى الصور. وقمت بإصلاحها وترميمها وجعلتها أكبر مما كانت عليه فى الماضى، فأصبحت أكثر ارتفاعًا وزدت من عرضها، بحيث تصبح*

(*) صانع العيش أو بائعه. المعجم الوسيط. (المترجم)

عملاً يغالب الأيام. هكذا شيِّدت عضادات الأبواب من الحجر الرملى ودعِّمت الأبواب بخشب الأرز الأصلى. (وصنعت الشيء نفسه) *للحجرة الداخلية المخصصة للخبَّازين وصنَّاع الجعة. وأنجزت هنا، عملاً أفضل من سابقه، لتأمين حماية* (هيئة العاملين فى خدمة) *إلهى **أمون**،* سيد *الآلهة. فانتبهوا إذنْ واصغوا إلى ما أقوله*(٢٧).

وفى **منف** كان منصب كبير كهنة **بتاح** لا يزال يشغله أحد أفراد العائلة المالكة. وبالفعل كان **حورى** بن **خع إم واست**، على رأس كهنة **منف**، كما تقلَّد كل اختصاصات والده. كان إذن ابن أخ **مر إن بتاح**.

أما فى **مصر العليا**، ولا نقصد **طيبة** فقط، ولكن بعض المدن الأخرى، فقد كانت الأوضاع أكثر صعوبة أو غموضاً.

ففى **أبيدوس**، نجد أن **يويو** وهو ابن كبير الكهنة السابق **ونن نفر**، قد خلف والده. وبدوره سوف يخلفه ابنه. هكذا صار هذا المنصب حكراً على هذه العائلة.

وقد كرس **مر إن بتاح** فى المعبد لوحًا من الألبستر لآلهة **أبيدوس**. يتميز هذا اللوح بقدر من الأصالة، إذ يمكن النظر إليه من كل أوجهه. ففى الجانب الأمامى، تطل ثلاثة تماثيل صغيرة بالنقش البارز. تمثال **أوزيريس** فى الوسط، تكتنفه صورة **إيزيس** على اليسار وعلى اليمين صورة **مر إن بتاح** الذى يقوم هنا بدور الإله - الابن **حورس**، فى الثالوث المحلى. ويطوِّق الملك والإلهة بساعديهما الإله، ليشكلوا وحدة محملة بالقدرة السحرية نفسها. وعلى ظهر اللوح نُحت نص موزع على أربعة أعمدة، يبرز ما فعله الملك من أجل إله **أبيدوس**، ويعلو كل عمود بالتناوب، أحد خرطوشى الملك.

*يا سيدى، يا أبى **أوزيريس**، إنى أحمى مدينتك فى إقليم **أبيدوس**، إنى أعظِّم معبدك فى **روستاو***(٢٨)*. وأضاعف كمية أرغفة خبز القرابين، المخصصة **لـ"كا" لك***(٢٩).

وعلى المقطع الأيمن من اللوح نقرأ الآتى:

*يا أبى **أوزيريس**، اسمح لى أن أبقى بجوارك مثل ابنك **حورس**، لأننى جالب الخير لك وله أيضًا، كما إنى أحبك(٣٠).*

كان **مر إن پتاح** موجودًا أيضًا فى **أبيدوس**، هذا المكان المقدس الجليل الذى أقام فيه جدُّه ووالده مبانى عظيمة، ولكن وجوده كان أكثر تواضعًا.

وفى **مصر العليا** كانت وظائف كبار الكهنة الروحية تتداخل بشكل يزداد غموضًا مع أهم المناصب الدنيوية وأرفعها.

هكذا، نجد أن كبير كهنة **أونوريس** فى مدينة **ثنى**، ويُدعى **أونــورمس** أو **إنحرمس**(*)، كان يقوم على الدوام بدور بارز، فقد جمع بين أرفع الوظائف الدينية والمناصب العسكرية، بل وباشر بعض الأعمال فى القصر الملكى ذاته. إننا نعرفه من خلال سيرة حياته التى أمر بنحتها على جدران مقبرته المحفورة فى صخر جبل **نجع المشايخ**.

*الكاتب الملكى، كاتب مجندى **سيد القطرين** كبير كهنة **رع** فى **ثنى**، رئيس حجَّاب **شو** و**تفنوت**، وكبير كهنة **أونوريس**، (إنه المدعو) **أونورمس**، هذا الذى يُعد أعياد يوبيل وازدهار سيده الملكى، **سيد القطرين**: **با إن رع – محبوب – أمون**، وسيد التجليات المجيدة، **مر إن پتاح** – الذى – يجد – فى – **ماعت** – ما يرضيه. إنه يتحدث قائلاً: «كنت طفلاً متميزًا وفتًى حصيفًا وغلامًا راجح العقل وشابًا فطنًا. كما كنت طالبًا ثاقب الذكاء فى **بيت التعليم**. فكان من الصعب انفصالى عنه.*

كنت إنسانًا يحبه سيده الملكى، مفيدًا لإلهه، كان قلبى لا يشبع أبدًا، مهما فعل من أجلهما من أشياء خيِّرة.

(*) لاختلاف الدلالات الصوتية لاسمه. (المؤلفة)

كنت إنسانًا يقظًا فى السفينة، لا يخلد أبدًا إلى النوم، عندما (يستريح) طاقم الحراسة، بفضلى.

كنت شجاعًا مقدامًا فى السماء كما على الأرض، لا أتعب، بينما أشاهد المسيرات العديدة (للجنود)، مثل... وبالفعل، كنت كاتب فرق سلاح المركبات، وهى فرق جرارة، عظيمة وبلا حدود. كما كنت مترجمًا فوريا لكل بلد أجنبى، فى حضرة سيدى الملكى، وكاتبًا عزيز الجانب عند القيام بواجباته. كان سيدى يتحدث إلىَّ بحضور كل أبناء البلد، كنت أمتدح الملك، يوميًا عندما أخاطب باسمه كل الموظفين، وأتحدَّث إليهم، فيقولون (لى): «كم هى عظيمة النعم التى يغدقها عليك!» كنت من يعيِّن رجاله ويحمى موظفيه، إلى أن يدعم الملك أيضًا وظيفتى، ليجعل منِّى صديقًا.

*كنت خادمًا... **شو**، ومن يملأ خزائنه، والمشرف العام أيضًا على الشونة المزدوجة التى تفيض بالخيرات. كنت مفيدًا للمعبد، جسورًا فى الحقول...*[٢١].

يا لها من أعمال عديدة ومتنوعة، يتولاها رجل واحد بمفرده!

هذا الجمع بين عدد من السلطات الروحية والدنيوية فى أيدى أعيان المجتمع ووجوهه - علمًا بأنه كان من الناحية النظرية من حق **الفرعون** وحده - كان يشكل بطبيعة الحال، على المدى الطويل، خطراً على العاهل الملكى، ويساعد أيضًا على مضاعفة تفتيت سلطته الحقيقية، تمامًا كما كانت تعانى من التعدى على امتيازاته أو من ظاهرة استئثار عائلات بعينها ببعض الوظائف.

كما كان فى إمكان شخص واحد أن يشغل منصب كبير الكهنة فى خدمة أكثر من إله. وقد لاحظنا ذلك، عند الحديث عن **أونورمس** كبير كهنة **رع** و**أونوريس** فى **ثنى**، فى آن واحد.

وهناك أيضًا هذا المدعو **أمن واح سو** (*أى ليت **أمون** يعطيه الديمومة!*) الذى نعرفه بفضل لوح صخرى عُثر عليه فى **جبل السلسلة**، وكان كبير كهنة كل من **سوبك** و**أنوبيس** و**خونسو**.

وفى القسم المقوس فى أعلى اللوح، نشاهد الملك **مر إن پتاح** الذى يسير الوزير **پانحسى** فى أعقابه، وهو يقدم **ماعت** إلى أربعة آلهة تقف وجهًا لوجه، إنها **آمون – رع** و**مونتو** و**سوبك** و**حتحور**. ومن الواضح أن نحت هذا اللوح قد جاء تنفيذًا لأمر من الوزير فى أعقاب قيام الملك بزيارة المحاجر. ولكن صور **آمن واح سو** نفسه، فى وضع التعبُّد فى الجزء الأسفل من هذا الأثر، وبجوار ترنيمة مدائح للآلهة، لصالح **الكا** الملكى:

*أرفع المدائح إلى «كا»ك، يا **آمون – رع**، أيها الإله الأقدم الأصلى، وأول من جاء إلى الوجود! التهلل والاغتباط من أجل **مونتو**، سيد **هرمونتيس**! السجود أمام إلهى **سوبك**! التعبد للإلهة من أجل **الكا** الملكي، **لسيد القطرين**: **با إن رع – محبوب – آمون**، له الحياة. وانطلاقًا من «**كا**» أتها، ليتها تمنح أيضًا فترة حياة سعيدة إلى **كا** صاحب الحظوة الأثير عند الإله الكامل، محبوب **سيد القطرين**، المُفعَم بالمدائح طوال حياته فى الدنيا بجوار **الحورس**، الثور القوى، صاحب الأفعال الميمونة والخطابات المنتقاة التى يرضى المرء بكلماتها، والذى يملأ قلب سيده، بطريقة ذات تأثير موات، إنه رئيس كهنة الآلهة جمعاء، كبير كهنة كل من **سوبك** و**أنوبيس** و**خونسو**. هذا هو **آمن واح سو***[٣٢].

ربما تؤكد هذه الوقائع على السعى الحثيث إلى تحقيق التلفيقية الدينية بوصفها سِمة مميزة لعصر **الرعامسة**، كما تُبرز أيضًا السلطة المتزايدة التى يتمتع بها بعض رجال الدين.

إن الأهمية التى اكتسبها مختلف رجال الدين فى عهد **مر إن پتاح**، تشكل تهديدًا خطيرًا على المستقبل، اللهم إلا إذا تربَّع ملك حازم قوى الشكيمة على العرش.

❖

لم يصلنا سوى القليل من الإيضاحات الحقيقية عن نظم الإدارة فى عهد **مر إن پتاح**.

وفى اللوح الصخرى الذى سبق أن أشرنا إليه، فإن الوزير **پانحسى**، وهو من وجوه مجتمع هذا العهد، يرافق الملك. ولما كان اسمه يعنى «**الزنجى**»، فربما كانت أصوله تعود إلى **جنوب مصر**.

وفى تمثال جماعى، جاد به **دير المدينة**، صُوِّر خلف الملك والملكة حاملاً الألقاب المألوفة التى كانت تخص هذه الشخصية المرموقة، إنه

*«حامل المروحة عن يمين الملك، وعمدة **المدينة**»*

وعلى لوح حجرى من **جبل السلسلة**، يمكن أيضًا مشاهدة ثلاثى الهيئة الحكومية فى ذلك الزمن: الملك والأمير **سيتى – مر إن پتاح** والوزير **پانحسى**، وهم يتعبدون للإله **أمون**. واللوح مقدم من **پانحسى** لصالح الملك، كما يتضح من المدونة المنحوتة على القاعدة:

*أرفع المدائح إلى «**كا**» ك، وكذلك إلى **التاسوع** الإلهى القائم فى **النون**(*). ليتها تمنح الحياة والثبات والقوة والازدهار والسعادة إلى **كا** الملك: **با إن رع – محبوب – أمون**، له الحياة. من إعداد الوزير **پانحسى** كاتم أسرار **صاحب الجلالة** ومُريده وعمدة **المدينة**[٣٢].*

من المعتقد، أن هذا الأخير، قد شغل منصبه لعدة سنوات. وفيما بعد أُسند هذا المنصب إلى **پن سخمت** (أى «رجل – **سخمت**») و**مرى سخمت** (أى «محبوب **سخمت**»)، على التوالى، واللذين كانا على ما يُعتقد وزيران، وموطنهما الأصلى **منف**.

(*) المياه الأولية التى كانت موجودة قبل الخلق. (المترجم)

وهو ما يمكن استنباطه من اسميهما. ولكن لا نعرف شيئًا عن نشاطهما أو شخصيتهما.

وتعاقب اثنان من نواب الملك فى **النوبة**، ليقوما بحكم البلاد فى **الجنوب**. إنهما **ميسوى** و**خع إمتير**. لقد خلَّفا وراءهما مدونات مختصرة، مخربشة فى **أسوان** للأول، بالإضافة إلى بعض التصاوير فى معابد **النوبة** و**السودان**، فى **بيت الوالى** وفى **عمدا** - حيث يظهر **ميسوى** فى أحد النقوش راكعًا، متعبِّدًا للإله **رع حور أختى** - وأيضًا فى **منية** وفى **عكاشة**.

أما **خع إمتير** الذى يحتفظ له معبد **بوهن** بصورة، فكان لا يزال يشغل منصبه فى عهد **سيتى** الثانى.

ثانيًا: آمن مس المغتصب، وعودة سيتى الثانى

لقد استطاع **مر إن پتاح** إذن، أن يحافظ على الإمبراطورية سالمة وعلى سلطته، رغم الأخطار الجسيمة. وحتى إذا أخذت بعض الصعوبات الداخلية تبرز بوضوح، فإنه احتفظ بالعرش بلا منازع. وظل العمل فى تجهيز مقبرته فى **وادى الملوك** مستمرًا، وفى العام السابع أو فى العام الثامن ذهب **پانحسى** لمتابعة سير العمل فيها.

وعند وفاته، حول عام ١٢١٨ق.م، طرأ فجأة حادث، لا نعلم عنه شيئًا. ونلاحظ فقط أن الذى خلفه شخص يُدعى **آمن مس** (أى: «*آمون هو الذى أنجبه*»)، وليس **سيتى - مر إن پتاح**، وريث العرش الفعلى.

تُرى ماذا حدث؟ ليس فى وسعنا سوى أن نتقدم ببعض الفرضيَّات.

يذهب البعض[٣٤] إلى أن **أمن مس** ربما كان كاتبًا فى جبانة **طيبة**، ثم أصبح وزيرًا. وبالفعل، ففى بردية **سالت**(*) Salt، فإن الحكم فى نزاع بين عمال **دير المدينة**، كان معروضًا على المدعو «*الوزير أمن مس*». وبعد أن خسر رئيس العمال **پانب** قضيته، رفعها إلى شخص يُدعى **موسى**، الذى كان على ما يُعتقد لقبٌ سُمِّىَ به **سيتى – مر إن پتاح**. وخطَّأ **موسى** الوزير، وأقاله من منصبه. ولما كان **أمن مس** يعرف أن الأمير هو المسئول عن عزله وبدافع الانتقام، فربما اغتصب العرش عند وفاة **مر إن پتاح**. ولكن هذه الحبكة تفترض شبكة مقعدة من التواطؤ(؟).

واستنادًا إلى فرضية أخرى[٣٥]، كانت هذه المسألة نتيجة لمؤامرة فى الحريم الملكى، فكم عرفت **مصر** أمثال هذه المؤامرات! وبالفعل، تشير النصوص إلى والدة **أمن مس** باعتبارها «*تاخت، والدة الملك*»، فى حين لم تكن على ما يبدو زوجة **مر إن پتاح** أو إحدى أميرات العائلة المالكة. وربما كانت إحدى المحظيات. وعند وفاة **مر إن پتاح**، وبشرط افتراض غياب الوريث **سيتى**، فربما استطاع هذا الابن المولود من الملك المتوفى وإحدى نساء الحريم، أن يتربع على العرش، ثمرة لمؤامرة. وفى هذه الحالة أيضًا كان من الضرورى وجود مشاركة فعالة من الأصدقاء والأتباع(؟).

وأيا كان الأمر، فقد كانت سنوات حكم **أمن مس** باهتة وقصيرة، وفى حدود سنوات أربع، حتى ١٢١٣. ولم يُعثر حتى الآن سوى على بعض أسماء هذا الملك داخل خرطوش، والقليل من المدونات الواضحة فى **الكرنك** و**الشيخ عبد القرنة** و**الرامسيوم**. كما أمر **أمن مس** بأن تحفر له مقبرة فى **وادى الملوك**. ولكن ما إن تربَّع **سيتى** الثانى على العرش حتى أمر بإزالة اسم المغتصِب من على جميع المعالم.

وأيًا كان الأمر، فإن هذا الفصل القصير يبرهن على أن السلطة الملكية كانت مهددة فى الداخل تهديدًا بالغًا، بالنظر إلى وقوعها تحت رحمة المؤامرات التى يحيكها

(*) القنصل العام لبريطانيا فى **مصر** فى مطلعه القرن التاسع عشر. عمل **بلزونى** Belzoni الإيطالى لحسابه، وكانا فى مقدمة من سرقوا الآثار المصرية ونقلوها إلى الخارج. (المترجم)

أعيان الدولة ووجهاؤها(؟) أو بعض أفراد الحريم الملكى(؟). وربما تُلقى بعض الوثائق في المستقبل النور على هذه الأحداث التى ما زالت غامضة فى نظرنا.

❖

وبعد عودة **سيتى** الثانى استعادت سُلالة **الرعامسة** الشرعية السلطة لفترة ست سنوات تقريباً.

حورس: *الثور القوى، محبوب* ***أمون.***
السيتان: *هذا الذى يحمى* ***مصر*** *ويربط البلدان الأجنبية.*
حورس الذهبى: *صاحب الانتصارات المهيبة فى جميع بقاع الأرض.*
ملك مصر العليا ومصر السفلى: أوسر خپرو - رع - مرى - أمون،
(أى «قوية هى مصائر **رع**، محبوب **أمون**»).
ابن رع: سيتى - مر إن پتاح.

وفى مدونة، نُحتت فى فناء معبد **أمنحوتپ** الثالث، فى **الأقصر**، يؤكد **سيتى** الثانى على قدراته الملكية والإمبراطورية:

الإله الكامل، ابن ***أمون****، الذى أنجبته* ***موت****، سيدة السماء، العاهل الملكى الذى استولى على أرجاء الأرض، الملك القوى الذى يربط البلاد وفقًا لمقاصده، بعد أن جعلها ترسو فى الميناء رسوًا موفقًا (*)... الثابت على عرش ملك* ***مصر العليا ومصر السفلى، ملك مصر وشمس الأقواس التسعة***[٣٦].

(*) راجع الهامش رقم ٢ من هذا الفصل. (المترجم)

هكذا يؤكد **سيتى** الثانى بشكل قاطع، التزامه بالخط التقليدى **للرعامسة**. ولكن يبدو أن هيبة **الفراعنة** التى جسدَّها **رعمسيس** الثانى على أفضل وجه، قد أخذت تخبو وتتقوض.

كما أراد الملك الجديد أسوة بجده، أن يكون سيد الازدهار، والملك واهب الطعام **لمصر**. هكذا يصورً فى سياق نص مرسوم منحوت على لوح من الحجر الرملى أقيم فى **الكرنك**، أمام الواجهة الداخلية، للجدار الغربى من فناء الخبيئة. وللأسف فإن علامات الكتابة شديدة التشوه فى بعض أجزائها، كما مُحِىَ التاريخ فى جانبه الأكبر:

*ابن **رع**، سيد التجليات المجيدة، **سيتى مر إن بتاح**، له الحياة، الذى يحبه **أمون** أكثر من أى ملك آخر والذى من أجله يعيد الاخضرار[٣٧] إلى **مصر** وإلى **الصحراء**... وتأتى الأطعمة فى أعقابه، بعد أن اتحدت **رنن وتت**[٣٨] بجسده. لقد جعل **مصر** باقية مستقرة، بفضل منتجات الصيد البرى والصيد النهرى والغذاء... كما كان الحال (؟) فى السابق. والآلهة جمعاء راضية وتُسرف فى التهليل له. إن قلوبها سعيدة، وسواعدها محملة بالحياة والقوة... أنا صورة **أمون**، صاحب الاسم الخفى والكلمات التى صاغها قلبه، فى فمى[٣٩].*

يندرج هذا النص أيضًا فى إطار أيديولوچيا **رعمسيس** الثانى. فعند قراءة مدونات هذا العصر يخيَّل للمرء أن ذرية الملك العظيم قد أرادت الإبقاء على التراث المادىّ والروحى الذى تركه لهم. إنهم يؤكدون ذلك تأكيداً قاطعًا. ولكن يبدو بوضوح أنهم كانوا يفتقرون إلى الوسائل، أى مقدرة بلا منازع أو مماراة، وانعدام السلاح بلغة هذا الزمن.

ومع ذلك، فيبدو أن **سيتى** قد أراد معالجة المصاعب التى ألَّمت بالسلطة الداخلية.

وإذا كان **أمن مس**، الوزير المتحدِّر من **طيبة**، هو بالفعل الشخص الذى اغتصب العرش، فيبدو أن **الفرعون** قد استطاع أن يستخلص عبرة من هذه التجربة الرهيبة. إن الوزيرين اللذين وصلتنا معلومات عن وجودهما فى عهده، كانا على الأرجح من رجال **الشمال**. ويُدعى أحدهما **پا – رع – إم – حب** (أى *"رع فى عيد"*)، فربما كان الطفل قد وُلد فى **هليوپوليس** يوم أحد أعياد الإله. والآخر هو **حورى** كبير كهنة **پتاح** فى **منف** وحفيد **رمسيس** الثانى، عن طريق **خع إم واست**، فكان إذن ابن ابن عم **الفرعون**.

كما سبق أن أشرنا إلى الامتيازات التى استأثر بها **رومع – روى**، الحبر الأعظم فى **طيبة**، عندما أمر بنحت صورته الشخصية على أحد صروح المكان المقدس فى **الكرنك**. كان **رومع روى** الذى ظل يشغل منصبه منذ أواخر عهد **رمسيس** الثانى، قد أصبح طاعنًا فى السن. فقام **سيتى** الثانى بتعيين **محوحى** بدلاً منه، والذى كان، على ما يبدو، أحد خلصائه الأوفياء. وكان هذا الأخير يحمل لقب *"الكاتب الملكى الحقيقى"* أى أنه كان سكرتير الملك الخاص، وهو أمر شديد الندرة بالنسبة لكبار كهنة **أمون**. ومن ثَمَّ فقد كان من رجال البلاط، الملحق بخدمة العاهل الملكى.

هكذا يبدو أن **سيتى** قد أراد اختيار رجال ثقة مؤتمنين، لشغل أرقى مناصب **الدولة**. ولكنه فشل فى وقف الحراك الذى يرمى إلى جعل كبرى المناصب الكهنوتية وقفًا على عائلات بعينها. هكذا، نجد أن **پاحم نثر** أخو **حورى**، فى **منف**، قد خلفه من منصبه. إن تمثالاً ثنائيًا، من مقتنيات متحف **اللوفر** فى الوقت الراهن، يصورهما معًا، جنبٌ إلى جنب. وربما كان الخطر فى هذه الحالة محدودًا للغاية، بالنظر إلى أن كلا منهما كان ينتسب إلى عائلة **الرعامسة**.

ولكن فى **أبيدوس** على سبيل المثال، نجد أن الذى خلف **يويو** كبير كهنة **أوزيريس**، هو ابنه **ونن نفر** الذى كان جدُّه يحمل الاسم نفسه، ومن كبار رجال الدين أيضًا. وقد أُعدَّ منذ نعومة أظفاره ليشغل هذا المنصب، الذى كان حكرًا على العائلة

منذ عدة أجيال، وهو ما يوضحه نص منحوت على تمثال لهذا الشخص، يحتفظ به متحف **اللوفر**:

بدأ يخدم هذا الإله منذ أن كان صبيا فطنًا وقوى العزم ومزدهرًا، فى سحابة(*) كل يوم من الأيام، شأنه فى ذلك شأن طفل المستنقعات[٤٠](**) وكلما مرت الأيام، تعاظمت مدائحه[٤١].

كما أن **ونن نفر** كان أقوى من آبائه، بالنظر إلى أنه جمع بين يديه مختلف مناصب **أبيدوس**، فكان أيضًا كبير كهنة **إيزيس** وخادم **حورس**.

ورغم كل جهوده، لم يتمكّن **سيتى** الثانى إلا من أن يبطئ فقط من تسارع عملية تقويض السلطة الملكية، من خلال تعاظم المصالح الخاصة للمسئولين المحليين، ولكنه لم يتمكن من السيطرة على مجرى هذه الأحداث.

وظلت المشاكل الداخلية تتفاقم حتى نهاية الأسرة التاسعة عشرة، فاضطربت عمليات وراثة العرش وانتقال السلطة، وتدريجيًا سادت الفوضى وانتشرت.

ثالثًا: الانحدار الأول، رعمسيس - سى پتاح والملكة تاوسرت

كان **سيتى** الثانى قد تزوج سيدة تُدعى **تاوسرت** (أى «*القوية*»)، وجعلها «زوجته *العظيمة*»، ولكن لا يبدو أنها كانت من سلالة ملكية. كما لا نعرف أنه اختار وليًا للعهد ليخلفه، ولكن معرفتنا عن هذه العهود شحيحة، بسبب ندرة الآثار.

(*) أى معظم اليوم. (المترجم)

(**) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

وعند وفاة **سيتى** الثانى، حول عام ١٢٠٦، خلفه شاب يُدعى **رعمسيس – سى پتاح** (أى **رعمسيس – بن – پتاح**). ولفترة طويلة ساد الاعتقاد بوجود ملكين يدعى الأول **مر إن پتاح – سى پتاح** والثانى **رعمسيس – سى پتاح**، فإذا كان اسم **سى پتاح** مشتركًا بينهما، فإن الاسم **نيسو بيتى** أى اسم **ملك مصر العليا ومصر السفلى** داخل الخرطوش مختلف. وتبدو إعادة صياغة هذا التاريخ مهمة صعبة أحيانًا، ولكن توصل العلماء أخيرًا أن المقصود بهذين الاسمين **فرعون** واحد، كان قد غير اسمه بصفته **ملك مصر العليا ومصر السفلى**[٤٢]. تُرى من كان؟ لم تكن أمه زوجة ملكية عظيمة. وربما كان ابنًا أنجبه **مر إن پتاح**، بعد أن أصبح طاعنًا فى السن، من إحدى المحظيات، فكان أخًا صغيرًا غير شقيق للملك **سيتى** الثانى؟ أو ربما كان ابن **سيتى** الثانى من إحدى المحظيات؟ أو أيضًا ابن **آمن مس**، فكان مغتصبًا آخر للعرش؟

والأمر اللافت للانتباه أن الموكب الاحتفالى لتماثيل ملوك أجداد **رعمسيس** الثالث، كما تصوره نقوش معبده الجنائزى فى **مدينة هابو**، يشير فقط بعد **مر إن پتاح** إلى **سيتى** الثانى و**ست نخت**[٤٣]. فقد استُبعد عن قصد **آمن مس** و**رعمسيس – سى پتاح** والملكة **تاوسرت** التى اتخذت لنفسها الألقاب الملكية.

وبالفعل فقد استأثرت هذه الأخيرة على جانب كبير من السلطة، بمساعدة حامل الأختام **باى**، رجلها الموثوق فيه، وربما كان يعود إلى أصول سورية. ومن المحتمل أنهما قد أجلسا **رعمسيس – سى پتاح** على العرش، عند وفاة **سيتى** الثانى وأن **تاوسرت**، أرملة الملك الراحل، قد تزوجت الصبى الملكى. وإذا كانت المومياء التى دُثِّرت، على ما يبدو على عجل فى أكفانها، وسُجيت فى تابوت حجرى يحمل اسم **رعمسيس – سى پتاح**، فى مقبرة **أمنحوتپ** الثانى[٤٤](*) فى **وادى الملوك**، هى حقًا مومياؤه، فيمكن القول إنه كان فى ريعان الشباب عند وفاته. وسواء، أكان ابن **سيتى** الثانى أو **آمن مس** من إحدى المحظيات، فقد يفسِّر ذلك، على ما يُظن، اهتمام حامل الأختام **باى** به. وعلى كل حال، فإن زواج **تاوسرت** به قد خوَّله بعض الشرعية.

(*) وهى المقبرة رقم ٣٥. (المترجم)

فهل كان فى بداية الأمر واجهة صامتة، تسترت وراءها طموحات **تاوسرت وباى**؟ ويتضح من العديد من الوقائع أنهما كانا ضالعين فيما فعلاه؛ فقد أمر كلاهما بحفر مقبرتهما فى **وادى الملوك**، وهو امتياز، كان حتى هذه اللحظة حكراً على **الفرعون** وحده دون سواه. كما أمرت **تاوسرت** بأن تصور على جدران مقبرتها فى صحبة زوجيها الملكين المتعاقبين: **سيتى** الثانى و**رعمسيس – سى پتاح**.

لم يكن من المستغرب أن ينال كل ذلك من سلطة **الفرعون** ومن هيبة **مصر**، وإن ظل النظام يجاهر بعقيدة **رعمسيس** الثانى الإمبراطورية.

هكذا، فعلى لوح صخرى وضعه نائب الملك فى بلاد **الجنوب** فى الشرفة الشمالية، من المعبد الكبير فى **أبو سمبل**، نشاهد **رعمسيس – سى پتاح** يتعبد للآلهة **أمون** و**موت** و**رع** و**ست** و**عشتروت**، عملاً بتقاليد **الرعامسة** الحقيقية.

ويبدو أن **رعمسيس – سى پتاح** قد اهتم منذ أن اعتلى العرش بحكومة **النوبة**. هل كان هناك تمرد استغلَّ الأحداث المضطربة التى شهدتها **مصر**؟ الأمر شديد الاحتمال ويتفق مع العادات الإفريقية. أو كانت وسيلة لإبعاد الملك الشاب عن البلاط الملكى، ولو بصفة مؤقتة، ليخلو الجو لطموحات **تاوسرت وباى**؟

وعلى كل حال، فمنذ العام الأول من عهده، سافر العاهل الملكى إلى **النوبة** وصولاً إلى **أبوسمبل**، لإقامة نائب الملك الجديد **سيتى** فى منصبه، فكانت ذريعة رسمية. وتحتفظ مخربشتان بمعلومات عن هذه الرحلة:

* الأولى فى **أبوسمبل** على جدار السور الصغير الممتد، أو الذى كان يمتد من قاعدة التمثال الملكى العملاق الجنوبى إلى الصخرة التى نُحت فيها المعبد الكبير.

*"فلتُرفع المدائح إلى **أمون**، ليُعطىَ الحياة والصحة والازدهار إلى **كا** الموفد الملكى إلى كل البلدان الأجنبية، إنه ساقا **سيد القطرين**، الذى يملأ قلب **الحورس** فى قصره، إنه الأول بين قادة مركبات **صاحب الجلالة**... عندما جاء **صاحب الجلالة** ليقيم*

الابن الملكى ***سيتى*** *فى منصبه فى* ***كوش****، فى العام الأول* (من عهد) ***سيد القطرين****،* ***رعمسيس*** *ـ* ***سى پتاح***[٤٥].

* والمخربشة الثانية فى **وادى حلفا**:

العام الأول، (من عهد) *الإله الكامل،* ***رعمسيس - سى پتاح****، فلترفع المدائح إلى* ***حورس بوهن****، ليُعطىَ الحياة والصحة والازدهار والفاعلية والمدائح والحب إلى* ***كا*** *الموفد الملكى إلى كل البلدان الأجنبية، وخادم الإله - القمر، الكاتب* ***نفرحور*** *بن* ***نفرحور****، التابع لدائرة محفوظات* ***الفرعون****، بعد أن حضر وتلقى الشكر والحمد من زعماء* ***النوبة****، فى صحبة* ***سيتى*** *نائب الملك فى* ***كوش****، إبان حملته الأولى المظفَّرة*[٤٦].

أتريد عبارة حملة مظفَّرة التأكيد على وجود تمرد، المطلوب قمعه؟ أم كانت مجرد تعبير شكلى؟ ويبدو أن الافتراض الأول هو الأقرب إلى الصواب، إذ دأب السودانيون فى الغالب على استغلال لحظة انتقال السلطة من ملك إلى آخر، لشق عصا الطاعة. ولكن لا توجد بين أيدينا معلومات أخرى حول هذا الموضوع.

ولكن عاد الهدوء على كل حال إلى سابق عهده، فى العام الثالث. إن مدونتين منحوتتين فى معبد **وادى حلفا** تشيران إلى خضوع زعماء بلاد **كوش**:

* *فى العام الثالث، من عهد* ***صاحب الجلالة*** *ملك* ***مصر العليا ومصر السفلى****:* ***آخ إن رع - ستپ إن رع****،* (أى هذا الذى يفيد **رع**، المصطفى من **رع**)، *ابن رع:* ***«مر إن پتاح» - سى پتاح****.* حضر حامل المروحة عن يمين الملك، (حضر) *الكاتب الملكى، المشرف العام على الخزينة، الكاتب الملكى فى دائرة محفوظات* ***الفرعون****، المشرف العام فى معبد* ***آمون****،* (حضر) ***پى آى****، للحصول على الأشياء المفيدة لبلاد* ***كوش****.*

* *في العام الثالث... أُعدَّ من قبل كبير قادة مركبات **صاحب الجلالة**، الموفد الملكي إلى كل بلد أجنبي، (الذي حضر) لإقامة كبار الزعماء على عروشهم وإنجاز المقاصد التي «على قلب» **الفرعون**، إنه **حوري** بن **كاوا*** (٤٧).

هكذا حضر موفدون استثنائيون من **القصر** الملكي، ليقوم بعضهم بجباية الجزية والآخرون ليدعموا الزعماء الذين ظلوا على ولائهم **لمصر** في مناصبهم. كما أن هذا الشخص نفسه، المسمَّى **حورس بن كاوا**، قد خلف **سيتي** في منصب نائب الملك فيما بين السنتين الثالثة والسادسة من عهد الملك.

ومع ذلك فقد ظلت ذُرِّية **الرعامسة** الشرعية مؤثرة. هكذا، فإن **حوري** ابن كبير كهنة **بتاح**، الذي يحمل الاسم نفسه، ومن ثم فهو ابن حفيد **رعمسيس** الثاني، عُيِّن وزيراً وعمدة **طيبة**. كان **حوري** من رجالات **منف**، ولما كان يقوم بواجبات منصبه فقد قام بعدد من الزيارات إلى **مدينة الجنوب**، يرافقه موظفون من **منف**، وتحديداً، في العام الرابع. وقد ورد اسمه بكثرة في الأوستراكا التي عثر عليها في **وادي الملوك**.

إن تاريخ **مصر** في هذه الفترة سلسلة من البقع المظلمة والمضيئة في نظر الباحث. فمصادرنا شحيحة وتعكس حالة الفوضى التي عمّت البلاد، فتضاءلت أهمية أعمال الحرفيين إلى حد كبير.

وتبدو لنا ملامح بعض الشخصيات شاحبة في أغلب الأحوال. إن شخصاً آخر ويُدعى أيضاً **حوري**، كان كبير كهنة **أمون**، ورغم منصبه الرفيع فإننا لا نعرفه سوى من خلال مدونة منحوتة على قاعدة تمثال ابنه **كانخت**، قائد سلاح المركبات وسلاح حَمَلة الأقواس، يعلن فيها عن بنوته. ونذكر شخصاً آخر كان كبير كهنة **أمون** يُدعى **مين مس**، نعرفه من خلال تمثال يصوِّره ممسكاً بلوح حجري رافعاً ترنيمة إلى **رع**:

*إنك تُغرب يوميًا، فى أفق **مانو**[٤٨](*). **والنجوم** التى لا تكل تُغدق عليك التهليل، والنجوم التى لا تفنى تتعبَّد لك. ليتك تتيح لى أن أرتوى من مياه النهر، من أجل «**كا**» **مين مس**[٤٩].*

وإذا لاحظنا قصر النص وغياب الألقاب، لا سيما بالنسبة لشخص رفيع الشأن مثله - فلم يرد لقبه بصفته كبير الكهنة إلا على حافة اللوح الحجرى - لاستخلصنا مدى الفقر الذى وصل إليه مجتمع هذا العصر واستشعرنا وجود مشاكل داخلية خطيرة.

كما نعرف أيضًا **إيروى**، كبير كهنة **پتاح**، والذى يعتقد أنه خلف **حورى**، ولكننا نجهل الظروف التى أحاطت بشغله هذا المنصب، وأيضًا موطنه الأصلى.

ولكن منصب كبير كهنة **أبيدوس** وحده، ظلَّ على ما يبدو تحتكره على الدوام العائلة نفسها. إن **سا-است** (أى «*ابن **إيزيس***»)، «*هو الذى يملأ قلب **سيد القطرين** ويملأ أذنيه بأفعال عادلة وخطابات لن يُنتقص منها شىء*[٥٠]». إنه ابن **يويو** وأخو **ونن نفر** اللذين خلفهما دون مشاكل.

ولا نعرف كيف انتهت سنوات حكم **رعمسيس - سى پتاح**. ولكن حدث بعد وفاته أن اتخذت **تاوسرت** لنفسها قائمة الألقاب الملكية(**) وحكمت البلاد لعدد من السنوات، وظل **باى** السورى، معاونًا لها.

وتفاقمت الأخطار فى ربوع الإمبراطورية، وفى طول العالم الشرقى وعرضه. كانت **شعوب البحر** - كثيرة العدد والأفضل تنظيمًا - قد استقرت فى **ليبيا وبلاد كنعان**(***)، لتشكل تهديدًا مباشرًا على **مصر** ذاتها من الغرب ومن الشرق، تصاحبها قوات أرضية وبحرية مرهوبة الجانب.

(*) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

(**) وأهمها **سات - رع** (أى «*ابنة رع*») و**مر إن موت** (أى «محبوبة **موت**»). (المترجم)

(***) أى **فلسطين**. (المترجم)

رابعاً: ست نخت والآلهة ينقذون مصر

أما عن الحياة ذاتها فى **مصر** فلم تصلنا وثيقة واحدة، ولا يوجد تحت تصرفنا سوى النص الذى دونه **رمسيس** الثالث بعد أن تربع على العرش، ليُصوِّر أبعاد الفوضى التى كانت قد ضربت أطنابها فى **مصر** قبل أن يتبوأ والده عرش **القطرين**:

*هذا البلد **مصر** كان قد تُرك وشأنه مرفوضًا، وكان هذا حال كل إنسان أيضًا. إن **قمًا** أسمى لم يعد له وجود منذ سنوات مديدة مضت وللأزمنة الآتية. كانت **مصر** (بين أيدى) وجهاء البلد وزعماء المدن. وكل امرئٍ كان يقتل نظيره، كبيرًا كان أو صغيرًا. وحلت أزمنة أخرى، فكانت سنوات خاوية، أصبح خلالها سوريٌّ[٥١](*) يدعى **يارسو** زعيمًا على رجال **مصر**. وأمر البلاد قاطبة بأن تقدِّم له الهدايا. وجمع بعد ذلك أتباعه لينهب الممتلكات ويسلبها. وحوَّلوا الآلهة إلى مجرد بشر. ولم يعد أحد يقدم القرابين فى معابد المدن.*

*ولكن الآلهة قوَّضت هذا الوضع ونشرت السلام، لإعادة النظام إلى البلاد، وفقًا لعادتها المألوفة. وأقامت ابنها الذى من صلبها، ليصبح ملك البلاد قاطبة على عرشها العظيم، إنه **أوسر خع رع – ستپ إن رع**(**)، **ابن رع: ست نخت**(***). محبوب **رع** ومحبوب **آمون**. إنه مثل **خپرى**[٥٢](****) (ولكنه مثل) **ست** أيضًا، عندما تثور ثائرته. وأعاد النظام إلى البلاد التى كانت قد عمَّتها الثورة وقتل الرجال من أصحاب القلب المخادع [**باى**؟] الذين أقاموا فى **البلد** المحبوب. وطهَّر عرش **مصر** العظيم، وأصبح ملك **القطرين** على عرش **أتوم**. وقوَّم الوجوه التى كانت مقلوبة، وتعرَّف كل امرئٍ على*

(*) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

(**) أى «*قدير هو تجلى رع، المصطفى من رع*». (المؤلفة)

(***) أى «*ست قوى*». (المؤلفة)

(****) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

*أخيه الذى كان مسجونًا حتى الآن. ورمَّم معابد المدن، وزخرت من جديد بالقرابين التى قُدِّمت **للتاسوع**، كما هى العادة.*

*واختارنى لأكون أميرًا على عرش **جب**. وأصبحت **الفم** الأسمى للأراضى المصرية، وقائد أركان البلاد قاطبة، وقد تجمَّعت فى كل واحد*(٥٣).

أكانت هناك نزاعات داخلية؟ أم ثورة؟ أم صراع محتمل ضد الحزب السورى الذى اغتصب العرش على حساب السلالة الملكية الشرعية؟ وكل ما نعرفه أن **ست نخت**، بعد أن أقدم على بعض المذابح واغتيال ***باى***(؟)، استعاد النظام وعادت **مصر** إلى حياتها المعتادة بعد أن استردت السلام.

ويُنظر إليه إذن باعتباره مؤسس أسرة ملكية جديدة، هى الأسرة العشرون. وربما كان ينتمى إلى ذرية **رعمسيس** الثانى، كثيرة العدد، وهو ما قد يشير إليه نقش **مدينة هابو** الذى ذكرناه من قبل. وشأنه شأن سلفه المجيد، أبدى قدرة كبيرة على العمل وحبًا مماثلاً للوطن.

إن نصًا آخر، يشير أيضًا إلى معارك ضارية، ويلقى بعض الضوء على عصر الفوضى هذا، وإن كان ضوءًا خافتًا. إنه منحوت على لوح حجرى عُثر عليه فى **إلفنتين**:

فليحىَ جلالة

***الحورس** : الثور القوى، صاحب البسالة العظيمة.*

***السيدتان** : صاحب التجليات الجملية، مثل (تجليات) **تاتنن**.*

***حورس الذهبى** : القوة القديرة التى تصد المتمردين.*

***ملك مصر العليا ومصر السفلى** : **رب القطرين، أوسر خعو رع – ستب إن رع**.*

***ابن رع** : سيد التجليات المجيدة، **ست نخت** (محبوب **رع** ومحبوب **آمون**).*

محبوب **أمون – رع**، ملك الآلهة، الذى خلق **رع** هيئته وجعلها شبهه، كما أن اسمه هو صورة **أتوم**، وجسده صورة **التاسوع العظيم**. ويسعد الجميع من مقاصده، الشبيهة بمقاصد **عين رع**. والآن لم يعد هذا البلد خربًا، وابتعد البلد المحبوب عن المآسى. إن قلب **الإله** سعيد... فقد اختارت يده **صاحب الجلالة**، القائم على رأس ملايين (السنين؟)، بينما يُهمل مئات الآلاف السابقة. كل البلاد تلتزم بمقاصده التى تهب الازدهار إلى الحزانى، كما يفعل **رع**...

كان **صاحب الجلالة** مثل أبيه **سوتخ** باسطًا ساعديه لينتزع **مصر** من الذى استأثر بها، إذ تطوقها قدرته بحماية سحرية. عندئذ، كان الأعداء أمامه، واستولى على قلوبهم الخوف الذى كان يثيره، فلاذوا بالفرار وكانوا أسرع من الفرافير(*)، بينما كانت هيبة الصقر تلاحقهم[٥٤](**). وتركوا هناك الذهب والفضة اللذين يخصان **مصر**، والتى أعطيت لهم من قبل هؤلاء **الأسيويين**، حتى تقترب منهم الانتصارات التى قد تضمن السيطرة على **البلد المحبوب**[٥٥](***). ولكن فشلت خططهم وكانت وعودهم بلا غد. فقد أشرق آنذاك كل إله وكل إلهة، وصنع (كل واحد منها) الأعاجيب، من أجل الإله الكامل، وتنبأوا له أنه سيُقدم على مذبحة هائلة، لأن الآلهة كانت قد قرَّرت أن ينتشر النور من جديد (على **مصر**).

وفى اليوم العاشر، من الشهر الثانى، من فصل الجفاف، من العام الثانى، كان المتمردون على **صاحب الجلالة** فى كل بلد من البلدان قد قُضِى عليهم. وأصبح من الممكن أن يُقال لصاحب الجلالة: يا سيد هذه الأرض، إن قلبك سعيد لأن نبوءة الآلهة ضد أعدائك قد تحققت، فلم يعد لهم وجود، من الآن فى هذا البلد، ولا وجود أيضًا لقوة سلاحَىْ المشاة والمركبات الحربية عدا سلاحَىْ أبيك[٥٦]. وأعيد فتح كافة المعابد، ومن جديد أصبح فى الإمكان الدخول إلى المخازن الإلهية لزيادة (مؤنها)[٥٧].

إن الجزء الأخير من النص، وهو سطر واحد، قد أصابه تشويه بالغ.

(*) العصافير الصغيرة. (المترجم)

(**) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

(***) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

يشير هذا النص إذن إلى معارك يُفترض أنها احتدمت فى **مصر** ذاتها واستطاعت الآلهة و**ست نخت** أن يضعوا لها نهاية موفقة. فإما أن يكون هؤلاء الأعداء يعملون لحساب **الأسيويين** مقابل رشوة، أو أن يكونوا من **الأسيويين** ذاتهم. وإذا أخذنا بالافتراض الأول فربما كان المقصود محاولة قام بها حامل الأختام **باى** للاستيلاء على السلطة، «*فاشترى*» بعض الأتباع وربما قسماً من الجيش، وبطبيعة الحال فقد تصدى لهذه الحركة عدد كبير من المصريين ولا سيما الأمراء من نسل **رعمسيس** الذين سبق أن رأينا أنهم كانوا يشغلون مناصب مرموقة. ولكن قد نذهب إلى الظن أننا أمام محاولة الغزو الأولى، التى قامت بها **شعوب البحر** القادمة من **بلاد كنعان**، مستغلة حالة الفوضى التى عمَّت **مصر** أنذاك، سعياً منهم، إلى الاستقرار فيها، وهو ما قد يعلِّل الإشارة إلى سلاحَىْ المركبات والمشاة الأجنبيين. كما يفسِّر قيام حملة آسيوية فى العام الثامن من عهد **رعمسيس** الثالث - وهو ابن **ست نخت** وخليفته. ولكن، لمَ لم يذكر أى اسمٍ من أسماء الشعب الغازى، وهو ما كان يحدث دائماً؟

ومرة أخرى، فإننا نأمل أن تخرج وثائق أخرى إلى النور، حتى نتمكن من استجلاء الأمر.

كانت سنتان كافيتين على ما يبدو، ليتمكن **ست نخت** القوى الشكيمة من سحق الثورة أو الغزو، وإعادة النظام الملكى إلى **مصر**، وما يعنيه من استقرار وازدهار. يا لغرابة الأمر، إذا قارنَّا هاتين السنتين مع السنتين، اللتين استغرقتهما مدة حكم **رعمسيس** الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة.

كانت ثمرة زواج **ست نخت** من الملكة **تيى - مرى أست**(*) ابنًا يُدعى **رعمسيس**، وقد اختاره ليرث عرشه، ليكون آخر أبطال **مصر**، فاستطاع وحده أن يحميها وينقذها من كل الغزوات، بينما غرقت **الدول** العريقة فى **الشرق القديم**، الواحدة تلو الأخرى، وسط أمواج متلاطمة لبحر من الاضطرابات.

(*) أى **تيى** محبوبة **إيزيس**. (المؤلفة)

خامساً: رعمسيس الثالث، أو آخر الأمجاد

حول العام ١١٩٨ق.م، استهلَّ **رعمسيس** الثالث عهداً جديداً، دام إحدى وثلاثين سنة.

حورس *: الثور القوى، صاحب المُلك المجيد،*

السيدتان *: (الملك) صاحب أعياد اليوبيل المهيب مثل* ***تاتان،***

حورس الذهبى *: الغنى بسنواته مثل* ***أتوم،*** *الملك الذى يحمى* **مصر** *ويربط البلدان الأجنبية.*

ملك مصر العليا ومصر السفلى *:* ***أوسر ماعت رع*** *(أى «قوية هى عدالة* ***رع***»)، محبوب ***أمون،***

ابن رع *:* ***رعمسيس،*** *حاكم* ***هليوبوليس***(*).

عند وفاة **ست نخت**، وقبل أن يقوم **رعمسيس** الثالث بأى نشاط سياسى، أخذ على عاتقه إنجاز واجباته بوصفه ابنًا بارا، على غرار ما فعله **رعمسيس** الثانى مع أبيه **سيتى**. فمن جديد تُقلع السفينة الملكية، حاملةً جسد الملك المتوفى المحنط فى صحبة **رعمسيس** ووجهاء الدولة وكبرائها، متجهةً إلى **طيبة**، حيث سيرقد **ست نخت** المخلِّص، فى مقبرته القائمة فى **الغرب**:

(*) **رع مس سو حقا إيون**. بالمصرية القديمة. (المترجم)

*ذهب (أبى) ليرقد فى **أفقه** مثل آلهة **التاسوع**. وأعدَّ له ما كان قد أُعدَّ من أجل **أوزيريس**. ثم نقل على متن سفينته الملكية على صفحة النهر، ليرقد فى قصره، القصر الأبدى، فى غرب **طيبة**(٥٨).*

الملك المصطفى من الآلهة

ويبدو أن تتويج الملك الجديد، قد تم فيما بعد مباشرة، فى مدينة **طيبة**. وإذ أراد **رعمسيس** الثالث تأكيد التقليد المتواتر، كما فعل **تحوتمس** الثالث فى وقت سابق، فقد أعلن أن اختياره اختيار إلهى، وكما كان الحال بالنسبة للملك **حور إم حب**، أقيم الاحتفال وسط ابتهاج وأفراح الآلهة والبشر:

*إن أبى **آمون – رع**، سيد الآلهة و **رع – آتوم** و **پتاح – صاحب – الوجه الجميل**(*)، قد أظهرونى بصفتى **سيد القطرين**، على عرش من أنجبنى. وتسلَّمت منصب أبى، وسط التهليل. كانت البلاد قد استعادت السلام وكانت مغتبطة، سعيدة لرؤية ملك **القطرين**، كما كان **حورس** على عرش **أوزيريس**. وظهرتُ إذن بالتاج **أتف** واضعًا الصلَّ، كما وضعتُ أيضًا التاج ذا الريشتين مثل **تاتان**. وجلستُ على عرش **حور أختى**، مزدانًا بالحلىِّ (الملكية) مثل **آتوم**(٥٩).*

بعد انتصارات كبرى الحروب، فى العام ١٢ من عهده، سوف يعيد **رعمسيس** الثالث إلى الأذهان أن الآلهة قد سبق لها أن اختارته ووضعت السلطة بين يديه، وذلك فى نص منحوت على لوح حجرى مقام فى **مدينة هابو**. ويوجِّه الملك كلامه إلى رجال البلاط المجتمعين قائلاً:

(*) يمكن التعرف هنا على ثالوث **الرعامسة** المقدس. (المؤلفة)

*كنت ملكًا منذ طفولتى كأحد مخلوقات **الله**، وجلست فى سلام على العرش. لقد اختارنى [**آمون – رع**]. لقد وجدنى وسط مئات الآلاف، وقام بترقيتى شخصيًا إلى **سيد الجنوب والشمال**. لم استأثر بشىء بالعنف، لم أستولِ على منصبى بالغش والتدليس[10](*) ولكن ثُبِّت التاج على رأسى بقلب حنون. لقد سبق أن أبلغت أننى سوف أصبح ملكًا على **مصر**. كانت الآلهة والإلهات مغتبطة مبتهجة، عندما تسلمتُ حُلىَّ **السيلين والسيليتين**[61]، بينما كانت يداى تحملان السوط(**) والصولجان **حقا** والصولجان **أمس**[62](***).*

وإبان كبرى الاحتفالات والأعياد جميعها، وتحديداً عيد **أوبت**، سنجد أن الملك، وفاءً منه، يعلن أنه يطيع الإله **آمون** ويعترف بجميله:

*إن قلبى يلتزم بنصائحك، على مرِّ الأيام، منذ أن وقع علىَّ الاختيار من بين مئات الآلاف لأكون ملكًا وحاكم **الشاطئين**. لقد وجدتنى منذ أن كنت رضيعًا، ثم أُقمت على عرشك وتربعت عليه[63].*

هذا الورع نحو إله التتويج والانتصارات يفسِّر الهبات النفيسة والبالغة الثراء التي يقدمها **الفرعون** لمعبد الإله فى **طيبة**.

(*) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

(**) **نخخو** بالمصرية القديمة. من حقنا عقد مقارنة بين هذا اللفظ ولفظ العامية **نَغْ**. (المترجم)

(***) وهى المقومات التقليدية للعاهل الملكى فى جلاله. (المؤلفة)

كانت الأوضاع الخارجية بالغة الخطورة. ففى **ليبيا** كانت **شعوب البحر**، منذ الهزيمة التى تكبدوها على يدىْ **مر إن بتاح**، قد شرعت تنظِّم نفسها وتتغلغل فى **الدلتا**. و**الخاتى** فى الشمال، ورغم ما بذله **سوبيلوليوما** الثانى من جهود بطولية، كان يحتضر بعد أن تم اكتساحه، ليختفى بعد فترة وجيزة من على خريطة **الشرق الأدنى**. فانتشر الغزاة فى اتجاه الجنوب، فى **كيليكية**(*) وفى **النهارينا** وبلاد **الأمورو**. إن موانئ فينيقية كبيرة مثل **أوجاريت**، كانت قد دُمِّرت وأُحرقت، وسقطت **قبرص** بين أيديهم. وبالتدريج انتشرت فى **أرض كنعان** هذه الشعوب **الهندوأوروبية**. فبعد أن حطَّت الرحال فى الإمبراطورية المصرية الشاسعة فى **آسيا**، باتت تهدد الآن مباشرة الوطن الأم ذاته. وضد هؤلاء المحاربين فى البحر والبرِّ، كان مقدراً للفرعون **رعمسيس** الثالث أن يتصدَّى لهم ويقاومهم مقاومة شرسة، ولن يبقى من العالم القديم سوى **مصر**.

والمصادر التى تحت أيدينا لمعرفة هذه الصراعات غزيرة إلى حد كبير. وبالفعل، فقد أمر **رعمسيس** الثالث بنحت النقوش والنصوص التى تروى فى تتابع زمنى تقريبى الحروب التى اضطر إلى خوضها ضد **شعوب البحر**، على جدران معبده الجنائزى فى **مدينة هابو**(**)، على البر الغربى من مدينة **طيبة**. إن **مدينة هابو** سِفْر ضخم لتاريخ متحجِّر. إنها مصدر سعادة لا مثيل لها، فى نظر علماء فقه اللغة والمؤرخين فى العصور الحديثة الذين يحاولون من خلال تسلسل النصوص والصور، أن يصلوا إلى حقيقة التتابع الزمنى لأهم الحروب ووقائعها كما جرت فى واقع الأمر، منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، لتصبح الرحم الذى نشأ منه عدد من الدول الحديثة.

(*) فى جنوب شرقى **الأناضول**، فى **تركيا**، على **البحر المتوسط**. (المترجم)

(**) جنوب البر الغربى، وإلى الغرب من تمثالى **ممنون**. (المترجم)

إن الأسلوب الملحمى الذى كان أسلوب مدونات **رعمسيس** الثانى، هو السائد فى هذه الروايات. هكذا ظهرت إلى الوجود قصائد جديدة تروى أيام المصريين(*) البطولية. وإذ كانت القيمة السحرية للكلمات تؤدى إلى ما يبدو أحيانًا، فى نظر العقل الحديث، مبالغة طنَّانة أو ما يشبه «الدعاية» الملكية، إنما كان فى نظر مصريى العصور القديمة وسيلة لجعل قوة **مصر** وانتصاراتها تعيش إلى الأبد، بفضل قيمة **الكلمة** الخلاقة. كما تنتشر فى هذه النصوص صور رائعة الجمال، معبِّرة أحيانًا عن شاعرية غنائية مهيبة أو عن قريضٍ(**) يأخذ القلوب.

الاشتباكات العسكرية فى السودان

وإذ أخذ **رعمسيس** بتكتيك الفراعنة التقليدى، فقد أراد تأمين حدوده الجنوبية. فقام قبل العام الخامس من عهده بشن حملة عسكرية خاطفة على **السودان**. ولم يكن الأمر، على ما يبدو، مجرد استعراض للقوة بل حربًا حقيقية. ثم عاد الملك إلى **طيبة**، وكرَّس للإله **آمون** وللإلهة **مُوت**، ثلاثة صفوف من الأسرى السودانيين:

*وقال زعماء **كوش** البلد الخسيس: «تحية لك، **يا ملك مصر وشمس الأقواس التسعة**، امنحنا نسمات الحياة التى تهبنا إياها فى المعتاد، عندئذ سوف نخدم صِلَّيك(٦٤)».*

وإذ ضمن هدوءًا ولو وقتيًا، فى **الجنوب**، فسوف يغادر **رعمسيس طيبة** ليذهب إلى **ليبيا** التى وصلته منها أخبار تنذر بالخطر.

(*) كقولنا **أيام العرب** بمعنى حروبها ووقائعها. (المترجم)

(**) أى شِعر. المعجم الوسيط. (المترجم)

وصعد **رعمسيس** وجيشه فى اتجاه **الدلتا**، تسبقهما بيارق **واپ واوات**(*) و**خونسو** و**موت** و**آمون**. لأن إله **طيبة** هو الذى يرسلهم ويرشدهم:

*تقدّم **صاحب الجلالة** بقلب مقتدر وبقوة وبانتصار، (تقدّم) ضد البلد الخسيس، بلد **التيمحو** الذى تحت سلطان **صاحب الجلالة**. إن أباه [**آمون**] هو الذى يرسله فى سلام انطلاقًا من قصره فى **طيبة** والذى يُسلمه حسامه ليطرد المتمردين ويقضى على أولئك الذين أصبحوا لا يقيمون على مائه، فاتحًا من أجله الدروب التى لم تطأها من قبل أقدام أحد*(٦٥).

وتتطلع الأيديولوچيا الإمبراطورية لتكون كل البلدان المحيطة خاضعة لسلطان **مصر**.

إن الملك على متن مركبته التى يجرها فَرَسان. اسم الأول: «*النصر - فى - **طيبة***»، وهو الاسم نفسه الذى كان يطلق على أحد الفرسين المصاحبين للملك **رعمسيس** الثانى فى **قادش**. أما الآخر، فاسمه «***بعل** - على ساعده*»، دليلاً على استمرارية النزعة إلى اعتبار الإنسانية أُسرة واحدة(**) التى تسعى إليها المعتقدات الدينية. وفجأة،

*جاء من يقول **لصاحب الجلالة**: «**التمحو** قادمون، لقد تآمروا ويُشكّلون الآن كلا موحدًا بلا حدود، ويضمون **الليبو**(***) و**السبيد** و**الماشواش**(****). والبُلدان المجتمعة*

(*) الإله المحارب «**فاتح الدروب**». (المؤلفة)

(**) أو قرية واحدة، برطانة العولمة فى العصر الحديث. (المترجم)

(***) شعب من **آسيا الصغرى** وقد أعطى اسمه لهذا البلد. (المؤلفة)

(****) شعب تعود أصوله إلى البربر، وقد استقر فى المناطق الغربية منذ الأسرة الثامنة عشرة.(المؤلفة)

تنقض انقضاضًا شرسًا على **البلد** المحبوب». عندئذ، اقترب **صاحب الجلالة** من أفق سيد الكون(*) طالبًا منه القوة والبسالة والقدرة. وقام أبوه **أمون**، سيد الآلهة، بإعادة الاخضرار إليه(**) وقوة يده كانت مع يده، لتحطيم بلد **التمحو** الذى انتهك حرمة حدوده. ومع ذلك كان **مونتو** **وست** يؤمِّنان الحماية السحرية، عن يساره وعن يمينه. وكان **واپ واوات** أمامه يشق الدروب. وجعلت (الآلهة) قدرته عظيمة وقلبه قويًا للإجهاز على البلدان المتبجِّحة(٦٦).

انطلق **رعمسيس** إلى المعركة وانقض على الأعداء وأجهز عليهم بسهامه وبنار حيَّة الصِّلِّ(***).

لقد توغل وسط مئات الآلاف، إنه الجسور، وعندما يبسط ساعده، فإنه يسدِّد سهمه فى المكان الذى يودُّ (إصابته). إنه الثور المقاتل، صاحب القلب الثابت، والقرنين الحادَّين، الذى يُهلك كل بلد من البلدان. لقد أُجهز على **التمحو** فذُبحوا فى مكانهم، إنهم ممدَّدون على الأرض أكوامًا أكوامًا، أمام جياده. لقد وَضع حدا لتبجحاتهم فى بلدهم، وبدَّد ساعدَه بذورَهم، بفضل قدرة أبيه **أمون** الذى أعطاه كل الأراضى مجتمعة(٦٧).

ونازلهم **صاحب الجلالة** وكان أشبه باللهب الذى يُعثر عليه مزمجرًا فى الأجمات... وصاروا عندئذ مثل العصافير التى وقعت فى فخ الشباك. وضُربوا داخل هذه المصايد وتحولوا إلى رماد بعد أن أُجهز عليهم وأُلقى بهم على الأرض، رأسًا لقدمين(****)، (غارقين) فى دمائهم. كانت هزيمتهم فادحة بلا حدود. أجل، إن

(*) أى معبده. (المؤلفة)

(**) أى منحه طاقة متجددة على الدوام. (المؤلفة)

(***) حيَّة الصِّلِّ هى ابنة **رع**، فتشارك أباها طبيعته النارية. (المؤلفة)

(****) أى رأس أحدهما من الجهة التى تكون فيها رِجلا الآخر. المنجد فى اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، لبنان، ط٢، ٢٠٠١، ص٥٢٢. (المترجم)

مأساتهم فى مثل ارتفاع السماء، وجموعهم الغفيرة مطروحة أرضًا فى مكان المذبحة ذاتها، وتشكُّل جثثهم أهرامًا على الأرض، بسبب قدرة الملك الجسور، لأنه ينفرد وحده بالقوة، مثل ***مونتو***(٦٨).

انتهت المعركة نهاية سعيدة. ولكن هل كان من الممكن أن تكون النتيجة غير ذلك، **فالإله** كان يقف إلى جانب **مصر** ويساعدها:

لقد انقلبت خططهم (أى الأعداء) رأسًا على عقب، فدُمّروا وسقطوا بفضل مشيئة ***الإله****. فبفمهم كانوا يبحثون بإلحاح عن زعيم (أدمى)، ولكن هذا الإله الخيِّر المنَّان، الذى يعرف مقاصدهم، لم يكن فى قلبهم. لأن هذا الإله، وهو سيد الآلهة، يعمل من أجل عظمة* ***مصر****، للزمن الأبدى*(٦٩).

وبعد أن تحقق النصر، مع أول صدام مع **شعوب البحر** - فى ظروف ما زلنا نجهل تفاصيلها، أخذ **رعمسيس** الثالث وهو يستريح جالسًا على متن مركبته، يتأمل ما تجمَّع من غنائم وأسرى رُبطت سواعدهم خلف ظهورهم وبُترت أعضاء الموتى المنتشرين على أرض المعركة. ولما كانت **مصر** أرض الكتبة، فقد تمَّ حصر أعداد كل هذه العناصر حصرًا دقيقًا. بعد أن وزعت بعناية فائقة على أكوام، بلغت الخمسة:

* جملة الأيدى: ١٢٦٥٩
* جملة الأيدى: ١٢٥٣٢
* جملة أعضاء الذكورة: ١٢٨٦٨
* جملة الأيدى: ١٥٥٣٥
* جملة أعضاء الذكورة ١٢٥٣٥(٧٠).

حقًا، لقد كان المصريون مولعين بالنظام والمقادير فى كل شىء!

أما **رعمسيس** الثالث، فقد عاد منتصراً إلى عاصمته محملاً بهذه الغنائم، يرافقه جنوده وضباطه، يتقدمه الأسرى الذين تمتد أعدادهم خلال أربعة صفوف طويلة، بل رُبط بعضهم بمركبة **الفرعون** ذاتها... يا له من انتصار **رومانى**(*) حق، عندما أخذ الأسرى المربوطون فى أصفادهم يسيرون أمام القصر الملكى:

*ومن بقوا على قيد الحياة، اقتيدوا أسرى إلى **مصر**، والأيدى وأعضاء الذكورة كانت بأعداد لا تحصى، ونقلت ضمن الغنائم. وشُدَّ وثاق الزعماء تحت نافذة الظهور الخاصة بالملك. وكان كبراء جميع البلدان الأجنبية مجتمعين هنا، يشاهدون وضعهم المزرى... فلن توجد فقرات **التمحو** أبداً (٧١)(**) للزمن اللانهائى. هكذا فلن تطأ أقدامهم بعد الآن حدود **مصر**... ويتحدثون عن البلد المحبوب قائلين «إنه البلد الذى كسر فقراتنا»، وقام **سيده** بتدمير **با**ءاتنا للزمن الأبدى واللانهائى(٧٢).*

ويقوم **رعمسيس** محاطاً بكبراء الدولة، بإلقاء خطاب:

*انظروا إلى هذه الأشياء الجميلة والشجاعة التى صنعتها. إن **أمون** - رع سيد الآلهة، الذى ينتمى إلى - صغيره - **الفرعون**، قد «**اقتاد**» بلد **التمحو** و**السيبد** و**الماشواش**، هؤلاء اللصوص الذين كانوا سيشيعون البؤس فى **مصر** على مدار الأيام. إنهم من الآن، أكوام تحت نَعْلَىَّ، أما جذورهم فقد اقتلعت. وبفضل عمل واحد، لم تعد أقدامهم تطأ أرض **مصر**، ويعود ذلك إلى الخطط الموفقة التى وضعها **جلالتى** فى مواجهتهم، حتى يسترد **البلد** المحبوب سعادته. فلترتفع الابتهاجات والأفراح من أجلك إلى عَنان السماء. أما أنا فقد ظهرتُ ممجداً مثل **أمون**، لتوسيع حدود **مصر**(٧٣).*

(*) الإشارة إلى عصر الإمبراطورية الرومانية القديمة. (المترجم)

(**) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

وردَّ عليه كبراء الدولة قائلين:

*إنك رع الذى يشع نورًا على **مصر**. فعندما تظهر. يعود الشعب إلى الحياة، لأن قلبك يُسدى نصائح مُواتية. إن الخوف منك، قد صدَّ **الأقواس التسعة**، **والتمحو** أصابهم الوهن، وانتُزعت قلوبهم. لقد توقفوا عن مهاجمة **البلد** المحبوب. إن قلوب الأراضى المصرية والبلدان الأجنبية(٧٤)(*) قد سُحقت، لأن الخوف الذى تثيره فى النفوس أمامهم على مدار الأيام.*

*ولكن قلب **مصر** مطمئن، للزمن اللانهائى، بفضل حاميها الجاسور، إنه ثور قوى، ورب الشاطئين، وأسد ضارٍ، يبسط قدرته بأن يتسلَّط على من انتهكوا حرمة حدوده، فيصرعهم ويدحرهم، بفضل قوة أبيك **أمون**، الذى وهبك البلد بأكمله متحدًا (٧٥).*

وبعد ذلك يقود **رعمسيس** ثلاثة صفوف من الأسرى إلى المعبد حيث يكرسهم للإله **أمون** وللإلهة **موُت**.

ولما كان الملك على قدر كبير من الفطنة فقد اصطحب معه ابن أحد زعماء الليبيين، وكان ينوى تربيته تربية مصرية ثم إعادته إلى بلده، بصفته شخصًا مواليًا له. كان هذا الأسلوب قد استهله **تحوتمس** الثانى:

*كان **صاحب الجلالة** صائب التفكير ونافذ البصيرة مثل **تحوت**... فقد اصطحب صغيرًا من بلد **التمحو** كان طفلاً هزمته قدرته(**) وفى نيته رفعه إلى منصب الزعيم، حتى يعيد تنظيم بلدهم(٧٦).*

(*) راجع الهامش فى أخر الكتاب. (المترجم)

(**) أى قدرة **صاحب الجلالة**. (المترجم)

ومن جديد، ومع استعادة السلام، عرفت **مصر** السعادة والوفرة.

*الأغذية متوفرة (والناس يأكلون) حتى الشبع، والبلد المحبوب زاخر بالأطعمة، والجماهير الغفيرة تطلق صيحات الفرح. فلا وجود للأسى والهموم، لأن **أمون-رع** قد أقام ابنه فى مكانه، وكل ما يحيط به قرص الشمس تجمَّع فى قبضته*(٧٧).

ومع تقرير حملة العام الخامس ضد **ليبيا**، تتداخل معها بعض الأوصاف التى تروى أحداثًا تشير إلى شعوب قادمة من **آسيا**. ويعتقد أن هذا القسم من المدونة يخص حملة العام الثامن التى تعامل خلالها المصريون مع شعوب **الشمال**، وقد وردت هنا عن «طريق الخطأ»(؟). إنها الفرضية التى يأخذ بها جمهور العلماء. ولكن تلتزم هذه الوقائع بوجه عام، فى **مدينة هابو** بتتابعها الزمنى. ويمكن أيضًا أن نفترض إذن أن هذه النصوص الواردة فى سياق روايات تخص الحملة الليبية فى العام الخامس، تسجل حقيقة أن **شعوب البحر** المقيمة فى **آسيا**، قد أرسلت بعض المشاة والسفن لدعم الحرب الليبية. ونذكر فى هذا الخصوص نصين على أكبر قدر من الأهمية.

يخص أحدهما بلاد **الأمورو** إذ نعرف أن المهاجرين قد أقاموا لهم معسكرًا مركزيًا، كان يُنظِّم انطلاقًا منه الزحف فى اتجاه **الجنوب**. ويقال فى مدونة العام الخامس الكبرى:

*صار عدو بلد **الأمورو** رمادًا، ولم يعد لبذرته وجود. إن شعبه بالكامل فى الأسر وقد تفرق وأُجهز عليه. والباقون على قيد الحياة، يأتون هاتفين مهللين فيشاهدون فوقهم الشمس العظيمة(*) - شمس **مصر** - وإلى جوارهم جمال القرص.*

(*) ليستقيم المعنى كان من الأفضل القول «الشمس العظيم» لأن لفظ شمس مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

*إن الشمسين اللتين(*) ترتفعان وتسطعان على الأرض هما نور **مصر**(**) والنور الذى فى السماء. عندئذ يقولون: الثناء كل الثناء على رع! لقد دمَّر بلدنا، ولكننا نقيم الآن فى بلد الحياة، لقد طُر ـ ت الظلمة(٧٨).*

يرسم هذا النص صورة جميلة لبلد ذى شمسين ساطعتين(***)، الملك والجرم السماوى. كما أنها صورة نادرة غير مألوفة. لقد حدثت إذن اشتباكات برية مع أقوام قادمة من **الأمورو**، ولكن هل فى **آسيا**؟ أو فى **إفريقيا**؟ كما وردت أيضًا إشارة إلى هذا الحدث فى النص التالى.

فالنص الآخر المعنِيُّ، والذى ما زال يدور فى إطار رواية حملة العام الخامس، يؤكد على دعم، ربما استفاد منه الليبيون برا وبحرًا على حدٍّ سواء:

*كانت بلاد **الشمال** ترتجف فى أبدانها. كانوا من **الفلستيين والثيكر**(****). كانوا قد انقطعوا عن بلادهم، ولم يكن لـ**«با»**شهم وجود. كان محاربون موجودين على البر، وآخرون على **الشديدة الاخضرار**. فالقادمون برا سقطوا صرعى وذُبحوا ذبحًا... لأن **أمون – رع** كان خلف ظهرهم، ليبيدهم. ومن اخترقوا مصبَّات النهر، تمَّ اصطيادهم كالطيور التى وقعت فى الشباك. لقد انتزعت قلوبهم، وأمسك بها خارج بدنهم. وتم اقتياد زعمائهم، وذبحوا وسقطو قتلى وصاروا أسرى... لم يتوقفوا عن الارتعاد (من شدة الخوف) قائلين معًا فى صوت واحد: «تُرى أين نحن ذاهبون؟»*(٧٩)

(*) أو «اللذين» ليستقيم المعنى. (المترجم)

(**) أى الفرعون. (المؤلفة)

على اعتبار أن الشمس لفظ مذكر فى المصرية القديمة. (المترجم)

(***) أو «ساطعين». (المترجم)

(****) كانوا شعوبًا من البحارة والقراصنة أكثر منهم شعوبًا من التجار، وكانت **الطرواد** – وعاصمتها **طروادة** – موطنهم الأصلى، على ما يظن. (المؤلفة)

إن الحزن الشديد والحيرة اللذين تعانى منهما الشعوب التى يطردها الغزاة من أرضها، يظهران هنا فى أسلوب إنسانى.

واستناداً إلى هذين النصين، من غير المستبعد، بينما كان الجيش المصرى يوقف تقدم الشعوب الزاحفة من **ليبيا**، أن يسرع **رعمسيس** فى الوقت نفسه بإرسال أسطول إلى **البحر المتوسط**، ليهاجم من الخلف سفن **شعوب البحر** التى قد تكون توغلت فى **الدلتا**. والأقرب إلى الصواب أيضاً أن أول معركة بحرية قد نشبت فى العام الخامس وأن تكون معركة العام الثامن، وهى المعركة الثانية إذن، قد جاءت روايتها فى عبارات قريبة الشبه، ولكنها تخصُّ شعوباً أخرى غير **الفلستينيين والثيكر**، مع سرد بعض الوقائع سرداً مختلفاً(٨٠).

كما أنه من المحتمل أن الأسطول المصرى قد قام بعملية إنزال لجنوده لشن هجوم من الخلف(*)، على العدو الزاحف براً.

ومن المعتقد أن الإغارات على جميع الجهات كانت إغارات عنيفة. ولكن بصيرة **رعمسيس** النافذة وشجاعته وبسالة جيشه، استطاعت طرد الغزاة. هكذا أمكن إنقاذ **مصر**.

وانطلق سحر الكلمة يصوغ المدائح من أجل **الفرعون** المنتصر. فهل يمكن فى هذا الصدد ألا نعيد إلى الأذهان ترنيمات **رعمسيس** الثانى؟(٨١) ولكن اللغة هنا أكثر قوة، وأكثر ثراءً بمفرداتها، وكأن المقصود تسخير كل المصادر السحرية **للكلمة** لمساعدة العاهل الملكى على إحراز النصر، فى هذه السنوات الأخيرة من عظمة **مصر** وأمجادها. لقد تحوَّل **اللوجوس** Logos إلى سلاح ماضٍ بتَّار فى ساحة الوغَى.

(*) «كان **أمون - رع** خلف ظهرهم». (المؤلفة)

*إن ملك **مصر العليا ومصر السفلى** سيد عظيم وقدير. إن ما يثيره من هيبة ورعب قد طرحا **الأقواس التسعة** أرضًا. إنه مثل أسد فوق الجبال، قوى زئيره. إن التخوف منه ينتشر بعيدًا، بسبب مجده. إنه أشبه بعنقاء(*)، واسع الخطى، متحكم فى جناحيه، إنه (يعبر) الأنهار والأراضى بخطوة واحدة. إنه فهد يعرف فريسته حق المعرفة، يضع يده على من يهاجمه، بينما تمزق يداه صدر من تجاسر على انتهاك حدوده. وتثور ثائرته باسطًا ساعده الأيمن عندما يخوض المعركة. هكذا يقتل مئات الآلاف فى مكانهم، وتطؤهم جياده بحوافرها. وفى نظره تصبح الأعداد الغفيرة والكثيفة أشبه بالجراد، إنها ملعونة ومهانة، وقد تحولت إلى مسحوق يشبه الدقيق*[٨١].

كما تتواصل المدائح اعترافًا بالجميل، مع تداخل الصور الشاعرية الغنائية والأسطورية، تداخلاً واضحًا.

العام الثامن. شعوب البحر تشن هجومًا من الشمال

ومن جديد بدا بوضوح أن الخطر قادم هذه المرة من **أرض كنعان** ومن البحر.

فتَشكَّل إذن اتِّحاد، أقرب إلى التحالف، كان مركزه فى بلاد **الأمورى**.

*لم يتمكن بلد من البلاد أن يصمد فى مواجهة سواعدهم، بدءًا من **الخاتى** إلى **كركميش** وإلى **أرزاوا** ... وأقيم معسكر فى مكان واحد، فى بلاد **الأمورى**.. كان جميع (هذه الشعوب) يضم **الفلستينيين** و**الثيكر** و**الشكلش** و**الدانانيون**(**) و**الواشاشا**. لقد*

(*) كائن خرافى، نصفه صقر ونصفه الآخر أسد، يرمز للملك المنتصر على أعداء **مصر**. راجع: إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص٢٢٥. (المترجم)

(**) إذا رجعنا إلى بعض ما ذكر فى رسائل **تل العمارنة**، سنجد أن الموطن الأصلى لهذه الأقوام كان فى منطقة تقع إلى الشمال من **أوجاريت**[٨٢]. (المؤلفة)

*تجمعت هذه الشعوب كافة، «وأيديها على البلاد»، حتى دائرة الأرض. كانت قلوبها واثقة مطمئنة، «سوف تنجح خططنا!». ولكن قلب هذا الإله، ملك الآلهة، كان مستعداً لاصطيادها في الأشراك كالطيور. عندئذ، «أعطى القوة» لابنه **رعمسيس**[٨٣].*

وجمع هذا الأخير، رجال البلاط وقدم وصفًا للموقف، واستعرض كل التدابير التي سبق أن اتخذها، للتصدى لهذه الغزوات، بصفته ملكًا فطنًا بعيد النظر.

*لقد نظَّمتُ حدودى (عند أطراف) **فينيقيا**، ولمواجهتهم أعددت الأمراء المحليين وقادة الحاميات و**الماريانو**(*). وجُهِّزت مصبات **النيل** بالمعدات، وهكذا أقمت سوراً متيناً من المراكب والسفن الحربية، محملة من قيدامها إلى كوثلها بالمحاربين البواسل وبالأسلحة. إن خيرة مشاة **البلد** المحبوب كالأسود المزمجرة في الجبال. وقادة المركبات عدَّاءون ورجال مدربون وقادة مركبات مهرة. بل إن جيادهم ترتعد أطرافها من الآن، متأهبة لسحق البلدان الأجنبية بحوافرها، أما أنا فإننى **مونتو** الجسور، القائم بثبات على رأسهم، بحيث يشاهدون ما تقبض عليه يداى،*

أنا ملك مصر العليا ومصر السفلى، أوسر ماعت رع - محبوب - آمون.

*أنا **ابن رع**: **رعمسيس**، حاكم **هليوبوليس**.*

أنا من يتصرف بنشاط، أنا الجسور المقدام، المدرك قوته،

أنا البطل الذى ينقذ جيشه يوم الوغى[٨٤].

في البداية، يستعد **رعمسيس** لخوض المعركة على رأس سلاح مشاته وسلاح مركباته. ويسهر بنفسه على إمداد جيشه بالسلاح، إنه ملك نافذ البصيرة لا يترك

(*) إنهم ضباط آسيويون. أكانوا مرتزقة أم حلفاء؟ ويبدو على كل حال أن قسماً من الإمبراطورية المصرية في **آسيا**، كان لا يزال خاضعاً لسلطة **الفرعون**. (المؤلفة)

شيئًا لعامل الصدفة. وتصوره النقوش، عند وصوله إلى المعسكر، تستقبله نغمات عزف الأبواق، ويقدم له حملة البيارق وكبار الضباط التحية.

ثم يوجه الملك شخصيا كلامه إلى وجهاء الدولة والأصدقاء وكل قائد من قادة سلاح المشاة وسلاح المركبات الواقفين بين يديه:

*أخرجوا أسلحتكم! أرسلوا الجند للقضاء على البلدان الأجنبية المتمردة التى لم تعرف بعد **مصر** ولا قدرة أبى **أمون**[٨٥].*

ويتولى الملك شخصيا تسليم الأسلحة لخيرة جنوده، وبناءً على الأوامر الصادرة من العاهل الملكى، وكما قام بإبلاغها...

*...النبيل، الكاتب الملكى، الابن الملكى الذى قال لكبار قادة الجيش وقادة السرايا والضباط، هكذا يتحدث **الفرعون** قائلاً: «على كل رجل من الصفوة، وكل جندى باسل يعرف **صاحب الجلالة**، فَلْيَمُرَّ أمامه ليتسلم أسلحته»[٨٦].*

وإذ تحمَّس قادة الجيش لوجود **رعمسيس** يعلنون ردا على ما سمعوه:

*هيَّا بنا! هيَّا بنا! لقد تجمَّع الجنود، إنهم ثيران البلد، إنهم صفوة **مصر** قاطبة[٨٧].*

وفى جوٍّ أُخوة السلاح وفى غمرة صخب الاستعداد للمعركة، أخذت الحرب تشمرٌ عن ساقها.

سارت القوات صاعدة بمحاذاة الشاطئ، عبر الطريق الإمبراطورى القديم، طريق **حورس**، وينبئُنا النص بإحراز النصر دون أن نعرف مكانه أو تفاصيله. وتصور لنا النقوش **رعمسيس** الثالث على متن مركبته وهو يقود الهجوم، وفى أعقابه يسير

سلاح مشاته وسلاح مركباته والمرتزقة، بينما تفرُّ **شعوب البحر** سيراً على الأقدام أو على متن مركباتها، وترحل النساء والأولاد وأمتعتهم على عربات متباطئة تجرها الأبقار. ولولا هزيمة **الخاتى** و**دول** أخرى، لحقَّ لنا أن نتساءل إذا كان إحراز النصر على هؤلاء المهاجرين التعساء لم يكن أمراً هيناً!

أما في البحر، فكانت السفن المعادية قد توغلت داخل مصبات نهر النيل، ولكن تم تطويقها، وأخذ الأسطول المصرى يضيق عليها الخناق ويوقع بها الهزيمة، بينما كان **رعمسيس** الثالث وحملة أقواسه يمطرون المهزومين بوابل من السهام من جهة البرّ:

*كان (أبناء) بلدان **الشمال** القائمين فى جزرهم ترتعد أجسادهم. لقد استولوا عنوةً على دروب مصبات **النيل**. عندئذ توقفت أنوفهم عن التنفس، وتطلعوا إلى استنشاق النسيم العليل من جديد. فانقض **صاحب الجلالة** بين ظهرانيهم، كالعاصفة، يقاتلهم فى ساحة الوغى، فكان (سريعاً) مثل عدَّاءٍ. عندئذ، نفذ مجده والخوف منه فى أجسادهم، فترنحوا وأبيدوا فى مكانهم، وأصيبوا فى قلوبهم، وانخلعت **باءاتهم** وألقيت أسلحتهم فى **الشديدة الاخضرار** لأن سهمه اخترق من بينهم من يريد إصابته، فى حين إن من كان يحاول الهروب سقط فى الماء... إن **آمون-رع**، هو الذى أجهز من أجله، على هذه البلاد، ومن أجله سحق كل شعب تحت نعليه، (من أجل) ملك **مصر العليا ومصر السفلى، سيد القطرين، أوسر ماعت رع - محبوب - آمون**[٨٨].*

ثم تمَّ تجميع الأسرى، واقتادهم الضباط إلى الملك الموجود عند أحد الحصون. ووُسم بعضهم على أكتافهم بالحديد المحمًى، وفى وجودهم تحدث **رعمسيس** إلى جيشه قائلاً:

*تأمَّلوا مدى عظمة قدرة أبى **آمون - رع**! لقد جاءت شعوب من بلادها القائمة فى **الجزر- فى - وسط الشديدة الاخضرار**(*). كان أبناؤها قد ولَّوا وجوههم شطر*

(*) بحر إيجه. (المؤلفة)

البلد المحبوب، وقلوبهم واثقة بسواعدهم. ولكن أعدَّت لهم شبكة للإطباق عليهم. ومن منهم تقدم لاختراق مصبَّات النيل سقط فيها، وكانت أجنحتهم قد انتزعت في مكان وجودهم، وبُترت سواعدهم وصدورهم أيضًا. وأردت تمكينكم من مشاهدة قدرتي التي تبرزها أفعال ساعدي... كان أمون- رع يقف عن يميني وعن يساري. إن هيبته والمخافة اللتين يثيرها، كانتا في جسدي(٨٩).

ثم، تقدم **رعمسيس** صفين طويلين من الأسرى، لتكريسهم لثالوث **طيبة**، داخل إحدى المقاصير:

*** أمون - رع:**

*مرحبًا، في فرح! لقد أثخنت في **الأقواس التسعة** تقتيلاً وقضيت على المهاجمين. لقد انتزعت قلوب الآسيويين وتملَّكتُ أنفاس أنفهم... أنا سعيد إذ صارت خُططي ناجعة، وفِطنَةُ الكلمات الخارجة من فمي.*

*** رعمسيس:**

... كم هو «أخضر» من وَثِق بنصائحك، أيها الحامي، يا رب القدرة!

*** الأسرى:**

*عظيمة هي قوتك، أيها الملك، يا شمس **مصر**، أيتها الشمس العظيمة(*). عظيمة هي قدرتك، فتفوق جبلاً من نحاس. إن هيبتك تشبه هيبة **ست**. أعطنا النسمات لنستنشقها، أعطنا الحياة التي في قبضتك*(٩٠).

ويعلن **رعمسيس** انتصاره بنبرات شاعرية غنائية وكلمات مزهوة تذكرنا، ويا للغرابة، بأسلوب **رعمسيس** الثاني.

(*) ليستقيم المعنى كان ينبغي أن أكسر قواعد اللغة العربية، فأقول **أيها الشمس العظيم**، لأن لفظ شمس مذكر، في المصرية القديمة. (المترجم)

من اقتربوا من حدودى لم يعد لبذرتهم وجود، وتوقفت قلوبهم وباءاتهم عن الوجود للزمن الأبدى واللانهائى. أما أولئك الذين كانوا قد تجمعوا على صفحة **الشديدة الاخضرار** فإن شعلة حارقة أوقفتهم عند مصبات النهر، بينما طوقهم سور من حديد عند الساحل. لقد صُعقوا ودُمِّروا وقُضى عليهم عند شاطئ النهر، وتكدسوا فى هيئة أهرامات، تستعصى على الحصر. وغرقت سفنهم وأمتعتهم فى الماء. إنى أتصرف بحيث تتراجع كل البلدان عند ذكر **البلد** المحبوب. من يتفوهون باسمى فى بلادهم، سوف يفنون. ومنذ أن تربعت على عرش **حور أختى**، ولأن **الساحرة الكبرى** مثبتة على جبينى، كما على جبين **رع**، فإننى لا أسمح للبلدان الأجنبية أن ترى حدود **مصر**. عندئذ، فإننى أستولى على بلدانهم، وتُلحق حدودهم بحدودى(٩١).

إن **فرعون** المنتصر هو **نثار مصر ولباسها**. إنه يحميها ويضمن لها الأمان والازدهار.

يا **مصر**، أطلقى صيحات الفرح حتى عنان السماء، لأننى حاكم **الجنوب والشمال** على عرش **أتوم**... إنى أطرد الكرب الذى كان فى قلوبكم وأساعدكم على الجلوس، فى اطمئنان لا ينقطع. إنى أدثِّر **مصر** وألبِّسها، وأحميها بفضل ساعدى الجسور، منذ أن توليت السلطة بصفتى ملك **مصر العليا ومصر السفلى**، على عرش **أتوم**... لأن قلبى «ممتلئ» **بإلهى**، سيد الآلهة، **أمون-رع**، الجسور، سيد القدرة. وأعرف أن قوته أعظم من قوة غيره من الآلهة، وأن مدة الحياة والمصير والسنوات فى يده. ولذلك، فإنى شجاع وجسور، وتنجح مقاصدى، ولم يفشل شىء مما باشرته من أعمال، ونشاطى كله خير وبركة، لأننى «ممتلئ» بهذا الإله، بأبى الآلهة... أبى. إنى لا أنسى معبده. إنى ثابت فى رغبتى فى مضاعفة قرابينه وأطعمته مقارنة بما كان قائمًا فى السابق، إبان الأعياد...(٩٢)

فى اليوم العاشر، من الشهر الرابع، من فصل الصيف، من العام الحادى عشر(*) من حكم الملك، بدأ **الماشواش** ومعهم **التمحو** و**الثحنو** و**السيبد** و**الليبو** يجتاحون **مصر** من جهة **الغرب**.

*كانوا يقولون فى فم واحد: «سوف نذهب لنسكن أرض **مصر**». وعبروا حدود **البلد** المحبوب. ولكن حاصرتهم المنية وهم فى الطريق، وضُربت مقاصدهم السيئة فى أجسادهم*(٩٣).

أغار **رعمسيس** على العدو، يسانده سلاح المشاة وسلاح المركبات، فى حين كان الجنود يسدِّدون السهام ويطلقون الحراب من قلعتين، فى اتجاه العدو الذى ولَّى هاربًا. وتقع أرض المعركة بين المدينة المسماة «**رعمسيس**- حاكم - ***هليوبوليس***» التى لا تبعد كثيرًا عن الحدود(**) ومدينة **حوت شع**(***)، على مسافة ثمانية **إيترو**(****)، أى «امتدت المجازر لمسافة ثمانية إيترو»(٩٤).

وامتعض **الماشواش** و**التمحو** من مرارة الهزيمة وألقوا بالمسئولية على تقاعس **الليبو** فى ساحة الوغى، وهم القادمون الجدد من **أسيا الصغرى**.

*كان **الليبو** وراء ما أصابنا وأصابهم من ارتباك، لأننا عملنا بمشورتهم. والآن، فقد سُلبنا فورة نشاطنا وأصبحنا مثلهم، على طريق النكبة. فليكن ما حدث درسًا، للزمن الأبدى واللانهائى*(٩٥).

(*) أى قرب نهاية شهر أكتوبر فى قلب موسم الحرث. (المؤلفة)

(**) ومن المعتقد أن تدخُّل الملك قد جاء على جناح السرعة. (المؤلفة)

(***) أى: «*قصر الرمال*». (المؤلفة)

(****) **الإيترو** يعادل عشرة كيلومترات ونصف. (المترجم)

إنها معركة أنزلت **بالماشواش** عقابًا أليمًا، ولكنهم سيأخذون ذات يوم بثأرهم(*).

إن معركة شرسة وحادثة مفجعة، دمغتا إرادة **رمسيس** الثالث القاسية، فى رغبة منه فى القضاء قضاءً مبرمًا على الغزاة.

*ارتمى زعيمهم(**) **ميشيشر** بن **كابر** على الأرض واستلقى تحت قدمَىْ **صاحب الجلالة**. كان أبناؤه وأفراد قبيلته وجيشه قد دمُروا، وكفَّت عيناه عن رؤية شكل قرص الشمس. لقد سُبى محاربوه... وزوجاتهم وخِلفتهم... (وقُيِّدت) أيديهم فوق رءوسهم كالأسرى، وكان عبء أمتعتهم وأولادهم ثقيلاً على ظهورهم، كانت قطعانهم وجيادهم قد نقلت إلى **مصر**... وكل من نجوا، فرُّوا فى اتجاه مدنهم، لأن مستنقعات **الدلتا** كانت خلفه(***) شعلةً حارقةً، تقذف ألسنة اللهب القادمة من السماء، فتبحث عن باءاتهم لتقتلع جذورهم التى مازالت فى وطنهم... إنه لا يترك المعركة، فى عنفوان احتدامها (واضعًا) حافره على رأس **الماشواش**(٩٦)...*

وفى النص المسمى **قصيدة العام الحادى عشر**، يأتى **كابر** ليستسلم، ومعه جيشه، متوسلاً طالبًا العفو الملكى:

*جاء **كابر** طالبًا السلام على طريقة كفيف البصر. وألقى بأسلحته على الأرض، بالإضافة إلى أسلحة جيشه، وأطلق صرخة وصلت إلى عنان السماء، متوسلاً أن يسترد ابنه. عندئذ «شُلَّت» ساقاه ويداه، وظل واقفًا فى مكانه، بلا حركة... فألقى*

(*) عندما تولى **شاشانق** زعيم **الماشواش** عرش **مصر** بطريقة سلمية وأسس الأسرة الثانية والعشرين. (المترجم)

(**) أى زعيم **الماشواش**. (المؤلفة)

(***) أى خلف **رمسيس**. (المؤلفة)

*القبض على **كاپو** وتم اقتياده، وأبيد جيشه الذى وثق به لإنقاذه. وأُرْدِىَ قتيلاً، وقد شُدَّت يداه فى الوثاق كالعصفور الذى سقط على المركبة، تحت قدمَىْ صاحب **الجلالة**. كان الملك مثل **مونتو** القدير، وقدماه على رأسه(*). بينما قُتل أمامه الزعماء وهم فى قبضته. إن نصائحه تمنح الفرح، وتنجح مقاصده وينتعش قلبه(٩٧).*

إنه مشهد على طريقة العصور القديمة، مشهد كله قسوة وشراسة. هذه الواقعية الفظة، البعيدة عن الأساليب المصرية المعتادة، تشهد على ما كان يستشعره المصرى القديم من خوف تحت وطأة هذه الغزوات المتلاحقة والرغبة التى يتوق إليها فى إنقاذ **مصر**. ومن ثَمَّ، بدا من الضرورى ومن المفيد حدوث مثل هذه النماذج الدموية.

ومرة أخرى، نشاهد عودة **الفرعون** المظفَّرة وتقديم الغنائم إلى الآلهة.

وفى أرض المعركة ذاتها، وبحلول ساعة الاسترخاء ليستريح الجنود، جاء أحد وجهاء الدولة يرافقه الوزيران، ليقدموا الأسرى والغنائم إلى **رعمسيس**، وهو فى صحبة ضباطه، بينما انكبَّ الكتبة يمارسون عملهم المعتاد، فيدونون فى سجلاتهم كل شىء بأعلى قدر من الدقة، بما فى ذلك الأكوام المعهودة من أياد وأعضاء ذكورة، بعد فصلها عن جثث القتلى. واقتيد إلى **مصر** ٢٠٥٢ رجلاً وامرأة وولداً أسرى، بالإضافة إلى ٢٨٩٢٧ رأس ماشية وأغنام. وشكَّل كل ذلك طابوراً طويلاً يضج بهديره الصاخب، ويسير خلف **جيش - الانتصارات**. ثم تم تبادل خطابات الحمد والثناء والعرفان بالجميل المألوفة.

وعلى امتداد المسار، وقف شعب **مصر** فرحاً، وقد أصبح بمنأى عن المخاطر، فيطلق أيضاً التحية للملك الذى يُوفِّر له الحماية. وبينما يتقدم على متن مركبته، يسير من خلفه الأسرى فى صفين طويلين كشاهد بيِّن على النصر. وعند وصول الملك إلى

(*) أى على رأس **كاپو** (المترجم)

المعبد يستقبله الكهنة حاملين باقات الزهور، رمز الحياة المتجددة إلى الأبد. ويتم تكريس الأسرى للإله **آمون** وإلى **موت**. والخطاب الذى يلقيه عندئذ **آمون**، من أجل العاهل الملكى يكشف عن بعض الحقائق السياسية الجديرة بالاهتمام.

*مرحبًا فى سلام... لقد رسمت الحدود التى كنت تسعى إليها، وما تكهّنت به تحقق فى الحال. كلماتى فاعلة ويدى معك على الدوام لصدّ **الأقواس التسعة**. إنى أقتل من يعتدى عليك، وأمنحك السلطة والنفوذ فى مواجهة البلدان الأجنبية. وينحنى **الشاطئان** أمامك. إن طعام **فينيقيا** وأقوات **البلد** المحبوب قد اجتمعت من أجل ملكك*[٩٨].

يؤكد هذا النص ما سبق أن لاحظناه[٩٩]، أى الحفاظ على سلطة **الفرعون** على قسم من **آسيا**، وإن كانت اسمية على الأقل. وهو ما قد تشهد عليه أيضًا الأحداث التى أعقبت حملة العام الحادى عشر جهة **الغرب**، والتى يصعب علينا للأسف، فى حدود الوضع الحالى لمعارفنا، أن نحدد تاريخها على وجه الدقة.

الحفاظ على الإمبراطورية المصرية فى آسيا (؟)(*)

وبالفعل، فبعد حملة العام الحادى عشر، وربما فى العام التالى(؟)، خاض **رعمسيس** الثالث، حروبًا فى **آسيا**، يشير إليها، على ما يبدو، نص الانتصار المدون على لوح حجرى مؤرخ بالعام الثانى عشر، والقائم أمام الصرح الأول من معبد **مدينة هابو**، ويشيد من بين أمور أخرى، بما حققه **الفرعون** من نجاحات فى **آسيا**. هذا ممكن ولكن غير مؤكد، فقد سبق للملك أن انتصر على شعوب الشمال فى العام الثامن.

(*) نذكِّر أن علامة الاستفهام الموضوعة بين قوسين، تعنى أن الكلمة أو الجملة التى تسبقها تنطوى على معلومة غير مؤكدة. (المترجم)

هل سار **رعمسيس** الثالث صاعداً حتى نهر **الفرات**؟ وإذ ظل على كل حال، ملتزماً بفكر **الرعامسة**، فقد سعى على الأرجح، إلى محاولة الحفاظ على الإمبراطورية الشاسعة التى سبق أن أسسها أجداده.

وفى وسعنا أن نتابع مراحل تقدمه المظفَّر، فيما وراء مدينة **القنطرة**، فى بلاد سادت فيها الفوضى، وكانت مسرحاً لأعمال الإبادة والنهب والسلب من جانب مختلف الغزاة. وبداية، أنزل **رعمسيس** الهزيمة بحصن سورىٍّ لم يُذكر اسمه. فقام شخصياً، ومعه ضباطه بالاستيلاء عليه.

ثم فتح مدينة **تونيب**، وهى مدينة محصنة تقع فى منطقة **قادش**. فهاجم **رعمسيس** الحصن، بينما كان الجنود المصريون يقتلعون الأشجار عند مشارف المدينة. إنه عمل رمزى يشير إلى القضاء على قوى الحياة. ويقوم جنود بتحطيم الباب الرئيسى بالبلطات، بينما يقود آخرون الاقتحام بتسلق الأسوار مستخدمين السلالم. وفى أعلى البرج يُلوِّح السوريون بمِجْمرة مشتعلة، ليراها المصريون، إشارة إلى الاستسلام. وتذكرنا هذه الإيماءة ببعض الطقوس الإفريقية التى ترى أن النار أو السيف، أو أى آلة مدببة عند اللزوم، ضرورية لطرد الأرواح الشريرة. كما يذكرنا ذلك بفقرة من قصة **ستنى خع إم واست**، (وهو أيضا من **الرعامسة**!)، ففى سياقها نرى **خع إم واست** قادماً فى أعقاب تمرد محدود، إلى جانب **نن نفر كاپتاح** «ممسكًا عصا متشعبة، واضعاً مجمرة مشتعلة فوق رأسه»(*). إن الاستسلام بواسطة النار المطهرة يطرد الأرواح الضارة التى تسببت فى اندلاع التمرد. ومنذ الآن كانت نغمات أبواق المصريين تتعالى معلنة الانتصار على **تونيب**.

كما تساعدنا أيضاً نقوش **مدينة هابو** ونصوصها على مشاهدة الاستيلاء على حصن آخر قائم فى بلاد **الأمورو**، وفتح مدينتين **حيثيتين**، الأمر الذى قد يشير من

(*) يمكن قراءة النص الكامل لهذه القصة فى: نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة، المجلد الثانى، الترجمة العربية ماهر جويجاتى، دار الفكر، ١٩٩٦. (المترجم)

ناحية إلى أن بعض عناصر هذا الشعب ربما كانت لا تزال محتفظة ببعض المواقع المحصنة، وأن **رعمسيس**، من ناحية أخرى قد وصل بالفعل إلى نهر **الفرات**.

وهو ما تؤكده قوائم المدن والبلدان التى تم فتحها، وقد سجلت بالنقش فوق الباب الكبير للصرح الأول من معبد **مدينة هابو**. فإلى جانب مشهد من مشاهد النصر على واجهة البرج الشمالى(*)، حُددت المواطن الأصلية لسبعة من زعماء بلدان الشمال. إنهم **حيثيون** و**أموريون** ومن أبناء **ثكر** و**شرادنة** و**شاسو** و**أتروسكيون** و**فلستينيون**.

وعندما قفل الملك عائداً إلى **پر رعمسيس** بعد أن تمكن من الحفاظ(؟) على الإمبراطورية، استقبله **الكهنة – حاملو – باقات – الزهور**، والوزيران وكبار الرسميين فى البلاط، فضلاً عن **أمون** الذى تحدث إليه قائلاً:

قلبى سعيد لأنه فى وسعى مشاهدة انتصاراتك، يا سيد الحسام، يا محبوب ***رع****. مرحبًا فى البلاد، بعد أن أكملتَ فتوحاتك*(١٠٠).

أما الأسرى الذين ساروا أمامه فى صفين إبان رحلة العودة، فسيصبحون من الآن فى خدمة إله النصر، على حد قولهم.

كلمات قالها المهزومون الواقفون أمام ***صاحب الجلالة****:*

«منك، تأتى نسمة (الحياة)، يا سيد ***مصر*** *وشمس* ***الأقواس التسعة****. لقد وَضَعَنا أبوك* ***أمون*** *تحت قدمَيك. واهًا! فليتنا نبصر ونستنشق النسمات العلية ونصبح خُدَّامًا فى معبده. فأنت السيد فى نظرنا من الآن، وعلى امتداد الزمن الأبدى، شأنك شأن أبيك* ***أمون****(١٠١)».*

(*) وهو على يمين الداخل إلى المعبد. (المترجم)

وبعد ذلك صدر الأمر الملكى:

*تحدث الملك شخصيا إلى النبيل والكاتب الملكى وقائد الجيش والابن الملكى، قائلاً: «اجمع هؤلاء الأسرى الذين أتى بهم الساعد المقدام **الفرعون**. أقمهم خدامًا فى معبد **أمون – رع**، ملك الآلهة، لأن يده هى التى جاءت بهم[١٠٢]».*

هل كان كل ذلك مجرد استعراض وقتى للقوة؟ أو نشاطًا حقيقيا للحفاظ على إمبراطورية **آسيا**؟

ويُعلن لوح العام الحادى عشر الحجرى، انتصار **رمسيس** الثالث على **شعوب البحر**:

*أنصتوا إلىَّ، أنتم فى أرجاء البلد، ويا جميع الأحياء فى **البلد** المحبوب، وأجياله الشابة ورجاله المحترمين. أنا ابن إنسان مقدام، وبذرة (الإله) وبطل واسع القدرة وملك **الجنوب والشمال**. لقد حطَّمت الأراضى والبلدان الأجنبية التى تعدَّت على حدودى، منذ أن تربعت على عرش **أتوم**، بصفتى ملكًا. فما من بلد يبقى بجوارى لينافسنى. أنا صلب كالثور فى مواجهتهم، أنا (ثور) حاد القرنين. لقد حَملتُ **الآسيويين** الذين داسوا أرض **مصر**، على التقهقر... إن ذكرى اسمى يُسبب الرعب فى بلدهم... لقد حطَّمتُ **الثيكر** وأرض **الفلستينيين والدانيين والواشواش والشكلش**. لقد قضيت على نسمة **الماشواش**... لقد رفعتُ وجه **مصر** الذى كان قد انخفض[١٠٣].*

[وللأسف يعانى النص من تشوهات ملحوظة، تحول دون قراءة أسماء الشعوب الأخرى التى كانت مدونة أصلاً].

وإذ أراد **رعمسيس** الثالث الإبقاء على ذكرى الإمبراطورية ماثلة إلى الأبد والتأكيد على عظمة **الرعامسة** ورفعة شأنهم، أمر بنقش نشيدين إمبراطوريين على جناحى الصرح الأول من معبده الجنائزى فى **مدينة هابو** فرسم صورة مهيبة فى تواز رائع ومبهر. أولهما «قول مأثور» صادر عن **أمون رع**، صيغ صياغة تحاكى النموذج الذى وضعه **تحوتمس** الثالث. أما النشيد الآخر فهو «قول مأثور» صادر عن **رع – حور – أختى**، ويستعيد فى جوهره الفقرات التى صاغها لأول مرة **أمنحوتپ** الثالث(١٠٤)، وإن تضمنت أيضًا بعض مقاطع من ترنيمات **التحامسة**.

هاتان القصيدتان اللتان ترتبطان على هذا النحو بالتقاليد الإمبراطورية المتواترة، تكشف عن عظمة **مصر** وشموخها، من خلال ترديد مقاطع متكررة، تعبِّر عن أمجادها وإيمانها. كما تكشفان عن التطور الذى طرأ على فكر الإمبراطورية، تحت تأثير الأحداث الخارجية.

❖ نشيد الجناح الجنوبى من الصرح الأول:

*... أنت مثل **حورس** المتسيِّد على **القطرين**، يا **شمس الأقواس**! إنى أشيد بانتصاراتك. إنى أُقيم الخوف منك فى قلب بلاد **الحاونبوت**(*)، فالرعب الذى تثيره يتعاظم فى أبدانهم. لقد قضى **جلالتك** عليهم، إذ ضُمَّت يداك فوق رأس أعدائك، لأننى أقمتك فوقهم. و**السائرون – على الرمال**(**) ينحنون أمام اسمك، لأن **المشعة**(***) (التى على جبينك) تستولى عليهم. لقد دَحرت قلوب المتمردين، والمقمعة البيضاء فى*

(*) جزر بحر **إيجه**. (المؤلفة)

(**) **نميو – شعيى**، بالمصرية القديمة، وهم البدو. راجع: برناديت مونى، المعجم الوجيز فى اللغة المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار الفكر، ١٩٩٩، ص٢٠٤. (المترجم)

(***) الصلّ. (المؤلفة)

*يدك اليمنى. والصولجان **أمس** فى يدك اليسرى. ويأتى إليك الزعماء حاملين الجزية، كل أنواع المنتجات الطيبة فى بلدانهم. إنى أهبك **مصر** محملة بالخيرات، وقد صارت **الأقواس** خُدَّامًا فى قصرك. إليك يأتى **الجنوب**، ينوء بالخوف منك، (وتأتى) بلدان **الشمال** إجلالاً لمجدك. ومن أجلك أفتح دروب **بونت**، (دروب) المُرّ والبخور، من أجل صِلْك. إنى أقودك، فقوّتى فى بدنك لتحطيم البلاد التى تهاجمك.*

إنى أُعطيك حسامى درعًا لصدرك، وأظل الحماية السحرية لجسدك بأكمله فى جميع المعارك.

[هنا إذن يتحوَّل النشيد الجديد ليحاكى الصيغ القديمة].

إنى أجعلهم يرون جلالتك سماءً محجوبة ملبَّدة بالعاصفة، عندما تقتلع الأشجار من جذورها.

*إنى أجعلهم يرون جلالتك مثل قدرة **حورس وست**، بينما يتم القضاء من أجلك على **الأقواس** أضحيات لهيبتك.*

*إنى أجعلهم يرون **جلالتك** صقرًا إلهيًا، عندما ينقض على العصافير الصغيرة، أنت الذى بسببه تُسحق مئات الآلاف.*

*إنى أجعلهم يرون **جلالتك** مساويًا لقوتى، إذ أصبح حُسامى هو حُسامك منتصرًا فى المعركة، فى حين يقعون صرعى رعبهم من جراء هذا الخوف الذى تثيره، لأن هيئتك فى وجوههم أشبه بهيئة الشمس.*

*إنى أجعلهم يرون **جلالتك** محمَّلاً بالانتصارات، مثل **ست** عندما يقتل الثعبان المعادى، عند قيدام **قارب المساء**(١٠٥).*

وإذ ظلت هذه المقاطع تحتفظ بأسلوب العرض عند **التحامسة**، فإنها تختلف من حيث الأيديولوچية. إن تصور الملك يُركز الآن على شموخه وما يثيره من رعب. لقد

تطور فكر الإمبراطورية، فلم يعد **الفرعون** يكتفي عند ربط الأراضى الأجنبية بالكشف عن نفسه للبلاد المفتوحة بصفته إلهًا، بل عليه من الآن أن يفرض نفسه بالقوة والعنف، للحفاظ على قدرة **مصر** فى مواجهة المخاطر التى تهددها. إننا نعيش فى عصر قعقعة السلاح، وصارت الآلهة محاربين.

❖ نشيد الجناح الشمالى من الصرح الأول:

*لقد دُمِّرت بلاد **النوبيين** تحت قدميك. وأجعل زعماء بلاد الجنوب يتقدمون نحوك وهم يحملون على ظهورهم جزيتهم وأولادهم، بالإضافة إلى كل منتجات بلدهم الطيبة. إنك تعطيهم النسمات العليلة حسب رغبتك، أو تُدمِّر من تريد حسب مرادك.*

*وأولّى وجهى شطر **الشمال**، فأصنع إذن من أجلك العجب العُجاب. ومن أجلك أضرب الصحراء، واضعًا إياها تحت نعليك. هكذا تطأ بقدميك عشرات الآلاف من الرجال الفسقة وتقضى على **السائرين – على – الرمال**، بفضل ساعدك المقدام. وأجعل البلاد الأجنبية التى كانت تجهل **مصر** حتى الآن، تأتى إليك وهى تحمل أكياسًا ملأى بالذهب والفضة واللازورد وكل أنواع الأحجار الكريمة، ومن أجملها الواردة من **بلد الإله**، من أجل وجهك الجميل.*

*وأولّى وجهى شطر **الشرق**، فأصنع إذن من أجلك العجب العُجاب، فأربطهم جميعًا وأجمعهم فى قبضتك. فمن أجلك أوحِّد بلد **بونت** بأكمله، وجزيته من الراتنج والبخور المقدس والنباتات من مختلف العطور ذات العبير الطيب، من أجل وجهك والثعبان الذى على رأسك.*

*وأولّى وجهى شطر **الغرب**، فأصنع إذن من أجلك العجب العُجاب. ومن أجلك أدمِّر أراضى **التحنو** بحيث يأتون إليك، فى وضع الخنوع، فيمتدحونك ويرتمون راكعين عند سماعهم صيحتك، صيحة الحرب.*

*وأولّى وجهى شطر السماء، فأصنع إذن من أجلك العجب العُجاب. إن آلهة الأفق السماوى التى أتى بها **رع** إلى الوجود عند مطلع الفجر، تهتف من أجلك وتهلل، فتعود شابًا نشطًا، مثل القمر عندما يأتى بشهادته* (شهادة الحياة).

*وأولى وجهى شطر الأرض، فأصنع إذن من أجلك العجب العُجاب. وأعلن الانتصارات التى أحرزتها على كل بلد من البلاد الأجنبية، والآلهة المقيمة فى السماء فى قمة الاغتباط والابتهاج. إن **حورس بحدت** ينشر من أجلك جناحيه، ليُبقى الجو الرطب. إن **الدورة الكبرى والدائرة الكبرى** خاضعتان لسلطانك، يا ابن رع، يا **رمسيس - حاكم - مليوبليس**.*

*إنى أضع حُسامك أمامك، للإجهاز على **الأقواس التسعة**، ومن أجلك أُلقى الأرض قاطبة تحت نعليك.*

*إنى أعرف أنهم يرون **جلالتك** أشبه بقوة **نون**(١٠٦)(*)، عندما يحطم ويهزم القرى والمدن من وراء أمواج مياهه الدافقة.*

*إنى أجعلهم يرون **جلالتك** تمساحًا هائجًا، تضرب أرجله الأجساد حسبما يريد.*

*إنى أجعلهم يرون **جلالتك** أسدًا اشتد هياجه، فتمزق مخالبه وأسنانه صدور الأغنام.*

*إنى أجعلهم يرون **جلالتك** ثورًا، فى شباب دائم، عارفًا قدر قوته، عندما يظهر فى الحَلَبة(١٠٧).*

لقد أُعلن جهرًا عن انتصارات **رمسيس**، فى الجهات الرئيسية الأربع(**)، من السماء إلى الأرض، وفى طول الكون وعرضه. فقد صنع **الإله** من أجله العجب العُجاب.

إن هذا الفيض من الصور ووفرتها، فى إطار رؤية ملك مرهوب الجانب، يزداد هنا شدة وحدة.

(*) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

(**) يشير مطلع النشيد إلى بلاد **الجنوب**. (المؤلفة)

لم يكن الأمر مجرد التمسُّك بشكليات غالبت الأيام، وخير برهان على ذلك تنوع الصور وتطورها، وإن ظل إطار القصيدة هو ذاته. كما لم يكن مجرد دعاية رخيصة مألوفة أو لغو ثرثار، بل كان وسيلة تعتمد على سحر **الكلمة** لمساعدة **رعمسيس** على تحقيق الانتصارات وتأمين خلود صيرورته.

وكرجع الصّدى يعود بعض مقاطع نشيد **تحوتمس**، إلى الظهور فى روايتها الحديثة، فى **مدينة هابو**، عند الباب الشرقى الشامخ(١٠٨). فى حين نُقش النص الأصلى من جديد، فى **الكرنك**، على جدار البرج الغربى من المعبد الذى شيده **رعمسيس** الثالث من أجل **أمون**(١٠٩).

العالم الشرقى الجديد، ومصر تستعيد سعادتها

بعد موجتى الغزو، **الدورية** فى **بلاد اليونان** و**الهندوأوروبية** فى **آسيا الصغرى**، اللتين أطلقتا العنان لجحافل المحاربين، براً وبحراً، كانت أحوال العالم الشرقى العتيق، قد انقلبت رأساً على عقب.

وأصبحت **إيونيا**(*) Ionie أرضاً يونانية بشكل قاطع، مرتبطة بالتجارة التى ستشكل أساس ثرائها.

وحلت الحضارة **الفريجية** محل حضارة **الحيثيين**، فى **بوغاز - كوى**(**) و**أليشا** وغيرهما من المواقع. كانت حضارة ريفية فى الأساس، فظلت معزولة إلى حدٍ ما. ومن غير المستبعد أن بعض المدن ظلت تضم بين ظهرانيها مجموعات محدودة من **الحيثيين**، ولكن المملكة التى كانت قد بلغت شأواً كبيراً من القوة حول عام ١٣٠٠ق.م، حتى شكلت تهديداً على **مصر**، لم يعُد لها وجود.

(*) اسم المنطقة الساحلية من **آسيا الصغرى**، عندما استقر فيها **الإيونيون** بعد أن طردهم **الدوريون** من **اليونان** فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد. (المترجم)

(**) فى وسط **آسيا الصغرى**، وعاصمة دولة **الحيثيين**. (المترجم)

أما **فينيقيا** فقد عانت من العديد من أعمال العنف. كانت **أوجاريت** على وجه التحديد، وهى ميناء الشمال الكبير الواسع الثراء، قد أصبحت أثراً بعد عين، بعد أن دُمرت تدميراً شاملاً. ولن يعود الحديث عن حضارتها التليدة إلا فى القرن العشرين الميلادى، عند الكشف عن نصوص أسطورية فى **رأس شمرا**، وهو الميناء الحالى الذى شُيِّد على أنقاض الموقع القديم.

وظهرت دولة جديدة عند شواطئ **البحر المتوسط**، فعند واجهة بلاد **كنعان** المطلة على البحر وحول موانئ **غزة وعسقلان ويافا**، استقر **الفلستينيون**، فأعطوا هذا البلد اسمه وهو **فلسطين**، وسوف يعلو شأن هذه الدولة فى القرون اللاحقة، وتتعاظم أهميتها، وإن كانت لا تزال آنذاك تابعة **لمصر**.

أما **الشراننة والواشواش** فقد تركهم **رعمسيس** يحطون الرحال سلميا فى **مصر**. فأقاموا فى حصون، وعملوا من أجل **فرعون**، يمدونه بالحبوب وينسجون الثياب(١١٠).

وظل **الماشواش والليبو** بل وبعض **الأخائيين** على ما يظن يقيمون فى **ليبيا**، إلى جانب **التحنو والتمحو** سكان البلاد الأصليين.

ولكن ماذا كان مصير **شعوب البحر** الآخرين؟ فربما كانت هذه اللحظة مناسبة **للأوتريسكيين والشكلش**، بعد أن طُردوا من كافة الشواطئ، أن يبحثوا فى مكان آخر عن أرض مضيافة. وإذ جابوا البحار على متن سفنهم فربما حملوا حضارة العالم القديم وثقافته إلى الأراضى الأوروبية، فوصل بعضهم إلى **أومبريا**(*) Umbria والبعض الآخر إلى **صقلية**، ليشكلوا المصادر البعيدة لعظمة **روما**. ويلاحظ أننا ما زلنا فى العام ١١٨٠ق.م تقريباً. ولن تظهر الحضارة **الأوتريسكية** إلا فى القرن السابع قبل الميلاد، بعد أن تكون قد تشكلت. كان الأمر يحتاج إلى كل هذه الفترة الطويلة لتضرب بجذورها فى أعماق أرضها الجديدة وتزدهر. ويوحى بعض الوقائع بذلك، فبمقبرة فى

(*) تقع هذه المنطقة جنوب وسط **إيطاليا**. (المترجم)

مدينة **تاركينيا**(*) Tarquinia، نجد أن حجرة الدفن تظللها صورة كرمة متشعبة تبدأ من أرضيه المقبرة لتنتشر الفروع القصيرة المحملة بعناقيد العنب على نطاق واسع على السقف، كما نشاهد نماذج لها فى المقابر المصرية(**)(١١١). وقد عولجت الأوراق بأسلوب التبسيط الزخرفى نفسه. أهى مجرد مصادفة؟ أم تأثير؟ أم طريقة من طرق الانتقال؟ إن إمكانية أن ترث حضارة ما حضارة أخرى، ما زال يحتاج فى الغالب إلى إزاحة اللثام عنه.

أما **الشكلش** ربما وجدوا الوفرة والأرض الخصبة فى جزيرة **صقلية** التى يعتقد أنها قد سُمِّيت باسمهم، وهو ما فعلته شعوب أخرى مهاجرة فى الأرض التى رحبت بها **كالليبيين والفلستينيين**.

وعلى امتداد عدة قرون، سيواصل **الثيكر** أعمال القرصنة فى **البحر المتوسط**، ويعيشون على اقتحام السفن وسلبها ونهبها.

إن كبرى تحركات **شعوب البحر** فى حقيقة الأمر، كانت بمثابة مقدمة مهِّدت لنظام العالم القائم فى الوقت الراهن. فلو لم يكن **رعمسيس** الثالث، هذا الملك المقدام الثاقب البصيرة وهذا المحارب البطل، قد ظهر على مسرح الأحداث، لربما تبدلت مصائر **روما** واختلفت!

ويمكن القول إن ملحمة **رعمسيس** الثالث العظيمة، عندما خاض الملك معاركه ضد **شعوب البحر** كان يبادر بالقيام بأولى مغامرات **العصر الحديث**. إن جانباً من جذورنا(***) تضرب فى أعماق أرض **مصر**.

(*) فى وسط **إيطاليا**. (المترجم)

(**) ونذكر مقبرة **سن نفر** المعروفة اصطلاحاً **بمقبرة العنب** وتحمل رقم٩٦ TT. وهى جديرة بالزيارة رغم مشقة الوصول إليها. (المترجم)

(***) ضمير المتكلم يعود إلى المؤلفة الفرنسية. (المترجم)

هكذا تمكّن البلد الوحيد الباقى من العالم القديم من استعادة السلام. فيقول **رعمسيس** الثالث:

*لقد أعدت النشاط والحيوية إلى البلاد قاطبة، غارسًا الأشجار التى ستستعيد اخضرارها (إلى الأبد)، فيستطيع الشعب الجلوس فى ظلالها. وأمكّن كل امرأة (من نساء) **البلد** المحبوب من السير إلى المكان الذى تقصده مكشوفة الرأس، إذ لن تحتك بعد الآن فى الطريق بأجنبى يعاملها معاملة خشنة. وأجعل سلاح المشاة وسلاح المركبات يستريحان إبان سنوات حكمى، لأن **الشراتنة والكحك**(*) يرقدون فى مدنهم على ظهورهم. لقد اختفى الخوف لعدم وجود متمردين ينتمون إلى بلاد **كوش**، ولا أعداء قادمين من **سوريا**. إن أقواسهم وأسلحتهم فى مخازنهم، فقد كانوا من جانبهم شباعَى وسكارى، ويطلقون صيحات الفرح. إن زوجاتهم معهم وأولادهم بجوارهم. وأصبحوا من الآن لا ينظرون خلفهم، فقلوبهم مطمئنة، لأننى معهم، فأنا حامى أجسادهم، وأعيد الحياة للبلاد قاطبة، إلى الأجانب وشعب **مصر** رجالاً ونساءً.*

*إنى «أسحب» الإنسان خارج شقائه وأعطيه النسمات، وأخلّصه ممن هو أقوى وأقدر منه. إنى أمنح الأمن والسلامة لكل امرئٍ فى مدينته. ولآخرين أعيد الحياة فى **قاعة العالم الآخر**. وأزود البلد بالمؤن فى كل مكان سبق اجتياحه، بحيث يَشْبع (الجميع) كل الشبع، على مدار سنوات مُلكى.*

إنى أنجز أعمالاً موفقة من أجل الآلهة ومن أجل البشر، على حدًّ سواء. ولا أستولى على شىء من الآخرين. هكذا، باشرتُ سلطتى الملكية على الأرض بصفتى حاكم القطرين[١١٢].

(**) جنود مرتزقة فى الجيش. (المؤلفة)

إن الحملتين العسكريتين اللتين نظمهما **رعمسيس** الثالث، تبرزان بوضوح حقيقة أن الطرق البحرية والبرية استعادت حرية الحركة، وفُتحت أمام التجارة المصرية. فاتجهت الأولى إلى **بونت** وانتهت **بزيارة** زعماء البلاد إلى بلاط **الفرعون**:

*لقد بنيت سفنًا كبيرة (تدفع) أمامها صنادل، وكانت مجهزة بطاقم من البحارة بأعداد كبيرة وجمع غفير من المرافقين. كان من بينهم قباطنة ومفتشون وضباط من رتب صغيرة لقيادتهم. كانوا محملين بمنتجات **مصر** بأعداد تفوق الحصر، وتبلغ كل كمية عشرات الآلاف. وأُرسلوا عبر **محيط** النهر الشارد(*)، حتى وصلوا إلى بلاد **بونت**، دون أن تقع أحداث مؤسفة، (وصلوا) سالمين معافين، ناشرين الخوف. وحُمِّلت السفن والصنادل بمنتجات **بلد الإله**، وبكل أصناف روائع البلد الخفية، وعلى رأسها بخور **بونت**، «بعشرات الآلاف»، وبلا حدود.*

*هكذا، جاء أبناء زعماء بلاد **بونت** واتخذوا أماكنهم أمام جزيتهم، وقد ولُّوا وجوهم شطر **مصر**. ووصلوا سالمين معافين إلى شاطئ **كوبتوس** الصحراوى، ورسوا فى سلام ومعهم ما جلبوه من المنتجات التى وُضعت، بعد ذلك، على ظهور الحمير والرجال، وأُنزلت إلى البر ثم حُمِّلت على متن السفن (المنتظرة) عند النهر، عند مرسى **كوبتوس**. ورحل الجميع فى اتجاه الشمال ووصلوا فى جو احتفالى. وقُدِّمت قرابين من روائع المنتجات بحضورى(**).*

*وصاح أمامى، أبناء الزعماء هاتفين مهللين، ثم لامسوا الأرض ساجدين أمامى. و«أعطيتهم» **للتاسوع** وآلهة البلاد جمعاء[١١٣].*

(*) تشير هذه العبارة الأخيرة عادة إلى **نهر الفرات** الذى ينساب من الشمال إلى الجنوب، على عكس نهر **النيل**. أما المحيط المقصود فربما كان **المحيط الهندى فالخليج الفارسى** أو **العربى** كما نقول، جزء منه، وفيه يصب نهر **الفرات**. (المؤلفة)

(**) أى بحضور **رعمسيس**. (المؤلفة)

يحيطنا هذا النص علماً بأن **رعمسيس** الثالث، كان لا يقيم فى **طيبة**، بالنظر إلى أن الجميع «يهبطون» مع التيار من **كوبتوس** إلى المقر الملكى. فمن المعتقد أن العاهل الملكى كان إما فى **منف** أو **پر-رعمسيس**. ومن ناحية أخرى، وهو ما يبدو أمراً غير معتاد، نلاحظ أن أبناء زعماء **پونت** يرافقون السفن المصرية. هل كان الغرض من ذلك القيام بزيارة؟ أو الحصول على تعليم مصرى، شأنهم شأن غيرهم؟ أو لمجرد القيام بالخدمة فى المعابد؟ ولكن هذا الوضع الأخير كان مقصوراً على أسرى الحرب، فى حين بدت **پونت** بلداً ارتبطت بها **مصر** بصلات تجارية سلمية. فهل تسلَّل إلى هذا البلد القصى، بعض العناصر الأجنبية، القادمة من **كوش** أو من البحر؟ يبدو من الصعب فيما نعلم فى الوقت الراهن، أن نصدر حُكماً قاطعاً حول هذا الموضوع.

كما أُرسلت حملة عسكرية أخرى إلى **سيناء** أرض المناجم، بحثاً عن النحاس والملاخيت والفيروز.

هكذا، وبعد الصدامات العنيفة التى هزت **مصر**، عاد النشاط الاقتصادى، إلى سابق عهده. واستعادت **مصر** حياة الأيام الهادئة والعيش فى سلام ووئام، حيث يستطيع المرء بلا خوف أن يخدم الآلهة التى قامت مع **رعمسيس** بإنقاذ البلاد.

وبعد أن استتب السلام استطاع العاهل الملكى أن يحتفل فى العام ٢٩ من عهده بأحد أعياد اليوبيل. وقد وردت الإشارة إليه فى مقبرة **ستاو** كبير كهنة الإلهة **نخبت**، فى **الكاب**(*)[١١٤]، وكان قد خلف أباه فى هذا المنصب. ومن المعتقد أنها كانت لحظة بالغة الأهمية فى سيرة حياته الوظيفية، عندما قام معه الوزير **تا** بقيادة قارب **نخبت** للمشاركة فى العيد **سد** المقام فى العاصمة، على شرف **رعمسيس** الثالث.

(*) **نخب** بالمصرية القديمة و**إيليسياسپوليس** Eileithyaspolis عند الإغريق، وتقع قبالة **نخن**، **الكوم الأحمر** حاليًا. (المترجم)

الآلهة التى أنقذت مصر

منذ العام ١٥ من سنوات حكمه، وبعد أن ساد السلام، أمر **رعمسيس** الثالث بالقيام بحصر للآلهة وللإلهات، على غرار ما فعله **مر إن بتاح**، من قبله. وقد احتفظ برج صرح **الرعامسة** فى **إدفو**(*) بنص هذا المرسوم الذى نُقش عليه:

*فى الشهر الثانى، من فصل الفيضان، من العام ١٥ (**)، من عهد **صاحب الجلالة**، ملك **مصر العليا** و**مصر السفلى**، سيد **القطرين**:*

***أوسر ماعت رع** – **محبوب أمون**، **ابن رع** سيد التجليات المتألقة، **رعمسيس** – **حاكم** – **هليوبوليس**، له الحياة، مثل **رع**، للزمن اللانهائى.*

*أمر جلالته بتطهير كل معابد **مصر العليا**، وإعداد حصر بثرواتها وشئونها، ومضاعفة القرابين الإلهية لتصبح أعظم من ذى قبل. وبعد ذلك أحيط **پا** – **إن** – **پا** – **تا**، كبير موظفى المحفوظات للعلم، (والتنفيذ)(١١٥).*

كما نُقش نص مماثل على السطح الخارجى من الجدار الشرقى من معبد تحيط به الأساطين شيَّده **تحوتمس** الثالث فى مدينة **الطود**(***)(١١٦). ويشار فيه أيضاً إلى «*القيام بحصر المعابد بدءاً من **منف** وحتى **إلفنتين***»، أى معابد **مصر العليا**.

(*) وهو صرح صغير جدا، يواجه الشرق ويقع خارج المعبد، وملاصق من الناحية الشمالية للطرف الشرقى من البرج الشرقى لصرح المعبد. راجع:

Sylvie Cauville: Edfou. I.F.A.O. Le Caire 1984, p.52 et plan iv (المترجم)

(**) ويضيف نص آخر: فى اليوم الثالث عشر. (المؤلفة)

(***) جنوب **الأقصر** (المترجم)

ولاشك أن نص مرسوم آخر، لم نعثر عليه، كان يخص القيام بحصر معابد **مصر السفلى**.

وتحتفظ بردية **هاريس** Harris أيضاً بأصداء هذه العملية:

[يتحدث **رعمسيس** الثالث إلى الآلهة قائلاً]:

لقد أحصيت كنوزكم واستكملتها بثروات طائلة. لقد ملأت شونكم بالشعير والعَلَس، أكوامًا أكوامًا (١١٧).

تم ذلك على ما يعتقد، بمناسبة أعياد كبيرة على الطريقة التى عشقها المصريون، تعمُّها الأفراح والمباهج الشعبية، كما كانت فى الوقت نفسه تعبيراً إيمانياً تجاه تماثيل الآلهة التى أُخرجت من مسكنها الخفى. إن لوحًا حجريًا يستند إلى الجانب الجنوبى من البرج الشرقى من صرح معبد **إدفو** يشير إلى هذه الأحداث. ولم يبق من النص سوى الأسطر الستة الأخيرة:

*... فى اليوم الذى ظهر فيه **أمون-رع** ملك الآلهة، للإعلان عن الأفعال العديدة والجميلة التى أُنجزت طوال عهد **الفرعون** ابنه، وذلك أثناء العيد الذى تُعرض من خلاله كل آلهة **مصر العليا ومصر السفلى** على شعب البلاد بأسرها - وللإعلان أيضًا عما فعله ملك **مصر العليا ومصر السفلى**: [....]، **ابن رع**: **رعمسيس** [....] الذى يُوزِّع الأطعمة التى تؤمِّن حياتكم، ويجعل كل أصناف الأشياء الجميلة موجودة من أجلكم.*

*افرحوا وأطلقوا أصوات السعادة. اجعلوا أيضًا أبناء المناطق التى تقيمون فيها يهللون ابتهاجًا بسبب الأفعال الميمونة التى أُنجزت من قِبل **أمون-رع**، ملك الآلهة، من أجل ملك **مصر العليا ومصر السفلى**: [...]، ابن رع: **رعمسيس**... ابنه. تصرفوا بحيث تُجزل له الأعياد، على مرِّ السنين، للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى. (إنه) محبوب **حورس** مدينة **إدفو**، والإله العظيم بريشه المبرقش، ورب السماء، مثل **رع***(١١٨).

لقد نقشت قائمة بآلهة **مصر** على سقف سطح معبد **مدينة هابو**(١١٩).

وتظل النزعة التلفيقية وإقامة الشعائر للآلهة الأجنبية من سمات عصر **الرعامسة** هذا.

وكما لاحظنا من قبل فإن عبادة **عشتروت وعنات** المتحدتان فى كيان واحد، بل والتى يتم الخلط بينهما فى بعض الأحوال فى الأساطير **الكنعانية** التى نظرت إليهما بصفتهما إلهتى حرب، لاحظنا أن عبادتهما كانت منتشرة فى **مصر** على نطاق واسع، حيث وُصفت فى كثير من الأحيان بصفتهما ابنتى **رع**، علماً بأن **عشتروت** كانت تعتبر أحياناً ابنة **بتاح**. إن لوحاً حجرياً من عصر **رعمسيس** الثالث يَنعت هذه النزعة واسعة الانتشار بالوحدة الدينية. إنها تقدم ثلاث إلهات: **عنات وعشتروت وقادش**(*)، من بين أهم إلهات **آسيا**، وقد جُمعت فى كيان إلهى واحد، اصطبغ بمقومات مصرية: ويُصَوِّر هذا الكيان الإلهى الواحد واقفاً فوق أسد، ممسكاً بثعبانين فى يده اليسرى وبباقة زهور فى يده اليمنى، ومرتدياً الشعر المستعار المميز للإلهة **حتحور**(١٢٠). إنه إذن كيان إلهى مركب، يجمع بين المظاهر والمقومات المميزة لثلاث إلهات. إننا هنا أمام أسلوب تلفيقى بسيط، لقى رواجاً كبيراً فى عصر **الرعامسة**.

ويبدو أن إقامة شعائر العبادة للملك ذاته، كما عمل على نشرها **رعمسيس** الثانى، كانت لا تزال فاعلة.

هكذا، فعلى لوح حجرى مؤرخ بالعام الثانى، جادت به مدينة **المدامود**، قرب **طيبة**، نقرأ النص الآتى:

*فى الشهر الأول، من فصل الإنبات، من العام الثانى، أمر **صاحب الجلالة** بأن*

(*) لمزيد من التفاصيل عن هذه الإلهة راجع: إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص٢٣٩. (المترجم)

*تُعطى حقول (مساحتها ٥٠ **أرورا**(*)) إلى تمثال **أمون - رع**، ملك الآلهة، وفى الوقت نفسه إلى تمثال **رعمسيس - حاكم - هليوبوليس**، ابن أمون، الذى ولدته **موت**(**)، إنه سيد الأطعمة*(١٢١).

وتُرسم بوضوح الحدود الدقيقة للأراضى الممنوحة، ويُذكر بالاسم الأشخاص المعينون المكلفون بالإشراف على هذه الأراضى والعناية بها، وتوفير الخدمة اليومية للقرابين المخصصة **للتمثالين الإلهيين**.

إن هذه المؤسسة المناط بها إقامة الشعائر لتمثال ملكى لا تُعتبر ظاهرة فريدة فى بابها. فقد وصلنا مثال آخر، يعود على ما يظن إلى العام ٢٤ من حكمه. وبالفعل فقد عُثر على لوح حجرى فى **منف**(***)، نُحت عليه نص يحدد كيفية قيام الخدمة اليومية الواجب أداؤها من أجل أحد تماثيل **رعمسيس** الثالث(١٢٢). إن أربعة أشخاص، رجلين وامرأتين، خُصِّصوا للعمل على تأمين هذه الشعائر. كما أن القرابين المطلوب توفيرها على مدار الأيام، تم تحديدها تحديداً دقيقًا، وتتكون من طعام وشراب وزهور وملابس.

هكذا، تأكدت الأيديولوچية الإمبراطورية بكل وضوح طوال عهد **الرعامسة**.

ثروة المعابد

إن الوثائق التى تكشف عن اعتراف الملك بجميل الآلهة التى ساعدته على حماية **مصر**، عديدة ودقيقة. وتعبيراً عن شكره لها خص **الفرعون** «*بيوتها*» بثروات طائلة وأتاح لها أن تنعم على الأرض بحياة بذخ مترفة.

(*) الاسم اليونانى للاسم المصرى القديم **ستات** الذى يعادل ٢٧٣٥م٢، أو حوالى أكثر من نصف فدان بقليل. (المترجم)

(**) إنها باختصار عبادة عائلية. (المؤلفة)

(***) والأقرب إلى الصواب أنها كانت فى خرائب معبد **من-إن پتاح**. (المؤلفة)

إن نصوص مراسيم القرابين الثلاثة المقدمة إلى **أمون-رع**، والتى تعود على التوالي إلى الأعوام ٦ و٧ و١٦ من عهد **رمسيس** الثالث، وُجدت منحوتة على الواجهة الخارجية من الجدار الشرقى لمعبد **العاهل الملكى** فى **الكرنك**(١٢٣).

ولكن توجد وثيقتان رئيسيتان تشهدان على هذه الهبات الطائلة. تعود الوثيقة الأولى إلى العام ٣٢ من عهده، فقد وضعت إذن بعد وفاة العاهل الملكى الذى حكم البلاد فترة ٣١سنة، وقام بإعدادها ابنه وخليفته **رمسيس** الرابع، رغبة منه فى تكريمه. نقصد بذلك بردية **هاريس** الكبيرة، وهى أطول البرديات المعروفة حتى الوقت الراهن(*). إنها تضم حصراً على أكبر قدر من الدقة بكل الخيرات التى منَّ بها **رمسيس** الثالث على الآلهة وعلى ثروات المعابد، ومن بينها تقف على رأسها ثلاثة معابد تميزت بغزارة العطاءات التى حصلت عليها، وهى فى مدن **طيبة** و**هليوبوليس** و**منف**. ولكن لم تُهمل المعابد الأخرى، فنذكر منها، معبد **أونوريس** فى **ثنى** ومعبد **تحوت** فى **منف** وأماكن **أوزيريس** المقدسة فى **أبيدوس**، **وواپ واوات** فى **سيوت**(**) **وست** فى **أومبوس** **وحورس** فى **أتريبيس**(***).

«كانت الثروات التى تحت تصرف معابد **مصر** لا حصر لها. فقد أُلحق بها ١٠٧٦١٥ من العاملين أى ما يعادل ٢٪ من سكان **مصر**(****) و٤٩٠٣٨٦ رأس ماشية و٥١٣ مزرعة كروم وبستان و٨٨ قارباً وسفينة و١٦٩ مدينة منها تسع مدن فى **سوريا** وبلاد **كوش** و١٠٧١٧٨٠ **أرورا** أى ما يعادل سُبْع مساحة أراضى **مصر**

(*) طولها ٤٢ متراً. Pierre Grandet. le papyrus Harris I. Vol. 1.IFAO. 1994. p.26 (المترجم)

(**) **أسيوط** حالياً. (المترجم)

(***) **تل أتريب**، على مسافة ثلاثة كيلومترات شمال شرقى مدينة **بنها**. (المترجم)

(****) وبحسبة بسيطة يمكن افتراض أن عدد سكان **مصر** كان آنذاك: خمسة ملايين ونصف.(المترجم)

الزراعية(*). ومن هذا المجموع حاز **آمون** على نصيب الأسد. فقد كان في حوزته ثلاثة أرباع هذه الممتلكات وأحيانًا أربعة أخماس أو أكثر: ٨٦٤٨٦ من العاملين و٤٢١٣٦٢ رأس ماشية و٤٣٣ مزرعة كروم وبستان و٨٣ قاربًا وسفينة و٦٥ مدينة، منها ٩ مدن في البلدان الأجنبية السابق ذكرها و٨٦٤١٦٨ **أرورا** أو ما يعادل عشر أراضي **مصر** الزراعية(**). وبالمثل، فإن عائدات معبد **آمون** الواردة سنويًا من أملاكه كانت تتفاوت، من بعيد مقارنة بعائدات معابد **مصر** الأخرى. كان الوحيد الذي يرد إليه الذهب، وتحديداً من بلاد **كوش** فهي «*بلاد ذهب آمون*». كان ما يتسلمه من الفضة سبع عشرة مرة أكثر من المعابد الأخرى، ومن النحاس إحدى وعشرين مرة أكثر، ومن رءوس الماشية سبع مرات أكثر. كان هذا الوضع عائداً إلى الكرم الحاتمي لملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، وما أجزلوه من عطاء على هذا المعبد. ولم يكن الأمر قاصراً على **رعمسيس** الثالث الذي ورث هذه الأوضاع عمَّن سبقوه. لقد خضع لها، ولكنه حاول على ما يعتقد أن يُدخل عليها بعض التعديلات، إذ بدا أن ما يجود به كرمه الشخصي يفضل أن يتجه إلى كهنة ومعابد **منف** و**هليوبوليس** وغيرهما من المدن، التي لم يجزل لها أجداده العطاء بسخاء. هكذا فمن بين ٣٦٤٨ **دبن**(***)[١٢٤] من الذهب استطاع توزيعها على المعابد طوال سنوات حكمه، لم يخص **آمون** سوى ١٨٣ و ٨٢٢ **دبن** من الفضة من بين ٨٠٢٧ و ١٤ **دبن** من اللازورد من بين ٢٨ و٨٢٢ **دبن** من النحاس من بين ١٨٨٥٤ و ٢٩٧ رأس ماشية من بين ٢٤١٨[١٢٥]».

وبطبيعة الحال تمَّ استخلاص هذه الحقائق من بردية **هاريس**. إن هذا السعي الحثيث في خلق توازن بين إيرادات المعابد لَيبرهن على حنكة **رعمسيس** الثالث

(*) أي أن مساحة أرض مصر الزراعية كانت ٧٥٠٢٤٦٠ **أرورات** وحيث إن **الأرورا**، وهي الاسم اليوناني للاسم المصري **ستات** تساوي ٢٧٣٥م٢، تصبح مساحة أراضي **مصر** الزراعية، حوالي ٥ مليون فدان. (المترجم)

(**) أي حوالي ٥٠٠٠٠٠ فدان. (المترجم)

(***) راجع الهامش في آخر الكتاب. (المترجم)

السياسية، فأراد أن يشمل برعايته عائلات كهنوتية أخرى خلاف عائلة **طيبة**، ليتمكن من إيجاد حلفاء في جماعات أخرى من رجال الدين، ويستعيد قيادته لجميع رجال الدين، وهو وضع كان من حقه، من الناحية النظرية. ولكن لا ينبغي النظر إلى هذا السلوك باعتباره إجراءً سياسيًا فقط. فلما كان **رعمسيس** رجلاً تقيًا، فقد أراد أيضًا بلا شك، التعبير عن العرفان بالجميل نحو «*جميع الآلهة والإلهات*» التي مدّت إليه يد العون والمساعدة. ومن هذا المنظور، الساعي إلى «*إعادة فرض*» سلطة الملك على كل رجال الدين، فإن معبد العاهل الملكي الجنائزي في **مدينة هابو** - وكان في الوقت نفسه معبداً للإله **أمون** - قد حلّ محل معبد **الكرنك** بصفته المركز الإداري لتصريف شئون ممتلكات **أمون**. ومن ثمّ، فمن بين العاملين الملحقين بمعابد **طيبة**، الذين تمّ حصرهم، وعددهم ٨٦٠٠٠، كان ٢٦٦٢٦ من نصيب معبد **مدينة هابو**، الذي أصبح الموقع الكبير لإقامة الشعائر في آن واحد، من أجل الملك ومن أجل الإله.

ولأن **أمون - رع** يظل دائمًا «**سيد الآلهة**»، كانت القرابين تتضاعف إبان كبرى الأعياد، في **الكرنك** أو في **مدينة هابو**. إن نصًا، يحلو للمؤرخين المعاصرين أن يطلقوا عليه «*النص الشاعري*»، ينقل إلينا حديث **رعمسيس** إلى **أمون**، إنه في آن واحد، حديث ثناء ومديح، وملخص لما أنجزه العاهل الملكي من أعمال، ويهدف إلى التعبير من جانبه عن العرفان بالجميل.

*...أنا من يُقدّس الطريق، من أجل سيد الآلهة، **أمون-رع**، إبان عيده، (وذلك) لملايين السنين. كما أنني أيضًا من يترأس العيد.*

طاهرة هي يدَيَّ لكي أكرّس القرابين الوفيرة أمام من أنجبني. إني أجعل معبدي قائمًا في معيّتك، يا أبي الجليل!

*لقد تصرفت، لِيُنصَّ كتابةً (على حيازتك) للأملاك التي تضمها قبضة يدك. لقد أعددت من أجلك، حصرًا بممتلكاتك، لتظل مرتبطة باسمك، إلى الأبد. لقد حكمت **القطرين** من آجلك، باعتبارهما نصيبي الكامل، وكما أعطيتهما لي منذ أن وُلِدت.*

*لقد شيَّدت باسمك مدنًا محصنة فى **البلد** المحبوب وفى **النوبة** وفى **آسيا**. وفرضت عليها ضرائب سنوية، فتأتى الأقطار والمدن، كل واحد منها باسمه، (تأتى) محملة بضرائب جزيتها، لتقديمها إلى **كائك**، يا رب الآلهة! الخفى فى السماء والأرض **والنون والدوات**.*

*لقد جعلتك تتعرف على ما فعلته من أجلك، لأن **آمون-رع**، هو أبى المعظم، الذى يفرح **بالحقيقة وبالعدالة**.*

*لقد تصرفت، على هذا النحو، بسبب قدرتى، عن طريق ما آتى به **كائى** إلى الوجود، وأيضًا عن طريق الغنائم القادمة من بلد الزنجى وبلاد **جاهى**، على حدٍ سواء. لم يُقدَّم شىء لأى إله (من الآلهة الأخرى)، ولكننى أعطيت (كل) ذلك **لكائك** لكى تكون راضيًا، لأنك أبى الإلهى، ووريث الزمن الأبدى، واهب اللانهائية، بصفتك سيد الآلهة.*

*فليظل معبدى باقيًا فى قلبك فى كل لحظة، فليظل راسخًا رسوخ **طيبة**. إنه مكانك الحق*[١٢٦]....

إنه نص ثناء ومديح مفعم بالحماس، ثناء ومديح فى لحظة تفيض إيمانًا، ربما كان ثناءً ومديحًا نفعيين، إذ لا يبدو أنهما مطابقان دائمًا للحقائق على أرض الواقع.

يلى ذلك نص مرسوم ملكى، يحدد تحديدًا صارمًا، بأكبر قدر من التفاصيل، قائمة القرابين الجديدة المطلوب تقديمها لكل عيد من أعياد **طيبة**. إن تقويم الأعياد هذا عبارة عن نص مسهب، يغطى بالكامل تقريبًا الجدار الجنوبى من معبد **مدينة هابو**[١٢٧].

ثم يأتى الدور على نشيد العرفان بالجميل الذى تعلنه الآلهة المفعمة بالنعم، يصطحبها **آمون - رع**.

*كلمات قالها **آمون-رع**، ملك الآلهة، إلى آلهة وإلهات **مصر العليا ومصر السفلى**، وإلى **التاسوع الإلهى**، وإلى المحكمة الإلهية الكبرى التى فى معيته:*

*«فلنذهب محملين بأعياد اليوبيل بملايين السنين، إلى ابنى صاحب السنوات الواسعة النعم، (ابنى) القائم على عرشى **أوسر ماعت رع - محبوب - أمون**، الذى شيَّد مسكنى المقدس كمثل أفق السماء.*

لقد نشأته شخصيًا بيدَىَّ، لينجز من أجل معبدى أفعالاً ميمونة. لقد أنجبته من صلبى بصفته مخلوقًا، كى يفعل ما يُرضى قلبى.

*اتحدوا به فى الحياة وفى القوة، انشروا مفاتنكم السحرية من خلفه. تآخوا معه. فليكن متألقًا فيما بينكم، كما أنكم متألقون. فليكن اسمه مزدهرًا مثل أسمائكم للزمن الأبدى - وكما أعاد من أجلى تشييد معبدى فوق تل **نب-عنخ**»*(١٢٨).

رجال الدين

الحديث عن ثروات المعابد يعنى ضمنًا فى الغالب، الحديث عن قوة رجال الدين وسعة قدرتهم.

لقد كان **باك إن خونسو**(*) كبير كهنة **أمون**، منذ عهد **ست نخت**، ليستمر فى منصبه فى عهد **رعمسيس** الثالث. كان ابن **أمن إم أوبت** المنخرط فى سلك الجندية، فكان «*قائد الجند وقائد العاملين الجدد فى أملاك **أمون***». ومن ثم فقد نشأ وتربَّى فى **الكرنك**، حيث قضى حياته. كان يلقَّب «*بالنبيل والأمير*»، كما شغل مناصب «*من يفتح الأبواب لمشاهدة الإله العظيم*»، و«*حامل بيرق **أمون***»، و«*قائد العاملين الجدد فى الأملاك*»(**)، و«*مدير كهنة الآلهة جمعاء*»، وهو ما نعرفه من المدونات المنحوتة على أربعة تماثيل عُثر عليها لهذا الشخص. كما كان أيضًا قائد مِليشيا **أمون**، الأمر الذى قد يبدو خطيرًا. ولكن إذا كان الملك حازمًا قوى العزيمة، لا يستطيع رجال الدين أن يعلنوا استقلالهم. ولم يتعامل **باك إن خونسو** الثالث مع السلطة بالقدر نفسه من

(*) وهو تحديدًا **باك إن خونسو** الثالث. (المؤلفة)

(**) كان قد ورث هذا المنصب عن أبيه. (المؤلفة)

الحريات مثل سلفه **رومع روى**، فقد عرف **رعمسيس** الثالث كيف يبقى كهنة **طيبة** خاضعين منصاعين له.

أما مصير **ثانفر** كما كان مقدراً له بعد وفاته، فحافل بمختلف المغامرات. كان «*خادم **أمون** ثالث*» وكبير كهنة **رع وأتوم** فى **طيبة**، وينحدر من عائلة مرموقة من رجال دين **طيبة**. كان ابن **أمن حوتپ**، «*الخادم الثانى للإله*» ورئيسة حريم ***أمون***. كان جده بالمصاهرة هو **باك إن خونسو** الأول. وسيصبح أحد أبنائه «***الأب الإلهى لأمون***»، و«*كبير كهنة **رع** فى **طيبة***[*] وكبير كهنة ***موت***». وسيصبح ابن آخر «*كبير كهنة **مونتو***». لقد عُين من قِبل **رعمسيس** الثالث ليظل يشغل هذا المنصب فى عهد كل من **رعمسيس** الرابع و**رعمسيس** الخامس.

إن ثراء العائلة يظهر بوضوح فى عظمة المقبرة التى أقامها **ثانفر** فى **دراع أبو النجا**. كانت مجهزة بصرح وهرم وأكثر مقابر الجبانة ارتفاعًا. لذلك فقد أثارت الأطماع منذ وقت مبكر جدا. فقام اللصوص بنهبها منذ أواخر الأسرة العشرين، شأنها شأن غيرها من مقابر هذا العصر[١٢٩]. وحفظ لنا الزمن اعترافات أحدهم[١٣٠]:

*ذهبنا إلى مقبرة **ثانفر** الذى كان كاهن **أمون** الثالث. وفتحناها وأخرجنا توابيتها. وأخذنا مومياءها وتركناها فى ركن من مقبرته. وحملنا توابيتها على متن السفينة، ومعها الباقى، واتجهنا إلى جزيرة (؟) **أمن أوپه**، وأشعلنا فيها النار ليلاً، ورحلنا ومعنا الذهب الذى عثرنا عليه.*

ولا شك أنه عُثر على المومياء، وأعيدت إلى سابق عهدها، واستؤنفت الشعائر الجنائزية. وعلى كل حال فقد تمت سرقة المقبرة مرة ثانية ونهبها. وفى العصر الحديث، جاءت عائلة من أبناء القرية المجاورة لتتخذ من المقبرة مسكنًا لها. وترتب

(*) وقد ورث هذا المنصب عن أبيه. (المؤلفة)

على ذلك، إصابة سطوح الجدران بتلفيات خطيرة، بينما اسود السقف بفعل سَخَم الدخان. وربما عانت المقبرة أيضًا من هزة أرضية فتشققت أجزاء من الحوائط وتصدعت. وجاء أخيراً لصوص العصر الحديث، وقطعوا واجهات جدارية ضخمة منحوتة ومرسومة ليبيعوها. هكذا يمكن القول إن مصير **ثانفر** بعد وفاته كان مصيراً شديد الاضطراب.

كما عانى مصير **إيروى** بالقدر نفسه من الاضطراب، ولكن وهو على قيد الحياة، وكان رئيس «*الكهنة الأطهار*» للإلهة **باستت** فى **بوباستيس**(*).

وعند قراءة الترانيم التى أمر بنحتها على ساكف باب، عثر عليه قرب **القنطرة**، قد يذهب المرء إلى الاعتقاد أنه كان من المخلصين الأوفياء للملك. إن النصين المتناظرين يكتنفان مشهداً للتعبُّد لخرطوشَىْ الملك:

التعبُّد للملك فى أفقه للزمن الأبدى، للشمس المتألقة، (الملك) *المُرتدى التاج الأزرق. ليته يسمح **لكا** الكاتب الملكى، **إيروى** من **بوباستس**، أن يدخل إلى قصر الملك ويخرج منه مغموراً بنعمه.*

*الهتاف والتهليل **لكائك**، أيها العاهل الملكى الجميل المحبوب، وشبيه **أمون**. ليته يمنح الحياة والازدهار والصحة والذكاء والمنن والحب **لكا** الكاتب الملكى، إنه حقًا محبوبه، إنه كبير الكهنة المرتلين، وكبير الكهنة الأطهار، إنه **إيروى** من **بوباستس**،* (فلينعم) *فى سلام*(١٣١).

ومع ذلك، فإن هذا الشخص نفسه، وهو **إيروى** كما عرفناه، سوف يكون ضالعًا فى مؤامرة حيكت فى القصر ضد **رعمسيس** الثالث، وهو ما سنلاحظه فى الصفحات التالية(١٣٢).

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم **برباستت**، **تل بسطا**، حاليًا. (المترجم)

وإن كانت عائلة **رعمسيس** الثالث أقل عدداً من عائلة **رعمسيس** الكبير، فإنها لم تكن أقل منها شأناً.

كانت الملكة **إيزيس** الزوجة الملكية العظيمة، ابنة امرأة أجنبية هى **حاباچيلات** وربما كانت سورية، وما زال النقاش محتدماً حول أصولها[١٣٣]. كانت هذه الأخيرة تُدعى *«والدة الملك»* وصُوِّرت مع **رعمسيس** الثالث فى أحد مشاهد **عيد الوادى**. وأُحيط اسمها بخرطوش ودُفنت فى **وادى الملكات**، بالبر الغربى لمدينة **طيبة**. هكذا تمتعت بالامتيازات الملكية، رغم أصولها الأجنبية. وربما كانت إحدى زوجات **ست نخت** ومن ثم حماة **رعمسيس** الثالث، ولكن من المؤكد على كل حال أنها والدة الملكة **إيزيس**.

تثير ذرية **رعمسيس** الثالث **وإيزيس** من الذكور بعض الإشكاليات لعلماء المصريات المعاصرين.

ومن بين أبنائهما نذكر بكل تأكيد من سيصبحون فى المستقبل **رعمسيس** الرابع **ورعمسيس** السادس. ولكن تمَّ الكشف فى **وادى الملكات** عن مقابر خمسة أمراء آخرين. إنهم **پارع حرو نمف**(*) (أى *«رع على ساعده الأيمن»*) وكان رئيس مركبات إصطبل فرعون. **وخع إم واست**(**) الكاهن **سم** للإله **پتاح** - وكان يحمل إذن اسم سلفه الذائع الصيت، ابن **رعمسيس** الثانى، ويشغل منصبه: **وأمون حرخپشف**(***) (أى *«أمون على بلطته»*) وكان كاتباً ملكياً والمشرف العام على جياد القصر. **ورعمسيس**[١٣٤](****) الكاتب الملكى وقائد الجيش وحامل المروحة عن يمين الملك.

(*) المقبرة رقم ٤٢. وادى الملكات. (المترجم)

(**) المقبرة رقم ٤٤. وادى الملكات. من أروع مقابر البر الغربى، وجديرة بالزيارة. (المترجم)

(***) المقبرة رقم ٥٥. وادى الملكات. من أروع مقابر البر الغربى، وجديرة بالزيارة. (المترجم)

(****) المقبرة رقم ٥٣. وادى الملكات. (المترجم)

وستْ **حرخپشف**(*) (أى «*ست على بلطته*»)، وكان كبير قادة مركبات **صاحب الجلالة**. كان هؤلاء الأمراء يحملون جميعًا أسماء تميزت بها عائلة **الرعامسة** الكبيرة. وشغل جميعهم مناصب عسكرية، ما عدا **خع إم واست**. وهؤلاء الخمسة هم الذين تفرّدوا من بين أمراء **الرعامسة** بأن حفرت مقابرهم فى هذا المكان. ولانعرف حتى الآن أين دُفن أبناء **رعمسيس** الثانى. كما لم يلتزم خلفاء **رعمسيس** الثالث بهذا الأسلوب.

تقدم البعض بعدد من الأسباب لتفسير هذا الواقع، فربما لم يكن هؤلاء الأمراء قد تزوجوا، إذ ما زالوا دون سن البلوغ، ترعاهم أمهم وتسهر عليهم، ومرتبطين بها. وبالفعل فإن المومياء التى عُثر عليها فى مقبرة **أمون حر خپشف** هى بالفعل مومياء لصبى لم يبلغ بعد مبلغ الرجال. ما سبب وفاته؟ هل نذهب إلى القول إنه كان ضحية أحد الأوبئة؟ وقيل إنه داء الجُدرى بعد أن أصبح مرضًا متوطنًا. أو ربما كانوا ضحايا مؤامرة، مثلما حدث فى أواخر أيام حكم أبيهم؟ فجاء دفنهم فى **وادى الملكات** كحل سهل وسريع، إذ كان عمال **دير المدينة** على مقربة من هذا المكان.

بل إن أحدهم قد ظل على قيد الحياة، وظلت مقبرته فارغة، بعد أن حفرت دون جدوى. إذ لم يبق **ست حرخپشف** على قيد الحياة فقط، بل تربع على عرش **مصر**، بصفته **رعمسيس** الثامن(**).

وربما سيأتى اليوم الذى يُفك فيه لغز هؤلاء الأمراء الخمسة.

فالوزير **تا** هو الذى كلّفه **رعمسيس** الثالث بتشييد هذه المقابر الخمس المنحوتة فى الصخر.

(*) المقبرة رقم ٤٣. وادى الملكات. (المترجم)

جميع أرقام هذه المقابر منقولة عن:

Ch. Leblanc: Nefertari. Ed. du Rocher. 1999. p.95 (المترجم)

(**) لمزيد من التفاصيل حول هذا الفرعون راجع:

Claude Vandersleyen: l'Egypte et la Vallée du Nil, Tome 2. PUF, 1995, pp.634-635. (المترجم)

فعلى **أوستراكون** وهو من مقتنيات **المعهد الشرقى فى شيكاغو** Oriental Institute of Chicago، عُثر على نسخة من الخطاب الذى أرسله من **دير المدينة**، الكاتب **نفرحوتپ** المشرف على مواقع العمل، إلى الوزير:

إنى أعمل فى مقابر الأمراء الملكيين التى أمرنى سيدى بتشييدها. أجل، إنى أعمل عملاً جيداً على أكمل وجه وبطريقة مفيدة. إنه إنجاز جميل وفعّال. وعلى سيدى ألا يسمح لقلبه أن يقلق. حقًا، إنى أعمل بامتياز، ولا أُقصِّر فى شىء على الإطلاق.

*وأبلِّغ سيدى رسالة أخرى: إننا نفتقر إلى كل شىء. لقد نفدت كل المؤن التى كانت فى الخزينة وفى الشونة وفى المخازن، فليس من الأمور السهلة أن يرفع المرء الحجر **لبن**. لقد سُحبت منا ستة مكاييل من الحبوب وأعطونا ستة مكاييل من التراب. فليوفر لنا سيدنا معاشنا لنبقى على قيد الحياة. حقا، إننا نموت، فلم نعد نحيا. قدِّموا لنا وسائل الحفاظ على حياتنا، بأى شىء كان*[١٣٥].

هذا الالتماس المقدم على الطريقة الشرقية، بقدر كبير من الحدَّة، قد لقى على ما يعتقد أذنًا صاغية، إذ شُيِّدت المقابر الخمس المحفورة فى الصخر.

كان الوزير **تا** شخصًا عظيم الشأن، عاش فى كنف **رعمسيس** الثالث. وبالإضافة إلى مناصب الوزير المعتادة، كان «*رئيس الأسرار فى معبد **نيت***». وكان نجم هذه الألهة بمدينة **سايس**(*) فى **الدلتا** قد أخذ يعلو.

ومن شخصيات هذا العهد الأخرى، نذكر **پاسر**، وكان «عمدة *طيبة، وأبا **آمون** صاحب اليدين الطاهرتين، ورئيس أعياد **آمون***، وحارس أسرار السماء والأرض والعالم الآخر المقدسة. إننا نعرفه معرفة جيِّدة إلى حد ما، بفضل نقوش ورسومات المقبرة التى أمر بتجهيزها فى **مدينة هابو**[١٣٦]. ومن بين المشاهد المصوَّرة، يشد أحدها اهتمامنا، إنه يبرز الملك جالساً على عرش، فى مقصورة مصنوعة من مواد خفيفة، بينما تُقدم له ستة تماثيل ملكية، إبان الأعياد التى جرى الاحتفال بها فى

(*) التصحيف اليونانى، للاسم المصرى القديم: **ساو وصا الحجر** حاليًا، شمال **كفر الزيات**. (المترجم)

الأعوام ٢ و٣ و١٨ من عهده. ويقدم **رعمسيس** البخور والماء الطهور للتماثيل. ولا شك، أننا نشاهد هنا أحد مظاهر شعائر العبادة التى تقام من أجل أحد ملوك **الرعامسة** من قبل الملك شخصيا، على طريقة **رعمسيس** الثانى. كما يبرز هذا المشهد سمة أخرى من سمات ملوك **الرعامسة**. فيقدم الإله **النيل** قربانًا إلى الملك، وتصاحبه إلهة الحصاد **رنن وتت** التى تقدم للملك عصا احتفالات اليوبيل وعلامة الحياة. إن **رعمسيس** هو ملك الوفرة الذى تحميه آلهة الخصب.

وتعبيراً عن شكره، يقوم **رعمسيس** الثالث بالثناء على **پاسر** وامتداحه، مناشداً الآلهة أن تمنحه بركاتها:

*فليمنحك **أمون وأتوم** نعمهما.*

*فلتمنحك **آلهة السماء** نعمها.*

*فلتمنحك **آلهة الأرض** نعمها.*

*فلتمنحك **آلهة الفرعون**، سيدك الأكمل، نعمها.*

إنه مثال رائع «لارتقاء» رجل، عُرف عنه نفعه وتأثيره المبارك(١٣٧)...

بعد التضرع إلى كبرى آلهة **طيبة** و**هليوپوليس**، يناشد جماعة الآلهة المنتسبة إلى كبرى عناصر الكون، لصالح **پاسر**: السماء والأرض و**الفرعون**. ويظل الزهْو سمة من السمات البارزة للملوك **الرعامسة**، بصفتهم آلهة، وسط غيرهم من الآلهة.

وظل نواب الملك فى **النوبة** يتعاقبون أبًا عن جد، فبعد **كاوا** شغل ابنه **حورى** الأول هذا المنصب، ثم خلفه **حورى** الثانى وهو ابن نائب الملك السابق، وسيظل يشغل هذا المنصب فى عهد **رعمسيس** الرابع. واستناداً إلى المصادر التى فى حوزتنا يتضح أن حُكم بلاد **الجنوب** لم يُثر أى مشاكل.

ومن بين المهندسين والرؤساء المشرفين على الأعمال يبرز اسم **أمن موسه**، فقد عهد إليه **رعمسيس** الثالث، على ما يظن، بتأسيس مدينة جديدة إلى الشمال الغربى من **الدلتا**، صنواً لمدينة **پر - رعمسيس**، لتواجه الأراضى الليبية(؟). فكما كان **رعمسيس** الثانى قد شيَّد مدينة عاصمة فى الشرق، لتواجه **آسيا**، فإن **رعمسيس**

الثالث وكان قرين **الملك العظيم**(*) وواحداً ممن خلفوه، هل فكَّر فى تأسيس مدينة أخرى، لتواجه الغرب و**ليبيا**؟ هكذا فربما شُدِّدت الحراسة على الإمبراطورية عند منطقتين حدوديتين، أثبتت الأحداث أنهما كانتا تشكلان تهديداً خطراً، وربما استطاعت قوة **مصر** أن تُبقى على توازنها فى هذين الاتجاهين الرئيسيين. ولكن معلوماتنا حول هذا الموضوع ليست ذات بال، ونستمدها مما تقوله مدونة منحوتة على تمثال **أمن موسه**، وهو من مقتنيات **متحف القاهرة** فى الوقت الراهن:

*كنت رئيس الأعمال فى **نا – إمن – رع**، قرب **نهر – الغرب**، الذى كان عبارة عن مستنقعات. وشيدت معابد ومقاصير، لتأسيس أملاك للإله **أمون**(١٣٨).*

وربما قام **أمن موسه** بإعداد مساحة من الأرض، ظلت حتى الآن تغطيها المستنقعات. وشرع فى تشييد أماكن لعبادة **أمون**. وكانت **نا – إمن – رع** معروفة منذ عهد **رعمسيس** الثانى باعتبارها مركزاً لزراعة الكروم، ومن ثم فقد أراد **رعمسيس** الثالث أن يقيم بجوارها مدينة جديدة(؟). كما أن **نهر – الغرب**، هو اسم مكان، يمكن أن نحدد موقعه إلى الشمال الغربى من **الدلتا**.

ولا توجد تحت أيدينا، فى الوقت الراهن، معلومات أخرى حول مشروع التشييد هذا.

أما **أمن خعو**، رئيس حرفيِّى معبد **رعمسيس** الثالث الجنائزى، فربما كانت **منف** موطنه الأصلى. وقد أمر أن يُصور فى مقبرته فى **طيبة**، فى صحبة ابنه وأمه وزوجته وهم يتعبدون للإله **بتاح** والإلهة **سخمت**، فيرفع إليهما صلاة محركة للمشاعر:

*التحية لك يا **بتاح**، يا رب **الحقيقة والعدالة**، يا ملك **القطرين**، وصاحب الوجه الجميل، يا أبا الآلهة الذى رفع السماء، وحدَّد الأراضى الخصبة، وخلق كل ما يوجد، وشكَّل البشر، وخلق الآلهة. فبأنامله يستدعى، على مرِّ الأيام، كل الكائنات إلى*

(*) الذى كان قد توفى قبل ربع قرن تقريباً. (المترجم)

الحياة[١٣٩](*). إنه يضع النور فى السماء، والخصب فى التُربة والنصر فى الجبانة.

*ليتنى أرافق **سوكار**(**) فى **رو-ستاو** و**أوزيريس** فى **بوزيريس**(***)، وتُعطى لى أرغفة خبز القرابين فى معبد **بتاح** وماء المسكوبات الطهور والزهور فى **هليوبوليس**.*

*من أجل **كا الأوزيريس**(****)، **أمن خعو** رئيس حرفيِّى المعبد الملكى.*

(ومن أجل) *ابنه **جحوتى إم حب** الكاهن الطاهر* (للإله) ***أمون**.*

(ومن أجل) *والدته **ماعت نفرت**، منشدة **أمون**.*

(ومن أجل) زوجته، ***نفرتارى إم حب**، منشدة **أمون***[١٤٠].

إننا أمام مثال جيِّد للترابط العائلى المحبب إلى قلوب المصريين. إن الترتيب الوارد فى هذا الإعلان يعكس بكل وضوح أهمية كل فرد من أفراد العائلة حسب درجة القرابة. كما أنه مثال جيِّد، يكشف عن حياة أحد رؤساء الحرفيين، الذى يختار مسار حياته المهنية فى **طيبة**، موقع العمل الكبير، حيث تتوفر فرص العمل، بينما انخرط جميع أفراد العائله فى سلك كهنوت **طيبة**.

هكذا، كانت **مصر** قد استعادت حياتها الطبيعية، ليعيش أبناؤها حياة طمأنينة تتوفر لها راحة البال. ولكن الأيام الأخيرة من عهد **رعمسيس** الثالث، كدرتها مشاكل داخلية لا حصر لها.

(*) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

(**) إله قديم لمنطقة **منف** وراعى صوَّاغ الحلى. راجع: إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص ص ١٨٤-١٨٥. (المترجم)

(***) الاسم اليونانى للمدينة المصرية القديمة، **جدو** وهى **أبوصيرينا** حاليًا، جنوب **سمنود**.(المترجم)

(****) اعتبارًا من **الدولة الوسطى** سيصبح جميع الموتى **أوزيريس**.
M. Damiano-Appia. L'Egypte. Dict. encyclopédique. Gründ. 1999. p.209 (المترجم)

يبدو أن مؤامرة أولى كان قد حاكها وزير **مصر السفلى**، فحاول القيام بانقلاب للاستيلاء على السلطة فى **أتريبيس**، وقد ساعده على ما يعتقد، أهل المدينة الذين احتلوا معبد **حورس** وطردوا منه هيئة العاملين به، وحاولوا تدبير شئون الأملاك.

ولكن جاء رد فعل **رمسيس** صارماً قاطعاً.

لقد طردتُ الوزير الذى سبق أن توغل بينهم(*)، وقبضتُ على كل الرجال الذين كانوا معه. ومن جديد جعلتُ المعبد مماثلاً لكبرى معابد هذا البلد، (جعلته) منيعًا ومحميًا للزمن اللانهائى. وأعدت إليه هيئته من العاملين الذين سبق أن طُردوا منه، (أعدت) كل امرئٍ، وكل رئيس، لينظِّموا مجددًا إدارة الأملاك المقدسة(١٤١).

وإن كان هذا التنويه مقتضباً، فإنه يُوحى بوجود اضطرابات خطيرة. وعلينا التريث حتى نصل إلى اكتشاف محتمل لوثائق جديدة تميط اللثام عن الأسباب الحقيقية وراء هذه الأحداث، وربما عرفنا أيضاً تفاصيلها.

إن مؤامرة أخرى حيكت خيوطها فى حريم **رمسيس**، نعرفها معرفة أحسن، بفضل النص الذى يحتفظ به عدد من البرديات، وعلى رأسها بردية **تورينو** القضائية، ولكن أيضاً برديتَىْ **لى** و **رولان** Lee et Rollin. كما نعرف ما وقع من أحداث بفضل المدونة التى وصلت إلينا، بعد أن نسخها فى **النوبة** الرحّالة **ريفو** Rifaud، فى مطلع القرن التاسع عشر، فاستطعنا الوقوف على ما حدث من وقائع. وربما كانت هذه المدونة عبارة عن تقرير أو تحقيق قضائى مع عدد من الأفراد المنعوتين «*بالمجرمين*» و«*المنبوذين من آلهة البلاد*»، وكانوا قد تحالفوا لتدبير تمرد ضد **رمسيس** الثالث(١٤٢).

(*) أى بين أبناء المعبد. (المؤلفة)

وعلى ضوء هذه النصوص المختلفة يتضح أن إحدى الملكات المدعوة **تيى**، قد تآمرت بغرض تمكين ابنها **پنتاور** من اعتلاء عرش البلاد. فدبَّرت مؤامرة بمعاونة عشرة موظفين من الحريم، وأربعة من السقاة الملكيين، وخازن ملكى، وضابط من سلاح حملة الأقواس فى **كوش**، وقائد فى الجيش، وثلاثة كتبة ملكيين على وجه التحديد، فكانوا جميعًا من أصحاب الرتب الرفيعة فى حاشية الملك، ويكشف وجودهم إذن عن خطورة هذه المؤامرة ومدى اتساعها. كما وُجد من بينهم بطبيعة الحال بعض مراقبى وكتبة الحريم. ويعتقد أن زوجات هؤلاء الموظفين فى الحريم – وكان عددهنَّ ستًا – قد قُمن بتأمين انتقال الرسائل إلى أشخاص آخرين من خارج البلاط الملكى لم تُذكر أسماؤهم. فمن المعتقد أن ثورة من خارج القصر، كان مقدرًا لها أن تتزامن مع هذه المؤامرة الداخلية. وانصرف أفراد الحريم إلى ممارسات سحرية محظورة. فبواسطة تماثيل من الشمع، أمكن التأثير تأثيرًا سحريًا على الأشخاص المطلوب السيطرة عليهم أو التخلص منهم. ولكن ارتكبت خيانة كشفت سر المتآمرين، من خلال ضبط بعض الخطابات، على ما يظن. ومن الراجح أن **رعمسيس** الثالث لم يُقتل(؟) فقد ذكرت بردية **رولان** أن «*رع لم يسمح بنجاح المخططات الضارة*»، ولكن الشكوك تظل تراودنا. فمن المحتمل أن آخرين غيره قد نظَّموا حملة قمع رادعة، وأن المقصود ما أُنزل من عقوبات بعد وفاته.

وأيًا كان الأمر فقد تم القبض على المتهمين، وأحيلوا للمحاكمة أمام محكمة ذات سلطات استثنائية، وإذا أخذنا بالافتراض الأقرب إلى الصواب لقلنا إن الملك شخصيًا هو الذى أمر بتشكيل هذه المحكمة. كانت تضم أربعة عشر موظفًا: اثنين من كبار مديرى الخزينة، واثنين من حاملى البيارق فى الجيش، وسبعة من السقاة الملكيين، وأحد الحجَّاب الملكيين، واثنين من الكتبة. وكان من بينهم أحد الليبيين، وأحد أبناء **لوكيا**، وأحد السوريين، وهو ما يوضح الطابع «*الإمبراطورى*» للمقربين من **رعمسيس** وانتماءهم إلى مختلف الأوطان. ومن جانب آخر، فإن اثنين من القضاة وهما الساقى **پيبس** والكاتب **ماى** كانا على اتصال باثنين من الضباط المكلفين بحراسة الأسرى، بل واستقبلا فى منزلهما بعض زوجات المتآمرين. واكتشفت خيانة

الأربعة، وألقى القبض عليهم. وجُدعت أنوفهم وقطعت آذانهم ليُحرموا من نسمات الحياة وليُمنعوا من الاتصال بالعالم، أما **بيبس** فقد انتحر.

وحُكم على المتآمرين بالإعدام. ومع ذلك فقد تُركت لهم حرية اختيار الانتحار. ولانعرف مصير الملكة **تيى** التى أحيلت إلى السلطة القضائية للملك شخصياً أو ربما إلى من خلفه(؟).

وفى عداد المتآمرين، نذكر «*المجرم الخطير **إيروى** الذى كان كبير الكهنة الأطهار للآلهة **سخمت – باستت***». وقد ذكرت هذه الإفادة فى بردية **تورينو**. وبالمناسبة فإنه الشخص نفسه الذى كان قد أمر بكتابة الترانيم الجميلة من أجل الملك(١٤٣).

وإذا كانت رواية هذه المؤامرة والعقاب الذى أُنزل بالمشتركين فيها قد نُحتت فى **كوش**، ثم جاء **ريفو** لينسخ نصها دون الإشارة إلى مصدرها الأصلى، فسبب ذلك أن أحد المتآمرين وهو **بين – إم – واست** كان قائد حملة الأقواس فى **السودان**. فقد اتُّهم بتلقى تعليمات من أخته، من سيدات الحريم، بأن «*يجند الرجال ويحرض على التمرد، ثم يأتى* (إلى **مصر**) *لإثارة أعمال العصيان ضد صاحب الجلالة*». ولما كان السودان ميَّالاً على الدوام إلى التمرد، فقد كان رافداً يعظِّم من فاعلية «*الثورة*» المصرية. كانت المؤامرة تدبيراً انتشر على نطاق واسع. ومن ثمَّ، ما إن تم إخماد التمرد وصدور الأحكام فى القضية، فمن المحتمل أن نسخة من النص المتضمن قائمة العقوبات التى أُنزلت بالمتهمين قد نقشت على صخرة أو جدار معبد، فى المدينة ذاتها التى شهدت ميلاد التمرد، لتلقين درس يكون رادعاً لغيرهم من المتآمرين المحتملين.

وتشدُّ أسماء بعض المتآمرين انتباهنا ونذكر فى المقام الأول اسم **بين – إم – واست** الذى يعنى «*الخسيس فى **طيبة***». ونُحتت خمسة أسماء أخرى بالطريقة نفسها، تعبيراً عن نظرة الآلهة والبشر إلى هؤلاء الأشخاص باعتبارهم «*ملعونين*»، ومن ثَمَّ حرمانهم من أية فرصة للبقاء على قيد الحياة بعد الوفاة. وهذه الأسماء هى: «*رع – يكرهه*» و«*رع – يُعميه*» و«*بين حوى – الخسيس*» و«*الثعبان – الشيطان*» و«*الإنسان – ذو الأذنين المقطوعتين*». إن عقوبة تبديل *الاسم* لم ترد ضمن الجزاءات التى حكم بها القضاة. ويعتقد أنها طُبقت على المتهمين قبل محاكمتهم. فكانت نتيجة طبيعية أبدية

للحكم بالإعدام. هكذا كان موتهم موتًا إلى الأبد(١٤٤)، فالنطق باسمهم باعتباره اسمًا ملعونًا، هو فى الحقيقة مساوٍ لإعدامهم.

ومن ثم فقد، انتهى حكم **رعمسيس** الثالث نهاية حزينة وصعبة. انتهى حكم من أنقذ **مصر** من أخطار بالغة، وظل فى الكثير من أفعاله وأفكاره، «*خليفة*»(*) **رعمسيس** الثانى، كما كان فى واقع الأمر آخر **الفراعنة** العظام الذين حكموا **مصر القديمة**.

سادسًا: من رعمسيس الرابع إلى رعمسيس الحادى عشر.
الانحطاط البطىء

سلسلة الرعامسة

حول عام ١١٦٦ق.م، خلف **رعمسيس** الرابع أباه **رعمسيس** الثالث. كان ابن «*الزوجة الملكية العظيمة*» **إيزيس**. ففى بردية **هاريس** Harris التى حررها **رعمسيس** الرابع، تكريمًا لما قام به والده من أعمال، يضع الملك على لسان **رعمسيس** الثالث صلوات محركة للمشاعر تُبلِّغ الآلهة والبشر بأنه اختاره ليخلفه على العرش. هكذا تسبغ عليه الآلهة الشرعية ولكن بناءً على تدخُّل أبيه.

ولذلك يتم مناشدة الآلهة:

بتاح:

أعطنى عينيك وأذنيك، يا سيِّدى ***بتاح****، يا أبا الآباء، الذى شكل* ***التاسوع****.*
أنصت إلى التبرير الذى قدمته أمامك. أنا ابنك المحبوب الذى بذل لك إنعامات عظيمة.

(*) من الناحية المعنوية، إذ كان ترتيبه من الناحية الفعلية، تاسع الفراعنة الذين حكموا **مصر** بعد **رعمسيس** الثانى. (المترجم)

*لذلك، اتخذ ابنى ملكًا، وأقمه على عرشك بقوة وثبات، على رأس الشعب، بصفته حاكم البلاد قاطبة، (أقم) **أوسر ماعت رع – المصطفى من أمون**(*)، الصبى الذى من صلبك. اسمح بأن يُتوَّج على الأرض، مثله مثل ابن الإلهة **إيزيس**، عندما تناول التاج **أتف**، المحمَّل بالزَّين(؟). اسمح بأن يتربع على عرشه فى سلام، بصفته ملك **القطرين**، مثل **حورس** الثور القوى محبوب **ماعت**. أعطه مُلكى، كما ستقيم من أجله أيام حياة سعيدة، مفعمة بالبهجة والسرور. اجعل سيفه منتصرًا، فتسقط الأراضى والبلدان الأجنبية تحت نعليه، طالما دام الزمن الأبدى. اسمح له أن يضم **مصر** بصفته حاكم **القطرين**، وأن يصبح إلهيًا أمامك، ومفعمًا بنعمك. ومن أجله، وسِّع حدود شعوب **الأقواس التسعة**، لتأتِ بسبب قدرته وليكثروا له من التهليل. واجعل الحياة والقوة تتحدان فى أعضائه، ولتكن الصحة من نصيب جسده، فى كل فصول (السنة)[١٤٥].*

الصلاة جميلة حقا، ولكن قدرتها على إثارة النفس تتضاءل إذا عرف المرء أنها من تأليف وريث العرش شخصيا!

كما وُجِّهت تضرعات إلى الإله **رع**[١٤٦] ومجموع الآلهة للغرض نفسه[١٤٧].

ونلمس الورع ذاته فى هذه التمنيات من أجل سنوات حكم سعيدة، التى نقلتها إلينا بردية **هاريس** Harris.

من **رعمسيس** الثالث المتوفى إلى ابنه:

*انظر، فإنى أرقد الآن فى العالم الآخر، مثلى مثل أبى **رع**. لقد اندمجت فى **التاسوع** الإلهى العظيم، فى السماء والأرض **والدوات**، بينما يقوم **أمون – رع** بتنصيب ابنى على عرشى. إنه يتسلم وظيفتى فى سلام، بصفته حاكمًا **للقطرين**، جالسًا على عرش **حورس**، بصفته رب **الشاطئين**. لقد اتَّحد به التاج **أتف**، كما (يتحد*

(*) **ستپ إن أمون** بالمصرية القديمة. كان **رعمسيس** الثانى يلقب **أوسر ماعت رع – ستپ إن رع**، أى أن **أمون** حل محل **رع**. (المترجم)

بالإله) *تاتان، إنه أوسر ماعت رع – المصطفى – من – أمون، وابن رع البكر الذى أنجبه هو شخصيًا، إنه رعمسيس – حاكم – الحقيقة – العدالة – و– محبوب أمون*(*). *إنه غلام، ابن أمون ومن صلبه، إنه المتوَّج رب القطرين، مثل تاتان. إنه ابن بار، محل مديح أبيه*(**).

المسوا نعليه، اسجدوا بين يديه، انحنوا أمامه، اتبعوه فى كل لحظة على مدار الأيام، اعبدوه، عبِّروا له عن الشكر والحمد، أشيدوا بكماله، كما تفعلون من أجل رع، عند مطلع الفجر. قدموا له جزيتكم فى قصره المهيب. فلتُجلب له منتجات وأطعمة الأراضى والبلدان الأجنبية. تدبَّروا أقواله والأوامر التى يُصدرها إليكم. أطيعوا أقواله فتزدهروا لقبولكم قدرته. اعملوا من أجله كرجل واحد فى كافة أنشطته. شيِّدوا من أجله المعالم الصرحية وشقوا من أجله القنوات، ولتنجز أيديكم أشغالكم من أجله. هكذا تنهال عليكم إنعاماته وتتجاوز الأطعمة حاجتكم على مرِّ الأيام. لقد أصدر أمون مرسومًا يحدد حكمه، وضاعف من أجله مدة حياته، لتصبح أطول من أى ملك آخر(١٤٨).

هذه النصوص التى تؤكد على شرعية **رعمسيس** الرابع وتقدم التمنيات التى أعلنها أبوه **رعمسيس** الثالث – وإن بعد وفاته – تعكس الصعوبات التى لازمت موضوع وراثة العرش، فى وضع شديد الاضطراب.

سوف يدوم حكم **رعمسيس** الرابع ست سنوات تقريبًا. وعند وفاته سوف يحل ابنه **رعمسيس** الخامس محله، ليدوم حكمه أربع سنوات. وبعد ذلك تربع على العرش ابن آخر للملك **رعمسيس** الثالث والملكة **إيزيس**، هو **رعمسيس** السادس. وكان عهده

(*) إنه اسمه بصفته **ابن رع** والذي حمله منذ ولادته، فيقال له بالمصرية القديمة **رعمسيس – حقا ماعت – مرى أمون**. (المترجم)

(**) الملك الجديد، هو إذن ابن الآلهة الثلاثة الكبرى فى مجمع آلهة **الرعامسة**، ومن ثم فقد اكتسب حقوقًا لا جدال فيها فى تسلم تاج البلاد. (المؤلفة)

قصيراً. ويبدو أن العائلة المالكة كانت تتكون من فرع رئيسى يضم ذرية **رعمسيس** الثالث والزوجة الملكية العظيمة **إيزيس**، ومن فرع ثانوى يضم ذرية **رعمسيس** الثالث أيضًا وربما الملكة **تيى** وابنها **پنتاور**. ولكن ما زال كل ذلك غامضًا(١٤٩). وعلى كل حال فبعد **رعمسيس** السابع الذى حكم البلاد لمدة سبع سنوات، جاء **رعمسيس** الثامن، ابن **رعمسيس** الثالث و**إيزيس**، وهو ليس سوى الأمير **ست حر خپشف** الذى كانت مقبرته قد حفرت مبكرًا فى **وادى الملكات**(١٥٠). وكانت سنوات حكمه قصيرة جدًا.

وسوف يحكم البلاد ثلاثة آخرون يحملون اسم **رعمسيس**(*) لفترة خمسين سنة، لتنقرض رسميًا سلالة **الرعامسة** حول عام ١٠٨٥ق.م.

عهود بلا أمجاد

ولما كان **رعمسيس** الرابع ما زال يحكم فى ظل أبيه فقد أمر بنحت أحد مشاهد الطقوس المقدسة لتتويجه، على جناحَىْ الصرح الأول من معبد **مدينة هابو**. إنه مشهد الشجرة **إيشد**، شجرة **هليوپوليس** المقدسة(**)، التى جرى العرف بأن تدون عليها أسماء الملوك.

فعلى الجناح الشمالى(***)يقوم **أمون - رع** و**پتاح** باستقبال الملك راكعًا، ويصطحبه **تحوت** كاتب الآلهة و**سيشات** إلهة الكتابة.

أمون - رع:

*أنا أبوك المهيب، أنا سيد الآلهة، الذى يحبك أكثر من أى ملك آخر. إنى أعطيك الزمن الأبدى، بصفتك ملك **القطرين**.*

(*) وهم على التوالى **رعمسيس** التاسع والعاشر والحادى عشر. (المترجم)

(**) ربما كانت شجرة **پرساء**. (المؤلفة)

(***) ويقع على يمين الداخل إلى المعبد. (المترجم)

بتاح:

*إنى أعطيك أعياد يوبيل متعددة وعظيمة والزمن اللانهائى، فى البسالة والقوة، (أعطيك) انتصارات ابن **نوت**(*)، وملك **حورس** فى مدينة **به**، والأرض قاطبة تحت نعليك.*

تحوت:

*إنى أدوِّن من أجلك السنين بالملايين وأعياد اليوبيل. إنى أعطيك الزمن اللانهائى بصفتك ملكًا، فالبلاد تحت نعليك، **والدائرة الكبيرة والمدار الكبير** فى قبضتك، محملة بالجزية...*

سيشات:

*إنى أكتب لصالحك أعياد يوبيل **رع**، وسنوات أبدية ولا نهائية بصفتك ملكًا، ومدة حياة مثلها مثل مدة حياة **أتوم**، وانتصارات وقدرة **حورس وست**، بقدر ما يحالف التوفيق السماء[١٥١].*

وعلى الجناح الجنوبى، يقوم **ثالوث طيبة** فى حضرة **أتوم** باستقبال الملك راكعًا.

أتوم:

*إنى أُدَوِّن اسمك من أجلك على الشجرة المقدسة، طالما ستظل السماء راسخة على الدعامات الأربع، وفى ذات الوقت (أُدوِّن) أعياد يوبيل **تاتان** ومدة حياة **رع** فى **المنطقة العليا**، للزمن اللانهائى[١٥٢].*

(*) أى **ست**. (المؤلفة)

ويظل **رعمسيس** الثانى النموذج الآخر المهيب، والدليل الحيُّ على السعادة التى عمت فى عهده، فيريد كل **فرعون** جديد أن يحذو حذوه، ويطالب الآلهة على وجه التحديد، أن تمنحه مدة حياة مثل سلفة المجيد. فعلى لوح حجرى يكرسه **رعمسيس** الرابع للإله **أوزيريس** فى **أبيدوس**، فى العام الرابع من عهده، أمر بتدوين النص الآتى:

*إنى آت إلى جوارك، فأنت الذى أنجبتنى. ليتك تُنعم علىَّ بالبركات كما تفعل مع ابنك **حورس**... أعطنى الازدهار والحياة، حياة مديدة ومُلكًا يدوم طويلاً، (أعطِ) الصلابة والحيوية لكل أعضائى، والبصر لعينَىَّ وقدرة السمع لأذنَىَّ والنعمة لقلبى، على مدار الأيام. أيا أنت، وفِّر لى أن آكل كفايتى، وأتح لى أن أشرب قدر استطاعتى. ليتك تقيم ذُريتى ملوكًا فى هذا البلد، لفترة تدوم قدر دوام الزمن الأبدى والزمن اللانهائى. ليتك تعطينى أنهر **نيل** عظيمة، لأتمكن أيضًا من توفير قرابينك الإلهية، وتوفير القرابين الإلهية لجميع آلهة وإلهات **مصر العليا ومصر السفلى**، وتوفير معيشة العجول المخصصة للآلهة، وتوفير معيشة شعب هذا البلد بأكمله، وحتى أقصى حدوده، بعد أن تجمَّعت ماشيته وقطعانه، فقد خلقتهم بيدك... وطوال عهدى، سوف تكون راضيًا عن هذا البلد **مصر**، بلدك أنت. لذلك، فإن فترة الحياة المديدة والحكم المديد (للملك) **أوسر ماعت رع – ستپ إن رع**(*) الملك العظيم، سوف تضاعفها من أجلى... فما فعلته لمعبدك، ولتوفير قرابينك، ولاغتنام الفرص للقيام بأعمال خيِّرة من أجل معبدك، يومًا بعد يوم، على امتداد السنوات الأربع التى مضت، أكثر فائدة مما فعله الملك **أوسر ماعت رع – ستپ إن رع**، الإله العظيم، طوال ٦٧ سنة من حكمه*[١٥٣]*!*

(*) لقب **رعمسيس** الثانى، بصفته **ملك مصر العليا ومصر السفلى**. (المترجم)

وبطبيعة الحال، فإن هذا الحديث ليس سوى لغة شكلية بعيدة عن أى مضمون، تلوكه ألسنة أسرة حاكمة، أُنهكت قواها، وأخذت تبحث عن أمثلة لأمجاد تليدة، فى العهود الملكية التى سبقتها.

ومن جانب آخر، نلتقى بهذا الأسلوب الشكلى نفسه الذى تحتفظ به فى **الكرنك** مدونة منحوتة على ما تبقَّى من لوح حجرى، عُثر عليه أمام الصرح العاشر. يقول النص:

*...المنصب الذى وهبتنى إياه بالكامل(*) بصفة فريدة، والذى سبق أن اضطلع به **أوسر ماعت رع – ستپ إن رع**، سوف أعيش (مدته). أما أنا، فسوف أضاعف من أجلك كل الأفعال الخيِّرة التى حققها من أجلك **أوسر ماعت رع – ستپ إن رع**، طوال حكمه الذى دام ستًا وستين سنة*[١٥٤].

ويظل **رعمسيس** الثانى، فى نظر كل من خلفوه، حتى البعيدين عنه، المثل الأعلى للملك الكامل الذى لا نظير له.

ويبدو مع ذلك أن تتويج **رعمسيس** الرابع قد قوبل بالبِشر والترحاب، بعد هذه السنوات من المشاكل الداخلية، وأن الملك الجديد قد استطاع أن يعيد إلى البلاد تماسكها وترابطها، إلى جانب بعض الثقة فى السلطة الملكية. إن نص ترنيمة إلى العاهل الملكى، مدونة على **أوستراكون** يحتفظ به متحف **تورينو** فى الوقت الراهن، يقدم وصفًا لمظاهر البهجة الشعبية والرقص وصيحات الفرح التى شهدتها البلاد يوم التتويج، فكان عيدًا تصاحبه، على الأرجح، هِبات وإنعامات ملكية كتوزيع الطعام والشراب والثياب وإصدار عفو عام.

(*) الكلام الموجه إلى **أمون – رع**. (المؤلفة)

يا له من يوم سعيد! فالسماء والأرض فى فرح، لأنك سيد ***مصر*** *العظيم.*

فمن كانوا قد هربوا، عادوا إلى مدنهم. ومن كانوا قد اختبأوا ظهروا من جديد.

ومن كانوا جوعى يأكلون كفايتهم، ومن كانوا عطاشًا، هم الآن سكارى.

ومن كانوا عرايا يلبسون أرق أقمشة الكتان، ومن كانوا يرتدون الأسمال اكتسوا بملابس بيضاء.

ومن كانوا فى السجون أُخلى سبيلهم إلى الخارج، ومن كانوا تعساء هم فى فرح وسرور.

ومن كانوا ينشرون الاضطرابات فى البلد صاروا ودعاء، وفيضان ***النيل*** *بعد أن تدفق* (من منابعه) *سوف يغمر الآخرين* [أى الأجانب].

والأرامل، فُتحت بيوتهن (استعداداً لاستقبال؟) *المسافرين.*

والفتيات يتهللن فرحًا، ويطلقن صيحات البهجة ويرقصن، بكامل زينتهن.

والأولاد الذكور المولودون فى هذا اليوم، لحسن حظ الزوجين، سيصبحون أجيالاً جميلة وموفقة.

أيها ***الملك****! سوف تكون أبديًا.*

وتسعد السفن (المبحرة) ... *وترسو بفضل الرياح* (المواتية) *وبمساعدة مجاديفها، بعد أن غيَّرت اتجاهها، وأخذت كفايتها من العواصف.*

والملك... تسلم التيجان من والده، فقد أُعلن سيد ***القطرين****... إن* ***حورس*** *جميل على عرش أبيه* ***آمون-رع****. فمرحبًا ببسالة الملك*(١٥٥).

صحيح أنه يوم عيد ورجاء وأمل. ولكن **الرعامسة** الكبار لم يعد لهم وجود.

كان **رعمسيس** الرابع ملكًا بنَّاءً، ولما كان توَّاقًا إلى التوسع فى ازدهار البلاد، فقد نظَّم عدداً من الحملات إلى **وادى الحمامات** وإلى **سيناء**.

إنه الملك الذى ساهم أكثر من غيره فى استغلال وادى **روهانو بوادى الحمامات**. فمنذ العام الأول من سنوات حكمه، وإبان فصل الربيع، أرسل أولى البعثات التى نعرفها بفضل اللوح الصخرى المنحوت من أجل **أوسر ماعت رع – نخت** أى **رعمسيس** الثانى قوى. يا له من اشتياق يفيض حنانًا إلى هذا **الفرعون** العظيم! يقول نص اللوح:

إن سيِّدى، حاكم الحقيقة والعدالة، العاهل الملكى ابن الآلهة، قد أرسلنى فى العام الأول من عهد الملك لإحضار تماثيل كبيرة من الحجر ***بيخن***(*) *مستخرجة من الجبال الخفية الواقعة عند مشارف* ***كوبتوس***(١٥٧).

وبعناية شديدة تم بالتفصيل توضيح تشكيل الحملة، فتضم قائداً من الحاشية الملكية وكاتبًا للمؤن الغذائية وكاهنًا من معبد **مين** ورئيس نحاتين(**) وعشرة نحاتين وعشرين قاطع أحجار وعشرين **مجاى**(***) وخمسين من حاملى الأحجار وأربعة من رؤساء حَمَلة الأقواس والتروس، ومئة من حاملى الأقواس المزودين بالتروس ومئتى حمَّال. إنها إذن حملة على قدر كبير من الأهمية، ترافقها قوات من الشرطة والجيش. وجرى تأمين إمدادهم بالطعام: «*هذا ما أُعطى لهم، عشرة أرغفة وثلاثة أباريق جعة واثنتى عشرة قطعة لحم وثلاث قطع حلوى، طوال فترة مهمة*». فإذا كانت هذه

(*) هل كانت هذه **التماثيل الكبيرة** مخصصة للشعائر الدينية الملكية التى سبق أن أقامها، على ما يبدو، **رعمسيس** الثانى لأول مرة؟(١٥٦) (المؤلفة)

(**) حرفيا: «رئيس أولئك الذين يُحْيُون الحجر». (المؤلفة)

(***) مرتزقة نوبيون يقومون بأعمال الشرطة. (المؤلفة)

الحصص من الطعام مخصصة ليوم واحد، تصبح مناسبة لعاملين يقومون بأعمال شاقة ومرهقة.

وبعد انقضاء خمسة أشهر، وعند نهاية فصل الجفاف، كُلِّف **تورى** كبير كهنة **مونتو** وهو من كبار الشخصيات الدينية فى ذلك العصر، كُلِّف من قبل القصر الملكى بالتوجه إلى **وادى الحمامات**، للقيام على ما يعتقد بالترتيبات اللازمة لزيارة الملك شخصياً، والتى تمت بالفعل بعد ثلاثة أشهر.

وفى العام الثالث من عهد الملك، وبعد انقضاء ثمانية عشر شهراً على إقامة **رعمسيس** الرابع فى الجبل الشرقى، قام **رعمسيس نخت** كبير كهنة **آمون** بالخروج بدوره على رأس حملة بالغة الأهمية إلى حد كبير، فكانت تضم أكثر من ثمانية آلاف رجل، والغرض منها إحضار كُتل الحجر **بيخن** التى اختارها العاهل الملكى.

وفى التاريخ نفسه، أى فى العالم الثالث، والشهر الثالث تحديداً، من فصل الفيضان، وبأمر من **رعمسيس** الرابع أُرسلت حملة أخرى إلى مناجم الفيروز فى **سرابيط الخادم بسيناء**. والشاهد على هذه الحملة هو أساسًا لوح حجرى قام **سوبك حوتپ** بتدوينه:

*أمر **صاحب الجلالة** أثيره ومحبوبه الذى يملأ قلب سيده، المشرف العام على بيت الذهب وبيت الفضة، كاتم أسرار المقصورة المقدسة، (أمر) **سوبك حوتپ**، بأن يُحضر الفيروز الذى يرغبه قلبه، وذلك إبان حملته **الرابعة***(١٥٨).

تندرج هذه الحملة إذن، ضمن سلسلة من الحملات التى تبرهن أن **رعمسيس** الرابع، قد قام بنشاط مهم فى مختلف محاجر **مصر**.

وفى العام الخامس أيضًا، وإبان فصل الجفاف دائمًا، أُرسلت حملة جديدة إلى **سرابيط الخادم**، بغرض تشييد بناية. ونقرأ على لوح **پانفر** الحجرى:

*أمر **صاحب الجلالة** ببناء معبد لملايين السنين، من أجل **رعمسيس - محبوب - أمون - و- ماعت**، فى معبد **حتحور** سيدة الفيروز، (يقوم بتنفيذه) كاتب قائد الجيش، **پانفر**، الذى كان ضمن الحملة وهو ابن **پا-إيرى**[١٥٩].*

وإلى عهد **رعمسيس** الرابع تعود كِسَف متنوعة عُثر عليها أيضًا فى **سيناء**. إنها عناصر تبقت من أعمدة وأساور. ويبدو أن الحملات قد توقفت، بعد ذلك.

وبالفعل فقد تقلص الازدهار شيئًا فشيئًا، فلم تعد جزية بلدان الإمبراطورية تُدفع، أو كانت تصل بطريقة غير منتظمة، فأصبحت **مصر** تفتقر إلى المال الضرورى لقيام حملات بعيدة إلى **النوبة** أو **سوريا**. فطوقت حلقة الفقر البلاد، وأهملت **مصر السفلى** و**منف**، وتوقفت كبرى أعمال التشييد.

إن الروابط التى أقامها **التحامسة** و**الرعامسة** مع العالم الإفريقى والآسيوى، على أسس راسخة أخذ عقدها فى الانفراط، والإمبراطورية التى لم تعد تحافظ عليها قبضة **الفرعون - الجندى** القوية ولا روحانية سامية تفتتت بالتدريج.

كان **الرعامسة** الأواخر ملوكًا ضعفاء، سيطر عليهم أشخاص مرموقون من علية القوم فى البلاد، وكانوا تحديداً من الشخصيات الدينية، فلم يعرفوا كيف يتجنبون تسلُّل الأجانب إلى **مصر** كظاهرة متعاظمة. فالعصر لم يعد عصر الفتوحات المجيدة والازدهار، إنه عصر سلسلة طويلة من ذرية تسير إلى الزوال، خارت قواها فغرقت فى العجز والخمول.

يُخيَّل لنا أن الحياة السياسية ظلت راكدة بعد الهزات العنيفة التى شهدتها فى بداية عهد **رعمسيس** الثالث ونهايته. ولكن ربما كان سبب ذلك عدد الوثائق القليلة نسبيًا التى فى حوزتنا. ويقتصر الأمر على التعبير تعبيرًا روتينيًا انطلاقًا من القوة الدافعة التى أطلقها الملوك **الرعامسة** الذين سبقوا **رعمسيس** الرابع.

فإبان عهد هذا الأخير، كان أحد أبناء **منف**، وهو **نفر رنيت**(*) وزيرًا وكبير كهنة **پتاح**، فى آن واحد. وقد خلفه **نحى ورعمسيس نخت** فى عهد **رعمسيس** السادس، والوزير **خع إم واست** فى عهد كل من **رعمسيس** التاسع و**رعمسيس** العاشر، وإذ كان هذا الوزير قد حمل اسم ابن **رعمسيس** الثانى الأثير، فإنه كان يفتقر إلى شهرته ذائعة الصيت.

وفى الجنوب ظل نواب الملك يتعاقبون فى أغلب الأحوال، أبًا عن جد، وخلفًا عن سلف. واعتبارًا من **رعمسيس** السادس أصبحت هذه الوظيفة وقفًا على عائلة واحدة هى التى ظلت تشغلها على امتداد أجيال ثلاثة، وحتى **رعمسيس** التاسع(**). ولم يظهر ما يعكرّ صفو هذه الحكومة التى افتقرت إلى روح التجديد والإبداع، ومع ذلك فقد ظلت بعيدة كل البعد عن السلطة المركزية.

ويظل الملك يعرب عن أمنيات ورعة عن عمر مديد، وضرورة دوام النظام الملكى، فى حين بدأت تُطل برءوسها قوى منافسة. هكذا فعلى قاعدة تمثال من البرونز عُثر عليه فى **مجدو** ومن مقتنيات متحف **أورشليم** فى الوقت الراهن، ويعود إلى عصر **رعمسيس** السادس، نقرأ:

(*) أى «عام سعيد»! (المؤلفة)

(**) حكم **رعمسيس** السادس من ١١٤٢ إلى ١١٣٦ق.م و**رعمسيس** التاسع من ١١٢٦ إلى ١١٠٨ق.م.(المترجم)

*طالما ستدوم السماء على سواعد النور، سيظل اسمك فى **هليوبوليس**، أيها الملك...*

*فليحىَ **الحورس** صاحب القلب الذى يَرضى **بماعت** مثل **بتاح**، ويقدمها إلى **أتوم** من أجل المعبد الكبير، (فليحىَ) ملك **مصر العليا ومصر السفلى**، الحاكم مثل **رع**، سيد **القطرين**(١٦٠)...*

وظلت مجموعة الألقاب المدونة على المعالم الأثرية التى عثر عليها كثيرة غزيرة، إنها مناجاة مُسهبة عن الوجود والاستمرار المرجو لسلطة **الفرعون** وسيادته، وإن بدتا باهتتين شاحبتين إلى حدٍّ كبير، بالمقارنة مع الأمجاد المتألقة **لرعامسة** الأزمنة الغابرة.

وفى المقابل نشطت الحياة الدينية، وظهرت شخصيات قوية، ساهم تأثيرها ونشاطها شيئًا فشيئًا، فى تفكك السلطة الملكية، بعد أن صارت بالغة الضعف وبلا موارد.

والمعابد وحدها ظلت تزداد ثراء على ثراء. ووُضعت قوائم للقرابين الجديدة. هكذا فإن القوائم الواردة فى سياق نصوص معبد **خونسو**(*) التكريسية فى **الكرنك**، والتى تعود إلى **رعمسيس** الرابع، تذكر الآتى:

*قرابين يقدمها الملك إلى **جب** وإلى **التاسوع الكبير** وإلى **التاسوع الصغير** وإلى معابد **الجنوب** وإلى معابد **الشمال** وإلى كافة الآلهة. قرابين يقدمها ابنك ومحبوبك سيد **القطرين**... إنها تناهز ألف رغيف خبز وألف إبريق جعة وألف عجل وألف طير من الطيور الدواجن وألف قطعة كتان وألف ثوب وألف حبة بخور وألف جرَّة زيت وألف زهرة وألف عصفور وألفًا من كل شىء جيِّد وطاهر وألفًا من كل شىء جميل ورقيق. وتمامًا كما أنك وضعت السماء، وخلقت الأرض وجلبت **النيل** من كهفه، جاعلاً مياهه غزيرة وطاهرة، كذلك فإن سيد **القطرين**... يقدم القرابين إلى أبيه **أمون** –*

(*) القائم فى الركن الجنوبى الشرقى من المعبد. (المترجم)

رع... إنى أعرف من هم فى السماء وأعرف من هم فى الأرض وأعرف من هم فى حورس، وأعرف من هم فى ست. إنى أرضى حورس وعينيه، وأرضى ست المُحمَّل بميراثه، فأنا تحوت الذى يُرضى الآلهة. وأضع الأشياء فى المكان المحدد لها(١٦١).

إنه تصريح هزيل عن القوة، من جانب ملك يتحصَّن وراء صيغ وعبارات لا طائل منها.

وعلى الجدران القائمة أمام معبد **مدينة هابو** أمر **رمسيس** بنحت قائمة بالآلهة وبالمدن التى تُؤدَّى فيها الشعائر، وتكشف هذه المدونة عن نص أُدخلت عليه تعديلات كثيرة، مقارنة بالنص الذى كان **رمسيس** الثالث قد أمر بنحته على الجدران الخارجية للمجموعة الجنائزية ذاتها(١٦٢). وصارت **طيبة** تحتل الآن مكان الصدارة. **طيبة** التى ستخرج عما قريب، منتصرة من الصراع الطويل الذى احتدم حول دائرة النفوذ والتأثير منذ عدة قرون، ليضع كهنتها فى معارضة مضمرة مع سلطة العاهل الملكى.

وبينما كانت ثروات كبار كهنة **أمون** تتضخم باستمرار، تزايدت فى الوقت نفسه مقدرتهم وقوتهم.

إن عائلة واحدة سوف تشغل منصب كبير كهنة طيبة منذ **رمسيس** الرابع وحتى **رمسيس** الحادى عشر(*): بدءاً من **رمسيس** نخت(**)، ثم ابنيه على التوالى، **نسى أمون**(***) و**أمون حوتپ**(****).

(*) حكم **رمسيس الرابع** من ١١٥٣ إلى ١١٤٦ ق.م وحكم **رمسيس** الحادى عشر من ١١٠٥ إلى ١٠٧٨ق.م. (المترجم)

(**) أى «**رمسيس** قوى». (المؤلفة)

(***) أى «المنتسب إلى **أمون**». (المؤلفة)

(****) أى «ليت **أمون** يكون راضياً». (المؤلفة)

لقد انحدرت هذا العائلة أصلاً من **هرموبوليس**(*)، مدينة الإله **تحوت**، حيث كان **مرى باستت**، والد **رعمسيس نخت**، كبير كهنة هذا الإله. وهو ما يفسِّر أن أحد تمثالَىْ **رعمسيس نخت**، اللذين عُثر عليهما، عندما أراد التعبير بلا شك عن احترام صاحبه لأصوله العائلية، قد صوَّره جالسًا متربعًا، حاملاً قردًا على كتفيه، وهو من حيوانات **تحوت** المقدسة. إنه وضع مماثل لوضع الكتبة الذين يقرُّون على هذا النحو بتبعيتهم للإله المثقف الملم بالآداب والعلوم. وربما احتفظت العائلة ببعض الروابط بمدينة **بوباستس** فى **الدلتا**. وبالفعل فإن اسم أبيه يعنى: «*محبوب الإلهة* ***باستت***».

وإذ كان **رعمسيس نخت**، كبير كهنة **أمون**، فقد ظل أيضًا «*رئيس كهنة جميع الآلهة*»، وهو اللقب الذى ثبَّت سيادة كهنة **طيبة** وهيمنتهم. كما شغل مناصب دنيوية، عظيمة الشأن. فكان «*كاتبًا ملكيًا، والمشرف العام فى القصر الملكى*»؛ فصار بالتالى كما رأينا، مقربًا من **رعمسيس** الرابع وموضع ثقته، فكلَّفه بقيادة بعثة على قدر كبير من الأهمية إلى **سيناء**.

وإذا كانت حياة **نسى أمون** فى سلك الكهنوت، القصيرة بلا شك، معروفة معرفة سيئة، فقد اتضح أن ما شغله أخوه **أمن حوتپ** من مناصب فى هذا المجال كان حاسمًا بشأن مستقبل **طيبة** وكهنتها.

كان **أمن حوتپ** أبًا إلهيًا وصار بلا شك كبير كهنة **أمون** عند بداية عهد **رعمسيس** التاسع، كما شغل فى القصر الملكى مناصب أبيه نفسها.

وبصفته «*المشرف العام على أشغال بيت* ***أمون***»، أنجز أعمال ترميم القسم الشرقى من معبد **الكرنك**، ولاسيما إلى الجنوب من البحيرة المقدسة حيث مساكن الكهنة(١٦٣).

وتتبدَّى عظمته ومقدرته، فى التصاوير التى أمر بنحتها فى **الكرنك**(**)، فى العام العاشر من عهد **رعمسيس** التاسع، وعلى الجدار الخارجى من الفناء الممتد بين

(*) **خمنو** بالمصرية القديمة، **الأشمونين**، حاليًا. (المترجم)

(**) مثل سلفه **رومع – روى**. (المؤلفة)

الصرحين السابع والثامن. إن اللوحة الوسطى تصور كبير الكهنة **أمن حوتب** مرتين، وقد ارتدى زى الاحتفالات، وهو عبارة عن رداء طويل من الكتان الأبيض بثنايا، واضعًا جلد فهد على كتفه، رمزًا لمركزه الدينى، ومرتديًا قلادة عريضة ذات صفوف ثلاثة من الخرز. إن قامة الصورتين بالحجم البطولى، وتواجه إحداهما الأخرى، وتكتنفهما من جهة اليسار - أى من الناحية الجنوبية - ومن جهة اليمين أى من الناحية الشمالية، صورة مشهدين متماثلين، فيمدُّ **رمسيس** التاسع يده اليمنى فى اتجاه **أمن حوتب** الذى يتعبد إلى العاهل الملكى، رافعًا راحتيه ناحية وجهه. ولكن الأمر الموحى، إذا أخذنا بعين الاعتبار المبادئ الأساسية لفن الرسم المصرى، أن **أمن حوتب** قد صوَّر نفسه بحجم الملك ذاته، بينما الخدم المنهمكون من حوله فى أعمالهم، قد صُوِّروا بطبيعة الحال بأحجام أصغر بكثير. ومع ذلك، فللدَّلالة على قدر بسيط من الأفضلية للملك وُضعت قدماه فوق موطئ قليل الارتفاع على كل حال، كما رُصَّت بينهما ست موائد محملة بالكئوس والأوانى والقلائد النفيسة، وكلها مكافآت خصصها **الفرعون** لكبير الكهنة، العظيم الشأن.

*تحدَّث **صاحب الجلالة** شخصيًا إلى **الأصدقاء** الواقفين بجواره، قائلاً: فلتُعطَ أعداد كبيرة من الإنعامات ومكافآت متعددة من الذهب الخالص ومن الفضة، بالإضافة إلى الملايين من كل الأشياء الجميلة والطيبة،* (فلتُعطَ) *إلى **أمن حوتب**،* كبير *كهنة **أمون-رع** ملك الآلهة*(*)، *لما* حققه *من أعمال خيرة عديدة فى معبد **أمون-رع** ملك الآلهة، وذلك من قبل الاسم العظيم للإله الكامل، ملك **مصر العليا ومصر السفلى***(١٦٤).

(*) **نسوت نثرو** بالمصرية القديمة، ومن صفات **أمون - رع**. راجع: برناديت مونى، المعجم الوجيز فى اللغة المصرية بالخط الهيروغليفى، ترجمه عن الفرنسية ماهر جويجاتى، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٩، ص١٣٥. (المترجم)

وفى الجزء الأسفل من التصوير دُونت ثلاثة أسطر تقدم حصراً بهذه المكافآت النفيسة.

إن المدونة التى تضم سبعة عشر سطراً الملحقة بهذا المشهد على قدر كبير من الأهمية:

اليوم التاسع عشر، من الشهر الثالث، من فصل الفيضان، من العام العاشر، فى معبد ***أمون-رع****، ملك الآلهة، وصل* ***أمن حوتپ*** *كبير كهنة* ***أمون - رع*** *ملك الآلهة إلى الفناء الكبير (للإله)* ***أمون*** *المسمَّى «تُعلن المدائح»(*). وتم تمجيده عن طريق أحاديث جميلة منتقاة. إن وجوه المجتمع الذين تقدموا ليمتدحوه هم مدير خزينة الملك،* ***وأمن حوتپ*** *المشرف العام الملكى،* ***ونسى أمون*** *المشرف العام الملكى وكاتم أسرار الفرعون، و* ***نفر كارع - إم - پر - إيمن*** *المشرف العام الملكى ورئيس حجاب الفرعون(**).*

وفيما يلى، الحديث الذى أُلقى فى ذلك اليوم، فى الفناء الكبير (للإله) ***أمون رع****، ملك الآلهة، امتداحًا لشخص* ***أمن حوتپ*** *وتمجيداً له:*

«ليت ***مونتو*** *يمنحك نعَمه! ليت* ***أمون - رع*** *ملك الآلهة، و* ***رع - حور أختى****،* ***وپتاح*** *العظيم القائم جنوب جداره وسيد حياة* ***القطرين****،* ***وتحوت*** *سيد الكلمات الإلهية، وآلهة السماء وآلهة الأرض، ليتها تمنحك نعَمها! وفضلاً عن ذلك، ليت* ***كا رمسيس*** *التاسع، أمير* ***مصر****، الولد المحبوب من جميع الآلهة، ليته يمنحك نعَمه! بسبب العمل الذى أنجزته. إن عشور المحاصيل، وحصيلة الرسوم والضرائب التى يدفعها العاملون فى معبد* ***أمون - رع*** *ملك الآلهة، ستوضع فى يدك، فضلاً عن حصيلة الجزية التى ستدفع لك بالكامل حسب مقدارها(؟). ستتصرف بحيث تملأ من الآن. خزائن*

(*) لقد جرى هذا الاحتفال إذن بعد انقضاء شهر كامل على بداية العيد **أوبت** الذى كان يدوم سبعة وعشرين يومًا، وبعد نهايته مباشرة. ومن ثم، فقد كان التكريم المقدم إلى **أمن حوتپ** يندرج ضمن الاحتفالات المقدسة، وهو أسلوب آخر لإبراز أهمية هذا الشخص. (المؤلفة)

(**) وجميعهم فى الجهاز الإدارى من المقربين إلى شخص الملك. (المؤلفة)

*معبد **أمون** – رع ملك الآلهة، ومخازنه وشئونه. وبالإضافة إلى ذلك ستوفر ضرائب الرءوس والأيدى إعاشة **أمون** – رع ملك الآلهة، هذه الجزية التى كنت تسلمها فى الماضى إلى سيدك **الفرعون**. إنه عمل يُقدم عليه خادم أمين مفيد لسيده **الفرعون**، ويبذل أيضًا ما فى وسعه للقيام بأعمال مفيدة، من أجل **أمون**–رع ملك الآلهة، ومن أجل **الفرعون**، على حدٍّ سواء... خُذ بعين الاعتبار التعليمات التى صدرت إلى رئيس الخزينة ورئيس جميع المشرفين فى خدمة **الفرعون**، لتشملك برعايتها، وتمجدك حتى تُمسح بزيت عطر، كما تقدم لك فى الوقت نفسه أحواضًا من الذهب والفضة. وهو تقليد مخصص لكل خادم (أمين)، والتى يمنحك إياها **الفرعون** سيدك».*

*عندئذ سلمت له فى ذلك اليوم، فى الفناء الكبير (للإله) **أمون**، باعتبارها مِنَّةً له ومكافأة. كما ستُسلم له على مرِّ السنين، باعتبارها نعمًا ومننًا*(١٦٥).

فى نهاية هذا الحديث الذى يفتقر إلى المرونة والمجاملة، منح **رعمسيس** التاسع كهنة **أمون** امتيازات بالغة الخطورة، بل تفوق التصوُّر فإن جانبًا من الإيرادات التى كانت تحصلها فى السابق الخزينة الملكية سوف يتولى كتبة معبد **أمون** تحصيلها مباشرة وتحويلها بعد ذلك إلى خزينة رجال الدين. *«ومن ثم أصبحت ماليَّة **أمون** مستقلة، إذا صح القول، وحلَّ كبير الكهنة محل الملك فى تحصيل جانب من إيرادات الدولة والإشراف عليها واستخدامها»*(١٦٦). إن طموح **أمن حوتپ** ثاقب البصيرة، والأكثر إخلاصًا على ما يبدو لمصالح **طيبة**، بل ربما لمصلحته الشخصية أكثر من اهتمامه بمصالح ملكه، قد نجح فى تحويل جانب من الإيرادات العادية التى تغذى خزينة الدولة لصالح بيت **أمون**. وقد زادت هذه التصرفات العاهل الملكى ضعفًا على ضعف، ورسَّخت فقر البلاد، بينما تعاظمت ثروة **أمون**.

هل كان **أمن حوتپ** يتطلع إلى التربع على عرش **مصر**؟ لربما راودته هذه الفكرة.

وانتهت حياته فى ظروف غامضة. هل حدث تحول من جانب **رعمسيس** التاسع؟ ففى سياق نص بردية **ماير** Mayer، وردت فى مجرى إحدى المحاكمات إشارة إلى *«القضاء على **أمن حوتپ** الذى كان كبير كهنة **أمون**»*. وفى نص بردية

أخرى معاصرة(*) يُقال: «*عندما وقعت الحرب التى شُنت على كبير الكهنة*...(١٦٧)». هل حدثت محاولة *انقلاب* من جانب كهنة **طيبة**، سُحقت سحقًا عنيفًا؟ هل سُحب من **أمن حوتپ** منصبه، قرب نهاية عهد **رمسيس** التاسع، بعد أن تنبَّه الملك إلى ما يدور من حوله؟ أو ربما حدث ذلك فى عهد **رمسيس** الحادى عشر؟ فعلى التوابيت التى يحتفظ بها متحف **اللوفر** Le Louvre ، والتى تنسب إلى **أمن حوتپ**، دُوِّن عدد كبير من ألقابه الدينية، عدا لقب كبير كهنة **أمون**. ولكن هل يمكن الجزم بأن هذه التوابيت هى توابيته؟ كلها أسئلة ما زالت بلا إجابة قاطعة.

وعلى كل حال، فإن **حرى حور** خلفه فى **طيبة**، سوف يُرسِّخ واقع انتصار كهنة **طيبة** انتصارًا قاطعًا ونهائيا.

إن ضعف السلطة المركزية وعدم الاستقرار الاقتصادى والبؤس التى عمَّت البلاد كانت وراء الفوضى المتعاظمة وبعض الفضائح. ووصلت بعض قضايا فساد رجال الدين إلى ساحة المحاكم. ففى عهد **رمسيس** السادس استطاع **باك إن خونسو**، وكان مجرد «*كاهن طاهر*» بسيط فى **إلفنتين**، أن يصل إلى مرتبة كبير كهنة **خنوم**، بعد قيامه بتوزيع بعض «*العمولات*»، كما ينبغى. واستطاع أيضًا **نب وننف** المتواطئ مع السابق أن يصل من بعده إلى منصب كبير كهنة **خنوم وساتيس وأنوكيس** وأيضًا آلهة وإلهات **إلفنتين والنوبة السفلى**، عن طريق رشوة الموظفين.

ويرسم **سيرج سونرون**(**) Serge Sauneron صورة واضحة وموحية لهذه الأزمنة القاسية التى عاشتها **مصر**:

(*) رقم 10052 من مقتنيات المتحف البريطانى. (المؤلفة)

(**) عالم مصريات فرنسى. كان مدير المعهد الفرنسى للدراسات الشرقية فى القاهرة IFAO، عندما توفى هو وابنه فى منتصف السبعينات من القرن الماضى، إثر حادث سيارة فى الطريق من القاهرة إلى الإسكندرية، وكان فى الخمسين من عمره. راجع:

Ch. Desroches Noblecourt. la Grande Nubiade. Stock. Pernoud. 1992. p.393. (المترجم)

*تُعدد لنا بردية **تورينو** ووثائق أخرى أقل أهمية، ما حدث من سرقات فى الحيازات المقدسة ومن أعمال سلب ونهب، ومن رشوة الموظفين، والحصول على المناصب الكهنوتية دون وجه حق، بل وبمساندة الإله إذا لزم الأمر، وتصفية الحسابات على المستوى المحلى. ولا يسعنا إلا أن نلاحظ أن كهنة الجندل الأول لم يُقضَّ مضجعهم قيد أنمله، رغم الاتهامات التى انهالت عليهم أو على الأقل الاعتراف الرسمى بإدانتهم... وعرفت التكاليف العامة للمعيشة ارتفاعًا تجاوز كل الحدود. وإبان الأسرة العشرين بلغ سعر القمح أرقامًا لم يعهدها من قبل. فلا غرابة إذن فى هذه الظروف، أن نرى المكلفين بمرافقة مؤن المعابد يستولون على قسم كبير من الحبوب التى ينقلونها لاستخدامهم الخاص، كما سعى مختلف رجال الدين إلى التكيُّف بطريقتهم مع المصاعب الاقتصادية التى قد تعانى منها معابدهم. كان وضع الفلاحين والعاملين فى الحقول، عند مصادر الإيرادات العقارية ذاتها، يجعل على ما يظن، معاناتهم من صروف الدهر وشدائده أقل وطأة. ولكن صغار الموظفين والوسطاء بأعدادهم التى لا حصر لها، من جُباة ومرافقى المؤن الغذائية وكتبة الإدارات المحلية ورؤساء الحيازات، كانوا يستفيدون جميعًا من مناصبهم الرسمية ليضمنوا لأنفسهم حياة كريمة على حساب الجهاز الإدارى الذى يعملون به. ومن باب أولى، انتشرت هذه الأساليب نفسها فى الأقاليم التى شاع فيها الإفلات من القصاص بالنظر إلى بعدها عن المراكز الإدارية، وتواطؤ بعض الشخصيات المحلية الرفيعة التى كانت تستفيد بطبيعة الحال استفادة مباشرة من كل هذه الاختلاسات. أما جمهور عمال منطقة **طيبة** وحرفييها، فقد كانوا يحصلون على أجور متدنية، غير كافية أو تقلَّص نشاطهم، وأصبحت أوضاعهم غير مستقرة ورهن الظروف. فعمًا قريب سوف ينقضون على المقابر الملكية فى البر الغربى لمدينة **طيبة**، فيعيثوا فيها نهبًا، محاولين عن طريق تدنيس المحرمات وانتهاكها أن يفلتوا من السنوات العصيبة، سنوات البؤس وشظف العيش[١٦٨].*

وفى عهد **رعمسيس** السابع وخلفائه الاثنين، عانت **مصر** من محاصيل متدنية، فزادت حدة المجاعة. وفيما بعد، سوف يشار إلى هذه الأزمنة كتاريخ مرجعى فيقال: «*سنة الضياع، عندما كان الناس جوعى*».

هناك أزمنة تصبح فيها حاجة المرء إلى التصدى للبؤس وإلى البقاء على قيد الحياة، هى شغله الشاغل وأقوى بكثير من السُنن المقدسة. إننا أمام مشهد بالغ الوضوح ومحزن إلى أبعد حدٍ، عن الضياع المادى والأخلاقى لبلد لم يجد من يحميه، ملوك بات يُؤخذ عليهم ضعفهم المتناهى.

وقرب نهاية عهد **رعمسيس** التاسع، حاول البعض نهب وسرقة المقابر الملكية، فى البر الغربى من مدينة **طيبة**، بعد أن جذبهم ما بداخلها من ثروات طائلة. والمقبرتان الأوليان المستهدفتان كانتا مقبرتى **سخم رع - شدتاوى - سوبك إم ساف**، من ملوك الأسرة السابعة عشرة، ومقبرة الملكة **إيزيس** زوجة **رعمسيس** الثالث.

إن **پاسر** عمدة **طيبة** هو الذى اكتشف ما حدث. ولما كان يرغب رغبة حثيثة فى معاقبة هذه الجريمة، فضلاً عن اهتمامه بالإساءة إلى زميله ومنافسة **پاور** الذى كان مسئولاً عن إدارة البر الغربى، فقد قام بإخطار الوزير الذى عيَّن لجنة للتحقيق على أرض الواقع، فى **دراع أبو النجا**(*)، فاكتشفت أن بعض مقابر الأفراد قد سُرقت أيضاً. ولما كان الوزير يدعو **پاور** إلى الاستعجال، فقد توصَّل هذا الأخير إلى الكشف عن المتهمين. ولكن الغموض كان يكتنف هذه القضية. فقد اعترف أحد المهتمين بأنه دخل إلى مقبرة الملكة **إيزيس**، إلا أنه فشل عند إعادة تمثيل الجريمة أن يهتدى إلى الطريق الموصل إلى المقبرة المنقورة فى الصخر. وعلى كل حال فقد اتضح فيما بعد أنه برىء.

أما **پاور** فقد جرى الاحتفاء به، وثار **پاسر** محتجاً. ولغلق ملف هذه القضية الغامضة أمر الوزير بتبرئه المتهمين المزعومين.

والأقرب إلى الصواب أن **پاور** كان على علاقة باللصوص، وربما كان الوزير شخصيا قد تمت رشوته كسباً لتأييده فى الامتناع عن الحكم فى هذه القضية(١٦٩).

(*) تقع هذه المنطقة على يمين بداية الطريق المؤدى إلى **الدير البحرى**. (المترجم)

وبالطبع كان هذا الموقف بمثابة تشجيع للجناة الذين أخذوا يعتدون آنذاك على مقابر **وادى الملوك**، ومن بينها تحديداً مقبرتى **سيتى** الأول و**رعمسيس** الثانى. ولكن أُنزل العقاب فى هذه المرة بالمذنبين.

ومع ذلك، فقد استمرت أعمال السلب والنهب، إلى الحدِّ الذى بات من الضرورى، فيما بعد، فى زمن الأسرة الحادية والعشرين، تخزين المومياوات فى أكثر من خبيئة، حمايةً لها.

وفى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى، اكتشفت الخبيئة القائمة فى حضن جبل **الدير البحرى**(*).

الأجانب فى مصر

منذ انتصارات **رعمسيس** الثالث أخذ **الليبو** و**الماشواش** يتسللون إلى **مصر**، فى هدوء وبطريقة سلمية. وفى عهد **رعمسيس** الحادى عشر باتت مستعمرتهم فى الإقليم السابع عشر من أقاليم **مصر العليا**، إقليم **كينوبوليس**(**)، مستعمرة قوية يخشاها المصريون. وفى هذا الزمن تفجرت اضطرابات خطيرة فى هذه المنطقة. وللقضاء عليها اضطر **رعمسيس** الحادى عشر أن يستنجد بنائب الملك فى بلدان **الجنوب**، **بانحسى** الذى كان موجوداً آنذاك فى **مصر العليا**، ومعه فرقة من المرتزقة النوبيين.

وانتهت هذه المشكلة شديدة الخطورة باستيلاء القوات الملكية على مدينة **حرداى**(***)، عاصمة الإقليم السابع عشر، والتى كان «**الليبيون**» قد استولوا عليها.

(*) راجع: المومياوات المصرية، الجزء الأول، دار الفكر، ١٩٩٧، والجزء الثانى، دار الفكر، ١٩٩٩، ترجمة ماهر جويجاتى. وتحديداً الجزء الأول، ص ص ٤٢-٤٦. (المترجم)

(**) الاسم اليونانى لإقليم **أنبو** - أى إقليم **ابن آوى**، ويقع فى محافظة **المنيا** الحالية. (المترجم)

(***) تقع قبالة بلدة **بنى مزار** الحالية وشمال **الشيخ فضل**. (المترجم)

كما قام **المشواش** بمحاولة أخرى للاستيلاء على السلطة قرب نهاية الأسرة الحادية والعشرين. وسوف تنجح هذه المحاولة، ليتربع على عرش **مصر** ملوك ينحدرون من أصول ليبية ويحكموا البلاد على امتداد أسرتين ملكيتين هما الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين، من ٩٥٠ إلى ٧٣٠ تقريباً، ق.م.

وفضلاً عن ذلك، ومنذ عهد **رعمسيس** الثانى، كانت مستعمرات آسيوية قد استقرت فى **الفيوم**.

*«فى بداية الأمر، وفى عهد كل من **رعمسيس** الثانى و**سيتى** الثانى، إذا كان مقدرًا للآسيويين الذين استقروا فى **الفيوم** أن يتلقوا تنشئة مصرية، فيبدو أنهم تلقوا تعليمًا يؤهلهم لشغل أعلى المناصب فى الدولة. ولكن يعتقد أن المستعمرات التى جاءت بعد ذلك لتستقر فى هذه الأماكن نفسها، كانت أصلاً مجرد مستعمرات عسكرية. إن مدينتى **نا-خارو** - أى «السوريين» و**پن - خاسو** أى «مدينة **الشاسو**»، كانتا معسكرات جنود وليستا مدرستى إدارة. ويمكن أن نصل إلى نتيجة مفادها أن عصر **رعمسيس** السادس قد شهد تمركزًا ضخمًا للمستعمرات الآسيوية فى **الفيوم** و**مصر الوسطى**... وكان كل من **سيتى** الثانى و**رعمسيس** الثالث، قد ساهما فى زيادة أحجامها (١٧٠)».*

وفى ظل حكم ملك قوى وحازم كانت هذه المستعمرات الأجنبية القائمة فى قلب العاصمة ذاتها انعكاساً للإمبراطورية الشاسعة التى تداعب خيال **الرعامسة**، ولكن ما أن يتبوأ ملك ضعيف العرش حتى يشكل الأجانب تهديداً خطيراً.

هكذا كانت **مصر** تقوضها من الداخل مختلف القوى التى تسعى إلى القضاء عليها، وإلى تدمير سلطة الفراعنة، على كل حال. أما الإمبراطورية فقد كان وجودها الآن مجرد وجود شكلى.

إن زمن **الأمراء** العظام، كان قد ولّى وانقضى.

نهاية عصر الرعامسة وتأسيس نظام
ثيوقراطى(*) فى مصر

وعما قريب، وفى عام ١٠٨٥ق.م تحديداً، سوف يتربع على عرش **القطرين** **حرى حور** كبير كهنة **أمون** فى **طيبة**، ليؤسس الأسرة الحادية والعشرين.

ولا نعرف شيئًا عن أصول **حرى حور**. والأقرب إلى الصواب أنه كان عسكريًا، ولا شيء كان يؤهله ليصبح كبير كهنة، اللهم إلا أنه كان من المقربين إلى **رعمسيس** الحادى عشر ومن ذوى الحظوة لديه. وسرعان ما جمع بين أعلى المناصب، فكان بالفعل كبير كهنة **أمون**، والقائد العام لجيش **الجنوب** و**الشمال**، وفضلاً عن ذلك عينه **رعمسيس** الحادى عشر نائب الملك فى بلاد **الجنوب**، ثم وزيراً فى العام ١٩ من عهده. هكذا كان الجهاز الحكومى بأكمله بين يدَىْ شخص واحد. وفى حقيقة الأمر، يمكن القول إن **رعمسيس** الحادى عشر قد تنازل عن الحكم، من الناحية العملية، وسلم كل سلطاته إلى **حرى حور**. ولكن السبب الذى أدى إلى هذه الأحداث يظل فى نظرنا غامضاً.

وفى المدونات، يطلق أيضًا على العام ١٩ من حكم **رعمسيس** الحادى عشر «*العام الأول من النهضة*». هكذا كشف **حرى حور** عن طموحاته. إنه يبسط سلطاته فى الواقع، إن لم يكن على **مصر** بأكملها، فعلى **مصر العليا** على الأقل. ففى **مصر السفلى** كان الوزير الثانى **سمندس** يتولى أمر حكومة **الدلتا**.

وتساعدنا التصاوير والنصوص المنحوتة فى معبد **خونسو بالكرنك** على متابعة ارتقاء كبير الكهنة الطموح ارتقاءً تدريجيًا، حتى تربعه على العرش. فيظهر أولاً فى صحبة الملك، وإن كان منذ الآن على قدم المساواة معه. أما المدونات التكريسية

(*) أى حكومة دينية، نظام سياسى يستند على التفويض الإلهى الخارج عن إرادة البشر. حيث يتولى السلطة رجال الدين، كما يرى أن السلطة الدنيوية يجب أن تتبع السلطة الروحية.
د. أحمد زكى بدوى، معجم العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦. (المترجم)

الأحدث عهداً، فلا تذكر سوى **حرى حور**، وفى نهاية المطاف وفى فناء المعبد تحديداً، يظهر **حرى حور** بمفرده مرتدياً التاج الملكى.

ولا نعرف شيئاً عن مصير **رعمسيس** الحادى عشر.

هكذا انتهت السلالة الطويلة لأقوى ملوك **مصر**، وسقط نجمها فى غياهب الفقر والنسيان.

ومع آخر **الرعامسة** انتهى تاريخ **مصر** المستقلة، فأتت الغزوات من كل حَدَب وصَوْب، لتشمل أرض الآلهة وتغطيها.

واختفى من أرض **مصر** الجنود الأشاوس وجهابذة رجال الإدارة، فلم يعد وجود لمن يدافع عنها ويعمل على ازدهارها. ولكن يبقى **للرعامسة** أنهم استطاعوا الارتقاء بالروحانية المصرية وبأمجاد أرض الكنانة إلى أعلى المراتب وأسمى الدرجات.

الباب الثانى

الفراعنة الأباطرة،

سماتهم وأعمالهم

الفصل الأول

الملك - البطل،

أسطورة ملوك الرعامسة

من الممكن رسم **صورة شخصية** ذات سمات خاصة **للرعامسة** الذين ابتكروا أسطورة حقيقية للملك – البطل.

ترتبط هذه الأسطورة فى جانب منها بروح الماضى التليد، ولكنها تُطور تحديداً، إلى أبعد الحدود، المفهوم الذى كان سائداً حول الملك، كقائد عسكرى مقدام. وترسم له فى الغالب صورة جديدة، حتى يستطيع المرء أحيانًا أن يحدد تاريخ نص من عصر **الرعامسة** استناداً إلى أسلوب تعبيراته أو الفكر الذى يحركه.

وتسترسل الصور وتتابع فى إطناب، جامعة بين وقائع بسيطة قائمة على ملاحظات ثاقبة وأكثر الأساطير سمواً، كما تفتق بها ذهنهم، مع فيض من الكلمات ورونق الأساليب وتألق الفكر، مقتربةً فى الغالب من الصياغات الشعرية. ونذكر تحديداً نصوص **مدينة هابو**، لأنها رائعة الجمال فى بعض الأحيان، فلنعلن عن خالص امتناننا لهؤلاء الكتبة الملهمين!

وحتى **الرعامسة** الضعفاء فى نهاية هذه السلالة، سيستخدمون أيضًا هذه الصور، وإن كان أسلوبهم أسلوبًا شكليًا بحتًا، ولكنهم سيحاولون هكذا أن يرتبطوا ولو بالكلمات، بالتقليد العظيم المتواتر الذى أسسه أجدادهم الأمجاد.

وبادئ ذى بدء، ترتبط هذه الأسطورة بشخصية الملك - البطل ذاتها؛ أى الخصال التى تميزه، والوظائف الأساسية المطلوب منه النهوض بأعبائها، والأشكال العالمية التى فى وسعه تقمصها، وأخيراً العلاقات الفريدة التى تربطه بالآلهة.

وتتعدد الصور الأسطورية عندما يخوض المقاتل الملكى المعارك. إن وصف الأسلحة ومراحل المعركة ذاتها، يرتبط بعالم الأسطورة بقدر ارتباطه بالملاحظة العينية على أرض الواقع.

والأبطال أيضًا يتمتعون بقسط من الراحة، كما أبدع **الرعامسة** أسطورة السلام، لتُعبِّر بصور بسيطة محركة للمشاعر، عن ولعهم بالأيام الهادئة التى تعشقها قلوب المصريين.

أولاً: الصورة الشخصية للبطل

*إنه الملك المقدام الذى يحمى **مصر**، رب القدرة، صاحب الساعدين الجسورين، والصدر العريض، المدرك قوته. إن اسمه وحده يلحق الهزيمة **بالأقواس التسعة**. إن هيئته ممتلئة زهوًا، بعد أن رأى تقتيل الفسقة، بينما يتأمل هادئًا راضيًا،* (بعد أن أرْدَى) *عشرات الآلاف* (من الأعداء قتلى). *إنه يفرح عند سماعه صياح* (المعارك)، *فلا يتوقف عن الانقضاض على الرجال الأقوياء الذين يرتعدون* (عند رؤيته).

*إنه سيد **القطرين: أوسر ماعت رع – محبوب – أمون،***

*ابن رع: **رعمسيس – حاكم – مليوبوليس.***

*إنه العاهل الملكى المنَّان، فظهره سند وعون. وشامخة هى هيبته فى قلوب الآسيويين، هو الذى يُردى البلدان الأجنبية قتلى ويهزم مدنهم ويُميت أفواهم. إنه سور عظيم حول **البلد** المحبوب، والثور القوى الذى ينقض على كل من يهاجمه، إنه الأمير المقدام فلا مثيل له، وقوانينه تغالب الأيام.*

*إنه سيد **القطرين، أوسر ماعت رع – محبوب – أمون،** وسيد التجليات المجَّدة، إنه **رعمسيس – حاكم – مليوبوليس***[1].

هكذا صُوِّر **رعمسيس** الثالث.

صفات الأمير

ترتبط هذه الصفات بجميع جوانب الشخص، الجسمانية والذهنية والأخلاقية.

الملك جميل، شأنه شأن أبطال كل الحكايات الخيالية.

بل ومنذ رابع **التحامسة** كان الملك يتباهى بجمال مظهره:

*ولما كان **صاحب الجلالة** لايزال فتًى مثل الولد **حورس** في **خِمِّيس**(*) كان جماله منذ ذلك الوقت مثل جمال «**حامي والده**» (أي **حورس**) وكان ينظر إليه بصفته الإله ذاته*[٢].

ويُمتدح «*الوجه الكامل*» للملك **رعمسيس** الثاني، إنه «*جميل عندما يرتدي الخوذة الزرقاء*». ولايقصد بذلك فقط الجمال الذي تعنيه كلمة **نفر** المصرية(**)، بما تنطوي عليه أيضًا من دلالة معنوية، بل أيضًا الجمال البدني المحض الذي تترجمة كلمة **من**(***) المصرية التي تعني «*ما يُمتع الناظر إليه*».

إن جمال **رعمسيس** الثالث من جمال الآلهة. إن العاهل الملكي «*جميل عندما يشرق على عرش **آتوم**. وقد يخيَّل للمرء أنه يرى **رع** عند مطلع الفجر*». «*إن جمال وجهه يشبه جمال قرص الشمس*». إنه «*جميل عندما يتجلى باعتباره **ملك مصر العليا ومصر السفلى**، بصفته ابن **إيزيس***».

وفي خضمّ المعركة يزداد جمال البطل تألقًا. إن **رعمسيس** الثالث «*جميل عندما ينقض مهاجمًا، فهو يشبه صورة **ست** رافعًا ساعديه، إنه بطل*». «*الملك جميل عندما*

(*) جزيرة أسطورية تقع في مستنقعات الدلتا، ولاتبعد كثيرًا عن **تل الفراعين** - شمال غرب **وسط الدلتا**. لجأت إليها **إيزيس** بعد مقتل زوجها **أوزيريس**. راجع: إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتي، دار المستقبل العربي، ٢٠٠١، ص١٤٢. (المترجم)

(**) راجع رسم علامات هذه الكلمة بالخط الهيروغليفي. برناديت موني، المعجم الوجيز في اللغة المصرية بالخط الهيروغليفي، ترجمه عن الفرنسية ماهر جويجاتي، دار الفكر، ١٩٩٩، ص٢٩. (المترجم)

(***) راجع رسم علامات هذه الكلمة بالخط الهيروغليفي. المرجع السابق، ص٦٥. (المترجم)

يمتطى جواده، فمثله مثل **مونتو** *عندما يظهر أشبه بشمس* **مصر**... *وقد اتحدت الهيبة والهلع والخوف بأعضائه*(٢)».

إن الجمال هو المظهر الذى يتخذه كائن فذّ.

الرجولة والقوة

حقًا، إنها صفات ضرورية، تكاد تكون مألوفة بالنسبة لفاتح مغوار.

لقد حدث فى السابق أن قام **آمون** «*بتأسيس*» **أمنحوتپ** الثانى على «*المقدرة والقوة*».

وعلى وجه التحديد، فإن **رعمسيس** الثانى هو «*رجل* **مصر** *وزوجها الذى يجعلها شديدة العزم، وأكثر من أى بلد آخر*». «*كان صاحب الجلالة سيدًا شابًا، وبطلاً لا مثيل له، مفتول الساعدين، شديد القلب*». إنه وصف عالمى للبطل: سواء فى الأناشيد الهوميرية(*) أو فى ملاحم **العصور الوسطى**.

أما **مر إن پتاح** فقد «*نهض ليضمن حماية الشعب، إنه يتحلى بالقوة لتحقيق ذلك*».

وأما **رعمسيس** الثالث فهو «*صاحب القلب الثابت العزم*»، وعندما تحاصره الأخطار، يستطيع أن يظل سيِّد الموقف، لأنه «*يستند إلى ساعده، ويدرك مدى قدراته*».

(*) نسبة إلى **هوميروس**، من أعظم شعراء **الإغريق**، ويعتقد أنه عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد. من أهم أعماله ملحمتا **الإلياذة والأوديسة**. (المترجم)

بالإضافة إلى الصفات البدنية الواضحة، لابد أن يتمتع **الأمير** بذهن مستنير وقدرة على المعرفة والفهم. فمنذ أقدم الأزمنة، بل ومنذ **ساحورع**(*)، يعتبر **الفرعون** «*فاحص الأبدان والقلوب*». ولكن أكثر من أى وقت مضى، وفى ظل حكم **الرعامسة**، وهى سنوات وقعت تحت وطأة مشاكل دولية عويصة، أصبحت معرفة العالم معرفة تامة، وضرورة أن تعتمد الخيارات السياسية على ذهن صافٍ، أمران لا غنى عنهما:

«*فلا شيء يجهله*» **سيتى** الأول. إنه «*فطن فى كل مكان، متحدث بفمه عامل بساعديه*»: فالتصور يأتى من الذهن والكلمة تنقل الأمر كما تم تصوره، ثم يحققه الساعدان. فالفعل يأتى من وعى ثاقب ونشط بالأشياء. وفى كثير من الأحوال، تقابلنا فى نصوص **الرعامسة** كلمة ذكاء، صفة من صفات الملك، والتى نترجمها إلى المصرية بعبارة **سيپد-حر**، ومعناها الحرفى «*يكون حاد الوجه*». وكما هو الحال، فى الغالب، فإن اسم الصفات المجردة يجد تعبيراً له عن طريق مظاهره العينية الملموسة، وفى الحالة التى نحن بصددها، نقصد الشد البدنى الناتج عن عملية التفكير.

إن **رعمسيس** الثانى «*لا يجهل كل البلدان المجتمعة*». «*إن حافظته تتذكر البلدان الأكثر بعداً*». «*إنه يعرف **مقرَّ - يده***(**)، *نظرا إلى حدة إدراكه لكل بلد من البلدان الأجنبية*».

إن القوة والذكاء تقودان إلى الفاعلية الناجعة.

إن **رعمسيس** الثالث:

(*) من ملوك الأسرة الخامسة. (المترجم)

(**) بمعنى: ما كان فى وسعه عمله. (المؤلفة)

قوى ومقدام بينما يجمع البلدان ومصر(*)، وقد انحل قلبه وانفك مثل قلب تحوت(**). إنه يضمن مصائرها مثل بتاح، إنه فكر ثاقب، نواميسه مفعمة بالبركة، ولا مثيل له، ويشبه رع بعد أن بدأ (ينظم) البلد نظامًا ملكيًا(٤).

الحكمة والعقل

إنهما صفتان إلهيتان من الطراز الأول، كما أنهما تجسدان حقيقة فكر الملك المستقيم، ثاقب النظر.

كان **تحوتمس** الثالث قد سبق له أن تبنى هاتين الصفتين الأساسيتين:

وأنعم علىَّ بكل تألقه وحصلت على كفايتى من حكمة الآلهة، مثل حورس الذى شبَّ وترعرع فى منزل أبيه أمون-رع، ومُنحتُ الصفات الإلهية، بالكامل(٥).

وحور إم حب هو «*أبو الشاطئين، وهو الحكمة الفائقة المنوطة بإله طيب، لسنِّ قوانين القطرين*»(٦)(***).

أما **رعمسيس** الثانى «*فقد خرج من بطن (أمه) وهو منذ هذه اللحظة حصيف(****) فى مقاصده، حكيم فى حدود الزمن الأبدى* [بأكمله]»(٧). بل إن قائمة ألقاب الملك ذاتها تبرز هذه الصفات ذات الأصول الإلهية: «*إن مقاصده هى مثل مقاصد **تحوت** الذى يسنُّ قوانين صالحة فى البلدان... إنه حكيم فى كل مشاريعه، مثل **تحوت***»(٨). أما **رعمسيس** الثالث، «*فإنه يجمع بين مقاصد موفقة، بالنظر إلى حصافته منذ طفولته*». إنه «*حكيم مثل **تحوت** وحصيف مثل **شو***».

(*) إنه تعريف للإمبراطورية. (المؤلفة)

(**) لما كان القلب مركز الفكر، فإننا أمام أسلوب آخر للدلالة على ذكاء الأمير. (المؤلفة)

(***) إنه تألق **أمون** على الصعيدين البدنى والروحى. (المؤلفة)

(****) الفعل العربى حَصُف يعنى: استحكم المرء عقله وجاد رأسه. المعجم الوسيط. والاسم حصيف يعنى: محكم العقل جيِّد الرأى. المعجم العربى الأساسى. (المترجم)

إن الكلمة التى تعرِّف العقل – وهى **إيب** بالمصرية القديمة، هى الكلمة نفسها الدالة على الفعل «حَسَبَ». إنها تترجم عملية العقل التى ينتج عنها خيار، أُمعن النظر فيه(*). والتماثل نفسه قائم مع الكلمة اللاتينية ratio(**).

اليقظة والفاعلية

وُجدت هذه الصورة،منذ **حور إم حب**، مؤسس سلالة **الرعامسة**: «*كان **جلالته** يسهر ليل نهار، فاحصًا ما يمكن أن يفيد **البلد** المحبوب، باحثًا عن أفعال جالبة للخير...*»

هذا **الأمير** اليقظ الساهر على شئون شعبه ورخائه، نلتقى به فى كثير من الأحيان فى نصوص **الرعامسة**، فعن **رعمسيس** الأول قيل: «*كان القلب ساهرًا على الدوام*». أما **سيتى** الأول: «*فيظل واقفًا ساهرًا، ببسالة وقوة مثل **نوت***»(***). أما **رعمسيس** الثانى فهو «*المستشار اليقظ للمقاصد جالبة الخير*». إن اليقظة الدائمة تجلب المنافع والفوائد والفاعلية، فعن **رعمسيس** الثانى يقال: «*نصائحه مرغوبة، فلا تُمنَى واحدة منها بالفشل*».

ويكتمل هذا الوصف بهاتين الصورتين الذهنيتين للفاتحِين المغوارين:

❖ **رعمسيس** الثانى:

*لقد وحَّد **القطرين** فى سلام، مثل أبيه **تاتان**. لقد أقامه **رع** على عرشه، ضمانًا لحماية هذا البلد، لأن فكره سامٍ واسمه المقدس ثابت. **كما لا يوجد كمثله إله**. إن كلماته منتقاة، ومقاصده تحقق النجاح، لأنه حصيف*(٩).

(*) انظر المرجع السابق ذكره، المعجم الوجيز فى اللغة المصرية. ص٤٦. (المترجم)

(**) الفكر، والحُكم: بمعنى قرار ذهنى برأى مُعيَّن. مجمع اللغة العربية، القاهرة، المعجم الفلسفى.(المترجم)

(***) إنها إلهة السماء التى لا تغلبها سِنَة ولا نوم. (المؤلفة)

• **رعمسيس** الثالث:

لا تحلُّ لحظة واحدة... لا تأتى بغنائمها، بفضل المقاصد والنصائح التى فى قلبى والهادفة إلى ازدهار البلد المحبوب(١٠).

الهيبة والمجد

وهما أيضًا صفات معنوية جوهرية يتحلَّى بها الملك – البطل، كما ستصبح بالنسبة له أسلحة أسطورية فى ساحة القتال.

وقد سبق أن تمتع **التحامسة** الأوائل بهذه الهيبة. ففى المدونة المتشامخة المنحوتة على صخور **طمبس**(*) وردت هذه الجملة المقتضبة التى عاد الفاتحون الآخرون، إلى استخدامها من جديد: «*إن مجد صاحب الجلالة يُفقد بصر*» الأعداء.

كما أن **سيتى** الأول يصيب العدو بالشلل، لمجرد وجوده:

*إنه ذاهب لتوسيع حدوده. كان وجهه مهيبًا، بسبب ما يظهره من مقدرة. فلا يوجد بلد أجنبى واحد فى وسعه أن يبقى أمامه واقفًا. يخافه الجميع بسبب هيبته، وصيحاته صيحات الحرب تنتشر عبر الأراضى الأجنبية، ويظل مجده فى قلوب **الأقواس التسعة***(١١).

أما **رعمسيس** الثانى: «*فلا يستطيع ألف رجل البقاء بقاءً ثابتًا أثناء وجوده*».

وكثيراً ما يُدعى **رعمسيس**: «*سيد الفرح والسرور*»، لأن صفاته تجلب السعادة على شعبه.

الملك الحامى

أن يتولى الملك تأمين حماية البلد، ليس وظيفة جديدة. ولكنه أمر ملح بالنسبة **للرعامسة**. إنها مدونة ضمن أسمائهم، أى جوهرهم ذاته. وكثيراً ما تلحق صفتان

(*) جنوب الجندل الثالث. (المترجم)

بلقب «*السيتى*» أو بلقب «*حورس الذهبى*». ونذكر فى هذا الصدد **رمسيس** الثانى، إذ يوصف بأنه «*من يحمى **مصر** ويربط البلاد الأجنبية*». وفيما بعد سوف يتخذ **الإسكندر الأكبر** من الصفة الأولى شعاراً له. كما نشير تحديداً إلى أن الصور التى تُعرِّف سلطة الملك صور متنوعة وموحية.

رمسيس الثانى هو:

*من يهبُّ لمساعدة الضعيف، وزوج الأرملة وحامى اليتيم، ومن يستجيب للمحتاج، والراعى المقدام الذى يحافظ على حياة البشر، وسور **مصر** شديد الفاعلية، ودرع ملايين البشر، وحامى الجماهير المؤلفة*(١٢).

الراعى الصالح

هذه الصورة التى شاع استخدامها فى العهد الجديد من الكتاب المقدس، صفة **للسيد المسيح**(*)، قديمة جدا فى وعى الساميين. وتعود أولى أمثلتها إلى الأسرة العاشرة المصرية وتحديداً إلى **خيتى** الثالث. وكثيراً ما أعيد استخدامها فيما بعد.

إن **سيتى** الأول هو «*الراعى الصالح الذى يُحْيِى جيشه، إنه أبو وأم البشر أجمعين*».

و**رمسيس** الثانى هو: «*الراعى الصالح لشعبه*».

ويُطمئن **مر إن پتاح** المصريين الذين انتابهم القلق مع وصول **مريى** إلى **پرى رع**. فيقول لهم: «*أنا راعيكم، إنى أسهر لأسحق* (أعداءكم)، *فمثلى مثل أب يؤمِّن حياة أولاده، فى حين أصابكم الهلع مثل العصافير*»(١٣).

(*) الإصحاح العاشر من إنجيل **يوحنا** مكرس **للراعى الصالح** وأذكر بعض آياته على سبيل المثال: أنا هو الراعى الصالح والراعى الصالح يبذل نفسه عن الخراف... أما أنا فإنى الراعى الصالح وأعرف خاصتى وخاصتى تعرفنى... وتكون رعيةٌ واحدة وراعٍ واحد. (المترجم)

إنه الثور الذى يقود قطيعه، هكذا تظهر صورة **رعمسيس** الثالث: «*تتجمع أرجاء البلاد بجوارى، فأنا قائم إقامة راسخة، وأقف على رأسهم، مثل الثور*».

الجدار النحاسى

كما أن **فرعون** هو أيضًا جدار حام، من النحاس فى أغلب الأحوال، وفى بعض الأحيان ولكن من النادر، أن يكون من الظُّرَّان(*).

النحاس رمز لتألق يذكِّرنا بتألق الذهب، وإن كان بقدر أقل بريقًا. وإذا كان الذهب يشكل لحم الآلهة وبدن الشمس، فالنحاس هو المادة الأسطورية لعناصر الكون السماوى الأخرى، فالنجوم والقبة السماوية من النحاس. كما أن أبواب السماء والجدران التى تحمى **المنطقة العليا**، هى أيضًا من النحاس[١٤]. هكذا فإن الملك هو بمثابة جزء من جدران السماء، وكأنه وجهها الأرضى المحوَّر. ومنذ قيامه بنشاطه حاميًا، يكون انعكاسًا **للمنطقة العليا**.

ويبدو أن هذه الصورة قد برزت إلى الوجود فى ظل الأسرة الثانية عشرة، فى أعقاب الثورة الداخلية الأولى التى عرفها **المصريون** الذين سعوا بطبيعة الحال إلى الاحتماء **بفراعنة** جدد. ففى ترنيمة إلى **سنوسرت** الثالث نقرأ:

«*كم هو عظيم* ***السيد*** *من أجل مدينته! إنه سور، جدرانه من نحاس*».

كما أن **تحوتمس** الثالث: «*حصن عظيم الفائدة لجيشه. إنه سور مانع من النحاس*».

وفى عهد **الرعامسة**، تطورت هذه الصورة لأن أى صورة تفتق عنها ذهن الفكر المصرى لا تظل ثابتة على الدوام. بل تزداد انتشارًا، مع إدخال تعديلات عليها، بفضل خيال شاعرى خصب. فنجد فى أغلب الأحوال أن ساعدى الملك، أو جناحيه الممدودان، يشكلان ما يشبه غطاءً شاسعًا أو سورًا مانعًا وحاميًا.

(*) نوع من الحجارة الصلدة. (المترجم)

أما **سيتى** الأول:

فإنه يخلق من ساعديه سوراً من نحاس، عندما يبسطهما، يوم الوغى.

وتتحدث الإلهة **سيشات** إلى **رمسيس** الثانى الذى أصبح أشبه **بسور الصين العظيم**، قائلةً:

لقد أعدت الشجاعة إلى **مصر**، *لأنك سيدها. لقد مددت جناحيك فوق شعبها، ولذلك فأنت بالنسبة لها سور عظيم من نحاس. إن قمته من الظُّرَّان، وفيه تكون أبوابك من النحاس. ولن يستطيع رجال الصحراء اجتيازها*(١٥).

فى مساء اليوم الأول من معركة **قادش**، عندما انضم الجيش المرتبك خجلاً، والنادم على ما ارتكبه، إلى البطل الذى استطاع انقاذ **مصر** بمفرده، تحدث إليهم هذا الأخير متهكماً قائلاً: «*حقًا، لا تستطيعون أن تجهلوا فى قلوبكم أننى بالنسبة لكم سور من نحاس!*»

وعند وصول النجدات، كان لا يزال هناك:

مثل جبل من نحاس ومثل سور مانع من النحاس، (ليغالب الأيام) *للزمن اللانهائى وللزمن الأبدى.*

والصورة فى نصوص **مدينة هابو** هى صورة «*جدار شامخ*» يحمى فى أن واحد من الأعداء ومن شدة الحر.

إن **رمسيس** الثالث هو:

من يُطمئن قلب **مصر**، *لأنه مكلَّف بحمايتها. إنه يحمل البلد على أعلى ظهره، ومن ثَمَّ لم يعد أحد يسمع النحيب والنواح. إنه السور المنيع الذى يُلقى بظله من أجل الشعب*(١٦).

*وبالنسبة للإنسان البعيد، فهو أشبه بأنفاس قرص الشمس القائظة فوق **القطرين**، ولكنه سور عالٍ يلقى بظله على **البلد** المحبوب، جالبًا الجو المنعش للجالسين تحت ساعديه المفتولين*(١٧).

هنا تتداخل الصورة مع الصورة التى سبق وصفها.

درع البلد

هذه الصورة قريبة من سابقتها.

إن **رمسيس** الثالث هو:

*الدرع الكبير الذى يستر **مصر**، جالبًا الجو اللطيف للجالسين فى ظل ساعديه.*

كما تبرز عبارات أخرى هذه الحماية التى يضمنها **الأمير**، فيقال عن **رمسيس** الثالث:

- *لقد التففتُ حول **مصر** التفاف الثوب. لقد سترتها بساعدِى الباسل، منذ أن نُودِىَ بى ملكًا على **مصر العليا ومصر السفلى**، متربعًا على عرش **آتوم**.*
- *كانت **مصر** فى ضيق، فلا يوجد من يرعاها، وهو ما كان يحتاج إليه الشعب، بسبب **الأقواس التسعة**. عندئذ دثَّرتها وشددت من أزرها بفضل قوتى، فقد كنت باسلاً مقدامًا. وظهرتُ مثل **رع** بصفتى ملك **مصر** وشملتها بحمايتى*(١٨).

ونجد أحيانًا أن المصريين قد عبَّروا عن عرفانهم بالجميل بطريقة مثيرة للمشاعر. فعن **رمسيس** الثانى يقولون:

*جماله فى الجسد كالماء والنسيم. والجميع يحبونه كما يحبون الخبز والثياب، إنه أبو وأم هذا البلد بأكمله، إنه نور **الشاطئين والقطرين** والبشر أجمعين*(١٩).

كان مقدراً لكل ملك من ملوك **الرعامسة** أن يكون محارباً. كان هذا المصير محدداً له حتى قبل أن يولد. كانت هذه الوظيفة الملكية أساسية فى زمن **الرعامسة**.

فيقول **رعمسيس** الثانى:

«*إن وظيفتى مماثلة لوظيفة* ***رع*** *ووظيفة* ***ست*** *عندما يستشيط غضبًا عند قيدام* ***قارب الليل***».

يولد الملك مجهزًا تجهيزًا كاملاً لخوض معارك مظفرة، مهيئًا من قبل الآلهة.

فيقول **رعمسيس** الثانى:

منذ أن خرجت من بطن أمى كنت مزودًا بالفعل بالبسالة والقوة، ومجهزًا بالكامل، كنت قادرًا متأهبًا للقتال. كنت أسير وكأننى ولد الإله، كما تربعتُ بثبات على عرشه «المخضوضر» ولاحظت أن الجميع سعداء بسببى، وكأننى ***حورس*** *بن* ***إيزيس***[٢٠].

عندئذ تصبطغ أعضاؤه باللون الأحمر، لون الدم، الذى يُبعد أيضًا القوى الضارة. وتظهر هذه الحقيقة بصدد **رعمسيس** الثانى:

لقد خرج من بطن (أمه)، متأهبًا للقيام بالفتوحات، فكان على قوته أن تتوسع فى حدوده. عندئذ اصطبغت أعضاؤه باللون الأحمر، أى بمقدرة ***مونتو*** *ومقدرة* ***حورس*** ***وست***[٢١].

فهل تحقق أيضًا هذا العمل من أجل **حور إم حب**؟

«*لقد خرج من بطن (أمه) وقد تحلّى بالفعل بالهيبة، إذ كان اللون الإلهى عليه*».

وكان «*صورة إلهية بلونها، فى نظر من يتأمل شكله*»[٢٢].

وقصارى القول فربما كان لون البطل علامة على مصير يميل إلى الحرب.

وتشهد مغامرة أركيولوجية غريبة عن دور **الفرعون** بصفته حامياً، وهى الوظيفة التى تولاها **الرعامسة** على وجه التحديد، فى هذه الأزمنة التى انتشرت فيها الاضطرابات.

فعندما كان القس **إيتيين دريوتون**(*) Etienne Drioton مديراً لمصلحة الآثار المصرية، روى قصة تمثال **رعمسيس** الثالث العجائبى(٢٣). فقد جاءنى ذات يوم «أحد الباحثين عن الكنوز غير المعترف به»، طالبًا التصريح بالقيام بأعمال التنقيب، فى مكان حدَّده بكل دقة «فى الصحراء الواقعة شرق **القاهرة**، يبعد أربعة كيلومترات جنوب **المائلة**». وفى المكان المفترض على وجه التحديد، عُثر على بقايا تمثال جماعى من الكوارتزيت الوردى «كان قائمًا عموديًا وكأنه وضع أصلاً فى هذا المكان»، فى حين تهدَّم المبنى الذى كان يظله. كان هذا التمثال الجماعى يصور ملكًا، نعرف أنه **رعمسيس** الثالث، من واقع الخرطوش المنحوت، وبجواره ملكة أو إلهة لم يتبق منها سوى الساعد الذى كان يحيط بكتفى الملك والجزء الأسفل من الجسد. كانت ساقا **رعمسيس** وساعداه ووجهه قد حُطِّمت. هكذا فقدَ القدرة على المشى والحركة والإبصار، بعد أن حاول البعض **اغتيال** السحر العتيق للأشكال. وعلى جانبى العرش وظهره، نُحت تسعة وأربعون سطراً من النصوص، كانت عبارة عن رُقًى سحرية ضد الثعابين والعقارب.

«إن المعبد الصغير الذى عُثر على تمثال **رعمسيس** الثالث الجماعى بين جدرانه، لم يكن سوى مُصلِّية مخصصة لأفراد القوافل، مثل المعابد التى تحتفظ بها مدينة **الكاب**، عند مشارف الدروب التى تخترق الصحراء فى اتجاه **البحر الأحمر**. ومثلها كان هذا المعبد الصغير مقامًا على مقربة من **وادى النيل**، فى النقطة التى

(*) عينته الحكومة المصرية عام ١٩٢٤ مديراً لمصلحة الآثار المصرية، خلفًا للعالم الفرنسى **بيير لاكو** Pierre Lacau.

(المترجم) Ch. Desroches Noblecourt. La Grande Nubiade. Stock / Pernoud. 1992, p.99.

تختفى فيها مشاهده الطبيعية، فلا يتبقى للمسافر سوى أن يُسلم أمره لآلهة الصحراء التى كانت تشرف على الطريق المؤدى إلى **برزخ السويس** والذى يتفرع، بعد اجتياز **الجبل الأحمر**، من الطريق الكبير الذى يربط **منف** بمدينة **هليوبوليس**. ومن المعروف أن صحراء برزخ **السويس** كانت قد اكتسبت، منذ العصور القديمة سمعة مأساوية. فيُقال إنها تعج بالثعابين المتوارية فى الرمال... وبالتالى كان تمثال **رعمسيس** الثالث الجماعى، فى هذه المصلية القائمة عند بداية رحلة المسافرين، يهدف إلى حمايتهم من الزواحف ومن لدغتها التى قد تعرض حياتهم، فى كل لحظة من اللحظات، للموت».

وتختلف **آلية** هذه التماثيل عن آليه التماثيل الشافية من الأمراض. ففى هذه الحالة الأخيرة، كان **الشفاء** هو المطلوب، أى «التصدى لعدو دخل بالفعل إلى المكان، أى دخول السم فى الجسد»، ومن ثم ضرورة تناول شراب سحرى وهو عبارة عن سائل سُكب على التعاويذ ذاتها فامتص قوتها السحرية. أما فى الحالة التى تعنينا، فكان المطلوب «استباق الأمور»، أى إقصاء عدو ما زال خارج الجسد. فالتعاويذ المنحوتة على التمثال «تعطيه قوتها وبدوره بعد أن شُحن التمثال بهذه القوة الكامنة، يصبح فى وسعه نقلها عن طريق الملامسة». هكذا ينشأ من حول الإنسان «إشعاع سحرى»، يعمل على إبعاد الحيوانات الخطرة.

وفيما نعلم، لا نعرف بوجود مثل هذاالمعلم الأثرى قبل **رعمسيس** الثالث(٢٤). إنه ابتكار تفتق عنه ذهن **الرعامسة**، الراغبين فى إيجاد الحماية لشعب **مصر**، بشتى الطرق والأساليب.

الملك البطل والكون

كان البطل فى **مصر** القديمة لا يكتفى بمجرد الوسائل البشرية عند خوض المعارك، فيتخذ أشكالاً حيوانية أو يندمج فى عناصر الكون. ولا يقتصر الأمر على مقارنات بسيطة أو مجرد صور، ولكنها إمكانيات للوجود، إنها **حرية** لا تعرف لها حدوداً.

إن الحرية فى نظر **المصرى** تعنى ليس فقط قدرته أن يغدو ويروح بلا قيود، ولكن أيضًا أن يتخذ لنفسه الشكل الذى يريده من بين أشكال العالم المخلوق. كانت هذه الحرية غير متاحة للبشر إلا بعد وفاتهم، بفضل معرفتهم للتعاويذ المناسبة، أما **الفرعون** باعتباره كائنًا استثنائيًا، فكانت هذه الإمكانية متاحة له طوال فترة حياته على الأرض، وتحديداً إبان المعارك، عندما تصبح كل الفعاليات الكونية ضرورية ضمانًا لانتصار البطل.

الأشكال الحيوانية

يتخذ الملك المقاتل هيئة حيوانات قوية وعدوانية، ويستخدم أسلحتها، كالثور والأسد والفهد، أو هيئة حيوانات مفترسة تعيش على القنص كالصقر وابن آوى، بل وهيئة حيوانات أسطورية، نذكر منها على سبيل المثال **العنقاء**(*) griffon.

إن استخدام رمزية الثور والأسد لنعت زعيم الحرب لم يكن شيئًا جديداً. فقد سبق أن ظهرت من قبل على نقوش الصلايات التى تعود إلى عصور ما قبل التاريخ. ونلتقى عادة بصفة «*الثور القوى*» التى تُذيِّل أول ألقاب الملك وهو الاسم **الحورى**. ولكن أوصاف الحيوان الملكى فى خضم المعركة اكتسبت فى نصوص **الرعامسة** بُعداً على قدر كبير من الواقعية، بل وشديد القسوة، وتبرهن على ملاحظة ثاقبة فى التعرف على حياة الحيوانات وسلوكها.

إن **سيتى** الأول هو «*الثور القوى، ثابت القلب فى الحلبة، فتستحيل هزيمته*».

وفى اليوم الثانى من معركة **قادش**، يقول **رمسيس** الثانى:

«*كنت متأهبًا للمعركة، مثل ثور نفد صبره*»

وضد **الجنوب**، فهو أيضًا:

(*) طائر متوهم لا وجود له، تخيله القدماء ثم صوروه برأس العقاب وجسم الأسد. المعجم العربى الأساسى. راجع أيضًا: إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص٢٢٥. (المترجم)

*ثور قدير ضد بلد **كوش** الخسيس، يصل عجيج خُواره إلى منطقة **الزنجى**. إن حوافره تدهس **النوبيين**، بينما يخترقهم قرناه*[٢٥].

أما **مر إن پتاح** فهو:

الثور الواقف فى الحلبة، وعينه وقرناه فى الوقت نفسه، متأهبة (على الدوام) *للاصطدام برأسه على كل من يهاجمه*[٢٦].

كما أن **فرعون** هو «*أسد قدير*» أو «*أسد هائج*».

فينفذ **رعمسيس** الثانى، *إلى قلب الأجانب، كالأسد إلى وادٍ* (ترعى) *فيه الماشية*».

أما **مر إن پتاح** فهو «*الأسد الضخم الذى يستدير على يمينه*(*)، *ثم ينتصب ويثب فى اتجاه حدود الأرض*(**)، *بحثًا عن عدو البلد ولايسمح له أن «يتفيأ» مرة ثانية*[٢٧]».

يا له من زَهْو وتشامخ فى ملامح هذا الأسد الملكى!

كان فى وسع الملك، منذ عهد **تحوتمس** الأول، أن يتخذ شكل الفهد، فطابعه العدوانى يليق بمحارب مغوار. إن **رعمسيس** الثالث هو «*فهد **الجنوب** الذى شاهد المذابح*».

إن مخلبَىْ الصقر والسرعة التى ينقض بها على فريسته تُنسب إلى **فرعون**. ففى معركة **قادش** يتحدث **رعمسيس** الثانى ليُهدئ من روع قائد مركبته **مننا** المذعور، قائلاً له: «*سوف أهاجم الأعداء كما ينقض الصقر على فريسته*». هكذا «*فإنه أسرع من السهم على القوس، لأنه يطير كالصقر الإلهى*». وبعد أن تحقق له النصر «يتجمع

(*) فى اتجاه **ليبيا**. (المؤلفة)

(**) بلد **كوش**. (المؤلفة)

الزعماء في قبضته، كما يطوق الصقر صغار العصافير». ويظل **رعمسيس** الثالث: «*الصقر الإلهي الذي يضرب ويُمسك*».

أما الاندماج في العنقاء فهو ظاهرة أحدث. والعنقاء حيوان أسطوري له منقار نسر، أما في **مصر** فله في الغالب خَطْم ابن آوي الطويل أو حيوان ينتسب إلى **ست**، وله أيضًا جناحان قويان وجسد أسد. وفي العالم **الهلّيني** «*كانت طيور العنقاء مكرسة للإله **أبولون**، فتحرس كنوزه في مواجهة فرسان منطقة **سكيتيه*** Scythie *في أقصى الشمال. وبعض الباحثين الآخرين يجعلون من **إثيوبيا** أو **الهند** أيضًا، مكانًا لوجود العنقاء. كما ترتبط طيور العنقاء بالإله **ديونيزوس*** Dionysos، *فقامت على حراسة وعاء خمره*[٢٨]» إنها إذن حيوانات وظيفتها الحراسة والحماية، بسبب ما تتحلى به من قدرة تأتي من أشكالها الحيوانية المتنوعة التي تجمعت في كائن خيالي، يسعى إلى مزيد من الفاعلية. وفي **مصر**، ذُكر **الملك - العنقاء** لأول مرة في عهد **رعمسيس** الثاني، ليشيع استخدامه في عهد **رعمسيس** الثالث. تُرى لمَ ذكر طائر العنقاء في هذا العصر تحديدًا؟ إن كبرى تحركات الشعوب التي كانت السمة البارزة لهذا الزمن، ونزوع **الرعامسة** إلى إكساب الروحانية أبعادًا عالمية، قد ترتب عليها تبني أشكالٍ جديدة، أتت بلا شك مع **شعوب البحر**.

هكذا ففي معركة **قادش**، كان **رعمسيس** الثاني يطارد **الحيثيين** «*مثل العنقاء*». وكان صوت **رعمسيس** الثالث «*يتضخم عند إصدار الأوامر مثل صوت العنقاء*». أما **ليبيو** الزعيم **مريي** فيقولون عن المصريين: «*إن سيدهم أشبه* (بالإله) **ست**، *محبوب **رع***». *إننا نسمع صيحته - صيحة الحرب - مثل صيحة العنقاء، عندما يطاردنا، ويصرعنا بلا رحمة*»[٢٩].

ويبدو من المؤكد، أن شكل العنقاء المركب قد لقي استحسان المصريين. فبالنسبة لهم لم يكن هذا الشكل واحدًا أو ثابتًا على الدوام. إن مختلف الأشكال الحيوانية التي يتخذها الفرعون في المعارك لا تتعاقب بالضرورة، بل يمكن أن تتوافق الواحدة مع الأخرى، وتتداخل وصولاً إلى فاعلية سحرية أكبر. ويتحول البطل إلى كائن مركب متعدد الأبعاد، ينتمي بالكامل إلى الفكر الأسطوري.

سيتى الأول هو:

*الصقر الإلهى، بريشه المتعدد الألوان، الذى يعبر السماء مثل **جلالة رع**، وابن أوى عظيم العَدْو، الذى يعبر أرجاء البلاد فى ساعة زمن، والأسد الشرس الذى يذرع الطرق السرية فى كل البلدان الأجنبية، والثور القدير صاحب القرنين الحادَّين والقلب الأبىِّ، الذى يدوس **الأسيويين** بقدميه ويسحق **الحيثيين**[٣٠].*

ورعمسيس الثانى هو:

* *ثور بقرنين حادين، إنه بكر البقرة، تاركًا أرض المعركة بعد أن أجهز على أعدائه.*
* *وأسد قدير، تقتنص مخالبه اقتناصًا، مزمجرًا فيطلق صوته فى الوادى حيث ترعى الأغنام.*
* *وابن أوى السائر مسرعًا، باحثًا عمَّن يقترب منه، ومتجولاً فى لحظة عبر مدار الأرض حتى أطرافها.*
* *وصقر إلهى مقدس له جناحان، ينقض على الصغار وعلى الكبار[٣١].*

ورعمسيس الثالث هو:

*أسد صيحاته متثاقلة فى قمة الجبال... وطائر العنقاء بخطواته الواسعة، صاحب الجناحين. وملايين **الإيتر**(*) فى نظرة، كأنها ... إنه الفهد الذى يعرف فريسته ويُمسك بمن يهاجمه[٣٢].*

إن خلط الأشكال المطلوب يظهر بكل وضوح فى نص **مدينة هابو**:

(*) مقياس مسافات، ويعادل **الإيتر** الواحد عشرة كيلومترات ونصف.
Sir A. Gardiner. Egyptian Grammar. Ashmolean Museum, Oxford. Third édition, revised, 1982, p.199. (المترجم)

*قلب **صاحب الجلالة** خطير، لأن قوته هي قوة أسد مترصِّد يقف متأهبًا للانقضاض على الأغنام. إنه مُجهَّز كثور مقدام، إن ساعديه البتَّارين هما قرنان لفلق الجبال في ظهر من يهاجمه*(٣٣).

وقد تبلغ هذه التحولات الأسطورية في الفكر المصري أبعادًا كبيرة، خالقةً مشهدًا خياليًا، وكنمط رائع خلاب من الأشكال والضوضاء الصاخبة سيصبح أداة سحرية لتحقيق النصر.

وفي **مدينة هابو** أيضًا، وأثناء حملة العام الخامس، يقال عن **رمسيس** الثالث:

*في ذات يوم، ظهر فتًى كان شبيهًا بالعنقاء. كان جنوده عندما يصيحون تتضخم أصواتهم، وكانوا مثل الثيران المتأهبة (للقتال) في الحلبة. وجياده كانت مثل الصقور عندما ترى الفرافير، فتزمجر (زمجرة) أسد ثائر وهائج. وكان حَمَلة البيارق والقادة مثل **ريشيپ**(*)، فيرون عشرات الآلاف وكأنهم قطرة ماء. وأمامهم كانت قوته – قوة الفتى – مثل قوة **مونتو***(٣٤).

الأشكال الكونية

ولا يستمد البطل الملكي فاعليته من المخلوقات الحيوانية فقط، بل من عناصر الكون ذاتها أيضًا.

هكذا، فإن رشقة السهام التي يسددها تختلط مع الأثر الذي تتركه النيازك عند سقوطها على الأرض.

فيقال عن **رمسيس** الثاني:

(*) إله محارب. (المترجم)

* *«عندما يُمسك بقوسه وهو على متن مركبته، فإنه يقبض على سهمه وكأنه نجم متألق وسط الآلاف المؤلفة».*

* *«إنه يرشق سهمًا بعد سهم، وكأنها نجوم إلهية متألقة».*

ورعمسيس الثالث ذاته، يصبح نجمًا، فيطارد الأعداء مكتسبًا سرعة اندفاع نيزك. إنه *«النجم الإلهى المتألق، الشرس فى مطاردتهم».*

كما يتحول البطل إلى نور وهبوب الريح. إن **رعمسيس** الثالث هو:

*«النور الحىُّ الذى يسطع على **مصر**».*

ومر إن بتاح: *«النور الذى يطرد السحب المتراكمة فوق **مصر** ويتيح **للبلد** المحبوب رؤية أشعة قرص الشمس».*

إنه يُزيح: *«التل النحاسى من فوق رقاب البشر، ويمنح النسمة العليلة للكائنات المختنقة... إنه **الواحد المتفرد** الذى يقوِّى قلوب مئات الآلاف، لأن الأنفاس عند رؤيته تنسحب من جديد إلى داخل الأنوف*[٣٥].

إنه يمتزج امتزاجًا كاملاً مع الأجرام السماوية واهبة الحياة. إن **رعمسيس** الثانى هو: *«ابن **ست** محبوب **مونتو** إنه نجم من أجل الأرض، وقمر من أجل **مصر** وشمس من أجل البلد، ساطعٌ من أجل البشر، وقرص متألق من أجل الشعب. فالكائنات يدب فيها النشاط عندما تراه*[٣٦].

إن كل عناصر الكون التى تجلب الخير على **مصر** تتكاثف فى الملك.

البطل والآلهة

الملك – البطل هو ابن الشمس النورانى. إن **رعمسيس** الثانى، هو *«النطفة المتألقة لسيد الزمن الأبدى».* إنه «*صورة **رع** الحية، الذى أنجبه من يقيم فى **هليوبوليس**، إن أعضاءه من ذهب، وعظامه من فضة، وكل جسده من نحاس السماء*[٣٧]». كما أن العاهل الملكى قد يكون ابن **مين** أو **مونتو** أو **ست** أو **بتاح**.

وحسب كل بلد من بلدان الإمبراطورية، يتغير اسم من أنجبه. فقد يكون فى نظر **الآسيويين** ابن **بعل**. فيتحدث زعيم سورى إلى **رعمسيس** الثانى، قائلاً: «*لا يوجد غيرك إذن، من يشبه* ***بعل****، أيها الأمير، (فأنت) ابنه الحقيقى للزمن اللانهائى*». وفى نظر **الأفارقة** قد يكون ابن **ديدون** أو بالأحرى ابن **خنوم**، إله حدود **مصر** الجنوبية. ففى عبارات تمنٍّ موجهة إلى **رعمسيس** الثانى يُقال: «*فليحىَ الإله الكامل، ابن* ***خنوم****، الذى ولدته* ***أنوكيس****(*)، سيدة* ***النوبة*** *وأشرفت* ***ساتيس****(**) سيدة* ***إلفنتين****(***) على إطعامه*[٣٨]».

إن مرونة وتنوع الفكر الأسطورى المصرى عظيمان. وإذا كان من المفيد أن يكون الملك ابن إله، ضماناً لشرعية وراثة العرش أو إضفاءً للشرعية على اغتصاب المُلك، فلتأكيد الانتصار على العدو، يكون التأثير أبلغ تأثير، عندما يكون البطل ابناً لعدد من الآلهة، سواء على التوالى أو فى آن واحد، فتتراكم فاعليات كل إله من هذه الآلهة، لتضفى على العاهل الملكى قدرة سحرية أكبر وأعظم.

هكذا، فإن **رعمسيس** الثانى هو «*ابن* ***أمون*** *وبيضة* ***أتوم*** *الممتازة*». كما أنه «*ابن* ***رع****، الذى أنجبه* ***بتاح***». و**رعمسيس** الثالث هو «*نطفة* ***رع*** *الإلهية، ومن صلبه، والصورة المقدسة والحية، لابن* ***إيزيس***». وإلى هذا الملك ذاته سيوجِّه الكهنة ووجهاء المجتمع كلامهم قائلين:

إن أباك ***أمون*** *يعطيك القوة والبسالة، مكافأةً لك... أنت ابنه الذى من صلبه... إنه يضع البلد بأكمله تحت قبضتك، مثل أبيك* ***مونتو***[٣٩].

كما أن أى ملك من **الرعامسة**، قد يكون أيضاً بناية إلهية حقيقية، شيدتها الآلهة بأيديها، ليصبح بطلاً لا يُقهر[٤٠]. فعلى تابوت **مر إن بتاح** الحجرى، نُحت نص ترنيمة وجهتها الإلهة **نيت** إلى الملك. فنقرأ تحديداً ما يلى:

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم **عنقت**. (المترجم)

(**) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم **ستت**. (المترجم)

(***) الاسم اليونانى للاسم المصرى القديم **أبو** وجزيرة **أسوان** حالياً. (المترجم)

إنى أُشَيِّدك مثل رع، ثم أرفعك على ساعدَيَّ، وأتوهّج فوق رأسك وأجدِّد من أجلك الثعبان الشمسى(*). هكذا أقيم أشكالك على صورة أشكال سيد الأشعة. ثم أُحضر الآلهة التى تنحنى من أجلك. ويأتى رع إليك ويعانقك، ويحطُّ على هيئتك المقدسة(**)، وينير وجهك، ويمنحك بريقه وسطوعه وتألقه... إنى أُعطيك النار، كما أن لهب الثعابين المقدسة الأربعة هى لك، على مرِّ الأيام وعلى جميع الدروب، فتصدَّ أعداءك وتقبض على المتمرد الفاسد الطبع. إنى أضعك على ظهره بحيث لا يتمكن من الهروب إذا أراد(٤١).

إن وجه **رعمسيس** الثالث *كامل الملامح عندما يرتدى الريشتين مثل **تاتان**، والحب الذى يحركه فى النفوس وشكله هما حب وشكل **صاحب الجلالة رع**، عندما يتألق عند مطلع الفجر. إنه جميل وهو جالس على عرش **أتوم**، بعد أن أمسك حُلِيَّ **حورس وست**. أما **نخبت وواجت**، وهما عُقاب **الجنوب** وثعبان **الشمال**، فقد استقرَّا فوق رأسه. إنه مدرك قوته مثل ابن **نوت**. فهيبته فى قلوب **الأقواس التسعة**(٤٢).*

هكذا، فقد جهزته الآلهة تجهيزاً جَزْلاً، فهو من ذريتها وصورتها المركبة، إلى هذا الحدِّ أو ذاك. ومن بين أشياء أخرى، فإنه يتمتع ببسالة **أمون-رع** ونشاط **مونتو** والقوة الضاربة للإله **ست** أو للإلهة **سخمت**، و«*قدرة الإله **بعل** على البلاد الأجنبية*».

وقد ورث عن أبائه موهبة سحرية أخرى، فالعاهل الملكي مرتبط بدورة الزمن الأبدى. وإليكم ما قاله **رعمسيس** الثالث إلى **أمون-رع**:

أجل، إنى أعرف الزمن الأبدى، أيها الأب الجليل، ولا أجهل الزمن اللانهائى، أنت، أيها القائم أمام قلبى.

(*) الصلّ. (المؤلفة)

(**) صورة الصقر الشمسي. (المؤلفة)

ولما كان الملك قادراً على الاندماج فى الكون، فإنه يحيا امتداده الزمنى. إن زمنيهما مرتبطان ويتوافقان. ففى نظر **رعمسيس** الثالث:

* *ما دامت الشمس تشرق وتغرب، ستظل أنت سيد* ***مصر****.*
* *ما دام القمر يجدد ولاداته، وما دام* ***نون*** *يجوب* ***الدائرة الكبرى****، سيظل اسم* ***سيد القطرين، أوسر ماعت رع – محبوب – آمون*** *فى قصره، للزمن اللانهائى*(٤٢)*.*

إنه نظام ملكى إلهى متنوع الأوجه، رحب وأبدى، لقد احتفظ نظام **الرعامسة** الملكى بروابط متميزة مع الآلهة، روابط مادية بطبيعة الحال، ولكن أيضًا روابط ذات بعد عاطفى أو ذهنى، قائمة على تبادل الحب والثقة من جانب الطرفين.

إن **مر إن پتاح** هو «حب *آمون*».

و**رعمسيس** الثالث هو «حب *رع*».

إن الوجود الإلهى يحلُّ فى البطل عند خروجه إلى المعركة. وعن **رعمسيس** الثالث عندما كان يستعدُّ لمحاربة **الأسيويين**، قيل:

لقد جعلت قلبى ممتلئًا بإلهى ***آمون – رع****، سيد الآلهة، إنه الباسل المقدام، سيد القدرة.*

كما قيل عنه، عندما سار ناحية **الغرب** ليقاتل **الليبيين**:

انطلق ***صاحب الجلالة****، الباسل الصنديد. كان ساعده قويا وقلبه ممتلئًا بأبيه، ملك الآلهة.*

إن عاطفة حقيقية مفعمة بالبركة، تربط الإله بالبطل. فيتحدث **رعمسيس** الثانى إلى **آمون – رع** قائلاً:

إني أمتثل بإرشاداتك، ومن أجلك أودُّ أن أعمل بقلب ودود كل ما قد يفيدك.

الملك هو البطل الكامل الذى يُرضى السماء والأرض.

تتحدث الآلهة [بشأن **رعمسيس**] *قائلة: إن بذرتنا فيه. وتقول الإلهات: لقد خرج فى وسطنا ليمارس المُلك. ويقول **أمون**: أنا الذى أنجبته ووضعت **ماعت** فى مكانها (الصحيح). الأرض راسخة ومستقرة، والسماء سعيدة والتاسوع راضٍ بسبب صفاته*(٤٤).

ثانياً: المعارك

عندما كان المصرى يقدم روايته للمعارك الحربية لم يضع نصب عينيه القيام بعمل المؤرخ، فيصف الأحداث وصفاً دقيقاً، بل القيام بعمل الساحر. فمن أجل جعل انتصارات **الرعامسة** أبدية لجأ المصرى إلى قدرة إحياء أشكال النقوش الجدارية والكلمات من متون وخطب وأحاديث. إن الملاحظة العينية والتبديلات الأسطورية تتداخل أيضاً لتقدم فيضاً من الصور التى ترمى من خلال أسلوب جَزْلٍ غنىٍّ بالاستعارات، وإيحائى أكثر منه وصفى، إلى تقديم تقرير عن الأسلحة والمعركة ذاتها والانتصار وخضوع البلاد المهزومة.

الأسلحة

الوسائل المستخدمة لتحقيق النصر متنوعة، وبطبيعة الحال فهى مادية أو بشرية، فشخصية إذن، ولكن معنوية أو أسطورية أيضاً.

الأسلحة البدنية

إن ساعد الفرعون هو تقليديا ساعد مقتدر، محمَّل بالقوة التى أعطته إياها الآلهة. ولكن وجهه أيضاً سلاح، فلا يستطيع الأعداء تحمُّل النظر إليه. إن **رعمسيس** الثانى، عندما يهم «*بالسير يخترق وجهه الإلهى الجموع الغفيرة*».

أما اللسان أو الفم فهو وسيلة أخرى - شفهية - للإجهاز على العدو، وهى وسيلة معروفة منذ أقدم الأزمنة. فمنذ **سنوسرت**(*) الثالث «*يقوم لسان صاحب الجلالة بقمع النوبيين، أما أحاديثه فتدفع الآسيويين إلى الفرار*». ومن قبل كان الحكيم **خيتى**(**) الثالث قد علَّم ابنه «*أن مقدرة الإنسان فى لسانه، فالكلمات تفوق أى معركة من المعارك قوةً*». إنه سلاح فريد للإنسان الحاذق، ولم يتردد **رعمسيس** الثانى فى استخدامه: «*إنه يدخل بمفرده وسط كتلة الأعداء فيجهز عليهم، وهو يتحدث بلسانه ويحرك ساعديه*».

إن رائحة البطل وهى أريج الآلهة نفسها(***)، ترهب العدو الذى يُسلِّم بأنه كائن فريد فى بابه، لا مثيل له. إن رائحة **سيتى** الأول «حطَّمت *قلوب*» **الحيثيين**.

وبالإضافة إلى هذه الأساليب الشخصية شديدة الخصوصية، يجد الملك تحت تصرفه أسلحة مصنوعة على غرار ما يوجد بين أيدى جنوده. إنه تحديداً قوَّاس مرهوب الجانب. إن **رعمسيس** الثانى «*قوَّاس لا مثيل له، وأقوى من مئات الآلاف مجتمعين*». إن قوس **رعمسيس** الثالث شديد الفاعلية عند مواجهة الليبيين: «*لقد هشَّم سهمه أطرافهم وعظامهم وسواعدهم، بينما يتوسلون إلى اسمه*».

كما أن السيف الذى سلَّمه **أمون** للعاهل الملكى سلاح خطير أيضًا، فبه استطاع **سيتى** الأول أن يجهز على الآسيويين والأفارقة:

* *إن سيفك فوق رأس كل بلد أجنبى، وبنصله تُجهز على زعمائه.*
* *فبسيفك حَطَّمت بلد الزنجى.*

(*) من الأسرة الثانية عشرة. (المترجم)

(**) من خواتيم عصر الانتقال الأول. (المترجم)

(***) كان المصريون يعتقدون أن شذا العطر هو المظهر الرئيسى الذى تتجلى من خلاله الكيانات الإلهية غير المرئية. كما أن دخان البخور المحترق هو أشبه بالانتقال بين عالمين.

M. Damiano- Appia. L'Egypte. Dict. Encyclopédique. Gründ. 1999. p.89. (المترجم)

إن الرعب الذى يعترى نفوس الأعداء والهيبة التى يستشعرونها كافيان لإصابتهم بالشلل أو دفعهم إلى الهروب.

كما أن فراعنة آخرين قد استخدموا هذا السلاح وهو سلاح معنوى بحت وإن كان للخوف تأثيره الفعال، ففى ترنيمة مرفوعة إلى **سنوسرت** الثالث، يقال:

* *إن الرعب الذى يثيره فى النفوس قد ضرب النوبيين فى أراضيهم.*

* *إن الرعب الذى يثيره قد قتل **الأقواس التسعة**.*

كانت هيبة **الرعامسة** عظيمة.

فبسبب **سيتى** الأول يمتنع الأعداء عن *الوقوف، ويثنون ركبهم، بل ينسون مجرد الإمساك بأقواسهم، ويقضون سحابة يومهم فى الكهوف، يختبئون كالذئاب، لأن الفزع الذى يثيره **صاحب الجلالة** قد نفذ إلى قلوبهم*[٤٥].

وما العمل عند رؤية **رعمسيس** العظيم؟

* *عندما يراه أمراء* (البلاد الأجنبية) *يُغشى عليهم، فالرعب الذى يثيره يظل فى قلوبهم.*

* *يسرى الخوف فى أجسادهم، وترتعد أطرافهم ليل نهار.*

أما **مر إن پتاح**

* *فإنه يصرع* (الأعداء) *بسبب الخوف الذى يثيره فى نفوسهم.*

وإذا اختلف التأثير، فإن النتائج الحاصلة هى سقوط العدو سقوطاً مؤكداً بلا أدنى صعوبة.

إن الهيبة العالمية التى يتمتع بها **رعمسيس** الثالث تفرض قانونها على العالم بأسره.

إن الخوف منك يصيب الشعوب فى بداية الأرض(*)، وبعد أن سحق قلوب أبناء ***خن – نفر****(**) اخترق بلاد* ***الفينيقيين*** *وتوغّل إلى داخل* ***بونت*** *وعند* ***السائرين – على الرمال***(٤٦).

وإذا كان أسلوب هذا النص يتّسم بالشاعرية الغنائية، فإنه لايبعد كثيراً عن الحقيقة، إذا وضعنا فى اعتبارنا الصراعات البطولية التى خاضها **رعمسيس** الثالث عند تصديه للغزاة.

الأسلحة الأسطورية

عندما يحارب **العاهل الملكى** المتمردين فإنه يصبح ناراً وماءً. النار تحرق وتأتى على الأخضر واليابس، ويأخذ من الماء وجهها العاصف الكاسح المدمِّر. فتتصاعد النار من شخص **الفرعون** ذاته، من فمه أو من اسمه أو من صلِّه. إن جميع عناصر شخصيته ذات طبيعة نارية، مثل أبيه **الشمس**(***).

ومنذ زمن **تحوتمس** الأول «*كان الأعداء يفرون وقد خارت قواهم بسبب لهب صِلِّه*».

و**الرعامسة** يحرقون أعداءهم ويصلونهم ويصيبونهم بالاختناق. إن الأسرى القادمين من بلاد **الريتنو** يقولون عندما يمثلون أمام **سيتى** الأول:

انظروا إلى ذلك! إنه مثل لهب متصاعد والماء ينضب. ويحمل المتمردين على الإقلاع عن النميمة، لأنه استولى على أنفاس أنوفهم(٤٧).

إن **رعمسيس** الثانى نار متوهجة:

(*) مناطق نهر **الفرات**. (المؤلفة)

(**) من بلاد **كوش**. (المؤلفة)

(***) نعيد إلى الأذهان أن لفظ **شمس** مذكر فى اللغة المصرية. (المترجم)

قدير هو صدره ساعة حومة المعمعة، كاللهب عند تأجيجه.

إنه يُقدم وصفًا لعمله الحارق فى اليوم الثانى من معركة **قادش**، قائلاً:

*إن ثعبان جبينى كان يُجهز من أجلى على الأعداء، فيضع حُموَّه كاللهب فى وجه أعدائى. كنت مثل **رع** عندما يتألق عند مطلع الفجر، بينما كانت أشعتى تأتى على أجساد المتمردين*(٤٨).

يا له من زَهْو متشامخ للإله **رعمسيس**!

كما أخذت النار تتطور ويتسع مداها فى عهد **رعمسيس** الثالث:

❖ *إنها الحارقة المقتدرة واللهب فى السماء.*

❖ *إن اللهب العظيم **لصاحب الجلالة** يمتزج بقلوب الأعداء، حارقًا عظامهم داخل أجسادهم.*

والملك هو أيضًا عاصفة عاتية، إن **رعمسيس** الثانى هو:

*الأمير المقدام، فيُجهز على من كانوا يجهلونه حتى الآن، إنه مثل العاصفة التى تُدمِّر وتجلجل وسط **الشديدة - الاخضرار**. إن العُباب(*) الهابط، أشبه بالجبال، فلا يستطيع أحد الاقتراب منه، فى حين إن كل ما بداخله ابتلعه **الدوات**(**)(٤٩).*

إن العاصفة والرياح المثيرة للرمال تصاحب **رعمسيس**.

إنه عاصفة على البلدان الأجنبية، وصخب عظيم، فيتراكم الغَمام مطبقًا على الأمراء (الأعداء)، لتخريب مدنهم وتحويل أماكن إقامتهم إلى مناطق قاحلة(٥٠).

(*) العُباب ارتفاع الموج. المعجم الوسيط. (المترجم)

(**) العالم الآخر. (المؤلفة)

إن صوراً جميلة وموحية، تبعث الحياة فى هذه الأوصاف الشاعرية الغنائية.

*إن **صاحب الجلالة** هو خلف ظهر الأعداء، ... العاصفة التى تدوى من خلفهم وتؤجج اللهب. إنهم أشبه بريش العصافير فى مواجهة هبوب الريح*(٥١).

كما سيكون **رعمسيس** الثالث *عاصفة مُكفهرّة.. لطاردة من هاجمه.*

فهل يمكن لكل هذه الأشكال والمظاهر والأسلحة، ألا يكون النصر، ولا شىء غير النصر، حليف بطل **الرعامسة**، الذى يقود جيشه إلى المعركة؟ فيقال إلى **رعمسيس** الثالث:

إن مقدرتك فوق جيشك. فليسرِ الجنود ممتلئين بقوة، هى قوتك.

المعركة

مسارد المعركة تقدم، فى المقام الأول، وصفًا لحومة المعمعة، وتشير أساسًا إلى بطولة **الفرعون**، وكيف دارت رحى الحرب على الأعداء، وإلى مصير المهزومين البائس. وبمعنى آخر فإنها تشير إلى كل ما يمكن أن يساهم، من خلال الكلمات، إلى تحويل مجد المنتصر إلى مجد يعيش إلى الأبد. وفى هذه المسارد نجد أن الواقعية فى أشد صورها قسوة توجد باستمرار، جنبًا إلى جنب خيال الأسطورة الجامح. إن **مصر** هى بلد السحر الذى لا تُعرف له حدود.

حومة المعمعة

شأنه شأن كل الفاتحين، فإن الملك هو أول من يسير إلى المعركة. إن **رعمسيس** الثانى هو:

- *الأول فى مقدمة جيشه.*
- *إنه ملك يخوض المعركة أمام جنوده يوم الوغى، إنه ملك ذو بأس عظيم، والأول فى حومة المعركة.*

إنها معركة حامية الوطيس.

وفى **قادش** نجد أن **رعمسيس** الثانى:

عظيمة هى مقدرته على جياده، عندما يقبض على قوسه، مسددًا السهام يمينًا وذابحًا الأعداء يسارًا.

إن نصوص **مدينة هابو** بخشونتها وشاعريتها الغنائية الحافلة بالاستعارات النضرة، تُعبِّر تعبيرًا رائعًا عن مقدرة البطل الهجومية.

فينقض **رعمسيس** الثالث على **الليبيين**:

*لقد خرجت عليهم كالأسد، إنى أضربهم جاعلاً منهم حزمًا وأضاميم. إنى أطاردهم كالصقر الإلهى عندما يشاهد الفرافير فى أعشاشها ... إن سهمًا واحدًا من سهامى لا يخطئ هدفه، بينما يصيح قلبى، كالثور وسط الخراف أو مثل **ست** عندما تثور ثائرته*[٥٢].

*إن ساعديه يطوِّقان صدر من انتهك حدوده ويشدَّانه. إنه يهبُّ ثائرًا باسطًا يده اليمنى مخترقًا، بينما يدمِّر ويذبح عشرات الآلاف فى مكانهم تحت صدر جياده. إنه ينظر إلى حشود الأعداء الغفيرة كما لو كانت جرادًا، فيضرب ضربته ويسرع ويعمل بنشاط وكأن الأمر يتعلق بالقمح. (إنه البطل) ذو القرنين القويين، الواثق فى مقدرته، فأمامه لا يُحسب حساب الملايين وعشرات الآلاف، لأن هيئته أشبه بهيئة **مونتو** عند ظهوره، فبسببه يعيش كل بلد فى ضيق وقلق*[٥٣].

فى رواية الحربين الليبيتين اللتين شنهما **رعمسيس** الثالث فى العام ٥ والعام ١١ من عهده، تتعاقب الصور فى عنف وحدة:

إن عبارة «*مخلبه على رأس **المشواش***» عبارة فظة عن السيطرة المطلقة، وتصبح المعركة أحيانًا معركة أسد يتصدى لفئران لا أمل لها فى النجاة:

لقد تحالفت كل البلاد ضد ***مصر****. ولكن* ***الإله*** *هو الذى أتى بها ليدمرها الأسد المقتدر المقدام، لأنه السيد الفريد الذى لا مثيل له. إن مخلبه المسلح تسليحًا جيدًا أشبه بالبراثن. عندئذ تم اختطافهم(*)، بينما كانوا يسيرون قُدمًا، وفى أجسادهم رعشة ورعدة، ليموتوا تحت ساعديه مثل الفئران*(٥٤).

الآلهة تشارك فى المعركة، وتساعد الملك، فاتحة له الدروب، وتظلله بحمايتها.

«إن ***أمون-رع****، ملك الآلهة، يتقدم ابنه»،* **رعمسيس** الثانى.

وبينما يتقدم **رعمسيس** الثالث فى اتجاه **الغرب** على رأس جيشه لمواجهة الغزاة، يقول له **أمون-رع**:

انظر، فأنا أمامك، يا بُنىَّ. إنى أقيم مجدك بين ***الأقواس التسعة*** *وهيبتك فى قلوب زعمائها. إنى أمهد من أجلك دروب بلد* ***التمحو****، وأدهسهم أمام جيادك*(٥٥).

كما كان **مونتو** موجوداً *«ليحميه عن يمينه وعن يساره، فاتحًا أمامه الطريق، باسطًا الدروب».*

ويد **الإله** مع البطل: فالذى خرج منتصراً من معركة **قادش**، يقول عن **أمون-رع**: *«إن يده معى فى كل المعارك».*

ويتحدث **أمون-رع** إلى **رعمسيس** الثانى قائلاً:

«يدى هى درع صدرك، للإجهاز على الشر الذى كان بجوارك».

وتتجمع آلهة الإمبراطورية لتشكل *سياجًا* سحرياً حول الفاتح المغوار.

وبالنسبة للملك **رعمسيس** الثانى:

(*) أى أبناء كل هذه البلاد. (المترجم)

*فإن **مونتو** و**بعل** معه فى كل المعارك، و**عنات** و**عشتروت** درعه، فى حين يتولى **أمون** القيادة، من خلال فمه(٥٦).*

إنه طوق من الآلهة يستحيل اختراقه.

وكرجع الصدى، يقول **رعمسيس** الثالث هذه الكلمات:

إن أيديها بالنسبة لى درع صدرى لإبعاد الشر وهموم جسدى(٥٧).

والآلهة هى أيضًا رفيقة السلاح بالنسبة للجنود. إن الآلهة والملك والبشر يتعاونون، فى وحدة متكاملة، للوصول بالمعركة إلى النصر المبين. يا لها من رفقة سلاح تشكل كلاً يستحيل قهره.

لقد غادر جيش **مر إن پتاح** معسكراته وزحف على **پر إيرى** بعد أن تم اجتياحها:

*عندما انطلقوا كانت يد **الإله** معهم، كان **أمون** بجوارهم بمثابة درعهم.*

- وفى **پر إيرى**:

*عندئذ تقدم سلاح مشاة صاحب الجلالة ومعه سلاح مركباته، كان **أمون – رع** معهم، فى حين كان إله **أومبوس**(*) يمدُّ لهم يده(٥٨).*

فالآلهة والبطل يُؤمِّنون حماية **مصر** حماية أكيدة، لا ريب فيها.

*قيل إن **مصر**، هى منذ زمن الآلهة، ابنة **رع** الوحيدة(**) وقد جلس ابنه على عرش من نور. وحتى إذا نوى أحدهم فإنه لن يستطيع اجتياح شعبها، لأن عين كل إله*

(*) الإله ست. (المؤلفة)

(**) وبلغة عصرنا نقول إنها **أرض الكنانة** أو **أم الدنيا**. (المترجم)

من الآلهة، ستكون وراء ظهر من ينتهك حُرمة البلد، وهذه العين هى التى ستطرد الأعداء[٥٩].

العين الإلهية التى تصدر الأحكام وتعاقب هى صورة تغالب الأيام، تفتّقت عنها قريحة الشعوب السامية. وفى حومة المعمعة، يشعر البطل بسعادة المنازلة ونشوة المعركة.

فعندما جاء من يبلّغ **سيتى** الأول أن **الشاسو** يدبرون تمرداً ضد **غزة** ولا يحترمون قانون **الفرعون**،

عندئذ اعترت قلب صاحب الجلالة السعادة بسبب ذلك. إن الإله الكامل يبتهج لحظة خوض المعركة، ويفرح بسبب من عصوه، إن قلبه راضٍ لرؤية الدم، عندما يقطع رءوس المتمردين، إنه يهوى اللحظة التى يدوس فيها العدوَّ بأقدامه، فى يوم الفرح هذا[٦٠].

إن **رعمسيس** الثالث «*يخترق جمع* (الأعداء) *الكثيف، فيُثخن تقتيلاً*، سعيد *القلب، لأنه ينظر إلى الملايين منهم وكأنهم قطرة ماء*».

انهزام الأعداء

صيغ فى عبارات قاسية وعنيفة، تجاوزت عن قصد كل الحدود، فعن طريق التأثير السحرى **للكلمة** يجرى تعظيم دوام تأثير النصر ونتائجه، سواء كان **الحيثيون** الذين أوقع بهم **رعمسيس** الثانى الهزيمة، هم المعنيين:

- *عندئذ بقوا بعيدين، يلامسون الأرض أمامى بأيديهم. وأمسك بهم* ***جلالتى***، *وقتلت منهم حتى لم يبق أحد. كانوا يهرولون أمام جيادى ممددين صرعى، فى هيئة كومة فريدة فى بابها وسط دمائهم*[٦١].

أو كان **الليبيون** الذين هزمهم **رعمسيس** الثالث، هم المعنيين:

* *المشواش والتمحو ينتحبون ويخرُّون ثم ينهضون أيضًا، ومع ذلك فإنهم يطلقون أنَّات تصل إلى أطراف الأرض. وبينما يركضون هاربين تظل عيونهم على الدروب لينظروا خلفهم. ولكن اللهب يُمسك بهم ويبيد أسماءهم من على وجه الأرض، وتتثاقل أقدامهم على البسيطة. فسيِّد مصر العظيم لن يُدخل عليهم الطمأنينة، بل إن جيادهم هي فوقهم منذ الآن*(٦٢).

* *إن دماءهم في مكان وجودهم، كالسيل الدافق، بينما تُسحق جثمانهم في المنطقة ذاتها التي أرادوا اجتيازها*(٦٣).

* هذه الصورة التي تتجاوز كل الحدود فيصعب احتمالها، هي للبطل المنتصر: «*ساحقًا عظام المددين أكوامًا أكوامًا، تحت مخلبه*(٦٤)».

إن أرض المعركة الغارقة في الدماء مفروشة بصفوف وأهرامات من الجثث(*).

* إن **رعمسيس** الثاني:

«*يدوس **الخاتي** بقدميه، ويقيم صفًا طويلاً من الأعداء الذين أُجهز عليهم*».

* وبفضل **مر إن بتاح**:

*إن آذان وعيون بلاد **كوش** التي تم اقتلاعها تشكل أهرامات في مدنها ولن تتجدد أرض **كوش** بعد أن لُفظت(**) للزمن الأبدي*(٦٥).

* أما **رعمسيس** الثالث:

(*) خلاف الأهرامات المصرية ذائعة الصيت. (المترجم)

(**) كما يُلفظ الطعام الفاسد من الفم. ومع ذلك، ويعد أقل من خمسة قرون سيأتي منها من يحكم **مصر** ويؤسس الأسرة الخامسة والعشرين **الكوشية**. (المترجم)

*فبعد أن بسط ساعديه وصدّ **الأقواس التسعة**، فإنه يجرد الآن **الماشواش**، بعد أن تحولوا إلى أهرامات (من الجثث)، بينما قُيِّد زعيمهم أمام جياد الملك*(٦٦).

الصور التى تقدِّم وضعًا للعدو الواقع فى الأسر موحية إلى أقصى حد، مبرزة الجانب المعنوى من وضعهم.

فيعتبرون هم والماشية الأسيرة شيئًا واحداً. هكذا يتحدث المدافعون عن حصن **دابور** الذى استولى عليه **رعمسيس** الثانى:

* *«إننا أشبه بقطعان الماشية التى أجهزت عليها مذبحة الأسد المتوحش»*.

أو هكذا يتحدث **الليبيون** الذين طوَّقهم **رعمسيس** الثالث:

*«لقد أطبق علينا الفخ بينما كنا فى حضرته، فلم يعد لدروبنا أو لخطواتنا وجود، بينما يلحق (**رعمسيس**) متألقًا بعرشه. لقد أمسك بنا الإله لصالحه، وكأننا فريسة، وأشبه بالأغنام التى تعثَّرت فى فخ نصب لها. لقد تحولنا إلى غنيمة أمامه... وأيدينا فوق رءوسنا. ولكنه لا يلتفت إلى الوراء، حتى إنه لا يلاحظ أننا نتوسَّل إليه*(٦٧).

إنهم طيور أو أسماك تم اصطيادها: *«مربوطون كالطيور فى حضرة الصقر الذى تتوارى مشيته فى أعماق الأجمة»*(٦٨).

* وعن **رعمسيس** الثالث يقال أيضاً:

*«ضد من ينتهكون حدوده، سوف يخرج **صاحب الجلالة** متصدِّيًا لهم كاللهب. عندئذ سوف يتكدسون كالطيور فى الشِّباك، ويُضربون وهُم فى المصايد»*(٦٩).

الأعداء الذين أُسروا لا يُثيرون الخوف منهم، أكثر مما تثيره الكتاكيت، الضعيفة المذعورة.

* إن **رعمسيس** الثالث: «هو القلب القدير فى المعارك، الذى يهزم عشرات الآلاف، ويحول البلاد الأجنبية إلى «***أعشاش الكتاكيت***» تحت صدور جياده[٧٠].

إن ضررهم ليس أكثر من ضرر القليل من القش الذى تذريه الريح، ففى نظر **رعمسيس** الثانى:

* «*كان **أمون** يحول البلدان الأجنبية إلى تبن أمام جياده*».

و**الماشواش** المهزومون يصيحون وينتحبون قائلين:

* «*انظروا، لقد حلَّت علينا المصائب بارتفاع السماء... إننا أشبه بالتبن الذى تطارده الريح*[٧١]».

مصير المهزومين

وعلينا ألا نُسىء الفهم عندما نتناول هذا العنف اللفظى، إذ يظل إلى حدٍّ كبير لفظيا. فقد كان المصريون سحرة مرموقين عند تعاملهم مع الألفاظ والكلمات. فيجيدون استخدام مقدرتها الإيحائية لخلق مجال لا يعكس بالضرورة واقعًا فعليا.

صحيح أن الأسرى كانوا يساقون، فى حقيقة الأمر إلى **مصر**، واضعين أيديهم فوق رءوسهم أو موثوقة خلف ظهورهم، ليعملوا خدمًا فى حيازات الأملاك على وجه التحديد، ولكن كان يدمر كيانهم البدنى والمعنوى تدميرًا سِحريا. «فيتم الاستيلاء على نطفتهم». ويُباد اسمهم. فعندما يتعامل **رعمسيس** الثالث مع الأعداء «*يُقوِّض با*(*)*واتهم ويستولى على نطفتهم*» و«*يقضى على اسم البلدان الآسيوية*».

النصر

عندما يتحقق النصر للبطل، ينتابه شعور بالزهو المتشامخ وآخر بالفرح.

* إن **مر إن بتاح**:

(*) من أهم مكونات شخصية الإنسان. (المترجم)

*«يحتقر الأسيويين، ويجعل المنتسبين إلى بلاد **الخاتى** يأتون إليه على ركبهم، كما تسير الكلاب التى تجهل **مصر**»*(٧٢).

* أما **رعمسيس** الثالث:

*«فيتجلى فى مجده فى أرض المعركة مثل **بعل**، بعد أن يكون لهبه قد أحرق **الأقواس التسعة**»*(٧٣).

ويعمُّ الفرح.

* إن **سيتى** الأول: «*يعود فى جوٍّ من الأعياد، بعد أن حقق النصر*».

* إن **مر إن بتاح** *قد غسل قلب **منف** عندما طرد أعداءها*، وهى عبارة تفصح عن البهجة الداخلية.

* أما **رعمسيس** الثالث فعند عودته فى العام الحادى عشر «*يطلق الجميع الصيحات ويهللون فرحًا لما حققه من انتصارات*».

* والآلهة والآلهات تشارك أيضًا **مصر** سعادتها. «*إنها فى عيد عندما ترى الأعداء وقد أُجهز عليهم*».

ومن خلال ترديد دعوات مسهبة أو بعض المقاطع المنظومة المقتضبة، فإن تكرارها، هو فى كل مرة، تأكيد جديد على المقدرة الملكية. هكذا تكون تلاوة انتصارات **الرعامسة**.

* **سيتى** الأول:

*يأتى إليه أجانب **الجنوب** فى وضع الانحناء وأبناء **الشمال** ساجدين بسبب مجده.*

* **رعمسيس** الثانى:

*بقدميه دهس أجانب **الشمال**، و**التمحو** يتساقطون بسبب ما يثيره فى نفوسهم من رعب، و**الأسيويون** يتطلعون إلى نسماته لفائدتهم... ومن الآن، تمتلئ قلوبهم بمقاصد **الفرعون**، إنهم جالسون فى ظل سيفه ولا يخشون أى بلد من البلاد الأجنبية. لقد هزم محاربى **الشيدة الاخضراو** بحيرة **الشمال** الكبيرة(*)، إنهم يرقدون الآن نيامًا، بينما يسهر هو عليهم... إن صيحته صيحة الحرب تجلجل فى **النوبة**، وهيبته تدحر **الأقواس التسعة**. إن **بابل والخاتى**... تنحنى بسبب مجده[٧٤].*

* وعن **رعمسيس** الثالث:

*«بلاد **الجنوب** وبلاد **الشمال** تأتى إليه، وتطلق صيحات التهليل عندما تراه مثل **رع**، عند مطلع الفجر»[٧٥].*

والباقون على قيد الحياة يأتون مهزومين مذعورين يعرضون استسلامهم وخضوعهم، معترفين بهيمنة **مصر** وملتمسين النور ونسمات الحياة بجوار البطل **فرعون**. ويتقدمون نحو **رعمسيس** الثالث.

* **الليبيون**:

*إننا نعترف بالقوة العظيمة **لمصر**، لأن **رع** يُعطى حمايةً ونصرًا... إننا نأتى إليه(**) قائلين له: سلام، إننا نقدم له الحمد والثناء ونسجد، فقوته عظيمة[٧٦].*

* **الأموريون**:

*يأتون مهللين ليروا أن شمس **مصر** العظيم(***) عليهم، وحتى يصبح القرص*

(*) نهر **الفرات**. (المؤلفة)

(**) إلى **رعمسيس**. (المؤلفة)

(***) أقول شمس **مصر** العظيم ليستقيم المعنى، لأن كلمة عظيم صفة للفظ شمس، المذكر فى اللغة المصرية. (المترجم)

*الشمسى جميلاً إلى جوارهم. فهناك شمسان إلهيّان(*)، يطلعان(*) على الأرض ويُشعّان(*) عليها بنوريهما: نور **مصر** والنور الذى فى السماء*[77].

❖ **شعوب البحر:**

*أنت الملك، أنت شمس(**) **مصر**، إن مقدرتك أعظم من مقدرة جبل من نحاس، إن هيبتك أشبه (بهيبة **ست**). أعطنا النسمات حتى نستنشقها، لأن الحياة هى التى فى قبضتك للزمن اللانهائى*[78].

من الآن، سوف تلامس الحدود الأسطورية لإمبراطورية **الرعامسة** السماء وتصل إلى الأطراف ذاتها لمدار الشمس.

❖ عن **سيتى** الأول:

*من أجله رسم **رع** حدوده عند أطراف ما ينيره القرص الإلهى.*

❖ من أجل **رعمسيس** الثانى:

*إن **الدائرة الكبرى والشديدة الاخضرار** والمناطق الجنوبية **لأرض الزنجى** حتى البلاد والمستنقعات الممتدة فى اتجاه أطراف الليل، تجمعت بعيدةً، بقدر بُعد أعمدة السماء الأربعة، (تجمعت) تحت قدمَىْ هذا الإله الكامل*[79].

❖ لصالح **رعمسيس** الثالث:

*مدَّ **رع** حدوده حتى أطراف ما يُنيره صِلُّه، بحيث تصبح (كل) البلاد وسط جماله*[80].

(*) مع مراعاة الهامش السابق، ضحيت بقواعد **سيبويه** ليستقيم المعنى. (المترجم) .

(**) مع مراعاة الهوامش السابقة. (المترجم)

ثالثًا: صور السلام

فى خضمِّ المعارك ذاتها، يظل الحنين إلى السلام حاضرًا. فيقال عن **سيتى** الأول:

*إنه يتطلع إلى القيام بفصول الحرث فى البلد المحبوب، بينما يقوم بنهب **لبنان**، مدمرًا معالمها، سالبًا مدنها، بعد أن شبعت جياده من (وفرة) الشعير وأخذ النبيذ فى جيشه وأسكره، بفضل انتصار سيفه*(٨١).

على هذا الصعيد من الأساليب اللغوية لا نلتقى بأساطير منمقة أو مشاهد خلابة للأشكال والصور، بل نستمتع برقة الكلمات والمشاعر وعذوبتها. فالسلام يجد تعبيرًا له فى صور بسيطة محركة للمشاعر.

إنه أشبه بلوح خشب مصقول شديد النعومة، ف**مصر** هى بلد الحرفيين.

__مصر__ وأراضيها فى سلام فى عهده(*)، والبلد أشبه بلوح خشب شديد النعومة، فلا وجود لبشر جشعين(٨٢).

كما أن السلام هو طراوة الجو المنعش الذى يتذوقه المرء تذوقًا حسيًّا فى بلد يسوده مناخ حار.

إن **رعمسيس** الثالث هو:

** الثور القوى العزم، بقرنين حادين، الذى يَنشر الذُّعر الشديد فى قلوب **الآسيويين**. إنهم يأتون إليه هاتفين مهللين، حاملين فوق ظهورهم مختلف أصناف الجزية، بسبب مجد **صاحب الجلالة**، متوسلين متضرعين* (للحصول على الهبات) من يده.

(*) عهد **رعمسيس** الثالث. (المؤلفة)

* *إن أباك **آمون** قد أسندهم إليك، ليصبح قلبك نضراً غضاً بين ظهرانيهم، فالبلد بأكمله كاللوح المصقول منذ أن (تجلّى) مُلكك على وجه الأرض... يا **أمير** الفرح*(٨٣).

ويُقال أيضاً فى عهد **رعمسيس** الثالث:

* *تعيش الأراضى والبلاد الأجنبية و**مصر** فى جو رطب منعش.*
* *جو البلد من أقصاه إلى أدناه، منعش رطب.*
* *أنا الملك، والشعب فرح سعيد، لأن مُلكى منعش، ومُحمَّل بالسلام*(٨٤).

كما أن السلام هو الراحة والاسترخاء والانشراح التى يتمتع بها البشر.

واللفظ ذاته الدال على السلام(*) يعنى أيضاً **القناعة والاكتفاء والرضى**.

ويقول **رعمسيس** الثالث إلى المصريين:

* *لقد طردت الأحزان التى كانت فى قلوبكم وجعلتكم تجلسون تستريحون*(٨٥).

ففى عهد **رعمسيس** الثالث، الذى اعترته الهموم والاضطرابات والتهديدات، صارت هذه الصور أكثر شيوعاً وأكثر نضارة وحيوية. إنها بمثابة النداء الأخير الصادر عن وعى المصريين لاستحضار الأيام السعيدة والهادئة للأزمنة الماضية، وتعبير أخير عن العرفان بالجميل نحو **الفراعنة - الأبطال** الذين عرفوا كيف يحافظون على وحدة وطنهم واستقلاله، رغم الأخطار البالغة التى واجهوها، بفضل شجاعتهم وفطنتهم ورؤيتهم الثاقبة. هؤلاء **الفراعنة - الأبطال** هم **الرعامسة**.

(*) **حوتب**، راجع: برناديت مونى، المعجم الوجيز فى اللغة المصرية بالخط الهيروغليفى، ترجمه عن الفرنسية ماهر جويجاتى، دار الفكر، ١٩٩٩، ص١٦٦. (المترجم)

الفصل الثانى

الملك بَنَّاء

شيد **الرعامسة** عدداً كبيراً من المبانى الشامخة، ليس على أرض **مصر** فقط، ولكن أيضاً على أراضى الإمبراطورية، وتحديداً فى ممتلكاتهم الإفريقية فى **الجنوب**. إن الأبعاد العملاقة لهذه العمارة كان مقدراً لها أن تشهد على مدى ثراء الإمبراطورية الشاسعة وقدرة ملوكها.

إن العمارة فى **مصر** تعبير عن الانتصار على الموت وقوى الخواء. إنها تجسِّد هذه المعركة الضارية من أجل الحصول على أبدية الزمان، معركة خاضها المصريون منذ عصور موغلة فى القدم. إنها تؤكد، جنباً إلى جنب شريكيها النحت والرسم، على استمرارية الوجود المهددة على الدوام، وإن ظلت مع ذلك إمكانية اكتسابها قائمة دوماً دون انقطاع، بفضل الأساليب السحرية للأشكال والكلمات.

إن «**بيوت الآلهة**» أى المعابد، تحمى الآلهة على الأرض وتأويها. وعلى الأبراج الشامخة للصروح، وعلى السطوح الخارجية لجدران المعابد أحياناً، تصور النقوش انتصارات **الرعامسة**، لتظل ذكراهم تغالب آلاف السنين، تخليداً لذكرى الملك - البطل. أما النقوش المنحوتة داخل المعبد، فتصور ترتيبات الطقوس الدينية اليومية الرسمية. وإذا حدث ذات يوم أن تقاعس البشر عن أدائها ففى إمكان هذه الصور الحجرية أن تُبعث فيها الحياة، بصفتها أشكالاً من أزمنة غابرة، لتظل تسهر على خدمة الآلهة، وتقيم شعائر صامتة تُفعِّل أساليب السحر التليد. والكلمات المنحوتة فى الحجر ستدب فيها هى أيضاً الحياة، لتواصل مراسم الثناء والحمد على الخالق فى كل معبد من المعابد، وإعلان العبارات المقدسة الخاصة بأطياف الكهنة الوهميين. عندئذ سوف تمتد حياة الآلهة والملوك وتدوم بلا نهاية فى أجساد التماثيل المنحوتة فى الحجر(*).

(*) يا لها من رؤية فريدة إذن، إذا استطاع زائر معابد **الأقصر والكرنك ومدينة هابو وسيتى الأول فى أبيدوس**، على سبيل المثال، أن يشحذ مُخيِّلته ليعيش روعة هذا المشهد الآسر الخلاب. (المترجم)

مع مراعاة الظروف نفسها، فإن «قصور ملايين السنين»، أى المعابد الجنائزية ستساعد على ضمان توفير الحماية اليومية للملك المتوفى، وبقائه على قيد الحياة بعد الوفاة، بعد أن سُجِّيت مومياؤه بمقبرته فى **وادى الملوك**.

أولا: بيوت الآلهة

سبق أن شرحنا[١] البنية الشاملة للمعبد ورمزيته وفلسفته، فالمعبد هو بمثابة مختصر يختزل الكون، إنه العالم الأصغر(*) microcosme المحمَّل بقدرة سحرية.

إن معابد **پر-رمسيس**، عاصمة إمبراطورية **الرعامسة** السياسية، صارت أثراً بعد عين. لقد كانت **الدلتا** طريق الغزوات، المدمَّرة إلى حدٍّ ما، والتى اجتاحت أرض **مصر** بعد عصر **الرعامسة**.

لكن العمائر العظيمة فى **طيبة** و**النوبة** ما زالت تطلُّ علينا فى شموخ، كما شيدت المعابد فى **منف**.

طيبة الورعة

معبد(**) الكرنك

الكرنك القائم على البر الأيمن(***) من نهر **النيل** هو أكبر الأماكن الإلهية فى العالم مساحةً. إن فوضى تداخل الأنقاض والمسلتين اللتين ما زالتا قائمتين فى مكانهما والأبواب والصروح الشامخة والأساطين المبعثرة والمقاصير المهدمة، تظل تشهد جميعها على مدى ورع شعب بأكمله وعظمة الديانة المصرية.

(*) فى مقابل عالم الكون، وهو العالم الأكبر macrocosme. مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفى، القاهرة، ١٩٨٣، ص١١٦. (المترجم)

(**) والأقرب إلى الصواب أن نقول: معابد **الكرنك**. (المترجم)

(***) وهو البر الشرقى. (المترجم)

يجمع **الكرنك** بين ثلاث حيازات مقدسة: حيازة الإله **مونتو** فى الشمال، وحيازة الإلهة **مُوت** فى الجنوب، كما إن طريقًا تحفه تماثيل أبو الهول يربط هذه الحيازة الأخيرة بالحيازة الوسطى، الأكبر مساحةً، إذ تبلغ ٣٠٠٠٠٠ متر مربع(*) من الأراضى المخصصة للإله **أمون-رع**، يحيط بها سور فسيح من الطوب اللبن.

فبدءًا من **سنوسرت** الأول، أى قبل سبعة قرون تقريبًا، لم يتوقف المصريون عن البناء والتشييد، فى هذا المكان الفسيح الأثير المميز، المكرس لملك الآلهة، فأقاموا الصروح والمقاصير. إنها تتراكب وتتداخل وتتشابك، لتكوِّن فى نهاية المطاف عملاً عملاقًا من أعمال الإيمان.

إن كل معبد من المعابد يتقدمه أحد الصروح، وقد اتفق علماء الآثار المعاصرون على ترقيمها طبقًا لموقعها وليس تاريخ تشييدها، ليصل عددها إلى عشرة صروح.

إن المبانى المقدسة موزعة بالترتيب على امتداد محورين: المحور الشرقى الغربى المتميز على نحو خاص، ويضم ستة صروح. والجزء الأقدم الذى يعود إلى **سنوسرت** الأول هو الأكثر تطرفًا ناحية الشرق. وبالتدريج شُيِّدت فيما بعد مقاصير أخرى فى اتجاه الغرب، بدءًا من **تحوتمس** الأول وصولاً إلى **أمنحوتپ** الثالث. أما محور التشييد الآخر، فهو عمودى تقريبًا على الأول، ويمتد من الشمال إلى الجنوب، فى خط موازٍ تقريبًا لنهر **النيل**، ويضم الصروح من السابع إلى العاشر. وفى حدودها قام فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، اعتبارًا من **حتشپسوت** و**تحوتمس** الثالث وحتى **حور إم حب**، بمواصلة أعمال التشييد.

وعلى المحور الشرقى الغربى، وفيما بين الصرح الثالث الذى شيده **أمنحوتپ** الثالث، والصرح الثانى(**)، يُعتقد أن **رعمسيس** الأول قد شرع يشيِّد بهو الأساطين العظيم، وعلى أكمل وجه تولى **سيتى** الأول و**رعمسيس** الثانى أعمال زخرفته، وانتهى

(*) أى حوالى ٧١ فدانًا. (المترجم)

(**) قام **حور إم حب** و**رعمسيس** الأول بتشييد الصرح الثانى أمام الصرح الثالث، وإلى الغرب منه، وعلى مسافة خمسين مترًا منه. (المؤلفة)

بيانات معبد الكرنك

1. المرسى
2. الصرح الأول
3. معبد رعمسيس الثالث
4. الصرح الثانى
5. بهو الأساطين
6. الصرح الثالث

7. مقصورة القارب المقدس
8. فناء الدولة الوسطى
9. بهو الأعياد: تحوتمس الثالث
10. معبد رعمسيس الثانى الشرقى

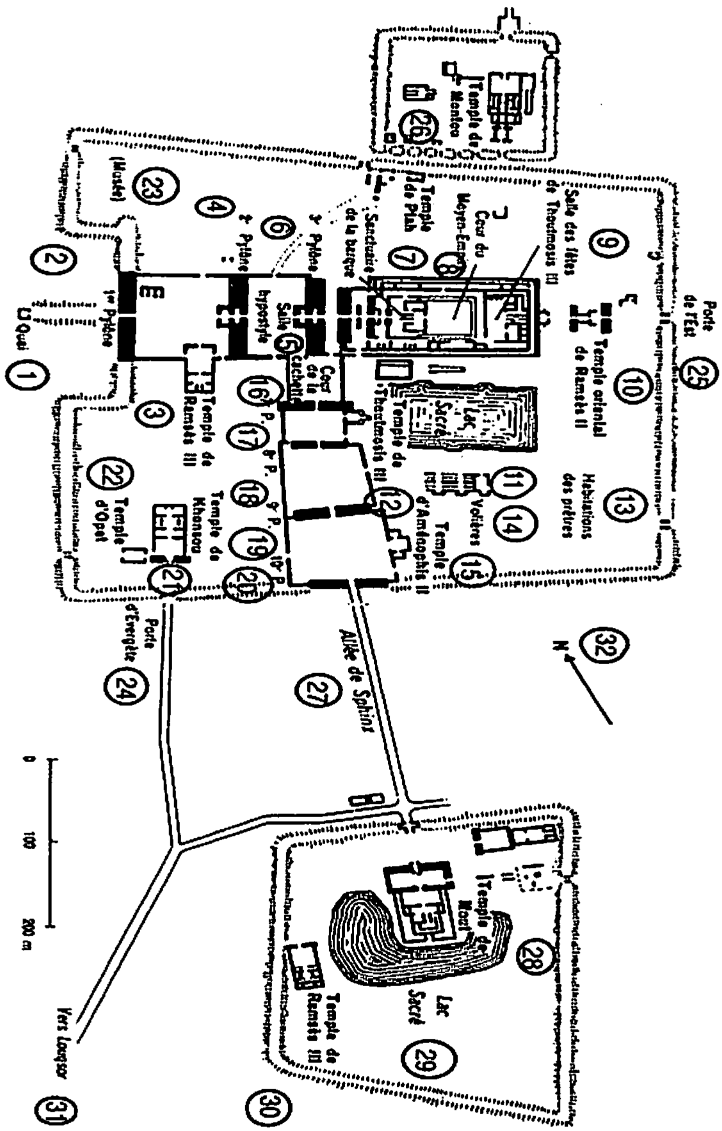
11. البحيرة المقدسة
12. معبد تحوتمس الثالث
13. مساكن الكهنة
14. فناء تربية الطيور
15. معبد أمنحوتپ الثانى

16. فناء الخبيئة
17. الصرح السابع
18. الصرح الثامن
19. الصرح التاسع
20. الصرح العاشر

21. معبد خونسو
22. معبد أوپت
23. المتحف المفتوح
24. بوابة يوارجيتس
25. البوابة الشرقية

26. معبد مونتو

27. طريق تماثيل أبو الهول
28. معبد مُوت
29. البحيرة المقدسة
30. معبد رعمسيس الثالث
31. إلى معبد الأقصر
32. الشمال



مسقط أفقى لمعبد الكرنك

نقلاً عن Sauneron, Egypte

رمسيس الرابع من زخرفة ١٠٢ أساطين. كان مخططًا له أن يكون استراحة فسيحة لقارب **أمون** المقدس، عندما يغادر الإله معبده، إبان كبرى الأعياد السنوية، لينتقل إلى معبد **الأقصر** أو إلى البر الأيسر(*)، قبالة معبده.

إنه أكبر بهو أساطين فى العالم، وقد شُيِّد من الحجر الرملى المستخرج من **جبل السلسلة**، ويبلغ ١٠٢متر عرضًا و٥٣مترًا عمقًا. وفى هذا البهو الشاسع، ينتصب ١٣٤ أسطونًا عملاقًا، وكأنها غابة كثيفة من الأحجار. إن اثنى عشر أسطونًا، موزعة على صفين، يبلغ محيط دائرة كل أسطون عشرة أمتار، تكوِّن صحن البهو الأوسط. وتعلوها تيجان على هيئة زهرة بردى يافعة، وعن طريق وجود مكعبات ضخمة فاصلة، فإنها تحمل سواكف تصل بارتفاع السقف إلى ٢٣مترًا. إن محيط دائرة التاج تبلغ ١٥مترًا، وتتسع هذه المساحة لوقوف خمسين شخصًا، بسهولة ودون عناء. أما جناحا الصحن الجانبيان فيضمان ١٢٢ أسطونًا، ذات تيجان تتخذ هيئة براعم البردى، ويقل ارتفاعها بنحو الثلث. ويتسلل النور عبر سلسلة من الشبابيك ذات الفتحات الشبكية claustra، التى تستغل الفارق بين ارتفاعى السقف. وما زالت بعض عناصر هذه البلاطات المفرغة المصنوعة من الحجر الرملى قائمة فى مكانها.

إن هذا الطراز المعمارى، المعروف اصطلاحًا بالطراز **البازيليكى**، هو طابع مميز لمبانى **الرعامسة**، ومن قبل لم تعرف العمارة المصرية سوى مثال واحد، تجسد فى بهو أعياد **الأخ منو** الذى أقامه **تحوتمس** الثالث، شرقى المعبد الأول الذى شيده **سنوسرت** الأول. وسوف نلتقى فيما بعد بهذا الطراز، على نطاق واسع فى العمارة اليونانية والرومانية.

ومهما قلنا، لن نستطيع تقدير عبقرية هؤلاء المعماريين وهؤلاء الحرفيين حق قدرهم، عما بذلوه من صبر وفن لا حدود لهما، ولبراعتهم فى تصميم هذه العمائر الشاهقة وإقامتها وزخرفتها، وقد شُيِّدت لتغالب الأيام وتبقى إلى أبد الآباد.

(*) أى البر الغربى. (المترجم)

كان الملوك يغدقون عليهم من نعمهم وأفضالهم، ويحسنون إطعامهم. فعلى لوح حجرى يعود إلى العام السادس من حكم **سيتى** الأول، عُثر عليه فى **جبل السلسلة**، يُقال:

*كان **صاحب الجلالة** فى **مدينة الجنوب**، مؤدِّيًا شعائر الحمد والثناء لأبيه **أمون – رع** ملك الآلهة. كان يقضى ليلته فى السهر بحثًا عمًّا قد يفيد آلهة البلد المحبوب كافة ويرضيها. وعندما ابيضَّت الأرض... أمر **صاحب الجلالة** بإحضار موفد ملكى، على رأس وحدة من مواطنى الجيش، أى ألف فرد... لنقل المعلم المصنوع من الحجر الرملى الجميل والمخصص لأبيه **أمون–رع**... **ولتاسوعه** الإلهى، وقدم صاحب الجلالة أكثر مما سبق أن حصل عليه الجيش من أدهان ولحوم بقرية وخضراوات طازجة بكميات لا حصر لها. وبالتالى كان كل فرد منهم يحصل على عشرين **دبنًا**(*) يوميا من الخبز، وضمَّتين من الخضراوات ولحم مشوى(**). ولذلك كانوا يعملون لحساب **صاحب الجلالة** بقلب ودود، وتلقى مشاريعه التقدير فى فم الرجال الذين كانوا فى صحبة الموفد الملكى. وإليكم ما كان تحت تصرُّف هذا الأخير، فى كل يوم من الأيام: أفضل أنواع الخبز ولحوم بقرية ونبيذ وزيت وعسل وتين وخضراوات[٢].*

وكرجع الصدى، سجلت النصوص التكريسية على سواكف بهو الأساطين خطابات قالها **أمون – رع**، إلى **سيتى** الأول، اعترافًا بجميله:

أيها الملك، يا من يحقق من أجل أبيه، ملك الآلهة، أشياء مفيدة، عندما يُشيِّد مسكنه، جاعلاً معبده يغالب الأيام بفضل أعماله المفعمة بالبركة التى تدوم فائدتها إلى أبد الآباد، منيرًا من أجله الفناء المقدس بواسطة الأساطين الجميلة الشامخة[٣]...

(*) وهو ما يعادل حوالى كيلوجرامين. (المترجم)

(**) يا له من كرم حاتمى! (المترجم)

هذه الأساطين المئة وأربعة وثلاثون، مزخرفة فى معظمها بمشاهد ونصوص دينية، توضح أداء الملك لبعض ترتيبات الطقس الدينى، من أجل آلهة **طيبة**.

وعلى السطوح الخارجية لجدران بهو الأساطين صُوِّرت مشاهد عسكرية لأول مرة فى معبد. فعلى سطح الجدار الشمالى(*)، صُوِّرت الحروب التى خاضها **سيتى** الأول، وعلى سطح الجدار الجنوبى، نشاهد المعارك التى انتصر فيها **رعمسيس** الثانى(**).

وأمام الصرح الثانى، وكان فى ذلك العصر خارج المعبد، لأن الصرح الأول لم يكن قد شُيِّد، كان يمتد طريق تحفُّه تماثيل أبو الهول برأس كبش، وهو حيوان **أمون** المقدس. وهنا تختلف رمزية أبو الهول، مقارنة بما كانت عليه فى الأزمنة القديمة، وتحديداً فى **الجيزة**. فلم يعد أبو الهول صورة الملك، حارس جبانته. فمن الآن فصاعداً أصبحت الآلهة تتجسد فى شكل أبو الهول، لتتولى حراسة بيتها الخاص. وكان مئة وعشرون تمثالاً لأبو الهول برأس كبش تتولى حراسة مدخل معابد **الكرنك** حتى ضفاف نهر **النيل**، عند رصيف المرسى.

وفيما بعد، وعلى جانبى هذا الطريق، إلى الشمال وإلى الجنوب، أقام كل من **سيتى** الثانى و**رعمسيس** الثالث معبداً لاستراحة المقاصير الصغيرة المحمولة، وكانت على هيئة قارب، وتُظلل تماثيل آلهة ثالوث **طيبة** الثلاثة، وذلك إبان الأعياد التى تقتضى شعائرها الخروج فى مواكب احتفالية. كان المعبدان يقومان باستقبال هذه الآلهة عند خروجها من المعبد الكبير.

(*) وهو على يسار الداخل إلى المعبد، وجديرة بالمشاهدة. (المترجم)

(**) لم يتبق منها سوى القلة القليلة. (المترجم)

وأصبح معبد **سيتى** الثانى(٤) متاحًا للزيارة، بفضل الأعمال التى باشرها **ليجران** Legrain عام ١٩١٣. ولا يضم سوى الحجرات الضرورية لتوقف الموكب الاحتفالى، وهو بلا صُفَّة أو رُواق.

إن جدار الواجهة الرئيسية يميل ويتناقص سمكه كلما ارتفع إلى أعلى، وتخترقه أبواب ثلاثة، تفضى إلى كل مقصورة من المقاصير الثلاثة، والباب الأوسط وهو الأكبر يفضى إلى مقصورة **أمون**. وتتكون كل مقصورة من صالة مستطيلة فى اتجاه محور المبنى، أى الجنوبى الشمالى. وقد كُرِّست الوسطى للإله **أمون**، وتضم ثلاث كوات موزعة فى جدار مؤخرة الحجرة. أما الحجرة الغربية فتضم كوتين ومكرسة للإلهة **مُوت**. وأخيراً تضم الحجرة الشرقية، كوتين مماثلتين، وهى مكرسة للإله **خونسو**.

إن الأساسات والمدماك الأول من حجر الكوارتزيت الوردى، الوارد من **الجبل الأحمر**. وباقى المبنى من الحجر الرملى الأصفر الوارد من **جبل السلسلة**.

أما المشاهد المصورة فهى فى الأساس لوحات تقديم القرابين إلى كل إله من الآلهة الثلاثة. ومن بين الكلمات التى قالها **أمون-رع** إلى **سيتى** الثانى نذكر ما يلى:

*سوف أعمل بحيث تظل متألقًا، ما دامت هذه المبانى التى شيدتها من أجلى فى **الكرنك**، باقية إلى ما لا نهاية.*

أما المعبد الاستراحة الذى أقامه **رمسيس** الثالث فهو أكثر طموحًا. لقد أقيم جنوب طريق الكباش المؤدى إلى المعبد، وجاء تصميمه ليحاكى كبرى المعابد الإلهية،

فلا وجود لقدس الأقداس(٥). وقد أكمل **ليجران** Legrain رفع أنقاضه وأعمال تنظيفه عام ١٨٩٨(*). وتبلغ مساحة هذا المعبد ٥٣متراً طولاً و٢٥متراً عرضاً.

ويضم صرحاً مصمتاً بلا حجرات أو سلالم. وفناء المدخل تحيطه من جوانبه الثلاثة صفات ذات أعمدة **أوزيرية**، تحمل اسم **رعمسيس** الثالث. وعلى الأعمدة المستطيلة الشكل التى تركن إليها التماثيل ظهرها، تستند السواكف. ونجد أن التماثيل فى **مصر** تركن دائماً ظهرها إلى الأعمدة، ولم تعرف الأعمدة المسماة اصطلاحاً **الكارياتيد**(**) caryatides أو **الأطلانط**(***) atlante، ففى هذه الحالة، نجد أن الأشكال الآدمية، قد شُلَّت حركتها من جراء وزن الحجر التى يفترض أنها ترزح تحت ثقله. وبالتالى لن تتمكن من استعادة نشاطها وحيويتها وقدرتها على الحركة. ثم تلى ذلك ردهة مرتفعة، يصل إليها المرء عبر مسطح مائل، وتتكون واجهته من أعمدة أوزيرية، تتصل من الخلف فى جزئها الأسفل بجدار نصفى ارتفاعه ١٨٣سم، زخرفت قمته بكورنيش مصرى وإفريز من الأصلال(****). ويخترق الجدار الخلفى باب محورى بمصراعين. ومن خلاله يصل المرء إلى بهو يضم ثمانية أساطين، ويتقدم ثلاث مقاصير مخصصة لاستراحة القارب المقدس، وتحتل مكان قدس الأقداس فى المعبد الكلاسيكى. وأهم مقصورة موجودة على محور المعبد، ومخصصة للإله **أمون**،

(*) على من يريد التعرف على أوضاع معبد **الكرنك** قبل أعمال رفع الأنقاض والتنظيف والترميم، الرجوع على سبيل المثال، إلى الكتاب القيِّم الذى أصدرته **الجامعة الأمريكية** فى القاهرة، متضمناً الرسومات الكاملة كما وردت فى كتاب **وصف مصر** ذائع الصيت.

Description de l'Egypte. AUC Press, 1997. pp.292-299.

والرسومات الواردة فى: David Roberts. Voyage en Egypte. Bonechi, 1994, pp.19-23.

ومقارنتها بالصورة الراهنة لهذا المعبد، وما وراءها من عمل دءوب ومجهود جبار. (المترجم)

(**) **الكارياتيد**: تمثال يصور امرأة واقفة تسند برأسها شرفة أو إفريز أو ما شابه ذلك.(المترجم)

(***) **الأطلانط**: عمود يتخذ هيئة رجل قوى البنية، يحمل القسم العلوى من مبنى يستند إلى صف من هذه الأعمدة المسماة **الأطلانط**. (المترجم)

(****) جمع الحية الصِّلّ. (المترجم)

الكلاسيكي. وأهم مقصورة موجودة على محور المعبد، ومخصصة للإله **أمون**، وتكتنفها مقصورة **موت** ناحية الشرق، ومقصورة **خونسو** ناحية الغرب. إنه توزيع مماثل، وإن كان معكوسًا، لتوزيع مقاصير استراحة **سيتى** الثانى التى يقع معبدها قبالة معبد **رعمسيس** الثالث. لقد شُيِّد المعبد بالكامل من الحجر الرملى الأصفر المجلوب من **جبل السلسلة**.

وخارج المعبد الكبير للإله **أمون** ذاته وملحقاته المباشرة، وداخل السور المقدس الذى كان يحيط بأراضى الإله، شيَّد **الرعامسة** مبانى أخرى مخصصة للإله **أمون** أو للآلهة المرتبطة به.

وفى القسم الشرقى من حيازات **أمون** أقام **رعمسيس** الثانى معبدًا صغيرًا، يتجه ناحية الشرق، وللأسف فهو مدمر تدميرًا بالغًا فى الوقت الراهن.

وفى الجنوب الغربى من أملاك **أمون**، أمر **رعمسيس** الثالث بإقامة معبد من أجل **خونسو**. وقد أكمل كل من **رعمسيس** الرابع و**حرى حور** زخرفته. والمعبد الذى شيده **رعمسيس** الثالث يتقدمه فى الوقت الراهن باب كبير، مندمج فى السور المبنى من الطوب اللبن، وقد شيِّده، فى عصر متأخر، **بطليموس** الثالث **يوارجيتس**(*). ويليه داخل السور طريق كباش يعود تاريخه إلى آخر **الرعامسة**، ويفضى إلى معبد **رعمسيس** الثالث ذاته. ويلتزم هذا المعبد التزامًا دقيقًا بالطراز الكلاسيكى، فيتكون من صرح يبلغ ١٦مترًا ارتفاعًا، يليه فناء تصطف على ثلاثة من جوانبه أساطين بردية الطراز، تتخذ تيجانها شكل البراعم، وبعد ذلك نصل إلى بهو الأساطين المكون من ثمانية أساطين، أربعة منها على شكل زهرة البردى المتفتحة، وتكوِّن الصحن الأوسط، وعلى الجانبين أقيمت أربعة أساطين على شكل براعم البردى وهى أقل ارتفاعًا. إنه مثال آخر للطراز **البازيليكى** الذى كان **الرعامسة** مولعين به. ثم يدخل المرء إلى حجرة كانت تُستخدم استراحة للقارب المقدس، وتقع قبل ردهة قدس الأقداس وتشكل المدخل إليه، ثم نصل إلى قدس الأقداس ذاته، وبه الناووس الذى يضم تمثال **خونسو**.

(*) أى **الخيِّر** (المترجم)

وفى حيازة **موت** أمر **رعمسيس** الثالث بإقامة معبد آخر فى المساحة المحصورة بين البحيرة المقدسة والسور المحيط بالحيازة. كان هذا المعبد يلتزم بالاتجاه الشمالى الجنوبى، على وجه التقريب، ولكنه مدمر فى الوقت الراهن. ويمكن التعرف على بقايا صرح أمامه تمثالان ملكيان من الجرانيت الوردى، ويفضى إلى فناء كبير بأعمدة **أوزيرية**، كما أن ممراً صاعداً يؤدى بعد ذلك إلى بهو له أربعة أساطين، ثم نصل أخيراً إلى قدس الأقداس. وعلى السطوح الخارجية للجدران الغربية ما زال فى وسع المرء أن «يستجلى» نقوشاً تصور مشاهد عسكرية، كحروب الملك ضد **شعوب البحر**، فى **ليبيا** وفى **سوريا**.

معبد الأقصر

للانتقال من معبد **الكرنك** إلى معبد **الأقصر**(*) كانت المواكب الاحتفالية تسلك طريقاً مرصوفاً بالحجر، تحفه تماثيل أبو الهول برأس كبش، ويربط المعبدين ربطاً مباشراً.

كان **أمنحوتپ** الثالث قد شيَّد معبداً هو الأول فى هذا الموقع، وأمام مدخله وإلى الشمال منه أمر **رعمسيس** الثانى بتشييد مبنى آخر، كامتداد للأول.

إن صرح المبنى الذى شيَّده **رعمسيس** الثانى عرضه ٦٥متراً. وقد شُيِّد بمواد قديمة أعيد استخدامها. وأمام الصرح كانت مسلتان من الجرانيت تقفان شامختين. المسلة اليمنى، وهى جهة الغرب وارتفاعها ٢٢,٨٣متراً. أما المسلة اليسرى، وهى جهة الشرق ومازالت فى مكانها، فيبلغ ارتفاعها ٢٥,٠٣متراً. وقد وضعت قاعدة المسلة الأصغر أبعد قليلاً من الصرح، لتصحيح منظور الرؤية وتجنب عدم تناسق

(*) الواقع على مسافة ٢٥٠٠ متراً تقريباً، جنوب معبد **الكرنك**. (المؤلفة)

ارتفاع المسلتين. وقام **محمد على باشا** بإهداء المسلتين إلى **فرنسا**(*). ولما كانت المسلة الغربية فى حالة من الحفظ أفضل من المسلة الأخرى، فقد نقلت إلى **باريس** فى عام ١٨٣٣. وأقيمت فى ميدان **الكونكورد**(**) la Concorde فى الخامس والعشرين من شهر أكتوبر ١٨٣٦، بإشراف المهندس **ليبا** Lebas(***).

وأمام واجهة الصرح أقيمت ستة تماثيل عملاقة **لرمسيس** الثانى. والتمثالان اللذان يكتنفان الباب مباشرة، منحوتان فى الجرانيت الأسود، ويصورانه جالساً. وتقف الملكة **نفرتارى** بجوار العرش. أما التماثيل الأربعة الأخرى فمن الجرانيت الوردى، وتصور الملك واقفاً، وارتفاعها ١٥،٦٠متراً. ومن التماثيل الأربعة التى كانت تصور أصلاً الملك واقفاً، لم يبق سوى واحد، على اليمين، أى جهة الغرب. وبجوار الملك صُوِّرت ابنته **مريت أمون**، وإن كانت بحجم أصغر بكثير.

والصرح ذاته خُرِّب إلى حد كبير. إن الضغط الناجم عن كميات الرديم والأنقاض الهائلة التى تستند إليها قاعدته هو الذى استطاع الحفاظ عليه. إن الفجوات الرأسية الأربع، وهما اثنتان على كل جناح، والتى ما زلنا نشاهدها، كانت

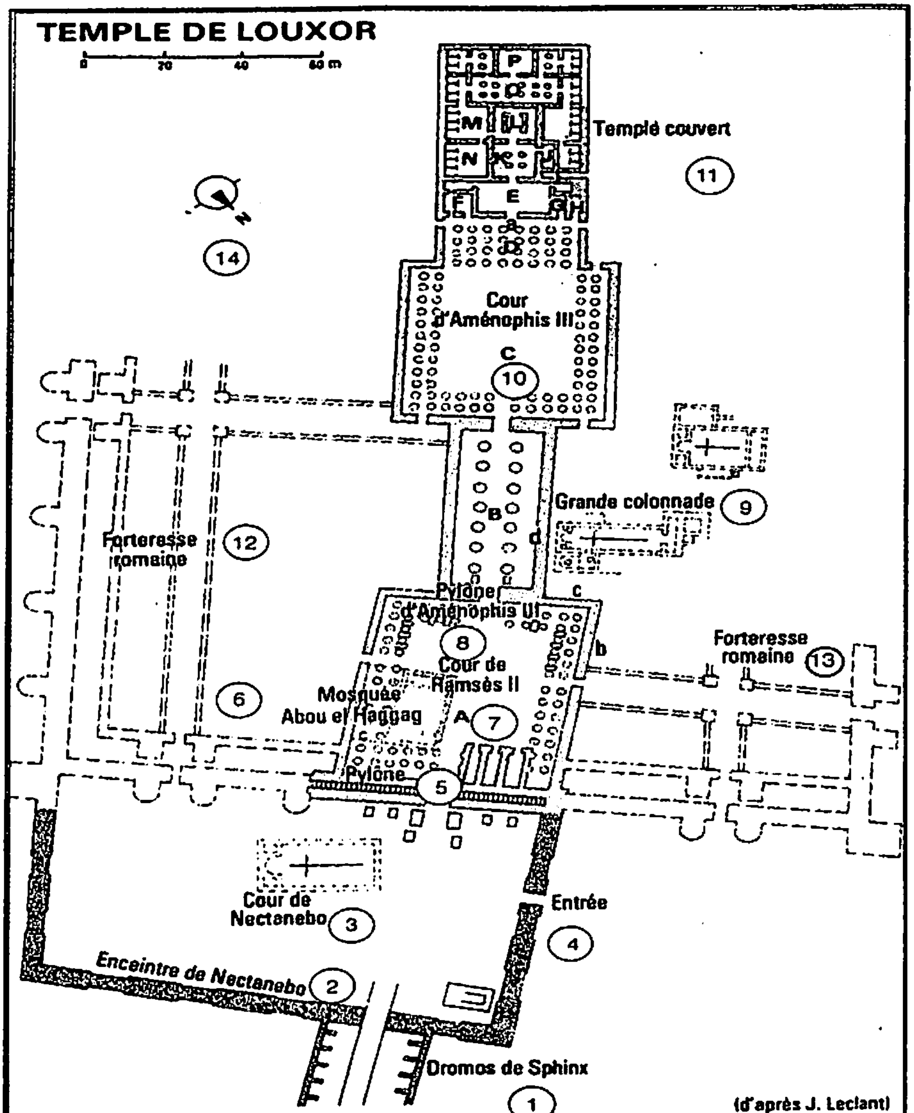
(*) يذكر أحد المراجع الفرنسية أنه فى عهد رئيس جمهورية فرنسا **فاليرى جيسكار ديستان** Va-léry Giscard d'Estaing (١٩٧٤-١٩٨١) أنه تقرر إعادة مسلّة **الأقصر** اليسرى إلى **مصر** (هكذا!!!)، رغم أنها لم تكن قد غادرت مكانها سواء إلى داخل **مصر** أو إلى خارجها!! وكأن حق نقلها من حيث المبدأ de jure إلى **فرنسا** - إذا سلّمنا به جدلاً - كان أمراً واقعاً de facto يا لها من مغالطة! راجع: Thomas Decker: Dict. de l'Egypte Antique, Ed. du Lodi, 2002, p.146. وبعد ذلك، وفى عام ١٩٨٣ صدر القانون المصرى الذى يحظر نقل الآثار إلى خارج **مصر**. (المترجم)

(**) وفى المكان الذى سبقت أن أقيمت فيه المقصلة، إبان الثورة الفرنسية. (المترجم)

(***) عارض **شمبليون** Champollion إقامة المسلة فى هذا الميدان، لأسباب عديدة، وبعد وفاته عام ١٨٣٢ واصل آخرون معارضتهم لهذه الفكرة. راجع: Bernadette Menu: l'Obélisque de la Concorde, Ed. du Lunx. 1987 وتحديداً الفصل الرابع. (المترجم)

بيانات معبد الأقصر

1. طريق أبو الهول
2. سور نختنبو
3. فناء نختنبو
4. المدخل
5. الصرح
6. مسجد أبى الحجاج
7. فناء رعمسيس الثانى
8. صرح أمنحوتپ الثالث
9. ممر الأساطين الفخم
10. فناء أمنحوتپ الثالث
11. المعبد المسقوف
12. حصن رومانى
13. حصن رومانى
14. الشمال



مسقط أفقى لمعبد الأقصر

مخصصة لتثبيت السوارى ذات البيارق. وعلى الجناح الشرقى، وهو على يسار الداخل، نحتت بالنقش الغائر مشاهد معركة **قادش**. وتحت الصور حُفرت قصيدة **بنتاور**(٦) موزعة على أعمدة رأسية.

ثم يصل المرء إلى باحة ذات أعمدة. وإذا كان شكل هذا الفناء يقترب إلى حد ما من متوازى الأضلاع، فقد كان من الضرورى عند إقامة هذا الفناء، الانحراف بالمبنى بسبب وجود مقصورة الاستراحة التى يعود تاريخها إلى عهد **تحوتمس** الثالث. ويبلغ عرض الفناء ٥٢متراً وطوله ٤٨متراً. ويحيطه من جوانبه الثلاثة رواق بصفين من الأساطين على شكل نبات البردى، وتتخذ التيجان هيئة البراعم، ويتوقف هذا الرواق عند امتداد الجناح الغربى من الصرح، أى على يمين الداخل إلى المعبد، لوجود مقصورة مكونة من ثلاث حجرات مخصصة لاستراحة القوارب المقدسة.

نصل بعد ذلك إلى صرح **أمنحوتپ** الثالث وممر الأساطين الفخم الذى يبلغ عشرين متراً عرضاً و٥٢متراً طولاً، ويفضى إلى فناء القسم الأقدم من هذا المعبد.

وبعد اجتياز فناء **أمنحوتپ** الثالث الذى يحيطه رواق على جوانبه الثلاثة، يتكون من صفين من الأساطين المقناة على هيئة حزمة سيقان نبات البردى وبتيجان ذات براعم غير متفتحة، نصل إلى بهو الأساطين المكون من ٣٢ أسطونا، ثم أخيراً إلى أكثر أجزاء المعبد خصوصية، فتتعاقب ردهة كانت ثمانية أساطين تحمل سقفها وتحولت فى العصر الرومانى إلى هيكل لإقامة الشعائر الإمبراطورية، ثم حجرة القرابين وأخيراً قدس الأقداس. أما مقصورة استراحة القوارب المقدسة فقد أعاد **الإسكندر الأكبر** تشييدها.

هكذا فإن المعبدين اللذين أقام **أمنحوتپ** الثالث أحدهما وشيَّد **رعمسيس** الثانى الآخر، يتآلفان فى مجموعة متناسقة، أصبحت تمتد الآن من الشمال إلى الجنوب بطول ٢٨٥متراً.

وفى ظل الأسرة الثلاثين(*)، سوف يُعدُّ الملك **نختنبو**(**) الأول فناءً فسيحًا أمام معبد **رعمسيس** الثانى، أى جهة الشمال. كما شيَّد سورًا جديداً، ليصبح امتداداً للسور السابق ناحية الغرب.

لقد شرع **رعمسيس** الثانى فى بناء معبده فى **الأقصر** منذ بداية عهده. وبالفعل فإن مدونة تكريسية، نحتت على الجدار الشرقى من الصرح تذكر:

انتهى العمل فى العام (فجوة) ٣ (٧).

منطقة منف العتيقة ومواقع أخرى فى مصر

شيَّد **سيتى** الأول معبداً فى **منف**، ولكنه مهدم الآن، حتى صار أثرًا بعد عين.

إن مبنيين مهمين يعود تاريخهما إلى عهد **رعمسيس** الثانى، أقيما فى مدينة **بتاح**. «فداخل سور معبد **بتاح**، شيِّد بهو أساطين من الطراز البازيليكى، قاعدة بنائه من البازلت، ويضم خمسين أسطونًا من الجرانيت. إنه أشبه بردهة مدخل قائمة خلف صرح تبلغ واجهته حوالى ٧٥مترًا، تتقدمه تماثيل ملكية عملاقة من الجرانيت الوردى ومن الألبستر والحجر الرملى. إن لون البازلت الغامق ينسجم مع لون جرانيت العتبات وبياض ألبستر دعامات الأبواب(٨)».

حول عام ١٩٦٩، وأثناء قيام مصلحة الآثار المصرية(***) بجولة تفتيشية فى **كوم الربيع**، لوحظ بروز كتلة من الحجر الجيرى من وسط الرمال، كما أُخرجت أجزاء أخرى على مقربة من هذا المكان، وقد نُحتت عليها صور الإلهة **حتحور**، بوجه آدمى

(*) وهى آخر الأسرات الوطنية، وقد حكمت **مصر** من ٣٧٨ق.م إلى ٣٤١ق.م لتسقط البلاد بعد ذلك تحت نير الغزو الفارسى الذى استمر حتى مجىء **الإسكندر الأكبر** عام ٣٣٢ق.م. (المترجم)

(**) التصحيف للاسم المصرى القديم **نخت نبف**. (المترجم)

(***) المجلس الأعلى للآثار حاليًا. (المترجم)

وأذنى بقرة. وأُعد برنامج للتنقيب فى يونيو ١٩٧٠. هكذا رأى النور معبد مكرس للإلهة **حتحور**، يضم فناءً مستطيلاً بأساطين **حتحورية**، يتقدمه صرح. كما عثر أيضاً على قطع من الخزف والشِّقَف(٩).

كما قام **مر إن پتاح** و**رعمسيس** الرابع بالبناء فى **هليوپوليس**. «إن تحركًا عفويا للتربة فى جنوب غرب **المطرية** أخرج إلى النور قاعدة أسطون مستديرة من الحجر الرملى طول قطرها ١٥٠سنم، وارتفاعها ٥٠سم، وتحمل خرطوشى **مر إن پتاح**. كان هذا الموقع قائماً على بعد حوالى ٢٠٠متراً إلى الجنوب الغربى من معبد **رعمسيس** الرابع المكتشف حديثاً(١٠)» إن الكنوز التى ما زالت مدفونة فى رمال **مصر** لا حصر لها.

وفى **هيرقليوپوليس**(*) عند مدخل **الفيوم**، قام **رعمسيس** الثانى بترميم معبد الأسرة الثانية، وشيَّد عند طرف الفناء رواقًا هو آية فى الجمال، ويضم ثمانية أساطين نخيلية.

وفى **جبل السلسلة** التى نشطت نشاطًا ملحوظًا فى عصر **الرعامسة**، أمر **رعمسيس** الثانى و**مر إن پتاح** من بعده، بأن يُنحت فى الصخر لوحان متماثلان يتخذان شكل المقصورة، إكراماً **للنيل**. ويكتنف مدخلهما أسطونان مقنيان، ونحتت على اللوح ترنيمة إلى **النيل**(١١).

الرعامسة فى النوبة وفى السودان

إن نشاط **الرعامسة** الأوائل بصفتهم بنَّائين، هو الأكثر وضوحًا فى الأراضى الإفريقية. وبالطبع يعتبر هذا النشاط، كما كان حادثًا فى **مصر** ذاتها، تعبيراً عن الإيمان الحميم تجاه الآلهة التى تُظلُّ **مصر** بحمايتها، وتجاه **آمون - واهب - النصر**.

(*) **ننى نسوت** عند قدماء المصريين و**إهناسيا المدينة**، حاليًا. (المترجم)

ولكن هذه المبانى المقامة فى أراضى الإمبراطورية كانت تهدف أيضًا إلى إظهار عظمة **مصر** وقدرتها. فعندما كان أبناء **السودان** القادمون من أقصى الأصقاع، يهبطون على صفحة نهر **النيل**، يلمحون فجأة عند منحنى النهر، **موقع أبو سمبل** على سبيل المثال، ويشاهدون الجبل المحفور حفرًا عريضًا وعميقًا، موئلاً جديدًا للآلهة، ثم يقفون أمام الواجهة الشامخة والتماثيل الملكية العملاقة القائمة أمامها والصقر الإلهى المتوج بقرص الشمس، كان من المحال ألا يتحرك فى أعماقهم الإحساس بهيبة **الفرعون**، وربما تخلَّوا عن أية فكرة قد تدفعهم إلى التمرد.

ونذكر فى المقام الأول **سيتى** الأول **ورعمسيس** الثانى اللذين اضطلعا على أحسن وجه، بهذا العمل الذى يعتبر دينيا وسياسيا فى آن واحد. وإذا كانت بعض المبانى قد شيدت فى قلب **السودان** ذاته، عند مستوى الجندل الرابع، فإننا نلاحظ وجود أعداد كبيرة من معابد **الرعامسة**، على وجه التحديد، حول الجندل الثانى باعتباره حدا حاجزًا، يفصل الأراضى النوبية عن الأراضى السودانية، كما يشكل فى الوقت الراهن الحدود بين جمهوريتى **مصر والسودان**. هكذا فكلما مضى المرء قُدمًا، من **الجنوب العظيم** متجهًا إلى أرض **مصر**، تتجلى الشواهد على قدرة أرض الكنانة وقوتها، بشكل أكثر وضوحًا.

فلنهبط إذن مجرى **النيل** فى صحبة **الرعامسة**.

فى **ناپاتا** وعند سفح **جبل برقل** وجنوب الجندل الرابع، قام **سيتى** الأول **ورعمسيس** الثانى بتوسيع معبد **آمون** الذى كان نائب الملك **حوى** قد شيده، فى عهد **توت عنخ آمون**.

(*) أى البر الشرقى. (المترجم)

وفى **كَوَّة**، وعلى البر الأيمن(*) من **النيل**، فيما بين الجندلين الثالث والرابع، كان **أمنحوتب** الثالث قد أقام معبداً للإله **أمون**. وقد هُدم فى عهد **أخناتون - أمنحوتب** الرابع. ثم أقيم معبد آخر من أجل **أمون - رع** فى عهد **توت عنخ أمون** ليتم توسيعه من قبل **رعمسيس** الثانى. وخلَّف **الرعامسة** وحتى **رعمسيس** السابع بعض الشواهد على استمرار نشاطهم فى هذا الموقع[١٢].

وفى **عمارة غرب**، على بعد ما يقارب مئة كيلومتر جنوب **وادى حلفا**، كان الموقع قد شُغل قبل **رعمسيس** الثانى بفترة طويلة، ومنذ عهد **حتشبسوت** و**تحوتمس** الثالث، على ما يظن. وربما شيَّد فيه **سيتى** الأول مدينة صغيرة محصنة، تحمل اسم «بيت **من - ماعت - رع**(*)». وتحول هذا الاسم فى عهد **رعمسيس** الثانى إلى «بيت **رعمسيس - محبوب - أمون**». وبعد ذلك، وفى عهد **رعمسيس** الثالث وملوك الأسرة العشرين، ولا سيما **رعمسيس** التاسع، تغير الاسم مرة أخرى ليبتعد عن التسمية الشخصية ويكتسب دلالة سياسية أكبر، فسُميت المدينة إذن **خلم - واست** أى «*تلك التى تتحد مع طيبة*»، ومن الراجح أنها كانت مقر قائمقام بلاد **كوش**، معاون نائب الملك.

وإلى شمال شرق المدينة أُقيم معبد على النسق الكلاسيكى، مكرس للإله **أمون** القائم فى المقصورة الرئيسية من قدس الأقداس، ولآلهة الجندل القائمة فى المقاصير الملحقة، ويعتقد أن **رعمسيس** الثانى هو الذى شيَّد هذا المعبد. إن لوحًا حجريا يعود إلى عهد هذا الملك، يوضح اسم المدينة ويحدد أنها شُيدت «لاستقبال تماثيل الآلهة التى أتى بها الملك من **النوبة**». وعلى جانب باب المدخل إلى المعبد نُحتت نسخة من *لوح زواج* **رعمسيس** الثانى كما عُثر على عدد كبير من ألواح نواب الملك الحجرية[١٣].

وفى **بوهن**، على البر الأيسر من **النيل** وقبالة **وادى حلفا**، وعلى مسافة خمسة

(*) **من ماعت رع** هو لقب **سيتى** الأول بصفته ملك **مصر العليا ومصر السفلى**. (المترجم)

(**) وقد أعيد بناؤه فى الوقت الراهن، فى حديقة متحف **الخرطوم** بمعرفة **الولايات المتحدة وبريطانيا**. (المؤلفة)

كيلومترات إلى الجنوب منها، وعند مستوى الجندل الثانى إذن، بدأ العمل فى هذه المدينة المحصنة منذ عهد **سنوسرت** الأول. وشيَّد **أمنحوتپ** الثانى معبد **الشمال**(**) مكان معبد قديم أقامه **أحمس**، تكريمًا لكل من **مين-آمون** و**إيزيس**. أما معبد **الجنوب**(*)، فقد شيَّده **تحوتمس** الثانى و**حتشپسوت** وأكمله **تحوتمس** الثالث وكُرِّس للإله **حورس – فى – بوهن**.

يضم هذان المعبدان الكلاسيكيان شواهد من عصر **الرعامسة**، ونذكر تحديداً لوحين حجريين كبيرين أقامهما **رعمسيس** الأول و**سيتى** الأول، ويذكران الهبات الإلهية المقدمة اعترافًا بالجميل.

وبدءًا من الجندل الثانى أصبح نشاط **الرعامسة**، ولا سيما **رعمسيس** الثانى، فى مجال البناء والتشييد أكثر أهمية، كما أن هذه المنطقة هى التى غمرتها مياه النهر اعتبارًا من ١٩٦٤، بعد إقامة **السد العالى**، فبذل المجتمع الدولى جهوداً طائلة لإنقاذ الكنوز المادية والروحية التى تعود إلى ثلاثة آلاف سنة. وهكذا فقد نُقل معبدا **بوهن** إلى **الخرطوم**.

وعلى مسافة ٢٥كم شمال **وادى حلفا**، وعند موقع **مكاشة** على البر الأيسر، جرت فى عام ١٩٦١ أعمال تنقيب بمشاركة فرنسية أرجنتينية، فتم الكشف عن معبد مدمَّر إلى حد كبير، وكان مكرَّسًا للإله **آمون-رع**، قام بتشييده **رعمسيس** الثانى بمفرده تقريبًا. ولكن أساسات الموقع تعود إلى **سيتى** الأول. وبعد رفع الأنقاض من الأساسات القديمة تم الكشف عن حجرات مستطيلة كانت فى الأصل مقاصير مكرسة للآلهة **حورس فى بوهن** و**آتوم** و**تحوت** و**پتاح**(١٤).

وتم تفكيك بعض الكتل الحجرية المنحوتة، ونقلت إلى متحف **الخرطوم** بتمويل من **فرنسا**.

(*) وهو فى **الخرطوم** أيضًا. (المؤلفة)

وإلى الشمال قليلاً، كانت بلدة **فارس**، تحتفظ ببقايا معبد مكرس للإلهة **حتحور**، قام **توت عنخ أمون** ومن بعده **رمسيس** الثانى بإعادة بنائه وتوسيعه. وتولت بعثات متعاقبة استكشاف الموقع. كان رحالة إنجليزى قد اكتشفه عام ١٨١٨، ومن بعده فى عام ١٨٤٣ **شمبليون وروسيليلى** Rosselini، ثم بعثة من جامعة **أكسفورد** Oxford بإشراف **جريفيث** Griffith فى الأعوام ١٩١٠-١٩١٢. وفى عام ١٩٦٠ قامت مصلحة الآثار السودانية بدراسة الموقع، وأخيراً بعثة بولندية فى عام ١٩٦١.

وبعيداً عن معبد **رمسيس** الثانى ذاته، توجد شواهد على نشاط كل من **سيتى** الأول و**رمسيس** الثالث. ومنذ عام ١٩٦٤، بقى المعبد غارقًا تحت المياه.

وإذا سرنا شمالاً، هابطين النهر، نصل إلى **أبو سمبل**، عند المعبدين الشامخين المحفورين فى صخر الجبل، وقد شيَّدهما **رمسيس** الثانى، على البر الأيسر من **نهر النيل**. ويطلق علماء الآثار الاسم اليونانى **سپيوس** speos على المعابد المحفورة كلية فى صخر الجبل، والكلمة تعنى حرفيا كهفًا أو مغارة.

وشهد تاريخ **أبو سمبل** واكتشافه مغامرات متعددة ومتنوعة(١٥). ففى مطلع القرن التاسع عشر كان المعبدان تغطيهما الرمال بالكامل تقريباً والباب مسدود، ولا يبرز منهما سوى رأس أحد التماثيل العملاقة القائمة عند واجهة المعبد. إن حكاية أسطورية محلية كانت مصدر خرافة يتشبث بها أبناء المنطقة ويتمسكون بها تمسكًا عنيداً. فكانوا يُنكرون منذ زمن بعيد وجود هذا المبنى، ويرون أن دخول الأجانب إليه مستحيل: «إن شيخًا كان يُنظر إليه بصفته عرَّاف البلدة، تكهَّن بأن فتح هذا المبنى سيجلب مصائب بالغة... وينزل بالقرية مجموعة من الكوارث».

هكذا، وحتى عام ١٨١٢، لم يكن الرحالة الأجانب قد استطاعوا تجاوز بلدة **الدر**، وكانت فى ذلك الوقت عاصمة **النوبة السفلى**، وتقع إلى الشمال قليلاً.

ويوم ٢٤ فبراير ١٨١٢ جاء أحد أبناء مدينة **بازل** السويسرية، ويدعى **بوركهارت** Burckardt، «مرتديًا زى أحد تجار **إسنا**، وكان الدليل الذى يرافقه

والجميع أيضًا، يعرفونه تحت اسم **إبراهيم بن عبدالله**، وقد اكتفى بتقديم بعض الهدايا إلى محافظ **الدر** وأعطى سكرتيره قرشًا صاغًا واحدًا كإكرامية وقرشًا صاغًا آخر لخادمه، ودفع لدليله راتبًا قدره سبعة قروش وعشرين پارا كما كافأه بمنحه قرشين. وهكذا فقد أصبح أول أوروبى يتجاوز بلدة **إبريم** ويسير بمحاذاة الجندل الثانى ليصل إلى **دنقلة**. وعند عودته من **السودان** يصل إلى الجندل الثانى فى العشرين من شهر مارس. وقد دَوَّن فى يوميات رحلته بتاريخ ٢٢ مارس «ومن جديد سرنا بمحاذاة الشاطئ على الرمال التى رسَّبها انحسار الفيضان، وعبرنا قرية **بلانة**... وإلى الغرب يحمل الجبل اسم **إبسمبل**(*) Ebsambal. ويعتقد أنه اسم يونانى، وربما كان المقطع الأخير **بال** bal تحريفًا للكلمة **پوليس**(**) Polis. وعندما وصلنا إلى قمة التل تركت دليلى ومعه الجمال وهبطتُ عبر وهدة رأسية تقريبًا، مغمورة بالرمال، لزيارة معبد **إبسمبل** الذى طالما سمعت عنه أوصافًا تفوق الخيال». وبينما كان يهمُّ باللحاق بدليله، يستطرد **بوركهارت** فى يومياته قائلاً: «ولحسن الحظ، سرت بعض الخطوات بعيدًا فى اتجاه **الجنوب**، اتجهت أنظارى إلى ما بقى مرئيًا، من أربعة تماثيل عملاقة منحوتة فى الصخر... كانت هذه التماثيل قابعة فى تجويف محفور فى التل. وللأسف فقد طمرتها الآن الرمال التى دفعت بها الرياح من الجبل إلى هنا كما تندفع مياه السيل». كان **بوركهارت** قد اكتشف لتوه المعبد الثانى الأصغر، المكرس للإلهة **حتحور** وللملكة **نفرتارى**.

إن التقارير التى قدمها **بوركهارت** إلى **الجمعية الإفريقية** فى **لندن**، ثم الأحاديث التى تبادلها عند عودته إلى القاهرة عام ١٨١٥، نبهت الدوائر العلمية وعشَّاق المغامرات.

(*) يقصد **أبوسمبل**. (المترجم)

(**) كلمة يونانية وتعنى مدينة. فمدينة **هليوپوليس**، على سبيل المثال، تتكون من مقطع هليوس Helios ومعناه **الشمس**، ومقطع **پوليس** polis ومعناه **مدينة**، ومن ثم فإن اسم **هليوپوليس** يعنى **مدينة الشمس**. (المترجم)

وفى عام ١٨١٥، استطاع إنجليزى يدعى **بانكس** Bankes القيام بهذه الرحلة الشاقة، فحول ٢٠ أكتوبر كان موقع **أبو سمبل** فى مرأى البصر. ونجح فى الولوج إلى داخل المعبد الصغير، ولكن ظلت الرمال تعترض مدخل المعبد الجنوبى.

كان التوصل إلى رفع الرمال عن أكبر المعبدين يشكل صعوبة حقيقية. وبالفعل فإن الأيدى العاملة المحلية لم تكن تتقبل هذا العمل عن طيب خاطر، بسبب المصير المشئوم الذى ينتظر المنقبين، حسبما ترويه الخرافات الشائعة. ولهذا السبب وحده، فشل **برناردان دروڤيتى** Bernardin Drovetti قنصل **فرنسا** القديم فى القاهرة، فى تحقيق هدفه. وبدافع من بعض المنافسة «الدبلوماسية»، قام **سالت** Salt فى الحال، وكان قنصل **بريطانيا** العام، بتمويل بعثة أخرى بإشراف رجل من مدينة **پادوا**(*)، هو **جيانباتيستا بلزونى** Gianbattista Belzoni. وإبان بعثته الثانية عام ١٨١٧، توصل **بلزونى** بمعاونة رفاقه إلى رفع الرمال عن باب المعبد الكبير. وفى الأول من شهر أغسطس(**)، استطاع الدخول إلى المكان المقدس الذى لم تُنتهك حرمته طوال آلاف السنين. «الانطباع الأول الذى تركه المشهد فى نفوسنا، أن ما نراه هو بكل وضوح معبد شاسع. ولكن تعاظمت دهشتنا عندما اكتشفنا أنه واحد من أروع المعابد، مزخرف بالنقوش والرسومات والتماثيل العملاقة، وما إلى ذلك.. وكلها على أكبر قدر من الجمال». فمن كان يطلق عليه «**تيتان**(***) **پادوا**» le Titan de Padoue قد خرج منتصراً من المعركة التى خاضها ضد الرمال، وأعاد إلى العالم إحدى عجائبه(****) فى موقع، سيصبح عما قريب أحد أهم أماكن السياحة الدولية.

(*) مدينة إيطالية. (المترجم)

(**) مع ملاحظة ظروف القيظ القاسية التى كان يعمل فيها هؤلاء الرواد. (المترجم)

(***) أحد المردة فى الأساطير اليونانية. أى أنه مارد مدينة **پادوا**، كنايةً عما قام به من عمل جبّار. (المترجم)

(****) وإن لم تذكر هذه العجيبة فى عداد عجائب الدنيا السبع، فى العالم القديم. إن عجائب **مصر** الفرعونية تستعصى على الحصر. (المترجم)

هكذا، فإن **أبو سمبل** يتكون من معبدين **حُفرا** فى أنف(*) سلسلة **الجبال الغربية**. إن معبد الجنوب، وهو الكبير، منحوت رأسيًا فى صخر الجبل بارتفاع ٣٣مترًا وبعرض ٣٨مترًا وبعمق ٦٣مترًا.

إنه مكرس للإله **أمون – رع** وللفرعون **رعمسيس** الثانى. والأصغر، القائم فى الشمال، مكرس للإلهة **حتحور** وللملكة **نفرتارى**.

وأمام معبد الجنوب درابزين يحيط بالشرفة، ويعلوه كورنيش مصرى وشريط يحمل المدونة التكريسية. وكان عددٌ من الألواح الحجرية قد وُضع أمام المعبد، نذكر منها تحديداً **لوح الزواج** الذى يُحيى ذكرى اقتران **رعمسيس** الثانى من أميرة **خاتى**.

وتكتنف باب المدخل أربعة تماثيل عملاقة من الحجر الرملى، اثنان من الجهتين، يبلغ ارتفاعها ٢٠متراً. إنها تماثيل جالسة فى شموخ على عرش ملكى. وبجوار **رعمسيس** الثانى، صُوِّر أفراد عائلته فى أحجام متواضعة، والدته وزوجته **نفرتارى** وبعض الأمراء والأميرات. وعلى قاعدة التماثيل العملاقة، أى تحت قدمَىْ الملك صُوِّر بعض الأفارقة والآسيويين بالنقش الغائر، وقد ربطوا فى عُقد نباتات **الجنوب** و**الشمال** الشعارية. صحيح أنهم أسرى، ولكنهم صاروا يشكلون الآن جزءًا لا ينفصل من الإمبراطورية.

وفوق الباب شُكلت داخل كوة بالنحت المجسم صورة عملاقة للإله **رع** فى هيئة رجل برأس صقر يعلوه قرص الشمس، وبطبيعة الحال كان وجود صرح فى هذه المعابد المنحوتة فى الصخر أمرًا مستحيلاً. وكما سبق أن رأينا، فإن رمزية الصروح تشير إلى الأفق والانبثاق اليومى للإله النورانى ليستهل دورته النهارية، ولهذا السبب تحديداً، ومراعاة لهذه الرمزية التى توحِّد بين مدخل المعبد فى المكان الذى تُشرق فيه الشمس وبين مطلع النهار، صُوِّر الإله ذاته فى شموخه منبثقًا، إذا صحَّ التعبير، من أعماق الجبل والليل. فالمعبد يلتزم بكل دقة بالاتجاه الشرقى الغربى.

(*) أنف الجبل: ما نتأ منه. المعجم الوسيط. (المترجم)

وتحيط بالواجهة كلها خيرزانة يعلوها إفريز يزدان بالخراطيش الملكية التى تكتنفها الأصلال. وفوقها يصطف اثنان وعشرون قرداً يبلغ ارتفاع كل واحد منها ٢٣٠سم وهى تتعبد للشمس المشرقة.

وبعد اجتياز الباب يصل المرء إلى قاعة يبلغ عمقها ١٨متراً وعرضها ٦١,٧٠متراً، ويستند سقفها على ثمانية أعمدة أوزيرية تشكل ثلاثة أروقة، على أن يكون الرواق الأوسط هو الأعرض. إن صور **رعمسيس** الثانى فى ردائه الأوزيرى اللاصق، والمستند إلى الأعمدة، تقف على جانبى هذا الرواق، ويصل ارتفاع كل تمثال من هذه التماثيل عشرة أمتار. كما زُخرفت الجدران بمشاهد عسكرية، وعلى رأسها معركة **قادش**.

ومن الباب المنحوت فى الجدار الغربى يصل المرء إلى قاعة ثانية طولها ١٤,٢٠متراً وعرضها ٧,٧٠ أمتار، ويحمل سقفها أربعة أعمدة مربعة ضخمة، اثنان على كل جانب من المحور الأوسط، وقد ازدانت بنقوش تُصوِّر شعيرة معانقة الملك من قِبل الآلهة، وهى على التوالى: **أنوكيس وساتيس وحتحور ومُوت**...

إن ثلاثة أبواب مفتوحة فى الجدار الغربى تفضى إلى قاعة ثالثة أصغر من سابقتها، وتزدان بمشاهد من القرابين والتعبد. وأخيراً، فإن ثلاثة أبواب أخرى تؤدى إلى قدس الأقداس الذى يبلغ أربعة أمتار عرضاً وسبعة أمتار عمقاً. وفى مؤخرة هذه القاعة نحتت فى صخر الجبل ذاته صُور أربعة آلهة جالسة على أريكة، وهى من اليسار إلى اليمين، أى من الجنوب إلى الشمال: **بتاح وأمون ورعمسيس ورع حور أختى**، إنها كبرى آلهة الإمبراطورية إلى جانب **الأمبراطور المقدس**.

إن المولعين بالأسرار ومحاولة فك مغاليقها أسهبوا فى الكلام عن تفسير ظاهرة طبيعية تحدث سنويا. إن قدس الأقداس يلى صفا من القاعات المتعاقبة، جاء ترتيبها فى توازن متَّسق مع محور المعبد. وتأسيساً على ذلك، ففى لحظة بلوغ سطوع نور الشمس أوجه، يمكن للواقف عند مدخل المعبد جهة الشرق أن يميِّز بسهولة كبيرة الآلهة الأربعة الجالسة فى أقصى المعبد جهة الغرب. بيد أنه يحدث مرتين فى السنة

أن تشرق الشمس فى محور المعبد ذاته، يومى ٢٠ أكتوبر و٢٠ فبراير، لتضىء تماثيل الآلهة الأربعة(*).

وينظر أحياناً إلى هذا المعبد، وإلى غيره، باعتباره معبداً جنائزياً، بسبب وجود الملك. ولكن أليس **رعمسيس** إلهاً؟ وأليس هذا المعبد الكبير المحفور فى صخر الجبل فى **أبو سمبل** برهاناً شامخاً إضافياً على تأليه العاهل الملكى الذى تقام له الشعائر الإلهية، فى آن واحد، إلى جانب كبرى آلهة مصر الثلاثة؟

وعلى مسافة قصيرة، شمال المعبد الكبير، يوجد المعبد الصغير المحفور فى صخر الجبل والمكرَّس للإلهة **حتحور** وللملكة **نفرتارى**. إنه يرتبط ارتباطاً لصيقاً بالمعبد السابق. هكذا يُؤلَّه اقتران **رعمسيس** بالملكة **نفرتارى**، ويُخلَّد إلى أبد الآباد، كما اقترن **أمون-رع** بإلهة السماء **حتحور**، فهى فى آن واحد زوجة الجرم السماوى وأمه. إنه تبادل فكرى لا ينقطع بين المُعَلِّمَين الشامخين، وتطابق وتوافق حميمان بين عالم الآلهة وعالم الملوك، فيتداخلان ويمتزجان. إن هذا المعبد الصغير المحفور فى صخر الجبل ليس مجرد «*مظهر من مظاهر التكريم والإجلال*» للجميلة **نفرتارى**(**) كما يقال أحياناً. فالهدف منه، بفضل الأساليب السحرية للأشكال وللصور المتماثلة، أن يضمن توحُّد الملكة المحبوبة مع الإلهة **حتحور**، ومن ثَمَّ تخليد اقترانها بالإله **رعمسيس**، إلى أبد الآباد.

وما زال نص التأسيس يعلن:

لقد أقام مبناه من أجل الزوجة الملكية العظيمة ***نفرتارى - محبوبة - موت***، *إنه*

(*) أما **بتاح** وهو الإله الذى ينبثق من الظلمات ويعمل على انبثاقها فإن أشعة الشمس لا تلامس سوى كتفه الأيسر.

Ch. Desroches Noblecourt. Ramsès II. Pygmalion. 1996 p.244. (المترجم)

(**) معنى اسمها: «المنتسبة إلى الجمال» أو «الجميلة» أو «جميلة الجميلات».

Christian Leblanc. Nefertari. Ed. du Rocher. 1999. p.15. (المترجم)

معبد محفور فى صخر الجبل الطاهر فى ***النوبة***، *إنه من حجر رملى أبيض، إنه عمل ينتسب إلى الأبدية* – (من قبل) ***محبوب – أمون***[١٦].

كل شيء هنا، توافقات وعلاقات حميمة.

واجهة المعبد، وهى مقابلة أيضًا للشرق، تتكون من سبع دعامات(*) مائله على شكل منحدر ويعلوها كورنيش مصرى. والدعامة الوسطى وهى الأكثر ضخامة يخترقها باب هو المدخل إلى المعبد. إن الفجوات القائمة فى المسافة بين الدعامات استخدمت كوات لستة تماثيل عملاقة يبلغ ارتفاع كل تمثال منها عشرة أمتار، وقد شُكلت بالنحت المجسم فى صخر الجبل. إن الاثنين اللذين يكتنفان الباب والاثنين القائمين عند الطرفين، تمثل الملك واقفًا وقد وضع مختلف التيجان على رأسه. أما التمثالان العملاقان القائمان فى المسافتين اللتين تتوسطان التماثيل السابقة التى تؤطرهما، فإنهما يصوران **نفرتارى** وقد ازدانت برموز **حتحور**... كما صور أمراء ملكيين قرب تماثيل الملك وأميرات بجوار الملكة.

ويستند سقف القاعة الأولى على أعمدة **حتحورية** يبلغ ارتفاعها ١٧، ٣مترًا. ثلاثة أعمدة على كل جانب من جانبى المحور الأوسط. وقد زُخرف كل جدار من الجدارين الشمالى والجنوبى بأربع لوحات كبيرة، تصور القرابين التى يقدمها الملك لثلاث مرات، ومرة واحدة بالنسبة للملكة. وتخترق ثلاثة أبواب الجدار الغربى لتفضى إلى ردهة عريضة محدودة العمق، وتسبق قدس الأقداس الذى صورت فى مؤخرته البقرة **حتحور**، وسط عمودين حتحوريين، وكأنها تبزغ من صخر الجبل، بينما تحمى بخطمها القوى تمثالاً صغيراً للملك.

(*) الدعامة contrefort: كتلة مبانٍ من الحجر أو الطوب بارزة فى حائط أو تبنى ساندة له، لتزيد من قوة تحمله.

معجم العمارة وإنشاء المبانى. تقديم وتصنيف وتعريف: د.توفيق أحمد عبدالجواد. الأهرام. القاهرة. ١٩٨٥. ص١٥٢. (المترجم)

إنهما معبدان شامخان لا مثيل لهما، وكان من الضرورى إنقاذهما قبل أن تغمرهما مياه **بحيرة ناصر**، بعد بناء **السد العالى**.

كان ذيوع شهرة معابد **الجنوب** هذه حتى طبَّق صيتها الآفاق، قد دفع منظمة **اليونسكو** إلى تأسيس حملة عام ١٩٦٠، لحماية معابد **النوبة** وضرورة إنقاذ معبدى **أبوسمبل**. وبعد أن تم استنفار الرأى العام العالمى، اهتزت مشاعره لفكرة أن هذا المعلم الفريد فى بابه سوف يلحق به الدمار. ولأول مرة، عقد عدد من الدول العزم على القيام بأعمال جسيمة، حفاظًا على هذين المعلمين الشامخين اللذين تفتقت عنهما قريحة **رمسيس** الثانى. وفى نهاية المطاف، تقرر نقل المعبدين إلى الهضبة الصخرية بعيداً فوق الموقع الحالى. الأمر الذى لم يتطلب فقط تخصيص أموال طائلة وصلت إلى ٣٦مليار دولار ولكن أيضًا وسائل تقنية متطورة. وتمت العملية على ست مراحل(*) بدأت أواخر ١٩٦٣ لتنتهى عام ١٩٦٨(١٧):

«١- رفع الأجزاء غير الأساسية من المعبدين، بتسوية التلال التى تعلوهما بارتفاع ٣٠متراً فوق المعبد الكبير و٤٠متراً فوق المعبد الصغير، وحفر هذه التلال حتى مسافة ٨٠ سنتيمتراً من أسقف المعبدين. ومعنى ذلك نقل ٣٠٠٠٠٠طن من الصخور، على أن يتم كل ذلك دون استخدام المتفجرات التى قد تُلحق الضرر بالمعبدين.

٢- وفى الوقت نفسه، شُيِّد سدٌ مؤقت طوله ٣٦٠متراً وارتفاعه ٢٥متراً، الغرض منه مقاومة ارتفاع مستوى المياه أثناء تقطيع المعابد ونقلها.

(*) عن قصة إنقاذ آثار النوبة ومعبدى **أبو سمبل** تحديداً، ودور **كريستيان ديروش نوبلكور** فى هذا الصدد، راجع:

Christiane Desroches Noblecourt: la Grande Nubiade. Ed. Stock. 1992. Chapitres: 9-16.

وبالمناسبة فقد أطلقت المؤلفة على هذه الحملة «أروع حملة صليبية ثقافية» بعيداً بطبيعة الحال عن أى دلالة دينية. (المترجم)

٣- تقطيع المعبدين إلى ١٠٣٥ كتلة، قد يصل وزن الكتلة الواحدة إلى ٢٠طنًا، كانت هذه المرحلة من أدق المراحل، على وجه الإطلاق. فبالنظر إلى هشاشة صخور الجبل الرملى لمعبدى **أبوسمبل**، مما قد يعرضها للتفتت، كان من الضرورى تدعيمها بحقنها بمادة راتنجية كيماوية، ومعالجة السطوح فى الأماكن التى سيتم تقطيعها، تجنبًا لتفتت الحجر تحت تأثير المنشار، مع مراعاة اللجوء إلى النشر اليدوى فى بعض الأماكن شديدة الهشاشة.

٤- ترقيم الكتل الحجرية ونقلها. وهو ما يعادل ١١٥٠٠طن للمعبد الكبير و٣٥٠٠طن للمعبد الصغير. ثم تخزينها، لحين الانتهاء من عملية التقطيع.

٥- إعادة تشييد المعبدين بتثبيت الكتل الحجرية على بنية فوقية من الأسمنت المسلح، مع مراعاة اتجاه وموضع كل منها.

٦- إعادة تشكيل الإطار الطبيعى الأصلى، بأكبر قدر من الدقة، من خلال إقامة قبتين من الأسمنت المسلح تستطيع حمل غطاء صخرى يشبه الإطار الذى كان يحيط بالمعبدين.

إن أعمال التشطيب كسدِّ الثغرات الناتجة عن أعمال النشر على سبيل المثال، سوف تستمر حتى ١٩٧٢».

ولكن فى ٢٢ سبتمبر ١٩٦٨، أقيم حفل افتتاح معبدى ***أبوسمبل الجليلين***، افتتاحًا رسميًا، وسط مظاهر البهجة وبحضور جمهور غفير.

كان ٩٠٠ شخص من بينهم خمسون من الفنيين والمهندسين الأجانب وأربعون مهندسًا مصريًا قد عملوا فى هذا المشروع العظيم الفريد فى بابه، طوال ست سنوات(*).

لم يُكتب لملك آخر غير **رمسيس** الثانى الكبير أن يعرف مثل هذا المصير بعد وفاته. كانت ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة قد مرت منذ أن وافته المنية(*)، عندما ازدانت

(*) حقا، إنه لعجيبة من العجائب! (المترجم)

أنذاك طوابع البريد التى تصدرها معظم البلدان بوجهه العملاق، وجه **أبوسمبل**. وعندما نقل جسده جوًا إلى **باريس** لتلقى العلاج، كان فى انتظاره عند عودته، فى مطار **الماظة بالقاهرة**، بعض كبار الشخصيات المصرية(**). لقد ظلت هيبته منذ معركة **قادش** تغالب الأيام. ولكن نذكر فى المقام الأول، عمله الجبار بصفته بنَّاءً عظيمًا، تجسيدًا لشموخه، فبفضله استطاعت مهابته التى لا مثيل لها أن تظل تقاوم الزمن، إلى أيامنا هذه.

أكان من الضرورى أن يتحلَّى بهذا الارتفاع فى القدر والمكانة، حتى تتضافر فى آن واحد جهود **مصر** وبلدان **أوروبا وأمريكا** وتقرر حماية وإنقاذ **بيوت- آلهة رعمسيس**؟ ولكن ألم يكن **رعمسيس** ذاته إلهًا؟

والآن، عند سفح جُرف **أبوسمبل**، وبعد أن حُفر الجبل حفرًا، أصبح فارغًا خاويًا وأشبه بفاقد البصر. فلن نشاهد بعد الآن روعة وجمال هذا الموقع، ولا التناغم المتسامى الذى كان قائمًا بين المعبد الملكى والطبيعة المحيطة به(***)، ولكن ستبقى الحماية تُظلُّ الآلهة فى مكان آخر. وكما تقوله المدونة التكريسية: إن المعبد، «**ينتسب إلى الأبدية**».

(*) من الجدير ملاحظة ما يأتى: فى المصرية القديمة كلمة **ملى** تعنى **مات**. وكلمة **مليت** تعنى **ميناء**. برناديت مونى، المعجم الوجيز فى اللغة المصرية، ترجمه عن الفرنسية ماهر جويجاتى، دار الفكر، ١٩٩٩، ص ص١٠٩-١١٠. كما أن الكلمة القبطية **مونى** تعنى **مرفأ**، أو **ميناء** وتأتى مجازًا بمعنى **المنية**، **الموت**. د.جورجى صبحى، قواعد اللغة المصرية القبطية، طبعة جديدة G.M.T. International، ١٩٨٧، ص٢٢٥. وقد يكون وجه الشبه واضحًا أيضًا فى اللغة العربية بين كلمتى **ميناء ومنية**، فكلتاهما تعنى نهاية رحلة، رحلة سفر أو رحلة حياة. (المترجم)

(**) لمزيد من التفاصيل عن هذه الرحلة راجع:

Christiane Desroches Noblecourt. la Grande Nubiade. Stock. Pernoud. 1992. pp.429-440. (المترجم)

(***) وفى هذا الصدد يمكن مراجعة مجموعة الصور الواردة فى المرجع السابق بين صفحتى ٢٨٨ و٢٨٩وتحديدًا الصورة رقم ١٧. وأيضًا للمؤلفة نفسها: Ramsès II. Pygmalion. 1996. p.220. (المترجم)

وإذا أبحرنا شمال **أبوسمبل**، هابطين مجرى النهر، نلتقى أيضًا بمعابد شيَّدتها «*أنوار الملوك وأضواؤها*». إنها تحتشد وتتكدس، بأعداد أكبر، لتشكل **غطاءً** إلهيًا **لمصر**، بعد أن اقتربنا منها الآن.

فى بلدة **الدرُّ** أقيم أيضًا معبد محفور فى الصخر. وكان مكرسًا للإله **أمون-رع**، وقد نُقر بالكامل فى الجبل بعمق ٢٣مترًا. كان يضم بهو أعمدة زُخرفت جدرانه بمشاهد عسكرية. وكانت تتقدم قدس الأقداس قاعة صغيرة زخرفت جدرانها بمشاهد تقديم القرابين، وكان الأقباط قد حولوه إلى كنيسة.

وتم تقطيعه، قبل عام ١٩٦٤ وأعيد بناؤه بمعرفة **هيئة الآثار المصرية**.

وإلى الشمال قليلاً يمتد موقع **عمدا**. كان المعبد المبنى بالكامل بالحجر الرملى قد شيده كل من **تحوتمس** الثالث و**أمنحوتپ** الثانى من جانب، وتحوتمس الرابع من جانب آخر، وكان مكرسًا للإلهين **رع حور أختى** و**أمون -رع**. وفى عهد **أمنحوتپ** الرابع أزيلت صور **أمون** وأسماؤه وألقابه بالمطرقة. وأول أعمال الترميم قام بها **سيتى** الأول ثم واصلها **رمسيس** الثانى. وأقام فيه **مر إن پتاح** لوحًا حجريًا، يحمل تاريخ العام الرابع من حكمه ويشير إلى حملة إلى **النوبة**. كما نجد فى معبد **عمدا** هذا، اسمىْ الملكة **تاوسرت** وحامل الأختام **باى**(*)، وحوله **الأقباط** إلى كنيسة.

«يعتبر نقل معبد **عمدا** عملاً باهرًا(**). فقد تحرك من مكانه ككتلة واحدة، لمسافة ٢٦٠٠متر وإلى مكان يرتفع ٦٥مترًا عن مستوى الموقع الحالى. إن هشاشة الرسومات والنقوش التى تزخرف جدرانه، وما زالت فى حالة جيدة من الحفظ بعد مرور ثلاثين قرنًا، كانت لا تسمح بتفكيكه بأى شكل من أشكال. ومن ثَمَّ فقد شُدَّ شدا

(*) راجع الفصل الرابع من الباب الأول. (المترجم)

(**) وتلك عجيبة أخرى. (المترجم)

بالأحزمة والأربطة وأحيط بكمرات من الصلب والأسمنت المسلح، ليحتفظ بصلابته. وانتقل على خط حديدى مكون من ثلاثة قضبان، شُيِّد خصيصاً لهذه العملية. وقام الفرنسيون بتمويل هذه المهمة(*). أما المقصورة الواقعة أمام قسم قدس الأقداس فقد قامت **هيئة الآثار المصرية** بتفكيكها ونقلها»(١٨).

وإذا واصلنا السير شمالاً، نصل إلى معبد **وادى السبوع** الذى حُفر جزء منه فقط فى صخر الجبل، بينما يقع قسمه الأكبر خارج الجرف الصخرى. وأمام صرح المدخل كان يمتد فناءان يحيط بهما سور من الطوب، والطريق المحورى تحفه تماثيل أبو الهول. وكانت تماثيل الفناء الأول برأس آدمى، عملاً بالطراز القديم، أما تماثيل الفناء الثانى فبرأس صقر، وهو طراز جديد مبتكر. إن أبدان أسود التماثيل قد أعطت اسمها للموقع، فأُطلق عليه **وادى السُبوع**. وكان **رعمسيس** الثانى قد كرَّس المعبد للإلهين **أمون-رع ورع حور أختى**.

وأمام واجهة صرح المعبد أقيمت ستة تماثيل عملاقة تصور **رعمسيس**، وما زال تمثالان منها فى مكانهما، بينما حطام الأربعة الأخرى تغطى الأرض. وعلى جناحى الصرح، ما زلنا نميز النقوش التى تصور **رعمسيس**، وهو يقدم الأسرى إلى **أمون**، وإن كانت هذه النقوش مطموسة إلى حدٍّ كبير. والفناء الذى يلى الصرح مربع، ويبلغ طول ضلعه عشرين متراً، وتكتنفه صفتان على الجانبين. إن تماثيل **أوزيرية** عملاقة تصور الملك، كانت تستند إلى الأعمدة. وعلى قواعد جدران الصفتين صُوِّر موكب أولاد(**) الملك: ثلاثة وخمسون أميراً يحملون المراوح، وسبع وأربعون أميرة يَهْزُزْن المصلصلات. كما نلتقى بهذا الموضوع نفسه فى **الرامسيوم**.

(*) بدأت الرحلة يوم ١٢ ديسمبر ١٩٦٣. كان الموكب يسير بسرعة ٢٥متراً فى الساعة ليصل إلى موقعه الجديد يوم ٢٦ مارس ١٩٦٤. Egypte. Guides Bleus, Hachette. 2002. p.444. (المترجم)

(**) الولد: يطلق على الذكر وعلى الأنثى. المعجم الوسيط. (المترجم)

إن القاعات المحفورة فى جُرف الجبل والتى تتقدم قدس الأقداس تزدان بمشاهد تقديم القرابين. وعلى جدار مؤخرة قدس الأقداس حُفرت كوة تُظلُّ نقوش ثلاثة آلهة: **أمون ورعمسيس**(*) الثانى **ورع حور أختى**.

قامت هيئة الآثار المصرية بنقل المعبد بتمويل من **الولايات المتحدة الأمريكية**.

كان المرء إذا واصل السير بمحاذاة النهر سرعان ما يلتقى بمعبد **جرف حسين** الذى نُحت جانب منه فى صخر الجبل. وكان **سِتاو** نائب الملك فى **الجنوب** قد أمر بحفره، بناء على أوامر **رعمسيس** الثانى فى العام ٤٥ من عهده. كان مكرساً لكل من **بتاح ورعمسيس** الثانى **وبتاح تاتان وحتحور**. وصورت الآلهة الأربعة فى مؤخرة قدس الأقداس.

والمعبد على مسافة قريبة من المعبد السابق.

وأخيرًا، وإلى الشمال قليلاً، كان يوجد معبد **بيت الوالى** المحفور فى صخر الجبل، تنفيذًا أيضًا للأمر الصادر من **رعمسيس** الثانى. وقد نقل من مكانة بمعرفة هيئة الآثار المصرية بفضل رءوس الأموال الأمريكية. وللأسف فإن داخل المعبد المحفور فى الصخر، ويتكون من ثلاث قاعات وقدس أقداس قد أُدخل عليه بعض التعديلات فى العصر المسيحى. ولكن ما زال فى وسعنا رؤية بعض مشاهد حملات **رعمسيس** الثانى العسكرية، على جدران الفناء الخارجى.

وإذا سرنا بعيداً عن نهر **النيل** وتوغلنا فى **الصحراء الشرقية**، على مسافة ١٠٠كم تقريباً جنوب درب **وادى الحمامات**، نلتقى بخرائب المبانى التى كان **سيتى** الأول قد شيدها حول مناجم الذهب، ونشير تحديداً إلى معبد صغير، حُفر نصفه فى صخر الجبل وسط **وادى مياه** قرب قرية **الرديسية** الحالية، والذى كشف عنه الرحالة **كايو** Cailliaud عام ١٨١٦. هذا المعبد المحفور نصفه فى الجبل مكرس للإله **أمون**. وواجهة المعبد عبارة عن صفة تتكون من أساطين على شكل براعم البردى. وداخل

(*) هكذا! (المترجم)

صخر الجبل نحتت قاعتان يليهما قدس الأقداس. وعلى جدران القاعة الأولى نقشت ثلاث مدونات أمر **سيتي** الأول بتسجيلها، لتروى تاريخ مشاريعه(١٩).

لم تعرف **مصر** ملكًا غير **رعمسيس** الثانى أقام هذا القدر من المبانى الإلهية. ويشهد ذلك على ازدهار بلد كان فى وسعه القيام بهذه المشاريع الإنشائية العظيمة التى تمتد فى ربوع البلاد من قلب **السودان** وحتى **البحر الأبيض المتوسط**. وبعد **رعمسيس** الثانى سوف يتقلص نشاط البنَّائين الملكيين.

ولا يخامرنا أدنى شك أنه كان يُنظر إلى **رعمسيس** الثانى فى معابد **الجنوب** بصفته إلهًا. فقد صُوِّر فى معظم المعابد فى صحبة آلهة **مصر**، ولا سيما آلهة الثالوث المقدس الذى اختاره **الرعامسة**، فكان يشاركها فى حماية «الأرض المحبوبة». ويظهر ذلك بكل وضوح فى معابد **السودان والنوبة**، ليصبح شخص الملك مصونًا فى نظر هذه الشعوب التى تميل إلى التمرد.

ثانيًا: قصور ملايين السنين

فى «*قصور ملايين السنين*» التى نطلق عليها المعابد الجنائزية، كانت تقام الشعائر اعتبارًا من الأسرة الثامنة عشرة من أجل الملك المتوفى، وفى الوقت نفسه من أجل الآلهة. ومن قبل كان مكان إقامة الشعائر الجنائزية الملكية منفصلاً. ومع ذلك لا ينبغى الخلط بين المعبد الإلهى والمعبد الجنائزى، رغم ما بينهما من أوجه تماثل واضح، فى شكل المبنى ذاته من حيث التخطيط وسمة «الشخصيات» التى تقام من أجلها الشعائر. فمن ناحية تقام المعابد الجنائزية بصفة عامة فى مكان لا يبعد كثيرًا عن المقبرة التى يرتبط بها، بالنظر إلى طبيعتها، فتشيد على البر الغربى لمدينة **طيبة**. ومن ناحية أخرى، كان المصريون أنفسهم يميزون بين «بيوت الآلهة» و«قصور ملايين السنين»، ويكفى أن نستشهد بالنصوص.

أكثر قصور ملايين السنين أصالة:

معبد سيتى الأول التذكارى فى أبيدوس(*)

إن المعبد الجنائزى الفعلى للملك **سيتى** الأول، وتخطيطه كلاسيكى، قائم فى **الشيخ عبد القرنة**، بالبر الغربى لمدينة **طيبة**(**)، ولايبعد كثيراً عن مقبرته فى **وادى الملوك**(***).

ولكنه أقام فى **أبيدوس**(****)، مكان **أوزيريس** المقدس، معبداً جنائزيا ألحقت به مقبرة تذكارية، فكان عملاً فريداً فى بابه. إنه فى حقيقة الأمر معلم نذرى شامخ من أجل **أوزيريس**، إله البعث. فمنذ الأسرة الثانية عشرة شاعت رحلات الحج إلى **أبيدوس** على نطاق واسع، وكان الأفراد يضعون فى الغالب النذور فى هذا المكان، وهى فى معظم الأحوال عبارة عن لوح حجرى، وكانت غايتهم الحصول على الرعاية الخيرة التى يوفرها سيد الصيرورات الأبدية.

وقد أطلق الإغريق على المبنى الذى شيَّده **سيتى** الأول اسم Memnonion

---

(*) تقع هذه المنطقة الأثرية على مسافة ١٥٤كم شمال **الأقصر** ولا تبعد كثيراً عن مدينة **البلينا**. (المترجم)

(**) وفى الناحية الشمالية، تحديداً. (المترجم)

(***) المقبرة رقم kv17. (المترجم)

(****) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم **أبچو** يغطى مصطلح **أبيدوس** اليوم سبعة مواقع أثرية هى: **أم القعاب**، **والعرابة المدفونة**، **وبيت النصارى**، **وتل المنشية**، **وشونة الزبيب**، **وكوم السلطان**، **وبنى منصور**.

M. Damiano- Appia. L'Egypte.. Dict. Enc. GrÜnd. 1999. p.33.

كما يمكن الرجوع إلى الكتاب القيم: د. عبدالحميد زايد. أبيدوس. وزارة الثقافة والإرشاد القومى. مصلحة الآثار. ١٩٦٣. (المترجم)

وباللاتينية Memnonium **ممنونيوم**، عندما صحّفوا لقب العاهل الملكى **من ماعت رع**، وقد وصفه **سترابون**(*) Strabon قائلاً «*إنه قصر(!) بُنى بناءً رائعًا*».

شُـيِّد المعبد على منحدر أرض مائلة، فأصبح من الضرورى توزيع تدرج المبنى على أسطح متعاقبة. ويتخذ تخطيطه الأفقى شكل الزاوية القائمة. وبالإضافة إلى المعبد ذاته، فى المحور الشمالى الجنوبى، يضم المعبد جناحًا جانبيا، ناحية الشرق. وأخيراً يستند المعبد إلى أكمة طبيعية، حفرت فى هيئة قبر تذكارى، هو **الأوزيريون** Osireion. لقد شُيِّد من الحجر الجيرى الناعم، الذى يبرز أعمال النحت بروزًا رائعًا. والنقوش على أكبر قدر من الدقة وترتقى إلى مستوى رفيع من الجمال. أما الأساسات التى تصل إلى عمق ١٢٠سم فهى من الحجر الرملى.

قام **رعمسيس** الثانى بإضافة فناءين وصرح إلى المعبد الأصلى الذى شيده والده، ليزيد من مساحته. إن الصرح وهو من الحجر الرملى، وكان طول واجهته ٦٢متراً، مدمر فى الوقت الراهن تدميراً شبه كامل. كما صار الفناءان أثرًا بعد عين. كان الفناء الأول يضم أشجاراً وأحواض ماء كما حُفرت كوات فى السطوح الداخلية لجدرانه، وكانت تُظلُّ - على ما يعتقد - تماثيل أوزيرية تصور الملك. وكان كل فناء ينتهى برواق على شكل شرفة ويتكون من اثنى عشر عموداً مربعاً.

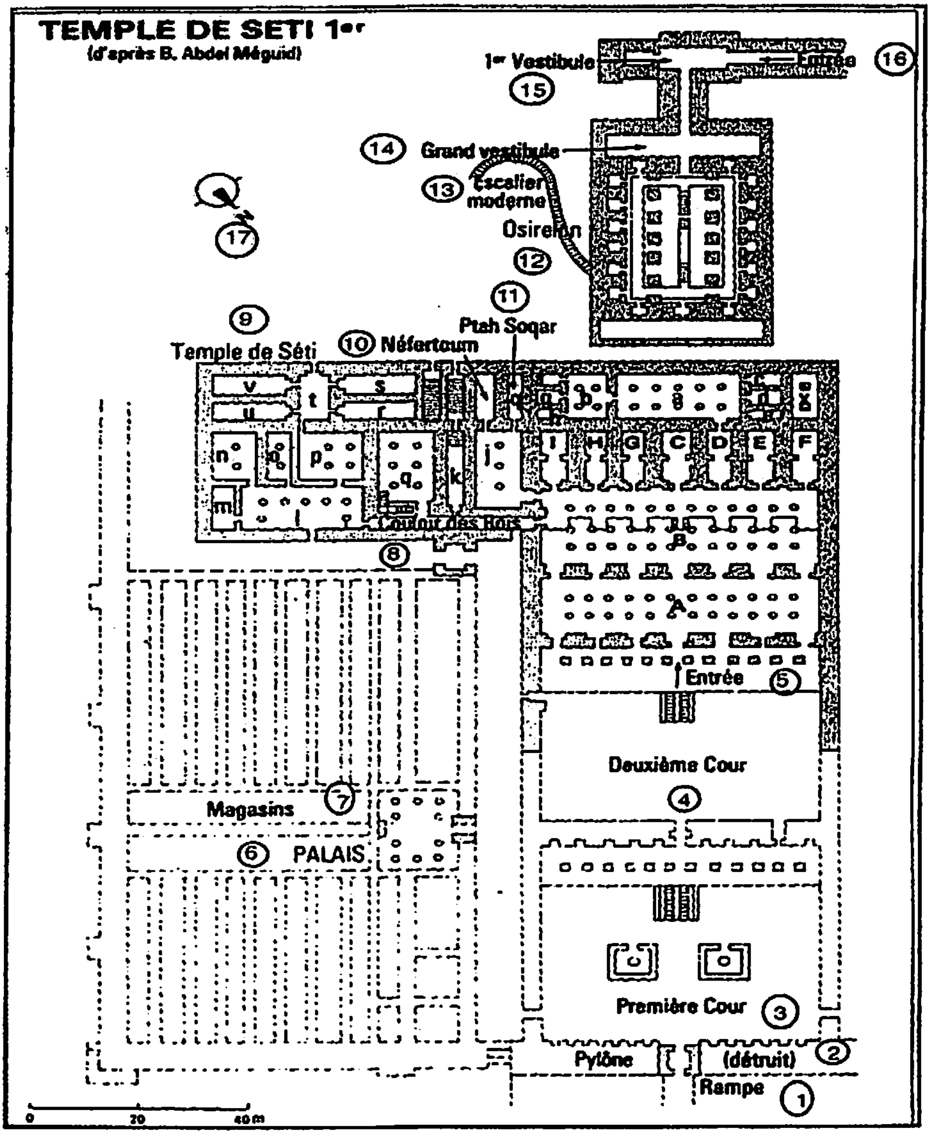
وخلف الرواق الثانى، كانت سبعة أبواب تتيح للمرء الدخول إلى بهو الأساطين، الأول الذى يبلغ طوله ٦٢متراً، وعمقه ٢١متراً، ويضم أربعة وعشرين أسطونًا موزعة على صفين، كل اثنين معًا.

وأمر رعمسيس بسدِّ أربعة من هذه الأبواب بحائط من كتل الحجر الرملى، وعلى الجدار الذى تشكل على هذا النحو، أمر بنحت مشاهد إقامة الشعائر من أجل **سيتى** الأول بالنقش الغائر. إن مدونة من ٩٥ سطراً تشيد بحب **رعمسيس** لوالده، عندما أمر بتوسيع معبد أبيه وترميمه.

(**) عالم جغرافيا يونانى ولد عام ٥٨ ق.م، وتوفى فى منتصف العقد الثالث من القرن الأول الميلادى. (المترجم)

بيانات معبد سيتى الأول، فى أبيدوس

1. ممر صاعد
2. صرح (مهدم)
3. الفناء الأول
4. الفناء الثانى
5. المدخل
6. القصر
7. المخازن
8. دهليز الملوك
9. معبد سيتى
10. نفرتوم
11. پتاح سوكر
12. الأوزيريون
13. سلم حديث
14. الردهة الكبيرة
15. الردهة الأولى
16. المدخل
17. اتجاه الشمال



مسقط أفقي لمعبد سيتى الأول ، في أبيدوس

إن سبعة أبواب أخرى، تقع على محور الأبواب السابقة نفسه، تُفضى إلى بهو الأساطين الثانى الذى يضم ثلاثة صفوف من ٣٦ أسطونًا، كل اثنين أيضًا معًا. هذه الأساطين مثل سابقتها من طراز حزمة البردى، وتتخذ تيجانها هيئة براعم البردى، وهى المرة الأولى التى يظهر فيها هذا الطراز الذى سينتشر فى عصر **الرعامسة** على نطاق واسع. إن الصف الأخير من الأساطين من البهو الثانى مُقام فوق أرضية أكثر ارتفاعًا، فقد سبق أنْ لاحظنا أن المعبد قد شُيِّد فوق أرض مائلة. ولهذا السبب فالأساطين بلا تيجان، لتعويض الفارق فى مستوى الأرض.

إن الأروقة السبعة التى تحددها الأبواب السبعة، تفضى إلى سبع مقاصير، طول الواحدة ١٠,٨٥م وعرضها ٥,٢٠م. وهى مكرسة للإله **أمون** فى الوسط، ولكل من **أوزيريس**، و**إيزيس** و**حورس** فى الجهة اليمنى، أى ناحية الغرب، ولكل من **حور أختى** و**پتاح** و**سيتى** فى الجهة اليسرى، أى ناحية الشرق. هذا التقسيم إلى سبعة أروقة وإلى سبع مقاصير، ظاهرة فريدة فى بابها. ويتخذ سقف كل مقصورة هيئة القبو الكاذب المتدرج(*). وينقسم إلى جزأين، فى اتجاه الطول، فيُظِلُّ الجزء الأول القارب المقدس، ما عدا مقصورة **سيتى**(**)، ويُظلُّ الجزء الآخر تمثالاً يستند إلى الباب الوهمى المنحوت فى جدار المؤخرة. ومقصورة **أوزيريس**(***) هى الوحيدة التى يوجد بها باب حقيقى فى مؤخرتها، يسمح بالانتقال إلى حجرات **أوزيرية** أخرى. ويتقدم كل مقصورة من هذه المقاصير حُدُور، أما مقصورة **أمون** وهى الأكثر أهمية، فكان يتقدمها سُلَّم. وكانت تُغلق بباب ذى مصراعين. وعلى الواجهة الداخلية لهذه الأبواب نُحتت بعض النصوص، نذكر منها خطابات الآلهة اعترافًا بجميل الملك:

* *كلمات قالها **أوزيريس**، أول **أهل الغرب**، المقيم فى معبد **من ماعت رع**:*

(*) لمزيد من التفاصيل راجع: د.محمد أنورر شكرى، العمارة فى مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، فى أماكن متفرقة ولا سيما ص٤١-٤٢ والشكل ٣. (المترجم)

(**) المقصورة I فى رسم المسقط الأفقى للمعبد. (المترجم)

(***) المقصورة D فى رسم المسقط الأفقى للمعبد. (المترجم)

«لقد حضرت إلى معبدك، وقلبي مفعم بالحب، لمشاهدة وجهك. إن قلبي سعيد ويعود إليه الاخضرار بفضل ما فعلته، وكما يتصرف ابن يعبِّر عن الشكر والحمد لأبيه[٢٠]».

* *كلمات قالتها **إيزيس**، الأم الإلهية، المقيمة في معبد **من ماعت رع**:*

«كم هو جميل المعلم الصرحي الذي صنعته من أجلي. لقد شيدته بقلب ودود. أجل، فإنني معك أيضًا، وسوف أكون حمايةً لجسدك، مثل رع، للزمن اللانهائي[٢١]».

* *كلمات قالها **حورس**، ابن **ون نفر**[٢٢]، القيم في معبد **من ماعت رع**:*

*«أنا أبوك، لقد أقمتك في قلبي منذ أن كنت وليدًا يتم إرضاعه. لقد بُشِّرت بمُلكك بينما كنت لا تزال في بطن أمك، أنت يا **حامي – أبيه**(*)[٢٣]».*

هكذا يندرج **سيتي** الأول في السلالة الأوزيرية. ولكنه يندمج أيضًا في الشمس.

فعلى سقف مقصورة **سيتي**، يمكن للمرء أن يقرأ ما يلي:

ما دامت السماء باقية، سيبقى معبده، لأن صاحب الجلالة قائم فيه، أشبه بقرص الشمس للزمن اللانهائي، اللانهائي[٢٤].

وعلى سقف مقصورة **أوزيريس**، يطلق على الملك الاسم التالي:

***الحورس**... صاحب الأيام العديدة، والساعات التي لا حصر لها، الذي تشبه مدة حياته مدة **القرص** صاحب المسار العظيم، مثل **خبري** عندما يظهر عند مطلع الفجر. إن الزمن اللانهائي قائم أمامه في معبده[٢٥].*

هكذا تكتسب الأبدية الملكية ضمانًا مزدوجًا. ذلك هو الهدف الذي يتطلع إليه بشكل طبيعي كل معبد جنائزي.

إن الجناح الشرقي من المبنى وهو عمودي عليه، يرتبط به من خلال دهليز طويل، يطلق عليه اصطلاحًا «**دهليز الملوك**»، طوله ٢٥مترًا. إن سقفه مرصع بالنجوم

(*) **حور نج إيتف** بالمصرية القديمة وقد صحفه الإغريق إلى **حاريندوتس** Harendotès.(المترجم)

الصفراء، فالنحاس هو مادة النجوم، وتتعاقب صورها مع خراطيش **سيتى** الأول. وعلى الجدران نُحتت ٧٦خرطوشًا تخص الملوك الذين حكموا **مصر** بدءًا من **نعرمر** وحتى **سيتى** الأول(*). ويقوم **سيتى** وابنه **رعمسيس** بإطلاق البخور فى اتجاه أسماء آبائهم، مع تلاوة الصيغ الطقسية.

هكذا، سُجِّلت تسجيلاً راسخًا وثابتًا، استمرارية النظام الملكى المصرى ودوامه، فى أشكال من الحجر ليغالب الأيام. ولما كان **رعمسيس** الثانى آنذاك هو وريث العرش، فقد نُظر إليه فى هذه اللحظة باعتباره **النبتة** الأخيرة. وإذا كان المؤرخ المعاصر يجد بغيته فى هذه القائمة، فقد كان العقل المصرى يعلق أيضًا أهمية كبرى على توارث العرش أبًا عن جدٍّ، واستمرارية السلالة الملكية، وهو ما تعبر عنه تعبيرًا كاملاً وشاملاً أسطورة **أوزيريس**، سيِّد هذا المكان المقدس وراعيه.

ويتصل الدهليز الطويل بمجموعة من الحجرات.

إن البناء الأكثر تفردًا فى هذه المجموعة الأصيلة فى حد ذاتها كل الأصالة، هو ضريح **سيتى** الأول التذكارى، المعروف اصطلاحًا **بالأوزيريون** Osireion. وبالفعل، فقد ساد الاعتقاد عند الكشف عنه فى العقد الثالث من القرن العشرين، أنه قبر **أوزيريس**. لقد شُيِّد فى محور المعبد، كما أن فارق ٢٥٠سم يفصل أساسات المبنيين.

إن الأكمة الصخرية الطبيعية التى شيد عليها كانت محاطة على ما يعتقد بأشجار رمزًا لعودة الحياة إلى عالم النبات وبعث **أوزيريس**، الأمر الذى ما زالت تؤكده الفجوات الصغيرة المحفورة فى الرمال، ويفترض أنها كانت تملأ بالتربة الصالحة للزراعة.

(*) لقد عمد **سيتى** الأول إلى إهمال ذكر أسماء بعض الملوك باعتبارهم غير شرعيين، مثل **حتشبسوت** و **أخناتون وسمنخ كارع وتوت عنخ آمون**. راجع: د.عبدالحميد زايد، أبيدوس، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، مصلحة الآثار، ١٩٦٢، ص٤١. (المترجم)

يقع مدخل **الأوزيريون** ناحية الغرب. إن دهليزاً طويلاً ينحدر انحداراً خفيفاً كان مقبباً فى البداية، يغور فى الأرض على عمق مائة متر تقريباً، إلى مستوى البناية السفلية المحفورة فى الصخر. إن سطوح هذا الدهليز المغطاة بالطوب رسمت عليها ودونت نصوص جنائزية. وبعد ذلك، يعبر المرء حجرتين صغيرتين قبل أن يصل إلى دهليز ثان يشكل زاوية قائمة مع الدهليز الأول، وإذ يتجه ناحية الشرق فإنه يقودنا إلى قاعة فسيحة مستعرضة طولها ٢٠متراً وعرضها ستة أمتار، يعلوها سقف بقمة مستديرة. وتزدان الجدران بمشاهد ونصوص مقتطفة من **كتاب الموتى**. ثم نصل إلى الضريح التذكارى ذاته، وهو عبارة عن قاعة فسيحة طولها ٣٠,٥٠م وعرضها ٢٠متراً. وكانت سبع عشرة كوة محفورة فى الصخر تحيط بالقاعة. هل كانت تُظلُّ تماثيل أوزيرية؟ وعلى الجانبين، كان صف من خمسة أعمدة ضخمة من الجرانيت الوردى الأحادى الكتلة ترفع سقف القاعة. وعند كل طرف من القاعة وفى اتجاه محورها الطولى، كان سُلَّم يهبط إلى الماء. وقد تم الكشف عن قناة شُقت فى أعماق الأرض، فى محور معبد **سيتى** الأول، ربما لنقل الماء من **النيل**.

كان هذا المبنى ينتهى بحجرة فسيحة مستعرضة مساحتها كالسابقة، تقارب العشرين متراً فى الستة أمتار، ونطلق عليها اصطلاحاً «**حجرة التابوت**». وبالفعل، ففى وسطها كانت فجوتان تحاكيان، على ما يظن، مكان التابوت وصندوق **الآنية الكانوبية**(*). وقمة السقف مستديرة، سجلت عليه بالنقش البارز بروزاً رقيقاً صور، هى آية فى الجمال. ففى الجهة الغربية من الناحية الشمالية من السقف، نشاهد صورة عملاقة لإلهة السماء **نوت**، ممددة فوق الأرض، ويرفعها الإله **شو**. وعلى ظهر الإلهة السماء دُوِّنت أسماء **الديكانات**(**) Decans. وعلى بطنها وساعديها وساقيها

(*) وليس **الأوانى الكانوبية** وهو خطأ شائع. إن لفظ **آنية** هو صيغة الجمع للفظ **إناء**. أما لفظ **أوانى** فهو صيغة جمع الجمع. **والآنية الكانوبية** أربعة فقط. (المترجم)

(**) من كلمة Decanus اللاتينية وهى من مشتقات Deka أى عشرة. **والديكان** هو الجن المهيمن على كل عشر درجات من دائرة البروج السماوية. لمزيد من التفاصيل راجع: إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص١٥١. (المترجم)

نُقشت الأيام والشهور التى حدثت إبانها شروق أو *سَمْت الرأس*(*) zenith أو غروب **مجموعة نجوم الكوكبة** constellation هذه. إن قسمًا مجاورًا من السقف يطلق عليه: «**معرفة ساعات النهار والليل**».

ومن قبل، ومنذ توابيت الأسرة الثانية عشرة(**)، نتعرف على مثل لوحات الديكانات هذه. إن معرفة ساعات الليل على قدر كبير من الأهمية للمتوفى، إذ توفِّر له القدرة على تتبع الشمس أثناء مسارها الليلى، وبالتالى مصاحبتها مصاحبة سحرية. واستنادًا إلى المدونة، فإن اثنى عشر عضوًا من أعضاء **نوت**(***)، تشكل علامات الأصْواء(****) التى تحدد ساعات الليل الاثنتى عشرة. وهذه الأصواء هى اليد والشَفَة والسِنُ والرقبة والصدر و؟ والأمعاء والأحشاء والفَرْج و؟ والفخذ(٢٦). ويتم كل ذلك بعد مدة حَمْل فى أعماق الجسد الإلهى. كان فى وسع **سيتى** الأول الراقد فى التابوت رقدة وهمية متابعة فترة الحمل هذه لأبد الآباد، ليولد مع الشمس من جديد، ولادة سحرية عند الفجر. إننا فى عالم خيالى من الأطياف، فيمكن أن تدبٌ الحياة فى الأشكال وإن كانت وهمية.

ما معنى الأكمة الوسطى والحفرة المملوءة ماءً؟ يقارن البعض، بين هذه الصورة وصورة *الجزيرة الأصلية*، التى تبرز بالكاد من *المحيط الأولىِّ*، لينشط عليها *الإله الخالق* فى اليوم الأول من ميلاد الكون. إنها أقرب إلى الصواب، فيما ذهبوا إليه.

(*) سَمْت الرأس فى علم الفلك، النقطة فى القبة السماوية التى تقع مباشرة فوق رأس المشاهد وعلى بعد ٩٠درجة من الأفق السماوى. معجم المصطلحات العلمية والتقنية، أكاديميا، بيروت، لبنان ١٩٩٣، ص٥٩٧. (المترجم)

(**) خصص المتحف المصرى بالقاهرة القاعة رقم ٣٧ من الدور العلوى لتوابيت الأسرة الثانية عشرة. (المترجم)

(***) وفى فمها تختفى الشمس فى المساء، لتولد من جديد فى الصباح، من خلال عملية ولادة طبيعية. (المؤلفة)

(****) جمع صُوَّة، وهى ما نصب من الحجارة ليستدل به على الطريق. المعجم الوسيط. (المترجم)

فهذا التصور شائع فى قصص الخلق عند المصريين. ويُعتقد أن **سيتى** الأول قد أصبح مشاركًا فى قصة ميلاد الكون ليلتحم أيضًا بالإله الخالق للأزمنة الأولى، بعد أن ارتبط من قبل بإله البعث فى **أبيدوس** وبدورة الشمس. وإذ كان له نصيب من كل الأشكال الإلهية الخاصة بالميلاد أو الميلاد الجديد، فإنه يضمن لنفسه على هذا النحو أبدية أنشطته الحيوية، اعتمادًا على أساليب مختلفة ومتنوعة وبطرق مؤكدة، منزهة عن الخطأ(*).

وإذا وُجدت أضرحة تذكارية أخرى على أرض **أبيدوس**، نذكر منها على سبيل المثال ضريحَىْ **سنوسرت** الثالث و**أحمس**، فإن ضريح **سيتى** الأول كان فريدًا فى بابه، من حيث شموخه وعمق الفكر الدينى الذى يقف وراءه.

أكثر القصور شموخًا، الرامسيوم

كما أمر **رعمسيس** الثانى ببناء معبد فى **أبيدوس**، لا يبعد كثيرًا عن معبد أبيه. كان مخصصًا **لكا**ئه، وأصغر من السابق، وفى حالة سيئة من الحفظ فى الوقت الراهن. وقد جاء تشييده تعبيرًا عما يكنُّه الابن من مودة نحو أبيه وللحصول بلا شك على أبدية مشتركة. كان تخطيطه كلاسيكيا. فبعد بهوَىْ أساطين، يصل المرء إلى القسم المخصص لقدس الأقداس، الذى كان يضم مجموعة تماثيل من الجرانيت الرمادى تصور خمسة أشخاص: **آمون** فى الوسط، و**سيتى** الأول، و**رعمسيس** الثانى،

(*) إن معبد **سيتى** الأول وملحقاته فى **أبيدوس**، من المعالم الأثرية الجديرة بالزيارة، إذ يذهب البعض إلى أن معبد **سيتى** الأول هو من أروع ما تفتقت عنه قريحة المصرى القديم وأبدعته أنامله، ولم يجانبهم الصواب فيما ذهبوا إليه. ومن يتعذر قيامه بهذه الرحلة، عليه أن يتأمل سحر الجمال الأخاذ لنقوش هذا المعبد وملحقاته كما سجلها بين دفتيه، فى جولة تستغرق أكثر من ٢٥٠ صورة بالإضافة إلى ٢٤ صورة بالألوان كتاب:

OMM Sety and Hanny El Zeini: ABYDOS. LL Company. Los Angeles. USA. 1981.

وعن تقييم سلبى **لأم سيتى** OMM Sety راجع:

Ch. Desroches Noblecourt. La Grande Nubiade. Ed. Stock. 1992. pp.101-104. (المترجم)

عند الطرفين. أما ملامح الشخصين الآخرين، أكانا ملكتين أم إلهتين، فمهشمة تهشيماً بالغًا.

والأمر الجديد بالملاحظة فى هذا المعبد، هو تنوع المواد المستخدمة، وإذا صح القول، تألق ألوانه. فقد شيِّدت مقصورة أوزيرية، من الألبستر الأبيض النقى، فوق قاعدة بناء من الكوارتزيت الأصفر، وقد غطيت بسقف من الجرانيت الوردى وتكتنفها مقصورتان من الحجر الجيرى الأبيض خُصصتا لكل من **إيزيس** و**حورس**. وكانتا تُظلاَّن تماثيل من الجرانيت الأسود، بينما الصرح من الحجر الجيرى، ودعامتا الباب من الجرانيت الوردى.

ولا يعتبر هذا المبنى معبد **رعمسيس** الثانى الجنائزى الحقيقى.

أما **قصر – ملايين – السنين** الحقيقى للمنتصر فى معركة **قادش** فيقع – مثل **قصر سيتى** الأول – على البر الغربى لمدينة **طيبة**، وعلى مسافة ٥٠٠متر إلى الجنوب الشرقى من تلال **الشيخ عبد القرنة**، أى أنه كان لا يبعد كثيراً عن **قصر** أبيه.

إنه **الرامسيوم**(*) Ramesseum الذى أطلق عليه الإغريق «*مقبرة(!) أوسيماندياس*» Osymandias، تصحيفًا للقب **أوسر ماعت رع**، بصفته ملك **مصر العليا** و**مصر السفلى**. إنه يلتزم بالاتجاه الشرق غربى، وغير متساوى الطول. إنه مبنى شاسع ومحاط بسور من الطوب يبلغ طوله حوالى ٣٠٠متر وعرضه ١٧٧متراً.

كان يتكون من صرحين، يعتقد أن طول كل منهما ٧٠متراً ولكنهما تهدما الآن تهديماً شبه كامل، ومن فناءين بأروقة ذات أعمدة أوزيرية تصور العاهل الملكى، ومن بهو أساطين فسيح يبلغ ٤١متراً عرضًا و٣١متراً عمقًا، وكان الدخول إليه عبر ثلاثة أبواب من الجرانيت الأسود ثم من ثلاثة أبهاء أساطين متعاقبة أصغر مساحة، ثم يصل المرء إلى قدس الأقداس الذى يستند سقفه على أربعة أساطين. كان الرسم التخطيطى لبهو الأساطين الكبير من الطراز البازيليكى، ويضم ٤٨أسطونًا. ويتكون

(*) تعود هذه التسمية إلى **شمبليون** Champollion. (المترجم)

الرواق الأوسط من صفين من ستة أساطين ذات تيجان على شكل زهرة البردى المتفتحة. أما الجناحان الجانبيان، فى الشمال والجنوب فيتكون كل منهما من ثلاثة صفوف من ستة أساطين ذات تيجان على شكل براعم البردى، أقل ارتفاعًا من أساطين الرواق الأوسط وعرض قطرها أقل. وقد صُورت على الجدران مشاهد عسكرية وأخرى لتقديم القرابين.

كان **الرامسيوم** يضم ملحقات شاسعة، تتكون من مبانٍ من الطوب ذات قباب. إن الطوب أو بعضه على الأقل يحمل خرطوش **رعمسيس** الثانى. كانت الملحقات على أكبر قدر من الأهمية، وتطوق المعبد من ثلاث جهات فى الشمال والغرب والجنوب. وكانت تستخدم لحفظ المؤن ومخازن ومساكن للكهنة، بالإضافة إلى وجود مدرسة لإعداد الكتبة.

وناحية الجنوب، وقرب مدخل المعبد، كان قصر فسيح ملتصقًا بالمعبد.

أما فى الشمال فإن معبدًا صغيرًا، كان يعتقد حتى الآن أنه مكرس لوالده **سيتى** الأول، ولكن ربما كان يخص **توى** والدة الملك(*).

وإذا كانت خرائب قصر **رعمسيس** الثانى لملايين السنين ما زالت تشحذ خيال المشاهد، فإنها تعبِّر أيضًا عن عظمة من شيَّده. وعلى الرغم من أن تماثيل الفناءين العملاقة محطمة، فإن شموخها المهيب يظل يؤثر فى النفوس. والتمثال الذى كان يطلق عليه «**رعمسيس – نور – الملوك**»، نُحت فى كتلة واحدة من الجرانيت الوردى وارتفاعه ١٧.٥٠م. إن رشاقة أساطين البهو، ورقة وجمال النقوش المنحوتة فى الجرانيت أو الحجر الجيرى، ما زالت تُفصح عبر آلاف السنين عن شرف منزلة ملك عظيم ومهابته.

(*) أو مقصورة **المامِيزى**، الولادة المقدسة للملكة **توى**.

La valée des Rois. sous la direction de Kent Weeks. Gründ. 2001. p.89. (المترجم)

أكبر القصور: معبد مدينة هابو

أمر **رعمسيس** الثالث ببناء أكبر المعابد الجنائزية فى **مدينة هابو**، الواقعة جنوب جبانة **طيبة**، وعلى بعد ١٥٠٠ متر إلى الجنوب الغربى من **الرامسيوم**.

المعبد محاط بسور كبير من الطوب، سمكه ستة أمتار وارتفاعه ١٢متراً، ويلتزم بالاتجاه الجنوبي الشمالي. إن رسمه التخطيطي مماثل لمعبد **رعمسيس** الثانى، ففى هذا المجال أيضاً أراد **رعمسيس** الثالث، بلا شك، أن يحاكى **رعمسيس** العظيم. وخلف صرحاً شامخاً يبلغ ٦٨متراً عرضاً و٢٢متراً ارتفاعاً، ويمتد بطول ١٥٠ متراً فناءان بأروقة ذات أعمدة أوزيرية تصور الملك وثلاثة أبهاء أساطين تنتهى بقدس الأقداس.

وعند مدخل المعبد، وبمحاذاة الفناء الأول وإلى الغرب منه، يوجد قصر ملكى(*) شُيِّد من الطوب، ويضم جناحاً للحريم وحمامات وقاعة للعرش. كما ازدانت جدرانه ببلاطات من القاشانى. كما كان «نافذةٌ للظهور» تتيح للملك مشاهدة المواكب الاحتفالية وحضور الأعياد التى تقام فى الفناء الأول من المعبد. وكان يستخدمها خلال فترة حياته على الأرض وبعدها.

وقرب نهاية حياته أمر **رعمسيس** الثالث ببناء سور جديد من الطوب سمكه ١٠,٥٠م وارتفاعه ١٨متراً، بشرفات مسننة فى قسمه العلوى، ويضم أبراجاً موزعة على امتداده لتحاكى القلاع والحصون. وإلى هذا السور أضيف سور آخر من الطوب ولكنه أقل ارتفاعاً، وكان مبنياً من الحجر فى بعض أجزائه. كانت بوابة المدخل تتكون من برج شامخ على الطراز السورى اسمه **مِجدل**. هكذا، فإن «*قصر ملايين السنين*» الذى شيده **رعمسيس** الثالث، أصبح فى نهاية المطاف محمياً كما تُحمى القلاع والحصون، إذ تأثرت عمارته تأثراً بالغاً بالحملات العسكرية التى خاضها العاهل الملكى ضد **شعوب البحر**، وتحديداً فى **سوريا**، فى حين خلَّدت المشاهد المنحوتة على السطوح الخارجية للجدران انتصارات آخر **الرعامسة** العظام.

(*) كان قصر مماثل قائماً أيضاً فى المعبد الذى شيده **رعمسيس** الثانى «**الرامسيوم**»، وإن كان أقل ضخامة. (المؤلفة)

ثالثا: وادى الملوك

هكذا، فإذا كان السهر على حياة الملك المتوفى والحفاظ عليها تضمنهما الشعائر الجنائزية، فإنه كان من الضرورى أيضًا توفير الحماية للمومياء داخل تابوتها الحجرى.

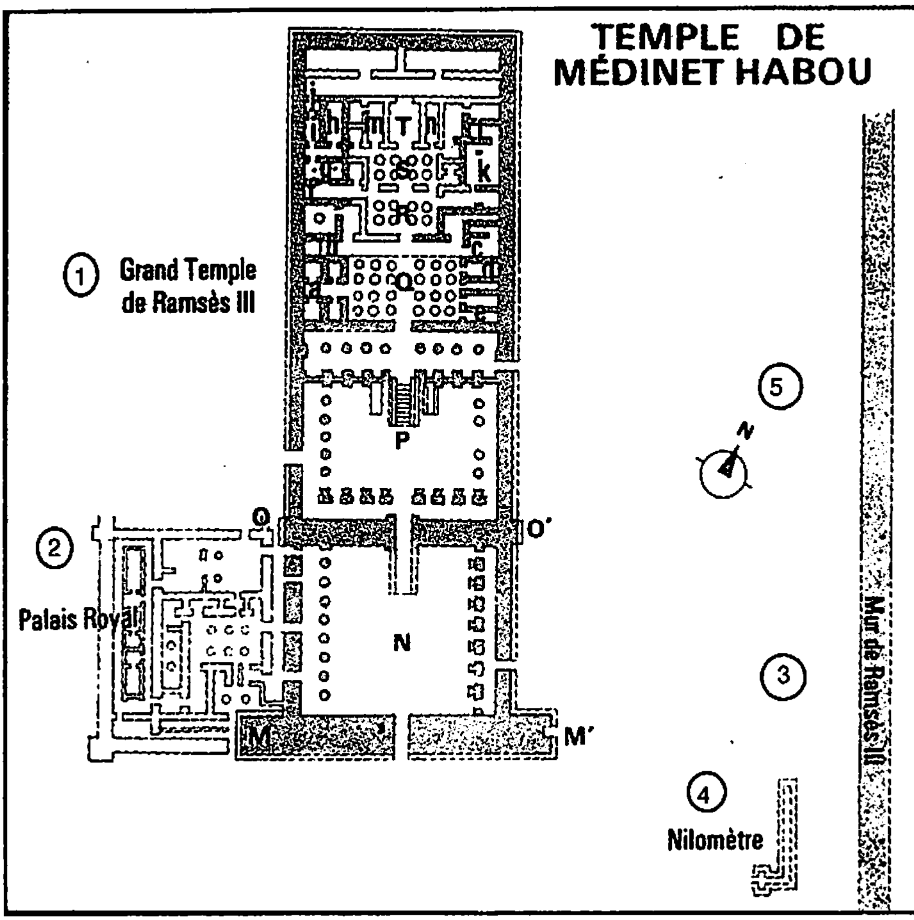
وابتداءً من **تحوتمس** الأول حُفرت المقابر الملكية فى الجرف الصخرى المشرف على غرب **طيبة**، وتخترق هذا الجرف شبكة من الوديان القفار شديدة الانحدار. وأشهرها هو **الوادى الشرقى** المعروف **بوادى الملوك**، وكان يضم ٥٨ مقبرة(*). كما يطلق عليه **بيبان الملوك**. وفى هذا الوادى الذى يُخيِّم عليه الصمت، البعيد عن عالم الأحياء، وفى وسط هذا المشهد الطبيعى الفريد القفر وبلا زرع ولا ضَرْع، رقدت أجساد جميع الفاتحين المغاوير صنَّاع أمجاد **مصر** التليدة.

كانت هذه المقابر موجودة فى بعض الأحيان، عند مسافة أكثر من ٢١٠ أمتار، فى قلب الجبل، وعلى عمق ١٠٠متر. لقد أرادوها مأوًى آمنًا، وظنوا استحالة التعدى عليها. ولكن سبق أن رأينا(٢٧) أن الجوع والبؤس كانا أقوى من كل المحظورات المادية والروحانية. فكم من الكنوز والذهب والفضة والأحجار الكريمة كانت فى جوف هذه المقابر، لتشكل الزاد الوفير للعالم الآخر. ومثال ذلك، القطع النفيسة التى عُثر عليها سالمة فى مقبرة **توت عنخ أمون**، وإن كانت لا تعطينا سوى فكرة بسيطة. وقرب نهاية عصر **الرعامسة**، ومع انتشار إفقار البلاد، صار من الضرورى وضع المومياوات الملكية فى خبايا سرية، حماية لها.

ولكن تظل المقابر قائمة بأساليبها السحرية. وإذا كان تصميمها مختلفًا ومتنوعًا، من حيث التفاصيل، فإن تنسيقها فى مجموعها يظل واحدًا، وبوجه عام فإن

(*) بالإضافة إلى أربع مقابر فى الوادى الغربى. وعن **وادى الملوك** يمكن الرجوع إلى الصور فائقة الجمال لأهم مناظر مقابر أعظم ملوك **مصر** كما يضمها بين دفتيه كتاب:

La Vallée de Rois. sous la direction de Kent R.Weeks. Photogaphies de Araldo De Luca. Gründ, 2001. (المترجم)



مسقط أفقى لمعبد مدينة هابو

بيانات معبد مدينة هابو

1. العبد الكبير لرعمسيس الثالث
2. القصر الملكى
3. سور رعمسيس الثالث
4. مقياس النيل
5. اتجاه الشمال

دهاليز ثلاثة، متصلة الواحد بالآخر، تتوغل فى بطن الجبل، هابطة هبوطًا وئيدًا، من المدخل وحتى حجرة الدفن. وفى بعض الأحوال، كانت الحجرات الثانوية أو الكوّات المتاخمة للدهليز تضم المتاع الجنائزى. وقد يحدث أحيانًا انقطاع فى مسار الدهاليز، فتُحفر فجاة بئر عميقة كان هدفها مزدوجًا، فتشكل عائقًا يحول دون تقدم اللصوص المحتملين أبعد من ذلك (!) ووسيلة لتجميع المياه التى قد تتسرب إلى داخل المقبرة(*). وفى أبسط الأحوال، كانت ردهة تفضى بعد ذلك إلى الحجرة الرئيسية فى المقبرة التى كانت تلحق بها أحيانًا حجرات ثانوية. كان سقف حجرة الدفن يستند فى أغلب الأحوال على عدد من الأعمدة. وكان التابوت الحجرى موضوعًا فى فجوة قليلة العمق محفورة فى الأرض.

كانت سطوح الدهاليز والحجرات مغطاة بالنقوش المرسومة والمدونات، فكانت وسيلة عظيمة لها رونقها وأساليبها السحرية لتحقيق البعث وإعادة الحياة. هذه **الأسفار** الجنائزية الملكية كانت تمدُّ العاهل الملكى بالتعاويذ التى كانت معرفتها لا غنى عنها لإتمام رحلته فى العالم الآخر على أحسن وجه. كانت هذه المقابر تضم بين حوائطها بالصورة والكلمة، **مكتبة** حقيقية، هدفها البقاء على قيد الحياة(**).

إن التجول فى هذه الأروقة له أفضل وقع فى النفس، إذ سرعان ما يتضاءل الضوء، فيشعر المرء أنه محاط بزخارف فريدة من حيث روعتها وثرائها ورونق جمالها، فتغطى بالكامل سطوح أعمدة المقابر وحوائطها وأسقفها. ومنذ هذه اللحظة نستشعر من وجود الجنِّ والآلهة أن العالم الآخر قد أصبح قاب قوسين. حقا، إن **وادى الملوك** هو بالفعل «**المدخل إلى الغرب**».

(*) يرى بعض علماء المصريات أن هذه البئر كانت تقوم بدور دينى، فينظر إليها باعتبارها مقبرة دُفن فيها **أوزيريس** دفنًا رمزيا. انظر المرجع السابق ص١٢١. (المترجم)

(**) مقابر وادى الملوك التى يصل عددها إلى ٦٢ مقبرة، لا نعرف أحيانًا أصحاب شاغليها، ومنها على سبيل المثال لا الحصر المقابر: KV 24 ومن KV 26 إلى KV 32 وKV61. انظر المرجع السابق ذكره ص ١١٤-١١٥. (المترجم)

فى هذا الموقع المهيب، غير المعهود فى نظر البشر، القائم عند باب **الغرب**، كان الجبل يُظلُّ آمالاً تتجدَّد على الدوام، فى حياة لانهاية لها، تضمنها الأساليب السحرية للأشكال والألوان والكلمات.

إن **الملك – البطل**، كان أيضًا ملكًا عظيمًا بنَّاءً. وبعد **الرعامسة** ينسدل الستار على عصر المباني الشامخة(٢٨).

الفصل الثالث

فى ظل الملك،

الآداب والفنون

أولاً: الآداب

الأدب المصرى عالم من النصوص المتنوعة، المنحوتة والملونة والمرسومة على دعائم من كل نوع، من الجرانيت الصلد إلى أبسط شَقَف الفخار، وعلى البردى وشرائط الكتّان أو الجلد، وبشكل عام على كل مادة قادرة على تثبيت «الكلمات الإلهية». فالكتابة فيض من الآلهة، ومن عناصر الكون المرهوبة الجانب أو المفعمة بالبركة. وفى وسع **أشكال** الكلمات أن تُبثّ فيها الحياة، كما أن النطق بها يؤدى إلى تحول ما تعبِّر عنه إلى حقيقة واقعة. والدعائم، وقد اقتصرت على الحجر فى بداية الأمر، أخذت تتنوع بمرور الزمن. وشهد الأدب المصرى تطوراً مهماً عندما توصل المصريون إلى استخدام ورق البردى قرب نهاية الأسرة الخامسة.

والنصوص مكتوبة فى لغة تسترعى الانتباه والاهتمام، فمجرد النظر إلى الشكل ذاته للعلامات التى تُكتب بها، نقصد بذلك العناصر الآدمية والحيوانية والنباتية بالإضافة إلى الجماد، وكلها منقولة عن عالم المصريين، فاستُخدمت بوصفها علامات صوتية(*) phonogrammes أو علامات تصويرية(*) idéogrammes، هكذا أصبحت

(*) **العلامات التصويرية**: تدل على الشيء المرسوم ذاته. فترسم العين للدلالة على العين واليد للدلالة على اليد وهلُم جرا...

العلامات الصوتية: تستعمل العلامات التصويرية لا بالنظر إلى معناها بل من أجل قيمتها الصوتية.

لمزيد من التفاصيل راجع: برناديت مونى، المعجم الوجيز فى اللغة المصرية بالخط الهيروغليفى، ترجمه عن الفرنسية ماهر جويجاتى، دار الفكر، ١٩٩٩. (المترجم)

هذه النصوص المكتوبة كافية وحدها لإبداع شعر حقيقى، من خلال علاماتها فائقة الروعة. إنها لغة مولعة بالصورة العينية، فقيرة فى مفرداتها الفلسفية، ولكنها غنيَّة بكل الصور المنبثقة من الحياة، بل إنها شديدة الثراء.

الأدب فى **مصر**، كان أيضًا فنًا. لأنه يحتاج فى كثير من الأحوال إلى عمل النحات ومن يقوم بأعمال التلوين. ومن جانب أخر يعتمد الأدب على فن الرسم، كما أن الرسم هو الأصل الذى نشأ عنه فن النقش والتلوين. فالسطح المطلوب زخرفته يبدأ بالرسم. وتأسيسًا على ذلك لم تعرف **مصر** التمييز المطلق القاطع بين الأدب والفنون.

وغير وارد هنا على الإطلاق أن أقدم عرضًا شاملاً وافيًا للأدب فى عصر **الرعامسة**، فقد يحتاج ذلك إلى مؤلف أخر، وربما إلى عدة مؤلفات. ولكن سنكتفى بتقديم أهم ملامح الإنتاج الأدبى المصرى، إلى جانب بعض النصوص البارزة.

سبق أن تناولنا أهم المدونات التاريخية وبعض النصوص الجنائزية فى سياقها الطبيعى. وفى هذا الفصل سوف نقوم بدراسة الترانيم، وهى عبارة عن أناشيد من أجل الآلهة أو الملوك أو المدن، كما سنتناول المسارد الخيالية الإلهية، وحكايات هذا العصر وقصصه، لننتقل بعد ذلك إلى تحليل التطور المهم الذى عرفه الشعر، ولا سيما قصائد العشق والهوى.

الترانيم

الأناشيد من أجل الآلهة

شهد عصر **الرعامسة** تأليف عدد كبير من الترانيم. سوف نستشهد بأكثرها شيوعًا وأيضًا ببعض النصوص الجديدة.

ومن أقدمها، كُرِّس أحدها لنهر **النيل – حعبى**(*)، وقد أعيد نسخها عدة مرات من قبِل **سيتى** الأول و**رعمسيس** الثانى و**مر إن بتاح** و**رعمسيس** الثالث، فكان يحركهم الاهتمام نفسه، لتقديم الشكر والحمد لإله الخصب والنماء. إن مدونتَىْ **رعمسيس** الثانى و**مر إن بتاح** تضمهما مقصورتان متجاورتان فى **جبل السلسلة**[1]. أما مدونتا **سيتى** الأول و**رعمسيس** الثالث فقد نحتتا على لوحين حجريين مستقلين.

فليحىَ الإله الكامل، محبوب ***نون****، إنه* ***حعبى*** *أبو الآلهة* ***والتاسوع****، الذى فى الأمواه الدافقة*[2]*، إنه طعام* ***مصر*** *وغذاؤها ومؤنها، فيتيح لكل امرئٍ أن يحيا، بفضل* ***كائه****. الخيرات الوفيرة فى طريقه، والطعام على أصابعه والبشر أجمعون يهللون فرحًا عندما يعود.*

أنت الواحد المتفرد الذى خلق نفسه بنفسه، فلا يستطيع المرء أن يعرف (كل) ما بداخلك. وعندما تتفجر من مغارتك، لا يتوقف المرء فى ذلك اليوم، عن التعبير عن فرحته.

أنت رب الأسماك، أنت غنىٌّ أيضًا بالحبوب، أنت من تمدُّ ***مصر*** *بصيد الماء(**). كما أن آلهة* ***التاسوع*** *لا تعرف (كل) ما بداخلك، ولكنك (مصدر) حياتها أيضًا، فعندما تعود تتضاعف قرابينها وتُزوَّد موائدها بالأطعمة الوفيرة. إنها تغتبط عندما تظهر، لأنك لا تتوقف عن إعادة الحياة إليها.*

إنك تبحث عن أساليب إبقاء البشر أحياءً، تمامًا مثل ***رع*** *عندما كان يحكم هذا البلد. إنك تُرضى* ***نون*** *وتعيده فى سلام. إن جماعة آلهة* ***الجنوب*** *فى سعادة، منذ أن*

(*) ينبغى التمييز بين: **حعبى** : أى نهر **النيل**، كما يطلق على **النيل** مؤلهًا.
وحبى : وهو أحد أبناء **حورس** الأربعة.
وحپ : وهو العجل **أبيس**. المرجع السابق ص٢٧٦. (المترجم)

(**) كالبط، على سبيل المثال. (المترجم)

أرادت أن يحقق **حعبى،** *الأب، أفعالاً جالبةً للخير فى ربوع البلد المحبوب، فأوجد الخلائق من قلبه. إنه مقدام ويقظ، باحث عن الطعام من أجل الأحياء، فيُكثر من الحبوب، حتى أصبحت كالرمال، بينما تفيض الشُوَن.*

(وبدوره)، *سعى* ***صاحب الجلالة*** *إلى تحقيق أشياء مفيدة وطيِّبة، من أجل أبى كل الآلهة، ومن أجل جماعة آلهة* ***الجنوب*** *التى تتسيَّد على أمواه* (الفيضان). *إنه حصيف القلب*(*) *مثل* (قلب) ***تحوت،*** *فكان يفكِّر فى المنافع التى قد تحبها.* ومنذ زمن ***رع،*** *لم يعرف هذا البلد ملكًا واحدًا تصرَّف، على هذا النحو.*

عندئذ قال صاحب الجلالة ما يلى: «إن ***حعبى*** *هو الذى يُحيى* ***القطرين.*** *فالأطعمة والأغذية تأتى إلى الوجود بعد أن فاض النهر، كما أن جميع الناس خاضعون له. إننا أثرياء إذا أمر بذلك. إنى أعرف ما يوجد فى* ***غرفة المدونات***(**) *الموجودة فى* ***دار الكتب.*** *إنك تتفجر من مغارتيك، لتوفير الخبز. وعندما يحل الماء الطاهر فى منطقة* ***جبل السلسلة*** *– وهى بالطبع مكانه المقدس – تتم مضاعفة القرابين، من أجله*[٣].

يلى ذلك قائمة بالقرابين المطلوبة.

إن عباراتِ كبرى تراتيم **رعمسيس** الثانى إلى **آمون**، أجمل وأكثر مهابة، وهى محفوظة على بردية، من مقتنيات متحف ليدن Leiden فى الوقت الراهن (pap. I, 350). إنه نص مهم، سبق أن ترجمنا بعض فقراته[٤]، ونقدم فيما يلى بعضها الآخر. إنها تعبر عن الورع تجاه الإله العظيم بصور وضَّاءة متألقة:

(*) القلب عند قدماء المصريين أهم عضو بالنسبة للفرد. كان مركز أفكاره ووعيه وإرادته ووعاء الذاكرة والشاهد على وجوده باكمله. إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى ٢٠٠١، ص٢٤٦. (المترجم)

(**) مكتب المحفوظات. (المؤلفة)

❖ طلوع **أمون** وبزوغه في المشرق:

*يتجمّع **التاسوع** الإلهي، المنبعث من **نون**، عندما يراك*(*) (أنت، الإله) *صاحب المهابة الشامخة، يا أعظم الأرباب، الذي جَبَل نفسه بنفسه، يا سيد الخلائق. ومن كانوا في ظلام* (الليل)*، فإنه يتألق*(**) *فجأة من أجلهم، لينير وجوههم، بمستقبل جديد. إن عينيه تتألقان، وأذنيه منفتحتان، وكل الأبدان مغطاة* (بالذهب)*، عندما يتقدم نوره. السماء من ذهب **واللون** من لازورد والأرض تُرشق بما يشبه سهامًا من فيروز، عندما يشرق عليها.*

والآلهة تستعيد الإبصار ومن جديد تُفتح معابدها. فبفضله يستطيع البشر أن يروا ويتأملوا. والأشجار ترتعش عند رؤيته، وتلتفت إلى الواحد المتفرِّد وتنبسط أوراقها. وبدافع من حبها له تقوم الأسماك بوثبات في الماء وتقفز في الهواء، في بركها. وعند رؤيته أيضًا، ترقص الماشية وتُرفرف العصافير بجناحيها، لأنها تعرفه في لحظته السعيدة وتحيا عند رؤيته طوال اليوم. إن (جميعهم) *في يده، وقد وُسموا بخَتْمه. فلا إله سواه، يستطيع فتح حظيرتهم، لا أحد غير **صاحب الجلالة*** (**أمون**)*، فلا شيء يمكن أن يحدث بدونه هو، الإله العظيم، حياة **التاسوع***(٥).

❖ سَيْر الشمس

*يا **حور أختي**، إنك تُبحر لتقوم بمهمة يوم أمس نفسها، على مدار* (كل) *يوم* (من الأيام)*. إنك تخلُق السنين وتربط الشهور وتحين الأيام والليالي والساعات كلَّما سرت* (قدمًا)*. إنك تتجدَّد يومًا بعد يوم. وما أن تتوغل في الليل حتى تظهر في النهار، أيها الساهر المتفرد، فالنوم ممقوت لديك. إن الناس ممددون نيامًا، ولكن تظل عيناك*

(*) هكذا في ضمير المخاطب. (المترجم)

(**) هكذا في ضمير الغائب. (المترجم)

يقظتين، أنت الذى تُفرِج عن ملايين الكائنات(*)، بوجهك البهىّ. فلا وجود لطريق من الطرق بدونك. فأنت النجم سريع المِشية وسط كوكبة النجوم. إنك تجوب الأرض فى لحظة واحدة بلا عناء، فتبحر عبر السماء وتعبر العالم الآخر. فالنور على كل درب من الدروب يذهب ويأتى على الوجوه، لأن جميع البشر يستديرون نحوه. والآلهة والبشر يقولون: مرحبًا! مرحبًا[٦].

• يد **أمون** المُعِينة:

وإذ يقضى على الشرور ويطرد الأوجاع والهموم، فإنه الطبيب الذى يعيد البصر إلى العين بلا دواء، ويفتح العيون ويُبعد الأمراض... مقدمًا العون لمن يريد، وحتى فى العالم الآخر، مخلِّصًا حسب رغبته (كاءً من كان) من مصيره. إن له عينين وأذنين ووجهًا، على كل درب من دروبه، من أجل من يُحبه. إنه ينصت لتضرعات من يستغيث به، وفى لحظة يأتى من بعيد، إلى جوار من يتوسَّل إليه. وفى مقدوره إطالة زمن الحياة أو الانتقاص منه(**). ومن يتعبَّد إليه يعطيه أكثر مما هو مقدر له. إن اسمه على المياه الدافقة افتتان سحرى، والرياح (العاتية) تُدفع بعيدًا والريح الرديئة ينعكس اتجاهها...، إنه النسيم العليل لمن يبتهل إليه، ويُغيث الإنسان المنهك، إنه الإله الرءوف، بإرشاداته المفعمة بالبركة. إنه يرتبط بالإنسان الذى ينحنى أمامه، فى زمن (بؤسه). إنه أكثر فائدة من الملايين، لمن يضعه فى قلبه. وبسبب اسمه فإن رجلاً واحدًا أقوى من مئات الآلاف. حقا إنه الراعى الحامى العامل[٧].

وفى ترنيمة أخرى إلى **أمون** من عهد **رعمسيس** الثالث، نتعرف على الإلهام الجَزْل وجمال الصور اللذين يميزان أدب هذا العصر القلق المهموم.

***خفيا** كان اسمك... فما من أحد كان يعرف شكلك، قبل أن تنبثق متألقًا للمرة الأولى من **نون**. كانت أشعتك براقة كما أضاءت كل ما خلقته بعد أن كان فى الظلمات،*

(*) بعد أن كانت أسرى الليل. (المترجم)

(**) تدور إحدى آيات الكتاب المقدس حول المعنى نفسه: أن يومًا واحدًا عند الرب كألف سنة وألف سنة كيوم واحد. رسالة بطرس الثانية: الإصحاح ٣: الآية ٨. (المترجم)

حتى الآن. بشرتك كانت نورًا، ودفؤك يولِّد الحياة، وكل أنواع الأحجار الكريمة المقدسة ممتزجة بجسدك. ونسمتك هي النسمة لكل أنف. وبفضلك كان الجميع يتنفسون ليحيوا. كما لك مذاق (نهر) **النيل**، وتُمسَح بأدهان نورانية العذوبة(٨).

ربما كانت الترانيم إلى الآلهة التي تعود إلى الأفراد البسطاء أقل إلهامًا، ولكن لها أيضًا وقعًا حسنًا في النفس. ونذكر على سبيل المثال، صلاة **ديديا**، رئيس رسامي **آمون** الذي خلف أباه على هذا المنصب في عهد **سيتي** الأول. إن لوحًا حجريا، من مقتنيات **المتحف البريطاني** في الوقت الراهن، حفظ لنا النص الآتي:

*يا **آمون**، يا أعظم الأرباب، أيها الإله الأقدم الأصلي الذي شكل نفسه بنفسه، يا سيد عروش **القطرين**، يا ملك الآلهة، أيها **الهليوبوليتاني**(*)، يا سيد **الكرنك**.*

*ليتك(**) تضع نعمتي أمام **كائك**.*

*يا **رع**، يا من شكل البشر، أنت أبو وأم البشر أجمعين، فتتألق من أجلهم.*

ليتك تتيح للجميع أن يتأملوك، على امتداد الزمن الأبدي، وعلى مدار الأيام، وبلا انقطاع.

*يا **أتوم**، السلف الأول في **هليوبوليس**، رب الصيرورات في كل مكان يود الحضور فيه، الإله العظيم، البكر، الأقدم الأصلي، القصي، فالجميع يجهلون ما يفعله.*

ليتك تتيح للجميع أن يمتزجوا بنضارتك

*يا **شو** المقيم في طيبة، يا **خونسو – نفر حوتب**، المرفوع فوق حامله، يا أول من جاء إلى الوجود، العظيم الذي يتسيَّد على **قصر – البنو**(***)(؟)*

(*) نسبة إلى **هليوبوليس**. (المترجم)

(**) هكذا في صيغة المخاطب. (المترجم)

(***) عن **البنو** Phenix ، راجع إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتي، دار المستقبل العربي، ٢٠٠١، ص ٧٢. (المترجم)

ليته(*) يعطيني الأطعمة ما دمت على سطح الأرض.

*يا **تفنوت** التي أنجبها **رع**، أيتها الأم المقدسة **للقطرين**، الخفية المكنونة، التي لا يعرفها أحد، والقائمة على رأس الآلهة جمعاء.*

ليتها تهبني الحياة والازدهار والصحة وشيخوخة مبجلة، تابعًا لسيدي.

*يا **جب**، يا أبا الآلهة، الذي شكّل كل ما يوجد، أيها الكائن الإلهي، الذي يتخفّى ويقيم أولاده على رأس ما خلقه.*

ليته يتيح لي أن أتحد بهذه الأرض وأن يرقد بجواري.

يا نوت (٩)...

للأسف فإن نهاية النص مهشمة.

يقدم **سيديا** الشكر والحمد إلى آلهة **تاسوع هليوبوليس**، الذي يقف **أمون** على رأسها، كما يتضرع إليها، لينال حياة مزدهرة وراحة إلهية في العالم الآخر.

إن **صلاة المناجاة** وهي نوع لم يظهر في هذا العصر لأول مرة، إلا أنه أخذ في الانتشار على الأقل، على نطاق واسع. وفي سياق هذه الصلاة تذكر أسماء الآلهة وهي أسماء سرية، لأن معرفتها تعطي سلطانا عليها. ويتم تلاوتها في هيئة سلسلة طويلة من التسبيحات.

وأشهر هذه النصوص هو نص **صلاة المناجاة إلى رع**.

ويظهر هذا النص للمرة الأولى، في مقبرة ***سيتي*** الأول. وتكشف مقدمته عن صورة قرص الشمس، بينما يغوص في العالم الآخر، أسفل الأرض. كما سنجد صور هذه الصلاة ونصوصها في مقابر **رعمسيس** الثاني و**مر إن پتاح** و**أمن مس** و**سيتي** الثاني و**رعمسيس – سي پتاح** و**رعمسيس** الثالث و**رعمسيس** الرابع، كما ستنحت لها، صيغة مختصرة في مقبرة **رعمسيس** التاسع. وسنلتقي أيضًا بهذا النص على توابيت

(*) هكذا، في صيغة الغائب. (المترجم)

من عصور لاحقة، بعد أن أصبح من كلاسيكيات عصر **الرعامسة**.

ويُطلق على **رع** خمسة وسبعون اسماً. إن معرفتها سوف تساعد الملك المتوفى على اجتياز العالم الآخر الليلى والسفلى، وفى صحبة الإله، دون معوقات.

هكذا يبدأ النص الطويل المسهب:

*فاتحة سفِر التعبد إلى **رع** فى **الغرب** والتعبد إلى من اتحد به(*) فى **الغرب**. عند تلاوة هذا السفر، ينبغى أن تتم بالألوان... على الأرض، ليلاً* (فى هيئة تعاويذ يتلوها الكهنة الجنائزيون على أشكال مرسومة؟). *إنه خير ضمان لانتصار **رع** على أعدائه فى **الغرب**. إن ذلك مفيد لكل إنسان على الأرض، ومفيد له بعد أن يُدفن.*

*الشكر والحمد لك، يا **رع**، أيها القدرة العظيمة، يا رب الكهوف* (وهى لا حصر لها فى العالم السفلى) *بأشكاله الخفية، الذى يغرب فى الأسرار المغَيَّبة، عندما يتحول إلى **سيا**...*

*الشكر والحمد لك، يا **رع**، أيها القدرة العظيمة، الذى يطوى جناحيه،*

عندما يغرب فى العالم الآخر، ليحقق تحوله إلى من سيولد من جديد من أعضائه الخاصة[١٠]*... وهلمَّ جرًا.*

وفى عهد **رعمسيس** الثانى، نحتت صلوات مناجاة أخرى على جدران المعابد.

وفى الفناء الثانى من **الرامسيوم**، صُوِّر **رعمسيس** وهو يسكب الماء الطهور ويحرق البخور من أجل **رع حور أختى**. وجاء تعريف هذا الطقس على النحو الآتى.

*قربان مقدم إلى **رع حور أختى**، إلى قرصه، وإلى جسده وإلى **تاسوعه**، وإلى مساره، من قبل الملك:*

أوسر ماعت رع – ستپ إن رع**، ابن **رع**: **رعمسيس – محبوب – أمون**،* حتى *يعبر انتباهه إلى العبادة التى يوفرها له الملك، فى "**قصرة**" المقدس، فى **طيبة[١١].

(*) أى الملك. (المؤلفة)

يلى ذلك قائمة من ثمانية وثلاثين اسمًا من أسماء **رع حور أختى**.

وفى هذا الفناء ذاته، صُوِّر مشهد مماثل من أجل **بتاح وسخمت** مع الكشف عن اثنين وأربعين اسمًا من أسمائهما.

والفناء الأول من معبد **الأقصر**، تُحدد صلاة مناجاة إلى **مين – أمون**، مئة وأربعة وعشرين اسمًا من أسمائه.

لقد ازدهر هذا النوع على نطاق واسع، فى زمن كانت المساعدة الفعالة من جانب كل آلهة **مصر**، مطلوبة لحماية الإمبراطورية أو ضمان ازدهارها.

وإذا كانت معرفة الأسماء الإلهية تمنح القدرة لمن يعرفها، فإن نقشها على الحجر يضمن أيضًا دوامها واستمراريتها.

الأناشيد من أجل الملوك

إن أعظم الترانيم التى تخص الملوك بالتكريم والثناء هى التى قالتها الآلهة.

وتعتبر الأناشيد الإمبراطورية(١٢) من أجملها وأروعها، ونذكر تحديدًا أناشيد **مدينة هابو** إنها تخص الملك بالتكريم والثناء، وهو لا يزال على قيد الحياة، لضمان أن تظل الإمبراطورية فى يده وتحت سيطرته.

وبعد وفاة الملك تنهمك الآلهة من حوله فى عمل دءوب من أجل حياته الأبدية. إن ترنيمة الإلهة **نيت** إلى **مر إن بتاح**، المنقوشة على السطح الخارجى لتابوت الملك الحجرى، توضح مهمة البعث الأسطورية، فى شكل نشيد يخص الفرعون بالتكريم والثناء. فجميع تجديد الولادات تنسب إلى العاهل الملكى، وفى مقدور **نيت** أن تندمج فى البقرة السماوية وتتوحد معها، والملك – وهو ولدها ورضيعها، المهيأ لاكتساب حياة جديدة – يمتزج بالشمس. كما فى وسعها، بفضل أساليب سحرية كاملة، أن تكرر إيماءات **إيزيس**، الزوجة الوفية والعلاّمة. كما تستطيع أن تكون زوجة **خنوم** – وهو ما ستتحول إليه، فى وقت لاحق فى **إسنا**. فالإله **خنوم** هو الذى يشكل الأبدان على دولاب الفخارى.

*أنا أمك التى أرضَعَتْ كمالك. أنا حامل بك عند مطلع الفجر، وألدك فى المساء، مثل **رع**(*). لقد حملتك لتبقى على ظهرى، لقد رفعت مومياءك، فأصبحت يداى محملة بك، وأتحد بجمالك، من لحظة إلى أخرى. إنك تنفذ إلى داخلى وأعانق صورتك. أنا تابوتك الحجرى الذى يخفى شكلك. إن قلبى معك وكأنه ملكك، إنه يتحدث إليك، متسيّدا على «صندوق **نوت**»(**). إن فمى بارع ليجعل **كاءك** وضّاءً، بينما مفاتن أساليبى السحرية تضمن حماية جسدك.*

*إنى أمدُّ لك يدى، لتتمكن من الصعود إلى السماء، بعد أن ظهرت متألقًا بين فخذىَّ(***) وتتخذ الآن مكانك بين قرنىَّ. إنك تتغذّى منّى، وألعق جسدك، إنى أطهِّرك بعرق أعضائى. وإذا تمددت على السرير الذى أشكله من أجلك، فقد خلقت لك السماء بخاصرىَّ. وإذا رفعتك فوق ظهرى، يصبح جسدى أرضًا من أجلك... ومن أجلك، أخرج النسمات من أنفى وأجعل ريح الشمال تهبُّ، عندما تخرج من حلقى. إن **مسخنت** و**رينيت**[١٢] تصحبانك، بينما يقوم **خنومى**(****) ببناء جسدك لتجديد ولادتك، مثل ولادة برعم لوتس ضخم... من أجلك أفتح الدروب وأدفع بريح **الغرب** إلى مكانه. ومن أجلك أرشد قرص الشمس إلى بشرتى فيمرُّ شكله أثناء تحليقه فوق صدرك.*

*إنى أطهِّر أعضاءك، وأوقف سيلان الأخلاط، إنى أحوط لحمك، وأطرد التعفن الذى بدأ يصيبك، أيها **الأوزيريس** الملك **با إن رع – محبوب – أمون، ابن رع: مر إن بتاح – الذى – يهنأ – بالحقيقة – العدالة**. إنى أنظف عرقك وأمسح دموعك وأبرئ*

(*) المقصود به هنا الحياة فى العالم الآخر، حيث تولد الشمس فى المساء، عندما تختفى عن أعين الأحياء. وتتم الولادة الليلية فى حركة معاكسة للولادة النهارية. ولكن الملك، بما يتمتع به من حرية الحركة الكاملة، سوف يستطيع أيضًا أن يظهر مثل شمس النهار. إن فاعلية أساليب السحر لا تلتزم بقواعد العقل. (المؤلفة)

(**) أى التابوت الحجرى. (المؤلفة)

(***) إنها الولادة الليلية. (المؤلفة)

(****) الياء الملحقة بالإله **خنوم**، ضمير متصل للمتكلم . (المترجم)

أعضاءك، فمن الآن، أصبح كل (عضو) مرتبطًا بآخر. إنى أدرك بما صنعته ***تاييت***[*] *[14]، إنى أكملك وأوفيك حقك، فأبنيك مثل* ***رع***.

إنى أرفعك على ساعدىَّ وأتألق وضّاءة، فوق رأسك. ومن أجلك، أجدد شكلى بصفتى صِلاً وأُكْمل تحولك، على صورة سيد الأشعة.

ومن أجلك، آتى بالآلهة منحنية، إكرامًا لك، وإليك يأتى ***رع*** *فيعانقك، ويحطُّ فوق شكلك المقدس. وعليك إذن ينشر ضوءه، ويمنحك ضياءه وتألقه، بينما يجعل الكهفين يسطعان بنوره، عن طريق عذوبته النورانية.*

من أجلك، أجعل الصور المقدسة الأربع تحترق، فيكون لهبها على كل دروبك. إنها تصدُّ أعداءك، على مرِّ الأيام، فتمسك بالمتمرد والفاسق، وأضعك فوق ظهره حتى لا يتمكن من الفرار[15]....

هكذا يظل الملك فى العالم الآخر فائق القدرة، وبإمكانه أن يتخذ أشكال كبرى آلهة البعث.

كما يفصح البشر عن شكرهم وامتنانهم للملك الراعى الحامى. إن الاعتراف بالجميل - كما صاغته على وجه التحديد، الترنيمة إلى **مر إن پتاح**[16] والترنيمة المهداة إلى **رعمسيس** الرابع[17] - له وقع حسن فى النفس.

الأناشيد من أجل المدن

تشكل المدن كيانات إلهية، يمكن الإشادة بها والثناء عليها. ونذكر **طيبة**، بطبيعة الحال، ولكن هناك مدنًا أخرى أيضًا، مثل **أبيدوس**. وقد نشر مؤخرًا، نص لوح حجرى، وفى قسمه العلوى المقوس، نجد أن واهب اللوح **حر إم ويا**، الأب الإلهى للإله **حورس**، يقدم هو وعائلته القرابين إلى **أوزيريس**، وفى صحبته **حورس وإيزيس**

(*) راجع: إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى ٢٠٠١، ص ٩٣. (المترجم)

و**نفتيس**. إن نصوصاً مماثلة للنص المدون على هذا اللوح وموازية له موجودة على معالم أثرية أخرى تخص الأفراد. فيقول نص روايتها الكاملة:

*الثناء على **أبيدوس** والحمد لها، (مصحوبة) بالسعادة نفسها التى أحستها **إيزيس**، عندما ولدت ابنها فى **خمِّيس**.*

*الثناء على **أبيدوس** والحمد لها، (مصحوبة) بالسعادة نفسها التى أحسَّتها **إيزيس**، عندما خرج ابنها منتصراً، بعد أن هزم المجرم الفاسق الثعبان **نيك**، من أجل أبيه **أوزيريس**.*

*الثناء على **أبيدوس** والحمد لها، (مصحوبة) بالسعادة نفسها التى أحستها **إيزيس**، عندما حرَّر **تحوت** من أجله(*) وثيقةً مَلكيةً(**)، فى قاعة **جب** الفسيحة، فى حضرة الرب الأوحد المتفرد.*

*الثناء على **أبيدوس** والحمد لها، (مصحوبة) بالسعادة نفسها التى أحستها **إيزيس**، يوم أن ظهر **حورس** فى مجده على العرش، بعد أن حصل على **البشنت**، حصولاً حيًا وقويًا.*

*الثناء على **أبيدوس** والحمد لها، إبان الطلعة الكبيرة(***)، عندما يهلل من على الأرض فرحًا ويكون المتعبدون فى عيد، سعداء بجمال **أوزيريس**، وما يثيره من حب، فى قلوب الجميع.*

*الثناء على **أبيدوس** والحمد لها، فى مقاطعة **بيكر**، بعد أن تم إنصافه(****). إن قلبه سعيد وأصحابه فى عيد، وقلوبهم فرحة لرؤية انتصاره العظيم. الثناء على **أبيدوس** والحمد لها، أثناء إبحار القارب المقدس، بينما سيد المدينة يستريح فى قصره، بعد أن استرد ميراث حيازاته للزمن اللانهائى، والآلهة راضية بقرابينها.*

(*) أى من أجل **حورس**. (المؤلفة)

(**) تضمن له وراثة أبيه. (المؤلفة)

(***) موكب العيد. (المؤلفة)

(****) أى إنصاف **أوزيريس**. (المؤلفة)

*الثناء على **أبيدوس** والحمد لها، (**أبيدوس**) أرض الحقيقة، وجزيرة الأبرار، الخالية من الأكاذيب. كما «يعود الاخضرار» إلى صاحب القلب العادل، المقيم بها! لقد وصل إلى **الغرب**، منتصراً*(١٨).

تشير المقاطع الأربعة الأولى إلى أحداث الحياة الرئيسية، السرية فى بادئ الأمر، ثم معركة **حورس** وانتصاره وتربعه على العرش الدنيوى، خلفًا لأبيه **أوزيريس**. أما المقاطع الثلاثة التالية، فإنها تقدم وصفًا للَّحظات الرئيسية فى عيد الإله، عندما يُنقل تمثاله على متن قارب متجهًا إلى **بيكر** التى بها مقبرته على ما يفترض، ليعود بعد ذلك إلى المعبد. ويقدم المقطع الأخير إلى الأبرار الإمكانية التى يوفرها لهم بعث **أوزيريس**.

فى هذه النصوص تتحدث المدينة مع الإله القائم بها.

المسارد الخيالية الإلهية(*)

رع وايزيس

وُجدَت مسارد خيالية، يدور موضوعاتها حول معرفة أسماء الآلهة. وما نعلمه عن مسرد **رع وإيزيس**، يعود إلى برديَّتين من الأسرة التاسعة عشرة.

تدور الأحداث فى زمن، كان **رع** والآلهة لا زالت تعيش فيه على الأرض. بل كان زمنًا تلجأ فيه النساء - وإن كن من الإلهات - إلى الحيلة والخداع للوصول إلى غاياتهن. فذات يوم أرادت **إيزيس**، الساحرة العظيمة، أن تفرض بعض قدراتها على **رع**، وبالتالى معرفة اسمه.

*كانت **إيزيس** امرأة ذكية وقلبها أكثر براعة من قلب مليون من البشر، وأكثر فطنة من مليون من الآلهة. فلا تجهل شيئًا مما كان فى السماء أو على الأرض. هكذا،*

(*) سيجد القارئ ترجمة كاملة لهذه المسارد الخيالية فى المجلد الثانى من: نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة، نقلاً عن الترجمة الفرنسية بقلم كلير لالويت، ترجمه إلى العربية ماهر جويجاتى، دار الفكر، ١٩٩٦. (المترجم)

*أرادت فى قلبها، أن تعرف اسم الإله الجليل. ولكن **رع**، كان يأتى يوميًا، على رأس موكبه ليتربع على عرش **الأفقين**. إن تقدم الإله فى السن جعل فمه رخوًا، وكان لعابه يتساقط على الأرض.*

عندئذ تناولت **إيزيس** قليلاً من التراب وعجنته باللعاب المتساقط من الفم الإلهى، إلى أن حصلت على شكل ثعبان ظلٌ غير ضار فى يدها. ووقفت عند تقاطع الطرق التى يسير فيها **رع**، وأثناء نزهته اليومية أخفت الثعبان فى الأجمة.

*... عند خروج الإله من قصره فى صحبة غيره من الآلهة، لدغه الثعبان. فأطلق الإله صرخة وصلت إلى عنان السماء. كانت شفتاه ترتعشان وتصطك أطرافه، فقد سرى السمُّ فى جسده، كما يجرف **النيل** العظيم من خلفه مختلف الأشياء. قام **رع** بجمع الآلهة التى كانت تصاحبه، قائلاً: "لقد لدغنى شىء لا يعرفه قلبى ولم تصنعه يدى. فلم أتعرَّف هنا على أى شىء خلقته ولم يعترنى أبدًا مثل هذا الألم، فلا وجود لشىء أكثر وطأة... هو ليس بنار وليس بماء، ولكن قلبى يحترق، وأطرافى تصطك، وكل جسدى بارد.*

استدعى الإله أولاده الإلهيين. وإذ افتعلت **إيزيس** دور البريئة وتظاهرت به، جاءت تعرض خدماتها. فقال **رع**:

«أنا أكثر برودة من الماء وأكثر سخونة من النار، إن كل أعضائى تتصبب عرقًا وأرتعد. ولم تعد عينى ثابتة، ولم أعد أرى».

وقالت **إيزيس**:

«أخبرنى باسمك، يا أبى الإلهى، فالمرء يحيا عند النطق باسمه».

ويتلو الإله سلسلة طويلة من الصفات والنعوت، لم يرد فيها الاسم السرى. ولكنه رضخ فى النهاية وتحدث إلى **إيزيس** قائلاً:

*«أعيرينى السمع، يا ابنتى **إيزيس**، لينتقل اسمى من جسدى إلى جسدك...»*

وأسَرَّ(*) الإله اسمه إلى ***إيزيس***، الساحرة العظيمة، التى استطاعت بطبيعة الحال أن تشفيه، لأنها كانت مصدر الداء الذى اعتراه. ومن الآن فصاعداً سوف تصبح:

***إيزيس العظيمة** التى تعرف رع باسمه.*

ما سبق، كان عرضاً لسرد خيالى يبرز بكل وضوح فكرتين مصريتين: فكرة أهمية الاسم وفكرة مكر النساء. وقد صُبغتا صبغة أسطورية.

هلاك البشرية

هذا المسرد الخيالى الآخر، موجود فى عدد من المقابر الملكية. فقد سبق أن نُقش جزء منه فى مقبرة **توت عنخ أمون**، ونجده فى مقابر **سيتى** الأول و**رعمسيس** الثانى و**رعمسيس** الثالث.

فى ذلك الزمن كانت الآلهة تحيا إذن على الأرض،...

*... كان البشر والآلهة يؤلفون آنذاك "شيئاً" واحداً. ولكن بدأ البشر يتآمرون على رع. إلا أن **صاحب الجلالة** (رع) كان قد تقدمت به السن. كانت عظامه من فضة وأعضاؤه من ذهب وشعره من لازورد. ولما أحيط علماً بالمؤامرات التى كانت تُحاك ضده من قبل البشر، تحدث إلى من كانوا ضمن حاشيته قائلاً: "استدعوا من أجلى عينى(**) و**شو** و**تفنوت** و**جب** و**نوت**[19]، ومعها فى الوقت ذاته الآباء والأمهات الذين كانوا معى فى **النون**، ومعها أيضاً فى الوقت ذاته، إلهى **نون**، وأن يصطحب معه حاشيته.*

(*) أى أوصل وأعلم سراً. المكنز الكبير، د. أحمد مختار عمر، سطور، ٢٠٠٠، ص٦٦. (المترجم)

(**) راجع الهامش ٢١ من هذا الفصل، فى آخر الكتاب. (المترجم)

*وكان وصول الآلهة التى تم استدعاؤها محاطًا بالسرية، وانحنت أمام **السلف الأول العظيم**.*

*وتحدث **رع** إلى **نون** قائلاً:*

«يا إله الزمن الأول الذى جئتُ فيه إلى الوجود، أيتها الآلهة الأقدم الأصلية، انظرى، فالبشر الذين انبعثوا من عينى[٢٠]، يتآمرون علىَّ. أخبرينى كيف يمكنكِ أن تواجهى الأمر. انظرى، إننى أبحث ولا أريد قتلهم ما لم أستمع إلى رأيكِ حول هذا الموضوع».

*عندئذ قال صاحب الجلالة **نون**: «يا بُنىَّ **رع**، الأعظم **ممَّن** خلقه، **وممَّن** شكلوه، إن عرشك مستقر، **وعظيم** هو الخوف الذى تثيره فى النفوس. فلتُرسل إذن عينك[٢١] ضد من تآمروا عليكَ».*

وعملاً بمشورة الآلهة، ستقوم العين، فى هيئة **حتحور** بملاحقة الناس الذين كانوا قد فروا إلى الصحراء(*). وقضت **حتحور** على عدد كبير منهم. وعندما قدَّمت إلى **رع** تقريراً عن هذه المذبحة، تحدثت إليه قائلة:

وقدر حقيقة أنك تحيا من أجلى، فقد تسلطتُ على البشر، واستساغ قلبى ما حدث.

كان **رع** يخشى أن تقضى **حتحور** قضاءً مبرمًا على البشر(**). ولكن يظل الإله مرتبطًا بخليقته، فلجأ إذًا إلى حيلة للخروج من هذا المأزق.

*«استدعوا من أجلى رسلاً مسرعين وعلى عجلة من أمرهم، فيهمُّوا مسرعين كظل الجسد..». فأحضروا له، على الفور، هؤلاء الرسل. وقال **جلالة** هذا الإله: «فليركضوا حتى **إلفنتين**(***) ويحضروا منها كميات كبيرة من (مادة) **الديدى**[٢٢]».*

(*) من الطبيعى أن الصحراء مكان معادٍ يرحب بالمتمردين. (المؤلفة)

(**) ربما نجد هنا درسًا لأولئك الذين تحملهم نشوة المعارك إلى خوض المزيد. (المؤلفة)

(***) أى **جزيرة الأفيال**. **وأبو** هو الاسم المصرى القديم. (المترجم).

وما إن عاد الموفدون، حتى أخذت الخادمات يُعدِدْن من الشعير جعة، وطُحن **النيدى**، وخُلط بالشراب الذى بدا «كدم *البشر*»... وملئت سبعة آلاف جرة من هذه الجعة الحمراء المسكرة. وسُكبت على الأرض حتى غمرت الحقول بارتفاع ثلاث قبضات يد(*):

*أما صاحب الجلالة **رع**، **ملك مصر العليا ومصر السفلى**، فقد استيقظ مبكرًا، أثناء الليل، للإشراف على نشر هذا السائل الذى يجلب النوم. ومع مطلع الفجر، وعندما حضرت الإلهة، وجدت المكان مغمورًا. وفى البداية تأملت انعكاس وجهها(**). ثم شربت واستساغت المذاق. ثم انصرفت ثملة، دون أن تتعرف على البشر.*

هكذا استطاع **رع** انقاذ قسمٍ من مخلوقاته الجاحدة.

ولا تنفرد **مصر** بمسرد هلاك البشرية الخيالى. بل إنه موضوع شرقى قديم، ونلتقى به على سبيل المثال لا الحصر، فى قصة **جيلجامش** أو فى **العهد القديم**(***). فلقد قام الإله **إل**، إله **سومر وبابل** العظيم على إهلاك خليقته، عن طريق غمر الأرض بالماء، مع الإبقاء على زوجين، لجأ إلى جزيرة محمية. وهناك، كان الحكيم **أوبا - نافستين** يمتلك نبات الحياة، الذى فشل، بعد ذلك، **جيلجامش** فى الاحتفاظ به، كما أن يهوه إله اليهود قد أغرق أيضا مخلوقاته فى طوفان شامل، وفقا لحوارات تشبه إلى حدٍّ كبير القصة السومارية القديمة...

فليس هدف الطوفان الموت بل الحماية.

وتستمر رواية المسرد الخيالى وتنتهى إلى رؤية جديدة للعالم، أكثر رحابة.

(*) **شيسب** بالمصرية القديمة. الذراع الملكى المصرى (**مح**) يعادل ٥٢٣ ملليمترًا أو سبع قبضات يد. ومن ثم فالقبضة الواحدة تساوى حوالى ٧٥ ملليمترًا.

M. Damiano - Appia. Dict. Enc. de l'Ancienne Egypte Grund. 1999. P. 176.

(**) فى السائل. (المترجم)

(***) سفر التكوين، الإصحاحات من السادس إلى الثامن. (المترجم)

هذا النص تتمة للمسرد السابق.

عندئذ تحدث ***صاحب الجلالة رع*** *قائلاً:*

«وقدر حقيقة أننى أحيا، فإن قلبى ضجر بل كثير الضجر، من البقاء مع البشر. لقد أردت قتلهم ولكننى لم أفعل».

عندئذ تحدثت *الآلهة التى فى معيته قائلة:*

«لا تتعب ولا تضجر، ففى مقدورك التحكم فيما تريد».

ولكن حُزن **الأقدم الأصلى** وسأمه، سيعملان على تغيير العالم. فسوف يبتعد **رع** عن البشر، ولكنه لن يقتلهم. فاحترام حياة الإنسان من السمات الأصيلة فى الفكر المصرى.

وإذ تحولت الإلهة **نوت** إلى بقرة، عملاً بنصيحة **الإله الأقدم نون**(*)، وَضَعت **رع** فوق ظهرها، لأن «ساقيه قد وهنتا ولم يعد قادراً على المشى». عندئذ، وفى وثبة كونية عظيمة، ارتفعت إلى عنان السماء حيث ستسطع الشمس من الآن فصاعداً. ولكن **نوت** التى لم تكن قد اعتادت على الارتفاعات الشاهقة، أصابها الدوار.

فارتعشت بشدة، بسبب الارتفاع، وهبَّ ***رع*** *لنجدتها،* (قائلاً): *«يا بُنىَّ* ***شو،*** *خذ مكانك تحت ابنتى* ***نوت،*** *ضعها فوق رأسك، ارفعها».*

ومن الآن فصاعداً، سوف يحمل **شو**(**) السماء إلى أعلى، فى حركة تشبه ما فعله **أطلس**(***). وسيبقى **رع** فوق ظهر البقرة السماوية أثناء النهار أو يبحر على

(*) ويدعى أحياناً **أبا الآلهة**. إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص٢٩٩. (المترجم)

(**) وهو الهواء والنور. (المؤلفة)

(***) من عمالقة الأساطير اليونانية. تمرد على الآلهة فحكم عليه الإله **زيوس** بأن يرفع قبه السماء فوق كتفيه. (المترجم)

متن قاربه فوق صفحة نهر **النيل** الذى يجرى تحت بطن الحيوان المقدس، وأثناء الليل سوف يواصل الإبحار على متن قاربه، فى العالم الآخر السفلى.

ويستمر تنظيم الكون - وهو الكون الجديد - بعد أن هجرت الآلهة البشر الجاحدين. ويستدعى **رع** الإله **تحوت** ليتحدث إليه قائلاً:

انظر ، فأنا الآن فى أعالى السماء... عندما سأقوم بطرد الظلمات وبجلب النور إلى العالم الآخر... عندئذ ستحل مكانى، وتصبح مساعدى.

وسيجلب القمر النور فى ليل الأحياء، بينما يسطع **رع** بنوره من أجل الأموات.

وبطلب من **نوت**، ستتألق النجوم المخلوقة من الآن، على بطنها، هكذا، جاء إلى الوجود شكل جديد للكون، فى أزمنة موغلة فى القدم. إنه مسرد خيالى كان الملوك **الرعامسة** مولعين به.

لقد صيغت هذه المسارد الإلهية الخيالية من صور شعبية وعناصر تنهل من فكر دينى يضرب بجذوره فى غياهب الماضى السحيق، ويمكن أن نجدها فى بلدان عالم **سومر** أو **بابل**، وفى الحضارات السامية أو الإفريقية. وسوف ينتقل بعضها إلى أساطير العالمين اليونانى والرومانى، فلا جدال أن **مصر** الواقعة عند ملتقى العالم القديم، هى أيضاً البوتقة التى انصهرت فيها مختلف الروافد. فانطلاقاً من أفكار مشتركة، صاغ كل بلد مسارده الخيالية الخاصة، المعبرة عن أعمق أعماق روحه الدفينة، ولكن ربما كان الجانب الإنسانى فيها يعود إلى **مصر**.

الحكايات والقصص

إن الحكايات والقصص، عبارة عن روايات متواترة، تعود إلى ماضٍ سحيق، وقد دونت أساساً على ورق البردى. لقد تناقل البحارة والتجار الأقاصيص من بلد إلى بلد، ومن إيران إلى البحر الأحمر، ومن الأناضول إلى قلب السودان، وبالغ كل واحد منهم فيما يضيف وينمق ويُحسِّن، كما أن الغزوات الهندوأوروبية التى ربما جاءت من مناطق بعيدة **كالقوقاز**، قد جلبت معها نصيبها من الخرافات. إن الاستماع

إلى راوٍ عذب اللسان كان من أهم وسائل الترفيه والتسلية. فالشرقيون والمصريون تحديداً، ظلوا على الدوام مولعين بالأقاصيص الجميلة والمغامرات المطرزة بعدد كبير من المواقف المثيرة التى تشد انتباه السامعين شداً.

هذه الروايات المتواترة التى تكشف عن حبكتها هنا وهناك، أدخل عليها المعتقد الدينى كبرى أساطير الفكر القديم لتشكل نسيجاً واحداً. فالحكاية المصرية هى قصة مغامرة، ولكنها تنطوى أيضاً، فى أغلب الأحوال، على معنى عميق.

حكاية تثير العجب العجاب[٢٣]:

* الأمير وأقداره الثلاثة المكتوبة

موضوع هذه الحكاية من المواضيع التى شاعت فى العديد من القصص القديمة أو الحديثة. إن بردية **هاريس** رقم ٥٠٠ Harris 500، وهى من مقتنيات **المتحف البريطانى** فى الوقت الراهن (رقم 10060)، هى الوحيدة التى تحتفظ بهذا النص الذى يعود تاريخه إلى أواخر عهد **سيتى** الأول أو بداية عهد **رمسيس** الثانى.

إن أحد ملوك **مصر** – ولم يذكر اسمه – سرى عليه الهم، لأنه لم ينجب ابناً. ولانت الآلهة أمام توسلاته «فولد له طفل». عندئذ، جاءت **الحتحورات**(*) لتحديد قدره المكتوب(**) فقالت: «سيلقى حتفه على يد تمساح أو ثعبان أو كلب». فتم عزل الأمير الشاب. وشيد له بيت من حجر فى الصحراء. وذات يوم، رأى رجلاً يتنزه فى صحبة كلبه، وتمنى أن يمتلك هذا الحيوان، وليضع حداً لحزنه وهبه والده هذا الكلب. وإذ ملَّ الوحدة قال للملك: «انظر، فأنا خاضع لقدرى فاسمح لى إذن أن أتصرف كما يحلو لى، إلى أن يحين يوم تَنْفذ فيه مشيئة الإله». فرحل فى صحبة كلبه ووصل إلى **نهارينا**. وكان ملك هذه البلاد قد رُزق ابنة، وقرر أن توهب زوجة لمن يستطيع أن يقفز ليصل إلى نافذتها التى تبعد سبعين ذراعًا عن الأرض، أى حوالى ٣٦ متراً. ونجح

(*) جمع **حتحور**. (المترجم)

(**) **الحتحورات** السبع، هى إلهات تحدد للمولود الجديد ما ينتظره من مصير، تماما كما تفعل الجنيات فى حكايتنا المعاصرة. (المؤلفة)

الأمير الشاب، بعد أن أعمل أساليبه السحرية. ومن الآن فصاعداً سوف تُظلُّه زوجته برعايتها وحمايتها على غرار **إيزيس** عندما أجارت **أوزيريس**، وعلى غرار الجنيات في قصصنا الحديثة، فقامت تحديداً بقتل الثعبان بالحيلة. ولكن حدث ذات يوم، بينما كان الأمير يتنزه في صحبة كلبه، أن قال له هذا الأخير: «أنا قدرك». فأطلق الأمير الشاب ساقيه للريح، وأثناء هروبه سقط في الماء، فتلقفه تمساح... وعرض عليه حلاً وسطاً.

هنا يتوقف المخطوط. وربما إذا حالفنا الحظ واكتشفنا نسخة أخرى من هذا النص، نتمكن من معرفة مصير الأمير، وإذا كان قد استطاع الإفلات من قدَره المكتوب(*).

وإذا غضضنا الطرف عن الموضوع المألوف للقدر المكتوب منذ ولادة الإنسان والذي يبدو أن الأساليب السحرية قد تساعد المرء على تجنبه، فإن واقعة محددة قد شدَّت انتباه مؤرخي الفُلكلور: إنها قفزة الزوج التي نلتقي بها في القصص الروسية والبولندية والهندية.

إن عناصر هذه الحكاية هي جزء من المسارد الخيالية العُجاب في جميع البلاد وفي مختلف الأزمان.

حكاية أخلاقية:

* الصدق والكذب

نص هذه الحكاية، الذي يعود إلى الأسرة التاسعة عشرة، تحتفظ به بردية **شيستر بيتي** رقم ٢ Chester Beatty II، ومن مقتنيات **المتحف البريطاني** رقم 10682، ينطوي على رمزية سهلة بسيطة.

(*) عن القدَر المكتوب يقول المثل الشعبي: طلِعت من طُربتها وفت كُتْبتها. الطربة: محرفة عن التربة، أي القبر. والكتبه (بضم فسكون) ما كتب للشخص وقدر. والمعنى: لابد من نفاذ المقدور واضطرار الشخص إلى السعي إليه مُسيَّراً غير مخير. وقد بالغوا ذلك حتى بعد الموت!. أحمد تيمور باشا، الأمثلة العامية، مركز الأهرام، ١٩٨٦ص ٢٠٦. (المترجم)

فالصدق والكذب أخَوان. إن استبدال كيانات حقيقية استبدالاً مجازيًا شديد الندرة فى الأدب المصرى. ويتهم الكذبُ الصدقَ بأنه أضاع سكينًا كان قد أعاره إياه. وطلب تدخل **التاسوع** الذى أدان الصدق وحكم عليه بسَمل عينيه، وأن يخدم كبواب. ولكن الكذب أرسله بعدِ ذلك إلى الصحراء، لتفترسه الأسود، فأنقذته امرأة وأحبته ثم هجرته فى الحال تقريبًا. ومع ذلك فقد حملت منه وأنجبت ابنًا، وبينما كان يشب ويترعرع «*صار أشبه بإله صغير*». وعلم من هو أبوه. عندئذ انطلق باحثًا عن الضرير، فوجده «*وأجلسه على مقعد، ووضع موطئًا تحت قدميه وخبزًا أمامه، وأطعمه وقدم له شرابًا*».

وروى له أبوه ما ألمَّ به. وعقد الشاب العزم على الانتقام له بالحيلة، فأعلن أمام المحكمة أن الكذب قد سرق منه بقرة بالغة الضخامة.

- *وقالت المحكمة «من المحال وجود مثل هذه البقرة».*

- *فأجاب الشاب قائلاً: «فليكن، فلو أن بقرتى لا وجود لها، فإن السكين كذلك لم يوجد مطلقًا».*

هكذا عوقب الكذب، وخرج الصدق منتصراً.

تمتدح هذه الحكاية فضيلتين أساسيتين فى نظر المصرى: فضيلة البر بالوالدين(*) وحب الصدق(**).

تبدو هذه الحكاية كأحد أوجه الأسطورة الأوزيرية، بعد تحويرها لتصبح فى مستوى البشر. كما تعرض قصة ذات مغزى أخلاقى، وحكاية خرافية توضح حكمة الشعوب السامية القائلة: العين بالعين والسن بالسن. كما تكشف هذه الحكاية واقع أن الصدق والكذب قريبان، الواحد من الآخر، فى بعض الأحيان، وأنه من الصعب فى بعض الأحوال التمييز بينهما، ولكن الصدق ينتصر فى نهاية المطاف.

(*) يقول المثل الشعبى: اللِّى ما يعرف أبوه ابن حرام. (المترجم)

(**) تقول الأمثلة الشعبية: الكذب ملوش رجلين. والحق اللى وراه مطالب ما يموتش. (المترجم)

حكاية أسطورية:

- مغامرات الأخوين **أنوب** و**باتا**

دُوِّن هذا النص على بردية **أوربيني** Orbiney وهي من مقتنيات **المتحف البريطاني** (رقم 10183) في الوقت الراهن. إنها من عمل الكاتب **إينينا** الذي نسخها في عهد **رمسيس – سي بتاح**.

تجمع هذه الحكاية في واقع الأمر بين قصتين.

كان أخوان يعيشان في سلام، وانقطعا معًا لأعمال الحقل.

ولكن نزلت النائبة ذات يوم، عندما وقعت زوجة **أنوب** في غرام **باتا**، أخي زوجها الذي قاوم عروضها. ولما خاب أمل المرأة، وبدافع من الانتقام، وشت به وأبلغت زوجها بأن **باتا** أراد اغتصابها. استطاع **باتا** أن يبرئ نفسه، ولكنه قرر أن يرحل إلى منفى اختياري. وأبلغ **أنوب** أنه ذاهب إلى **وادي شجرة الصنوبر**، في **لبنان**. وهناك سوف ينتزع قلبه ليضعه في «*أعلى زهرة الصنوبر*»، ويستمر يحيا حياة هادئة. ولكنه أخبر أخاه قائلاً:

إذا قطعت شجرة الصنوبر وسقط قلبي على الأرض، تعال للبحث عنه، وإذا قضيت في ذلك سبع سنوات، عليك ألا تيأس. وعندما تعثر عليه ضعه في إناء ماء رطب، عندئذ سأعود إلى الحياة، وأنتقم ممن أساء إليَّ، وستعلم أن مكروهًا أصابني إذا فاض قدح الجعة الذي بيدك، كما عليك ألا تتأخر إذا حدث ذلك.

وإذ حزن أنوب حزنًا شديداً، لأن مودة عميقة كانت تربطه بأخيه، فقد قتل زوجته وألقى بها للكلاب.

يتطابق موضوع هذه الحكاية – وقد أضحى من الكلاسيكيات – مع حكاية سيدنا **يوسف** و**فوطيفار**(*).

(*) راجع سفر التكوين من العهد القديم من الكتاب المقدس: الإصحاح ٢٩. (المترجم)

أوفيدرا وهيبوليت(*).

❖

أما القسم الثانى من الحكاية فيختلف كل الاختلاف. بعد أن استقر **باتا** فى **وادى شجرة الصنوبر**، شيد لنفسه قصرًا. وذات يوم التقى فى الطريق بالتاسوع الذى أحزنته حياة الوحدة التى يعيشها. وتحدث **رع حور - أختى** إلى **خنوم** قائلاً: «*اصنع إذن امرأة من أجل* ***باتا****، حتى لا يبقى وحيدًا*». وهو ما نفذه الإله - الفخارى **خنوم** فى يسر وسهولة. كانت المرأة فائقة الجمال، لأنها من خلق الآلهة. وأحبها **باتا** حبًا عظيمًا، حتى إنه أفشى لها سره.

وفى يوم من الأيام، بينما كانت الشابة تتنزه، رغم أن **باتا** قد نهاها عن ذلك، انتزع منها إله البحر خصلة من شعرها وحملها إلى **مصر**. فأعجب فرعون وأمر بالبحث عن صاحبة الخصلة. وخرجت حملة مسلحة اتجهت إلى **الوادى**، وجاءت بالشابة لتصبح صاحبة الحظوة الأولى. فطلبت بقطع شجرة الصنوبر التى يستقر عليها قلب **باتا**. ونُفذ ما طلبته، فمات **باتا** ولكن **أنوب** الذى كان جالسًا فى بيته يحتسى البيرة، إذ بالقدح يطفح فجأة فانطلق على جناح السرعة، ووجد القلب وأعاد الحياة إلى أخيه.

أما نهاية الحكاية فتروى التحولات التى اعترت **باتا**. إننا نعرف حق المعرفة إمكانية الانتقال فى حرية تامة من شكل إلى آخر، بفضل الأساليب السحرية، وولع المصريين بهذه الظاهرة، والأشكال التى تقمصها **باتا** ليست قليلة الأهمية.

فيتحول فى بداية الأمر، إلى «*ثور يزدان بمختلف الألوان الجميلة، ولكن طبيعته غير معروفة*». وعندئذ، يذهب إلى بلاط الفرعون، ويُعرِّف نفسه لزوجته... التى تأمر بذبحه. ولكن يُبعث **باتا** إلى الحياة ويتحول إلى شجرة. وتسلمه المرأة إلى الحطاب،

(*) جاء فى الأساطير اليونانية أن **فيدرا** وقعت فى غرام **هيبوليت** ابن زوجها، ولما لم يستجب لمحاولاتها اتهمته أنه راودها عن نفسها. ثم مات فى حادث بعد أن طرده والده، وتنكشف الحقيقة وتنتحر **فيدرا** ويعيد الآلهة الحياة إلى **هيبوليت**. (المترجم)

ولكن نشارة خشب دخلت فمها، فأنجبت ابنًا، لم يكن سوى **باتا** ذاته. وإذ نشأ وترعرع في القصر الملكي، فقد استطاع أن يخلف الفرعون، ليصبح **أنوب** الوريث الشرعي.

إننا نتعامل هنا، مع حكاية هي في الأصل من القصص الشعبي، وقد ظلت تضيف إلى الأساطير المصرية المتعلقة بالحياة والبعث وتزيد عليها.

إن الثور والشجرة شكلان تقمصهما الإلهان العظيمان في الأساطير المصرية، وكلاهما نموذج لحياة كان تواصلها واستمراريتها مضمونين. والإلهان هما: **رع** و**أوزيريس**.

ففي وسع قلب **باتا** أن يظل على قيد الحياة إذا وُضع داخل تويج زهرة. إنه وضع **الطفل - الشمس** داخل زهرة اللوتس قبل ولادته، ضمانًا أيضًا للارتباط بالقوى الحيوية الأبدية لعالم النبات. وإذا تم عزله عنه، فإن الماء وحده، كعنصر مُخصِب **أوزيري** في الكون، يستطيع أن يعيد إليه الحياة. وفي هذه اللحظة، سيتدخل **أنوب**(*) لإعادة الحياة إلى جسد أخيه، على غرار ما فعله سَميُّه الإلهي مع **أوزيريس**. وفي نهاية المطاف، سيولد **باتا** من جديد من ذات نفسه، أو نتيجة أفعاله، تمامًا كما تولد شمس كل فجر جديد من شمس اليوم السابق. فالحياة الأبدية سلسلة من الأشكال المتعاقبة والمرتبطة بعضها ببعض.

كما يكشف التحليل الثاقب عن جوانب أسطورية أكثر عمقًا. فالمرأة الفائقة الجمال، وابنة الآلهة التي تفجِّر الشرور تذكرنا بأسطورة **باندورا**(**). إن الحياة

(*) وهو الاسم المصري للاسم **أنوبيس** الذي أطلقه عليه **الإغريق**. (المؤلفة)

(**) من الأساطير اليونانية. و**باندورا** هي أول امرأة خلقتها الآلهة وكانت متعددة المواهب. أهدتها الآلهة علبة، ولما تزوجها الرجل الأول دفعه فضوله إلى فتح هذه العلبة، فخرجت منها ألوان الخير والشر ولم يبق في العلبة سوى الأمل. (المترجم)

الإلهية وهى حياة أبدية يرمز إليها القلب، تختلف عن حياة الجسد اليومية، بل هى مستقلة عنه. ألا يذكرنا ذلك ببعض المواضيع الفيثاغورية(*).

وبالتالى، تكشف هذه الحكايات وهذه المغامرات الخيالية عن أبعاد شديدة الثراء، سواء من حيث المضمون أو الشكل أو ما تنطوى عليه من دروس روحية وأخلاقية.

قصائد العشق والهوى

الشعر موجود فى كل مكان، إنه يشكل سُدَاة ولُحمة نسيج النصوص المصرية. إنه شِعر مرئى وسمعى، ينبع من أعمق أعماق الفرد. إنه تناغم العلامات وتناسقها، إنه جَرْس الكلمات ورنتها الموسيقية، لا تستطيع الترجمة أن تحافظ عليهما، إلا فى أضيق الحدود. كما يتجلى فى روعة الصور ورونقها، التى تأسرنا فجأة بما تثيره من عاطفة أخّاذه. إنه شعر غنائى أو يهز المشاعر، ومرهف الحساسية أو أسطورى. وباختصار، فإنه **الشِّعر**.

هل عرفت **مصر** شعراً، بالمعنى الكلاسيكى للكلمة؟ أى أسلوباً شعرياً، فى مقابل النثر؟

من الصعوبة بمكان تحديد أبعاد هذا الأسلوب تحديداً واضحاً. كان الشعر المصرى شأنه شأن الشعر فى اللغات السامية، ونؤكد مرة أخرى بالمعنى **الكلاسيكى** للعبارة، يعتمد على السجع والتجانس الصوتى. إنه فى الأساس شعرٌ موزونٌ. إن تركيباته الدقيقة غير معروفة. ولما كانت اللغة المصرية المكتوبة لا تعرف حروف العلَّة، فإننا نجهل نطق الكلمات على وجه الدقة، ولكننا نعرف عن طريق علم العروض القبطى، الوريث المباشر لعلم العروض المصرى، أن هذا الأخير لم يكن يوزع أوزان البحور الشعرية توزيعاً صارماً، ولكنه يعتمد على تكرار الأصوات الإيقاعية.

(*) نسبة إلى الفيلسوف والرياضى اليونانى. القرن ٦ق.م. عاش مع أتباعه حياة زهد مشتركة. واعتقد بتناسخ الأرواح. (المترجم)

وفى ظل الأسرة الثامنة عشرة، رأى النور شكلٌ جديدٌ من الشعر، هو شعر العشق والهوى، الذى ازدهر على نطاق واسع فى عهد **الرعامسة**. كانت الإمبراطورية شديدة الثراء والبلاد مزدهرة، فصارت العادات والأعراف أكثر تحرراً، وشكَّل الترف ذوق العصر، وأصبح السلوك أكثر رقة. فبات فى استطاعة المرء أن يتعامل بمزيد من الحرية مع قواعد الحب والشعر.

لقد وصلنا عدد كبير من القصائد المدونة على ورق البردى أو **الأوستراكا**. إن واحدة منها، وهى طويلة إلى حدٍّ ما، ربما نُظمت للترويح عن نفس العاهل الملكى، وهو **رمسيس** الثانى بلا شك، تتكون من سبعة مقاطع شعرية، هى عبارة عن أناشيد حِوارية بين عشيقين(*). إن مطلع كل بيت من الأبيات مسبوق بنقطة حمراء، تأكيداً على الصياغة الشعرية للنص، ويتكرر ذلك فى نصوص أخرى. ويعتقد أن هذه القصائد كانت تنشد فى الولائم والمآدب بمصاحبة معزوفات موسيقية على آلتى الناى والجُنْك.

إن عدداً كبيراً من هذه النصوص سوف يؤثر تأثيراً مباشراً على أناشيد **سيدنا سليمان فى نشيد الأنشاد**(**).

الحب والطبيعة

خلق الإله الحب كما خلق العالم. إن أفراح العشاق تختلط بجمال الحدائق والنهر.

• موعد عند الشاطئ

عشق أختى على الشاطئ الآخر،

والنهر يفصل بيننا.

(*) وهما «أخ» و«أخت»، فى اللغة المصرية القديمة. (المؤلفة)

(**) أحد أجمل أسفار العهد القديم من الكتاب المقدس، من الناحية الأدبية. (المترجم)

والتمساح عند الشط الرملى.

فأنزل إلى الماء وأغوص وسط الأمواج.

إن قلبى يتحكم فى الأمواه،

والماء تحت قدمَىَّ أشبه باليابسة.

إن حبى لها هو الذى يمنحنى القوة،

لدرء مخاطر النهر(٢٤).

♦ التنزه فى الحديقة

أنا صديقتك الأولى.

انظر، فأنا مثل الحديقة التى فرشتُها زهورًا

وبكل أنواع النباتات بشذا عبقها.

إن مكان نزهتى جميل،

عندما تكون يدك على يدى.

إن جسدى مرتاح،

ويبتهج قلبى لأننا نسير معًا.

وسماع صوتك فيه سحر فتَّان،

فأحيا لسماعه.

وعندما أرنو إليك،

فكل نظرة من نظراتك أفضل بالنسبة لى

من الأكل والشراب!

فى نظر العاشق، تمتزج الفتاة بالطبيعة وملذاتها، كما أنها توقع فى حبائلها الرجل الذى مال إليها، كما تفعل صائدة العصافير:

فم أختى(*) برعم زهرة لوتس،

نهدها ثمرة طماطم،

وجبينها طوق(٢٥) من خشب السنط.

وأنا أوزة برية،

أتطلع بنظرى إلى شعرها،

إنه طُعم، أوقعنى فى المصيدة.

مفاتن القلب

♦ مَولد الحب

يا محبوبتى الفريدة التى لا مثيل لها،

إنها أجمل من سائر النساء.

انظر، إنها مثل النجمة المشرقة

فى مطلع عام سعيد.

إنها وضَّاءة وجميلة ولون وجهها من نور،

وساحرة هى نظرات عينيها،

وكلمات شفتيها مفاتن سحرية.

إن عنقها ممشوق ونهدها وضَّاء،

وشعرها من اللازورد الخالص،

وساعدها أَقْيَم من الذهب،

(*) كما سبق أن رأينا المقصود به هنا: حبيبتى. (المترجم)

وأناملها كزهور لوتس.

لقد شدّت حزامها شدًا حول خصرها،

وساقاها أجمل من كل محاسنها الأخرى،

وأبىٌّ هو مظهرها، عندما تمشى على الأرض.

وإذ اندمجت المحبوبة فى **الشِّعْرَى اليمانية**(*) - **الجوزاء**(**)، نجمة **العام الجديد**، فإنها تُبشرّ الإنسان المُتيَّم بحياة جديدة. ويتبادر إلى ذهننا، كيف أن سيدنا **سليمان** سيمتدح فى وقت لاحق، مفاتن الشُّوليَّة(***) La Sulamite باستخدام عبارات مماثلة.

♦ *الخيالات الصبية*

آه! لو أننى زنجية فى خدمتها،

فلا تتركها قيد أنملة،

سوف أرى لون بشرتها بالكامل.

آه! لو أننى غسّال فى خدمتها،

ولو لشهر واحد،

لغسلت عطور طرحتها.

آه! لو أننى خاتمها،

والخَتْم الذى تضعه فى أصبعها.

لجعلت حياتها جميلة!

(*) **سوتيس** Sothis باليونانية و**سيريوس** Sirius بالفرنسية و**سوبدت** بالمصرية القديمة. (المترجم)

(**) **ساحو** بالمصرية القديمة. إنه المظهر الذى يتخذه **أوزيريس** بعد بعثه. إيزابيل فرانكو، معجم الأساطير المصرية، ترجمة ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١، ص١١٥ و٢٤٠.(المترجم)

(***) نشيد الأناشيد. الإصحاح السابع. (المترجم)

◆ داء الحب

سوف أرقد فى دارى

مريضًا، بلا إصابة.

ويدخل الجيران ليطلُّوا علىَّ ومعهم جميلتى.

وسوف تُخطِّئ الأطباء،

لأنها تعرف دائى.

◆ الأغنية أمام الباب الموصد

كنتَ مارًا أمام مسكنها، ليلاً.

- طرقت (الباب) ولكن لم يفتح لى أحد...

فلتُقدَّم بقرةٌ قربانًا للمزلاج،

وغزالةٌ للعتبة

وأوزة للدعامات...

ولكن أجمل الأبقار

ستخصص لساعدى النجارين

الذين سيصنعون مزلاجًا من نبات الأسل وبابًا من البوص

هكذا، ففى كل ساعة من الساعات،

سيفتح العاشق مسكن الحسناء،

ويجد المخدع مزدانًا بأرق الستائر

والحسناء بداخله.

• القُبلة

قلبى يتهلل فرحًا، عندما أشاهد أختى قادمة...

وإذا قبَّلتها وانبسط ساعداىْ،

ظننت آنذاك، أننى فى بلاد **بونت**،

وكما لو كنت قد مسحت بزيت **أراضى العرب**(*) *المعطَّر.*

وإذا قبَّلتها وتفتحت شفتاى

عندئذ، يغيب عقلى، دون أن أشرب (خمرًا)

• تغيُّر العالم وتحوله

أهبط النهر، فى صحبة المجدفين،

وضُمَّة البوص على كتفى،

*فإنى ذاهب إلى منف، «***حياة القطرين***»*

وهناك، سأقول (للإله) **بتاح**، *رب الحقيقة والعدالة:*

«أعطنى جميلتى، هذا المساء».

فالنهر كالنبيذ،

والإله **بتاح** *هو أجمة بوصه،*

والإلهة **سخمت** *هى دغل أزهاره،*

والإلهة **يعريت** *هى برعم زهرة لوتسه،*

والإله **نفرتوم** *هو زهرة لوتسه اليانعة،*

(*) أطلق قديمًا لفظ **أراضى العرب** على كل المناطق الصحراوية الواقعة شرق **النيل** والممتدة حتى غرب **آسيا** دون قصره على **شبه الجزيرة العربية** بمدلولها المألوف. د. عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٤، ص٢٨٢. (المترجم)

وسوف تفرح جميلتى!

وملف كأس ثمرة طماطم

وُضعت أمام الإله صاحب الوجه الجميل.

ومع شروق الشمس، تدب الحياة فى الطبيعة، وقد تلونت باللون الأرجوانى كالنبيذ أو ثمرة الرمان، بفعل ذهب الشمس. والآلهة تسكنها وتُدخل عليها التحولات، ولكن فى نظر العاشق يتألق الفجر بجمال من يحبها.

حركة الحَياء والشهوة

وتزداد نبرة العواطف الجياشة فى القصائد، وتصبح أكثر بعداً عن الحياء وأكثر غنائية والصور أكثر وضوحاً وأكثر حميمية

◆ اضطراب الشهوة

أترحل لأنك تريد أن تأكل؟

أأنت إذن، رجل لا همَّ له سوى بطنه؟

أترحل بحثًا عن ثياب؟

ولكن عندى أغطية فوق السرير.

أتريد الرحيل لأنك ظمآن؟

تناول إذن ثديى،

فما به يفيض من أجلك...

فحبى لك ينفذ إلى كل جسدى

كما يمتزج النبيذ بالماء.

◆ لهفة الحبيب

آه! ليتك تأتى إلى حبيبتك مسرعًا،

كمبعوث ملكى، يستعجله نفاد صبر سيده.

آه! ليتك تأتى إلى حبيبتك مسرعًا،

كفرس الملك...

آه! ليتك تأتى إلى حبيبتك، مسرعًا،

كالغزال القافز فى الصحراء

إن سيقانه تجرى مسرعة وقد أصاب أطرافه الإعياء.

ويعترى الخوف جسده.

إن صيادًا من خلفه،

وكلابه معه.

ولكنها لم تعد تقتفى أثره!

ويبصر ملجأً...

لقد وصلتَ إلى مسكنها

لتُقبِّل يدها أربع مرات.

إنك تتحرق شوقًا لنوال حب الحسناء

التى جَعَلَتْها إلهةُ الذهب من نصيبك.

• هيام الحبيبة

إنكَ تُخضِّب قلبى وسأفعل من أجلك ما تتشوق إليه عندما أرقد على صدرك.

إن اشتياقى إليكَ هو الذى يُكحِّل عينَىَّ، فتتألقان عندما أراكَ.

إنى ألتصق بك عندما أشاهد حُبَّك، أيها الرجل، يا مالك قلبى.

كم هى جميلة ساعتى! ليتها تدوم إلى الأبد...

لا يجد قلبى توازنه إلا مع قلبك، ولا أستطيع أن أبتعد عن جمالك.

وفى الختام نقدم هذه الصورة الشهوانية البالغة الجمال:

إن حُبَّك فى جسدى كنبات البوص بين أيدى الرياح.

وبدءاً من النصوص الغنائية العظيمة فى **مدينة هابو** ووصولاً إلى قصائد الحب والهوى، عرفت **مصر** مختلف أشكال الشعر وأنواعه(*).

ثانياً: الفنون

لقد سبق عند الحديث عن الملك بنَّاءً على وجه التحديد، أن استعرضنا مختلف الإنجازات فى مجال الفنون التشكيلية وفن المرسومات(**) arts graphiques. وسنكتفى هنا بتحليل تطورها والتذكير بإبداعاتها الرئيسية.

الفنون التشكيلية

لم يكن التمثال فى **مصر**، مجرد جسد من حجر. إنه يضم فى داخله *حرارة نشطة* لها أبعاد سحرية، يمكن أن تُنعشها التعاويذ المناسبة، لتعيد الحياة إلى الشخص الذى يصوره هذا التمثال.

ظل فن النحت منذ بداياته الأولى، جزءاً لا يتجزأ من أحد المعابد أو القصور،

(*) اكتفت المؤلفة بتقديم مقتطفات من أجمل قصائد مصر القديمة. ولمن يريد الاستمتاع بقراءاتها فى نصها الكامل بالإضافة إلى غيرها من القصائد عليه بالرجوع إلى:
نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة، المجلد الثانى، نقلاً عن الترجمة الفرنسية بقلم كلير لالويت، ترجمه عن الغربية ماهر جويجاتى-دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٦. (المترجم)

(**) وهو أكثر شمولاً من فن الرسم. فقد ورد فى تعريف فن المرسومات، فى معجم ألفاظ الحضارة الحديثة ومصطلحات الفنون، الذى أصدره مجمع اللغة العربية. القاهرة. ١٩٨٠، ص٩٢، ورد ما يلى: فن يعتمد على الخطوط كالرسم والحفر والملصقات. (المترجم)

ولا ينفصل عنها. وخير دليل على ذلك التماثيل الملكية العملاقة القائمة أمام المعابد والتماثيل **الأوزيرية**، فى الأفْنية أو أبهاء الأساطين. ولكن النحت فن يحتاج إلى وسائل تقنية شديدة الحساسية، تختلف عن الوسائل المستخدمة فى فن العمارة.

وإذا وضعنا فى اعتبارنا حجم التماثيل العملاقة والوسائل التى كانت آنذاك تحت تصرف النحاتين، سوف تستولى علينا الدهشة. كيف كانوا إذن يصنعون تمثالاً؟ فعلى سطح كتلة أحادية من الحجر، كانوا يرسمون محيطها العام باللون الأحمر، ثم يقومون بالنقر بواسطة حجر أكثر صلابة، للحصول على شكل أولىّ. وتستمر عملية الطرق لفترة طويلة، طرقًا متقنًا وصبوراً، إلى أن تتشكل بالتدريج الصورة العامة التى سبق رسمها. عندئذ تبدأ عملية صقل أولية بواسطة حجر ضخم وعجينة ساحجة مصنوعة أساسًا من مسحوق الكوارتز. ثم يقطع الحجر بمنشار(*)، للتخلص من أجزاء كتلة الحجر الزائدة عن الخطوط الحمراء التى حددت الصورة العامة التى يتم عزلها على هذا النحو. ومن جديد يتم صقل الكتلة التى تم قطعها، وبعد ذلك تم تحديد التفاصيل الصغيرة. فتُفصل الساقان بواسطة أنبوب أجوف من النحاس، يُدار باليدين. ثم تُثقب الأذنان والعينان وفتحتا الأنف بواسطة مثقاب من حجر الظرّان. وتجىء عملية صقل أخيرة، لتعبر عما توحى به قريحة الفنان الإبداعية، لتصبغ على التمثال طابعه المميز، من خلال تحديد ملامح الوجه والجسد. هكذا، وبعد أن تشكَّل التمثال يسلَّم للكتبة ليرسموا عند الضرورة المدونات التى سيتولى النحاتون حفرها، ثم يجىء دور الرسامين الذين يصبغون الجسد بعد بعثه بألوان الحياة النضرة.

وفى عصرنا، عصر الآلة، يصعب على المرء أن يتخيل هذه المعالجات البطيئة الصبورة والسديدة للمادة، لقد اختفت الآن هذه التقنيات التى أثمرت هذه التماثيل العملاقة وهذه الوجوه رائعة الجمال.

لقد ملك المصريون ناصية السيطرة على الحجر، فكانوا شعراء الأشكال وسحرتها، فالمصريون هم الذين علموا فن النحت لشعوب **جنوب غرب آسيا واليونان**.

❖

(*) نصل من النحاس المسنن مثبت فى مقبض من خشب. (المؤلفة)

تُبرز الفنون التشكيلية طوال عصر **الرعامسة** أسلوبين.

شموخ الأحجام وضخامتها فى أغلب الأحوال، وكمال النحت والدقة المفرطة والرقة الشديدة، كما أن ثراء المواد المستخدمة وتنوعها، من سمات أول هذين الأسلوبين، والذى سيستمر حتى نهاية عصر **رعمسيس الثانى**.

فى ذلك الزمن، كان الملوك والآلهة قد اتحدوا أكثر من أى وقت سابق، لتُؤدَّى لهم الشعائر الدينية نفسها. فتصورهم التماثيل معًا، وأحيانًا فى مجموعة ثنائية، تجمع بين **رعمسيس** الثانى و**بتاح**، أو **رعمسيس الثانى وسخمت**. كما صور هذا العاهل الملكى فى صحبة **سوبك** أو **عشتروت** وهلمَّ جراً. كما صوروا أحيانًا فى مجموعة ثلاثية، فيحيط اثنان من الآلهة بالملك **رعمسيس** الثانى، نذكر منها: **رع حور أختى وبتاح**، أو **بتاح وسخمت** أو **أمون ومُوت**. وأخيراً، ففى قدس أقداس المعابد ذاتها قد يُحاط تمثال الملك بثلاثة أو أربعة آلهة. وهو ما لاحظناه فى معبد **أبو سمبل**، على سبيل المثال.

كما يكرِّم الملوكُ الآلهةَ، ويقدمون لها الشكر والحمد. وقد شاع وضعان فى أغلب الأحوال:

فقد يكون الملك فارس الإله، فيظهر واقفًا، فى وضع مفعم بعزة النفس، وكأنه يقف رقفة انتباه، ممسكًا عمود سارية، فى أعلاها رأس إلهىٌّ، إنها شارة الإله، إذا صحَّ التعبير. وكان **الرعامسة** مولعين بهذا الوضع. ونتذكر تمثال **رعمسيس** الثانى جميل الصنعة، فيصور الملك وقد ضم إلى جسده عمود سارية ينتهى برأس كبش **أمون**. والتمثال من الألبستر، وارتفاعه ٧٦سم، ومن مقتنيات **متحف القاهرة**.

كما فى وسع الفرعون أن يقدم للإله مائدة قرابين أو ناووسًا. إن التمثال الصغير الذى يصور **رعمسيس** الثانى وهو يقدم قاعدة ناووس، يتميز بليونة تفاصيله وتناغمها. والجزء العلوى من الناووس مهشم. وهو من الشست وارتفاعه ٢٧سم ومن مقتنيات **متحف القاهرة**. والجسد جسد شاب ونُحتت ملامح الوجه الجميلة بدقة فائقة. إن رشاقة الجسد الممشوق المرتكز على الركبتين، لا حدود لها. لقد برهن نحاتو ذلك

العصر من المصريين أنهم لا يشكلون التماثيل العملاقة فقط، بل إن فنهم الشامل، كان في وسعه أيضًا أن يُبدع أشكالاً على أكبر قدر من نعومة التفاصيل ورقتها مع الحفاظ على توازن متناغم، سعياً إلى إيجاد النسب المتوافقة.

كما شاع موضوع آخر يتعلق بالملك المنتصر وهو يطأ **الأقواس التسعة**. هكذا، فإن **رعمسيس** الثانى من خلال الدَّعْس(*) أو فى هيئة الجالس على عرشه، يُدلِّل على انتصاراته. ونذكر التمثال الكبير فى متحف **تورينو**، وهو من الجرانيت، ويبلغ ارتفاعه ١٩٤سم.

إن وجوه التماثيل صور شخصية فائقة الجمال، إنها ناعمة ملساء وتسجل ابتسامة رقيقة كلها شموخ، إن الأنف المقوس المهيمن يؤكد على ارتفاع شأن صاحبه وعلو منزلته.

وإذا كانت تماثيل **سيتى** الأول قليلة نسبياً، فإن عدد تماثيل **رعمسيس** الثانى كثيرة. إنه زمن عرف وفرة الأيدى العاملة، فالبلاد تنعم بسعة العيش ورخائه، والمحاجر تُستغل على نطاق واسع.

❖

واعتباراً من عهد **مر إن پتاح** وحكم **سيتى** الثانى و**رعمسيس** الثالث تحديداً، تقلصت الوسائل الى تحت تصرف النحاتين إلى حدٍّ كبير. فقد انشغل النظام بالمشاكل الخارجية الضاغطة. ووقع فن نحت التماثيل فى أسر التقاليد الجامدة المألوفة، بعيداً عن أى نزعة إبداعية. والشاهد على ذلك بالتحديد، تمثال **سيتى** الثانى جالساً، وقد وُضِع على ركبتيه هيكل يعلوه رأس كبش **آمون**. وهو من الكوارتزيت ومن مقتنيات **المتحف البريطانى** وارتفاعه ١٦٤سم، كما نذكر أيضاً المجموعة النحتية المكونة من **رعمسيس** الثالث المحاط بكل من **حورس** و**ست** اللذين يضعان التاج الأبيض على رأسه. وهى من الجرانيت وارتفاعها ١٦٩سم ومن مقتنيات **متحف**

(*) دَعْس: داس دوسًا شديدًا. د. أحمد مختار عمر، المكنز الكبير، سطور، ٢٠٠٠، ص٤٢٩.(المترجم)

القاهرة. ومع ذلك فقد تجنَّب بعض التماثيل هذه النزعة المفتقرة إلى الأصالة أو المتسمة بالرتابة المملة، لتشكل استثناءً من النمط السائد وخروجًا عليه. هكذا فإن تمثال **رعمسيس** السادس فى هيئة المنتصر(؟)، يحمل على كتفه اليمنى بلطة الحرب، ويمسك بقبضة يده اليسرى شعر أسير ليبىٍ، كمغنم حىٍ. كما تعكس ملامح وجه الأسير آلامًا مبرحة تعبيراً عن الهزيمة. والتمثال من الجرانيت ويبلغ ارتفاعه ٤٧سم ومن مقتنيات **متحف القاهرة**.

إن القوة الدافعة التى تلقتها الفنون التشكيلية فى عهد **رعمسيس** الثانى، والزخم والإلهام اللذين حدَّدا لها طريقها، كانت قد ولَّت دون رجعة. ففى هذا المجال أيضًا استحق **رعمسيس** الثانى عن جدارة، أن يلقب **بالعظيم**، وهو اللقب الذى يُنعت به من قِبَل علماء العصر الحديث.

فن المرسومات

إن فن النقش وفن التصوير القائمان فى **مصر** على رسم مُعدٍّ مسبقًا، خُطَّ على السطوح المطلوب زخرفتها، ينضويان تحت ما يسمَّى بفن المرسومات.

إن مَعْلَمين يعودان إلى مطلع عصر **الرعامسة**، يوفر أولهما خير برهان على عين الكمال الذى وصل إليه فن النقش، المتمثل فى معبد **سيتى** الأول فى **أبيدوس** ومقبرته فى **وادى الملوك**، فى حين يكشف المعلم الآخر المتمثل فى مقبرة **نفرتارى**، عن السهل الممتنع فى نضارة رسوماتها وأصالتها.

إن أى وصف مهما بلغ من حصافة، لن يستطيع أن يترجم رشاقة الأشكال والحركات ورِقَّة ورهافة النقوش التى تزدان بها جدران بيت الأبدية للفرعون **سيتى** الأول، كما سيفشل بالقدر نفسه فى وصف الشعور الذى يغمر المرء عند دخول مقبرة **نفرتارى**، ليجد نفسه وسط جمال الأشكال ورشاقتها وتألق الألوان وسطوعها.

وعلى المرء أن يرى كل ذلك فى إطار **وادى الملوك ووادى الملكات**. ففى أى مكان آخر لن نجد هذا التعارض البيِّن بين المشهد الطبيعى الصحراوى القانط الذى يوحى

بالموت وبين الصور المنحوتة والملونة بجمالها ونضارتها وحيويتها، فمجرد وجودها خير ضمان لأبدية الحياة.

ففى أى مكان آخر غير **مصر**، لم يحدث أن كانت الفنون مرتبطة مثل هذا الارتباط، بجميع مناحى الحياة وبمسار غارق فى الأساليب السحرية. وفضلاً عن ذلك، فإنها تُؤلف مشهداً آسراً خلاَّبًا من الأشكال.

الخاتمة

هكذا عاش ملوك **الرعامسة**. وفى زمن أقواهم من أصحاب الحَوْل والطَوْل مثل **سيتى** الأول و**رعمسيس** الثانى و**رعمسيس** الثالث، على وجه التحديد، عاشت البلاد فى سعادة، اعتماداً على ثرائها وازدهارها، بعد أن صدّت الأعداء الخطرين ودحرتهم. أما أواخر **الرعامسة** وكانوا ملوكًا ضعفاء فقد ساروا بإمبراطورية أجدادهم إلى هاوية الانحطاط، إذ كان دور الملك فى هذه الأزمنة الغابرة حاسماً، وعلى قدر كبير من الأهمية فى تصريف شئون البلاد وحياة أبنائها.

وقد يندهش المرء من كون التاريخ الذى ننقله مجزّأً بعض الشيء، أحيانًا ينطوى على قدر من الفجوات. ومردُ ذلك صدف أعمال التنقيب والاكتشافات، وقد لاحظنا فى أكثر من مناسبة أن علم الآثار هو فى الغالب عبارة عن مغامرة قد تقودنا إلى نجاحات مبهرة(*) أو إلى إخفاقات محزنة(**). إن مهمة عالم المصريات بالغة الخصوصية، فبعد إخراج مختلف المعالم الأثرية والوثائق إلى النور، ينشأ علم المصريات من العمل الأساسى الذى يقوم به عالم اللغة والمؤرخ، فيتم النظر مليًا فى كل صغيرة وكبيرة وما لها وما عليها، ومقارنة مختلف العناصر والتوفيق بينها، الأمر الذى يتطلب صبرًا من جانب الباحث أشبه بصبر **أيوب**، وشغفًا مخلصاً ودءوبًا. ولكن يا له من شعور مبهج يتفجر فرحًا وسعادة، عندما يتوصل الباحث إلى إعادة الحياة، خطوة خطوة وبالتدريج إلى عوالم اختفت وسقطت فى طىٍّ النسيان، فيخلقها من جديد، إذا صحّ التعبير، بفضل جهد جهيد متواصل، صادر عن القلب والعقل. وفى نهاية المطاف يتوصل كل من المؤرخ وعالم اللغة، على حدٍّ سواء، إلى الاندماج اندماجًا روحيًا مع العالم القديم حيث يعيش فكرهم على مرِّ الأيام، الأمر الذى يساعدهما على

(*) نذكر على سبيل المثال لا الحصر الكشف عن مقبرة **توت عنخ آمون**. (المترجم)

(**) نذكر أيضًا فشل المنقبين حتى الآن فى الكشف عن مقبره **إيمحوتب** مهندس مجموعة **زوسر** فى **سقارة**. (المترجم)

استيعاب وقائع الأزمنة الغابرة، تلك الوقائع التى يتجاور فيها العقل السياسى مع أساليب السحر الدينى، وتختلط السارد التى تروى هذه الوقائع مع عرضها عرضاً مغايراً من خلال صياغات شعرية وأسطورية، لتشكل عالمًا كثيفًا متداخلاً، يبهرنا فى أغلب الأحوال بصوره المتألقة، ويختلف كل الاختلاف عن العالم الذى نعيش بين ظهرانيه.

وبالتدريج، فإن انبثاق آثار أخرى من وسط الرمال والكشف عن وثائق أخرى، سوف يساعدان على ملء «الفراغات».

إن علم المصريات ما زال علمًا شابًا، يزخر بالوعود ويُرجَى منه الكثير.

الهوامش

الباب الأول

الفصل الأول

(١) إن تقسيم تاريخ **مصر** إلى ثلاثين أسرة من ٢٢٠٠ حتى ٣٢٣ق.م يعود إلى **مانتون** الذى كان يعيش فى العصر اليونانى. ولم يصلنا للأسف كتابه Aegyptica المخصص لتاريخ **مصر** والذى ألّفه بناء على طلب **بطليموس** الأول، واعتمد فيه على مكتبات المعابد والمحفوظات الملكية. ولا يوجد بين أيدينا فى الوقت الراهن سوى ملخصات أو شذرات نقلها المؤرخون اليهود من أمثال **يوسيفيوس** الذى عاش فى القرن الأول الميلادى، أو المسيحيون من أمثال **يوليوس الإفريقى** حول عام ٢٢٠ **ويوسابيوس** حول عام ٣٢٠. إن الوثائق المصرية فى بعض العصور تتطابق مع تقسيمات **مانتون**، الأمر الذى يؤكد صدقها على ما يُظن.

وإلى هذا التوزيع إلى أسرات، الذى يعود إلى قدماء المصريين، أضاف المؤرخون المعاصرون تقسيمًا آخر إلى عصور، إبرازًا للتاريخ الجماعى للمجتمع الفرعونى، فظهرت عبارات الدولة القديمة ثم الدولة الوسطى فالدولة الحديثة، دون أن تكون لكلمة دولة دلالة سياسية محددة، وتفصل بينها عصور يقال لها انتقالية، وهى عصور مضطربة، تطرح فى أثنائها من جديد على بساط البحث قضية المؤسسة الفرعونية.

(٢) حجر كبير من الديوريت، منقوش على الوجهين، عُثر على ستة من أجزائه، وأهمها موجود فى متحف **پالرمو** بجزيرة **صقلية**. وبالنسبة لحكم كل ملك من الملوك حتى نهاية الأسرة الخامسة، يذكر أهم الأحداث سنة بعد سنة: من حروب وأعياد دينية وتأسيس معابد وعمليات تعداد، بالإضافة إلى ارتفاع منسوب فيضانات **النيل**.

(٣) **حورس** هو اسم الجنس الذى كان مستخدمًا فى الأصل للدلالة على الصقر. وعرفت **مصر** عددًا كبيرًا ومتنوعًا من الآلهة **حورس**. فهذا الطائر الذى كان يشاهده الجميع

فى كثير من الأحيان محلقًا فى سماء **مصر** قد فرض نفسه على الوعى الدينى، على امتداد وادى **النيل**.

ويرتبط العديد منها بالمفاهيم الكونية، كما سبق ذكرها فى مقدمة هذا الكتاب. إن **حورس** مدينة **هيراكنيوليس** هو راعى النظام الملكى وحاميه. وأخيراً، فإن **حورس بن أوزيريس** و **إيزيس**، هو الإله الصبى خليفة أبيه، ورمز البر بالوالدين واستمرارية النظام الملكى.

(٤) الطاقة المحركة للكائن الحى والتى تمنحه زخم الحياة. لكل إنسان وكل إله **كاؤه** الخاص، إنه شذرة صغيرة من القوة الإلهية الكبرى المنتشرة فى الكون.

(٥) إن الآلهة التى تصور بجسدها المحبوك داخل رداء لاصق، هى فى الغالب، آلهة خالقة واهبة للحياة. ونذكر منها **بتاح** و**مين** بالعضو الذكر المنتصب و**أوزيريس**. ربما كان هذا الرداء اللاصق المحبوك صورة تحاكى لحاء الشجرة الذى يضم القوى النباتية المتجددة على الدوام، ورمز «اندفاع» الحياة وأبديتها.

إن أول تماثيل **بريابوس**(*) Priape قد نحت فى لحاء شجرة.

(*) إله البساتين والخصوبة والتناسل فى الميثولوجيا اليونانية. (المترجم)

(٦) يشير الرقم ثلاثة فى **مصر** القديمة إلى التعدد اللانهائى. وهكذا، ولا شك فى ذلك، كان ينظر إلى **رع** باعتباره والد ملوك الأسرات المصرية الحاكمة.

(٧) الكلمة عنصر خالق فى فكر الساميين والأفارقة. إن مجرد النطق بالكلمة يخلق واقع ما تعبر عنه، إنها عملية مثالية لفاعلية إصدار الأمر.

(٨) راجع الهامش السابق رقم٢.

(٩) Textes des Pyramides § 1108

(١٠) وهو الاسم الذى يطلق على مقابر الأفراد، ببنائها العلوى الذى يتخذ شكل شبه المنحرف ويذكرنا بأرائك الريف المصرى التى تسمَّى مصطبة.

(١١) يشير اسمه إلى مجد الإله. إن «**بيت رع**» هو اسم معبد الشمس القائم بجوار هرم **ساحورع**، و«**مكان قلب رع**» هو اسم المعبد المجاور لمبنى **نفر إير كارع**.

(١٢) فقرة من مرثيات **إيبي ور** راجع نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة، المجلد الأول. نقلاً عن الترجمة الفرنسية بقلم كلير لالويت.

[الترجمة العربية: ماهر جويجاتي، دار الفكر، ١٩٩٦، ص ص ٢٩١-٣٠١].

(١٣) قصيدة مقتطفة من أناشيد اليائس. المرجع السابق، ص ص ٣٠٢-٣٠٨.

(١٤) الإشارة إلى الأعداء بكلمة "أطعمة"، نُظر إليها أحيانًا باعتبارها صدًى لعادة أكل لحوم البشر البدائية(؟). راجع: E. Schwyzer, Griechische Grammatik,1939, p.329, I.

والمقارنة قائمة بين hostia و hostis.

J. Knobloch ،Von Menschenfressen and Fleishfressenden Gärgen ،in Glota ،LX Band ،1-2 Heft ،1982 ،pp.2-6.

(١٥) تسمية أخرى للأعداء بعد دمجهم فى قوى الكون الضارة.

(١٦) راجع **نبوءة نفرتى** فى كتاب نصوص مقدسة - المرجع السابق ذكره - ص ص٨٧-٩١.

(١٧) راجع فيما بعد: الباب الثانى. الفصل الأول. الراعى الصالح.

(١٨) من ملوك الأسرة العاشرة.

(١٩) تعاليم الملك إلى ابنه. راجع كتاب نصوص مقدسة - السابق ذكره - ص ص ٦٨-٧٤.

(٢٠) هذا التشبيه شائع فى نصوص **الرعامسة**.

(٢١) إلهة - أسدة محاربة عظيمة.

(٢٢) هذا النص المدون على بردية عثر عليه فى **اللاهون** يضم ستة أناشيد ملكية. راجع: نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة. المجلد الأول - نقلاً عن الترجمة الفرنسية بقلم كلير لالويت.

[الترجمة العربية: ماهر جويجاتي، دار الفكر، ١٩٩٦، ص ص ٩٢-٩٦]؛

(٢٣) بشأن هذه الصورة، راجع فيما سبق: الفصل الأول، الملك - **الإله**.

(٢٤) راجع فيما سبق قصة **أوزيريس** فى المقدمة.

(٢٥) بعض المؤرخين المعاصرين ينظرون إلى مملكة **نهارينا** ومملكة **الميتانى** باعتبارهما شيئًا واحداً، ولكن النصوص المصرية تذكر الاسمين **مِتن** و**نهرن** فى سياقين مختلفين. وسوف نلاحظ أن نصوص عصر **الرعامسة**، بينما ترى أن مملكة **الميتانى** قد ابتلعها جيرانها الأقوياء، فإن مملكة **نهارينا** تظل مذكورة. إن الخلط الذى ظهر فى العصر الحديث، ربما كان سببه أن الدولتين كانتا متاخمتين لنهر **الفرات**، وعلى شاطئين متقابلين، فتقع **الميتانى** على البر الأيسر و**نهارينا** على البر الأيمن.

(٢٦) تجسد هذه الصورة المنجل الذى يلقى بسنابل القمح المقطوعة.

(٢٧) اسم الشعوب الآسيوية.

(٢٨) **النوبة** و**السودان** باعتبارها جزءًا من الأراضى المصرية.

(٢٩) شدَّ نهر **الفرات** انتباه المصريين نظرًا لأنه يتدفق من الشمال إلى الجنوب، فى حين إن نهر **النيل** بصفته النموذج الأمثل لكل نهر، يتدفق من الجنوب إلى الشمال.

(٣٠) C.L. Textes, pp 93-94

(٣١) نقلاً عن **الحوليات**: رواية الحملة الأولى والاستيلاء على قلعة **مجدّو** الموقع الحصين القائم عند نهاية ممرات جبل **الكرمل**، شمال غرب **السامرة**، حيث تجمعت قوات التحالف. C.L. Textes, pp 93-100.

(٣٢) هذا النص منحوت على لوح حجرى كبير من الجرانيت يبلغ ١٨٠سم ارتفاعًا، وقد عثر عليه فى قاعة تقع إلى الشمال الغربى من قدس أقداس معبد **أمون – رع** فى **الكرنك**، ومن مقتنيات **متحف القاهرة** فى الوقت الراهن. راجع: C.L. Textes, pp. 101-104.

(٣٣) اسم الملك بصفته ملك **مصر العليا** و**مصر السفلى**.

(٣٤) نهر **الفرات**.

(٣٥) ينظر إلى الأعداء والحيوانات بوصفهم شيئًا واحداً.

(٣٦) إن الحية – الصلّ هى ابنة **رع**، إنها من طبيعة أنثوية وتشارك فى تألق الإله.

(٣٧) جزر بحر **إيجة**(؟). هذه العبارات هى بكل وضوح عبارات شكلية، ولكن **الكلمات** المعبرة عن انتصار مهيب تضمن تحقيقه. والأقرب إلى الصواب أن هذه العبارات

تشير إلى الهيمنة المصرية على عالم بحر **إيجة**، والتى تعود إلى أزمنة سابقة.

(٣٨) إن عبارة «**سحق**» المستخدمة فى مطلع كل مقطع من مقاطع هذه القصيدة، هى فى الغالب عبارة شكلية (راجع الهامش السابق والفصل الأول من الباب الثانى، فقرة المعركة: مصير المهزومين. كانت المدن الفينيقية تعبد الإله **شمش**، وكان إلهًا شمسيًا عظيمًا فى **الشرق الأدنى** القديم، وكانت بعض المدن مثل **بيبلوس** تعبد **أمون – رع**. وإذ يظهر **تحوتمس** الثالث فى هيئة شمس إلهى، فإنه يضفى شرعية لا جدال فيها على سلطانه على هذه المناطق.

(٣٩) يؤكد فرعون فى مواجهة احتمال تمرد الآسيويين قدرته الفائقة، فيظهر متأهبًا على الدوام للمعركة.

(٤٠) بلد الإله هو **بونت** الأرض الإلهية، حيث تزرع أشجار البخور، اللازمة لإقامة الطقوس الإلهية. يقدم النص وصفًا لانطلاق أحد الشُّهب الذى تختلط تألقاته عند وصوله إلى الأرض بالأنداء، ويقوم الشهاب بدور بارز فى قصص **بونت**. راجع قصة الغريق: ربما عرفت **بونت** عبادة شمسية؟

(٤١) كانت جزيرة **كريت** تعبد ثورًا أبيض، أى شمسيا.

(٤٢) من الواضح أن المقصود هو عبور **تحوتمس** الثالث نهر **الفرات**، إبان حملته الثامنة إلى **آسيا**، وإغارته على **الميتانى**.

(٤٣) ربما كان المقصود بجزر الوسط جزر **السيكلاد**(*). ويندمج الملك فى **حورس**، النموذج الأمثل للمنتقم لأبيه، فى حين أن الثور المذبوح يشير هنا إلى **ست**.

(*) أرخبيل يونانى فى جنوب بحر **إيجه**. (المترجم)

(٤٤) ربما كان **الدانيون**(*) Danaéens هم المقصودين **بالأوينتيو**، وكان وادى **نيميا** Némée يقع فى بلاد الدانيين(**)، ويقال إن **هيراكليس**(***) Héraklés قد صرع الأسد الذائع الصيت فى هذا الوادى، ومن ثم فإن الحكاية المصرية تعود إلى زمن أقدم بكثير من الحكاية الكلاسيكية اليونانية.

(*) نسبة إلى **دانيه** Danée وهى من أبطال الأساطير اليونانية. (المترجم)

(**) فى منطقة **كورنثوس** الحالية ببلاد **اليونان**. (المترجم)

(***) من أبطال الأساطير اليونانية. (المترجم)

(٤٥) **الدائرة الكبرى** هى ما تبقى من **المحيط الأول**، بعد أن أُبعد إلى محيط العالم المخلوق. ومن ثم فإن الكون كله ملك فرعون، وبصفته صقراً محلقًا فى السماء، فإنه يحيط بنظرة واحدة بأملاكه على اتساعها.

(٤٦) إنه يتخذ بطبيعة الحال هيئة ابن آوى، الحيوان الذى يثير الرعب فى قلوب **السائرين على الرمال** القاطنين فى البلدان الحدودية.

(٤٧) إن اتحاد أَخَوَىْ الأسطورة وهما **حورس وست**، فى شخص فرعون، هو خير ضمان لإقرار السلام فى **مصر** وتأمين التوازن العادل، ومن ثم لن يكون فى وسع النوبيين أن يتمردوا.

(٤٨) اسم **أمنحوتب** الثالث، بصفته ملك **مصر العليا ومصر السفلى** وهو رابع ألقابه.

(٤٩) راجع: C.L. Textes, pp. 66-67.

(٥٠) Urk. V, 1328 (1.13) à 1330

(٥١) **مصر العليا ومصر السفلى**.

(٥٢) كان بدن النجوم من النحاس، الأمر الذى يفسر تألقها الأقل، مقارنة بتألق الشمس وهى من الذهب.

(٥٣) راجع فيما سبق: الفصل الأول، الغزوات والاضطرابات فى **الشرق الأدنى**.

(٥٤) راجع فيما بعد: الباب الأول، الفصل الثانى، معاهدة سلام وتحالفات قائمة على رابطة الزواج.

(٥٥) راجع فيما سبق: الفصل الأول، الفقرات الأخيرة من الدبلوماسية والمعاهدات والمؤامرات الدولية.

(٥٦) لم يتأكد وجود قوافل الجمال فى **جنوب غربى آسيا** إلا فى القرن العاشر قبل الميلاد.

(١) Legrain, in A.S.A.E, 1914, t.14. pp. 29-38.

(٢) Gaballa-Kitchen, in C.E. 1968, no86, pp. 259-263.

(٣) Cruz-Uribe, in J.N.E.S., 1978, no37, pp. 237-244.

(٤) لوح العام ٤٠٠ الحجرى. راجع: Montet, in kêmi, 1931-1933,vol.iv, pp. 191-215.

(٥) أى أنه يتجدد على الدوام، مثل النبات الذى تتجدد حياته بحلول فصل الربيع، ويعود إليه اخضراره.

(٦) KRI I, 1

(٧) KRI I, 2

(٨) راجع فيما بعد: الباب الثانى، الفصل الأول، الملك البطل والكون.

(٩) KRII, 111 (1.4-8)

(١٠) A. Zivie, in B.I.F.A.O., 1972, t.72 , pp.99-114

(١١) A. Piankoff ،in B.I.F.A.O. ،1957 ،t.56 ،pp.189-200

(١٢) C.L. Textes ،p. 231

(١٣) قصة الغريق.

(١٤) راجع: Sethe, in Z.A.S., 1931, vol. 66, p.17
Cerny ،in J.E.A. ،1961 ،vol.47 ،pp. 150-152

(١٥) كانت السنة المصرية تنقسم إلى ثلاثة فصول من أربعة أشهر لكل فصل: فصل **أخت**، أى فصل الفيضان، من ١٩ يوليو إلى ١٩ نوفمبر. وفصل **برت**، أى فصل الإنبات، من ١٩ نوفمبر إلى ١٩ مارس. وفصل **شمو**، أى فصل الجفاف أو الصيف، من ١٩ مارس إلى ١٩ يوليو.

وبشأن النص المذكور: KRI I, 80 (1.10) (لوح **جبل السلسلة** الحجرى)

كان فصل الفيضان على قدر كبير من الأهمية، حتى يقوم المسئولون بصرف الرجال عن أعمال الحقول وتجنيدهم لمستلزمات الحروب.

(١٦) (مدونة **الكرنك**) KRI I, 6-7.

(١٧) (**الكرنك**) KRI I,8 (8-12).

(١٨) KRI I,12.

(١٩) (**الكرنك**) KRI I, 14 (1, 5-6)

(٢٠) (**الكرنك**) KRI I, 9. (1, 6-8)

(٢١) الله خالق العالم.

(٢٢) (**الكرنك**) (1.5-8)، 10، KRI I

(٢٣) تعبير شكلى محض، إبرازًا لاتساع الفتوحات.

(٢٤) "**يكون على مياه**" زيد من الناس، عبارة تعنى فى لغة المراكبية، اصطحابه واللحاق به سياسيا، وأن يكون وفيا له.

(٢٥) راجع فيما سبق الهامش ٤ من الفصل الأول.

(٢٦) (**الكرنك**) 10-11، KRI I

(٢٧) هذه النصوص ليست مجرد متون مصاحبة للنقوش، بل إنها بكل وضوح العنصر الشفهى الذى تم إعلانه إبان عيد النصر.

(٢٨) إشارة إلى المشهد الكلاسيكى فى قائمة الإيقونوغرافيا المصرية، منذ الملك **نعرمر** فنشاهد الملك ممسكًا بحفنة من الأسرى الراكعين من شعرهم وهو يتأهب لتقديمهم إلى **أمون**، بينما يرفع فوق رءوسهم المقمعة الملكية ذات الرأس المصنوع من العاج.

(٢٩)(**الكرنك**) (1.6-7) 11، KRI I

(٣٠) (1.2) 41، KRI I

(٣١) أى منع الرجال من الإنجاب والقضاء على الحياة.

(٣٢) (1.12-14) 18، KRI I

(٣٣) Pezard ،Kadesh ،Paris ،1931 ،p.19 et suiv

(٣٤) KRI I ،19 (1.16)

(٣٥) KRI I ،24 (1.2-5)

(٣٦) Vercoutter ،in R.E. ،1972 ،vol.24 ،p.201 et suiv.

(٣٧) قرب بداية شهر **أبريل**.

(٣٨) إشارة محتملة إلى الحملة ضد المغيرين الليبيين.

(٣٩) KRI I ،101-103

(٤٠) KRI I ،75-76

(٤١) راجع فيما سبق: الفصل الثاني، المعارك والانتصارات فى **أسيا**.

(٤٢) KRI I, 98-99 راجع أيضاً:

Caminos ،The shrines and rock-inscriptions of Ibrim. Londres ،1968 ،pp. 83-90 .

(٤٣) Labib Habachi ،in B.I.F.A.O. ،1973 ،t.73 ،pp. 113-125

(٤٤) راجع فيما بعد: الباب الأول، الفصل الثالث، مناجم الذهب.

(٤٥) راجع فيما سبق: الفصل الأول، الأيديولوجية الإمبراطورية الأولى، الدبلوماسية والمعاهدات والمؤامرات الدولية.

(٤٦) لا "يدير" الإله وجهه شطر **الجنوب**، إذ كان المصريون ينظرون إلى هذه المنطقة باعتبارها امتداداً طبيعياً وسياسياً إذن لبلدهم. إنه أسلوب بلاغى لزيادة التأكيد على هيمنة **مصر** على الأراضى الإفريقية.

(٤٧) إن لحظة اختفاء الشمس هى لحظة مرعبة، فالشمس تهب النور والحياة.

(٤٨) KRI I, 26-27

(٤٩) راجع فيما سبق: الفصل الأول، الدبلوماسية والمعاهدات والمؤامرات الدولية.

(٥٠) إن إعادة استخدام أجزاء من المبانى من قبل خلفاء الملوك الذين قاموا بتشييدها، أمر شائع فى **مصر** لا سيما فى الفترات قليلة الإمكانيات، فكانت وسيلة للبناء بتكاليف أقل.

(٥١) Labib Habachi ،in R.E. ،1969 ،vol.21 ،pp. 27-47

(٥٢) KRI II ،664 (1.7-8)

(٥٣) KRI II ،665 (1.9-10)

(٥٤) KRI II ،666 (1.4-5)

(٥٥) KRI II ،666 (1.11-12)

(٥٦) KRI II ،666 (1.16)

(٥٧) Porter - Moss ،t.vl ،p.25

(٥٨) KRI II, 327 (السطر الأخير) 328 (1.1-7)

(٥٩) KRI II ،641 (1. 15-16)

(٦٠) الاسم الذى أطلقه المصريون على **المحيط الأزلى الأقدم الأصلى** الذى كان يغطى خواء العالم غير المخلوق.

(٦١) فى نظر المصريين، كان **العالم السفلى** يتكون من سماء مماثلة للسماء التى نراها فوق الأرض ولكنها معكوسة.

(٦٢) KRI II ،637 (1.9-14)

(٦٣) Porter - Moss ،t.II ،p.21

(٦٤) KRI II ،356 (1.3-6)

(٦٥) راجع فيما سبق: الفصل الثانى: استعادة الإمبراطورية.

(٦٦) **إعادة الاخضرار** أى جعل التجديد تجديداً أبدياً، على غرار النبات.

(٦٧) **مصر** التى يخصبها الغرين الأسود والصحارى شديدة التوهج تحت الشمس الساطعة.

(٦٨) نص منقوش على الجدار الشمالى من القاعة الأولى من معبد **بيت الوالى** النوبى.
KRI II ،197 (1.11-13)

(٦٩) Gardiner ،in RAD ،vol. xII ،pp.30-32

(٧٠) Contra Apionem ،I ،97
Waddell ،Manetho ،London - Cambridge ،1948 ،pp.102-103

(٧١) KRI VI ،19 (1.13-16)

(٧٢) العاصمة الأولى لإقليم **طيبة**، ومقر **مونتو** وهو إله شمسى محارب، وراعى وحامى الأسرة الحادية عشرة المصرية.

(٧٣) ينظر إلى الجرم السماوى وإلى الملك، باعتبارهما شيئًا واحداً.

(٧٤) **سوتخ** و**عشتروت** إلهان آسيويان، الأول إله محارب والثانية إلهة أم ومحاربة أيضاً. **وواچيت** هى راعية مدينة **بوتو** فى **الدلتا**، كانت الإلهة الحارسة لمملكة **مصر السفلى**، فى عصور ما قبل التاريخ، وحامية النظام الملكى.

(٧٥) نص بردية **أنستازى** رقم٢. .Anastasi II

Gardiner ،Late Egyptian Miscellanies ،pp.12-13.

(٧٦) صورة السلام والازدهار.

وقد تأكد وجود معبد للإلهة **حتحور** فى مكان يقع بين **تانيس** و**بوباستيس**. نص بردية **أنستازى** رقم ٢ :Anastasi III

Gardiner ،Late Egyptian Miscellanies,pp. 21-23.

(٧٧) راجع: Kitchen ،Pharaoh triumphant ،p.122.

(٧٨) KRI II ،269-270

(٧٩) KRI II ،344-345

(٨٠) إله أسيوى، كان يُعبد تحديداً فى الأراضى اللبنانية.

(٨١) C.L. Textes ،pp. 108-109

(٨٢) فى معبد **رعمسيس** الثانى، فى **أبيدوس**. وفى **الكرنك**، على الجدار الخارجى الجنوبى من بهو الأساطين العظيم وعلى الجدار الخارجى من الفناء القائم بين الصرحين التاسع والعاشر. وفى معبد **الأقصر** على الواجهة الخارجية من الصرح الأول وعلى الجدار الخارجى الغربى من الفناء الأول وعلى الجدار الخارجى الجنوبى من هذا الفناء ذاته الذى أقامه **رعمسيس** الثانى. وفى **الرامسيوم**، على الواجهة الداخلية من الصرح الأول، وعلى الجدار الداخلى الشمالى من الفناء الثانى. وفى **أبو سمبل**، على الجدار الشمالى من القاعة الأولى.

(٨٣) برديتا سلييه رقم٣ Sallier III وشيستر بيتى رقم٣ Chester Beatty III.، معابد أبيدوس والكرنك والأقصر والرامسيوم (الصرح الثانى).

(٨٤) إله آسيوى للعواصف.

(٨٥) الرامسيوم هو معبد رعمسيس الثانى الجنائزى، والقائم على البر الغربى لمدينة طيبة.

(٨٦) عن الصلّ، ابنة رع، راجع فيما سبق الهامش ٣٦ من الفصل الأول.

(٨٧) فى مصر إلهة - أسدة، محاربة.

(٨٨) C.L. Textes ،pp. 108-119.

راجع النص الكامل فى: كلير لالويت، نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة، المجلد الأول، ترجمة ماهر جويجاتى، دار الفكر، ١٩٦٦، ص ص ١٤٨-١٥٨.(المترجم)

(٨٩) K.A. Kitchen ،in J.E.A. 1964 ،vol. 50 ،pp 47-50

(٩٠) KRI II ،151 (1. 8-12)

هذا اللوح الحجرى هو الآن، من مقتنيات متحف جامعة بنسلفانيا.

(٩١) KRI II ،164 (1. 6-9)

(٩٢) راجع فيما سبق: الفصل الثانى، استعادة الإمبراطورية.

(٩٣) راجع فيما بعد: الباب الثانى، الفصل الأول، الملك البطل والكون.

(٩٤) C.L. Textes ،pp. 84-89

(*) راجع أيضاً إضافة المترجم للهامش ٨٨ السابق. (المترجم)

(٩٥) المدينة التى تحدَّرت منها العائلة المالكة الحيثية.

(٩٦) E. Edel ،in Z.A. ،1949 ،vol.49 ،pp. 195-212

(٩٧) A. Goetze ،in J.C.S. 1947 ،vol.1 ،p. 244

(٩٨) Meissner ،in Z.D.M.G. ،1918 ،vol. 72 ،p.61

(٩٩) E. Edel ،in J.K.F. ،1953 ،vol.2 ،pp. 264-265

(١٠٠) KRI II ،247-255 et 257

عند ترجمة الأسطر الأخيرة من هذا النص اعتمدنا على النسخة المختصرة، لأنها فى حالة أفضل من الحفظ.

(١٠١) KRI II ،283 (1. 3-13)

(١٠٢) نقلاً عن: Kitcher ،Pharaoh triumphant p.90.

(١٠٣) KRI II ،283 (1. 3-13)

(١٠٤) راجع فيما بعد: الفصل الثالث، من أجل روحانية عالمية.

الفصل الثالث

(١) KRI I ،99 (1.11)

(٢) لوح حجرى فى **بيتوم**(*) KRI II ،404 (1.2-5)

(*) تصحيف يونانى للاسم المصرى القديم **بر أتوم**، أى **بيت أتوم**، **تل المسخوطة** حاليا .(المترجم)

(٣) KRI II ،206 (1. 14-16)

(٤) تلاعب بالألفاظ حول اسم الإله **إمن**. إنه جناس صوتى للفظ يعنى "يكون خفيًا".

(٥) Zandee ،De hymnen,pl. iv (1. 21 et suiv.)

(٦) صفة شائعة من صفات **بتاح**.

(٧) نص **أبو سمبل** KRI II ،265-266

(٨) KRI II ،271-272

(٩) راجع فيما سبق: الفصل الأول، **طيبة وأمون**...

(١٠) KRI II ،445 (1. 11-14)

(١١) KRI II ،431 (1.4)

(١٢) J. Leclant ،in Syria ،1960 ،tome 37 ،pp. 10-11

(١٣) KRI I ،72-73 عن **عشتروت** بشكل عام راجع:

J. Leclant ،in Lexikon I ،pp. 499-510.

(١٤) G. Posener ،in J.N.E.S. ،1945 ،vol.iv ،no4 ،pp. 240-242

(١٥) راجع تحديداً: اللوح الحجرى للعام ٤٠٠.

Montet ،in Kêmi ،supra note 4 ،pp. 194-210.

(١٦) Leibovitch ،in A.S.A.E. ،1944 ،vol.44 ،pp. 163-172

(١٧) المرجع السابق.

(١٨) راجع فيما سبق: الفصل الأول: الحملات والتجارة.

(١٩) KRI II ،353 (1.10)

(٢٠) J.J. Clere ،in Kêmi ،1950 ،vol.11 ،pp. 24-26

معظم هذه الألواح الحجرية، من مقتنيات متحف **بيليزاوس** Pelizaeus Museum في مدينة **هيلدشيم** Hildesheim من مدن **ألمانيا**. (المترجم)

راجع أيضًا:

Labib Habachi ،Features of the deification of Ramesses II. - viii - 58 pp. ،fig. 8 pll.

(٢١) راجع فيما بعد: الفصل الثالث: الأفارقة.

(٢٢) **الكوم الأحمر** حاليًا.

(٢٣) الحجر الذى صنع منه التمثالان العملاقان المعروفان اصطلاحًا بتمثالَىْ ممنون Memnon.

(٢٤) KRI II ،361 (1. 2-8)

راجع أيضًا: Hamada ،in A.S.A.E. ،1938 ،vol.38 ،pp. 217-230

(٢٥) **أسوان**: لوح العام التاسع الحجرى. KRI I, 74 (1.11)

(٢٦) نص تكريسى لأسطون عثر عليه فى **تانيس**. KRI II, 434 (1.8)

(٢٧) **الكرنك**: نص تكريسى على سور المعبد. KRI II, 583 (1. 6-7)

(٢٨) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: من أجل روحانية عالمية.

(٢٩) إله الأرض.

(٣٠) **حورسى خايت**، كيان إلهى للخصوبة، معروف معرفة ضئيلة.

(٣١) (نص **أبوسمبل**) KRI II ،266 (1.12) - 269 (1.9)

(٣٢) KRI II ،617-621

(٣٣) G. Jondet, Les Ports Submergés de l'ancienne île de Pharos ،in Mémoires de de l'Institut d'Egypte ،1916 ،vol. Ix ،pp. 1-107.

(٣٤) A. Piankoff ،in A.S.A.E. ،1949 ،vol. 49 ،p.51

(٣٥) Iliade lx ،381; odyssée xlv,257

(٣٦) Iliade I ،423; xxIII ،206

Odyssée I ،23; lv ،84.

(٣٧) Odyssée lv,125; 229-231

(٣٨) Odyssée III ،300-305

(٣٩) Odyssée IV ،125.

(٤٠) Odyssée xlv ،285

(٤١) KRI I ،65 (1.15) - 66 (1.12)

النص B، مدونة المعبد.

(٤٢) (النص A)، KRI I, (1.7-9)

(٤٣) (النص B)، KRI I, 68 (1.1-4)

(٤٤) (النص C)، KRI I, 70 (1.3-4)

(٤٥) KRI II ،353-357

(٤٦) Iliade lx ،382-384

(٤٧) كانت **طيبة** موجودة منذ تلك اللحظة، فى الخواء اللاشكلى السابق على عملية الخلق.

(٤٨) Zandee ،De hymnen,.pl.I (1.13-16) et pl. II (1. 10-11)

(٤٩) C.L. Textes ،p. 254.

(٥٠) راجع فيما سبق: الفصل الثانى: ولى العهد، **رعمسيس**: المشاركة فى الحكم.

(٥١) KRI II ،850 (1. 8-12)

(٥٢) KRI II ،852 (1. 16).

(٥٣) Goedicke ،Nofretari ،fig. 57

(٥٤) KRI II ،851 (1. 11-12).

(٥٥) KRI II ،854 (1. 5-7)

Drioton ،in A.S.A.E. ،1942 ،vol. 41 ،p.29.

مدونة منحوتة على تمثال يصور **إيزيس - نوفرت**، مع اثنين من أبنائها (**متحف اللوفر**).

(٥٦) راجع فيما بعد: الفقرات الأخيرة من «الأعياد الملكية - أعياد اليوبيل»، من الفصل الثالث من الباب الأول.

(٥٧) راجع فيما سبق: الفصل الثاني: ولي العهد **رعمسيس**: المشاركة في الحكم.

(٥٨) كاهن من أعلى الرتب، يقوم بدور بارز في شعيرة فتح الفم والمراسم الجنائزية.

(٥٩) KRI II ،198 (1.14)

(٦٠) مكان دفن العجول **أبيس**، قرب **منف**، وأطلق عليه الإغريق اسم **السيرابيوم**، تكريماً للإله الجديد **سيرابيس** Serapis.

(٦١) Gomaa ،Chaemwese ،p.18.

(٦٢) المرجع نفسه: هاتان الصفتان الأخيرتان تربط الأمير بعرش **مصر** ارتباطًا وثيقًا.

(٦٣) حرفيًا: «**عمود - أمه**». (إشارة إلى **حورس**).

(٦٤) KRI II ،878 (1. 3-16) et 879 (1.1).

(٦٥) Mariette ،Serapeum ،III ،p.15-16.

(٦٦) Poter-Moss ،III ،p.240 (Addendum à la p.66).

(٦٧) KRI II ،875 (1.16) et 876 (1.1).

(٦٨) KRI II ،874 (1. 2-13).

(٦٩) Christophe ،in.S.A.E. ،1951 ،vol. 51 ،p.337. (مدونة **تانيس**).

(٧٠) راجع فيما سبق: الفصل الأول: الدبلوماسية والمعاهدات...

(٧١) إن تقديم القربان **ماعت**، ويعني أن الاقتراب بتمثال صغير لإلهة الحقيقة - العدالة، من وجه كيان إلهي، من أهم فقرات هذه الشعيرة.

(٧٢) Christophe ،op.cit. ،p.346

أعيد نسخ هذه المدونة على عمود الظهر لتمثال جالس **لسنوسرت** الأول، عثر عليه في **تانيس**.

(٧٣) Malinine - Vercoutter ،Catalogue des stèles du Serapeum ،p.14.

(٧٤) KRI II ،906 (1. 15-16).

(٧٥) لقب يمنح للنبلاء والأعيان والمبجلين.

(٧٦) Ostracon Gardiner 28 = Gardiner ،Late Egyptian Miscellanies ،pp. 37-38.

Capart in CE ،1942 ،vol.xvi ،no32 ،pp. 192-193.

(٧٧) الذهب هو مادة لحم الآلهة ولا سيما الشمس. إنه يمثِّل الفرعون ابن رع. أما النحاس الأقل بريقًا ومادة النجوم، فإنه يمثِّل الوزير الذى أصبح منذ حياته الأرضية مشاركًا فى الطبيعة الكونية لسيده.

(٧٨) C.L. Textes ،pp. 182-183.

(٧٩) استنادًا إلى نص التعليمات إلى رخ مى رع.

(٨٠) KRI I ،293 (1. 15-16).

(٨١) KRI I ،297 (1. 3-4)

(٨٢) تحوت المتسيِّد على الثامون الإلهى الذى خلق العالم، على حدّ قول لاهوت هرموبوليس.

(٨٣) ثعبان أسطورى ضخم يلتف حول العالم المخلوق، فى أغلب الأحوال. إن وجوده يعطى سيتى السيطرة على العالم.

(٨٤) KRI I ،299 (1. 3-11).

(٨٥) S.Sauneron ،in B.I.F.A.O. ،1956 ،tome 55 ،p.150.

(٨٦) KRI I III 15 (1.15).

(٨٧) Hamza ،in A.S.A.E. ،1930 ،vol. 30 ،p.35.

Habachi ،in A.S.A.E. ،1954 ،vol. 52 ،p.489. et suiv.

(٨٨) KRI III ،53 (1. 14-15).

(٨٩) KRI III ،54 (1. 12-15) et 55 (1.1)

راجع أيضًا:

Mohamed Moursi ،Hohenpriester des Sonnengottes ،pp.68-72.

(٩٠) KRI III ،54 (1. 1-16).

(٩١) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: من أجل روحانية عالمية.

(٩٢) KRI III ،53 (1. 4-6)

(٩٣) A. Badawi ،in A.S.A.E. 1944 ،vol. 44 ،p.181-206.

Hamada ،in A.S.A.E. ،1935 ،vol. 35 ،pp. 122-131.

(٩٤) KRI III ،164 (1. 15-16).

(٩٥) Boeser ،Berschreibung Leiden ،vol. iv ،pll. 26-29. et pp. 7-8.

(٩٦) اسم جبانة منف.

(٩٧) KRI III ،174 (1. 1-2 et 15-16); 175 (1. 13-15); 176 (1. 11-13).

(٩٨) (الألقاب الرئيسية مترجمة) .KRI I ،352 (1. 10-12)

(٩٩) KRI III ،140 et suiv.

(١٠٠) Mohamed Effendi Chaban ،in A.S.A.E. ،1961 ،vol.2 ،pp. 137-140.

(١٠١) Daressy ،in A.S.A.E. ،1918 ،vol. 18 ،pp. 282-283.

(١٠٢) KRI III,143 (1. 7-8).

(١٠٣) C.L. Textes ،p. 115.

(١٠٤) H. Wall-Gordon, in M.D.A.I.K., 1958, vol.16, pp. 168-175.

(١٠٥) KRI III, 498 (1. 10-15)

(١٠٦) Reisner, in J.E.A., 1920, vol.6, pp. 45-47 (وإجمالاً pp. 37-55) KRI III, 272-274

(١٠٧) KRI III ،68 (1. 14-15).

(١٠٨) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: الوزراء في السلطة.

(١٠٩) Gavthier ،in A.S.A.E. ،1936 ،vol. 36 ،pp.49-71.

(١١٠) KRI III ،92-94.

(١١١) إننا نعرف العديد من الأمثلة الأخرى عن تكريم أولاد العائلات الصديقة للعاهل الملكي. نذكر على سبيل المثال **إيخرنوفرت**، حامل الختم والمشرف على أسرار **أوزيريس** في **أبيدوس**، في عهد **سنوسرت** الثالث.

(راجع: C.L. Textes ،pp. 173-175)

(١١٢) Barsanti- Gauthier ،in A.S.A.E. ،1911 ،vol. 11 ،pp. 77-81.

(١١٣) Yoyotte ،in A.S.A.E. ،1951 ،vol. 6 ،pp. 13-14.

(١١٤) L.Habachi ،Sixteen Studies ،pp. 122-125.

(١١٥) Derchain ،El Kab ،pp. 65-70.

(١١٦) لم يصلنا عرض مترابط عن العيد سِد. والأقرب إلى الصواب، أن هذا العيد كان يتكون من تجميع، مُركَّب من شعائر متنوعة، تعود أصلاً إلى ترتيبات طقسية مختلفة. فالوصف الوارد هنا يأخذ بعين الاعتبار عناصر الاحتفال الرئيسية، المستمدة من مختلف المصادر، فلا يكشف كل منها، في أغلب الأحوال، سوى عن بعض جوانب العيد. ونذكر على وجه التحديد المشاهد المنحوتة في المعبد الجنائزي في **أبو صير** للفرعون **ني أوسر رع**، من الأسرة الخامسة، ومشاهد المعبد الجنائزي للفرعون **سيتي** الأول في **أبيدوس**، وأيضًا مشاهد قصر أعياد الملك **أوسركون** الثاني في **بوباستيس**، وهو من الأسرة الثانية والعشرين.

راجع أيضًا: Eric Uphill ،in J.N.E.S.

(١١٧) راجع فيما سبق: الباب الأول، الفصل الأول، الهامش الخامس.

(١١٨) Edsmann ،Ignis divinus - Lund ،1949.

(١١٩) KRI II ،377 (1. 14-15)

(١٢٠) KRI II ،386 (1. 1-13).

(١٢١) Pap. Harris ،49 ،10-12.

(١٢٢) KRI II ،384 (1. 15) et 385 (1. 1-11).

(١٢٣) KRI II ،378 (1. 3-14).

(١٢٤) لوح حجري ملكي: KRI II ،380 (1. 12-13).

لوح حجري خاص بالوزير **خعي**: KRI II ،391 (1. 14-16)

(١٢٥) كُرِّس فيما بعد فصل **للرعامسة**، بصفتهم ملوكًا بنائين: الباب الثاني، الفصل الثاني.

(١٢٦) **باستت** هي إلهة – قطة، وشكل من أشكال **سخمت** الإلهة – الأسدة، باعتبارها زوجة

بتاح إله **منف**.

(١٢٧) KRI I ،42-43.

(١٢٨) اسم إقليم **أبيدوس**.

(١٢٩) كما سبق أن لاحظنا، فإن تقديم تمثال **ماعت** قربانًا، يشكل لحظة من أهم لحظات الخدمة اليومية. راجع فيما سبق: الفصل الثالث، ذرية كثيرة العدد، والهامش ٦٩. وراجع فيما بعد، من هذا الفصل، ترتيبات الطقس الدينى.

(١٣٠) اسم قارب **أوزيريس** المقدس.

(١٣١) KRI I ،47 (1.2 et suiv) - 50 (1. 1-2).

راجع أيضًا: Griffith ،in J.E.A. ،1927 ،vol.13 ،pp. 193-207

(١٣٢) KRI I ،58 (1. 14-15).

(١٣٣) Moret ،Rituel ،p.69.

(١٣٤) أقانيم **أمون -رع** (؟).

(١٣٥) Moret ،Rituel ،pp. 141-142.

(١٣٦) راجع فيما بعد: الباب الأول، الفصل الثالث، الأعياد المقدسة.

(١٣٧) إله، راعى مدينة **ثنى** ذاتها.

(١٣٨) جميع الإضافات التى أدخلت على هذا النص الذى عانى من بعض التشويهات، منقولة عن: Lefebvre, Grands prêtres, pp. 119-122.

(١٣٩) أعلى مجلس إدارة فى الإمبراطورية، وكان يضم تحديدًا رؤساء مختلف البيوتات.

(١٤٠) ثلاثة أفعال تقدم فى المعتاد إكرامًا للإله.

(١٤١) KRI III ،2830285.

(١٤٢) **سيتى** الأول.

(١٤٣) معبد **الأقصر** هو المقصود.

(١٤٤) الذى شيده أيضًا **أمنحوتب** الثالث فى **الأقصر**.

(١٤٥) C.L. Textes ،pp. 185-186.

(١٤٦) Dunhan ،in J.E.A. ،1935 ،vol. ،21 ،pp. 150-151.

(١٤٧) KRI III ،200 (1.16) - 201 (1.1).

(١٤٨) عنصر مُجنَّح من عناصر الإنسان، ويصور فى هيئة طائر برأس آدمى تنتهى رجلاه بيدين، كان همزة الوصل بين الجبانة وعالم الأحياء.

(١٤٩) KRI III ،333 (1.16) - 334 (1.1).

(١٥٠) KRI III ،359 (1.15-16)- 360 (1. 1-4).

(١٥١) L.Habachi ،in R.E. ،1969 ،vol. 21 ،p.42 et suiv.

(١٥٢) A.H. Zayed ،in R.E. ،1964 ،vol. 16 ،pp. 193-208.

(١٥٣) KRI III ،366 (1. 8-11).

(١٥٤) J. Berlandini - Grenier,in B.I.F.A.O. 1974 ،tome 74 ،pp. 1-19.

(١٥٥) KRI I ،207 (1.3)

(١٥٦) J. Leclant ،in M.D.A.I.K. ،1956 ،vol. 14 ،pp. 131-145.

(١٥٧) KRI II ،569-570.

(١٥٨) Gauthier ،Fêtes de Min.

(١٥٩) حرفيا: «اللازوردى».

(١٦٠) KRI II ،574 (1. 1-11).

(١٦١) Daressy ،in A.S.A.E. ،1927 ،vol. 27 ،pp. 178-17.

(١٦٢) نقلاً عن: Kitchen ،Pharaoh triumphant ،pp. 196-197

(١٦٣) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: من أجل روحانية عالمية.

(١٦٤) KRI II ،361 (1. 11-15) - 362 (1.1-9).

(١٦٥) Cerny ،in A.S.A.E. ،1927 ،vol. 27 ،p.183 et suiv.

(١٦٦) Bruyère ،Rapport de fouilles 1934-1935,pp. 15-16.

(١٦٧) Cerny, A community of workmen at Thebes in the Ramesside period, Le Caire, I.F.A.O., 1973; vi + 393 pp.

(١) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: ذرية كثيرة العدد.

(٢) فى أحوال كثيرة، نجد أن النصوص المصرية تشبه الدولة بالسفينة.

(٣) بطبيعة الحال لم «يشيِّد» **من إن بتاح** مدينة **پر-رعمسيس** ولكنه يقيم فيها. ومن الواضح جداً، أنه ينظر إلى هذه المدينة باعتبارها عاصمة الإمبراطورية، عند الحدود الفاصلة بين **مصر** والأراضى **الأسيوية**.

(٤) Pap. Anastasi III ،7 ،2-7 ،10.

Gardiner ،Late Egyptian Miscellanies ،pp. 28-29.

(٥) Wainwright ،in J.E.A. ،1960 ،vol.46 ،pp. 24-28.

(٦) شعب سودانى.

(٧) KRI Iv ،1 (1. 10-16) -2 (1. 1-7).

(٨) الأسماء الواردة بين معقوفين [...] هى أسماء شعوب **اليونان وأسيا الصغرى**، منسوخة كما كان ينطقها المصريون.

(٩) KRI Iv ،3 (1. 15-16) -4 (1. 1-4).

(١٠) Bakry ،in Aegyptus ،1973 ،Anno LIII ،p.11.

(١١) KRI Iv, 4-5 (ابتداءً من السطر ٤)

(١٢) KRI Iv ،5 (1. 8-9)

(١٣) KRI Iv ،5 ،(1. 10-13)

(١٤) KRI Iv ،6 (1. 1-15) -7

(١٥) KRI Iv, 7 (ابتداءً من السطر ١٠)

(١٦) عن هذا الشعب راجع فيما سبق: الفصل الثانى: فقرة: أخطار جديدة ناحية الغرب.

(١٧) KRI Iv ،8-9

(١٨) KRI Iv, 9 (ابتداءً من السطر ١٢) -11 (1.12)

(١٩) كلمة كنعانية تعبر عن التحية، وتدل هنا على الرغبة فى السلام.

(٢٠) C.L. Textes ،PP. 123-124

(٢١) KRI Iv ،24 (1. 5-6).

(٢٢) KRI Iv ،82 (1.8).

(٢٣) KRI Iv ،26 (1. 4-5).

(٢٤) KRI Iv ،26 (1. 13-14).

(٢٥) نقلاً عن: Lefebvre ،Grands Prêtres ،pp. 149-150

(٢٦) KRI Iv ،133 (1.3)

(٢٧) Lefebvre, Grands Prêtres, pp. 151-152. KRI Iv, 288 (1.10) - 289 (1.2).

(٢٨) مدخل جبانة **منف**، كان يوجد فيه مكان مخصص لإقامة الشعائر للإله **أوزيريس** بالارتباط مع **بتاح وسوكاريس**.

(٢٩) KRI Iv ،60 (1. 5-7)

(٣٠) A.H. Zayed ،in R.E. ،1964 ،vol. 16 ،pp. 204-207.

(٣١) H. Kees ،in Z.A.S. ،1937 ،vol. 73 ،pp. 77-90.

(٣٢) L. Habachi ،in M.D.A.I.K. ،1956 ،vol. 14 ،pp. 53-67.

(٣٣) KRI Iv ،92 (1. 7-9).

(٣٤) L. Habachi ،in M.D.A.I.K. ،1978 ،vol. 34 ،pp. 57-67.

(٣٥) K.A. Kitchen ،Pharaoh triumphant ،p.216.

(٣٦) KRI Iv ،270 (1. 7-10).

(٣٧) أى «ضمان الاستمرارية ضماناً قاطعاً».

(٣٨) إلهة الحصاد والحقول الخصبة.

(٣٩) KRI Iv ،265 (1. 2-7).

(٤٠) **حورس بن إيزيس وأوزيريس**، وقد قامت أمه بالسهر على تربيته فى مستنقعات **الدلتا** هرباً من انتقام عمه **ست**.

(٤١) KRI Iv ،297 (1. 6-7).

(٤٢) Gardiner ،in J.E.A. ،1958 ،vol. 44 ،pp. 12-22.

J. von Beckerath ،in J.E.A. ،1962 ،vol. 48 ،pp. 70-74.

C. Aldered ،in J.E.A. ،1963 ،vol. 49 ،pp. 41-48.

(٤٣) Nelson ،Medinet Habu ،tome lv ،pl. 203-209.

(٤٤) راجع فيما بعد: الباب الأول، الفصل الرابع، شخصيات سياسية ودينية، المقطع الأخير.

(٤٥) Maspero ،Tomb of Siptah. London ،1908 ،pp. xx-xxII.

KRI lv ،362 ،(1. 8-10).

(٤٦) Maspero ،ibid.

(٤٧) Maspero ،op. cit.

(٤٨) اسم الجبل الغربي.

(٤٩) KRI lv ،378 (1. 8-9).

(٥٠) KRI lv ،381 (1.10).

(٥١) أو «*هذا الذى جعل من نفسه* (ملكًا) *سوريًا*». ربما كانت إشارة إلى حامل الأختام، **باى**.

(٥٢) هيئة الشمس عند الفجر.

(٥٣) Pap. Harris I, 75, 1-10 et 76, 1=

Erichsen, Pap. Harris, pp. 91 et 92.

(حتى السطر الخامس).

(٥٤) تلاعب بالصور يخلط صورة الصقر، بوصفه طائرًا من الكواسر يطارد الفرافير، بصورة **الملك – الحورس** الذى يلاحق أعداءه.

(٥٥) ربما كان **باى** قد «*اشترى*» مساهمة المصريين، بل قسمًا من الجيش (؟).

(٥٦) وقد نذهب إلى الظن بوجود غزو أجنبى.

(٥٧) KRI lv ،671-672. Bidoli ،in M.D.A.I.K. ،1972 ،vol. 28 ،pp. 193-200.

R. Drenkhan ،Die Elephantine - Stele. Wiesbaden ،Harrassowitz ،1980 ،X+ 85 pp.

(٥٨) Erichsen ،op. cit. ،p.92 (1. 5-7). Pap. Harris I ،76 ،1-2.

(٥٩) Pap. Harris I ،76, 2-4 = ibid. ،p.92 (1. 8-13).

(٦٠) أهى إشارة إلى حامل الأختام **باى**؟

(٦١) السيدان هما **حورس وست** اللذان يجسدهما **الفرعون**. والسيدتان هما **نخبت وواجت**.

(٦٢) KRI v ،76 (1. 3-8).

(٦٣) KRI v ،217 (1. 10-12).

(٦٤) KRI v ،9 (1. 7-8).

(٦٥) KRI v ،11 (1. 2-5).

(٦٦) KRI v ،12 (1. 2-8)

(٦٧) KRI v ،14 (1. 2-6).

(٦٨) KRI v ،23 (1. 6-11).

(٦٩) KRI v ،22 (1. 14-16).

(٧٠) KRI v ،15 (1. 12-13).

(٧١) تلك هى صورة الوحش الذى كُسرت فقراته لمنعه من الإيذاء، إلى الأبد.

(٧٢) KRI v ،23 (1. 12-13) - 24 (1. 2 et 6-7).

(٧٣) KRI v ،14 (1. 15-16) - 15 (1. 1-4).

(٧٤) تسمية تقليدية منذ الأسرة الثامنة عشرة، للدلالة على أراضى **الجنوب** (**النوبة والسودان**)، باعتبارها امتداداً طبيعياً **لمصر** وبلدان **آسيا**.

(٧٥) KRI v ،15 (1. 6-11).

(٧٦) KRI v ،23 (1. 1-3).

(٧٧) KRI v ،22 (1. 2-4).

(٧٨) (78) KRI v ،21 (1. 13-15) -22 (1.1).

(٧٩) (79) KRI v ،25 (1. 4-11).

(٨٠) راجع فيما سبق فقرة (العام الخامس ...) من هذا الفصل.

وفيما بعد فقرة (العام الثامن ...) من هذا الفصل.

(٨١) KRI v ،26 (1. -7).

(٨٢) N.K. Sandars ،Sea peoples ،p.161.

(٨٣) KRI v ،39 (1. 15-16) -40 (1. 1-6).

(٨٤) KRI v ،40 (1. 6-14).

(٨٥) KRI v ،28 (1. 9-11).

(٨٦) KRI v ،29 (1. 3-5).

(٨٧) KRI v ،29 (1. 7-8).

(٨٨) KRI v ،32 (1. 6-13).

(٨٩) KRI v ،33 (1. 3-9).

(٩٠) KRI v ،34-35.

(٩١) KRI v ،40 (1. 15-16) -41 (1. -6).

(٩٢) KRI v ،41 (1. 8-15) -42 (1. 4-12).

(٩٣) KRI v ،60 (1. 9-11).

(٩٤) KRI v ،43 (1. 9-10)

(٩٥) KRI v ،65 (1. 3-5).

(٩٦) KRI v ،61 (1. 11-15) -62 (1. 1-2 et 14-15) -63 (1. 1-3).

(٩٧) KRI v ،70 (1. 4-11)

(٩٨) KRI v ،47 (1. 12-15).

(٩٩) راجع فيا سبق الفصل الرابع، العام الثامن، شعوب البحر تشن هجوماً من الشمال.

(١٠٠) KRI v ،85 (1. 9-10).

(١٠١) KRI v ،81 (1. 3-5).

(١٠٢) KRI v ،80 (1. 6-8).

(١٠٣) KRI v ،73 (1. 3-12).

(١٠٤) راجع فيما سبق: الفصل الأول، فقرة الأيديولوجية الإمبراطورية الأولى، وفقرة الدبلوماسية والمعاهدات والمؤامرات الدولية.

(١٠٥) KRI v، 92 (1.16) -93 (1. 1-15).

(١٠٦) اسم المحيط الأولى.

(١٠٧) KRI v، 97 (1. 2-16) -98 (1. 1-2).

(١٠٨) KRI v، 106 (1. 7-8).

(١٠٩) KRI v، 108 (1.16) - 109 (1. 1-4).

(١١٠) Erichsen، op.cit.، p.93 (1. 1-5). Pap. Harris، 76، 7-9.

(١١١) راجع فيما سبق: الفصل الثالث، كبار الأحبار وكهنة آخرون، مقبرة پانحسى.

(١١٢) Erichsen، p.95 (1. 16-18) et p.96 (1. 1-14). Pap. Harris، 78,8-9 et 79,1-3.s

(١١٣) Erichsen، p. 94 (1. 9-18) et 95 (1. 1-6). Pap. Harris، 77، 8 et 78، 1.

(١١٤) Gardiner، in Z.A.S.، 1911، t.48، p. 47-51.

(١١٥) Christophe، in A.S.A.E.، 1958، vol. 55، p.11.

(١١٦) Barguet، in B.I.F.A.O.، 1952، vol.51، p.99-100.

(١١٧) Erichsen، p.66 (1. 3-5). Pap. Harris، 57، 7-8.

(١١٨) Christophe، op. cit.، p.9 (KRI V، 340).

(١١٩) Nims in J.N.E.S.، 1950، vol.9، pp. 256-258. KRI V، 331-335.

(١٢٠) Edwards، in J.N.E.S.، 1955، vol. 14، pp.49-51.

اللوح الحجرى موجود حاليًا ضمن مجموعة وينشستر كوليج Winchester College.

مدونة مختصرة فى KRI V، 668 (1.16).

(١٢١) KRI V, 227 (1.7-9). راجع: Kitchen, in B.I.F.A.O., 1973, vol. 73, pp. 193-200

(١٢٢) Schulman، in J.N.E.S.، 1963، vol. 22، pp. 177-184.

نص المدونة: KRI V، 249

(١٢٣) Nelson، in J.A.O.S.، 1936، vol. 56، pp. 232-241.

النصوص: KRI V، 234-237

(١٢٤) الدبن وحدة وزن تعادل ٩٠ جرامًا.

(١٢٥) G. Lefebvre، Grands Prêtres، pp. 167-169.

(١٢٦) KRI V ،117 (1. 9-16) 118 (1. 1-2).

(١٢٧) KRI V ،119-184.

(١٢٨) KRI V ،308 (1. 2-7).

(١٢٩) راجع فيما بعد: الفقرات الأخيرة من هذا الفصل، نهب المقابر الملكية وسرقتها.

(١٣٠) عن مقبرة ثانفر والنصوص المذكورة راجع:

K.C. Seele,The Tomb of Tjanefer at Thèbes ،- Chicago ،1959.

(١٣١) KRI V ،425 (1. 5-10).

(١٣٢) راجع فيما بعد: الفقرات الأخيرة من هذا الفصل، الصعوبات والمؤامرات عند نهاية هذا العهد.

(١٣٣) راجع تحديداً:

Cerny ،in J.E.A. ،1958 ،vol. 44 ،pp. 31-37.

J. Monnet ،in B.I.F.A.O. ،1965 ،vol. 63 ،pp. 209-236.

(١٣٤) توصل يويوت J.Yoyotte إلى التعرف على مقبرة رعمسيس. راجع:

J.E.A. ،1958 ،vol. 44 ،pp. 26-30.

تم ذلك، فى إطار أعمال التنقيب فى مقابر الأمراء، بمعرفة مركز الدراسات والتسجيل لمصر القديمة. (القاهرة). CEDAE(*).

(*) والمعروف اختصاراً بمركز تسجيل الآثار. (المترجم)

(١٣٥) Wenter ،in J.N.E.S. ،1961 ،vol. 20 ،pp. 252-257 ،et pll.

(١٣٦) Schott ،Wall scenes from mortuary chapel of the mayor Paser at Medinet Habu. Chicago, The University of Chicago Press, 1957, xII+22 pp.fig.

(١٣٧) KRI V ،385 (1.16) -386 (1. 1-3).

(١٣٨) KRI V ،416 (1. 6-8).

راجع: Hamada ،in A.S.A.E. ،1947 ،vol. 47 ،pp. 15-21

Gardiner ،in J.E.A. ،1948 ،vol. 34 ،pp. 19-22.

(١٣٩) إشارة إلى العمل الخلاق الذى يقوم به پتاح راعى الحرفيين وحاميهم.

(١٤٠) KRI V ،419 (1.16) -420 (1. 1-5)

(١٤١) Pap. Harris ،59 ،11-60 ،1. Erichsen ،69 (1. 14-18).

(١٤٢) لقد صنَّف ريفو Rifaud هذه الوثيقة ضمن مدونات النوبة، فى مؤلفه:
Voyages en Egypte ،Nubie et lieux circonvoisins ،depuis 1805 jusqu'à 1827 ،pl.28.
وحديثًا كرس لها سونرون S.Sauneron ويويوت J.yoyotte
دراسة في: B.I.F.A.O. ،1952 ،pp. 107

(١٤٣) راجع فيما سبق: الفصل الرابع، خدمة الآلهة، رجال الدين.

(١٤٤) راجع: Posener ،in R.E. ،1946 ،vol.5 ،p.53.

(١٤٥) Erichsen ،op. cit. ،p.64 (1. 1-13). Pap. Harris ،56b ،1-10.

(١٤٦) Erichsen ،ibid. p.47 (1. 1-17). Pap. Harris ،42 ،1-10.

(١٤٧) ibid. ،66b ،1-10. Erichsen ،ibid. ،p.79 (1. 1-15).

(١٤٨) ibid. ،79 ،4-12 ،Erichsen ،ibid. ،p.96 (1. 16-18) et p.97 (1. 1-13).

(١٤٩) راجع: Cerrny ،in J.E.A.,1948 ،vol. 44 ،pp. 31-37

(١٥٠) راجع فيما سبق: الفصل الرابع، بلاط رعمسيس الثالث.

(١٥١) KRI VI ،53 (1. 15-16) -54 (1. 1-6)

(١٥٢) KRI VI ،54 (1. 13-15).

(١٥٣) KRI VI ،18 (1. 1-2) et 19 (1. 2-19)

(١٥٤) Helck ،in c.E. ،1963 ،vol. 38 ،p.39.

(١٥٥) C.L. Textes ،p.80.

(١٥٦) راجع فيما سبق: الفصل الثالث، الفقرات الأخيرة من "أولاً: فكر الإمبراطورية".

(١٥٧) Goyon ،Nouvelles inscriptions ،p.104. KRI VI ،1 (1.9-11).

(١٥٨) KRI VI ،86 (1. 1-3).

(١٥٩) KRI VI ،27 (1. 14-15).

(١٦٠) KRI VI ،278 (1. 9 et 11-12).

(١٦١) KRI VI ،45 (1. 11-16) -46 (1. 1-2).

(١٦٢) Nims ،in J.E.A. ،1952 ،vol. 38 ،pp. 34-35.

(١٦٣) G. Lefebvre ،Grands Prêtres ،p.187.

S. Sauneron ،in B.I.F.A.O. ،1966 ،vol. 64 ،p.11-17.

(١٦٤) KRI VI ،455 (1. 10-12).

(١٦٥) KRI VI ،455 (1. 14-16) -456 (1. 1-13).

(١٦٦) G. Lefebvre ،Grands Prêtres ،p.195.

(١٦٧) G. Lefebvre ،ibid. ،pp. 198-199.

(١٦٨) S. Sauneron ،in R.E. ،1950 ،vol.7 ،pp. 61-62.

(١٦٩) عن مختلف المصادر التى تعالج هذه المشاكل يمكن الرجوع إلى:

T.E.Peet ،The great tomb-robberies of the xxth Egyptian dynasty. Oxford ،1930 ،xII + 188 p.

(١٧٠) S. Sauneron et J.Yoyotte ،in R.E. ،1950 ،vol.7 ،pp. 67-70.

الباب الثانى

الفصل الأول

(١) KRI V ،78 (1.16) -79 (1. 1-7).

مراجع النصوص التى تضم عدداً من الأسطر مذكورة، ولكن لم تذكر مراجع الاقتباسات القصيرة، تجنبًا لإطالة الهوامش وإثقالها على القارئ. ولكننا نضع هذه المراجع تحت تصرف من يريد التعرف عليها.

(٢) URK. Iv ،1541.

(٣) KRI V ،49 (1. 2-3).

(٤) KRI V ،38 (1. 14-15) -39 (1.1).

(٥) URK. Iv ،160 (1. 5-8).

(٦) URK. Iv ،2116 (1. 7-8).

(٧) KRI II ،515 (1. 5-6).

(٨) KRI II ،307 (1. 9 et 11).

(٩) KRI II ،235 (1. 9-11).

(١٠) KRI V ،42 (1. 6-7).

(١١) KRI7. ،40 (1. 14-15).

(١٢) KRI II ،151 (1. 6-7).

(١٣) KRI IV ،4 (1. 5-7).

(١٤) C. Lalouette ،in B.I.F.A.O. ،1979 ،vol. 79 ،pp. 333-353.

(١٥) KRI II ،528 (1. 1-3).

(١٦) KRI V ،26 (1. 10-11).

(١٧) KRI V ،29 (1. 15-16).

(١٨) KRI V ،39 (1. 12-14).

(١٩) KRI II ،238 (1.14) -239 (1.1).

(٢٠) KRI II ،320 (1. 12-14).

(٢١) KRI II ،354 (1. 4-5).

(٢٢) KRI IV ،2113 (1. 13-15).

(٢٣) E. Drioton ،in A.S.A.E. ،1939 ،vol. 39 ،pp. 57-89.

(٢٤) حديثًا عثر **جويون** G.Goyon على بردية فى **متحف بروكلن** Brooklyn، دونت عليها تعاويذ مماثلة للتعاويذ المنحوتة على هذا التمثال.

راجع: J.E.A. ،1971 ،vol 57 ،pp. 154-157.

(٢٥) KRI II ،354 (1. 8-9).

(٢٦) KRI V ،25 (1.13).

(٢٧) KRI IV ،36 (1.9 et 13).

(٢٨) P. Grimal ،in Dictionnaire de la mythologie ،p.169.

(٢٩) KRI V ،24 (1. 11-12).

(٣٠) KRI I ،17 (1. 15-16) -18 (1.1).

(٣١) KRI II ،318 (1.13 et 15) -319 (1.1 ،3 et 5).

(٣٢) KRI V ،26 (1. 2-4).

(٣٣) KRI V ،23 (1. 4-5).

(٣٤) KRI V ،22 (1. 6-11).

(٣٥) KRI IV ،13 (1. 10 ،12) -14.(1. 1,3).

(٣٦) KRI II ،236 (1. 1-2).

(٣٧) KRI II,237 (1. 11 et 14).

(٣٨) KRI II ،715 (1.14).

(٣٩) KRI V ،47 (1. 2-4).

(٤٠) KRI II ،234 (1.13 et 15).

(٤١) KRI IV ،69 (1. 4-8).

(٤٢) KRI V ،38 (1. 10-13).

(٤٣) KRI V ،112 (1. 9-10).

(٤٤) KRI II ،354 (1.6 et 8).

(٤٥) KRI I ،22 (1. 4-6).

(٤٦) KRI V ،240 (1. 12-13).

(٤٧) KRI I ،23 (1. 9-10).

(٤٨) KRI II ،86 (1.8) à 87 (1.3).

(٤٩) KRI II ،319 (1.14 et 16) -320 (1.2 et 4).

(٥٠) KRI II ،173 (1. 13-14).

(٥١) KRI II ،151 (1.11).

(٥٢) KRI V ،17 (1. 7-10).

(٥٣) KRI V ،26 (1. 4-8).

(٥٤) KRI V ،60 (1. 3-5).

(٥٥) KRI V ،13 (1. 2-4).

(٥٦) KRI V ،59 (1.14) -60 (1.1).

(٥٧) KRI V ،42 (1. 13-14).

(٥٨) KRI IV ،6 (1. 1-2).

(٥٩) KRI IV ،16 (1. 1-2).

(٦٠) KRI I ،9 (1. 4-6).

(٦١) KRI II ،88 (1.9 et 16) -89 (1.4 et 6).

(٦٢) KRI V ،63 (1.6 -10).

(٦٣) KRI V ،70 (1. 7-8).

(٦٤) KRI V ،69 (1.6).

(٦٥) KRI IV ،36 (1.1).

(٦٦) KRI V ،57 (1. 13-14).

(٦٧) KRI V ،64 (1. 11-14).

(٦٨) KRI V ،69 (1. 12-13).

(٦٩) KRI V ،23 (1. 6-8).

KRI V ،302 (1. 12-13). (٧٠)

KRI V ،63 (1. 14-15) -64 (1.1). (٧١)

KRI IV ،37 (1.5 et 8). (٧٢)

KRI V ،13 (1.8). (٧٣)

KRI II ،344 (1.15) -345 (1. 1-6). (٧٤)

KRI V ،27 (1. 6-7). (٧٥)

KRI V ،25 (1. 3-4). (٧٦)

KRI V ،21 (1. 14-15) -22 (1.1) (٧٧)

KRI V ،34 (1. 12-14) -36 (1. 14-15). (٧٨)

KRI II ،186 (1. 8-9). (٧٩)

KRI V ،89 (1. 10). (٨٠)

KRI I ،99 (1. 2-4). (٨١)

KRI V ،27 (1.4). (٨٢)

KRI V ،291 (1. 10-14). (٨٣)

KRI V ،83 (1.15) -84 (1.1). (٨٤)

KRI V ،41 (1. 11-12). (٨٥)

(١) راجع فيما سبق: الباب الأول، الفصل الثالث، الأماكن المقدسة، بنيتها الهيكلية وفلسفتها.

(٢) KRI I ،60 (1. 8-14) -61 (1. 1-2).

(٣) KRI I ،201 (1. 14-15).

(٤) Chevrier-Drioton ،Le temple-reposoir de Séthi II à Karnak- Le Caire ،1940.

(٥) Chevrier ،Le temple-reposoir de Ramsès III à Karnak- Le Caire ،1933.

(٦) راجع فيما سبق: الباب الأول، الفصل الثانى، رعمسيس الكبير، زمن الأبطال، معركة قادش.

(٧) Smith: Ramesses II ،p.27.

(٨) P. Barguet ،L'Empire de conqurants ،p.34.

(٩) M. Abdulla El Sayed ،A new temple for Hathor at Memphis ،Warminster 1978, 21 p., xix pl.

(١٠) Bakry ،in Aegyptus ،1973 ،vol. 53 ،pp. 3-21.

(١١) راجع فيما بعد: الباب الثانى، الفصل الثالث، الترانيم.

(١٢) Macadam ،Temples of Kawa. London ،Oxford University press, 1949-1955, vol. II, p.33, fig 6 et 7.

(١٣) Fairman ،in J.E.A. ،1939 ،vol. 25 ،p.139 et suiv.

(١٤) Vercoutter ،in Kush ،1963 ،vol. 11 ،p.131 et suiv. Rosenwasser ،ibid. ،1964 ،vol. 12 ،p.96 et suiv.

(١٥) L.A. Christophe ،Abou-Simbel et l'épopée de sa découverte ،Bruxelles, 1965, ،270 pp.

(١٦) KRI II ،769 (1. 3-4).

(١٧) نقلاً عن: D. Meeks ،in Guide Bleu ،p.705

(١٨) Ibid. ،p.703.

(١٩) راجع فيما سبق: الباب الأول، الفصل الثالث، مناجم الذهب.

(٢٠) KRI I ،167 (1. 12-13).

(٢١) KRI I,168 (1.8).

(٢٢) «**الكائن الكامل**»، هو اسم **أوزيريس**.

(٢٣) من أسماء **حورس**: KRI I,167 (1. 1-2)

(٢٤) KRI I ،149 (1.6).

(٢٥) KRI I ،156 (1. 3-5).

(٢٦) H. Frankfort ،Cenotaph of Sethi I p.72 et suiv.

(٢٧) راجع فيما سبق: الباب الأول، الفصل الرابع، نهب المقابر الملكية وسرقتها.

(٢٨) عن المباني التى شيدها **الرعامسة**، سيجد المرء عظيم الفائدة فى الرجوع إلى:

P. Barguet ،in L'Empire des conquérants ،p.9-65.

D. Meeks ،Guide bleu Paris ،Hachette ،1971.

عن دراسة المواقع يمكن الرجوع إلى: Lexikon der ägyptologie

وإلى إصدارات **مركز تسجيل الآثار بالقاهرة**. ولا سيما عن **عمدا** و**جرف حسين**.

(١) راجع فيما سبق: الباب الثانى، الفصل الثانى، **الرعامسة فى النوبة وفى السودان.**

(٢) المياه الأزلية الأصلية أو مياه الفيضان السنوية.

(٣) (حتى السطر التاسع) –89 (من السطر السادس) KRI I, 85

P. Barguet ،in B.I.F.A.O. ،1952 ،vol. 51 ،pp. 144 ،164.

(٤) راجع فيما سبق: الباب الأول. الفصل الثالث: أولاً: من أجل روحانية عالمية. وثانياً: الملكات الثلاث.

(٥) Zandee ،De hymnen ،pl. II. (1. 2-10.

(٦) المرجع نفسه: (pl. II (1. 15-20

(٧) المرجع نفسه: (pl. III (1. 14-22

(٨) مدونة فى **الكرنك** (KRI V, 222 (1. 1-5

(٩) KRI I ،330 (1. 9-16).

(١٠) A. Piankoff ،Litany ،p.22 et suiv. ،et pl.3.

(١١) KRI II ،657 (1. 4-4).

(١٢) راجع فيما سبق: الفصل الثالث، خامساً: نشيدا الإمبراطورية فى **مدينة هابو.**

(١٣) إلهتان تشاركان فى الولادة أو إعادة الولادة.

(١٤) أشرطة الكتان.

(١٥) KRI IV ،68-69.

J. Assmann ،in M.D.A.I.K. ،1972 ،vol. 28 ،pp. 47-73.

(١٦) راجع فيما سبق: الباب الأول، الفصل الرابع، المقاطع الأخيرة من الانتصارات الأولى على **شعوب البحر**

(١٧) راجع فيما سبق: الباب الأول، الفصل الرابع، سادساً عهود بلا أمجاد.

(١٨) KRI I ،357-359.

راجع: J.J. Clère ،in Z.A.S. ،1959 ،vol. 84 ،pp. 86-104

(١٩) أول من أنجبهم الإله **رع** فى تاسوع **هليوبوليس**.

(٢٠) لا يتعلق الأمر هنا بأحد أساليب الخلق، بل بتقارب صوتى بين كلمة **رمت** أى البشر، وكلمة **رميت** أى الدموع.

(٢١) **عين رع**، هى عنصر مهم فى الشخصية الإلهية، ففى وسعها أن تتخذ شكل العديد من الآلهة: **حتحور وتفنوت**.

(٢٢) إنها على ما يعتقد مادة تُصبغ بالحمرة.

(٢٣) عند دراسة الحكايات والشعر، نقلت بعض الفقرات من كتاب:

Claire Lalouette: literature égyptienne. Paris. P.U.F. ،1981. (coll. Que sais-je?)

(وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية: كلير لالويت. الأدب المصرى القديم. ترجمة ماهر جويجاتى. دار الفكر. القاهرة. ١٩٩٢ – المترجم).

(٢٤) عن أصل كل هذه النصوص يمكن الرجوع إلى:

P. Gilbert ،La Poésie égyptienne. Bruxelles ،1943.

(٢٥) مصيدة العصافير.

المراجــع

لا تهدف قوائم المراجع المذكورة فيما بعد، أن تكون شاملة.

وتخص القائمة الأولى، المراجع التى ذكرت مختصرة فى سياق الهوامش، وتحديداً تلك التى ذكرت أكثر من مرة, أما المراجع التى لم تذكر سوى مرة واحدة فقد تم توضيحها فى سياق الهامش ذاته.

يلى ذلك، قائمة بأهم الدوريات المستخدمة وقائمة بالكتب ذات المنفعة العامة وقد تفيد القارئ الشغوف بالمعرفة.

أ . مراجع ذكرت مختصرة

BARGUET : *L'Empire des conquérants.*
Le monde égyptien. Les Pharaons. Vol. II. *L'Empire des conquérants.* Paris, Gallimard, 1979. (L'architecture, par Paul Barguet, pp. 9-65.)

BOESER : *Beschreibung Leiden.*
Beschreibung der aegyptischen Sammlung des niederländischer Reichsmuseum der Altertümer in Leiden. Haag, Nijhoff, 1905-1920, 11 vol.

BRUYÈRE : *Rapport de fouilles.*
BRUYÈRE (Bernard) : *Rapport sur les fouilles de Deir el Medineh.* Le Caire, Institut français d'archéologie orientale, 1926 à 1953.

C.L. *Textes.*
LALOUETTE (Claire) : *Textes sacrés et textes profanes de l'ancienne Égypte.* Paris, Gallimard, 1984 ; 345 pages. (Collection UNESCO d'œuvres représentatives)[1].

DERCHAIN : *El Kab.*

1. Quelques extraits de cet ouvrage ont été reproduits avec l'autorisation de l'UNESCO.

DERCHAIN (Philippe) : *El Kab. Les monuments religieux à l'entrée de l'Ouady Hellal.* Bruxelles, 1971 ; X.+91+25 pages, 33 pll., 3 plans. (Publications du Comité de fouilles belges en Égypte.)

ERICHSEN : *Pap. Harris.*

ERICHSEN (W.) : *Papyrus Harris I. Hieroglyphische Transkription.* Bruxelles, Fondation égyptologique Reine Élisabeth 1933 ; 100 pages. (Coll. Bibliotheca Aegyptiaca,vol. V).

FRANKFORT : Cenotaph of Seti I.

FRANKFORT (Henry) : *The Cenotaph of Seti I at Abydos.* Londres, 1933, 2 vol. (vol. I : 96 pp. ; vol. II : 93 pll.) (Memoir of the Egypt Exploration Society, nº 39).

GARDINER : *Late Egyptian Miscellanies.*

GARDINER (Alan H.) : *Late Egyptian Miscellanies.* Bruxelles, Fondation égyptologique Reine Élisabeth, 1937 ; 142 pages. (Coll. Bibliotheca Aegyptiaca, vol. VII).

GAUTHIER : *Fêtes du dieu Min.*

GAUTHIER (Henri) : *Les fêtes du dieu Min.* Le Caire, Institut français d'archéologie orientale, 1931 ; 315 pages, XIV pll.

GOEDICKE : *Nofretari.*

GOEDICKE (Hans) : *Nofretari. A documentation of her Tomb and its decoration.* Gray (Austria), Akademische Druck u. Verlagsanstalt, 1970 ; 56 + VIII pages, 67 pll.

GOMAA : *Chaemwese.*

GOMAA (Farouk) : *Chaemwese Sohn Ramses'II und Hoher Priester von Memphis.* Wiesbaden, Harrassowitz, 1973 ; XII + 137 pages.

GOYON : *Nouvelles inscriptions.*

GOYON (Georges) : *Nouvelles inscriptions rupestres du Wadi Hammamat.* Paris, Maisonneuve, 1957 ; XII + 191 pages, 52 pll.

GRIMAL : *Dictionnaire de la mythologie.*

GRIMAL (Pierre) : *Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine.* Paris, Presses Universitaires de France, 5ᵉ éd. 1976 ; 575 pages.

HABACHI : *Sixteen Studies.*

HABACHI (Labib) : *Sixteen Studies on Lower Nubia.* Le Caire, Institut français d'archéologie orientale, 1981 ; 282 pages, 5 pll. (Supplément aux Annales du Service des Antiquités de l'Égypte, Cahier nº 23.)

KITCHEN : *Pharaoh triumphant.*

KITCHEN (Kenneth A.) : *Pharaoh triumphant. The life and times of Ramses II.* Warminster, Aris and Phillips, 1982 ; 272 pages, figg.

KRI

KITCHEN (Kenneth A.) : *Ramesside Inscriptions.* Oxford, Blackwell. Grande publication (en caractères hiéroglyphiques) de tous les textes d'époque ramesside. Commencée en 1969, elle se poursuit encore. 6 volumes sont actuellement parus :

— Vol. I : Textes de Ramsès Ier, Séthi Ier et contemporains. — 8 fascicules, 416 pages.

— Vol. II : Ramsès II : inscriptions royales — 24 fascicules, 928 + XXXII pages.

— Vol. III : Ramsès II : les contemporains — 28 fascicules, 848 + XXXII pages.

— Vol. IV : Merenptah et la fin de la XIXe dynastie — 15 fascicules, 448 + XXXII pages.

— Vol. V : Sethnakht, Ramsès III et contemporains — 19 fascicules, 672 + XXXII pages.

— Vol. VI : De Ramsès IV à Ramsès XI et contemporains — 28 fascicules sont actuellement publiés (880 pages). A poursuivre.

LEFEBVRE : *Grands prêtres.*

LEFEBVRE (Gustave) : *Histoire des grands prêtres d'Amon de Karnak jusqu'à la XXIe dynastie.* Paris, Geuthner, 1929 ; 303 pages, 5 pll.

LEXIKON

Lexikon der Agyptologie. Wiesbaden, Harrassowitz. Publication commencée en 1975. 4 volumes sont déjà parus, ainsi que quelques fascicules du 5e.

MALININE-VERCOUTTER : *Catalogue.*

MALININE (Michel), POSENER (Georges), VERCOUTTER (Jean) : *Catalogue des stèles du Sérapeum de Memphis.* Paris, Imprimerie nationale, 1968.

MARIETTE : *Sérapeum.*

MARIETTE (Auguste) : *Le Sérapeum de Memphis.* Paris, Gide, 1857 ; 30 pages, 36 pll.

MEEKS : *Guide bleu.*

MEEKS (Dimitri) et FAUVEL (Jean-Jacques) : *Égypte. Le Nil égyptien et soudanais du Delta à Khartoum.* Paris, Hachette, 1971 ; 787 pages, cartes et plans. (Coll. « Les guides bleus »).

MORET : *Rituel.*

MORET (Alexandre) : *Le rituel du culte divin journalier en Égypte.* Paris, Leroux, 1902 ; 288 pages.

MOURSI : *Hohenpriester des Sonnengottes.*

MOURSI (Mohamed I.) : *Die Hohenpriester des Sonnengottes von der Frühzeit Agyptens bis zum Ende des Neuen Reiches.* München-Berlin, Deutscher Kunstverlag, 1972 ; 186 pages, XVI pll. (Münchner Agyptologische Studien, Heft 26).

NELSON : *Medinet-Habou.*

NELSON (Harold H.) et collab. : *Medinet-Habu.* Chicago, The Uni-

versity of Chicago Press, 1930-1970, 8 vol. (The University of Chicago. Oriental Institute Publications).

PIANKOFF : *Litany.*

PIANKOFF (Alexandre) : *The Litany of Rê. Texts translated with commentary.* New-York, Bollingen Foundation, 1964 ; 182 pages, pll. (Bollingen Series, XL, 4).

PORTER-MOSS.

PORTER (Bertha) and MOSS (Rosalind) : *Topographical Bibliography of ancient Egyptian texts, reliefs and paintings.* Oxford, The Clarendon Press, 1934 à 1974, 8 vol.

RAD.

GARDINER (Alan H.) : *Ramesside administrative documents.* Oxford, Oxford University Press, 1948 ; XXV + 102 pages, figg.

SANDARS : *Sea Peoples.*

SANDARS (N. K.) : *The Sea Peoples. Warriors of the ancient Mediterranean.* London, Thames and Hudson, 1978 ; 224 pages, pll.

SAUNERON : *Égypte.*

SAUNERON (Serge) : *Nous partons pour l'Égypte.* Paris, Presses Universitaires de France, 1980 ; 239 pages, ill.

SMITH : *Ramesses II.*

SMITH (John D.) : *Ramesses II. A chronological structure for his reign.* Baltimore and London, The John Hopkins University Press, 1973 ; VIII + 216 pages. (The John Hopkins Near Eastern Studies).

URK.

Urkunden des aegyptischen Altertums. Leipzig, J. C. Hinrichs'sche Buchhandlung, 1932-1961 ; VIII vol.

ZANDEE : *De hymnen.*

ZANDEE (J.) : *De hymnen aan Amon van Papyrus Leiden I 350.* Leiden, Rijksmuseum van Oudheiden, 1947 ; 158 pages, XXXI pll.

ب- دوريات ذكرت مختصرة

AEGYPTUS

Aegyptus. Rivista italiana di egittologia e di papirologia. Milano, Universita Cattolica.

ASAE

Annales du Service des antiquités de l'Égypte. Le Caire, Imprimerie de l'Institut français d'archéologie orientale.

BIFAO

Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale du Caire. Le Caire.

BSFE

Bulletin de la Société française d'égyptologie. Paris.

CE

Chronique d'Égypte. Bruxelles, Musées royaux d'art et d'histoire.

JAOS

Journal of the American Oriental Society. Newhaven (Connecticut), Yale University Press.

JCS

Journal of Cuneiform Studies. Cambridge (Massachusett), American School of Oriental Research.

JEA

Journal of Egyptian Archaeology. London, Egypt Exploration Fund.

JKF

Jahrbuch für Kleinasiatische Forschung. Ankara.

JNES

Journal of Near Eastern Studies. Chicago, University of Chicago Press.

KÊMI

Kêmi. Revue de philologie et d'archéologie égyptiennes et coptes. Paris, Geuthner.

KUSH

Kush. Journal of the Sudan Antiquities Service. Khartoum, Sudan Antiquities Service.

MDAIK

Mitteilungen des Deutschen Archäologische Instituts abteilung Kairo. Wiesbaden, Harrassowitz.

RÉ

Revue d'égyptologie. Paris et Louvain.

SYRIA

Syria. Revue d'art oriental et d'archéologie. Paris, Geuthner.

ZA

Zeitschrift für Assyriologie und Vorderasiatische Archäologie. Berlin-New York, Walter De Gruyter.

ZÄS

Zeitschrift für ägyptische Sprache und Altertumskunde. Leipzig, Hinrichs.

ZDMG

Zeitschrift der deutschen Morgenländischen Gesellschaft. Wiesbaden, Frank Steiner Verlag.

جـ- مراجع ذات منفعة عامة

BARGUET (Paul) : *Le temple d'Amon-Rê à Karnak. Essai d'exégèse.* Le Caire, Institut français d'archeologie orientale, 1962 ; 368 pages, XLII pll. (Recherches d'archéologie, de philologie et d'histoire, tome XXI).

The Cambridge Ancient History. 3rd. edition. Vol. II, Part 2 : *History of the Middle East ant the Aegean region c. 1380-1000 B. C.* Cambridge, University Press, 1975 ; XXIII + 1128 pages.

DAUMAS (François) : *La civilisation de l'Égypte pharaonique.* Paris, Arthaud, 1965 ; 686 pages, ill.

GARELLI (Paul) : *Le Proche-Orient asiatique. Des origines aux invasions des Peuples de la mer.* Paris, Presses Universitaires de France, 1969 ; 377 pages. (Coll. Nouvelle Clio, vol. 2).

HELCK (Wolfgang) : *Die Beziehungen Ägyptens zu Vorderasien im 3 und 2 Jahrtausend v. Chr.* Wiesbaden, Harrassowitz, 2e éd. 1971 ; IX + 611 pages.

LALOUETTE (Claire) : *La littérature égyptienne.* Paris, Presses Universitaires de France, 1981 ; 128 pages. (Coll. « *Que sais-je ?* », n° 1909).

LEFEBVRE (Gustave) : *Romans et contes égyptiens de l'époque pharaonique.* Paris, Maisonneuve, 1949 ; XXVII + 233 pages.

MORET (Alexandre) : *Le Nil et la civilisation égyptienne.* Paris, Renaissance du livre, 1926 ; XVII + 573 pages, XXIV pll.

POSENER (Georges), SAUNERON (Serge), YOYOTTE (Jean) : *Dictionnaire de la civilisation égyptienne.* Paris, Hazan, 2e éd. 1970 ; 324 pages.

SAUNERON (Serge) : *Les prêtres de l'ancienne Égypte. Paris,* Éd. du Seuil, 1967 ; 192 pages.

SCHARFF (Alexander), MOORTGAT (Anton) : *Ägypten und Vorderasien im Altertum.* München, Verlag F. Bruckmann, 1950 ; 535 pages.

STEINDORFF (Georg), SEELE (Keith C.) : *When Egypt ruled the East.* Chicago, University of Chicago Press, 2e éd. 1957 ; XVIII + 289 pages, ill.

VANDIER (Jacques) : *Manuel d'archéologie égyptienne.* Paris, Librairie Picard, 1952-1978, 6 vol.

المؤلفة فى سطور:

كلير لالويت

Claire Lalouette

- من كبار علماء المصريات الفرنسيين.
- شغلت منصب أستاذة علم المصريات بجامعة **السوربون**.
- كما كانت من الأعضاء البارزين فى **المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة** IFAO.
- متخصصة فى الأدب المصرى القديم.
- سبق للمترجم أن نقل لها، إلى العربية بعض أشهر ما ألفته فى هذا الموضوع:
  - «الأدب المصرى القديم». دار الفكر. ١٩٩٢.
  - «نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة» فى مجلدين. دار الفكر. ١٩٩٦.
  - «طيبة أو نشأة إمبراطورية». المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة. ٢٠٠٥.

المترجم فى سطور:

ماهر جويجاتى

- من مواليد ١٩٣٣. حاصل على ليسانس فى الأدب الفرنسى. جامعة القاهرة، عام ١٩٥٤.
- ترجم حتى الآن ١٩ كتابًا من الفرنسية إلى العربية فى مجال علم المصريات.
- من أهم ترجماته المنشورة:
  - الناس والحياة فى مصر القديمة. ١٩٨٩.
  - المومياوات المصرية، فى مجلدين، ١٩٩٧-١٩٩٩.
  - حضارة مصر الفرعونية. ١٩٩٨.
  - المعجم الوجيز فى اللغة المصرية القديمة بالخط الهيروغليفى. ١٩٩٩.
  - عصور ما قبل التاريخ فى مصر. ٢٠٠١.

(وبمناسبة ترجمة هذا الكتاب حصل المترجم على منحة من وزارة الثقافة الفرنسية لقضاء شهر فى فرنسا).

- معجم الأساطير المصرية. ٢٠٠١.
- العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة. ٢٠٠٥.

(وبمناسبة ترجمة هذا الكتاب حصل المترجم على منحة من وزارة الثقافة الفرنسية لقضاء شهر فى فرنسا).

- أمنحوتب الثالث. ٢٠٠٥.

التصحيح اللغوى: مسعود حجازى

الإشـراف الفنى: حســـن كــامل